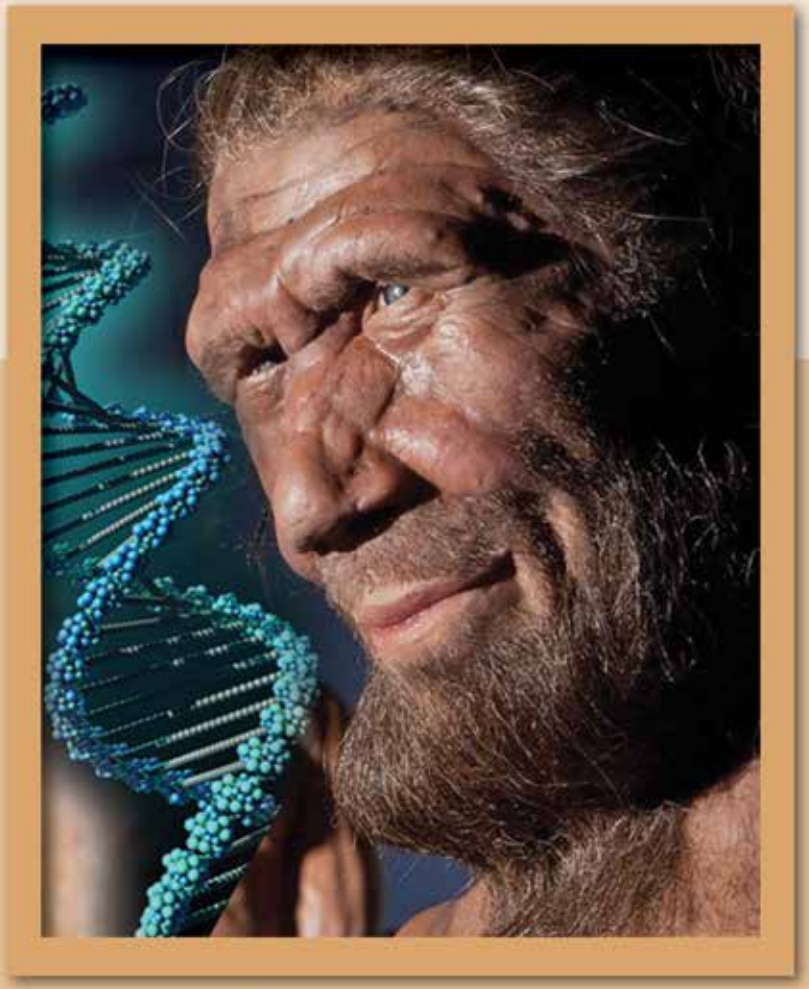


في عمق التاريخ

الجزء الثاني

دراسات مقارنة لقصص الأنبياء
في القرآن والكتاب المقدس

الشيخ علي حسن غلوم

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

من مطبوعات

مسجد سيد هاشم بهبهاني - الكويت

تلفون : ٢٥٤٢٧٦٦٧ - ٢٥٤٢٧٩٩٧

فاكس : ٢٥٤٢٨٥٥٨

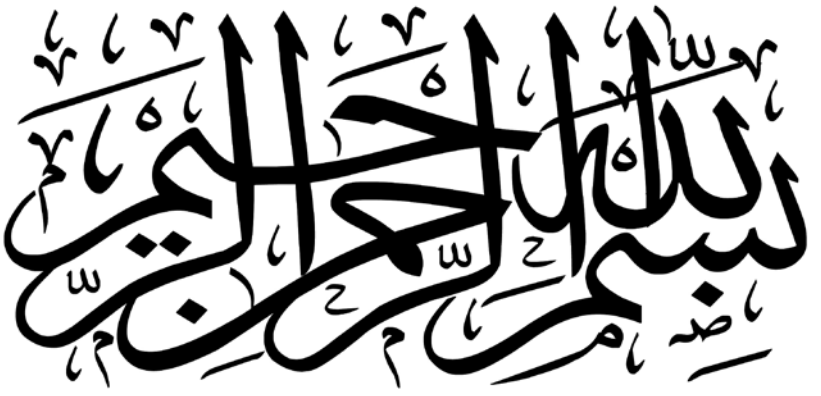
Email: alwalaa66@yahoo.com

الشيخ
علي حسن غلوم

في عُمق التاريخ

الجزء الثاني

دراسات مقارنة لقصص الأنبياء
في القرآن والكتاب المقدّس


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

- **مقدّمة بقلم المؤلف** ٩
- **مسائل مهمة** ١٥

مفهوم النبوة ١٧
طبيعة التلمود وأهميته ٢٠
تفسير القمي في الميزان ٢٣
القيمة العلمية للتواتر ٢٤

١. من هو آدم؟ ٣٣

خلق آدم في العهد القديم ٤١
خلق آدم في القرآن الكريم ٤٤
خلق آدم في روايات الإمامية ٥٣
خلق آدم في روايات أهل السنة ٧٠
جينولوجيا الحمض النووي ٨٤
الجد الأكبر لكل المجموعات الفردانية ٨٧
رمزية القصة القرآنية ٩٤

٢. عمر النبي نوح ١١٧

مقارنة بين القرآن والتوراة والروايات ١١٩
خصوصية التعبير بألف سنة إلا خمسين عاما ١٢٨
هل كان عمر النبي نوح استثنائيا ؟ ١٣١
عرض ومناقشة الاحتمال الأول ١٣٥
عرض ومناقشة الاحتمال الثاني ١٤١
عرض ومناقشة الاحتمال الثالث ١٤٢
عرض ومناقشة الاحتمال الرابع ١٤٣
عرض ومناقشة الاحتمال الخامس ١٥٨
خاتمة ١٥٨

٣. ديار النبي لوط ١٥٩
بحيرة لوط ١٦٢
ديار لوط في الكتاب المقدس ١٦٦
الحرب بين الممالك العربية ١٦٩
النبي إبراهيم يخوض الحرب ١٧٠
ولادة النبي إسماعيل ١٧٢
التكريم الإلهي ١٧٣
البشارة والإنذار ١٧٣
الجريمة الكبرى ١٨٠
كيف يكون لوط أخاهم؟ ١٨٩
إنزال العذاب ١٩٨
وصف العذاب المدمِّر ٢٠٢
اكتشاف الموقع ومصدر الكارثة ٢٠٦
٤. هامان ٢٠٩
سِفر إستير ٢١٨
الدِقة في القرآن ٢٢٢
هامان في التراث الفرعوني ٢٣٥
نهاية هامان ٢٤٥
٥. الطعام الكوشر ٢٤٩
نسخ التشريع ٢٥٩
في سِفر اللاويين ٢٦٠
في سِفر التثنية ٢٦١
فلسفة نسخ التشريع ٢٦٢
نتيجة المقارنة ٢٦٣
ماذا حرّم يعقوب على نفسه؟ ٢٦٤
تحريم الشحوم ٢٧٤
تحريم أكل اللحم مع اللبن ٢٧٩
المنسَف الأردني ٢٨٢

إلغاء التشريع عند المسيحيين ٢٨٣
المسلمون وتحريم الطعام ٢٨٤
٦. بلعام بن بعور ٢٩٥
شخصية بلعام في الكتاب المقدس ٣٠٣
قصة بلعام في الكتاب المقدس ٣١٢
نهاية بلعام في الكتاب المقدس ٣٢٥
بلعام في بعض الأدبيات اليهودية ٣٢٧
تأويل الآيتين في تفسير الطبري ٣٢٩
تأويل الآيتين في تفسير القرطبي ٣٤١
تأويل الآيتين في بعض المصادر الإمامية ٣٤٣
بلعام في نقش أثري مكتَشَف ٣٤٥
خاتمة ٣٥٢
٧. شبر وشبير ٣٥٣
في مرويات أهل السنة ٣٧٦
في المعاجم اللغوية ٣٧٧
قراءة في الكتاب المقدس ٣٧٧
المحاولة التصحيحية الأولى ٣٨١
المحاولة التصحيحية الثانية ٣٨٢
النتائج المستخلصة ٣٩٧
٨. آصف بن برخيا ٤٠١
خلاصة القصة ٤٠٤
مقولات ومرويات الإمامية ٤١٠
مقولات ومرويات أهل السنة ٤١٢
التحقيق في المسألة ٤١٥
وهب بن منبه ٤١٦
قراءة في مصادر أهل الكتاب ٤٢٥
مفهوم النبوة ٤٢٨
تفسير الحدث ٤٣١

٩. قصة أصحاب السبت ٤٤٥
التحديد الجغرافي ٤٤٨
التحديد الزمني ٤٥٣
التأويل بالرأي ٤٥٤
تشريع السبت في التنخ ٤٥٧
صور من التمرّد على تشريع السبت ٤٦١
القصة في مرويات المسلمين ٤٦٨
القصة لدى أهل الكتاب ٤٨٣
تأويل المسخ ٤٩٥
١٠. الإسراء والمعراج ٥٠٧
نبذة عن سورة الإسراء ٥١٥
حادثة الإسراء في الوصف القرآني ٥١٥
هل للمعراج ذِكر في القرآن؟ ٥١٦
المعراج في الرِوايات ٥٢٢
تكرار الإسراء والمعراج ٥٣٩
هل تم الإسراء بالجسد؟ ٥٤٠
هل تُعدّ حادثة الإسراء معجزة؟ ٥٤٢
شقّ الصدر وغَسل الأحشاء ٥٤٩
سدرة المنتهى ٥٥٥
البُراق ٥٦١
أنهار متصلة من السماء إلى الأرض ٥٦٥
تشريع الصلاة اليومية ٦٧١
تقرير مصير الأمة ٥٧٢
التوظيف المذهبي ٥٧٤
هل المراد من المسجد الأقصى مسجد بيت المقدس؟ ٥٨٥
المسجد الحرام أم بيت أم هانئ؟ ٥٨٧
خاتمة ٥٨٨
- **مصادر الكتاب وإصدارات المؤلف** ٥٩١

مقدّمة

بقلم المؤلف

مقدّمة

بقلم المؤلف

الحمد للّه العَليِّ عن شَبَه المخلوقين، الغالبِ لمَقالِ الواصفين، الظاهرِ بعجائب تدبيرِه للناظرين، الباطنِ بجلالِ عِزّته عن فِكر المتوهّمين، العالمِ بلا اكتسابٍ ولا ازدياد، والمقدِّرِ لجميعِ الأمورِ بلا رَويّة ولا تِرداد.

ثم الصلاة والسلام على الخاتِم لما سبَق، والفاتِح لما انغلَق، والمُعلِنِ الحقَّ بالحقِّ، محمد، وعلى آله الطّاهرين، دعائمِ الإسلام، وولائجِ الاعتصام، الذين بهم يعيشُ العِلم، ويموتُ الجَهل، وينزاحُ الباطل، وعلى جميع النبيّين والمرسلين والصّدّيقين.

هذا هو الجزء الثاني من كتاب «في عمق التاريخ»، وقد جاء الجزء الأول منه تدويناً للمحاضرات التي قدّمتها خلال شهر رمضان من عام ١٤٣٩هـ في مسجد سيد هاشم بهبهاني في الكويت، مع بعض الإضافات، فكان المجموع خمسة عشر بحثاً متنوّعاً تناولت فيها موضوعات قرآنية ارتبطت بتاريخ النبيَّين إبراهيم وإسماعيل «عليهما السلام» ثم بني إسرائيل مع بعض أنبيائهم، وقضايا أخرى متفرّقة.

وفي شهر رمضان من عام ١٤٤٠ هـ طرحت موضوعات أخرى، جاء اثنان منها استجابةً لطلبِ بعض الأعزاء مِن علماء الكويت، فكان مجموع ما طُرح

خلال الموسم الرمضاني خمسة موضوعات هي كالتالي:

١. من هو آدم؟

٢. عمر النبي نوح.

٣. شبر وشبير.

٤. آصف بن برخيا.

٥. قصة أصحاب السبت.

ثم أضفت - خلال إعدادي هذا الكتاب - خمسة موضوعات أخرى كنت قد ألقيت بعضها بشكل جزئي ضمن محاضرات مختلفة، وهي كالتالي:

١. ديار النبي لوط.

٢. هامان.

٣. الطعام الكوشر.

٤. بلعام بن بعور.

٥. الإسراء والمعراج.

فالمجموع عشرة موضوعات غطّت مجموعة أخرى من قصص الأنبياء والأمم السالفة، ومن خلال أسلوب عرض وبحث متشابه تقريباً من حيث محاولة تغطية الآيات والروايات الواردة بهذا الشأن في التراث الإسلامي، مع مقارنة كل ذلك بما ورد في مصادر أهل الكتاب بما يشمل العهدين القديم «التنخ» والجديد والتلمود وغيرها من المصادر القديمة والحديثة بالإضافة إلى بعض الدراسات العلمية والتاريخية والآثارية المعاصرة.

وقد سألني بعض الأعزاء عن سبب عدم حسم النتائج في بعض البحوث

الواردة في الجزء الأول من الكتاب، وهو ما سيتكرر هنا أيضاً في بعض البحوث، وهذا إنما يعود إلى أن من الصعب الجزم في تأويل بعض الآيات وادّعاء القطع بمعرفة ما المراد منها وتحديد الشخصيات المعنية والأزمنة التي جرت فيها الأحداث، والله «سبحانه» يقول: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[1]، وإن سعيت في الأثناء أن أقترب من الحقيقة قدر الإمكان من خلال بعض القرائن والشواهد مع ترك المجال للقاريء كي يبني لنفسه قناعةً حول الموضوع، سواء من خلال ما تم عرضه، أو من خلال استمراره في البحث والتحقيق والمناقشة إلى أن يصل إلى نتيجةٍ ما، أو يتوقّف في المسألة ويُرجع علمها إلى الله «عز وجل».

وكما وضعت في الجزء الأول تمهيداً حول طبيعة الكتاب المقدّس عند اليهود والنصارى باعتبار أن العديد من المصطلحات والأسماء الواردة فيها قد تكون جديدة بالنسبة إلى كثير من القراء الأعزاء، كذلك فقد وضعت في بداية الجزء الثاني تمهيداً تناولت فيه أربع مسائل هامة لها ارتباط ببعض بحوث هذا الجزء، وهي تتعلّق بمفهوم النبوة لدى أهل الكتاب مقارنة بمفهومها الإسلامي، وطبيعة التلمود وأهميته بالنسبة إلى أتباع الشريعة الموسوية، والقيمة العلمية لتفسير علي بن إبراهيم القمي باعتباره من أهم مصادر الروايات التفسيرية لدى الشيعة الإمامية، وكذلك القيمة العلمية للتواتر بلحاظ أنه من العوامل

١. سورة آل عمران: ٧.

المحتملة لتقوية الروايات ونقلها من مصاف الروايات الظنية إلى الروايات المؤكّد صدورها عن النبي «صلى الله عليه وآله» أو الإمام «عليه السلام». هذه المسائل الأربع كانت مطروحة في البدء ضمن نفس البحوث، ولكن لتكرر الحاجة إليها في أكثر من بحث، ولأن القاريء قد يبدأ بمطالعة إحدى البحوث المتأخرة ولا يلتفت إلى أن جزء من معالجة الموضوع يرتبط بواحدة من هذه المسائل، لذا فقد فضّلت عرضها في البداية تحت عنوان مسائل مهمة، أملاً في أن يبدأ القاريء بها، ومن ثمَّ ينتقل لمطالعة أي بحثٍ شاء. وكما لم أدرِ أنني سأكتب جزءً ثانياً من هذا الكتاب إلا بعد طباعة الجزء الأول، وهذا ما جعله بلا ترقيم على الغلاف الخارجي والداخلي، كذلك فإنني لا أعلم ما إذا كنت سأتناول في محاضراتي القادمة - إن أبقاني الله - موضوعات أخرى من القرآن الكريم، وبنفس المنهج والأسلوب، لتمثّل نواةً لجزء ثالث لهذا الكتاب، ولربما يثير بعض الإخوة الأعزاء تساؤلات أو اقتراحات تستدعي ذلك... والله أعلم بمآلات الأمور.

أسأل الله «عز وجل» أن يتقبّل هذا العمل الذي أردتُ من خلاله أن أساهم في تنقية التراث الإسلامي مما دخل عليه من روايات وأقوال وتفاسير مكذوبة ولأسباب متعددة، أو على الأقل أن أفتح أبواب التفكير والنقاش فيها لما لها من مدخلية في فهم كتاب الله العزيز، وتعزيز مرجعيته الفكرية والعلمية.

ختاماً، أسأل الله «عز وجل» القبول والعفو.

علي حسن غلوم علي

الكويت / ١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

مدخل

مسائل مهمة

مدخل

مسائل مهمة

• **مفهوم النبوة:**

سيتكرر معنا في بحوث هذا الكتاب عنوان النبوة/النبي عند اليهود والنصارى وفي نصوص كتبهم المقدسة وشروحاتها، وعند البحث في مفهوم النبوة/النبي لديهم، سنجد أنهما لا يرادفان مفهومهما في الإسلام.

في قاموس موقع Injeel تحت عنوان «نَبِيَّ، أَنْبِيَاءَ، نُبُوَّة» نجد ما يلي: (النبي هو من يتكلم أو يقول عما يجول في خاطره، دون أن يكون ذلك الشيء من بنات أفكاره، بل هو من قوة خارجة عنه، قوة الله عند المسيحيين والعبرانيين والمسلمين، وقوة الآلهة المتعددة عند عباد الأصنام والوثنيين. وقد عَرف النبواتِ المزيفة – أي أنبياء الآلهة الوثنية – معظمُ أتباعِ تلك الآلهة من عبّاد الأصنام، مثل الأشوريين والكلدانيين والمصريين والفينيقيين واليونان الرومان، وكان الكهنة كثيراً ما يقومون بالنبوة بطرق مختلفة) أي يتنبّئون ويتحدثون عن الغيب والمستقبل (وكان الناس يؤمنون بكلامهم ويستشيرونهم في كل أمور حياتهم. وعليهم كانت تتوقف الفتوحات العسكرية والقرارات السياسية. وكانوا كالعرافين والمنجمين ومدّعي الغيب اليوم)[1].

1. injeel.com/Kamous.aspx?ltr=25&wrd=21

أي يمكن إطلاق مصطلح «نبي» على غير المبعوث من عند الله، بما يشمل الكاهن والعراف والساحر ومفسّر الأحلام والمتنبّيء. ومن هنا نجد إطلاق هذا العنوان على أصناف متعددة من الناس في التاريخ الديني اليهودي، بل وحتى المسيحي.

ففي سفر «إرميا» مثلاً نجد العبارات التالية: (.... لأَنَّ الأَنْبِيَاءَ وَالْكَهَنَةَ تَنَجَّسُوا جَمِيعًا، بَلْ فِي بَيْتِي وَجَدْتُ شَرَّهُمْ، يَقُولُ الرَّبُّ. لذلكَ يَكُونُ طَرِيقُهُمْ لَهُمْ كَمَزَالِقَ فِي ظَلاَمٍ دَامِسٍ، فَيُطْرَدُونَ وَيَسْقُطُونَ فِيهَا، لأَنِّي أَجْلِبُ عَلَيْهِمْ شَرًّا سَنَةَ عِقَابِهِمْ، يَقُولُ الرَّبُّ. وَقَدْ رَأَيْتُ فِي أَنْبِيَاءِ السَّامِرَةِ حَمَاقَةً. تَنَبَّأُوا بِالْبَعْلِ وَأَضَلُّوا شَعْبِي إِسْرَائِيلَ. وَفِي أَنْبِيَاءِ أُورُشَلِيمَ رَأَيْتُ مَا يُقْشَعَرُّ مِنْهُ. يَفْسِقُونَ وَيَسْلُكُونَ بِالْكَذِبِ، وَيُشَدِّدُونَ أَيَادِيَ فَاعِلِي الشَّرِّ حَتَّى لاَ يَرْجِعُوا الْوَاحِدُ عَنْ شَرِّهِ. صَارُوا لِي كُلُّهُمْ كَسَدُومَ، وَسُكَّانُهَا كَعَمُورَةَ. لذلكَ هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ: هأَنَذَا أُطْعِمُهُمْ أَفْسَنْتِينًا) وهو نبات من الفصيلة التي تعرف باسم Artemesia ويوجد منه خمسة أنواع في فلسطين، وأكثر الأنواع وجودًا هو الذي يعرف باسم Artemesia absinthium. وعصيره مر للغاية وسام أيضاً، ولذا فقد استخدم كرمز للعصيان على الله، ولظلم الإنسان وجوره، وغير ذلك، ولربما يقابل ذلك استعمال كلمة «زقوم» في العربية كناية عن الطعام الكريه والمضر والمؤذي. والكلمة في العبرية هي «لا آناه» وتعني مادة مُرّة. أما في اليونانية فالكلمة هي «أبسنتوس» ومعناها «ما لا يُشرب». في النبتة خواص طبية لذا تعمل كطاردة للديدان، ولحفظ الصوف من العث، بينما تستخدم أنواع أخرى في صنع نوع من المسكرات القوية يُعرف باسم

«الابسنت»، وقد ساهم أحد الأطباء الأوروبيين في نشر الأفسنتين كعلاج في أنحاء من أوروبا، فأصبح متداولاً بكثرة كمشروب مسكر. وفي عام ١٨٤٠م عملت الحكومة الفرنسية على إرساله إلى جنودها المقاتلين في الجزائر، حيث كان يُعتقد أنه ينقي المياه لجعلها صالحة للشرب، ولمنع انتشار الملاريا. واستمر الأمر حتى بداية الحرب العالمية الأولى. وقد زادت شعبية الأفسنتين، وأصبح يُعرف بـ A Fée Verte أي الجنيّة الخضراء، حيث بدأ يُشاع عنه أنه يسبب الهلوسة. ويرجع السبب في ذلك؛ لانخفاض جودة الإنتاج خلال مرحلة التقطير والتي كانت تترك السموم في المشروب مثل كبريتات النحاس، والتي تؤدي إلى إكساب اللون الأخضر للمشروب. وقد تشكّلت موجة مضادة للمشروب وذلك عام ١٩٠٥م بعد جريمة قتل بشعة كان سببها تناول هذا المشروب، وتم منعه في عدد من البلدان الأوروبية والأمريكية. ثم سمح الاتحاد الأوروبي بإعادة استخدام الأفسنتين لكن بشرط تقليل كمية مركب ثوجون السام داخل المشروب منذ عام ١٩٨٨م. كما رفعت الولايات المتحدة الحظر عام ٢٠٠٧م وتبعتها فرنسا عام ٢٠١١م (وَأَسْقِيهِمْ مَاءَ الْعَلْقَم، لأَنَّهُ مِنْ عِنْدِ أَنْبِيَاءِ أُورُشَلِيمَ خَرَجَ نِفَاقٌ فِي كُلِّ الأَرْضِ. هكَذَا قَالَ رَبُّ الْجُنُودِ: لاَ تَسْمَعُوا لِكَلاَمِ الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ لَكُمْ، فَإِنَّهُمْ يَجْعَلُونَكُمْ بَاطِلاً. يَتَكَلَّمُونَ بِرُؤْيَا قَلْبِهِمْ لاَ عَنْ فَمِ الرَّبِّ.... لَمْ أُرْسِلِ الأَنْبِيَاءَ بَلْ هُمْ جَرَوْا. لَمْ أَتَكَلَّمْ مَعَهُمْ بَلْ هُمْ تَنَبَّأُوا.... قَدْ سَمِعْتُ مَا قَالَهُ الأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ تَنَبَّأُوا بِاسْمِي بِالْكَذِبِ قَائِلِينَ: حَلِمْتُ، حَلِمْتُ. حَتَّى مَتَى يُوجَدُ فِي قَلْبِ الأَنْبِيَاءِ الْمُتَنَبِّئِينَ بِالْكَذِبِ؟ بَلْ هُمْ أَنْبِيَاءُ خِدَاعِ قَلْبِهِمْ!)[١].

١. الكتاب المقدس: سفر إرميا، الأصحاح ٢٣، ١١-٢٦.

وهكذا نجد استعمال الكلمة في معنى من يُبلّغ، كما في سفر الخروج: (فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «انْظُرْ! أَنَا جَعَلْتُكَ إِلهًا لفِرْعَوْنَ. وَهَارُونُ أَخُوكَ يَكُونُ نَبِيَّكَ) أي الذي ينبيء ويُخبر ويتحدّث باسمك (أَنْتَ تَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا آمُرُكَ، وَهَارُونُ أَخُوكَ يُكَلِّمُ فِرْعَوْنَ لِيُطْلِقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ أَرْضِهِ)[١].

ولنلاحظ استعمال الكلمة في المتنبّيء كما في سفر التثنية: (إِذَا قَامَ فِي وَسَطِكَ نَبِيٌّ أَوْ حَالِمٌ حُلْمًا، وَأَعْطَاكَ آيَةً أَوْ أُعْجُوبَةً، وَلَوْ حَدَثَتِ الآيَةُ أَوِ الأُعْجُوبَةُ الَّتِي كَلَّمَكَ عَنْهَا قَائِلًا: لِنَذْهَبْ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى لَمْ تَعْرِفْهَا وَنَعْبُدْهَا، فَلاَ تَسْمَعْ لِكَلاَمِ ذلِكَ النَّبِيِّ أَوِ الْحَالِمِ ذلِكَ الْحُلْمِ.... وَذلِكَ النَّبِيُّ أَوِ الْحَالِمُ ذلِكَ الْحُلْمِ يُقْتَلُ، لأَنَّهُ تَكَلَّمَ بِالزَّيْغِ مِنْ وَرَاءِ الرَّبِّ إِلهِكُمُ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَفَدَاكُمْ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ)[٢].

- **طبيعة التلمود وأهميته**:

سيأتي معنا في الكتاب استشهادات متنوّعة من كتاب التلمود البابلي، وهناك بعض التصورات الخاطئة حول هذا الكتاب الذي يُمثِّل في واقعه خلاصة النقاشات والآراء الحاخامية القديمة والممتدة على مدى قرون حول المسائل الشرعية المختلفة المتعلّقة بالمسائل العبادية والمعاملاتية لأتباع الشريعة الموسوية، من قبيل أحكام الطهارة والنكاح والطلاق والنذور والقرابين والزراعة والتجارة والعقوبات وغير ذلك. وهي تعتمد في الأساس على شرح وتفصيل النصّ المدَّعى أنه منقول عن لسان النبي موسى «عليه السلام».

١. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الأصحاح ٧، ١-٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر التثنية، الأصحاح ١٣، ١-٥.

مصطلح تَلمود תַּלְמוּד في اللغة العبرية عبارة عن صيغة مشتقة من كلمة «لمد» לָמַד، والتي تعني تعلّم ودرس.

جاء في مقدمة الترجمة العربية للتلمود البابلي الذي قدّمه مركز دراسات الشرق الأوسط بالأردن، أن أهمية دراسة التلمود تظهر من كونه يُعدّ التفسير المعتمد والشرعي للنصوص التوراتية عند اليهود الأرثوذوكس الذي يمثلون أغلبية يهود العالم، (أولئك الذين يكرّسون أنفسهم لقراءة التوراة يؤدّون فضيلة لا ريب فيها، ولكنها ليست كبيرة، وأولئك الذين يدرسون المشنا يؤدّون فضيلة، سوف ينالون المكافأة عليها، لكن أولئك الذي يأخذون على عاتقهم دراسة الجمارا، يؤدّون فضيلة سامية جداً)[1]. وهذا يعني أن أي تفسير للتوراة يخالف ما جاء في التلمود لا يمكن أن يكون معتمداً لديهم، وفق هذه النظرة، فالتلمود يفرض سلطته على النص التوراتي ويجعله تابعاً له عملياً، فالتلمود يحكم التوراة ولا تحكم التوراةُ على التلمود. ويعتبر التلمود هو مصدر التشريع لمجمل السلوك لدى اليهودية الأرثوذوكسية «الحاخامية» والأساس المقرر لبُنيتها التشريعية.

ويعتقد اليهود أن الله أوحى إلى موسى شريعتين: الشريعة المكتوبة «التوراة»، والشريعة الشفوية وهي «المشنا» والتي تمثّل متن التلمود. ويقولون أن موسى قد نقل هذه الشريعة الشفوية إلى جانب المكتوبة إلى الشيوخ السبعين، ثم نقلها هؤلاء الرجال إلى مَن بعدهم حتى بدأ علماء اليهود بجمع هذه المرويات الشفوية من أيام العالم اليهودي «هلل» قبيل ميلاد المسيح «عليه

1. www.seekgod.ca/embracebible

السلام» ثم أسهم كل من الربّي «عقيبا» وبعده الربّي «مئير» في إتمام جميع المرويات الشفوية، ولكنها لم تكتمل وتدوَّن إلا في القرن الثاني للميلاد على يد الربّي «يهودا هاناسيء» وهو الذي قام بتدقيق هذه المرويات، وأخرج منها ما يعتقد أنه ليس منها، فهناك نصوص متصلة بالمشنا ولكنها ليست منها، ويذكرها التلمود ويلجأ إليها علماء الشريعة اليهودية كثيراً، وهي «التوسفتا» و«المخيلتا» و«السفرا» و«سفري» و«البرايتا». وبالتالي فإننا سنجد في التلمود مكوّنين: «المشنا»، وهو المتن، و«الجمارا» وهو التعليق والشرح الذي كتبه علماء اليهود في العراق في ثلاثة مراكز، نهر دعة وبلدة سورة ومدينة عانة، وفي فلسطين في ثلاثة مراكز هي طبرية وقيسارية وصفورية. وقد اشتملت هذه الشروحات على أحكام وفتاوى وحكايات وأساطير وخرافات، وأطلق على تلك التي تمّت في العراق اسم التلمود البابلي، وهو شرح واسع لنصوص المشنا، ويتجاوز التلمود الأورشليمي الذي اقتصر على شرح بعض أبواب المشنا، وجاء غامضاً ومختصراً. استغرق العمل على التلمود البابلي ما يقارب ثلاثمائة عام «٢١٠-٥٠٠م»، أما الفلسطيني «الأورشليمي» فأنجز ما بين «٢١٩-٣٥٩م»، وبالتالي فإن التلمود بشقيه المشنا والجمارا هو عمل كبير للعديد من علماء اليهود خلال فترة تقارب السبعمائة سنة «٢٠٠ ق.م-٥٠٠م» وعلى هذا الأساس فقد تأثر بمؤثرات ثقافية ودينية مختلفة، خاصة بالثقافة اليونانية والرومانية، كما أن البحث في الأصول التشريعية والأسطورية للروايات التي جاءت في التلمود تشير إلى مؤثرات بابلية وفارسية ومصرية[١].

١. مركز دراسات الشرق الأوسط: التلمود البابلي، ج١، ص٢١-٢٨

• **تفسير القمي في الميزان:**

تفسير علي بن إبراهيم القمي من مصادر الروايات التفسيرية الشيعية الإمامية الرئيسة في هذا الكتاب. وعلي بن إبراهيم القمي «ت ٣٢٩هـ» يعدّ من فقهاء الإمامية ومفسّيرهم في القرن الثالث الهجري، وكذلك من أصحاب عاشر الأئمة لدى الإمامية، الإمام علي بن محمد الهادي «عليه السلام». كانت أسرته تقيم في الكوفة ثم انتقلت إلى قم.

يُعد القمي من مشيخة الكليني صاحب موسوعة «الكافي»، وعلي بن بابويه القمي، والد الشيخ محمد بن علي بن الحسين الصدوق، والأب من أصحاب التصانيف الحديثية الأولى المدوّنة بعد الأصول الأربعمائة، وقد نقل علي بن إبراهيم القمي معظم رواياته عن والده إبراهيم بن هاشم القميّ، والذي لم يَرِدْ فيه توثيق ولا تضعيف، لذا عُدّ ابتداء من المجاهيل، وإن قال الرجاليّون بعد ذلك بوثاقته بناء على اعتماد ولده الثقة عليه في معظم ما روى. وحفلت المصادر الحديثية المعروفة بروايات علي بن إبراهيم والتي بلغت أكثر من سبعة آلاف رواية. له تصانيف عديدة أهمّها هذا التفسير الذي نتحدّث عنه، ولكن نسبة هذه النسخة المتداولة من التفسير لعلي بن إبراهيم القمي غير ثابتة، حيث أن راوي الكتاب، وهو أبو الفضل العباس بن محمد مجهول الحال، كما أن راوي الكتاب عن أبي الفضل العباس أيضاً مجهول، إذ نجد في أول التّفسير: (بسم اللّه الرحمن الرحيم: حدَّثني أبو الفضل العباس بن محمد بن القاسم بن حمزة بن موسى بن جعفر «عليه السلام»، قال: حدَّثنا أبو الحسن عليّ بن إبراهيم..).

فقوله «حدَّثني» يدلّ على شخص آخر غير أبي الفضل العباس، ولا نعلم من هو على وجه التحديد. ثم إن الكتاب في الأصل يضم روايات عن علي بن إبراهيم علاوة على تفسير أبي الجارود وروايات أخرى. وبالتالي فالكتاب يضم بين دفتيه:

أ- إملاء علي بن إبراهيم القمي لتلميذه أبي الفضل العباس، وهو تفسير لبعض سور القرآن الكريم، وتتمثل في روايات منسوبة للإمام جعفر بن محمد الصادق «عليه السلام».

ب- ويتمثل في الروايات والأحاديث المنسوبة للإمام محمد الباقر «عليه السلام» برواية أبي الجارود. قال الشيخ الطوسي: (زياد بن المنذر يكنى أبا الجارود، زيدي المذهب وإليه تُنسب الزيدية الجارودية، له أصل، وله كتاب التفسير، عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام»)[1].

ج- إضافات من أسانيد أخرى بغير الطريقين السابقين.

وعلى ذلك يكون هذا التفسير متعدد المصادر، ويبدو أنه من صنع أبي الفضل العباس، أما نسبته إلى شيخه علي بن إبراهيم فلأنّ أكثر رواياته عنه، وهو الأصل، ثم أضاف عليه أبو الفضل روايات عن تفسير أبي الجارود وآخرين.

- **القيمة العلمية للتواتر**:

الحديث المتواتر في اصطلاح علم الحديث يعني الحديث الذي بلغت سلسلة رواته بحدٍّ من الكثرة في جميع الطبقات؛ بحيث يمتنع عادة تواطؤهم

١. الطوسي: الفهرست، برقم «٣٠٥».

على الكذب في نسبة الحديث إلى المروي عنه. ويقابله خبر الآحاد وهو الحديث الذي لم يصل إلى حد التواتر. والتواتر قد يكون لفظياً أو معنوياً أو في الجملة.

أ) المتواتر اللفظي: هو الذي يرويه جميع الرواة، وفي كل طبقاتهم بنفس صيغته اللفظية الصادرة من قائله.

ب) المتواتر المعنوي: هو التواتر الناشيء عن المعنى المستفاد من تكرره أو الإشارة إليه في أحاديث مختلفة الألفاظ، وكثيرة كثرةً لا يمكن معها تكذيبها، كأحاديث ظهور المهدي، فإنها مع اختلاف ألفاظها تلتقي جميعها عند قاسم مشترك أو قدر متيقن، وهو ظهور المهدي.

قال الشهيد الثاني: (وهو - أي التواتر - يتحقق في أصول الشرايع كوجوب الصلاة اليومية وأعداد ركعاتها، والزكاة، والحج، تحققاً كثيراً، وفي الحقيقة مرجع إثبات تواترها إلى المعنوي لا اللفظي، إذ الكلام في الأخبار الدالة عليها كغيرها. وقليل تحققه في الأحاديث الخاصة المنقولة بالألفاظ المخصوصة لعدم اتفاق الطرفين والوسط فيها، وأن تواتر مدلولها في بعض الوارد كالأخبار الدالة على شجاعة علي «عليه السلام» وكرم حاتم ونظائرهما، فإن كل فرد خاص من تلك الأخبار الدالة على أن علياً «عليه السلام» قتل فلاناً، وفعل كذا، غير متواتر، وكذا الأخبار الدالة على أن حاتماً أعطى الفرس الفلانية والجمل والرمح وغيرها، إلا أن القدر المشترك بينها متواتر تدل عليه تلك الجزئيات المتعددة آحاداً بالتضمن)[1].

ج) التواتر الإجمالي: وهو يقابل التواتر التفصيلي - اللفظي والمعنوي -

١. العاملي: الدراية، ص ١٤.

وقال به بعض الفقهاء المتأخّرين، ويعني أن تكون لدينا مجموعة من الأخبار التي لا تلتقي لا في مدلول مطابقي ولا تضمني ولا التزامي، كل ما في الأمر أننا نرى أنه يبعد - بحسب الاحتمال - كونها جميعاً مختلَقَة، بل لا أقل يوجد واحد من بينها قد صدر واقعاً.

ويظهر من خلال الاستقراء الذي أشير إليه في بعض مراجع علم الحديث أن الأحاديث المتواترة تواتراً لفظياً قليلة قلة نادرة، وأكثر ما يوصف من الأحاديث بالتواتر هي من المتواتر المعنوي[١]. بل أشار الشهيد الثاني إلى أنه لا وجود لمتواتر لفظي، وأن بعض العلماء بحث عن ذلك فلم يجد مثالاً واحداً على ذلك، قال: (ولم يتحقق إلى الآن خبر خاص بلغ حد التواتر حتى قيل -والقائل ابن الصلاح-: من سُئل عن إبراز مثال لذلك أعياه طلبه، هذا مع كثرة رواتهم قديماً وحديثاً، وانتشارهم في أقطار الأرض. قال: وحديث: «إنما الأعمال بالنيات» ليس منه، أي المتواتر، وإن نقله الآن عدد التواتر وأكثر، فإن جميع علماء الاسلام ورواة الحديث الآن يروونه، وهم يزيدون عن عدد التواتر أضعافاً مضاعفة، لأن ذلك التواتر المدَّعى قد طرأ في وسط إسناده الآن دون أوّله، فقد انفرد به جماعة مترتبون أو شاركهم من لا يخرج بهم عن الآحاد)[٢].

وختم الشهيد الثاني كلامه بإثارة نقطة مهمة وجوهرية، وهي أن من الأحاديث الموضوعة ما يتحوّل إلى حديث متواتر بمرّ الزمان، فهل يمكن اعتباره خبراً صحيحاً لحدوث هذا التواتر؟ قال: (وأكثر ما ادُّعي تواتره من هذا القبيل، ينظر مدّعي التواتر إلى تحققه في زمانه، أو هو وما قبله من

١. الفضلي: أصول الحديث، ص ٨٠-٨١.

٢. العاملي: الدراية، ص ١٤- ١٥.

غير استقصاء جميع الأزمنة، ولو أنصف لوجد الأغلب خلوّاً أوّل الأمر منه، بل ربما صار الحديث الموضوع ابتداءً، متواتراً بعد ذلك، لكن شرط التواتر مفقود من جهة الابتداء)[١].

وفي مجال المعلوماتية اليوم هناك مصطلح خاص بانتشار المعلومة الكاذبة يُطلق عليه عنوان Circular Reporting أي «التدوير المعلوماتي» ويعني أن تنشر إحدى المصادر المعلوماتية خبراً كاذباً، فتقوم مصادر أخرى بإعادة نشر هذه المعلومة، ثم يقوم المصدر الأول بالإشارة إلى تلك المصادر على أنها منبع تلك المعلومة، ليُضلِّل بها الرأي العام، ولربما بهدف إكسابها شيئاً من الوثاقة، أو تكثير عدد القائلين بها. أو أن يقوم شخص باختلاق معلومة كاذبة، فتأخذه عنه ـ وفي آن واحد ـ مجموعة من المصادر، ثم يعتمد أحدُهم على هذه المعلومة، وكأنها صادرة عن أكثر من مصدر، والواقع أن المصدر واحد، ولكن وسائل النشر تعددت.

هذا النموذج الثاني يُدرس أيضاً في مجال نقد الحديث، حيث نجد عدة روايات تحتوي على مضمون كاذب، ثم يتبين لنا أنها في الواقع رواية واحدة، ولكن أعيد نشرها بطرق متعددة، فيتوهّم الباحث أن المضمون صدر عن القائل عدة مرات، فيتصوّر أنه مضمون صحيح.

مثال ذلك ما يجري أحياناً على موقع الموسوعة الإلكترونية على شبكة الإنترنت «ويكيبيديا»، وهي موسوعة مفتوحة، بحيث يستطيع مَن يشاء أن يُضيف ما يشاء من معلومات إلى أي عنوان يشاء، ودون الاستناد إلى مصدر،

١. العاملي: الدراية، ص ١٤- ١٥.

أو بالاستناد إلى مصادر وهمية، أو عن طريق الافتراء على مصادر حقيقية. ثم تدخل هذه المعلومة الكاذبة من خلال «التدوير المعلوماتي» إلى مقالات صحفية وبحوث وكتب وكأنها معلومات مسلّمة وحقيقية، بل ومن الصعب تتبّع مصدرها لتقييمها، لتصبح بمرور الزمان وكأنها معلومة موثوقة بلحاظ التواتر وفق مصطلح الحديث.

ومن هنا فإن التواتر لكي يتحقق لابد من تحقق مجموعة من الشروط، كما أن التواتر في حد ذاته غير كاف، بل لابد أن يفيد العلم، وتتعدد العوامل الموضوعية المؤثرة في إفادة التواتر للعلم واليقين. وقد فرّق العلماء بين نوعين من الشروط، شروط لتحقق التواتر، وشروط لحصول العلم من الخبر المتواتر. وسأستعرض في ما يلي مجموعة من شروط تحقق التواتر، وإفادة التواتر العلم:

١ - العدد، فإنه يشترط في تحقق التواتر وصول العدد إلى الحد الذي يستحيل معه التواطؤ على الكذب أو الخطأ، بحيث يفيد العلم عادة، ولا يشترط عدد معين فيه، ولا يشترط في هؤلاء المخبرين أن يكونوا ثقاتاً وعدولاً كما يشترط ذلك في حجية الخبر الواحد، بل أن الكثرة العددية تكفي لحصول العلم منه، ولكن للوثاقة والخبرة والعدالة وغيرها من صفات الراوي تأثيرها في سرعة حصول العلم وبطئه، فإن حصول اليقين من الثقات أسرع من حصوله من غيرهم.

٢ - أن يكون المخبر عنه محسوساً بالبصر، أو غيره من الحواس الخمس، فينحصر التواتر في الإخبار عن المحسوسات التي تعرّف عليها المخبر بإحدى

حواسه، وبذلك يكون إخباره صادراً عن علم ضروري مستند إلى محسوس، كما لو نقل كلام شخص سمعه أو حادثة شاهدها بعينيه. ويضاف للأمور المحسوسة، الأمور القريبة من الحس، التي لها آثار محسوسة، كالشجاعة والكرم، فإنها وإن كانت صفات نفسية، إلا أن آثارها حسية.

٣ - استواء الطرفين والواسطة في العدد وأوصاف الرواة، فيلزم أن تبلغ كل طبقة من طبقات سلسلة السند - إذا كانت للخبر طبقات ولم ينقل للسامع بالمباشرة - العدد الذي يفيد العلم، وأن يكون المستند لكل طبقة هو الحس في النقل، إذاً فلا بد أن تكون كل طبقات السند مشتركة بكل ما يعتبر في المخبرين من شروط.

٤ - أن لا يكون للسامعين علم مسبق بما أُخبروا به، وذلك لأن الخبر المتواتر هو طريق لحصول العلم، فإذا كان السامع عالماً بمضمون الخبر مسبقاً فلا يزيده الخبر المتواتر علماً، والملاحظ أن هذا الشرط شرط لحصول العلم لا لتحقق التواتر.

٥ - أن لا يكون لدى السامع اقتناع واعتقاد بالمعتقدات المخالفة لمضمون الخبر المتواتر، وقد حصلت هذه المعتقدات نتيجة شبهات أو تقاليد تحكّمت في نفسه وسيطرت على مشاعره بحيث يرى خطأ كل ما يخالفها، ومن هنا لا يحصل له العلم من الخبر المتواتر، بينما يحصل العلم من هذا الخبر المتواتر نفسه لأولئك الذين لم يبتلوا بمثل هذه الشبهات والتقاليد والمعتقدات .

٦ - يلزم أن يستند حصول العلم بالخبر المتواتر للكثرة العددية للمخبرين فحسب، وأما لو استند حصول العلم إلى القرائن خارجية أو داخلية فلا يكون

من الخبر المتواتر، فإن الخبر الواحد - أيضاً - ربما أفاد العلم والقطع فيما لو اقترن ببعض القرائن.

٧ - أن يزول احتمال الخطأ أيضاً بالإضافة لزوال احتمال الكذب بسبب الكثرة العددية، فلو زال احتمال الكذب فحسب وبقي احتمال الخطأ فلا يحصل العلم من الخبر المتواتر. فالعلم لا يحصل وجداناً من الخبر المتواتر ما لم ينتف احتمال الكذب واحتمال الخطأ وخداع الحواس والاشتباه[١].

٨- الاحتمال القبلي للقضية المتواترة، بمعنى أنه كلما كان احتمال القضية نفسها أكبر، كلما تسارع حصول اليقين... والعكس صحيح. ومن هنا فإذا كان مضمون الخبر المنقول غريباً بعيد الحصول في حد نفسه، كما في حال الكرامات والغرائب والمعاجز - كما يذكر الإمام الخميني[٢] - فإن درجة الوثوق به تغدو أقل، فيحتاج إلى عدد أكبر من الرواة كي يحصل اليقين، على خلاف الخبر المتواتر غير الغريب في مضمونه، فإن سرعة حصول اليقين منه تكون أوضح. ويعبّر عن هذا أيضاً باشتراط أن تكون القضية المخبَر عنها ممكنة في نفسها، فلو لم تكن ممكنة، لم يتولّد اليقين من التواتر. وهذا الإمكان هو أدنى درجات الاحتمال القبلي للقضية المتواترة، تبعاً لطبيعتها، تارة من حيث الغرابة أو مقتضيات الوقوع على سبيل المثال، أو تبعاً لبدائلها.

ومن الطبيعي أن تتفاوت نظرة الناس إلى عنصر الاحتمال القبلي، فلو كان الفرد الأول يرى أن النبي «صلى الله عليه وآله» صدرت عنه معاجز

١. مؤسسة آل البيت: مجلة تراثنا، ج ١٦، ص٣٤.
٢. الخميني: تهذيب الأصول، ج٢، ص١٦٨.

محدودة، فهذا الشخص لو وصله خبر عن معجزة مميزة فعلها النبي، فإن درجة الاحتمال القبلي ستكون ضعيفة عنده، على خلاف فرد آخر يرى أن حياة النبي «صلى الله عليه وآله» مليئة بالخوارق غير الطبيعية، وأنها حياة استثنائية محكومة لقوانين ما فوق الطبيعة، كونه مسدّداً من عند الله «سبحانه»، فإن ورود خبر إعجازي إليه يجعل قيمته الاحتمالية القبلية عنده أكبر.

٩- تباين الشهود في أوضاعهم الحياتية والثقافية والاجتماعية، بأن يكونوا من اتجاهات مختلفة، فإن ذلك يُبعد احتمال وجود غرض ذاتي مشترك لديهم لوضع الرواية واختلاقها، ولهذا ذكر بعض علماء أصول الفقه القدماء شرط تعدد بلدان الرواة أو تعدّد مللهم وأديانهم. وهذا الشرط مهم وأساس، ويُحدث تعديلاً في تعريف المشهور للتواتر، لأن الأمن من اتفاق الناقلين على الكذب لا يُثبت الصدق، ولا ينفي الكذب لوحده، بل المهم أيضاً الأمن من التقاء دوافعهم في هذا الموضوع، فلو كانت لهم دوافع متقاربة أو متشابهة فيحتمل كذبهم جميعاً نتيجة هذه الدوافع الحاثّة، حتى لو لم يلتقوا ويتفقوا ويتواطأوا على الكذب[١].

ويجب ملاحظة أن تعدد الأسانيد قد لا يدل على تراكم عددي يساعد على تكوّن التواتر، لأن وضع الحديث واختلاقه من قبل الكذابين لا يقتصر على المتن، بل قد يشمل السند أيضاً، وهذا أمر وقع وتحقق في التاريخ الإسلامي، فقد يقوم الواضع بالعثور على حديث آحادي موجود، وله سند أو لا سند له،

١. حب الله: حجية الحديث، ص٦٦-٧٣.

فيقوم - لأجل تقوية هذا الحديث الذي يجد في متنه ما يناسب مصالحه - باختراع سند له، إما رجاله معروفون أو غير معروفين، أو لا وجود لهم، كلاً أو بعضاً.

هذه الظاهرة بالغة الخطورة، لأن هذا معناه أنه من الممكن أن يقوم الوضّاعون - لأجل تقوية حديث ضعيف - بتركيب أسانيد له، من شخصيات معروفة أو شبه معروفة، فهم قد سمعوا سابقاً بالحديث، لكنهم يريدون تقويته، ولم يقوموا باختراعه أو اقتباسه من مكان ما، وهذا يعني أن كثرة الأسانيد التي فيها أشخاص ضعاف أو محتملي الضعف جداً، يصعب تحصيل الوثوق منها فضلاً عن التواتر، لاحتمال أنهم جميعاً اخترعوا الأسانيد لمتن كان موجوداً بسند ضعيف، فلا ينبغي الاغترار بكثرة الطرق قبل نقد هذا الجانب.

١

من هو آدم ؟

١

من هو آدم ؟

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[1].

إذا كان الباحث المتديّن بالإسلام أو باليهودية أو بالنصرانية يقنع في الماضي بظاهر النصوص الدينية الدال على أن رجلاً خلقه الله «عز وجل»

١. سورة البقرة:٣٠-٣٧.

من تراب، ومن غير أب وأم، وصار يُعرَف باسم «آدم»، وخلق له أنثى، وصارت تُعرف باسم حوّاء، وكانا أول الجنس البشري، إلا أنه وعلى ضوء المعطيات الجينية والأحفورية والآثارية الحديثة، ما عاد من السهل الاكتفاء بما سبق كإجابة على تساؤل:

مَن هو آدم على وجه التحديد؟

كيف بدأ ظهوره؟

أين ومتى عاش؟

وهل هو حقاً أوّل إنسان؟

وقبل البحث في هذا الجانب لابد من التنبيه إلى أن القرآن الكريم لم يذكر اسم زوجة آدم، بل كنّى عنها تحت عنوان «زوج» كما مرّ معنا في الآيات السابقة. نعم، ورد اسمها «حواء» في الروايات وفي العديد من نصوص الكتاب المقدس، ففي الأصحاح الثالث من سِفر التكوين: (وَدَعَا آدَمُ اسْمَ امْرَأَتِهِ «حَوَّاءَ» لأَنَّهَا أُمُّ كُلِّ حَيٍّ)[١]، وفي الأصحاح الرابع منه: (وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ. وَقَالَتِ: «اقْتَنَيْتُ رَجُلًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ»)[٢].

وبالعودة إلى الأسئلة السابقة، فلنبدأ – أوّلاً – باستعراض بعض النصوص الدينية، الإسلامية منها والكتابية، مع إضافة بعض التعليقات، ومن ثَم نطرح بعض المعطيات العلمية الحديثة التي تتعارض مع القراءة التقليدية للنصوص الدينية الخاصة بخلق آدم، ومن ثَم نحاول الخروج بتصوّر ما حول الموضوع

١. الكتاب المقدس: التوراة، سفر التكوين، الأصحاح ٣ : ٢٠.

٢. الكتاب المقدس: التوراة، سفر التكوين، الأصحاح ٤ : ١.

ليكون صيغة توفيقية، بلحاظ أننا نقرّ بأن النص الديني لا يمكن أن يتصادم مع المعطى العلمي، فإنّ حصل، فسنكون أمام احتمالات:

١. عدم صحة النص الديني

٢. خطأ فهمنا للنص الديني

٣. عدم صحة المعطى العلمي

٤. خطأ تحليلنا للمعطى العلمي

ويجب أن ندرس الاحتمالات المختلفة بدقة من أجل أن نعرف أين يكمن الخلل، وما سبب هذا التصادم الظاهري.. إلا أن من المؤسف أن نجد عدداً ملحوظاً - إن لم كبيراً جداً - من علماء الدين المسلمين ممّن يُلقون باللائمة - أوّلاً - على المعطيات العلمية، ويُضعِفون احتمالية الخطأ في النص الديني أو الخطأ في قراءته.

ومع التأكيد هنا على أننا نعتقد بعصمة النص القرآني، إلا أن تفسيره وتأويله قابلان للخطأ، كما أن كماً كبيراً من المرويات الحديثية إما موضوعة أو محرّفة أو ناقصة أو شابها خلل النقل أو التصحيف أو غير ذلك.

ومن نماذج مثل هذا التوجّه الذي يبالغ في إلقاء اللائمة على المعطيات العلمية ما جاء في العبارة التالية: (لا يحدثُ أَيُّ تعارضٍ بين «العلم» و «الوحي» مطلقاً، وإذا لُوحظَ نوعٌ من التعارض بين هذين في بعضِ الأحايين فإنّه أيضاً ناشئَ من أحد أمرين: إمّا أَنْ يكونَ استنباطُنا من الدّين في هذا الموضع استنباطاً خاطئاً، وإمّا أنَّ العلمَ لَمْ يَصِل في هذا الموضوعِ إلى المرحلة

القطعيَّة.إنّ التعارضَ ينشأُ غالباً من الشِّقِ الثاني أَيْ عندما تُتلقّى بعض الفرضيّات العلميّة على أنّها حقائق قطعيّة، وعند ذلك يحدث التصوّر بأنَّ هناك تعارضاً بين العلم والدّين)[١].

فالمقطع الأخير من العبارة دمّر الفكرة ككل، وأوجد حاجزاً نفسياً أمام كل من يريد أن يتعامل مع مثل هذه التعارضات في إعادة قراءة النص الديني وتحليله. ومثل هذه المقولة لن تحقق لنا الكثير في طريق إصلاح خطابنا الديني، لأنها ستبقينا في إطار القراءات القديمة، كما أنها لن تفتح لنا أفق الاجتهاد والتفكير خارج نطاق الصندوق، بل ستبقينا في إطار إعادة الاستنباط في نطاقاته الداخلية فقط، وهذا لن يحقق المطلوب.

نعم، لو أبقى العلم الباب مفتوحاً، فلا مانع من البقاء على القراءة التقليدية للنص، ومن دون الوقوف بعنف ضد المعطى العلمي، أما إذا أُغلق الملف، وصار المعطى يقينياً، فأي معنى لاستمرار رفض المعطى العلمي؟

وأوضح مثال على ذلك إصرار البعض إلى هذا اليوم على رفض حقيقة أن الأرض كروية، وأنها تدور حول الشمس، بذريعة التمسك بتفسير بعض الآيات القرآنية وبعض الروايات، وذلك من قبيل قوله «سبحانه»: ﴿**حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا**﴾[٢].

وقوله «عز وجل»: ﴿**وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[٣].

١. السبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت، ص٢٠-٢١.
٢. سورة الكهف:٨٦.
٣. سورة يس:٣٨.

وقوله « عز اسمه»: ﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[١].

وعن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله» أنه قال: (إن الله «جل ذكره» أذِنَ لي أنْ أُحدِّث عن ديك قد فرَّقَت رجلاه الأرضُ، وعنقُه مثنيٌّ تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا، فيرد عليه: ما عَلِمَ ذلك مَن حلف بي كاذباً)[٢]. قال عنه الحافظ المنذري: (رواه الطبراني بإسناد صحيح، والحاكم وقال صحيح الإسناد). وقال الهيمثي في «مجمع الزوائد»: (رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح). وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة ١٥٠» والشيخ مصطفى العدوي في «صحيح الأحاديث القدسية ١٥٦»[٣].

واستنتج البعض من هذا الحديث أن الأرض مسطحة، وأن العرش فوقها، فلو كانت كروية في نقطة من الكون لما جاز هذا التعبير.

وهكذا نجد في «الكافي» رواية عن علي «عليه السلام» جاء فيها: (إن للشمس ثلاثمائة وستين برجاً، كل برج منها مثل جزيرة من جزائر العرب، فتنزل كل يوم على برج منها، فإذا غابت انتهت إلى حد بطنان العرش، فلم تزل ساجدة إلى الغد، ثم ترد إلى موضع مَطلعِها ومعها ملكان يهتفان معها، وإنّ وجهها لأهل السماء، وقفاها لأهل الأرض ولو كان وجهُها لأهل الأرض، لأحرقت الأرض ومَن عليها مِن شدّة حرِّها).

---

١. سورة الغاشية:٢٠.

٢. المنذري: الترغيب والترهيب، ج٢، ص ٢٩٥.

3. www.islamweb.net/ar/fatwa/154505/

قال المازندراني: (والمراد به: المنزلة التي ترجع منها وتطلع من المغرب في آخر الزمان عند قيام الساعة، وقد عدّ ذلك من أشراطها، وإلا فالشمس دايما تحت العرش، والمراد بسجودها: خشوعها وانتظارها لأمر الله «سبحانه» هل يأمر برجوعها أم لا وانقيادها لحكمه فيأمر بردها إلى مطلعها فترد إليه فتصبح طالعة منه، وهكذا كان دايما إلى ما شاء الله أن يأمر بردها من مغربها، ولعل الملكين الهاتفين يزجرانها ويأمرانها بالطلوع إلى مطالعها المعروفة وقوله «وجهها لأهل السماء» يحتمل أن يراد به: أن وجهها لأهل السماء متوجه إلى العرش حين كونها ساجدة، ووجه شدة حرارتها وإحراقها للأرض ومن عليها على تقدير كون وجهها للأرض ظاهر لتغيير حالها بمشاهدة جلال الله وعظمة كبريائه، كما نقل ذلك في حال نبينا «صلى الله عليه وآله» عند نزول الوحي، ويحتمل أن وجهها لأهل السماء دايماً، ويؤيد الأول ما رواه في «الفقيه»[١] من أن «الشمس بلغت الجو وجازت الكوّ[٢] قلبها ملك النور ظهر البطن فصار ما يلي الأرض إلى السماء وبلغ شعاعها تخوم العرش، الحديث»)[٣].

وقد ضعفت المعارضة لفكرة كروية الأرض ودورانها حول الشمس بشدة بسبب المعطيات العلمية اليقينية التي باتت تشاهد بالعين المجردة وتعتمد عليها الكثير من منجزات العلوم الفضائية والفيريائية والصناعات العسكرية والاتصالات وغيرها، وإن بقيت اليوم باقية في بعض الأوساط الدينية وغير

١. أي الشيخ الصدوق في موسوعته «من لا يحضره الفقيه».
٢. قيل: المراد من الكوّ هنا الدخول في دائرة نصف النهار.
٣. المازندراني: شرح أصول الكافي، ج ١٢، ص ١٧٤- ١٧٦.

الدينية، الإسلامية وغير الإسلامية، والتي تعتمد في رفضها على النصوص السابقة وعلى معطيات وتصورات واهية.

نعم، في مثل الموت وتعريفه، فإن العلم لم يغلق الباب حين قيل أن الموت هو موت الدماغ لا غير، وأن لا وجود للروح، أو لشيء وراء هذا الوجود المادي للإنسان، بل كانت النتيجة العلمية الدقيقة هي أن العلم لم يتوصل إلى الآن إلى وجود شيء وراء المادة.

ولما بدأت بعض الدراسات تشير إلى وجود شيء آخر وراء المادة، عاد الحديث مجدداً عن طبيعة التركيبة الإنسانية ومكوناتها الرئيسة، واحتمال وجود الروح. ومن هنا كان من الضروري التريّث قبل إنكار معطى علمي ما، وعدم الاستعجال بتسفيه نص أو فكرة دينية أيضاً.

• خلق آدم في العهد القديم:

جاء في الأصحاح الأول من سفر التكوين من التوراة بعد الحديث عن خلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والنباتات: (وَقَالَ اللهُ: «لِتُخْرِجِ الأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا». وَكَانَ كَذلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَقَالَ اللهُ: «نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ»)[1].

---

١. الكتاب المقدس: التوراة، سفر التكوين، الأصحاح ١ : ٢٤-٢٦.

لاحظ أن مفاد هذا النص قريب من مضمون الآيات القرآنية التي تحدثت عن تسخير كثير من الموجودات للإنسان، وذلك من قبيل قوله «تعالى»: ﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ**﴾[١]، وقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً**﴾[٢].

ثم قال في النص التوراتي: (فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِه. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ. وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: «أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ»)[٣].

وتتضح الصورة أكثر في الأصحاح الثاني من سفر التكوين من التوراة، حيث جاء فيها: (وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ آدَمَ تُرَابًا مِنَ الأَرْضِ، وَنَفَخَ فِي أَنْفِهِ نَسَمَةَ حَيَاةٍ. فَصَارَ آدَمُ نَفْسًا حَيَّةً. وَغَرَسَ الرَّبُّ الإِلهُ جَنَّةً فِي عَدْنٍ شَرْقًا، وَوَضَعَ هُنَاكَ آدَمَ الَّذِي جَبَلَهُ)[٤].

وبعد وصف تلك الجنة التي وُضع فيها، تحدّث النص التوراتي عن خلق حواء وعن تعليم آدم الأسماء كلها: (وَقَالَ الرَّبُّ الإِلهُ: «لَيْسَ جَيِّدًا أَنْ يَكُونَ آدَمُ وَحْدَهُ، فَأَصْنَعَ لَهُ مُعِينًا نَظِيرَهُ». وَجَبَلَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ وَكُلَّ طُيُورِ السَّمَاءِ، فَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ لِيَرَى مَاذَا يَدْعُوهَا، وَكُلُّ مَا دَعَا

١. سورة الحج:٦٥.

٢. سورة لقمان:٢٠.

٣. الكتاب المقدس: التوراة، سفر التكوين، الأصحاح ١ : ٢٧-٢٨.

٤. الكتاب المقدس: التوراة، سفر التكوين، الأصحاح ٢ : ٧-٨.

بِهِ آدَمُ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ فَهُوَ اسْمُهَا. فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءِ جَمِيعَ الْبَهَائِم وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ. وَأَمَّا لِنَفْسِهِ فَلَمْ يَجِدْ مُعِينًا نَظِيرَهُ. فَأَوْقَعَ الرَّبُّ الإِلهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلاَعِهِ وَمَلأَ مَكَانَهَا لَحْمًا. وَبَنَى الرَّبُّ الإِلهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ: «هذِهِ الآنَ عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي هذِهِ تُدْعَى امْرَأَةً لأَنَّهَا مِنِ امْرِءٍ أُخِذَتْ»، لِذلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِامْرَأَتِهِ وَيَكُونَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. وَكَانَا كِلاَهُمَا عُرْيَانَيْنِ، آدَمُ وَامْرَأَتُهُ، وَهُمَا لاَ يَخْجَلاَنِ)[١].

هذا هو أصل كل الروايات الإسلامية الموضوعة التي تحدّثت عن أن حوّاء خُلقت من ضلع آدم. فمثلاً في بحار الأنوار نقلاً عن تفسير العياشي بسندٍ عن أمير المؤمنين «عليه السلام»: (قال: خُلقت حواء من قصيرا جَنْب آدم - والقصيرا هو الضلع الأصغر - وأبدل الله مكانه لحماً)[٢].

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: (قَالَ رَسُولُ اللّهِ «صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ»: اسْتَوْصُوا بِالنّسَاءِ، فَإِنّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضّلَعِ أَعْلاَهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنّسَاءِ)[٣].

ثم يتعرّض الأصحاح الثالث إلى المخالفة التي ارتكباها بتسويل من الحية وأكلهما من الشجرة، وطردهما من تلك الجنة.

---

١. الكتاب المقدس: التوراة، سفر التكوين، الأصحاح ٢ : ١٨-٢٥.
٢. المجلسي : بحار الأنوار، ج١١، ص ١١٥-١١٦.
٣. البخاري: الجامع المسند الصحيح، ح ٣٣٣١، مسلم: المسند الصحيح، ح ١٤٦٨.

• خلق آدم في القرآن الكريم:

بحسب إحصاء «موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم» فقد ورد ذكر آدم «عليه السلام» في القرآن الكريم ٢٥ مرة، في تسع سور، أما الموارد التي وردت فيها قصتُه بشئ من التفصيل فقد جاءت كالتالي[١]:

١. ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ، فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ، قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

٢. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ، قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ

١. مركز تفسير للدراسات القرآنية: موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ج١، ص٣٩.
٢. سورة البقرة: ٣١-٣٨.

أَن تَتَكَبّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ، قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمّ لآتِيَنّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مّدْحُورًا لّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنّ جَهَنّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ، وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّالِمِينَ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشّجَرَةِ إِلاّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنّي لَكُمَا لَمِنَ النّاصِحِينَ، فَدَلاّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمّا ذَاقَا الشّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشّجَرَةِ وَأَقُل لّكُمَا إِنّ الشّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مّبِينٌ، قَالاَ رَبّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[1]

٣. ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاّ إِبْلِيسَ أَبَى، فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنّ هَذَا عَدُوٌّ لّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنّكُمَا مِنَ الْجَنّةِ فَتَشْقَى، إِنّ لَكَ أَلاّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى، وَأَنّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى، فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاّ يَبْلَى، فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبّهُ فَغَوَى، ثُمّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ

١. سورة الأعراف: ١١-٢٥.

عَلَيْهِ وَهَدَى، قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى﴾[١].

ولا نجد في الآيات السابقة أي تفصيل عن مراحل خلق آدم كفرد، وأنه كان تراباً فطيناً فصلصال ثم تشكيله على هيئة إنسان، ثم دبّت فيه الروح، ثم تزاوج وأنجب.... إلخ. نعم، جاءت آية واحدة على ذكر أنه مخلوق من طين، ولكنها مجرّد إشارة ولا تقدّم أية تفاصيل.. وكما أن من المحتمل أنها تتحدث عن الخلقة المباشرة، فإن من المحتمل- أيضاً - أنها تشير فقط إلى أصله الطيني الذي «تطوّر» لاحقاً و«تحوّل» إلى آدم الذي تتحدّث عنه الآيات الشريفة.

وأما ما جاء في قوله «تعالى»: **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾**[٢]، وقوله: **﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾**[٣] فهو من جهة لم يذكر آدم بخصوصه، بل استعمل كلمة «بشر»، وإن كان من المحتمل أنه يقصد خصوص آدم... ومن جهة أخرى فإن التسوية ونفخ الروح لا تدلان بالضرورة على التشكيل المباشر من الصلصال أو الطين على هيئة بشرية ثم نفخ الروح فيها.

أما بخصوص خلق «الإنسان» فقد جاءت الآيات كالتالي:

١. سورة طه: ١١٥-١٢٣.
٢. سورة الحجر: ٢٨-٢٩.
٣. سورة ص: ٧١-٧٢.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾(١).

﴿خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾(٢).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾(٣).

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾(٤).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾(٥).

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾(٦).

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(٧).

قال عدد من المفسرين في بيان بعض ما جاء في الآيات:

الصلصال: الطين الأسود اليابس المُنتِن الذي يتردد منه الصوت إذا وطئ.

١. سورة النساء:١.
٢. سورة الرحمن:١٤.
٣. سورة المؤمنون:١٢.
٤. سورة الصافات:١١.
٥. سورة الحجر:٢٦.
٦. سورة الكهف:٣٧.
٧. سورة الحجر:١٢-١٤.

لازب: شديد الثبوت، لازق.

الفخار: الطين المطبوخ بالنار.

جاء في «موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم» أنه من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في خلق آدم يمكن القول أنّ خَلْقَه مرّ في ثلاثة أطوار رئيسة هي: طور التخليق، طور التصوير، طور نفخ الروح.

الطور الأول، طور التخليق: ويتضمن أربع مراحل رئيسة، هي:

١. المرحلة الأولى، التراب، ويعد البداية الحقيقية لخلق الإنسان الأول، أي آدم «عليه السلام». قال «تعالى»: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[١]، فهذه الآية صريحة في أن آدم خُلق من تراب، وقد أشار القرآن الكريم في آيات أخرى منه إلى خلق آدم من تراب، فقال «تعالى»: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ**﴾[٢]، وقال «جل شأنه»: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا**﴾[٣].

تعليق: يرِد على هذا الكلام السابق في الموسوعة ما ذكرت مسبقاً من أن الآيتين الأخيرتين لا تتحدثان عن خصوص آدم، بل عن الإنسان، وليس فيها تصريح عن أن آدم صُنع بشكل مباشر من التراب، وإن احتملت ذلك.

٢. المرحلة الثانية، الطين. وهذه هي المرحلة التي يصير فيها التراب طيناً،

١. سورة آل عمران:٥٩.

٢. سورة الروم: ٢٠.

٣. سورة فاطر: ١١.

قال «تعالى»: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ**﴾[١]، والطين ناتج عن خلط التراب بالماء، والماء يمثّل عنصراً أساسياً في كافة الكائنات الحية، وذلك تصديقاً لقوله «تعالى»: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**﴾[٢]، وقوله «سبحانه»: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ**﴾[٣]، ويلاحَظ أن هذا الطين بالنسبة للإنسان الأوّل، وهو آدم «عليه السلام» كان طيناً لازباً: ﴿**فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ**﴾[٤] واللازب هو شديد الثبوت.

تعليق: لا دليل على أن الآية تعني أن الإنسان الأول - آدم - قد صُنع من هذا الطين بشكل مباشر، فهي تحدثت عن أصل الإنسان على العموم، ولم تخص آدم بالذِّكر، ولا يخفى ما بين الأمرين من اختلاف.

٣. المرحلة الثالثة، خلقه من حمأ مسنون. بعد ذلك يتغير الطين اللازب إلى أن يصير طيناً متغيّر الرائحة أسود، وهو ما سماه القرآن الريم بالحمأ المسنون، قال «تعالى»: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾[٥].

فالحمأ جمع حمأة، وهو الطين الأسود المتغير. والمسنون، قيل: إنه المصوَّر، مِن سُنّة الوجه، وهي صورته. وقيل: المسنون، المنتن المتغيّر، من قولهم: قد أسن الماء، إذا تغيّر. والمعنى متقارب، فإن هذا الطين المنتن المتغيّر الأسود حين تماسك، صوّره الله تلك الصورة الإنسانية.

---

١. سورة ص: ٧١.
٢. سورة النور: ٤٥.
٣. سورة الأنبياء: ٣٠.
٤. سورة الصافات: ١١.
٥. سورة الحجر:٢٦.

تعليق: كيف يكون المعنى متقارباً بين التغيّر من حيث الرائحة «الإنتان» والتغيّر من حيث الشكل والصورة؟

٤. المرحلة الرابعة، خلقه من صلصال كالفخار. والمراحل السابقة مجتمعة أدّت إلى مرحلة الصلصال هذه. قال «تعالى»: ﴿**خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخّارِ**﴾[١]. والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي: صوتٌ إذا قُرِع بشئ. وهذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخاراً، لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار.

تعليق: ويمكن تصوّر الترتيب بين الأوصاف السابقة كالتالي:

تراب ← طين لازب ← حمأ مسنون ← صلصال كالفخار

ثم تحدثت الموسوعة عن الطور الثاني، وهو طور التصوير، يقول الله «عز وجل»: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمّ صَوّرْنَاكُمْ ثُمّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السّاجِدِينَ**﴾[٢]. ويلاحظ من خلال هذه الآية الكريمة أن مرحلة التصوير ثانية بعد الخلق، حيث عطفت جملة «صورناكم» بحَرف «ثم» الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رُتبة الخلق، فبعد أن خلقه الله من الطين، صوّره وسوّاه وجعله تمثالاً مجسّماً على صورة الإنسان، وهذا قبل أن ينفخ فيه الروح.

تعليق: كيف يتوافق هذا المعنى مع ما جاء مسبقاً من أن المراد من «مسنون» أي المصوّر، في حال أن التصوير حصل في مرتبة لاحقة وبعد زمن؟ ثم هل من

١. سورة الرحمن: ١٤.
٢. سورة الأعراف: ١١.

المحتوم أن نفهم الآية بالتدرّج الفوري المذكور في العبارة السابقة: (فبعد أن خلقه الله من الطين، صوّره وسوّاه وجعله تمثالاً مجسّماً على صورة الإنسان)؟ ألا يحتمل المعنى - أيضاً - أن الخلق من التراب والطين والحمأ والصلصال مرّ بتغيّرات - كما يقول التطوريّون - إلى أن صار بالهيئة الإنسانية الحالية؟

ثم انتقلت الموسوعة إلى الحديث عن الطور الثالث، طور نفخ الروح. بعد أن سوّى الله «عز وجل» الإنسان الأول، وهو آدم، أراد أن يبث فيه الحياة، نفخ فيه من روحه، فصار بشراً حياً. قال «تعالى»: ﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[1].

والنفخ إجراء الريح في الشئ. والروح جسم لطيف أجرى الله العادةَ بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم. وحقيقة الإضافة «روحي» إضافة خلق إلي خالق، فالروح خلْق من خلقه، أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً، كقوله: «أرضي»، و«سمائي»، و «بيتي»، و«ناقة الله»، و«شهر الله». ومثله: ﴿**وَرُوحٌ مِّنْهُ**﴾[2]. وإنما سُمّي إجراء الروح فيه نفخاً، لأنها جرت في بدنه مثل جري الريح فيه.

وبرأيي أن ما قمتُ به من فرز للآيات التي تتحدث عن آدم عن تلك التي تتحدث عن «الإنسان» أمر ضروري، وسيفتح لنا أفقاً جديداً - محتملاً - في فهمها ككل. فالآيات الخاصة بخلق «الإنسان» تتحدّث عن «النوع» الإنساني،

١. سورة الحجر: ٢٨-٢٩.

٢. سورة النساء:١٧١.

لا عن خصوص «آدم»، وهي تتضمن الإشارة إلى مراحل تغيّر المادة الأوّلية «التراب»، دون أن يعني ذلك - بالضرورة - أنّ ذلك الصلصال كالفخار «شُكِّل» على هيئة «آدم» ثم نُفخت فيه الروح، وإن كان هذا التفسير محتملاً، بل هو التصوّر الدارج في كلمات العلماء وفي تصوّر عامة الناس أيضاً.

وتبقى في البين آية تتحدث عن خلقة آدم من باب المقارنة مع خلقة عيسى بن مريم «عليهما السلام»: ﴿**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ**﴾[1]، والتي قد يُفهم منها تشكيل التراب - بعد تحوّله إلى صلصال كالفخار - على هيئة تمثال هو «آدم»، ثم نفخ الروح فيه. ولكن هذا الفهم غير أكيد، إذ من المحتمل أن الآية تشير إلى قدرة الله في خلق عيسى من غير أب، تماماً كقدرته «سبحانه» على تحويل التراب إلى مخلوق حي هو آدم، دون التفصيل في كيفية هذا «التحوّل»، وهل هو شبه مباشر كما في الاحتمال الأول، أم أنه تمّ بصورة «تطورية» غير مباشرة.

هذا الأفق الجديد يفتح المجال لإعادة قراءة وتقييم نظرية التطوّر التي دخلت عليها تعديلات كثيرة على مدى عقود من الزمن كاحتمال علمي لا يتعارض ولا يتصادم مع ما جاء في القرآن الكريم من حديثٍ عن خلق الإنسان عموماً، وآدم على وجه الخصوص.. لاسيما وأن علماء الأحياء في هذا العصر، وبعد الاكتشفات الأحفورية الكثيرة باتوا شبه مجمعين عليها، بما يُكسبها قوة يصعب على الباحث الجاد تجاوز معطياتها بسهولة، وتجعله في تردّد لنفيها بصورة قطعية تمسّكاً بالفهم الديني التقليدي للنصوص القرآنية، أو من

١. سورة آل عمران:٥٩.

خلال بعض الملاحظات حول مصداقية علماء الأحياء وأبحاثهم ودوافعهم، أو لما تقدّمه هذه النظرية من تشجيع للبعض لنفي وجود الإله الخالق «سبحانه وتعالى»، وإن كان الواقع أن فرض صحة النظرية لا يعني نفي وجود الخالق، بل قد يكون الأمر متحققاً من خلال إبداع الخالق الذي جعل من المادة غير الحية كائناً حياً أوّلياً، وأودع فيه من القوانين والأسرار ما يجعل فيه القابلية لأن يتحوّل إلى كائنات أكثر تطوّراً، وفي هذا - إن صح - آية من آيات الإبداع والعلم والعظمة والقدرة الإلهية... والله أعلم بحقيقة خلقه.

• خلق آدم في روايات الإمامية:

١. روى المجلسي عن كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي بصير قال: (سأل طاوس اليماني أبا جعفر «عليه السلام»: لمَ سُمّي آدمُ آدم؟ قال: لأنه رُفِعَت طينته من أديم الأرض السفلى، قال: فَلِم سُمِّيت حوّاء حوّاء؟ قال: لأنها خُلقت مِن ضِلع حي، يعني ضلع آدم).

قال المجلسي معلّقاً: (اشتقاق حواء من الحي أو الحيوان لكون الأُولى) أي حواء (واوياً، والآخريان) أي الحي - الحيوان (من اليائي يخالف القياس، ويمكن أن يكون مبنياً على قياس لغة آدم «عليه السلام»، أو يكون مشتقاً من لفظ يكون في لغتهم بمعنى الحياة، مع أنه كثيراً ما يرِدُ الاشتقاقُ في لغة العرب على خلاف قياسهم فيسمونه سماعياً وشاذاً. فليكن هذا منها)[1].

٢. وروى أيضاً عن تفسير العياشي ما يفنّد روايات خلق حواء من ضلع آدم: (عن عمرو بن أبي المقدام، عن أبيه قال: سألت أبا جعفر «عليه السلام»:

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص١٠٠.

من أي شيء خَلق الله حواء؟ فقال: أي شيء يقول هذا الخلق؟ قلت: يقولون: إنّ الله خلقها من ضلع من أضلاع آدم. فقال: كذبوا، كان يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه؟ فقلت: جُعلت فداك يا ابن رسول الله، من أي شيء خلقها؟ فقال: أخبرني أبي، عن آبائه «عليهم السلام» قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إن الله «تبارك وتعالى» قبض قبضة من طين فخلطها بيمينه - وكلتا يديه يمين -) يرد هذا التعبير مكرراً في الأحاديث المروية في كتب السنة والشيعة ولربما يُراد منه التأكيد على مجازية التعبير، وأنه ليست لله يد مادية، بل هو كناية عن قدرته (فخلق منها آدم، وفَضَلت من الطين فخلق منها حواء)[1].

٣. ثم لاحظ ما سيأتي في الرواية التالية الواردة في كتاب علل الشرائع للصدوق قال: (في خبر ابن سلَام) عبدالله بن سَلاَم بن الحارث، من أحبار يهود بني قينقاع ومن ذرية النبي يوسف «عليه السلام». أسلم بعد هجرة النبي «صلى الله عليه وآله» إلى المدينة، وروي أنه سأل النبي ثلاثة أسئلة حينما لقاه أوّل مرّة، فأسلم. والأسئلة الواردة في روايتنا هذه غير موجودة في الرواية الرئيسة التي تتحدث عن إسلامه (أنه سأل النبي «صلى الله عليه وآله» عن آدم، لم سُمّي آدم؟ قال: لأنه خُلق من طين الأرض وأديمها، قال: فآدم خُلق من الطين كله أو من طين واحد؟ قال: بل من الطين كله، ولو خُلق مِن طين واحد لما عَرف الناسُ بعضَهم بعضاً، وكانوا على صورة واحدة، قال: فلهم في الدنيا مثل؟ قال: التراب فيه أبيض وفيه أخضر وفيه أشقر وفيه أغبر وفيه أحمر

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص ١١٦.

وفيه أزرق وفيه عذب وفيه ملح وفيه وفيه خشن وفيه لين وفيه أصهب، فلذلك صار الناس فيهم لين وفيهم خشن وفيهم أبيض وفيهم أصفر وأحمر وأصهب وأسود على ألوان التراب. قال : فأخبرني عن آدم خُلق من حواء أو خُلقت حواء من آدم؟ قال: بل حواء خُلقت من آدم، ولو كان آدم خُلق من حواء لكان الطلاق بيد النساء، ولم يكن بيد الرجال. قال: فمن كُلّه خُلقت أم من بعضه؟ قال: بل من بعضه، ولو خُلقت من كله لجاز القصاص في النساء كما يجوز في الرجال) قال «تعالى»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى**﴾[1] ذهبت الإمامية إلى أن ولي دم المرأة مُخيّر بين المطالبة بديتها، ومطالبة الرجل القاتل بالقصاص، بشرط أداء نصف دية الرجل. وذهب الجمهور من أهل السنة إلى أن الرجل يُقتل بالمرأة من غير أن يرد إلى ورثته شئ من الدية معتبرين أن الآية السابقة منسوخة بقوله «تعالى»: ﴿**وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ**﴾[2] وخالف في ذلك الحسن البصري وعطاء بن أبي رباح، فأنكرا النسخ، وذهبا إلى أن الرجل لا يُقتل بالمرأة. ويبدو أن الرواية جاءت متوافقة مع قول الأخيرين، بل لربما مع قول الإمامية أيضاً إن فسّرنا الكلام المنسوب للنبي «صلى الله عليه وآله» بأنه إنكار للمساواة لا إنكار لأصل القصاص (قال: فمن ظاهره أو باطنه؟ قال: بل من باطنه، ولو خُلقت من ظاهره لانكشفن النساء كما ينكشف الرجال، فلذلك صار النساء مستترات. قال: فمن يمينه أو من

١. سورة البقرة: ١٧٨.

٢. سورة المائدة:٤٥.

شماله؟ قال: بل من شماله، ولو خلقت من يمينه لكان للأنثى كحظ الذكر من الميراث، فلذلك صار للأنثى سهم وللذكر سهمان، وشهادة امرأتين مثل شهادة رجل واحد. قال: فمن أين خُلقت؟ قال: من الطينة التي فضلت من ضلعه الأيسر)[١].

من الواضح أن الرواية السابقة جعلت من المسألة التكوينية المفترَضة علّة في الأحكام التشريعية، وسبيلاً لفهم التمايزات الواقعة بلحاظ الجنس، وهو إن كان عائداً إلى تمايزات القدرات الجسدية مثلاً أو النفسية أو العقلية، فبها، ولكن أن يكون التمايز مبنياً على الطين ذاته، فهو مما لا يصح قبوله وفق معناه الظاهري. ولا شك أن أسئلةً كانت تدور في أذهان الناس حول أسباب وجود الاختلافات الشكلية والفكرية وغير ذلك مما يميّز الناس عن بعضهم البعض، وكذلك الاختلاف بين الجنسين، الذكر والأنثى، وحول ما جاء في القرآن من كلام ووصف حول هذه الموضوعات، وحول ما ورثته المجتمعات البشرية التي عرفت الإسلام من موروثات فكرية وعقدية وأسطورية وقصصية حول هذه القضايا وأمثالها، وبقيت متداولة عندهم، ودخلت عن قصد أو دون قصد في الموروث الروائي والتفسيري والعقدي.

ويشعر الباحث أحياناً أن في بعضها محاولات ومساعٍ للتوفيق فيما بينها ولو بصورة تعسّفية.. لعل من شواهد ذلك ما جاء في ذيل الرواية الأخيرة من أن حواء خُلقت من الطينة التي فضلت من ضلع آدم الأيسر.. فمثل هذا التعبير لم يلغ فكرة خلق حواء من الضلع، كما حاول أن يتناغم مع الروايات

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص ١٠١.

الرافضة لمثل هذه المقولة، وعدم وجود شيء من هذا القبيل في القرآن الكريم.

٤. رواية أخرى ينقلها المجلسي عن كتاب علل الشرائع للصدوق: (الدقاق، عن الكليني، عن علّان رفعه قال: أُتي أميرُ المؤمنين بيهودي فقال: لم سُمّي آدم آدم، وحواء حواء؟ قال: إنما سُمّي آدم آدم لأنه خُلق من أديم الأرض، وذلك أن الله «تبارك وتعالى» بعث جبرئيل «عليه السلام» وأمره أن يأتيه من أديم الأرض بأربع طينات: طينة بيضاء، وطينة حمراء، طينة غبراء، وطينة سوداء، وذلك من سهلها وحزَنها، ثم أمره أن يأتيه بأربع مياه: ماء عذب، وماء ملح، وماء مر، وماء منتن، ثم أمره أن يُفرغ الماء في الطين، وأدمه الله بيده فلم يفضل شيء من الطين يحتاج إلى الماء، ولا من الماء شيء يحتاج إلى الطين، فجعل الماء العذب في حلقه، وجعل الماء المالح في عينيه، و جعل الماء المُر في أذنيه، وجعل الماء المنتن في أنفه، وإنما سميت حواء حواء لأنها خُلقت من الحيوان)[1].

٥. واستغرق بعض الرواة في خيالهم، ونسبوا لبعض الأئمة «عليهم السلام» تفاصيل غريبة حول كيفية خلق آدم من الطين، وكأنها إضافات لما جاء في الروايات السابقة، ومن بينها ما رواه المجلسي عن كتاب قصص الأنبياء بسند: (عن محمد الحلبي، عن أبي عبدالله «عليه السلام» قال: إن القبضة التي قبضها الله «تعالى» من الطين الذي خلق آدم «عليه السلام» منه أرسل الله إليها جبرئيل أن يأخذ منها إن شاء، فقالت الأرض: أعوذ بالله أن تأخذ مني شيئاً، فرجع فقال: يا رب، تعوّذَت بك، فأرسل الله «تعالى»

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص ١٠٢.

إليها إسرافيل وخيّره، فقالت: مثل ذلك، فرجع، فأرسل الله إليها ميكائيل وخيّره أيضاً، فقالت مثل ذلك، فرجع، فأرسل الله إليها ملك الموت فأمره على الحتم، فتعوذّت بالله أن يأخذ منها، فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بالله أن أرجع إليه حتى آخذ منك قبضة، وإنما سُمّي آدم لأنه أُخذ من أديم الأرض)[١].

ويبدو لي أن للرواية أصلاً سابقاً قد وُضع على لسان بعض أصحاب النبي «صلى الله عليه وآله»، وأحبَّ البعض أن يعيدوا إنتاجه ضمن مرويات مدرسة أهل البيت «عليهم السلام»، وإن كان من المحتمل أن الإنتاج كان في وقت واحد أو متقارب جداً، ولكن نُسب تارة إلى صحابي وأخرى إلى إمام، كي تتغلغل الأسطورة إلى مصادر الفريقين، وهو ما تحقق بالفعل.

لاحظ الرواية التالية: قال ابن كثير: (وقد ذكر السدّي، عن أبي مالك، وأبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قالوا: فبعث الله «عز وجل» جبريل في الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض: أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو تشينني، فرجع ولم يأخذ. وقال: رب إنها عاذت بك فأعذتها. فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها، فرجع. فقال كما قال جبريل، فبعث ملك الموت، فعاذت منه. فقال: وأنا أعوذ بالله أن أرجع، ولم أنفذ أمره، فأخذ من وجه الأرض وخلطه، ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربة بيضاء، وحمراء، وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مختلفين، فصعد به فبلّ التراب حتى عاد طينًا لازبًا». واللازب: هو الذي يلزق بعضه ببعض. ثم قال

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص ١١٣.

للملائكة: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾[١]. فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه) لاحظ التجسيم في العبارة (فخلقه بشرًا فكان جسدًا من طين أربعين سنة، من مقدار يوم الجمعة، فمرّت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه، وكان أشدّهم منه فزعًا إبليس، فكان يمرّ به فيضربه، فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخار، يكون له صلصلة فلذلك حين يقول: ﴿**مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾ ويقول لأمرٍ ما خُلقْت، ودخل من فيه وخرج من دبره، وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا، فإنّ ربَّكم صمَد[٢] وهذا أجوف) يريد الراوي أن يوحي للقاريء أن خوف إبليس والملائكة كان ناشئاً من احتمالهم أن هذا الجسم الصلصالي هو الله! (لئن سُلِّطتُ عليه لأهلكتُه. فلما بلغ الحين الذي يريد الله «عز وجل» أن ينفخ فيه الروح، قال للملائكة: إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه من الروح فدخل الروح في رأسه عطس، فقالت الملائكة: قل الحمد لله. قال: الحمد لله. فقال له الله: رحمك ربُّك. فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخلت الروح في جوفه اشتهى الطعام، فوثب قبل أن تبلغ الروح إلى رجليه عجلان إلى ثمار الجنة، وذلك حين يقول الله «تعالى»: ﴿**خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾[٣]). ثم علّق ابن كثير قائلاً: (ولبعض هذا السياق شاهد من الأحاديث، وإن كان كثيرٌ منه متلقّى من الإسرائيليات)[٤].

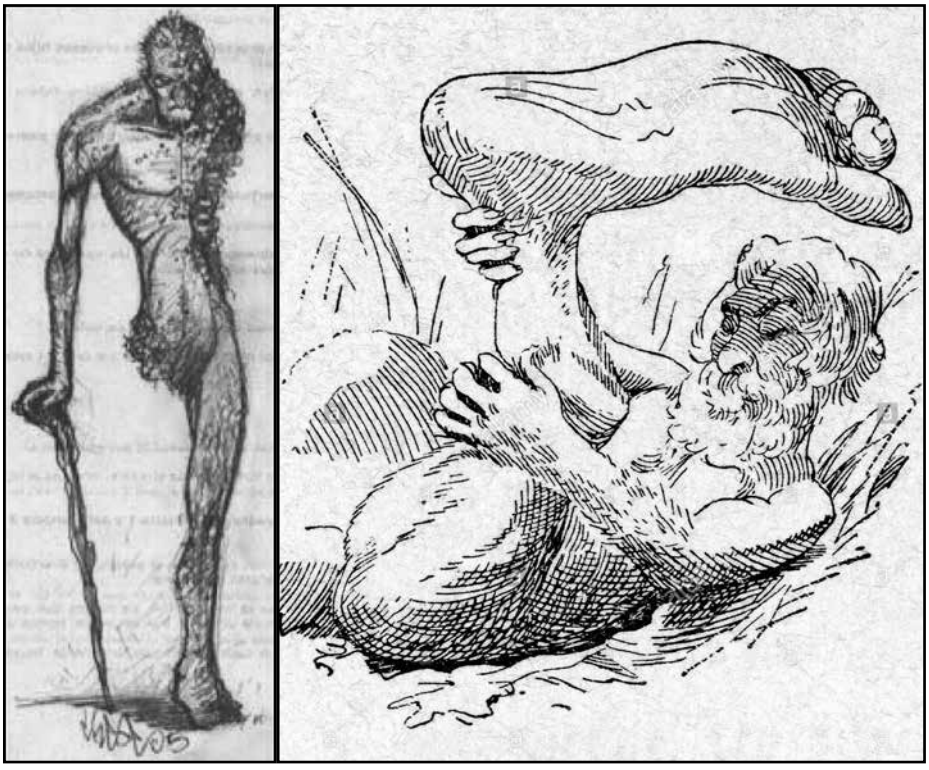
١. سورة ص : ٧١-٧٢.

٢. أي مصمت.

٣. سورة الأنبياء: ٣٧.

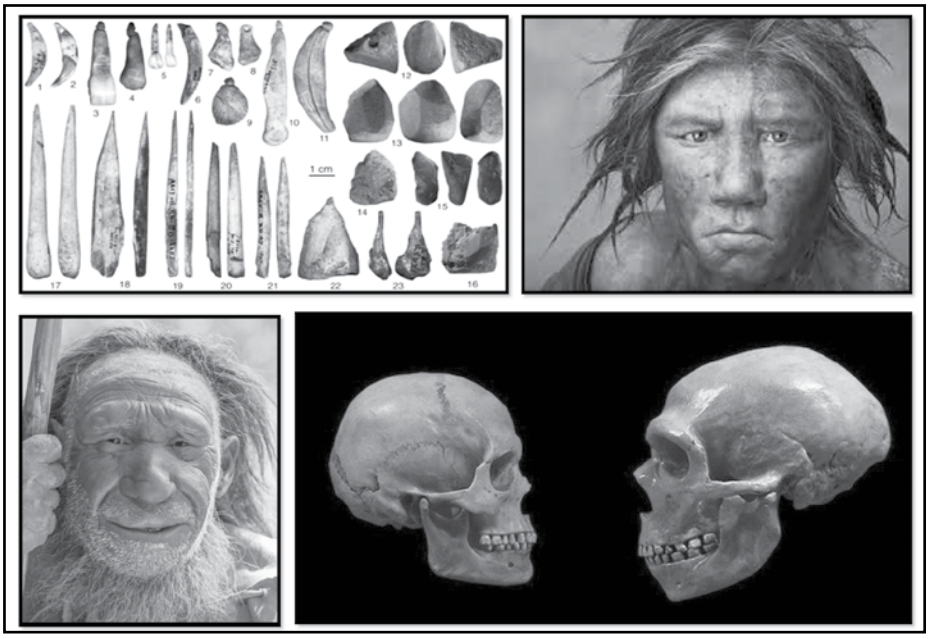
٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١، ص ٩٥- ٩٦.

٦. وروى المجلسي عن تفسير القمي رواية مسندة عن الإمام الباقر «عليه السلام» عن كتاب الإمام علي «عليه السلام» وهي مفصّلة حول الخلق ما قبل الإنسان، وكيف خلق الله آدم، وحول طبيعة الجنس البشري، وما يؤثّر في سعادته وشقائه، وأطباعه وصحّته، وأمور أخرى عديدة، وفيها من موروثات اليونان من الطب القديم، ولربما من الموروث الشعبي لبعض الثقافات التي سبقت الإسلام، واستشهادات من القرآن. والرواية مسندة عن: (عن جابر الجعفي، عن أبي جعفر الباقر، عن آبائه، عن علي «عليهم السلام» قال: إن الله «تبارك وتعالى» أراد أن يخلق خلقاً بيده وذلك بعد ما مضى الجن والنسناس في الأرض سبعة آلاف سنة) في بعض الروايات والتراث الأدبي العربي القديم، فإن «النسناس» مخلوق هجين من تزاوج الجن والإنس، أو مخلوق بدائي شبيه بالإنسان، ولا يمكنه السير إلا قفزاً لأن له رجلاً واحدة فقط، ولا يتكلم بل يُصدر أصواتاً غريبة ومخيفة وكأصوات الطيور، وأحياناً كالصراخ. له ذيل يساعده على توازن جسده! وهو قادر على أن يصرع أي إنسان بيد واحدة. ذُكر النسناس في كتاب «المعارف» لابن قتيبة الدينوري، وكتاب «سير أعلام النبلاء» لشمس الدين الذهبي، وكتاب «المستطرف في كل فن مستظرف» لبهاء الدين الأبشيهي، وكتاب «غريب الحديث» لابن الجوزي. وقال ابن الأثير: هم يأجوج ومأجوج، وقيل: خلق على صورة الناس أشبهوهم في شيء وخالفوهم في شيء، وليسوا من بني آدم. ورد ذكر النسناس في التراث اليوناني على أنها كائنات تشبه الأقزام، وذات قدم واحدة كبيرة ممتدة من ساق تتركز في منتصف أجسامها. وتسمى بأسماء



لوحة تخيلية للنسناس Monopod

عدة في اللغة اليونانية منها Monopod يعني ذات القدم الواحدة. وبغض النظر عن بعض التصورات الخرافية في ما ذُكر في وصف النسناس إلا أن علوم الآثار والأحافير والجينات أيضاً أثبتت وجود أنواع مختلفة من الإنسان، وأقل ذكاء من الإنسان العاقل الحديث. ومن بينها النياندرتال الذي عاصر الإنسان العاقل الحديث وتزاوج معه ووُصف بقصر قامته مقارنة بالإنسان الحديث، وبقوته البدنية، وبنيته العضلية المميزة. عاش النياندرتال ما بين ٢٠٠,٠٠٠-٤٠,٠٠٠ تقريباً، وتمركز في أوروبا وامتد إلى الصين شرقاً ونزولاً



آثار وجمجمة وشكلان تخيليان للنياندرتال

إلى شمال العراق وبلاد الشام، وانقرض وترك آثاراً من رؤوس الرماح وأدوات الصيد والتقطيع. يكاد لا يخلو أحد من الناس المعاصرين من جينات ورثوها عن النياندرتال، عدا بعض سكان أفريقيا (وكان من شأنه خلق آدم، كشَط عن أطباق السماوات) وكأنه أزال حاجباً ليروا ما يجري على الأرض (قال للملائكة: انظروا إلى أهل الأرض من خلقي من الجن والنسناس، فلما رأوا ما يعملون من المعاصي وسفك الدماء والفساد في الأرض بغير الحق، عَظُم ذلك عليهم وغضبوا لله وتأسّفوا على أهل الأرض ولم يملكوا غضبهم فقالوا: ربَّنا أنت العزيز القادر الجبار القاهر العظيم الشأن، وهذا خلقُك الضعيف الذليل يتقلّبون في قبضتك ويعيشون برزقك ويستمتعون بعافيتك، وهم يعصونك بمثل هذه الذنوب العظام. لا تأسف عليهم ولا تغضب ولا تنتقم لنفسك لِمَا تسمع

منهم وترى؟! وقد عَظُم ذلك علينا وأكبرناه فيك. قال: فلما سمع ذلك من الملائكة قال: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» يكون حجة في أرضي على خلقي، فقالت الملائكة: سبحانك «أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا» كما أفسد بنو الجان ويسفكون الدماء كما سفكت بنو الجان، ويتحاسدون ويتباغضون؟ فاجعل ذلك الخليفة منّا فإنا لا نتحاسد ولا نتباغض ولا نفسك الدماء ﴿**وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ فقال «جل وعز»: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ إني أريد أن أخلق خلقاً بيدي، وأجعل من ذريته أنبياء ومرسلين، وعباداً صالحين، وأئمة مهتدين، أجعلهم خلفاء على خلقي في أرضي ينهونهم عن معصيتي، وينذرونهم من عذابي، ويهدونهم إلى طاعتي، ويسلكون بهم سبيلي، وأجعلهم لي حجة عليهم وعذراً ونذراً، وأبِينَ النسناس عن أرضي، وأطهّرها منهم، وأنقل مردة الجن العصاة عن بريتي وخلقي وخيرتي، وأسكنهم في الهواء وفي أقطار الأرض فلا يجاورون نسل خلقي، وأجعل بين الجن وبين خلقي حِجاباً، فلا يرى نسلُ خلقي الجنَّ ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم، فمن عصاني مِن نسل خلقي الذين اصطفيتهم، أُسكنهم مساكن العصاة وأوردتهم مواردهم ولا أبالي. قال: فقالت الملائكة: يا ربنا، افعل ما شئت ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾. قال: فباعدَهم الله من العرش مسيرة خمسمائة عام، قال: فلاذوا بالعرش فأشاروا بالأصابع، فنظر الرب «جل جلاله» إليهم ونزلت الرحمة فوضع لهم البيت المعمور فقال: طوفوا به، ودعوا العرش فإنه لي رضا. فطافوا به وهو البيت الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه أبداً، فوضع الله البيت المعمور توبة لأهل السماء، ووضع الكعبةَ توبةً لأهل

الأرض، فقال الله «تبارك وتعالى»: ﴿**إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**﴾. قال: وكان ذلك من الله تقدمة في آدم قبل أن يخلقه واحتجاجاً منه عليهم، قال: فاغترف ربُّنا «تبارك وتعالى» غُرفة بيمينه من الماء العذب الفرات - وكلتا يديه يمين - فصلصلها في كفه حتى جمُدَت، فقال لها: منكِ أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين والأئمة المهتدين والدعاة إلى الجنة وأتباعهم إلى يوم القيامة، ولا أبالي، ولا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون. ثم اغترف غرفة أخرى من الماء المالح الأجاج فصلصلها في كفه فجمدث ثم قال لها: منك أخلق الجبارين والفراعنة والعتاة وإخوان الشياطين والدعاة إلى النار إلى يوم القيامة وأشياعهم ولا أبالي ولا أُسأل عما أفعل وهم يُسألون. قال: وشرط في ذلك البَداء فيهم) أي إمكانية تبديل المصير من الضلالة إلى الهداية (ولم يشترط في أصحاب اليمين البداء، ثم خلط الماءين جميعاً في كفه في أصحاب اليمين البداء، ثم خلط الماءين جميعاً في كفه فصلصلهما ثم كفأهما قدام عرشه وهما سلالة من طين، ثم أمر الملائكة الأربعة: الشمال والجنوب والصبا والدَّبُور أن يجولوا على هذه السلالة الطين فأبدوها وأنشؤوها، ثم أبروها وجزّوها وفصلوها وأجروا فيها الطبائع الأربعة: الريح والدم والمُرّة والبلغم، فجالت الملائكة عليها، وهي الشمال والجنوب والصبا والدبور) أنواع الريح عند العرب عديدة من بينها: الصبا، ريح تأتي من الشرق إلى الغرب، طيّبة النسيم. والدبور: الرياح التي تعاكس الصبا وتأتي من الغرب إلى الشرق، وهي تهب أول الليل وآخر النهار، وأشد من الصبا. والشمالي: الرياح التي تهب

من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي، وهي باردة (وأجروا فيها الطبائع الأربعة، فالريح من الطبائع الأربعة من البدن من ناحية الشمال، والبلغم في الطبائع الأربعة من ناحية الصبا، والمُرّة في الطبائع الأربعة من ناحية الدَّبُور. والدم في الطبائع الأربعة من ناحية الجنوب) كان التشخيص والعلاج في الطب القديم مبنياً على فكرة الأخلاط الأربعة: البلغم، المرّة الصفراء، المرّة السوداء، الدم. وعلى الأمزجة: الحرارة، الرطوبة، البرودة، اليبوسة. وجعلَوا الغالبَ على كلٍّ خلط منها طبيعةَ ... فجعلوا طبيعةَ الدَّم طبيعة الهواءِ التي هي الحرارةُ والرطوبةُ، وطبيعةَ المرَّةِ الصفراءِ طبيعةَ النارِ التي هي الحرارةُ واليبوسةُ، وطبيعةَ المرَّةِ السوداءِ طبيعةَ الأرضِ التي هي البرودةُ واليبوسةُ، وطبيعةَ البلغمِ طبيعةَ الماءِ التي هي البرودةُ والرطوبةُ (قال: فاستقلّت النسَمة وكَمُل البدن، فلزمه من ناحية الريح حُب النساء وطول الأمل والحرص، ولزمه من ناحية البلغم حب الطعام والشراب والبِر والحلم والرفق، ولزمه من ناحية المُرّة الغضب والسفه والشيطنة والتجبّر والتمرّد والعجلة، ولزمه من ناحية الدم حُب الفساد واللذات وركوب المحارم والشهوات، قال أبو جعفر «عليه السلام»: وجدْنا هذا في كتاب أمير المؤمنين «عليه السلام»)[1].

ومثل ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده: (حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا أبو الربيع، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدريس، عن أبي الدرداء، عن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: «خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفَه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الدُّر، وضرب كتفه اليسرى

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص ١٠٣.

فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحِمم، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ولا أبالي، وقال للذي في كتفه اليسرى إلى النار ولا أبالي»[١]. وفي الرواية شُبهة الجبر.

وفي بعض الروايات حديث عن وجود خلق «آدمي» قبل «آدم» الذي ننحدر من سلالته، وهي وإن اختلفت في تعدادهم، وبالغت في الأرقام أحياناً، إلا أنها تتفق على أن مجموعات من النسل «البشري» وُجدت من قبل وانقرضت، وستوجد من بعدنا أيضاً.

٧. بل وظاهر العبارة في الرواية التالية أن هؤلاء الآدميين عاشوا في عوالم أخرى تختلف عن عالمنا هذا، وأن الذين سيخلقهم الله من بعدنا ستكون لهم أيضاً عوالمهم الخاصة، فقد روى المجلسي عن كتاب الخصال للشيخ الصدوق بسنده عن عمرو بن شمر – قال عنه النجاشي: «عمرو بن شمر أبو عبد الله الجعفي، عربي، روى عن أبي عبد الله «عليه السلام»، ضعيف جداً، زيّد أحاديث في كتب جابر الجعفي يَنسب بعضها إليه، والأمر ملتبس – عن جابر بن يزيد قال: (قال: سألت أبا جعفر «عليه السلام» عن قول الله «عز وجل»: ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾[٢]، فقال: يا جابر، تأويل ذلك أن الله «عز وجل» إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم، وأسكن أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، جدّد الله «عز وجل» عالَماً غير هذا العالم، وجدّد خلقاً مِن غير فحولة ولا إناث، يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض تحملهم، وسماء غير هذه السماء تُظلّهم، لعلك ترى أن الله «عز وجل» إنما

١. ابن حنبل: المسند، ج ١٨، ص ٥٦٥.

٢. سورة ق : ١٥.

خلق هذا العالم الواحد وترى أن الله «عز وجل» لم يخلق بشراً غيركم؟ بلى والله لقد خلق الله «تبارك وتعالى» ألفَ ألف عالم، وألفَ ألف آدم، أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميين)[١].

٨. وقد أسبقها المجلسي برواية عن كتاب الخصال للشيخ الصدوق بسنده عن محمد - ولعله ابن مسلم - قال: (قال: سمعت أبا جعفر «عليه السلام» يقول: لقد خلق الله «عز وجل» في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين، ليس هم مِن ولد آدم، خلقهم من أديم الأرض، فأسكنهم فيها واحداً بعد واحد مع عالَمه، ثم خلق الله «عز وجل» أبا هذا البشر، وخلق ذريتَه منه. ولا والله، ما خَلَت الجنة من أرواح المؤمنين منذ خلقها، ولا خلَت النار من أرواح الكفار والعصاة منذ خلقها «عز وجل»، لعلكم ترون أنه إذا كان يوم القيامة وصيّر الله أبدان أهل الجنة مع أرواحهم في الجنة، وصيّر أبدان أهل النار مع أرواحهم في النار، أنّ الله «تبارك وتعالى» لا يُعبَد في بلاده، ولا يَخلق خلقاً يعبدونه ويوحّدونه ويعظّمونه، ويخلق لهم أرضاً تحملهم، وسماء تُظلّهم؟ أليس الله «عز وجل» يقول: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾[٢]؟ وقال الله «عز وجل» ﴿**أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾)[٣].

ويمكن التعليق على الروايتين كالتالي:

أ. الفرق بين الرقمين كبير جداً جداً.

---

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٧٤.

٢. سورة إبراهيم: ٤٨.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٧٤. والآية الأخيرة من سورة ق : ١٥.

ب. وفي الرواية الثانية حديث عن عدم خلو الجنة والنار من أرواح المنعّمين والمعذّبين، وهي الجزئية التي لم تتحدّث عنها الرواية التي سبقتها.

ج. هذه الرواية تتحدث عن حياة من سبقونا على نفس هذه الأرض على خلاف الرواية التي سبقتها.

وهكذا فقد تحدثت بعض الروايات عن الجنة التي عاش فيها آدم وأُخرج منها.. أكانت في الأرض أم هي جنة الخلد، أم جنة سواها؟

٩. روى المجلسي عن كتاب علل الشرائع للشيخ الصدوق بسنده عن الحسن بن بشار، عن أبي عبدالله «عليه السلام» قال: (سألته عن جنة آدم، فقال: جنة من جنان الدنيا يطلع عليها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الخلد ما خرج منها أبداً)[١].

وبعد أن روى رواية ثانية شبيهة بها عن تفسير القمي، علّق المجلسي قائلاً: (اختُلف في جنة آدم «عليه السلام» هل كانت في الأرض أم في السماء؟ وعلى الثاني هل هي الجنة التي هي دار الثواب أم غيرها؟ فذهب أكثر المفسرين وأكثر المعتزلة إلى أنها جنة الخلد، وقال أبو هاشم:) الجبّائي من رؤساء المعتزلة توفي سنة ٣٢١ هـ (هي جنة من جنان السماء غير جنة الخلد. وقال أبو مسلم الأصفهاني) من مفسّري المعتزلة توفي سنة ٣٢٢هـ (وأبو القاسم البلخي) الكعبي من رؤساء المعتزلة توفي سنة ٢٧٣هـ (وطائفة: هي بستان من بساتين الدنيا في الأرض، كما يدل عليه هذان الخبران، وإن أمكن اتحادهما. واحتج الأوّلون) أي القائلون بأنها جنة الخلد (بأن الظاهر أن الألف واللام

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٤٣.

للعهد، والمعهود المعلوم بين المسلمين هي جنة الخلد، وبأن المتبادر منها جنة الخلد حتى صار كالعلَم لها، فوجب الحمل عليها) ثم علّق المجلسي رافضاً القول والدليل السابق بقوله: (وجوابهما ظاهر. واحتجّت الطائفة الثانية) أنها من جنان السماء ولكن ليست جنة الخلد (بأن قوله «تعالى»: ﴿**اهْبِطُوا**﴾ يدل على الإهباط من السماء إلى الأرض، وليست بجنة الخلد كما سيُذكر، فلزم المطلوب. وأجيب بأن الانتقال من أرض إلى أخرى قد يُسمّى هبوطاً، كما في قوله «تعالى»: ﴿**اهْبِطُوا مِصْرًا**﴾[1]).

أما الرأي الذي يميل إليه المجلسي ودليله فقدّمه كالتالي: (لكن الظاهر من آخر الآية كون الهبوط من غير الأرض، ويؤيده ما سيأتي في حديث الشامي أنه سأل أمير المؤمنين «عليه السلام» عن أكرم واد على وجه الأرض، فقال له: واد يقال له: سرنديب) سرنديب هي التسمية العربية لجزيرة سريلانكا، أخذت من الكلمة السانسكريتية Simhaladvipa، التي تعني جزيرة السكنى بين الأسود. وقد سماها البرتغاليون سيلاو Ceilão ثم حوّل البريطانيون الاسم إلى سيلون Ceylon والعرب إلى سيلان. وهي ذات طبيعة خلابة (سقط فيه آدم من السماء). ثم ذكر المجلسي أدلة القائلين بأنها جنة على الأرض، قال: (واحتج القائلون بأنها من بساتين الأرض بوجوه:

الأول: أنها لو كانت دار الخلد لما خرج آدم منها لقوله: ﴿**وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ**﴾[2].

---

١. سورة البقرة: ٦٢.

٢. سورة الحجر: ٤٨.

الثاني: أن جنة الخلد لا يفنى نعيمها لقوله «تعالى»: ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾[١] ولقوله «تعالى»: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[٢] الآية).

وحيث أنه يستبعد هذا القول وأدلته، قال: (وأجيب عنهما بأن عدم الخروج إنما يكون إذا استقروا فيها للثواب). ثم أضاف: (وقد ذكروا وجوهاً أُخَر ذكروها في التفاسير والكتب الكلامية ولا نطيل الكلام بذكرها، وهذان الخبران وإن كانا يدلّان على المذهب الأخير) أي من جنان الأرض (لكن يعارضهما ظواهر بعض الأخبار كقول أمير المؤمنين «عليه السلام» فيما أوردنا في الباب السابق: «ووعدُه المردّ إلى جنته» وخبر الشامي وغيرهما مما سيأتي، فالجزم بأحد المذاهب لا يخلو من إشكال. والله «تعالى» يعلم)[٣].

• خلق آدم في روايات أهل السنة:

ذكرت بعض نماذج هذه المرويات خلال المقارنة بينها وبين بعض مرويات الإمامية في هذا الباب، وأستعرض هنا مجموعة أخرى منها، وردت في كتب وموسوعات متعددة، بعضها مفقود، وبعضها مخطوط، وبعضها مطبوع متداول، ومن بين هذه الكتب التي خُصِّصت لعرض الروايات المتعلقة ببدء خلق الإنسان، أو عرضتها ضمن العرض التاريخي العام للبشرية:

١. «عرائس المجالس في قصص الأنبياء» للثعلبي النيسابوري «ت٤٢٧هـ»

٢. «هبوط آدم» للهيثم بن عدي الطائي «ت ٢٠٧ هـ»

١. سورة الرعد: ٣٥.

٢. سورة هود: ١٠٨.

٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١١، ص ١٤٣- ١٤٤.

٣. «المبتدأ» لمحمد بن إسحاق «ت ١٥١هـ»

٤. «مبتدأ الدنيا وقصص الأنبياء» لإسحاق بن بشر «ت ٢٠٦ هـ»

٥. «المبدأ والمآل في التاريخ» لياقوت الحموي «ت ٦٢٦ هـ»

٦. «بدء الخلق وقصص الأنبياء» لمحمد بن عبدالله الكسائي «ت ٣٥٠هـ»

٧. «قصص الأنبياء» لابن كثير الدمشقي «ت ٧٧٤ هـ»

٨. «بدائع الزهور في وقائع الدهور» محمد بن أحمد الحنفي «ت ٩٣٠ هـ»

٩. «سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي» لعبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي «ت ١١١هـ»

١٠. «تاريخ الأمم والملوك» لمحمد بن جرير الطبري «ت ٣١٠ هـ»

١١. مؤلفات وهب بن منبه «ت ١١٤هـ» وهي «التيجان» و«كتاب الإسرائيليات» و«المبتدأ»

وغيرها كثير، وبعض هذه المخطوطات والمفقودات دخلت ضمن الكتب والموسوعات التي أُلِّفَت في عهود لاحقة، ويمكن التوصّل إليها من خلال الإشارة إلى المصدر في ضمن ذلك الكتاب أو الموسوعة، أو من خلال سند الخبر أيضاً.

وفيما يلي بعض تلك المرويات في كتب أهل السنة:

١. روى الطبري في تفسيره حكاية ابن عباس يرويها عنه الضحاك حول خلق آدم بشئ من التفصيل، وتشتمل على الربط بآيات قرآنية، في محاولة لبيان تأويلها، وهي تتشابه مع روايات سابقة مرّت علينا ضمن التراث الحديثي

لدى الإمامية. قال ابن عباس: (كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يُقال لهم الجن، خُلقوا من نار السموم من بين الملائكة، قال: وكان اسمه الحارث. قال: وكان خازناً من خزان الجنة. قال: وخُلقت الملائكة كلهم من نور، غير هذا الحي. قال: وخُلقت الجن الذين ذُكروا في القرآن من مارج من نار، وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا لهبت. قال: وخُلق الإنسان من طين، فأوّل مَن سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً. قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة، و هُم هذا الحي الذي يُقال لهم الجن، فقاتلهم إبليس ومَن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، فلما فعل إبليس ذلك اغترّ في نفسه وقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد. قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطّلع عليه الملائكة الذين كانوا معه[١]. فقال الله للملائكة الذين معه: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾، فقالت الملائكة مجيبين له: ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾، كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بُعثنا عليهم لذلك. فقال: ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[٢]، يقول: إني قد اطلعتُ من قلب إبليس على ما لم تطّلعوا عليه، من كِبره واغتراره. قال: ثم أمر بتُربة آدم فرُفعت، فخلق الله آدم من طين لازب - واللازبُ: اللزِجُ الصُّلب، من حمأ مسنون - مُنْتِن. قال: وإنما كان حمأ مسنوناً بعد التراب. قال: فخلق منه آدم بيده، قال فمكث أربعين ليلة جسداً ملقى، فكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيُصَلصِل -أي

١. إلى هنا تتوقف رواية ابن عباس كما رواها الطبري في تفسيره، بينما تستمر الرواية في تفسير الطبري لعرض المزيد من التفاصيل.

٢. سورة البقرة: ٣٠.

فيصوّت- قال: فهو قول الله: ﴿**مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾ «سورة الرحمن: ١٤». يقول: كالشيء المنفوخ الذي ليس بمُصْمت. قال: ثم يَدخل في فيه ويخرج من دُبُره، ويدخل من دُبُره ويخرج من فيه، ثم يقول: لست شيئًا! -للصّلصَلة- ولشيء ما خُلقت! لئن سُلِّطتُ عليك لأهلكنك، ولئن سُلِّطتَ علي لأعصِيَنّك. قال: فلما نفخ الله فيه من روحه، أتت النفخة من قبل رأسه، فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صَار لحماً ودماً. فلما انتهت النفخة إلى سُرّته، نظر إلى جسده، فأعجبه ما رأى من حُسنه، فذهب لينهضَ فلم يقدرْ، فهو قول الله: ﴿**وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا**﴾ «سورة الإسراء: ١». قال: ضَجِرًا لا صَبرَ له على سَرّاء ولا ضرّاء. قال: فلما تمت النفخة في جسده عطس، فقال: «الحمد لله ربّ العالمين» بإلهام من الله «تعالى»، فقال الله له: «يرحمُك الله يا آدم». قال: ثم قال الله للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: ﴿**اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ**﴾[١] لما كان حدّث به نفسه من كبره واغتراره. فقال: لا أسجُد له، وأنا خير منه وأكبرُ سنًّا وأقوى خَلْقًا، ﴿**خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[٢] - يقول: إن النار أقوى من الطين. قال: فلما أبَى إبليس أن يسجد أبلسه الله - أي آيسه من الخير كله، وجعله شيطاناً رجيماً عقوبةً لمعصيته. ثم علم آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان، ودابة، وأرْض، وسهلٌ، وبحر، وجبل، وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة - يعني الملائكة الذين كانوا مع إبليس،

١. سورة البقرة: ٣٤.

٢. سورة الأعراف: ١٢.

الذين خُلقوا من نار السموم - وقال لهم: ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ**﴾ - يقول: أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿**إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[١]، إن كنتم تعلمون أنّي لمَ أجعلُ خليفة في الأرض. قال: فلما علمت الملائكة مؤاخذةَ الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب، الذي لا يعلمه غيرُه، الذي ليس لهم به علم، قالوا: ﴿**سُبْحَانَكَ**﴾، تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيرُه - تبنا إليك، ﴿**لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا**﴾[٢]، تبرّيًا منهم من علم الغيب، إلا ما علمتنا كما علّمت آدم. فقال: ﴿**يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ**﴾ - يقول: أخبرهم بأسمائهم. ﴿**فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ**﴾ - أيها الملائكة خاصة - ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، ولا يعلمه غيري، ﴿**وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ**﴾ - يقول: ما تُظهرون - ﴿**وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[٣] - يقول: أعلم السرّ كما أعلم العلانية، يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار)[٤].

٢. رواية شهر بن حوشب الأشعري الشامي «ت ١١١هـ»، مولى أسماء بنت يزيد بْن السكن الأَنْصارِيّة. ولد في خلافة عثمان بن عفان، قرأ القرآن على عبد الله بن عباس، وروى عن مجموعة من بينهم تميم الداري الذي كان راهباً نصرانياً بفلسطين، الذي روي أنه وفد على النبي «صلى الله عليه وآله» بالمدينة فأسلم، وقد استأذن الخليفة عمر بن الخطاب بأن يقص القصص، فأذن له، كما قال ابن الأثير في «أُسْد الغابة»، ولا يخفى تأثير مُسلمة أهل الكتاب في

١. سورة البقرة: ٣١.
٢. سورة البقرة: ٣٢.
٣. سورة البقرة: ٣٣.
٤. الطبري: جامع البيان، ج١، ص ٤٥٥-٤٥٦.

مجال تفسير القرآن والتاريخ من خلال القصص التي رووها، والتي تكون في غالبيتها تحريفات عن نصوص أهل الكتاب، وتحوّلت إلى مصادر لِفَهْم النص القرآني وتأويله.

وعلى العموم، فقد قَدِم شهر بن حوشب على الحجاج بن يوسف الثقفي فحدّث بالعراق، واتُّهم بالسرقة والاختلاس لمّا كان على بيت المال، وأنه أخذ «خريطة» - أي وعاء من جلد أو نحوه يشد على ما فيه من صحف ونحوها - فيها دراهم فقيل فيه:

لقد باع شهر دينه بخريطة ... فمن يأمن القراء بعدك يا شهر

أخذتَ بها شيئاً طفيفاً وبعتَه ... من ابن جرير إن هذا هو الغدر

أما روايته بخصوص خلق آدم فلم يُعلمنا بمصدرها، وفيها تفاصيل تُضاف إلى ما جاء في رواية ابن عباس السابقة، علاوة على تحريفات لدلالة بعض الآيات القرآنية كما سيتّضح لنا، قال: (خلق الله في الأرض خلقاً، ثم قال لهم: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**﴾ فما أنتم صانعون؟ قالوا: نعصيه ولا نطيعه) وهذا أوّل مورد للتحريف، لأن القرآن لم يتحدّث عن مخاطبين في الآية سوى الملائكة، وهم ليسوا من سكان الأرض، ولا يعصون الله ما أمرهم (فأرسل الله عليهم ناراً فأحرقتهم. ثم خلق الجن فأمرهم بعمارة الأرض، فكانوا يعبدون الله حتى طال علهم الأمَد، فعصوا وقتلوا نبياً لهم يقال له «يوسف»، وسفكوا الدماء، فبعث عليهم جُنداً مِن الملائكة، عليهم إبليس، واسمه «عزازيل» فأجلوهم عن الأرض، وألحقوهم بجزائر البحور. وسكن إبليس ومَن معه الأرض، فهانت عليه العبادة، وأحبوا المكث فيها) اتهام مجدَّد

للملائكة (فقال الله «عز وجل» لهم: ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾)[١]. إلى هنا لا نجد ذكراً لآدم وفق قصة شهر بن حوشب، إلا أن الرواية التالية التي يرويها عن ابن عباس تشتمل على ذلك، وفيها إضافة في بدايتها على ما جاء في رواية ابن عباس الأولى التي رواها الطبري، وهذه الإضافة تحكي قصة إبليس في طفولته!

٣. فقد روى شهر بن حوشب عن ابن عباس: (أن الله «تعالى» لما خلق الجن من نار سموم، جعل منهم الكافر والمؤمن، ثم بعث إليهم رسولاً من الملائكة، وذلك قوله «تعالى»: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾[٢]) وهذا نوع من التحريف في تأويل الآية لأن دور الملائكة التوسّط في إيصال الوحي الإلهي للرسل الذين يجب أن يكونوا من جنس قومهم (قال: فقاتل الملَك بمؤمني الجن كفارَهم فهزمومهم، وأسَروا إبليس، وهو غلام وضيء اسمه الحارث أبو مرة، فصعدت الملائكة به إلى السماء، ونشأ بين الملائكة في الطاعة والعبادة، وخَلق خلقاً في الأرض فعصوه، فبعث الله إليهم إبليس في جُند من الملائكة فنفوهم عن الأرض، ثم خلق آدم فأشقى إبليس وذريته به، وزعم بعضهم أنه كان قبل آدم في الأرض خَلْقٌ لهم لحم ودم، واستدلّوا بقوله «تعالى»: ﴿**قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ**﴾؟ فلم يقولوا إلا عن معاينة، واحتجوا أيضاً بقول جرير أنه كان خَلْق، فبعث إليهم نبي يقال له «يوسف» فقتلوه. هذه ثلاث أمم سكنوا الأرض قبل آدم، التي إبليس مِن

١. المقدسي: البدء والتاريخ، ج١، ص ٨٢.

٢. سورة الحج: ٧٥.

نسلها، والذين قتلوا نبيهم، والذين أجلاهم إبليس من الأرض، مع ما قيل أنه كان قبل آدم ألف ومائتا ألف آدم، ونوح ألف آخر، وهو آخر الآدميين، وروى أن آدم لما خُلق قالت له الأرض: يا آدم، جئتني بعدما ذَهَبَت جِدَتي وشبابي[١] وقد خَلِقْت؟)[٢].

٤. هذه الرواية جاءت في كتاب «التيجان في ملوك حمير» لوهب بن منبّه والذي سأتناول جانباً من سيرته في البحث الخاص بآصف بن برخيا ضمن هذا الكتاب، مع إشارة سريعة هنا إلى أنه أحد أخطر المصادر لنفوذ الروايات الإسرائيلية داخل كتب التفسير والحديث والتاريخ لدى المسلمين.

في هذا الكتاب رواية حول خلق آدم جاءت فيها تفاصيل كثير : (.... وإن الله لما خلق الجنة حين شاء كيف شاء حيث شاء في سابق علمه، وخلق النار، وصار إبليس والجان إلى الجنة وهم لا يتناسلون في الجنة، وإن الجان تنافسوا في الجنة وطغى بعضهم على بعض وعصوا الله وسفك بعضهم دم بعض، عجّ الملائكة إلى الله بالدعاء، قالوا: سبحانك ربنا ما أحلمك وأكرمك، يتقلب في نعمك مَن يكفر بك، لم تُعبد زيادة في ملكك، ولم تُعص مغالَبةً في سلطانك، تُمهِل مَن أساء، وتصفح عمّن عصى، لم تخش الفوات، فإليك المصير، وأنت على كل شيء قدير. لا يفوتك هارب، ولا ينجو منك هارب، لم يُنقِص ملكك مَن عصاك، ولا زاده مَن أطاعك. أنت قبل كل شيء، وأنت بعد كل شيء. لم يؤُدك حفظ ما خلقت، فأنت بكل شيء عليم. قال ابن منبه: فغضب الله على الجان) وكأن الله لم يكن عالماً بما يجري، أو أن الملائكة بشكواهم أثاروا

١. أي أن الأرض تستغرب من خلق آدم في عصر كبرت فيه الأرض سناً وصارت هرمة ضعيفة!
٢. المقدسي: البدء والتاريخ، ج١، ص ٨٢.

غضبه (فأوحى الله إلى جبريل أن أخرِج الجان مِن جواري، وطهّر منهم جنتي. فأخرجهم جبريل من الجنة إلى أرضنا هذه، فأسكنهم جزائر البحار وقفار الأرض، وبقي إبليس مع الملائكة يعبد الله. ثم خلق الله آدم «عليه السلام» لما شاء كيف شاء حين شاء في سابق علمه المكنون، وحكمه النافذ، مِن أديم الأرض، من سهلها وجبلها، وأبيضها وأسودها وأحمرها، فجمع الطين فصار صلصالاً حمأ مسنوناً فصوّر آدم من تلك الطينة. قال وهب: فلذلك وجد في بني آدم اختلاف الصور للسهل والجبل واختلاف الألوان لاختلاف ألوانهم[١]. فرفع جبريل آدم إلى الجنة، فلما رأته الملائكة قالوا: ربنا، ما هذا؟ قال الله «تعالى» ﴿**إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا**﴾ ربنا ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**﴾ وأنت أعلم ربنا ﴿**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾. وطاف إبليس بآدم فغمّه ما رأى من جماله وحسن خلقه حسداً. ثم جَسّه بيده، فدوّى آدم فقال: خُلق مجوّفاً. أصبت والله فيه حاجتي. ونفخ الله «تبارك وتعالى» الروح في آدم «صلى الله عليه وعلى محمد وسلم» فجال الروح في رأسه، فأبصر، فرأى جبريل، فقال له جبريل «عليه السلام»: يا آدم، وكان قد خلق الله «تعالى» آدم ملهَماً، ثم انتشر الروح في جسم آدم، فشق جوفَه إلى حُقويه، فاستوى جالساً فلذلك أنزل الله «وخلق الإنسان عجولاً») لا توجد آية هكذا، بل إما: ﴿**خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ**﴾[٢] أو ﴿**وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا**﴾[٣] (لأنه جلس

١. لاحظ التشابه مع رواية الصدوق من الإمامية عن اليهودي عبدالله بن سلام.

٢. سورة الأنبياء: ٣٧.

٣. سورة الإسراء: ١١.

قبل أن يصل الروح إلى ساقيه وفخذيه وقدميه. قال وهب: فقال جبريل يا آدم إن الله لم يخلق بشراً قبلك، أنت أبو البشر، فاشكر الله «تعالى». فرفع آدم بصره إلى العرش فلم يُحجَب عنه العرش، فرأى في ساق العرش مكتوباً بالنور: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، وكان ملهَماً للقراءة. فقال: يا جبريل، ألم تقل إني أبو البشر، وهذا محمد مكتوب في ساق العرش؟ فقال له جبريل: صدقت يا آدم، صدقتك، هذا محمد حبيب الله، أكرم البشر على الله، خاتم الأنبياء مِن ولدك، وبه تُكنّى يا أبا محمد، له غداً المقام المحمود، وله الشفاعة واللواء والحوض والكوثر) وهل يدع وهب أي مجال لمسلم كي يشك في الرواية بعد أن دغدغ مشاعر المسلمين بمثل هذا المضمون؟ ولكنه سرعان ما يُكمل بثّ سمومه الإسرائيلية: (قال وهب: وإن الله «تعالى» خلق حواء من ضلع آدم اليسرى. قال وهب: فقال بعض أهل العلم:) يا ترى هل يقصد بذلك أهل العلم من المسلمين أم من أهل الكتاب (إن الله خلق حواء من الأرض كما قال ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾[١]، قال: أولئك الأولون، قال الله: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾[٢]، فعطف على النفس لا على الأرض لأنه لم يسبق ها هنا الأرض قصة. قال وهب: خلق حواء بيضاء نقية صافية البياض ناصعة كحلاء سوداء الأشعار، وبه سميت حواء، فأسكنها الله الجنة، فعلّم الله آدم اسم كل شيء في الجنة بكل لسان نطقت به ذريته بعده....)[٣].

---

١. سورة طه: ٥٥.

٢. سورة الأعراف: ١٨٩.

٣. وهب بن منبه: التيجان في ملوك حمير، ص ١٢-١٥.

٥. وبين أيدينا رواية تضيف عنصراً تشويقياً، وهي - مرة أخرى - من مرويات مُسلمة أهل الكتاب، إلا أن فيها ما يدغدغ مشاعر المسلمين ليكون ذلك وسيلةً للنفوذ إلى قلوبهم وعقولهم.. وكتبهم، قال عبدالله بن سلام: (وسأل عبد الله بن سلام رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: كيف خلق الله آدم «عليه السلام»؟ فقال: خلق رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة، وصدره وظهره من بيت المقدس، وفخذيه من اليمن، وساقيه من أرض مصر، وقدميه من أرض الحجاز، ويده اليمني من أرض المشرق، ويده اليسرى من أرض المغرب، ثم ألقاه علي باب الجنة، فكلما مر عليه ملأ من الملائكة عجبوا من حُسن صورته، وطول قامته، ولم يكونوا قبل ذلك رأوا شيئاً يشبهه من الصور)[١].

٦. ويتكرر الأمر مع رواية على لسان ابن عباس: (خلق الله آدم على أقاليم الدنيا، فرأسه من تربة الكعبة، وصدره من تربة الدهناء، وهو موضع ببلاد بني تميم، وبطنه وظهره من تربة الهند، ويداه من تربة المشرق، ورجلاه من تربة المغرب)[٢].

٧. ولم تُعجب هذه التقسيمة وهب بن منبّه، فقدّم لنا «رؤية» أخرى لمصدر التراب الذي خلقت منه أجزاء آدم، قال: (خلقه الله على الأراضي السبعة، فرأسه من الأولى، وعنقه من الثانية، وصدره من الثالثة، ويداه من الرابعة، وبطنه وظهره من الخامسة، وفخذاه وعجزه من السادسة، وساقاه وقدماه من السابعة)[٣].

---

١. الثعلبي: عرائس المجالس، ص ٢٢-٢٣.

٢. ابن ملك الكرماني: روضة المتقين في مصنوعات رب العالمين، ص ٣٨.

٣. ابن ملك الكرماني: روضة المتقين في مصنوعات رب العالمين، ص ٣٨.

٨. وتطالعنا رواية أخرى عن ابن عباس، ولعلها لإرضاء بعض الأمم ممن لم تأتِ الرواية السابقة على ذِكرهم، مع إضافات تحاول تقديم فلسفة هذا التنوّع، قال: (خلق الله «تعالى» آدم «عليه السلام»، فرأسه من تراب بيت المقدس، ووجهه من تراب الجنة، وأذناه من تراب طور سيناء، وجبهته من تراب العراق، وأسنانه من تراب الكوثر، ويده اليمنى مع الأصابع من تراب الكعبة، ويده اليسرى من فارس، ورجليه من الهند، وعظمه من الجبل، وعورته من بابل، وظهره من العراق،وبطنه من تراب خراسان، وقلبه من الفردوس، ولسانه من تراب الطائف، وعيناه من تراب الحوض) أو «الحوش» (ولما كان رأسه من بيت المقدس صار موضع العقل والفطنة والنطق، ولما كان أذناه من تراب طور سيناء صار موضع استماع النصيحة، ولما كانت جبهته من العراق صارت موضع السجود لله «تعالى»، ولما كان وجهه من تراب الجنة صار موضع الحُسن والزينة، ولما كانت أسنانه من الكوثر صارت موضع الحلاوة، ولما كانت يده اليمنى من الكعبة صارت موضع البركة والمعونة فى المعيشة والجود، ولما كانت يده اليسرى من فارس صارت موضع الطهارة والاستنجاء، ولما كانت بطنه من خراسان صارت موضع الجوع، ولما كانت عورته من بابل صارت موضع الشهوة والغل والغش، ولما كان عظمه من الجبل صار موضع الصلابة ،ولما كان قلبه من الفردوس صار موضع الإيمان، ولما كان لسانه من الطائف صار موضع الشهادة والتضرع والدعاء إلى الله)[١].

٩. وفتحت هذه الروايات قريحة بعض القصاصين فأضافوا في هذا الإطار

١. القاضي: دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار، ص٦-٧.

ما شاءوا إمتاعاً للأسماع، وإثارة لعناصر التشويق، وتيسيراً لقبول مروياتهم الموضوعة، قال بعضهم: (لما خمر اللّه تعالى طينة آدم «عليه السلام»، حين أراد خلقه، أمر جبريل «عليه السلام» أن يأتيه بالقبضة البيضاء التي هي قلب الأرض بهاؤها ونورها، ليخلق منها محمداً «صلى اللّه عليه وسلم»، فهبط جبريل «عليه السلام» في ملائكة الفراديس، وملائكة الصفح الأعلى، فقبض قبضة من موضع قبر رسول اللّه «صلى اللّه عليه وسلم»، و هي يومئذ بيضاء نقية، فعجنت بماء التنسيم، وزعرت حتى صارت كالدرّة البيضاء، ثم غمست في أنهار الجنة، فطيف بها في السموات والأرض والبحار، فعرفت الملائكة حينئذ محمداً «صلى الله عليه وسلم»، وفضله قبل أن تعرف آدم وفضله، ثم عجنت بطينة آدم «عليه السلام» بعد ذلك. قاله الثعلبي)[١].

ويبدو أن أصل هذا القول ما رواه كعب أحبار اليهود حيث قال: (لما أراد الله «تعالى» أن يخلق محمداً «صلى الله عليه وسلم» أمر جبرئيل فأتاه بالقبضة البيضاء التي هي موضع قبر النبي «صلى الله عليه وسلم»، فجعلت بماء التسنيم، ثم غمست في أنهار الجنة، وطيف بها في السماوات والأرض، فعرفت الملائكة محمداً قبل أن تعرف آدم «عليه السلام»، ثم عجنها بطينة آدم)[٢].

١٠. وتدخّلت يد الوضع في صناعة الروايات التي تتحدّث عن روح آدم أيضاً، حيث لم تكتف بالحديث عن بدنه الترابي، قال كعب أحبار اليهود: (إن روح آدم ليست كأرواح الملائكة ولا غيرها من الأرواح، فضّلها الله «تعالى»

١. عبدالله المرجاني: بهجة النفوس والأسرار في تاريخ دار هجرة النبي المختار، ص ٦٥٩.
٢. الديار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ج١، ص٢١.

بقـوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾[١] فأمر روحه أن يغمسها في جميع الأنوار، ثم أمرها أن تدخل في جسد آدم من أنفه، فقالت: مكان ضيق، فنوديت: ادخلى كُرهاً واخرجى كُرهاً، فدخلت في منخريه، ثم ارتفعت في خياشيمه، ووصلت إلى دماغه، وماجت في رأسه، فأبصر وسمع وشم وتنفّس، وصار بين عينيه كالغرّة[٢] البيضاء يتلألأ، فهو نور رسول الله «صلى الله عليه وسلم»)[٣].

وقد اعتبر الباحث «علي المخلبي» في كتابه «آدم والتاريخ» أن حكاية آدم عند أهل السنّة مرّت بثلاث مراحل تتحدد بحسب مقياسين:

المقياس الأول يتمثّل في مدى الاختلاف - إضافة أو حذفاً - بين الحكايات الجامعة، والمقياس الثاني يتحدد الثاني في نوع العلاقات التي توجد بين مختلف مشارب الحكاية وروافدها.

وإذ أقوم بعرض هذه المراحل، فإن ذلك لا يعني الاتفاق معه حول بعض الأفكار التي قدّمها من قبيل ادّعاء أسطورية القصة ككل، وما يهمّني هنا هو نتيجة دراسته لمراحل تطوّر القصة في مرويات أهل السنّة في كتب التفسير والحديث والتاريخ والتراث الإسلامي.

المرحلة الأولى: يمثّلها ابن وهب ومقاتل والأزرقي والطبري والمقدسي وأبي الشيخ. ويمكن اعتبارها مرحلة البحث عن حكاية آدم.

---

١. سورة الحجر: ٢٩.

٢. أي بقعة بيضاء.

٣. عبدالملك العاصمي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج١، ص ٨٣.

المرحلة الثانية: ويقوم عليها الثعلبي والكسائي كطرفين يحدّانها، يقف الثعلبي على بدايتها، ويقف الكسائي على خاتمتها، دون إغفال ابن عساكر في «تاريخ دمشق» وبدرجة أقل ابن الجوزي في تاريخه «المنتظم» وتفسيره «زاد المسير». وتمثّل هذه المرحلة مرحلة التعبير عن «أسطورة» آدم الدينية[١] عند أهل السنة، حيث تكتمل فيها عناصرها الدرامية وجهازها الرمزي الذي غذّاه المخيال الإسلامي، وحدّد له وظائفه الأساسية.

المرحلة الثالثة: يمثّلها ابن كثير في تاريخه وتفسيره، والسيوطي في تفسيره «الدر المنثور»، وفيها يستعيد هذان العلَمان المرحلة الأولى مع إضافة مهمة تقوم على حماية الدين والثقافة والمذهب بما وفّرته المرويات من ناحية، وثقافة العصر من ناحية أخرى، من مادة أسطورية. وإلى جانب ابن كثير والسيوطي نجد ابن إياس الحنفي، وعبدالملك بن حسين العصامي، اللذان سعيا إلى جمع كل ما وصل إليهما من نصوص عن آدم في أفق استراتيجية أخرى غير استراتيجية ابن كثير، تسبق فيها المتعةُ الفكرةَ، والخيالُ الجدالَ[٢].

• جينولوجيا الحمض النووي:

بعد اكتشاف جزيئات الحمض النووي أواسط القرن العشرين بات بوسع الإنسان – اليوم – دراسة نَسَبِه بشكل علمي موسّع ومختلف عمّا كان دارجاً في ما مضى، ويعود ذلك إلى أن هذا الحمض يضمن الاحتفاظ بالمورِّثات وانتقالها من جيل إلى آخر. وتمكّن العلماء – بالاستناد إلى علم الوراثة – من

١. التزمت هنا في العرض ما جاء من تعابير وأفكار واردة في كلام المخلبي في كتابه.

٢. علي المخلبي: آدم والتاريخ، ص ٦٧-٦٨.

فكّ شفرة الحمض النووي للإنسان، ما أتاح لهم إنشاء قاعدة بيانات عن مختلف الشعوب على الأرض.

ومن بين هؤلاء العلماء الاختصاصي الأمريكي – الروسي الأصل – في مجال الكيمياء الحيوية، الدكتور «أناتولي كليوسوف» Anatole Klyosov صاحب العديد من المؤلفات في الكيمياء الحيوية وكيمياء الجزيئات الكبيرة، وباسمه أيضاً سُجّلت عدة براءات اختراع، وهو مؤسس علم «جينولوجيا الحمض النووي» DNA Genealogy والذي يهتم بعلم الأنساب من خلال تحليل الحمض النووي.

ذكَر في مقابلة أجريت معه على قناة RT الروسية أن للإنسان كروموسومات ذكرية، وأخرى أنثوية، والذكري هو الذي ينتقل من الأب إلى الابن من جيل إلى جيل، ولا يوجد عند النساء، وهو ما يمكّن من دراسة الأنساب من جهة الآباء دون تداخل الأمهات في ذلك. ويمكن دراسة الحمض النووي من خلال لعاب إنسان حي، أما الأموات، فمن خلال العظم، والأفضل من خلال السن، لأنه يحتفظ بالحمض النووي جيداً وكأنه داخل درع.

في التركيب العضوي للإنسان ماكنة استنساخ بيولوجية من نوع خاص تستنسخ الكروموسومات مع حدوث تغيرات طفيفة في كل مرة. ولكي نفهم ذلك نأخذ المثال التالي:

إذا نسخنا عديداً من النسخ بالآلة الناسخة، فمن المحتمل أن تقع ذرات غبار على نسخة ما، فينتقل أثرها إلى النسخة التالية.. وعلى غرار ما يفعل جهاز نسخ المستندات، يجري استنساخ ٥٨ مليون «نيكلوديت» في كروموسوم

Y من الأب إلى الابن، فتحدث «طفرات» أي تغيّرات طفيفة تصيب المعلومات الجينية في النسخة الجديدة «الابن». وعند دراسة الحمض النووي لأي شخصين بصورة مقارِنة، يُحدِّد العلماء عدد الطفرات التي حدثت، بُغية تحديد السلف المشترك.. أي الجد المشترك.

وحيث توصّل العلماء سلفاً إلى تقدير نسبي لعدد الطفرات التي يمكن أن تقع في الجيل الواحد، ووجدْتُ أن بيني وبين شخص آخر مثلاً «٥٠٠٠ طفرة تقريباً»، وأن تقدير الجيل الواحد هو ٢٥ سنة، فهذا يعني أنني لربما ألتقي مع الشخص الآخر في جد مشترك عاش قبل ١٠٠ جيل، وبتعبير آخر قبل ٢٥٠٠ سنة. ونسبة الخطأ في هذا التقدير في حدود ١٥٠ سنة لكل ١٠٠٠ سنة، بلحاظ أن تقدير الجيل قد يزداد أو ينقص عن ٢٥ سنة.

ومن خلال دراسة جينات الآلاف من الناس القاطنين في أنحاء مختلفة من الكرة الأرضية ومن أعراق مختلفة، قسّم العلماء المختصون بعلم الجينات كل الناس المعاصرين إلى ٢٠ مجموعة ذكَرية رئيسة، تبدأ من الحرف A وتنتهي عند الحرف T، وأسموا الواحدة منها «المجموعة الفردانية» Haplogroup وكل المنتمين إلى واحدة من هذه المجموعات يتشاركون في جد واحد، وكل المجموعات الفردانية في نهاية المطاف تلتقي عند جد أكبر واحد.

إذاً لكل فرد «نمط فرداني» Haplotype، ويشترك هذا الفرد مع الملايين عبر العصور ضمن «مجموعة فردانية» Haplogroup ومن خلال الطفرات الحادة الحادثة عبر الزمن، تحدث انقسامات فرعية في كل مجموعة فردانية من المجموعات العشرين السالفة الذكر. ولنأخذ المجموعة J كمثال... إذ

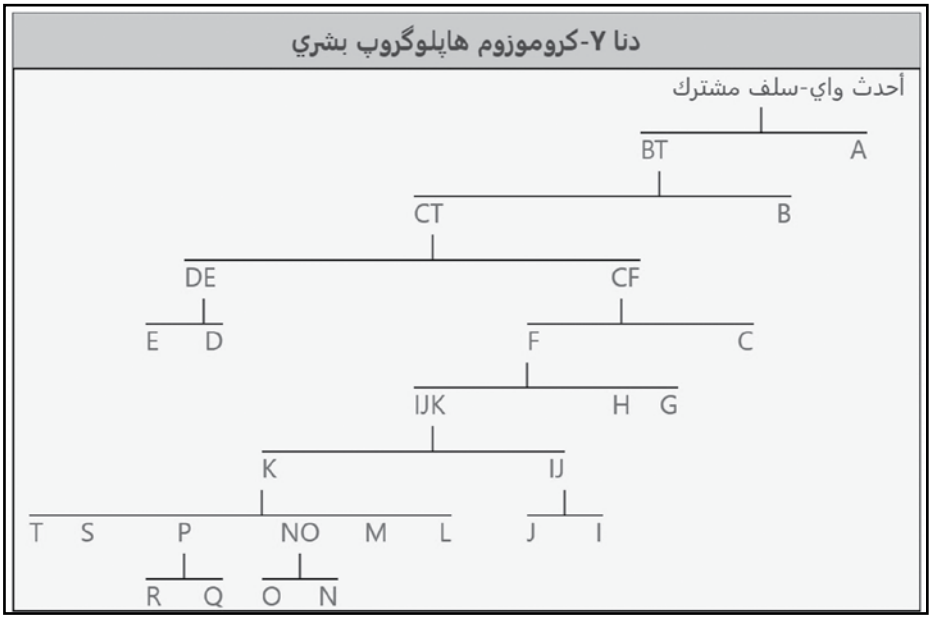
يُقدّر بعض العلماء أن هذه المجموعة ظهرت كطفرة حادة من المجموعة IJ قبل ٤٥,٠٠٠ سنة غرب آسيا، ثم ظهرت فيها طفرة حادة قبل ٣٧,٠٠٠ سنة فتشكلت مجموعة فرعية أسميت J2 وأخرى قبل ٣٣,٠٠٠ سنة أسميت J1 وهكذا شهدت J1 و J2 طفرات فرعية وتم جعل كل طفرة تحت مسمّى، وهذه بدورها انقسمت وهكذا[١].

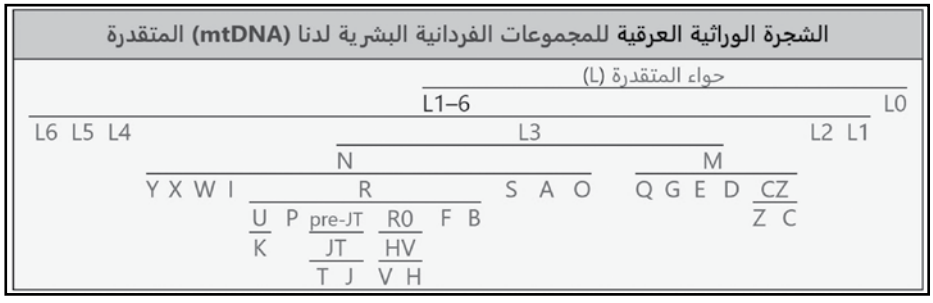
- **الجد الأكبر لكل المجموعات الفردانية:**

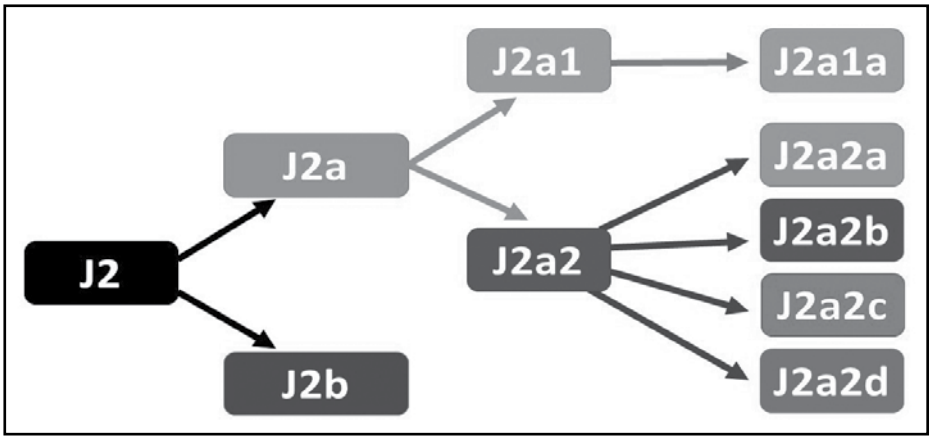
من الآراء المطروحة الآن - وإن لم يكن أكيداً - وذلك من خلال علم الجينات والأحافير معاً هو أن كل المجموعات الفردانية الموجودة اليوم على وجه الأرض تعود إلى «ذَكَر» عاش قبل ما بين ٥٠,٠٠٠-٩٠,٠٠٠ سنة[٢]، وبحسب بعض الباحثين ٦٠,٠٠٠-٧٠,٠٠٠، ويحدِّد بعضهم مكان ظهوره في المنطقة العربية.. بل وحدَّد بعضهم خصوص الجزيرة العربية.

بالطبع فإن أصحاب هذه النظرية يقولون أن هذا الذّكر وُلِد من أبوين هاجرا - على الأغلب - من أفريقيا، على اعتبار أن علمي الجينات والأحافير معاً ما زالا يشيران إلى أن بداية الإنسان العاقل الحديث Homosapiens كانت في أفريقيا، وبحسب السجل الأحفوري للإنسان «العاقل»، فإن أقدم أحفورة وُجدت إلى الآن كانت في المغرب وتعود تقديراً إلى ٣٠٠,٠٠٠ سنة، وأن هجرة تمّت من أفريقيا عبر ما يُعرف اليوم باسم «مضيق باب المندب» إلى شبة الجزيرة العربية، حيث وُلد فيها هذا المولود الذكر... فهل هذا هو آدم؟ لا أريد

1. www.worldacademy.org/files/DNA_genealogy_Part_1.pdf
2. www.eupedia.com/europe/Haplogroup_J_mtDNA.shtml


دنا Y-كروموزوم هاپلوگروپ بشري
أحدث واي-سلف مشترك
BT
A
CT
B
DE
CF
E
D
F
C
IJK
H
G
K
IJ
T
S
P
NO
M
L
J
I
R
Q
O
N


الشجرة الوراثية العرقية للمجموعات الفردانية البشرية لدنا (mtDNA) المتقدرة
حواء المتقدرة (L)
L1–6
L0
L6 L5 L4
L3
L2 L1
N
M
Y X W I
R
S A O
Q G E D CZ
U P pre-JT R0 F B
Z C
K
JT
HV
T J
V H


J2a1
J2a1a
J2a
J2a2a
J2a2b
J2
J2a2
J2a2c
J2a2d
J2b

هنا أن أناقش خصوص هذه النقطة، أي أنه وُلد من أبوين مهاجرين، لأنّ هذا سيُدخلنا من جديد في متاهة نظرية التطوّر التي لا أريد تأييدها أو رفضها، فلهذا مجال وبحث آخر، وقد أشرت إليه من قبل.

المهم في الأمر أننا من خلال علم الجينات وعلم جينولوجيا الحمض النووي - على وجه الخصوص - توصّلنا إلى نقطة جديرة بالتوقف عندها ملياً، ولا أريد استعجال النتائج، كما لا أريد أن أقطع بشيء.. غرضي هو مجرد إثارة الأفكار والتساؤلات ووضع الاحتمالات أمامكم.

لو تماشينا مع نظرية الهجرة التي تحدّثوا عنها.. ما الذي دفعهم للخروج من حيث كانوا يستقرون؟

١. كانوا يعيشون حياة التنقّل - أشبة بالحالة البدوية - وراء مصدر الغذاء، ولم يعيشوا تحت سقف بيت أو خيمة، وكانت الكهوف التي يحتمون بها أقصى ما لديهم.

٢. التغيّر المناخي العنيف الذي شهدته الأرض مما أدّى إلى نزول درجات الحرارة إلى مستويات متدنية جداً دفعتهم للهجرة التدريجية بحثاً عن أجواء أنسب ومصادر غذائية باتوا يفقدونها بسبب التغير المناخي العنيف.

٣. مستوى سطح البحار والمحيطات كان أقل مما هو عليه اليوم، ولذا فإن مساحات كبيرة مما هي اليوم تحت الماء كانت مكشوفة وتمثّل أحياناً ممرات انتقلوا من خلالها إلى مناطق أخرى لا يمكن عبورها اليوم إلا بحراً أو جواً.

ولذا فإن هذه النظرية تقول بأن هذا الإنسان العاقل الحديث الذي ظهر في

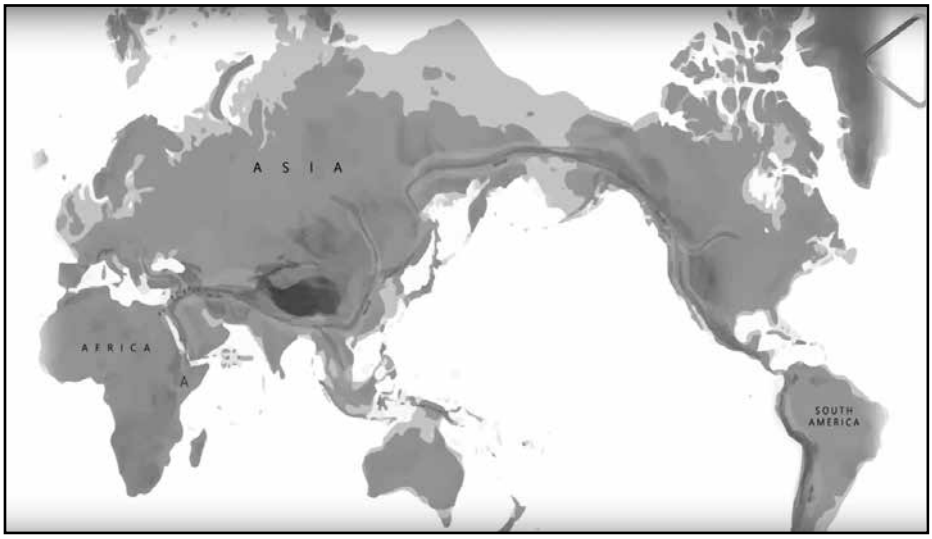
المنطقة العربية بدأت سلالته تنتشر في الأرض منذ ٥٠,٠٠٠ سنة وباتجاهات مختلفة وعبر آلاف السنين. وخلال هذا الزمن كانت تحدث الطفرات الجينية التي تؤدّي إلى نشوء مجموعات فردانية جديدة وفرعية متوزّعة على المناطق المختلفة التي استوطنها الإنسان في القارات، بما في ذلك الأمريكتين وأستراليا والجزر البولينيزية في المحيط الهادي.

فصارت المجموعة J متواجدة في غرب ووسط آسيا، والمجموعة C في شرق آسيا، والمجموعة R في أوروبا، والمجموعة E في شمال أفريقيا... وهكذا.

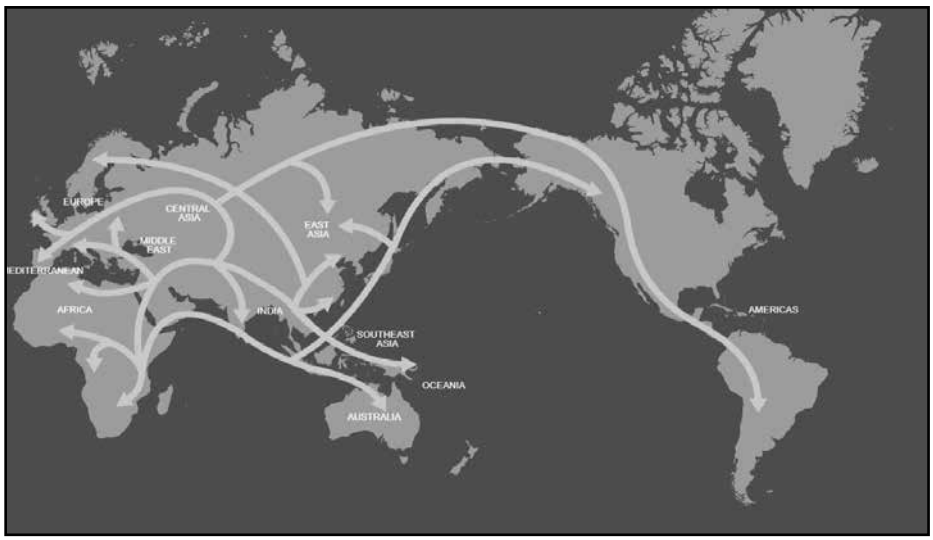
الذي يجب أن ننتبه إليه أن الأدلة الأحفورية - إلى الآن - تُبيّن أن هذا الإنسان الذي ظهر في المنطقة العربية كان متنقلاً يعتمد في حياته على الصيد وجمع الثمار، ولم يكن يعرف الزراعة، ولا تربية الحيوانات، وبالتالي لم يعرف القرية والمدينة وتأسيس حضارة، وإن كان عاقلاً مثلنا.

ثم قبل ١٤,٠٠٠ تقريباً، وقيل أكثر أو أقل بقليل، بدأ العصر الجليدي الأخير يتقهقر تدريجياً، وبدأت الأرض تعود إلى حالة من الدفء. وهنا -بحسب هؤلاء العلماء- عرف الإنسان الزراعة وتربية الحيوانات الأهلية، وبدأ مع هذا التغيّر عصرٌ جديد، وبدأت المدن والأرياف - ومن ثَم الحضارات - بالظهور. هذه البداية كانت في بلاد ما بين النهرين.. العراق.. وبلحاظ ما جاء في بعض المرويات الدينية عند المسلمين واليهود التي تدلّ على أن هذه المنطقة كانت الموطن الأول لآدم، أيمكن أن نلغي الاحتمال السابق، ليكون آدم هو أوّل إنسان عرف الزراعة؟

ممن تحدّث عن كون بلاد ما بين النهرين هو الموطن الأول لآدم، السيد



تصوّر لانتقال المجاميع البشرية من أفريقيا إلى مختلف أنحاء الأرض



تصوّر لانتقال المجاميع البشرية من أفريقيا إلى مختلف أنحاء الأرض

مرتضى العسكري، قال: (أخبر اللّٰه «سبحانه» أنّه جاعل خليفة في هذه الأرض، ومن أديم هذه الأرض أخذ التراب الذي خلق منه آدم، وكذلك على هذه الأرض أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأبى إبليس السجود لآدم، وكذلك أدخل آدم جنة في هذه الأرض، ولم ينقل آدم من هذه الأرض إلى مكان آخر بعد خلقه منها، وأمر الملائكة بالسجود له في ذلك المكان، ولم ينقله من هذه الأرض إلى جنّة الخلد ليكون إخراجه من جنّة الخلد إلى هذه الأرض. ودليلنا على ذلك بالاضافة إلى ما يدلّ عليه ظاهر الآيات أن الذي يدخل جنّة الخلد يخلد فيها ولن يخرج منها كما تصرّح بذلك الروايات. ونرى أنّ تلك الجنّة كانت في العراق من الجزيرة العربية وأنّه صحّ ما نقله صاحب كتاب قاموس الكتاب المقدس عن كثرة من العلماء أنّ الجنّة كانت في أرض الفرات. ويؤيّد ذلك أنّ التوراة نصّت على تفرّع نهر جنّة آدم إلى أربعة فروع، هي: نهر الفرات ودجلة وجيحون وفيشون. وجاء في كتاب قاموس الكتاب المقدّس إنّ بعض الباحثين يحتمل أنّ جيحون وفيشون في بابل. إذن ليس المقصود من جيحون نهر جيحون الّذي يصبّ في بحيرة بالقرب من بلدة خوارزم والذي ذكره ياقوت الحَمَوي في معجم البُلدان. ولمّا هبط آدم «عليه السلام» من الجنّة سكن بابل الفرات، ولما توفّي دفنه شيث في مغارة في جبل أبي قبيس في مكة، ثمّ حمل نوحٌ عظامه في سفينته ودفنه بعد نزوله من السفينة في النجف. وبناء على ذلك نرى أنّ خروج آدم «عليه السلام» كان من جنّة كانت بالعراق، ولما هبط منها، تحوّل إلى أرض قريبة منها في العراق، وأنّه أخذ معه من أشجار تلك الجنة أغراساً، ومن حبوبها بذوراً غرس بها الأشجار وزرع بها الحبوب،

بتعليم اللّه أيّاه كما صرّحت الروايات بذلك. أمّا سكناه في العراق فقد جاء في مادة «بابليون» من معجم البلدان: «فذكر أهل التوراة أنّ مقام آدم «عليه السلام» كان ببابل» وبابل أراضٍ كانت بين الفرات ودجلة، وفي مادّة بابل من قاموس الكتاب المقدّس ما موجزه كانت المياه – مياه الفرات ودجلة – تجري في جميع أراضيها، لذلك كانت أراضيها مشهورة بالخصب وتنتج أنواع الفواكه والحبوب، وكان اسمها القديم شنعار «سفر التكوين: الأصحاح ١٠ و١١» ومادّة شنعار من قاموس الكتاب المقدّس. وفي مادة بابل من معجم البلدان أنّ بعضهم قال: انّ بابل هي الكوفة وانّ نوحا بعد أن خرج من السفينة سار هو ومن معه في طلب الدفء وسكنوا بابل وكثروا بها من بعد نوح.... ويؤيّد كون سكن آدم في العراق ما جاء في الروايات الآتية: أوّلاً، إنّ آدم «عليه السلام» حجّ إلى مكّة ووقف بالمشاعر، وإنّ توبته قبلت في عرفة، وإنّه التقى بعد ذلك بحواء في مكة وإنّ اللّه أمره ببناء البيت، ويستبعد أن يؤمر بالحج من قارة بعيدة مثل الهند، كما جاء ذلك في بعض الروايات التي لم تثبت لديّ صحتها. ثانياً: جاء في روايات أخرى أنّه دفن في الغريّ من أرض النجف، وقد ورد في روايات دفن خاتم الانبياء «صلى اللّه عليه وآله»: أنّ كلّ نبي يدفن في المكان الذي قبض فيه. من مجموع ما ذكرناه يتأيّد لنا؛ أنّ جنّة آدم «عليه السلام» كانت في أراضي الفرات، وأنّه لمّا أُخرج منها هبط قريبا منها، وعندئذ أيبس اللّه تلك الجنة، وأزالها من الوجود، وأحيا آدم «عليه السلام» مكاناً آخر بالغرس والزرع، واللّه أعلم)[1].

١. العسكري: عقائد الإسلام من القرآن الكريم، ج١، ص.

هذه الفرضية تواجه مشكلة كبيرة، وهي أن جزء من البشر المعاصرين فقط يُحتمل أن يكونوا من ذرية هذا الفرد، لأن امتدادات (المجموعات الفردانية) العشرين تعود إلى زمن أبعد من زمن بداية عهد الزراعة بعشرات الآلاف من السنين.

أي لو قلنا أن «آدم» المفترض الذي ظهر كأول مزارع في بلاد ما بين النهرين كان من المجموعة J1 كما هو حال ٨٣٪ من أهل جنوب العراق الحاليين، فإن الذين ينتمون للمجموعة J2 الذين كان موطنهم الأصلي شمال العراق وأجزاء من تركيا الحالية ولبنان وفلسطين، وكذلك الصينيين والمغول والأوروبيين والأفريقيين... إلخ الذين ينتمون إلى مجموعات فردانية مخلفة تماماً، ليسوا من ذريته.. أي ليسوا من «بني آدم». أما لو عدنا للفرضية الأولى، فسنجد بأن كل السلالات البشرية الحالية منحدرة من ذلك الفرد الذي ظهر «وُلد» في المنطقة العربية، ويَصدُق عليهم جميعاً بأنهم «بنو آدم»، ويصح خطابهم كما في القرآن الكريم: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ**.....﴾[١] كما ويصح أن يقال كما هو المروي عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (كلكم لآدم.....) أو (كلكم بنو آدم.....)[٢].

• رمزية القصة القرآنية:

هناك مسار آخر أريد الإشارة إليه، وهو مسار رمزية قصة آدم في القرآن والتوراة. فقد ذهب بعض مفسّري القرآن الكريم وبعض الباحثين المسلمين،

١. سورة الأعراف:٢٦.

٢. الزبيدي: إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، ج١٠، ص ٣٩١.

بل وخارج الدائرة الإسلامية أيضاً، إلى القول باحتمال رمزية قصة آدم في القرآن الكريم. وقبل أن نتعرّض للتصورات المحتملة لرمزية هذه القصة، ستكون لنا إطلالة على مفهوم الرمزية.

يدل الرمز على الأمر الذي يُبرز معنىً وراء ما ينكشف من ظاهره. فالمعنى الظاهر لكلمة أسد هو الحيوان المعروف، ولكنه أيضاً يدل على القوة والشجاعة والملكية.

الرمز يوحي بالحالة ولا يصرّح بها، ويثير الصورة ثم يتركها تكتمل من تلقاء ذاتها، كما تتسع الدوائر في الماء، وذلك عن طريق الفعالية الذهنية للمتلقّي، وقصص كليلة ودمنة نموذج من نماذج القصة الرمزية.

الرمزية حاضرة في الاستعارة كقولك: «رأيت أسداً» وأنت تريد أنك رأيت رجلاً شجاعاً.. وفي التشبيه كقولك: «أنت كالأسد» أي في شجاعته.. وفي الكناية كقولك: «وقفتَ مرفوع الرأس» أي باعتزاز، إلا أننا نريد من حديثنا عن القصة الرمزية هنا ما هو أخص من الاستعارة والتشبيه والكناية.. فهنا توجد التفاصيل والشخصيات والأحداث، وقد تكون الشخصيات حقيقية ولكن الأحداث خيالية.. بينما في قصص كليلة ودمنة سعى المؤلف إلى إيصال مفاهيم وحِكم معينة من خلال شخصيات وأحداث وهمية.

قد يتوصّل الإنسان إلى التفسير الصحيح أو الدقيق للمعنى الرمزي الكامن في القصة بقليل من التفكّر والتدبّر، وقد يفشل في ذلك كلياً أو جزئياً.

وأحياناً المعطيات العلمية وتطوّر التصوّرات الذهنية لدى الإنسان وتراكم

التجارب قد تعينه على إدراك المعنى الكامن فيها. ويلجأ المتحدّث أحياناً إلى الرمز للتعبير عن الأفكار أو العواطف أو الرؤى أو الأحداث، لسبب أو لآخر، فقد يكون الوصف المباشر غير ممكن، لأن الأمر يفوق التصوّر البشري. كما في التعبير الوارد في بعض الأحاديث عن الميكروبات بعنوان الشياطين. أو لغرض إخفاء أمرٍ ما عن المستمعين أو بعضهم، كما في الأحاديث التي يُعبَّر فيها عن خليفة أموي أو عباسي بمصطلح معيّن خوفاً من التبعات السياسية، أو لأنّ الرمز أقدر على الكشف عن الانطباعات المرهفة والعالم الكامن خلف الواقع والحقيقة، كما سيأتي معنا في الرأي الثاني من القول برمزية قصة آدم.

ضمن الاتجاه القائل برمزية قصة آدم، هناك عدة تفسيرات واتجاهات، من بينها:

١. أن آدم شخص حقيقي خلقه الله من غير أب وأم، إلا أن قصته مع حواء والشيطان والشجرة قصة رمزية لم تحدث على أرض الواقع بهذه الصورة المعروضة في النصوص الدينية، بل سيقت هكذا لتقريب مفاهيم معيّنة.

قال فرنسيس بابا الكنيسة الكاثوليكية الحالي: (مِن خلال التواضع، البحث عن الروح، والصلاة المتأملة، اكتسبنا فهماً جديداً لبعض العقائد، فالكنيسة لم تعد تؤمن بوجود الجحيم بالمعنى الحرفي حيث يعاني البشر، فهذا الاعتقاد يتنافى مع مبدأ الحب اللا نهائي الإلهي، فالله ليس قاضياً وإنما محباً صديقاً محباً للبشر والإنسانية، فهو لا يهدف لعذاب البشر وإنما لاحتضانهم، ففكرة الجحيم، كقصة آدم وحواء، أدبية رمزية، ترمز لعزل الروح، حيث أن الهدف النهائي هو أن تتحد الأرواح كلها مع الله... كل

الديانات صحيحة لأنها صحيحة في قلوب أصحابها الذين يؤمنون بها، فما الذي يمكن أن يكون حقيقي أكثر من الإيمان بالله؟)[١].

علماً بأن بابا الكنيسة الكاثوليكية الحالي ينتمي إلى مدرسة صوفية مسيحية، ولذا يمكن تفهّم قوله برمزية هذه القصة، وفكرة الفناء في الله التي عبّر عنها باتحاد الأرواح، وصحة كل الأديان، وهو بذا يخالف غالبية مفسّري الكتاب المقدّس من النصارى.

٢. أن آدم شخص حقيقي خلقه الله من غير أب وأم، إلا أن قصته مع الملائكة ثم مع حواء والشيطان والشجرة لم تحدُث في هذا العالم المشهود وبهذه الصورة المعروضة في الآيات، بل سيقت هكذا لتقريب مفاهيم وصور غيبية معيّنة. ويمكن أن نقدِّم العلامة الطباطبائي كمفسِّر قال بنحو من هذا الكلام، ففي المقال السابق من كتاب «لغة القرآن: مسائلها وقضاياها»، قال «د.الشيخ محمد باقر سعيدي روشن»: (وكذلك يرى العلامة الطباطبائي في رواية القرآن الكريم لقصة آدم وحواء وسكنهما في الجنة والشجرة الممنوعة والخطأ والتوبة، والهبوط من الجنة أن ذلك شرح لحادث برزخي وعالم مثالي، وأن ذلك قد حدث لآدم في النشأة التي كانت في ما وراء عالم المادة... كما يَرى أيضاً أن حادثة «الميثاق» و «عالم الذر» وتقاضي الخصمين اللذين جلسا في محراب داوود ليحكم بينهما ورواية شق قلب النبي وإخراج الغل والحسد وإلقاء الرأفة والرحمة فيه، ظهور مثالي وتحقُّق للنشأة البرزخية)[٢]. وأشار في الهامش إلى ما جاء في الأجزاء ٢، ٨، ١٧، ٢٠ من تفسير الميزان.

1.www.masress.com/soutelomma/61430

٢. مجموعة مؤلفين: لغة القرآن، مسائلها وقضاياها، ص ٢٠٦.

ولنبدأ بالبحث الخاص بقوله «تعالى»: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ**﴾[١] حيث تحدّث فيه العلامة بوضوح وصراحة عن أن الآية تدل على أن هناك أكثر من عالم مرتبط بوجود الإنسان، ومن بين هذه العوالم:

١. «العالم» الذي نشهده، وفيه يتحقق التكاثر بين: (النوع الانساني بنحو التوليد وأخذ الفرد من الفرد، وبثّ الكثير من القليل كما هو المشهود في نحو تكوّن الآحاد من الإنسان، وحفْظِهم وجود النوع بوجود البعض من البعض على التعاقب)[٢]. فأنا لم أعش في الزمن الذي عاش فيه جدّ جدّي مثلاً.

٢. «العالم الآخر» الذي تتحدّث عنه الآية، وفيه تواجد الناس كلهم في زمن واحد، إذ من المستحيل أن نفترض تواجدهم معاً في عالمنا المشهود بحيث: (يأخذ الله أول فرد من هذا النوع فيأخذ منه مادة النطفة التي منها نسل هذا النوع فيجزّئها أجزاءً ذرّيةً بعددِ أفراد النوع إلى يوم القيامة، ثم يُلبس وجود كلَّ فردٍ بعينه - بحياته وعقله وسمعه وبصره وضميره وظهره وبطنه - ويكسيه وجوده التي هي له، قبل أن يسير مسيره الطبيعي، فيُشهده نفسَه، ويأخذ منه الميثاق، ثم ينزعه منها، ويردّها إلى مكانها الصُّلبي، حتى يسير سيرَه الطبيعي، وينتهي إلى موطنها الذي لها من الدنيا)[٣].

---

١. سورة الأعراف:٧٢.

٢. الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص٣١٩.

٣. الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص٣١٩.

ومن هنا اعتبر العلاّمة أن للإنسان وجوداً آخر متحقِّق في عوالم: (مختلفة النظام، متفاوتة الحكم)[١]. ولكي لا نستوحش الفكرة ذكر الطباطبائي أن من بين تلك العوالم - مثلاً - ما يخصّ الحياتين الآخرة والبرزخية: (وهو مما يُثبِته القرآن الكريم، ولو كره ذلك الكافرون الذين يقولون إنْ هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر. فقد أثبت اللّه الحياة الآخرة للإنسان وغيره يوم البعث، وفيه هذا الانسان بعينه، وقد وصفه بنظام وأحكام غير هذه النشأة الدنيوية نظاماً وأحكاماً، وقد أثبت حياة برزخية لهذا الانسان بعينه وهي غير الحياة الدنيوية نظاماً وحكماً)[٢].

ولمزيد من تأكيد الفكرة اعتبر الطباطبائي أن قوله «تعالى»: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ، فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[٣]، وقوله: ﴿**وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ**﴾[٤] وما يشابههما من الآيات يثبت أن للوجود الإنسان وغير الإنسان من الموجودات التي نشهدها وجهان:

الوجه الأول: تحَّقق دفعةً واحدة دون تدرّج، وهو من سنخ «أمر» اللّه، وقد أفاضه اللّه وألقاه بكلمة «كُن»، وهو ما تتحدث عنه الآيتان السابقتان.

الوجه الثاني: تحقق بشكل تدريجي، ومن العدم إلى الوجود شيئاً فشيئاً، ويظهر ناقصاً ثم لا يزال يتكامل حتى يفنى ويرجع إلى ربه، وهو ما تتحدث

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص٣١٩.
٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص٣١٩-٣٢٠.
٣. سورة يس: ٨٢-٨٣.
٤. سورة القمر: ٥٠.

عنه الآيات من قبيل قوله «تعالى»: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ، وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ**﴾[١]، وقوله: ﴿**خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ، وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ**﴾[٢]، وهذا الوجه غير الوجه السابق وإن كانا وجهين لشئ واحد، وحكمُه غيرُ حكمه، واعتبر العلاّمة أن التصوّر التام لهذا التفصيل (يحتاج إلى لطف قريحة)[٣].

ثم يضيف قائلاً: (يتبين بذلك أن هذه النشأة الإنسانية الدنيوية مسبوقة بنشأة أخرى إنسانية، هي هي بعينها، غير أن الآحاد موجودون فيها غير محجوبين عن ربهم، يشاهدون فيها وحدانيته «تعالى» في الربوبية بمشاهدة أنفسهم، لا من طريق الاستدلال، بل لأنهم لا ينقطعون عنه ولا يفقدونه، ويعترفون به وبكل حقٍّ مِن قِبَلِه، وأما قذارة الشرك وألواث المعاصي فهو من أحكام هذه النشأة الدنيوية دون تلك النشأة التي ليس فيها إلا فعلُه «تعالى» القائم به. فافهم ذلك)[٤]. ثم اعتبر أن إجادة التدبر في آية ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ**﴾ ستهدي إلى حقيقة وجود نشأة إنسانية سابقة، فرّق اللّه فيها بين أفراد هذا النوع، وميّز بينهم: ﴿**وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا**﴾.

وفي معرض تفسيرة للآيات: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمّ صَوّرْنَاكُمْ ثُمّ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مّنَ السّاجِدِينَ، قَالَ مَا**

١. سورة الحجر: ٢٦-٢٧.
٢. سورة الرحمن: ١٤-١٥.
٣. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٣٢٠.
٤. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٣٢١.

مَنَعَكَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ، قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ، قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قَالَ إِنّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ، قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمّ لآتِيَنّهُم مّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ، قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مّدْحُورًا لّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنّ جَهَنّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ، وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظّالِمِينَ، فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشّجَرَةِ إِلاّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنّي لَكُمَا لَمِنَ النّاصِحِينَ، فَدَلاّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمّا ذَاقَا الشّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشّجَرَةِ وَأَقُل لّكُمَا إِنّ الشّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مّبِينٌ، قَالاَ رَبّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنّ مِنَ الْخَاسِرِينَ، قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ، قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[1] قال العلامة الطباطبائي: (والقصة وإن سيقت مساق القصص الاجتماعية المألوفة بيننا وتضمنت أمراً وامتثالاً وتمرداً و احتجاجاً وطرداً ورجماً وغير ذلك من الأمور التشريعية والمولوية، غير أن البيان السابق على استفادته من الآيات يهدينا إلى كونها تمثيلاً للتكوين، بمعنى أن إبليس على ما كان عليه من الحال، لم يقبل الامتثال، أي الخضوع للحقيقة الإنسانية، فتفرّعت عليه المعصية. ويُشعِر به قوله «تعالى»: ﴿**فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبّرَ**

١. سورة الأعراف: ١٢-٢٥.

﴿فِيهَا﴾ فإن ظاهره أن هذا المقام لا يقبل لذاته التكبر، فكان تكبّره فيه خروجه منه وهبوطه إلى ما هو دونه)[١].

وإن كان المعنى المدّعى غير واضح في المقطع السابق، إلا أن العلامة عاد ليقول بعد صفحات قليلة: (القصة بما تشتمل عليه بصورتها من الأمر والامتثال والتمرد والطرد وغير ذلك وإن كانت تتشبه بالقضايا الاجتماعية المألوفة فيما بيننا، لكنها تحكي عن جريان تكويني في الروابط الحقيقية التي بين الإنسان والملائكة وإبليس، فهي في الحقيقة تبيّن ما عليه خلق الملائكة وإبليس، وهما مرتبطان بالإنسان، وما تقتضيه طبائع القبيلين بالنسبة إلى سعادة الإنسان وشقائه، وهذا غيْر كوْن الأمر تكوينياً. فالقصة قصة تكوينية مُثِّلت بصورة نألفها من صور حياتنا الدنيوية الاجتماعية، كملك من الملوك أقبل على واحد من عامة رعيته لما تفرّس منه كمال الاستعداد وتمام القابلية، فاستخلصه لنفسه، وخصّه بمزيد عنايته، وجعله خليفته في مملكته مقدِّماً له على خاصته ممن حولَه، فأمرهم بالخضوع لمقامه والعمل بين يديه، فلبّاه في دعوته وامتثال أمره جمْعٌ منهم، فرضي عنهم بذلك، وأقرّهم على مكانتهم، واستكبر بعضُهم، فخطّأ الملِك في أمره، فلم يمتثله، معتَلّاً بأنه أشرف منه جوهراً، وأغزر عمَلاً، فغضب عليه وطرده عن نفسه، وضرب عليه الذلة والصَّغار، لأن الملِك إنما يُطاع لأنه ملِك، بيده زمام الأمر، وإليه إصدار الفرامين والدساتير، وليس يُطاع لأن ما أمَر به يُطابق المصلحة الواقعية، فإنما ذلك شأن الناصح الهادي إلى الخير والرشد)[٢].

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٢٣-٢٤.

٢. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٢٧-٢٨.

ثم أضاف: (فقصة سجود الملائكة وإباء إبليس تشير إلى حقائق تشابه بوجهٍ ما يتضمنه هذا المثَل من الحقائق، والأمر بالسجدة فيها تشريفه «تعالى» آدم بقرب المنزلة ونعمة الخلافة وكرامة الولاية، تشريفاً أخضع له الملائكة وأبعد منه إبليس، لمضادة جوهر السعادة الإنسانية، فصار يُفسد الأمر عليه كلما مسّه، ويغويه إذا اقترب منه، **﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾**[١])[٢]. ولتأكيد فكرة التمثيل الرمزي في القرآن استشهد الطباطبائي بما جاء في الآيات التالية:

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٣]

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[٤]

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[٥].

وأما الإشكال على القول بهذه الرمزية بأن: (رفع اليد عن ظاهر القصة وحْملها على جهة التكوين المحضة يوجب التشابه في عامة كلامه «تعالى»، ولا مانع حينئذ يمنع من حمل معارف المبدأ والمعاد، بل والقصص والعِبر والشرائع على الأمثال، وفي تجويز ذلك إبطال للدين)[٦].

---

١. سورة الحج : ٤.
٢. الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٢٨.
٣. سورة فصلت: ١١.
٤. سورة يس: ٨٢.
٥. سورة الأحزاب: ٧٢ .
٦. الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٢٨.

فردّ عليه الطباطبائي معتبراً أن الدليل قد يدلّ على ثبوت بعض تلك المعارف، وعلى صراحتها ونصوصيتها، وذلك من قبيل المعارف الأصلية والاعتقادات الحقة كالتوحيد والنبوة والمعاد، ومن قبيل قصص الأنبياء والأمم في دعواتهم الدينية، ومن قبيل الشرائع والأحكام وما تستتبعه من الثواب والعقاب، كما أن الدليل والشواهد قد تدلّ على خلاف ذلك، كما في قصة آدم وإبليس والملائكة، ومثل قصة الذَّر وعرض الأمانة وغير ذلك (مما لا يستعقب إنكار ضروري من ضروريات الدين، ولا يخالف آية محكَمة، ولا سُنّة قائمة، ولا برهاناً يقينياً)[١].

وحول قصة النبي داود مع الرجلين الذين تسوّرا المحراب في قوله «تعالى»: ﴿ **وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ، إِنَّ هذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ، قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ، فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ، يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾[٢] ذكر الطباطبائي أن أكثر المفسرين -تبعاً للروايات-

١. الطباطبائي : الميزان في تفسير القرآن، ج ٨، ص ٢٩.
٢. سورة ص : ٢١-٢٦.

اعتبروا أن هؤلاء الخصم الداخلين على داود «عليه السلام» كانوا ملائكة، أرسلهم الله «سبحانه» إليه ليمتحنه. ثم بيّن أنه لا يرتضي كون الأمر قد وقع في هذا العالم المشهود وذلك بلحاظ النقاط التالية:

١. خصوصيات القصة: كتسورهم المحراب ودخولهم عليه دخولاً غير عادي بحيث أفزعوه.

٢. تنبه داود «عليه السلام» بأنه إنما كان فتنة من الله له، ولم يكن مضمون الشكوى واقعة عادية وحقيقية.

٣. قوله «تعالى»: ﴿**فَاحْكُم بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتّبِعِ الْهَوَى**﴾ والذي يظهر منه أن الله ابتلاه بما ابتلى لينبهه ويسدده في خلافته وحكمه بين الناس.

قال معلّقاً: (كل ذلك يؤيد كونهم من الملائكة، وقد تمثّلوا له في صورة رجال من الإنس، وعلى هذا فالواقعة تمثل تمثل فيه الملائكة في صورة متخاصمين لأحدهما نعجة واحدة يسألها آخر له تسع وتسعون نعجة وسألوه القضاء فقال لصاحب النعجة الواحدة: ﴿**لَقَدْ ظَلَمَكَ**﴾ إلخ، وكان قوله «عليه السلام» - لو كان قضاء منجّزاً - حكماً منه في ظرف التمثّل، كما لو كان رآهم فيما يرى النائم، فقال لهم ما قال، وحكَم فيهم بما حكم، ومن المعلوم أن لا تكليف في ظرف التمثّل، كما لا تكليف في عالم الرؤيا، وإنما التكليف في عالمنا المشهود، وهو عالم المادة، ولم تقع الواقعة فيه، ولا كان هناك متخاصمان، ولا نعجة ولا نعاج، إلا في ظرف التمثّل، فكانت خطيئة داود «عليه السلام» في هذا الظرف من التمثّل، ولا تكليف هناك)[1].

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ١٩٣-١٩٤.

ثم شبّه العلامة أسلوب عرض الآيات لهذه القصة بعرض الآيات لقصص: (خطيئة آدم «عليه السلام» في الجنة، مِن أكل الشجرة قبل الهبوط إلى الأرض، وتشريع الشرائع، وجعل التكاليف، واستغفاره) أي استغفار داود (وتوبته، مما صدر منه، كاستغفار آدم وتوبته مما صدر منه وقد صرح الله بخلافته في كلامه كما صرح بخلافة آدم «عليه السلام» في كلامه..... وأما على قول بعض المفسرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشرا والقصة على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله: ﴿**لَقَدْ ظَلَمَكَ**﴾ إلخ قضاءً تقديرياً، أي أنك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجّة بينة، وإنما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجة من طريقي العقل والنقل أن الأنبياء معصومون بعصمة من الله لا يجوز عليهم كبيرة ولا صغيرة. على أن الله «سبحانه» صرّح قبلاً بأنه آتاه الحكمة وفصل الخطاب، ولا يلائم ذلك خطأه في القضاء)[١].

وأضاف د. سعيدي روشن مؤيداً وشارحاً كلام العلامة الطباطبائي: (ويطرح آية الله جوادي الآملي هذا السؤال حول تعليم الأسماء لآدم «عليه السلام» ويقول: هل كان لتعليم آدم الأسماء وعرضها على الملائكة... والحوار بين الله «تعالى» والملائكة وآدم وقوع خارجي أم أن مضمون هذه القصة تمثيل صِرف؟ لا شك في أن المقصود بالتمثيل ليس القصة الرمزية التى لا يكون لها أي حقيقة خارجية على الإطلاق، وإنما التمثيل هنا يعني أن حقيقة معقولة ومعرفة غيبية وقعت وقوعاً عينياً وذُكرت في صورة محسوسة)[٢].

---

١. الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، ج ١٧، ص ١٩٤.

٢. آملي: تسنيم في تفسير القرآن، ج٣، ص ٢٢٣-٢٢٩.

ثم نقل عن الآملي - وهو يتحدث عن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم - قوله: (لا يمكن أن يكون هذا الأمر حقيقياً، لأن الأمر الحقيقي يكون للتشريع، في حين أن الملائكة ليسوا من أهل التكليف. والأمر لا يكون تكوينياً أيضاً، لأن الأمر التكويني حتميّ الوقوع ولا يمكن عصيانه، ويجب بناء على هذا أن يُحمَل على التمثيل، ولا شك في أن المراد من التمثيل هنا ليس القول بأن القصة خيالية ورمزية وأنها لا تطابق الحقيقة الخارجية، وإنما المقصود بالتمثيل هو أن الحقيقة الغيبية قد ذُكرت في صورة محسوسة)[١]. ومع التحفّظ على رأي الآملي في أن الأمر الحقيقي لا يكون إلا للمكلَّفين، إلا أن رأيه في معنى رمزية القصة متناغم مع رأي العلامة الطباطبائي ويتلخّص في أن هناك شيئاً ما حدث في عالم الغيب ويختلف عمّا قدّمته القصة القرآنية، ودورها تقريب الفكرة إلى الأذهان.

ثم علّق د. سعيدي روشن بأنه: (لا يمكننا أن نغفل عن أنه ربما يُمكن اعتبار التمثيل التصويري، كما يقول بعض العلماء، واحداً من مصادر الرموز التعبيرية في الدين والعلم، نوعاً من اللغة أو علامة على الحقائق السامية التي تتجاوز الحسّيات، وجاء في مستوى قريب من أذهان المخاطبين وأفهامهم)[٢].

وفي نهاية المقال لخّص الفكرة قائلاً: (والنتيجة التي نصل إليها مما سبق هي أن جُملَ القرآن وعباراتِه لها مفهوم حقيقي - إلا في حالات الكناية وضرب المثل والحالات التي توجد فيها قرينة تدلّ على الاستناد إلى المعنى المجازي -

١. آملي: تسنيم في تفسير القرآن، ج٣، ص ٢٨٨-٢٩١.

٢. مجموعة مؤلفين: لغة القرآن، مسائلها وقضاياها، ص ٢٠٩.

سواء أكانت هذه الجُمل والعبارات متعلّقة بأسماء الله وصفاته وأفعاله، أم تلك المتعلقة بظواهر عالم الوجود وخصائصها وأفعالها، أو التي تتعلق بحياة الإنسان في هذه الدنيا، أو التي ترتبط بمصير العالم والإنسان في المستقبل، وأشراط الساعة وكيفية غروب النظام الكوني الموجود وظهور العالم الآخر والحساب والكتاب والميزان والقضاء والفصل بين الأخيار والأشرار والنِّعَم والملذّات الخاصّة بالصالحين وعذاب الكافرين والمذنبين وآلامهم)[١].

وهكذا نجد فكرة مشابهة لذلك لدى بعض آباء النصرانية، فقد قال القمص تادرس يعقوب أنه: (في القرن الثاني يبدو أن العلامة أوريجانوس) أوريجانوس/ أوريجن / أوريجين أدامانتيوس «١٨٤-٢٥٣م» يبدو أنه ولد في الإسكندرية، اعتبره البعض «أمير شُرَّاح الكتاب المقدس»، إلا أنه خالف تعاليم الكنيسة القبطية ومعتقداتها، وأسّس لنفسه مدرسة لاهوتية خاصة، وجُرّد من قبل البابا من عنوانه الكهنوتي كما سُجن على يد قيصر الروم «دسيوس» وعُذِّب ومات متأثراً بذلك (تطلّع إلى قصة آدم وحواء وما حدث معهما كقصة رمزية بحتة، قدّمها الوحي للكشف عن مفاهيم روحية تمسّ حياة الإنسان بالله، وأن الجنة لم تكن علي الأرض بل في السماء الثالثة حيث كان آدم وحواء روحين بلا جسدين حقيقيين قبل السقوط، وأنهما هبطا من الفردوس أو الجنة إلي الأرض بسبب سقوطهما، وأن ما نالاه من جسدين إنما هو من قبيل العقاب. هذه الأفكار هاجمها القديس أبيفانيوس أسقف سلاميس بقبرص في رسالته إلى القديس يوحنا أسقف أورشليم)[٢].

١. مجموعة مؤلفين: لغة القرآن، مسائلها وقضاياها، ص ٢٣٠.

2. arabicholybible.files.wordpress.com/2019/02/old1tadros-ar.pdf

٣. أن آدم رمْز للإنسان العاقل الحديث الذي نمَت إدراكاته العقلية وقدراته الكلامية بشكل أفضل، وتحوّل بالتالي نمط حياته – وبالتدريج – من الحياة البسيطة إلى حياة أكثر تعقيداً.

ولنقل – مثلاً – أن آدم ما قبل الأكل من الشجرة هو رمز للإنسان البسيط الذي كان يعيش ما قبل عهد الزراعة وتربية الحيوانات الأهلية وبناء المدن والأرياف.

الإنسان – النوع لا الفرد – الذي كانت تتوفّر له حاجاته من الغذاء والشراب والملبس والمسكن من الطبيعة المحيطة به: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى**﴾[1]... الإنسان –النوع لا الفرد– الذي كانت لديه قدرات عقلية ولكنها كانت كامنة، ولبساطته بدأت تصدر عنه بعض السلوكيات التي تتنافى وما يمتلكه من عقل، ولاختياره خليفة على الأرض، بمعنى المخلوق الذي لا يملك أي مخلوق آخر على الأرض عقلاً مثله، يستطيع من خلاله أن يميّز ما بين الخير والشر.

وأكلُه من الشجرة مجرد رمز لهذه السلوكيات المنافية لقدرته على التمييز بين الخير والشر، إذ لم يفعّل هذا العقل بعدُ ولم يوظّفه بالشكل السليم حتى أنه كان يرتكب أخطاءً قاتلة بينما كان يستطيع تجنّبها.

وهكذا، وضمن التخطيط الإلهي، ولربما وفق القوانين الطبيعية – لا على طريقة الآيات المعجزة – التي مِن بينها التغيّر المناخي مثلاً وآثار ذلك،

١. سورة طه:١١٧-١١٩.

خرج هذا الإنسان - النوع لا الفرد - مجبراً من تلك «الجنة - المنطقة» التي كانت في يوم ما تحتوي على كل ما يحتاج إليه وبأسهل طريقة، ودون تعب، فصار مضطراً لأن يحفر الأرض ويبذر البذور ويَسقي الأرض وينتظر موسم الحصاد، ويقاوم أخطار تلف المحصول، وما إلى ذلك. وتكشّفت له مساوئه، فعمل على تغطيتها باتخاذ إجراءات من خلال الإمكانات المتوافرة بين يديه. كان هذا التغيّر الكبير في نمط الحياة دافعاً لأن يفكّر في خسارته للنمط السابق الذي كان يعيشه، وفقدانه النعم الإلهية التي كان يرفل فيها، ويعود إلى الله في حالة من التوبة والإنابة والندم على ما بدر عنه، ولتبدأ معها رحلة الإيمان والعبادة بصورة أكثر نُضجاً وتفصيلاً عن تلك الصورة الفطرية الأولى التي كانت عليها. وتزامن مع هذا التغيّر، أن بدأ يبني لنفسه مسكناً يحميه من حرارة الشمس والأمطار وبرودة الجو، كما بدأ يصنع أدوات جديدة يحتاج إليها في تأمين الغذاء والشراب وغير ذلك من أوّليات الحياة.

وهكذا بدأت رحلة الإنسان الأخيرة في عصر ما بعد الاستقرار والاستيطان، والمتزامنة مع الزراعة وتربية الحيوانات الأهلية والتي ما زالت مستمرة إلى هذا اليوم. فيا تُرى.. هل تحدّث القرآن الكريم عن قصة الإنسان العاقل الحديث ومسيرته التكاملية بهذه الصورة المعروضة في آياته وبصورة رمزية.. سواء وفق التصوّر الأول أو الثاني أو لربما بتصوّر مختلف عنهما؟

وهل قوله «تعالى»: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾[1] حديث رمزي عن إيداع القدرة العقلية المتطورة لدى الإنسان العاقل - النوع - بالنطق وإمكانية

١. سورة البقرة: ٣١.

اشتقاق المفاهيم والتصورات والقدرة على التخيّل والإبداع؟ هذه القدرات التي لا يمتلكها الملائكة بحسب طبيعة خلقهم، مما جعلهم عاجزين عن تقديم إجابة حيث قال لهم ربهم: ﴿**أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[١] وجاءت إجابتهم مؤكدة عجزهم عن ذلك: ﴿**قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾[٢]. وكأنّ الملائكة لا يستطيعون الحصول على علم خارج نطاق ما تمت برمجتهم عليه – أو تعليمهم إياه – على خلاف الإنسان العاقل القادر على ذلك: ﴿**قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ**﴾[٣].

ثم إن الآيات التي ذكرناها في أول البحث تؤكّد على أن أصل الإنسان من تراب بلغ تدريجياً إلى حالة تشبه الفخار. ولكنها في نفس الوقت تتحدّث عن النطفة وتطوّر الجنين. وهناك روايات مرّ بنا بعضها تتحدّث عن أكثر من آدم ومن نسل «آدمي». هذا الحديث المتنوّع في وصف الخلق الإنساني يعطي مجالاً للتفكير – ولو من باب الاحتمال – في أكثر من اتجاه:

الاتجاه التقليدي القاضي بأن آدم – أي الفرد الأول من الإنسان الذي نعرفه اليوم – كان بنفسه تراباً، ثم تشكّل كالتمثال من صلصال بصورة إنسانية، ثم ولجته الروح، ومن نفس الطينة خُلقت زوجته، وكان نتاج لقائهما ذرية استمرّت إلى هذا اليوم.

١. سورة البقرة: ٣١.
٢. سورة البقرة: ٣٢.
٣. سورة البقرة: ٣٣.

الاتجاه الآخر: أن الآيات تتحدّث عن الأصل الأوّل للإنسان ككل، وأنّ الله «سبحانه» أودع في هذا الوجود أسراراً للخِلقة جَعلت من التراب كائناً حياً بسيطاً، نتج عنه في نهاية المطاف هذا المخلوق الذي نعرفه اليوم باسم الإنسان العاقل الحديث.

وكما أكّدت من قبل أنني لا أريد هنا أن أخوض في نظرية التطوّر، وما يدور من كلام حول انحدار الإنسان من سلف مشترك انحدر منه الإنسان والقرد وما أشبه ذلك.. ولكن دعونا نفكّر في إمكانية قراءة الآيات وفهمها بصورة مختلفة عن الطريقة التي عهدناها، لا سيما بلحاظ المعطيات العلمية الكثيرة والملموسة من خلال الأحافير والآثار بحيث بات من الصعب تجاهل دلالتها حول وجود أنواع بشرية تنتمي إلى جنس واحد وتمتد في الزمن إلى عدة ملايين من السنين. وأننا – كأفراد من الإنسان العاقل الحديث – نأتي في نهاية هذه السلسلة من الجنس البشري.

والذي يفتح المجال للبحث بشكل أرحب أن القرآن الكريم خلِيٌّ من تحديد عمر الخلق عموماً، والعالم المادي المشهود خصوصاً، ثم الإنسان على وجه التحديد.. على خلاف ما جاء في المصادر الدينية لليهود والنصارى حيث أن العالم – بحسب نصوصهم – خُلق قبل ما يقارب ٦٠٠٠ سنة فقط! وهو ما جعلهم في حالة من التصادم مع المعطيات العلمية التي تعود بهذا الوجود إلى قرابة ١٤ مليار سنة!

نعم، في بعض المرويات التي يُعتقد أنها جاءت تحت تأثير الموروث الإسرائيلي والمسيحي الذي لم يكن صادقاً في ما يقدّمه من معلومات، نجد تقارباً مع ما

جاء في المصادر الكتابية، وذلك من قبيل ما جاء في تاريخ الطبري تحت عنوان «القول في كم قدر جميع الزمان من ابتدائه إلى انتهائه وأوله إلى آخره»، قال: (اختلف السلف قبلنا من أهل العلم في ذلك)[١]، ثم ذكر الأقوال:

١. قدّرُ جميع ذلك سبعة آلاف سنة. وروى عن سعيد بن جبير الذي يرويه عن ابن عباس أنه قال: (الدنيا جُمعة مِن جُمع الآخرة، سبعة آلاف سنة، فقد مضى ستة آلاف سنة ومائتا سنة، وليأتين عليها مئون من سنين، ليس عليها موحِّد)[٢].

٢. قدّرُ جميع ذلك ستة آلاف سنة. وروى عن الأعمش عن أبي صالح عن كعب أحبار اليهود أنه قال: (الدنيا ستة آلاف سنة)[٣]. وروى عن عبدالصمد بن معقل أنه سمع وهب بن منبّه -مرة أخرى المصدر من الإسرائيليات - يقول: (خلا من الدنيا خمسة آلاف سنة وستمائة سنة، وإني لأعرف كل زمان منها ما كان فيه من الملوك والأنبياء. قلت لوهب بن منبّه: كم الدنيا؟ قال: ستة آلاف سنة)[٤]. ثم علّق الطبري قائلاً: (والصواب من القول في ذلك ما دلّ على صحته الخبر الوارد عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم») وذكر عدة روايات عن النبي، من بينها:

١. عن ابن عمر قال: (سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: أجلُكم في أجِل مَن كان قبلكم، مِن صلاة العصر إلى مغرب الشمس).

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ١٥.
٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ١٥.
٣. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ١٥.
٤. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ١٥.

٢. عن أنس بن مالك: (أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خطب أصحابه يوماً وقد كادت الشمس أن تغيب ولم يبق منها إلا شق يسير، قال: والذى نفس محمد بيده، ما بقى من دنياكم فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وما ترون من الشمس إلا اليسير).

٣. عن أبى هريرة قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: بُعثت والساعة كهاتين، وأشار بالسبابة والوسطى)[١].

ثم قال الطبري معلّقاً: (بيّنّا أن أوْلى القولين اللذين ذكرتُ في مبلغ قدَر مدة جميع الزمان اللذين أحدهما عن ابن عباس والآخر منهما عن كعب بالصواب وأشبههما بما دلت عليه الأخبار الواردة عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قول ابن عباس الذي روينا عنه أنه قال: «الدنيا جمعة من جُمع الآخرة سبعة آلاف سنة»، وإذ كان ذلك كذلك، وكان الخبر عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» صحيحاً أنه أخبر عن الباقي من ذلك في حياته أنه نصف يوم، وذلك خمسمائة عام، إذ كان ذلك نصف يوم من الأيام التي قدر اليوم الواحد منها ألف عام، كان معلوماً أن الماضي من الدنيا إلى وقت قول النبي «صلى الله عليه وسلم» ما رويناه عن أبي ثعلبة الخشني عنه كان قدر ستة آلاف سنة وخمسمائة سنة أو نحواً من ذلك وقريباً منه، والله أعلم. فهذا الذي قلنا في قدر مدة أزمان الدنيا من مبدأ أولها إلى منتهى آخرها من أثبت ما قيل في ذلك عندنا من القول للشواهد الدالة التي بيناها على صحة ذلك)[٢].

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ١٦-١٧.

٢. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص١٨.

ثم قال: (وقد زعم اليهود أن جميع ما ثبت عندهم على ما في التوراة مما هو فيها من لدن خلق الله آدم إلى وقت الهجرة وذلك في التوراة التي هي في أيديهم اليوم أربعة آلاف سنة وستمائة سنة واثنتان وأربعون سنة، وقد ذكروا تفصيل ذلك بولادة رجل رجل ونبي نبي وموته، من عهد آدم إلى هجرة نبينا محمد «صلى الله عليه وسلم»، وسأذكر تفصيلهم ذلك إن شاء الله، وتفصيل غيرهم ممن فصّله من علماء أهل الكتب وغيرهم من أهل العلم بالسير وأخبار الناس إذا انتهيت إليه إن شاء الله. وأما اليونانية من النصارى فإنها تزعم أن الذي ادّعته اليهود من ذلك باطل، وأن الصحيح من القول في قدر مدة أيام الدنيا من لدن خلق الله آدم إلى وقت هجرة نبينا محمد «صلى الله عليه وسلم» على سياق ما عندهم في التوراة التي هي في أيديهم: خمسة آلاف سنة وتسعمائة سنة واثنتان وتسعون سنة وأشهر، وذكروا تفصيل ما ادّعوه من ذلك بولادة نبي نبي وملك ملك ووفاته من عهد آدم إلى وقت هجرة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وزعموا أن اليهود إنما نقصوا ما نقصوا من عدد سني ما بين تاريخهم وتاريخ النصارى دفعاً منهم لنبوة عيسى بن مريم «عليه السلام» إذ كانت صفته ووقت مبعثه مثبتة في التوراة، وقالوا: لم يأت الوقت الذي وُقِّت لنا في التوراة أن الذي صفته صفة عيسى يكون فيه وهم ينتظرون بزعمهم خروجه ووقته)[1].

ثم ذكر الطبري قول المجوس وأنهم يزعمون أن قدر مدة الزمان من لدن ملك «جيومرت» إلى وقت هجرة النبي «صلى الله عليه وآله» ثلاثة آلاف سنة

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ١٨-١٩.

ومائة سنة وتسع وثلاثون سنة، وهم لا يذكرون مع ذلك نسباً يُعرف فوق جيومرت، ويزعمون أنه آدم أبو البشر[١].

وما يهوّن الأمر أن كل الآراء السابقة ليست نصوصاً قرآنية، بل أقوال وأخبار وآراء ظنية: ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾[٢] وبالتالي تكون قابلة للرد والرفض دون حاجة إلى مجهود كبير، لا سيما بلحاظ تصادمها مع المعطيات العلمية الثابتة في هذا العصر والتي تتحدث عن أن عمر الكون يقرب من ١٣,٧٧ مليار سنة، وأن عمر كوكب الأرض حوالي ٤,٥٤ مليار سنة، وأن ظهور الحياة عليها يعود إلى قرابة ٣,٧ مليار سنة، وأن الجنس البشري ظهر قبل ما يقارب ٣ ملايين سنة.

ويبقى الملف مفتوحاً للمزيد من البحث والنقاش، لأنّه كلّما زادت المعطيات والفرضيات والنظريات العلمية تراكماً.. كلّما باتت الأسئلة حول هذه القصة القرآنية أشدّ إلحاحاً وأكثر إثارة وتنتظر من يجيب عنها مع الحفاظ على الإيمان بسماوية كتاب الله الكريم، لا سيما بلحاظ ما تم عرضه في بدايات البحث تحت عنوان «خلق آدم في القرآن الكريم».

١. الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ١٩

٢. سورة النجم: ٢٨.

٢

عمر النبي نوح

٢

عمر النبي نوح

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[١].

• مقارنة بين القرآن والتوراة والروايات:

لم يرد الكلام في القرآن الكريم عن تحديد عمر النبي نوح «عليه السلام» إلا ما جاء في الآية السابقة. ونجد في التوراة أيضاً تحديداً لعمره بعد ذكر أبيه: (وَكَانَ نُوحٌ ابْنَ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ.....)[٢] أي عند وفاة أبيه (وَعَاشَ نُوحٌ بَعْدَ الطُّوفَانِ ثَلاَثَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً. فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ نُوحٍ تِسْعَ مِئَةٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً، وَمَاتَ)[٣]. وهكذا نجد أنه من حيث ظاهر النصين في القرآن الكريم والكتاب المقدس يوجد توافق في الرقم ٩٥٠.

ولكن في بعض المرويات الإسلامية زيادة على هذا الرقم، وفيما يلي نماذج من ذلك:

○ علل الشرائع للشيخ الصدوق بسندٍ: (عن عبد العظيم الحسني، قال:

١. سورة العنكبوت: ١٤.
٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٥: ٣٢.
٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٩: ٢٨-٢٩.

سمعت علي بن محمد العسكري «عليه السلام» يقول: عاش نوح «عليه السلام» ألفين وخمسمائة سنة، وكان يوماً في السفينة نائماً، فهبّت ريح فكشفت عورته، فضحك حام ويافث، فزجرهما سام ونهاهما عن الضحك، وكان كلما غطى سام شيئاً تكشفه الريح، كشفه حام ويافث. فانتبه نوح «عليه السلام» فرآهم وهم يضحكون، فقال: ما هذا؟ فأخبره سام بما كان، فرفع نوح «عليه السلام» يده إلى السماء يدعو ويقول: اللهم غيّر ماء صلب حام حتى لا يولد له إلا السودان) لاحظ الروحية العنصرية في الرواية التي يبدو أنها إسرائيلية بلحاظ ثنائها على سام دون أخويه (اللهم غيّر ماء صلب يافث. فغيّر الله ماء صلبيهما. فجميع السودان حيث كانوا من حام، وجميع الترك والصقالبة[١] ويأجوج ومأجوج والصين من يافث حيث كانوا، وجميع البيض سواهم من سام. وقال نوح لحام ويافث: جعل ذريتكما خولاً) عبيداً أو خدماً (لذرية سام إلى يوم القيامة لأنه برّ بي وعققتماني) إشارة أخرى توحي بإسرائيلية الرواية (فلا زالت سمة عقوقكما لي في ذريتكما ظاهرة، وسمة البِرّ بي في ذرية سام ظاهرة ما بقيت الدنيا)[٢].

والذي يؤكّد إسرائيلية الرواية أيضاً ما جاء في سفر التكوين: (وَكَانَ بَنُو نُوحٍ الَّذِينَ خَرَجُوا مِنَ الْفُلْكِ سَامًا وَحَامًا وَيَافَثَ. وَحَامٌ هُوَ أَبُو كَنْعَانَ) لماذا

١. السلاف. مجموعة إثنية هندو أوروبيّة. هم مواطنون في أوراسيا، ويمتد انتشارهم من وسط وشرق وجنوب شرق أوروبا على طول الطريق نحو الشمال والشرق إلى شمال شرق أوروبا وشمال آسيا «سيبيريا» والقوقاز وآسيا الوسطى «وخاصةً كازاخستان وتركمانستان»، وكذلك تاريخياً في أوروبا الغربية «لا سيّما في ألمانيا الشرقية» وغرب آسيا «بما في ذلك الأناضول». من أوائل القرن السادس انتشروا ليعيشوا في غالبية مناطق أوروبا الوسطى والشرقية والجنوبية الشرقية.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ج ١، ص ٣٠ - ٣١.

ذُكر كنعان هنا على وجه الخصوص؟ من الواضح أن تم زج اسمه لنفي كونه من سام المبارك، وبلحاظ الصراع مع الكنعانيين (هؤُلاَءِ الثّلاَثَةُ هُمْ بَنُو نُوحٍ. وَمِنْ هؤُلاَءِ تَشَعّبَتْ كُلُّ الأَرْضِ. وَابْتَدَأَ نُوحٌ يَكُونُ فَلاّحًا وَغَرَسَ كَرْمًا. وَشَرِبَ مِنَ الْخَمْرِ فَسَكِرَ وَتَعَرّى دَاخِلَ خِبَائِهِ. فَأَبْصَرَ حَامٌ أَبُو كَنْعَانَ عَوْرَةَ أَبِيهِ، وَأَخْبَرَ أَخَوَيْهِ خَارِجًا. فَأَخَذَ سَامٌ وَيَافَثُ الرِّدَاءَ وَوَضَعَاهُ عَلَى أَكْتَافِهِمَا وَمَشَيَا إِلَى الْوَرَاءِ، وَسَتَرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا وَوَجْهَاهُمَا إِلَى الْوَرَاءِ. فَلَمْ يُبْصِرَا عَوْرَةَ أَبِيهِمَا. فَلَمّا اسْتَيْقَظَ نُوحٌ مِنْ خَمْرِهِ، عَلِمَ مَا فَعَلَ بِهِ ابْنُهُ الصّغِيرُ، فَقَالَ: «مَلْعُونٌ كَنْعَانُ! عَبْدَ الْعَبِيدِ يَكُونُ لإِخْوَتِهِ». وَقَالَ: «مُبَارَكٌ الرّبُّ إِلهُ سَامٍ. وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ. لِيَفْتَحِ اللهُ لِيَافَثَ فَيَسْكُنَ فِي مَسَاكِنِ سَامٍ، وَلْيَكُنْ كَنْعَانُ عَبْدًا لَهُمْ»)[١].

من الواضح وجود نوع من التشابه في مضمون النصين، ولكن يبدو أن واضع الرواية السابقة كان أكثر مغالاة من واضع النص التوراتي، فألحق يافث بحام، وميّز سام من بينهما، أو لأن هذه هي عادة مُسلِمة أهل الكتاب الذين كانوا يوصلون المعلومة خاطئة أو مشوّهة.

ويبدو أن سبب الإصرار على ذكر «كنعان» مع أنه لا علاقة له بالقصة، كونه ابناً لحام بحسب الفرض، هو الصراع الذي كان قائماً بين الكنعانيين وبني إسرائيل منذ خروجهم من مصر نحو أرض فلسطين والأردن، والأحقاد التي كانت متوقدة في قلوب الإسرائيليين تجاههم، ولذا وجدوا في هذا المقطع المختلَق من قصة النبي نوح «عليه السلام» فرصة للتنفيس عن شيء من هذه الكراهية العميقة. وعلى أي أساس يُلعن كنعان مع أن الفاعل

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٩: ١٨-٢٦.

- بحسب القصة - أبوه حام؟ ولماذا لم يُلعن حام نفسه؟ من الواضح أن المسألة مقصودة نتيجة الصراع مع الكنعانيين.

○ أمالي الصدوق بسندٍ: (عن هشام بن سالم، عن الصادق جعفر بن محمد «عليهما السلام» قال: عاش نوح «عليه السلام» ألفي سنة وخمسمائة سنة، منها ثمانمائة سنة وخمسون سنة قبل أن يُبعث، وألف سنة إلا خمسين عاماً وهو في قومه يدعوهم، ومائتا عام في عمل السفينة، وخمسمائة عام بعد ما نزل من السفينة ونضَب الماء. فمصّر الأمصار، وأسكن ولدَه البلدان، ثم إن ملك الموت جاءه وهو في الشمس) أي كان نوح تحت الشمس مباشرة بلا ظل يظلّه (فقال: السلام عليك، فرد عليه نوح «عليه السلام» وقال له: ما حاجتك يا ملك الموت؟ فقال: جئت لأقبض روحك، فقال له: تدعني أدخل من الشمس إلى الظل؟ فقال له: نعم، فتحول نوح «عليه السلام» ثم قال: يا ملك الموت، فكان ما مر بي في الدنيا مثل تحوّلي من الشمس إلى الظل، فامض لما أُمرت به. قال: فقبض روحه «عليه السلام»)[١].

○ إكمال الدين للصدوق بسندٍ: (عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: عاش نوح «عليه السلام» بعد النزول من السفينة خمسين سنة) بينما مرّ بنا في رواية للصدوق أيضاً أنه عاش ٥٠٠ سنة بعد النزول من السفينة والفرق كبير جداً، ولذا قال المجلسي معلّقاً: «أقول: ذكر في ص[٢] بهذا الإسناد إلى قوله: كما أمرهم آدم عليه السلام إلا

١. الصدوق: الأمالي، ص ٦٠٢-٦٠٣.

٢. أي قصص الأنبياء.

أن فيه خمسمائة سنة بدل خمسين سنة، وهو الصواب كما يدل عليه ما مر من الأخبار» (ثم أتاه جبرئيل «عليه السلام» فقال: يا نوح إنه قد انقضت نبوتُك، واستُكملت أيامُك، فانظر الاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة التي معك فادفعها إلى ابنك سام، فإني لا أترك الأرض إلا وفيها عالم يعرف به طاعتي، ويكون نجاة فيما بين قبض النبي وبعث النبي الآخر، ولم أكن أترك الناس بغير حجةٍ وداعٍ إليّ وهادٍ إلى سبيلي وعارفٍ بأمري، فإني قد قضيت أن أجعل لكل قوم هادياً أهدي به السعداء، ويكون حجة على الأشقياء، قال: فدفع نوح «عليه السلام» الاسم الإكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة إلى ابنه سام، فأما حام ويافث فلم يكن عندهما علم ينتفعان به. قال: وبشّرهم نوح بهود «عليه السلام» وأمرهم باتّباعه، وأمرهم أن يفتحوا الوصية كل عام فينظروا فيها فيكون ذلك عيداً لهم كما أمرهم آدم «عليه السلام»، قال: وظهرت الجبرية في ولد حام ويافث) هذا وما سبقه من انعدام العلم لديهما مؤشّر على إسرائيلية الرواية (واستخفى ولد سام بما عندهم من العلم، وجرت على سام بعد نوح الدولة لحام ويافث وهو قوله الله «عز وجل»: ﴿**وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ**﴾[1] يقول: تركت على نوح دولة الجبارين) وهذا من تحريف تفسير القرآن (ويعزّي الله محمد «صلى الله عليه وآله» بذلك) بلحاظ أن الحكم لم يكن لمن اختاره النبي (وولْد: الحام السند والهند والحبش، وولد السام: العرب والعجم، وجرت عليهم الدولة، وكانوا يتوارثون الوصية عالم بعد عالم حتى بعث الله «عز وجل» هوداً)[2].

١. سورة الصافات:١٠٨.

٢. الصدوق: إكمال الدين، ص ٨٠-٨١.

○ إكمال الدين للصدوق بسندٍ: (عن محمد بن يوسف، عن الصادق، عن آبائه، عن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: عاش نوح ألفي سنة وأربعمائة وخمسين سنة)[١].

وهذا رقم مختلف عن السابق بقليل نسبياً. وعلّق المجلسي في نهاية هذه الرواية مبيّناً اختلاف الآراء حول عمر النبي نوح «عليه السلام» وتعارض ما في هذه الرواية مع الروايات التي سبقتها فقال: (اعلم أن أرباب السِّيَر اختلفوا في عمره «عليه السلام» ، فقيل: كان ألف سنة. وقيل: كان ألفاً وأربعمائة وخمسين سنة. وقيل: كان ألفاً وأربعمائة وسبعين سنة. وقيل: ألفاً وثلاثمائة سنة. وأخبارُنا المعتبرة تدل على أنه عاش ألفين وخمسمائة سنة، وهذا الخبر) أي الذي تضمّن الرقم ٢٤٥٠ سنة (لا يُعتمد عليه لمخالفته لأقوال الفريقين وأخبارهم، ولعله لم يُحسب فيه بعض زمن حياته «عليه السلام» لعلّة، كالزمان السابق على البعثة، أو زمان عمل السفينة، أو أواخر عمره «عليه السلام»)[٢].

وأسجّل هنا عدة ملاحظات تعليقاً على كلام المجلسي:

١. كل الروايات السابقة ضعيفة السند.

٢. لم يتفق الفريقان على أن نوحاً «عليه السلام» عاش ٢٥٠٠ سنة، بل يبدو أن الرقم الوارد في القرآن الكريم فتَح شهية البعض للمزايدة كيفما شاء. وفي البين مجموعة مما ورد في مصادر أهل السنة حول هذا الموضوع:

---

١. الصدوق: إكمال الدين، ص ٢٨٩.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١ ص٢٨٩ - ٢٩٠.

○ تفسير الطبري: (حدثنا نصر بن عليّ الجهضمي، قال: ثنا نوح بن قيس، قال: ثنا عون بن أبي شداد، قال: إن الله أرسل نوحاً إلى قومه وهو ابن خمسين وثلاث مئة سنة فلبث فيهم ألف سنة إلاّ خمسين عاماً، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاث مئة سنة)[١]. فالمجموع ١٦٥٠ سنة.

○ تفسير القرطبي: (واختلف في مبلغ عمره. فقيل: مبلغ عمره ما ذكره الله «تعالى» في كتابه. قال قتادة: لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة، ودعاهم ثلاثمائة سنة، ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. وقال ابن عباس: بُعث نوح لأربعين سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الغرق ستين سنة حتى كثر الناس وفشوا) المجموع ١٠٥٠ سنة (وعنه أيضاً: أنه بُعث وهو ابن مائتين وخمسين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين، وعاش بعد الطوفان مائتين سنة) المجموع ١٤٠٠ سنة. ودائماً تتكرر الأقوال المتضاربة على لسان ابن عباس في تأويل القرآن (وقال وهب: عمّر نوحٌ ألفاً وأربعمائة سنة) وهذا يتوافق مع القول السابق لابن عباس (وقال كعب الأحبار: لبث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان سبعين عاماً فكان مبلغ عمره ألف سنة وعشرين عاماً. وقال عون بن أبي شداد: بُعث نوح وهو ابن خمسين وثلاثمائة سنة، ولبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وعاش بعد الطوفان ثلاثمائة سنة وخمسين سنة؛ فكان مبلغ عمره ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة. ونحوه عن الحسن. قال الحسن: لما أتى ملك الموت نوحاً ليقبض روحه قال: يا نوح كم عشت في الدنيا؟ قال

١. الطبري: جامع البيان، ج٢٠، ص١٦٥.

ثلاثمائة قبل أن أبعث، وألف سنة إلا خمسين عاماً في قومي، وثلاثمائة سنة وخمسين سنة بعد الطوفان) المجموع ١٦٠٠ فكيف يكون موافقاً لقول عون؟ (وروي من حديث أنس قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: لما بَعث الله نوحاً إلى قومه بعثه وهو ابن خمسين ومائتي سنة، فلبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وبقي بعد الطوفان خمسين ومائتي سنة) فالمجموع ١٤٥٠ سنة (فلما أتاه ملك الموت قال: يا نوح، يا أكبر الأنبياء ويا طويل العمر، ويا مجاب الدعوة، كيف رأيت الدنيا؟) يبدو أن هذا القاص أحب أن يضيف بعض الإثارة على القصة فجاء بمثل هذه الصفات (قال: مثل رجل بُني له بيت له بابان، فدخل من واحد وخرج من الآخر. وقد قيل: دخل من أحدهما وجلس هنيهة ثم خرج من الباب الآخر)[١].

○ ولم يكتفِ بعض القصاصين بمزايداتهم في تحديد عمر النبي نوح فروى أحدهم - ولا نعلم من هو - القصة التالية. قال القرطبي: (روي أنه أعطي من العمر ألف سنة، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده، فلما حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف، فذكر الله «تعالى» ذلك) أي في قوله: ﴿**فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾ (تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته)[٢] أي من جهة نوح، وهي إشارة إلى ذلك بلحاظ أنه لم يقل - مثلاً - تسعمائة وخمسين سنةً!

○ وأضاف السيوطي قولاً آخر: (عن عكرمة «رضي الله عنه» قال: كان

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص٣٣٢-٣٣٣.

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص ٣٣٤.

عمر نوح «عليه السلام» قبل أن يُبعث إلى قومه وبعدما بُعث ألفاً وسبعمائة سنة)[١].

ولنلحظ أنه لم تكن أية رواية مما سبق في كتب أهل السنة عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فهي مجرد أقوال للمفسرين ولا نعلم مصدرها الحقيقي، ورويت بعض الروايات في كتب الشيعة عن أهل البيت «عليهم السلام» ولكنها إسرائيلية الأصل أو ضعيفة السند فلا نستطيع الركون إليها.

وقد اعتبر بعض المفسرين أن ظاهر الآية يدلّ على أن نوحاً عاش أكثر من ٩٥٠ سنة، بلحاظ قوله: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾ وهي مدة الرسالة، وهناك مدة سبقتها، ومدة لحقت الطوفان ﴿**فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ دون أن يعني ذلك تحديداً لهذه المدة الإضافية السابقة واللاحقة.

قال العلامة الطباطبائي: (والآية ظاهرة في أن الألف إلا خمسين مدة دعوة نوح «عليه السلام» ما بين بعثته إلى أخذ الطوفان، فيغاير ما في التوراة الحاضرة أنها مدة عمره «عليه السلام»)[٢].

وقال العلامة ابن عاشور: (وظاهر الآية أن هذه مدة رسالته إلى قومه، ولا غرض في معرفة عمره يوم بعَثه الله إلى قومه، وفي ذلك اختلاف بين المفسرين)[٣].

---

١. السيوطي: الدر المنثور، ج ٥، ص ١٤٣.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١٦، ص ١١٤.

٣. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٢٠، ص ٢٢٢.

• خصوصية التعبير بألف سنة إلا خمسين عاما:

من المسائل التي أثارت انتباه المفسّرين هي طريقة تعبير الآية عن الرقم المراد ذكره ﴿**أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾ إذ كان من الأسهل أن يقول تسعمائة وخمسين عاماً أو سنةً.

وقد تعددت تعليلاتهم، ومن بينها الأقوال التالية:

١. للدلالة على الكثرة:

قال العلامة الطباطبائي: (والتعبير بألف سنة إلا خمسين عاماً دون أن يُقال تسعمائة وخمسين سنة للتكثير)[١].

وذكره القرطبي من قَبل كأحد احتمالين، قال في تفسيره: (فإنْ قيل: فلم قال: ﴿**أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا**﴾ ولم يقل تسعمائة وخمسين عاماً. ففيه جوابان: أحدهما: أن المقصود به تكثير العدد، فكان ذِكره الألْف أكثر في اللفظ وأكثر في العدد)[٢].

٢. للدلالة على أن الرقم حقيقي:

قال الألوسي «ت١٢٧٠هـ» (ولعل ما عليه النظم الكريم في بيان مدة لبثه «عليه السلام») أي حيث قال ﴿**أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾ ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة (للدلالة على كمال العدد، وكونه متعيناً نصّاً دون تجوّز) أي أن الرقم فعلي حقيقي، بينما لو قال «ألف سنة» فلربما تم تأويل ذلك بأن مراد

---

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١٦، ص ١١٤.

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص ٣٣٤.

الآية الكثرة دون الرقم الحقيقي، (فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه) أي وإذا قال تسعمائة وخمسين سنة فلربما تأوّل البعض فقال بأن الرقم تقريبي.

ثم أضاف السبب الأول الذي ذكرناه: (ولما في ذِكر الألف من تخييل طول المدة لأنها أول ما تقرع السمع، فإنّ المقصود من القصة تسلية رسول الله «صلى الله عليه وسلم» وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة، وإظهار ركاكة رأي الذين يحسبون أنهم يُتركون بلا ابتلاء، واختلاف المميزين لما في التكرير في مثل هذا الكلام من البشاعة)[١].

وقد سبقه الزمخشري إلى مثل ذلك حيث قال: (ولعل ما عليه النظم الكريم في بيان مدة لبثه «عليه السلام». فإن قلت: هلّا قيل تسعمائة وخمسين سنة؟ قلت: ما أورده الله أحكم. لأنه لو قيل كما قلت، لجاز أن يتوهّم إطلاق هذا العدد على أكثره، وهذا التوهم زائل مع مجيئه كذلك، وكأنه قيل تسعمائة وخمسين سنة كاملة وافية العدد، إلا أنّ ذلك أخصر وأعذب لفظاً وأملأ بالفائدة. وفيه نكتة أخرى وهي أنّ القصة مسوقة لذكر ما ابتُلي به نوح «عليه السلام» من أمّته وما كابده من طول المصابرة، تسلية لرسول الله «صلى الله عليه وسلم» وتثبيتاً له، فكان ذكر رأس العدد الذي لا رأس أكثر منه) أي الألف وهو أكبر وحدة رقمية كانت معروفة لدى العرب آنذاك (أوقع وأوصل إلى الغرض من استطالة السامع مدّة صبره)[٢].

---

١. الألوسي: روح المعاني، ج٧، ص٣٤٨.

٢. الزمخشري: الكشاف، ج٤، ص ٥٤٠.

٣. إشارة لتنازل نوح عن جزء من عمره:

وهو الاحتمال الثاني الذي ذكره القرطبي في المقام، قال: (الثاني: ما روي أنه أعطي من العمر ألف سنة، فوهب من عمره خمسين سنة لبعض ولده، فلما حضرته الوفاة رجع في استكمال الألف، فذكر الله «تعالى» ذلك تنبيهاً على أن النقيصة كانت من جهته)[١].

وهكذا أثار انتباههم ذكر كلمة «سنة» بعد «ألف»، و«عام» بعد «خمسين»، حيث قال «تعالى»: ﴿**أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**﴾.. فلماذا لم يقل: (ألفاً إلا خمسين سنة)؟ أو (ألف سنة إلا خمسين) ؟ أو (ألفاً إلا خمسين عاماً) ؟ أو (ألف سنة إلا خمسين سنة) ؟ أو (ألف عام إلا خمسين عاماً) ؟

وجاءت إجاباتهم كالتالي:

١. استعمال كلمة «سنة» للدلالة على التعب والجهد المبذول من قبله في الدعوة وإعداد السفينة، حيث لا تدل كلمة «عام» على مثل ذلك.

قال الألوسي: (والنكتة في اختيار السنة أولاً، أنها تطلق على الشدّة والجدب بخلاف العام، فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى عليه السلام فيه ما قاسى من قومه)[٢].

٢. التناسب بين الكلمات من جهة، ولعدم التكرار من جهة أخرى، فالمسألة خاضعة للجمالية البيانية:

---

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٢، ص ٣٣٤.

٢. الألوسي: روح المعاني، ج٧، ص٣٤٨.

قال العلامة ابن عاشور: (وأوثر تمييز «ألْف» بـ «سنة» لطلب الخفة بلفظ «سنة»، وميّز «خمسين» بلفظ «عاماً» لئلا يكرّر لفظ «سنة»)[١]. أي أن ابن عاشور لا يرى خصوصية لكلمة «سنة» التي جاءت بعد التسعمائة، ولكلمة «عام» التي جاءت بعد الخمسين.

وقد سبقه إلى ذلك الزمخشري حيث قال: (فإن قلت: فلِمَ جاء المميِّز أوّلاً بالسنة وثانياً بالعام؟ قلت: لأنّ تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة، إلا إذا وقع ذلك لأجل غرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك)[٢].

وسنتطرّق إلى هذه المسألة من جديد عند مناقشة كيفية تفسير العمر الطويل للنبي نوح «عليه السلام».. هل هي حالة إعجازية استثنائية له؟ أم أنها كانت مسألة طبيعية في ذلك الزمان؟ أم شيئاً سوى ذلك؟

• هل كان عمر النبي نوح استثنائيا ؟

من القضايا التي تستدعي التوقّف عندها هي قضية هذا العمر الطويل «٩٥٠ سنة» والذي لا يتناسب مع عمر أكبر المعمّرين سناً في هذا الزمان، حيث لم يتجاوز في ما هو مُثبَت في السجلات الرسمية حاجز الـ «١٢٣» عاماً وإن كانت هناك بعض الادعاءات التي تجاوزت هذا الرقم دون دليل أو تثبيت في السجلات الرسمية.

فبحسب السجلات الرسمية الحديثة، فإن أكبر المعمرين سناً هي سيدة

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج٢٠، ص ٢٢٢.

٢. الزمخشري: الكشاف، ج٣، ص ٤٣١.

فرنسية اسمها «جيان كليينت» بلغت من العمر عند وفاتها سنة ١٩٩٧: ١٢٢عاماً و١٦٤ يوماً، ومن بين الادعاءات غير الرسمية ذلك الخاص بالمواطن الهندي «ماهاشتا موراسي» الذي تجاوز - بحسب الادّعاء - ١٧٩ عاماً بقليل، والسعودي «محمد بن زارع» الذي قيل أنه بلغ ١٥٤ عاماً.

وعلى العموم، فإن كل الأرقام السابقة بعيدة جداً عن رقم ٩٥٠.. فكيف نفسر ذلك؟

تحدّث عن هذا الموضوع الأستاذ عباس محمود العقاد حيث قال: (وقد تُمحِّصَت مسألة الأعمار الطوال ووُضِعَت في مواضعها من الدراسة التاريخية، فليس فيها ما يعترض الباحث في تاريخ قديم أو تاريخ حديث، وهذه المسألة - أي مسألة الأعمار - قد نُوقشت كثيراً قبل القرن العشرين، وتساءل المتناقشون فيها: هل حساب السنين واحد بين الأوائل والأواخر، أو هما حسابان مختلفان؟) أي إذا تحدّث الماضون عن «السنة» فهل يريدون بذلك الدورة الكاملة تقريباً للأرض حول الشمس مرة واحدة؟ قيل: ليس بالضرورة ذلك (وضربوا لذلك مثلًا بأيام الخليقة، فإنّ خلق العالم في ستة أيام يعني أياماً غير الأيام التي تُحسَب بطلوع الشمس وغروبها؛ لأن الشمس خُلقت في اليوم الرابع، فلا بد أن يكون معنى الأيام أنها أدوار، لا تُحسب بالشروق والغروب) أي أن بعض الوحدات الزمنية قد تستعمل فيها نفس المصطلحات ولكن مقدارها الحقيقي قد يكون مختلفاً بل وتستعمل أحياناً بعنوان وحدة زمنية دون تحديد لمقدارها (وتقرّر أن الأوائل كانوا يحسبون للسنة رأسين: رأس السنة الزراعية، ورأس السنة الديوانية، فربما اجتمع في العام الواحد

رأسان للسنة على هذا الحساب) أي السنة قد تكون ستة أشهر فقط (وظن بعضهم أن حساب السنين كحساب الأهلة عند الأوائل....) أي أن كل شهر قمري بسنة، فتكون السنة في حساباتنا ١٢ سنة في حساباتهم (وليس هذا الظن بالصواب؛ لأن الأوائل كانوا يعرفون حساب الأهلة وحساب الشمس منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل التاريخ).

ثم عرض العقاد احتمالاً آخر طرحه البعض لتوجيه هذا العمر الطويل، قال: (واجتهد بعضهم فقال: إن الأعمار المقدّرة هنا هي أعمار العشائر والدعوات النبوية) أي أن عمر قوم نوح كان ألف سنة إلا خمسين عاماً، ثم أُهلكوا، لا عمره هو في ذاته (وكثيراً ما يجري الحديث حتى اليوم باسم رأس العشيرة ويكون المقصود هو العشيرة كلها، أو يقال ابن الشرق وابن الغرب وابن أوروبة وابن أمريكا، والمقصود هنا هو العشائر بأجمعها).

وقام العقاد بعد ذلك ببيان أنّ هذه المحاولات لتفسير العمر الطويل للنبي نوح لا يقتصر على المسلمين، فقال: (وتوافق على هذه المذاهب من التأويل أناس من كل ديانة كتابية، فليست هي مقصورة على المسلمين ولا على المسيحيين ولا على اليهود، بل يشترك فيها أصحاب الفقه من جميع الأديان).

بعد المجيء بهذه التفاصيل اعتبر العقاد أن ليس من الضروري بالنسبة له تصحيح أي من التأويلات السابقة أو ردّها: (ونحن هنا لا حاجة بنا إلى الفصل في هذه التأويلات).

وخَلُص في النهاية إلى أن النصوص الدينية والتاريخية تُعدّ مرجعاً رئيساً في تحديد الأعمار، ولا يصح التغافل عنها، وإن بدَت الأرقام غير منطقية،

قال: (وأيًّا كان مقطع الرأي في هذه المسائل جميعاً، فليس من أمانة التاريخ أن يستند إليها أحد في نَفي الأخبار المتواترة، ولا سيما أخبار العهود والدعوات، ولا تزال الأسانيد الأولى أساساً قويّاً لتواريخ الأمم ترجح فيه دلائل الثبوت على دلائل البطلان)[١].

وقبل التعليق على معالجة العقاد للموضوع، لابد من التنبيه إلى أنه ليس في القرآن شيء يدل على خلق الشمس في اليوم الرابع، بل أن خلق السماوات والأرض وما بينهما تم في ستة أيام، ولكن في التوارة أن خلق الشمس والقمر تم في اليوم الرابع، ففي الأصحاح الأول من سفر التكوين من التوراة: (وَقَالَ اللهُ: «لتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ.وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ». وَكَانَ كَذلِكَ. فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ الأَصْغَرَ لحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ. وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لتُنِيرَ عَلَى الأَرْضِ، وَلتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. وَكَانَ مَسَاءٌ وَكَانَ صَبَاحٌ يَوْمًا رَابِعًا)[٢].

وإذا كانت إجابة العقاد السابقة المنطلقة من عمق الإيمان بظاهر النص الديني - والتاريخي أيضاً - كافية في زمن ما، إلا أنه لم يعد بالإمكان اليوم - مع الإلحاح في طرح الإشكال من قبل الملحدين واللادينيين والمتأثّرين بأطروحاتهم - الاكتفاء بذلك ولا بقول: «إن الله على كل شيء قدير»، كما فعل

١. العقاد: أبو الأنبياء، ص١٠٦-١٠٨.

٢. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ١، ١٤-١٩.

غير واحد من علماء الكلام والتفسير، لا سيما بلحاظ استدلال المعارضين والمشككين بالأدلة الآثارية والأحفورية التي لم يصل من خلالها أي أحد إلى هذا اليوم لما يدل على خلاف ذلك.

ومن هنا كان لابد من فتح هذا الملف وفق احتمالات وطرق لمعالجة الإشكال المطروح دون الاكتفاء بالإجابة الإيمانية، لأن تراكم الإشكالات على ظواهر الآيات القرآنية من شأنه أن يشكك الجيل المعاصر والأجيال القادمة في المصداقية الغيبية والتاريخية للقرآن الكريم. وسننطلق بحثاً عن إجابة مُقنعة ضمن عدة احتمالات مع التعليق على كل واحدة منها على حدة:

• عرض ومناقشة الاحتمال الأول:

كان هذا الوضع طبيعياً أو شبه طبيعي في زمان ما قبل الطوفان، ثم تغيّر فجأة أو تدريجياً، ويدل على ذلك بعض المرويات، من بينها:

١. (.... وقال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال: قال لي ابن عمر: كم لبث نوح في قومه؟ قال: قلت: ألف سنة إلا خمسين عاماً، قال: فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا)[١].

٢. (عن رجل، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: كانت أعمار قوم نوح ثلاثمائة سنة، ثلاثمائة سنة)[٢]. والفرق بين ٩٥٠ و٣٠٠ كبير جداً، ولكن بلحاظ آخر نستطيع القول أنه عاصر أربعة أو خمسة أجيال، وهذا يختلف عما

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٤١٨.

٢. الصدوق: كمال الدين، ص ٢٨٩.

لو قلنا أنه عاصر عشرين أو ثلاثين جيلاً أو أكثر. نعم لو التزمنا بما في بعض روايات الصدوق من أنه عاش ٢٥٠٠ عاماً، فالفارق حينئذ سيكون كبيراً.

٣. وهكذا نجد رواية أخرى عن قوم هود الذين جاءوا بعد عهد نوح، وفيها تقدير لأعمارهم، فقد روى العلامة المجلسي عن قصص الأنبياء: (بإسناد عن ابن أورمة، عن سعيد بن جناح، عن أيوب بن راشد، عمن ذكره، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: كانت أعمار قوم هود «عليه السلام» أربعمائة سنة...)[١].

والقول بكون أعمار الناس في عصر ما قبل الطوفان طويلة وأنها بدأت بالتناقص تدريجياً بعد ذلك، يتوافق مع ما جاء في التوراة الحاضرة. وقد فصّل سفر التكوين الذي هو أوّل أسفار التوراة والعهد القديم «التنخ» في أعمار آدم وذريته إلى نوح وبالصورة التالية: (هذَا كِتَابُ مَوَالِيدِ آدَمَ، يَوْمَ خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ. عَلَى شَبَهِ اللهِ عَمِلَهُ. ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ، وَبَارَكَهُمْ وَدَعَا اسْمَهُمْ آدَمَ يَوْمَ خُلِقُوا. وَعَاشَ آدَمُ مِئَةً وَثَلاَثِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ وَلَدًا عَلَى شَبَهِهِ كَصُورَتِهِ وَدَعَا اسْمَهُ شِيثًا.

وَكَانَتْ أَيَّامُ آدَمَ بَعْدَ مَا وَلَدَ شِيثًا ثَمَانِيَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ آدَمَ الَّتِي عَاشَهَا تِسْعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً، وَمَاتَ. وَعَاشَ شِيثُ مِئَةً وَخَمْسَ سِنِينَ، وَوَلَدَ أَنُوشَ. وَعَاشَ شِيثُ بَعْدَ مَا وَلَدَ أَنُوشَ ثَمَانِيَ مِئَةٍ وَسَبْعَ سِنِينَ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ شِيثَ تِسْعَ مِئَةٍ وَاثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَمَاتَ.

وَعَاشَ أَنُوشُ تِسْعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ قِينَانَ. وَعَاشَ أَنُوشُ بَعْدَ مَا وَلَدَ قِينَانَ

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص٣٥٩ .

ثَمَانيَ مِئَةٍ وَخَمْسَ عَشَرَةَ سَنَةً، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيّامِ أَنُوشَ تِسْعَ مِئَةٍ وَخَمْسَ سِنِينَ، وَمَاتَ.

وَعَاشَ قِينَانُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ مَهْلَلْئِيلَ. وَعَاشَ قِينَانُ بَعْدَ مَا وَلَدَ مَهْلَلْئِيلَ ثَمَانيَ مِئَةٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيّامِ قِينَانَ تِسْعَ مِئَةٍ وَعَشَرَ سِنِينَ، وَمَاتَ.

وَعَاشَ مَهْلَلْئِيلُ خَمْسًا وَسِتّينَ سَنَةً، وَوَلَدَ يَارَدَ. وَعَاشَ مَهْلَلْئِيلُ بَعْدَ مَا وَلَدَ يَارَدَ ثَمَانيَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيّامِ مَهْلَلْئِيلَ ثَمَانيَ مِئَةٍ وَخَمْسًا وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَمَاتَ.

وَعَاشَ يَارَدُ مِئَةً وَاثْنَتَيْنِ وَسِتّينَ سَنَةً، وَوَلَدَ أَخْنُوخَ. وَعَاشَ يَارَدُ بَعْدَ مَا وَلَدَ أَخْنُوخَ ثَمَانيَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيّامِ يَارَدَ تِسْعَ مِئَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَسِتّينَ سَنَةً، وَمَاتَ.

وَعَاشَ أَخْنُوخُ خَمْسًا وَسِتّينَ سَنَةً، وَوَلَدَ مَتُوشَالَحَ. وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ بَعْدَ مَا وَلَدَ مَتُوشَالَحَ ثَلاَثَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيّامِ أَخْنُوخَ ثَلاَثَ مِئَةٍ وَخَمْسًا وَسِتّينَ سَنَةً. وَسَارَ أَخْنُوخُ مَعَ اللهِ، وَلَمْ يُوجَدْ لأَنّ اللهَ أَخَذَهُ).

قال البعض أن أخنوخ هو إدريس المذكور في القرآن وأن معنى «أخذه الله» يُماثل ما جاء في قوله «تعالى»: ﴿**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا، وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا**﴾[1].

(وَعَاشَ مَتُوشَالَحُ مِئَةً وَسَبْعًا وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ لاَمَكَ. وَعَاشَ مَتُوشَالَحُ

١. سورة مريم: ٥٦-٥٧.

بَعْدَ مَا وَلَدَ لاَمَكَ سَبْعَ مِئَةٍ وَاثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ مَتُوشَالَحَ تِسْعَ مِئَةٍ وَتِسْعًا وَسِتِّينَ سَنَةً، وَمَاتَ.

وَعَاشَ لاَمَكُ مِئَةً وَاثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ ابْنًا. وَدَعَا اسْمَهُ نُوحًا، قَائِلًا: «هذَا يُعَزِّينَا عَنْ عَمَلِنَا وَتَعَبِ أَيْدِينَا مِنْ قِبَلِ الأَرْضِ الَّتِي لَعَنَهَا الرَّبُّ». وَعَاشَ لاَمَكُ بَعْدَ مَا وَلَدَ نُوحًا خَمْسَ مِئَةٍ وَخَمْسًا وَتِسْعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. فَكَانَتْ كُلُّ أَيَّامِ لاَمَكَ سَبْعَ مِئَةٍ وَسَبْعًا وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَمَاتَ.

وَكَانَ نُوحٌ ابْنَ خَمْسِ مِئَةِ سَنَةٍ. وَوَلَدَ نُوحٌ: سَامًا، وَحَامًا، وَيَافَثَ)[١].

ثم بدأ الأصحاح الحادي عشر ببيان أعمار ذرية النبي نوح «عليه السلام» بعد الطوفان إلى أن وصل إلى النبي إبراهيم «عليه السلام حيث نلحظ أنها بدأت تتناقص كالتالي: (هذِهِ مَوَالِيدُ سَامٍ: لَمَّا كَانَ سَامٌ ابْنَ مِئَةِ سَنَةٍ وَلَدَ أَرْفَكْشَادَ، بَعْدَ الطُّوفَانِ بِسَنَتَيْنِ. وَعَاشَ سَامٌ بَعْدَ مَا وَلَدَ أَرْفَكْشَادَ خَمْسَ مِئَةِ سَنَةٍ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَات) فالمجموع ٦٠٠ سنة.

(وَعَاشَ أَرْفَكْشَادُ خَمْسًا وَثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ شَالَحَ. وَعَاشَ أَرْفَكْشَادُ بَعْدَ مَا وَلَدَ شَالَحَ أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثَ سِنِينَ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ) أي أنه عاش ٤٣٨ سنة.

(وَعَاشَ شَالَحُ ثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ عَابِرَ. وَعَاشَ شَالَحُ بَعْدَ مَا وَلَدَ عَابِرَ أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثَ سِنِينَ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ) فالمجموع ٤٣٣ سنة.

(وَعَاشَ عَابِرُ أَرْبَعًا وَثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ فَالَجَ. وَعَاشَ عَابِرُ بَعْدَ مَا وَلَدَ فَالَجَ أَرْبَعَ مِئَةٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ) فالمجموع ٤٦٤ سنة.

---

١. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ٥، ١-٣٢.

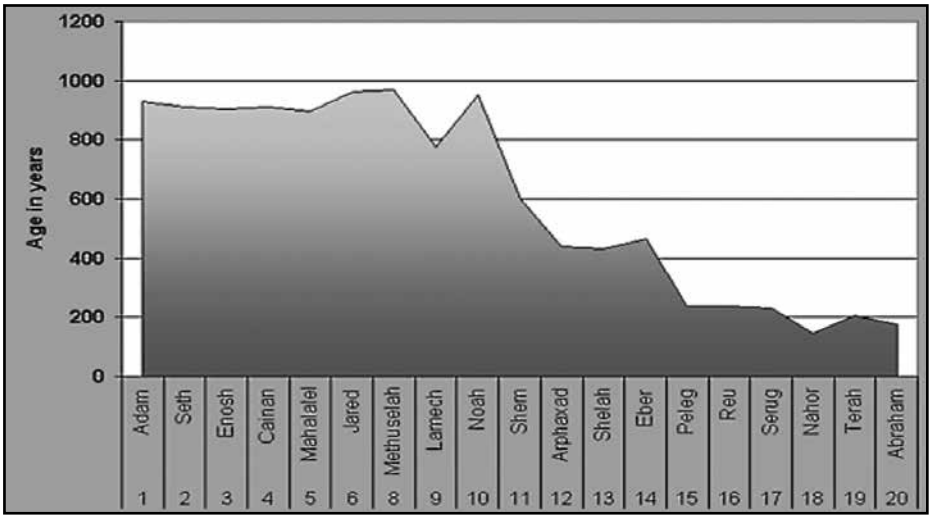


لوحة توضيحية لأعمار آدم وذريته

(وَعَاشَ فَالَجُ ثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ رَعُوَ. وَعَاشَ فَالَجُ بَعْدَ مَا وَلَدَ رَعُوَ مِئَتَيْنِ وَتِسْعَ سِنِينَ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ) فالمجموع ٢٣٩ سنة.

(وَعَاشَ رَعُو اثْنَتَيْنِ وَثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ سَرُوجَ. وَعَاشَ رَعُو بَعْدَ مَا وَلَدَ سَرُوجَ مِئَتَيْنِ وَسَبْعَ سِنِينَ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ) فالمجموع ٢٣٩ سنة.

(وَعَاشَ سَرُوجُ ثَلاَثِينَ سَنَةً وَوَلَدَ نَاحُورَ. وَعَاشَ سَرُوجُ بَعْدَ مَا وَلَدَ نَاحُورَ



مخطط بياني لتغير الأعمار منذ آدم وحتى إبراهيم

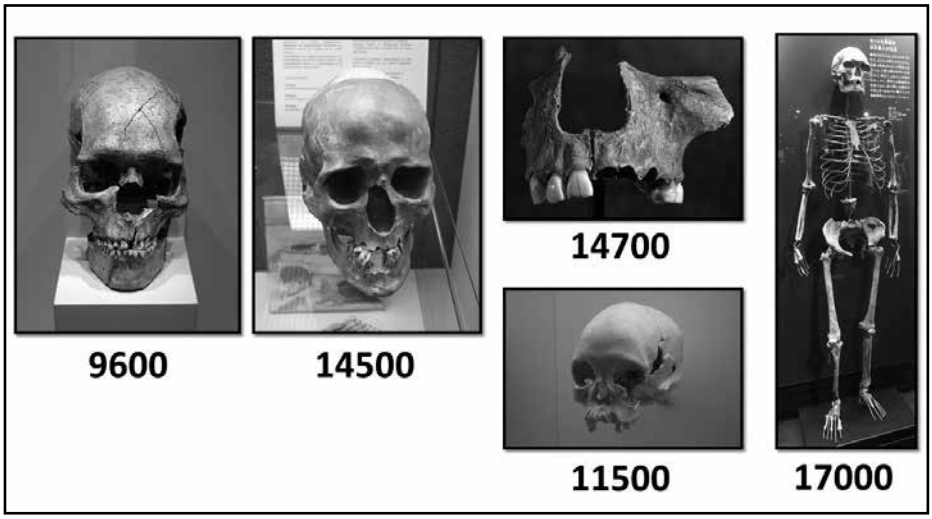
مِئَتَيْ سَنَةٍ، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ) فالمجموع ٢٣٠ سنة.

(وَعَاشَ نَاحُورُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَوَلَدَ تَارَحَ. وَعَاشَ نَاحُورُ بَعْدَ مَا وَلَدَ تَارَحَ مِئَةً وَتِسْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَوَلَدَ بَنِينَ وَبَنَاتٍ) فالمجموع ١٤٨ سنة.

(وَعَاشَ تَارَحُ سَبْعِينَ سَنَةً، وَوَلَدَ أَبْرَامَ وَنَاحُورَ وَهَارَانَ.... وَكَانَتْ أَيَّامُ تَارَحَ مِئَتَيْنِ وَخَمْسَ سِنِينَ. وَمَاتَ تَارَحُ فِي حَارَانَ)[١].

ولكن لو التزمنا بالقول بأن متوسط الأعمار عند البشر قبل الطوفان - أي قبل سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل - كان يقارب الألف سنة، وأنه بدأ يتناقص تدريجياً بعد الطوفان بحسب الوصف السابق، فسنواجه مشكلة مع معطيات علم الآثار Archaeology والتي تدل في أقصى التقادير على أنه كان متوافقاً مع متوسط العمر في هذا الزمان، بينما يذهب آخرون إلى أنه لم يكن يتجاوز

١. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ١١، ١٠-٣٢.



نماذج من الأحافير البشرية القديمة

٣٥ سنة، بسبب عوامل متعددة من قبيل الأمراض وصعوبات الحياة وغير ذلك. وسواء أقلنا بهذا أو ذاك، فإنّ الأعمار لا تتجاوز المائة وخمسين سنة.. فأين هذا الرقم من الألف والألفين؟!

علماً بأن هناك آلاف الأحافير الإنسانية القديمة، ويمكن الدخول على بعض المواقع على شبكة الإنترنت لمشاهدة صور بعض هذه الأحافير وأعمارها وأين وجدت ومتى عُثر عليها.. إلخ، وهي مستندة إلى دراسات وبحوث متعددة.

• عرض ومناقشة الاحتمال الثاني:

كان عمر النبي نوح حالة استثنائية لغرض يرتبط بالرسالة، من قبيل اكتساب الخبرة، أو عدم توفّر مَن يقوم بهذا الدور سواه على مدى أجيال متعاقبة.

هذا التوجيه قد يعارضه قوله «تعالى»: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ، فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**﴾[1]. فلو كان الفرض السابق صحيحاً لكانت «المثلية» في البشرية و«فضل» نوح عليهم وتميّزه عنهم واضحاً ودليلاً على أن سراً غيبياً يُسنده، ولدَفعهم ذلك إلى الإيمان برسالته، وهو ما لم يحصل، بل أكّدوا على تشابه حاله معهم في البشرية وعدم الفضل له ولمن آمن معه.

ثم لو صحّ الفرض لذُكر شيء من هذا في الاستدلالات القائمة بينه وبين قومه، كأن يقول لهم: انظروا إلى طول عمري، أ ليس في هذا دليل على أن الله اختارني لأمر ما؟ ولكننا لا نجد في القرآن الكريم أثراً لمثل هذا الاستدلال.

• عرض ومناقشة الاحتمال الثالث:

دورة السنة - دوران الأرض حول الشمس دورة كاملة - في عهد ما قبل الطوفان كانت أقصر بكثير مما هي عليه الآن، وهذا يعني اختلاف سرعة دوران الأرض حول الشمس في ذلك العهد، مما يؤدي إلى كون السنة أقل بكثير من ٣٦٥ يوماً وربع اليوم تقريباً. هذا التصوّر باطل علمياً، وإن كانت سرعة الدوران اليوم مختلفة قليلاً عما كانت عليه آنذاك، وذلك وفق الحسابات التالية:

قبل مئات ملايين السنين، كانت الأرض تدور حول نفسها ٤٢٠ مرة قبل أن تكمل دورتها حول الشمس، أما اليوم فهي تدور ٣٦٥ مرة تقريباً كي تكمل

١. سورة هود: ٢٧.

هذه الدورة «السنة». يقدّر بعض العلماء أنه منذ ٢٧٣٥ سنة، يزداد طول اليوم -خلال كل ١٠٠ عام- في حدود ١,٨ ميللي ثانية، وأننا نحتاج إلى ٣,٣٠٠,٠٠٠ سنة كي يزداد اليوم الواحد بمقدار دقيقة فقط!

ويقدّر بعض العلماء أن طول اليوم قبل ٦٠٠٠ سنة لربما كان أقصر من طول اليوم في هذا الزمان، ولكن بمقدر ١٠,٢ ثانية فقط[١]. وهذا يعني أننا نتكلم عن فارق بسيط جداً لا يُلحظ في العصر الذي نفترض أن النبي نوحاً «عليه السلام» قد عاش فيه مقارنة بعصر نزول الآية القرآنية.

• عرض ومناقشة الاحتمال الرابع:

مفهوم السنة لدى المجتمع الذي عاش فيه النبي نوح لا يتمثّل بالضرورة في دورة الأرض الكاملة حول الشمس والتي تستغرق تقريباً ٣٦٥ يوماً وربع اليوم، بل كان نسبياً يختلف قصراً وطولاً وبعدّة لحاظات. وقد أشار إلى بعض توجيهاته عباس العقاد في ما عرضناه من كلامه في كتاب «إبراهيم أبو الأنبياء»، وأثاره أبو العلاء المعرّي «ت ٤٤٩هـ» ضمن أبيات شعرية قال فيها[٢]:

وادّعَوا للمُعَمّرينَ أُموراً
لستُ أدري ما هنّ في المَشهور
أتُراهُمْ، فيما تَقَضّى من الأيـ
ـامِ، عَدّوا سنيّهُمْ بالشهور

1. www.sciencealert.com/astronomers-find-a-day-on-earth-is-getting-longer-each-century

2. www.adab.com/modules.php?name=Sh3er&doWhat=shqas&qid=4504&r=&rc=0

كلّما لاحَ، للعيونِ، هلالٌ،
كانَ حولاً، لديهمُ، في الدّهور
هكذا يَنبغي وإلاّ، فإنّ الـ
ـعقْلَ يُثنى في حالة المَبْهور

وقد ذكر العقاد الأبيات الشعرية هذه للمعري في أثناء حديثه عن المسألة وردّ مضمونها نافياً صحة الفكرة معتبراً أن: (الأوائل كانوا يعرفون حساب الأهلة وحساب الشمس منذ عهد بعيد يرجع إلى ما قبل التاريخ)[١].

أي أن مفهوم السنة اليوم لم يتغيّر عما كان عليه في الماضي، شمسياً كانت السنة أم قمرية، إلا أن بعض الباحثين المعاصرين أعادوا إحياء فكرة أبي العلاء المعرّي مع إضافة بعض الاستدلالات في البين.

وكتب أحد الباحثين المعاصرين، وهو السيد صلاح فيصل، مقالاً تحت عنوان (لا للخرافة.. عمر سيدنا نوح «عليه السلام») سعى من خلاله إلى تأويل طول عمر النبي نوح من خلال نفس الفكرة التي عرضها المعرّي في أبياته السابقة مع شيء من التفصيل والقراءة اللغوية والقرآنية المقارنة.

وللأسف فإن المقالة مليئة بالأخطاء النحوية واللغوية والمطبعية، ولا أدري إن كان كل المضمون من عنده أم أنه أخذ بعضه من بحوث أخرى.. قال: (غالى أهل التوراة في ذكر أعمار وأحجام أجساد ذرية آدم الأوّلين إلى درجة أسبغت الخرافة علي تلك المرويات).

لم أجد نصاً في التوراة يدل على أن آدم وذريته كانوا طوالاً بشكل هائل،

١. العقاد: أبو الأنبياء»، ص ١٠٨.

إلا أن الموسوعة اليهودية تذكر أن روح آدم عندما ولجت في جسده الطيني ووقف على قدميه على الأرض، بلغ رأسُه عرش الله! واضطر إلى تغطية عينيه بيده من وهج العرش. ثم بدأ طوله يتناقص، وجاء ذلك في جانب منه بسبب معصيته، وفي جانب آخر بسبب حزنه الشديد على مقتل هابيل.

When he did stand upright, he reached from earth up to the throne of God, and had to shade his eyes with his hand because of the brilliancy of God's throne. His height was gradually diminished, partly as a punishment for his sin, and partly through grieving at the death of Abel.[١]

وهذا التصور تلمودي الأصل.. نعم وصف التنخ عدداً من الأفراد والجماعات بأنهم كانوا عمالقة، ولكن إلى أي حد؟ لا يوجد تقدير دقيق لذلك، ويبدو لي أن المسألة لا تعدو أن تكون في الحدود المعلومة اليوم في بعض الأقوام والأفراد الاستثنائيين. ففي سفر صموئيل الأول في وصف طالوت «شاوُل»: (وَلَمْ يَكُنْ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ أَحْسَنَ مِنْهُ. مِنْ كَتِفِهِ فَمَا فَوْقُ كَانَ أَطْوَلَ مِنْ كُلِّ الشَّعْبِ)[٢].

ونجد في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: (خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال اذهب فسلِّم على أولئك من الملائكة، فاستمع ما يحيّونك تحيتك وتحية ذريتك. فقال: السلام عليكم.

1. www.jewishencyclopedia.com/articles/758-adam

٢. الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر صموئيل الأول، الأصحاح ٩: ٢.



نموذجان معاصران لحالات استثنائية في الطول

فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل مَن يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن)[١].

ولم يكتفِ بعض الرواة عند هذا الحدّ، بل تحدّثوا عن عرض جسده ليكون متناسباً مع الطول المفرط. قال ابن كثير: (وقال الإمام أحمد: حدثنا روح،

١. البخاري: الجامع الصحيح، ح ٣١٤٨.

حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « كان طول آدم ستين ذراعاً في سبع أذرع عرضاً». انفرد به أحمد)[١].

وفي بحار الأنوار عن «قصص الأنبياء» بالإسناد إلى الصدوق بسند عن أبيّ بن كعب قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إنّ أباكم كان طوالاً كالنخلة السحوق، ستين ذراعاً). وعلّق المجلسي: هذا الخبر عامّي[٢].

وروى عن «قصص الأنبياء» بالإسناد إلى الصدوق بإسناده عن ابن محبوب، عن مقاتل بن سليمان قال: (سألت أبا عبدالله «عليه السلام»: كم كان طول آدم «على نبينا وآله وعليه السلام» حين هبط به إلى الأرض ؟ وكم كانت طول حواء؟ قال: وجدنا في كتاب علي «عليه السلام» أن الله «عز وجل» لما أهبط آدم وزوجته حواء على الأرض كانت رجلاه على ثنية الصفا، ورأسه دون أفق السماء، وأنه شكا إلى الله ما يصيبه من حر الشمس، فصيّر طوله سبعين ذارعاً بذراعه، وجعل طول حواء خمسة وثلاثين ذراعاً بذراعها)[٣].

والواقع أن كل الأحافير التي وُجدت إلى حد الآن وعبر مئات الآلاف من السنين تدل على أن طول الإنسان الحديث والقديم لم يتغير إلا بمقدار بسيط.

واعتبر الأستاذ فيصل أن في قوله «تعالى» : ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾[٤].

١. ابن كثير : البداية والنهاية، ج١، ص٩٨.
٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص ١١٥.
٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج١١، ص ١٢٦.
٤. سورة العنكبوت:١٤.

إشارة ذكية للسنة والعام، حيث أن من المعلوم أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز ليست فيه كلمة مزيدة أو في غير موضعها مطلقاً، وأن مفتاح فهم الفرق بين الكلمتين يستدعي العودة إلى بداية علاقة البشرية بالتقويم، والذي لم يكن تقويماً شمسياً، بسبب عدم امتلاك الإمكانية الفنية اللازمة لذلك، واقتصرت على استخدام القمر – وليس التقويم – فكلمة تقويم شاملة لتعيين تأريخ محدد يبدأ منه العدّ، قال «تعالى»: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[١] ﴿**فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[٢] ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾[٣] ﴿**الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ**﴾[٤].

فعدد السنين هو عدد الوحدات الزمنية التي يستخدمها الناس في زمنٍ ما لحساب الزمن، وكانت في ذلك الوقت وحدات بسيطة بدورات القمر فكان الشهر يعتبر «سنة»، أما الحساب فهو العدّ ما قبل حدث معين أو بعده. ولمن اطّلع على قصة «الجذور» للكاتب الأمريكي الأفريقي الأصل «أليكس هايلي» يجد أنه تعب تعباً شديداً لتتبع جذور أسلافه، حيث قابل الحكماء المؤرخين ذوي الذاكرة الشفهية، ولم يكن لديهم تقويم، فكانوا يحسبون للوراء بالشهور القمرية وبأحداث معينة، مثلاً سنة الفيضان، سنة القحط، سنة الحرب،

١. سورة يونس:٥.

٢. سورة الأنعام:٩٦.

٣. سورة يس: ٣٩.

٤. سورة الرحمن: ٥.

وهكذا. وأضاف الكاتب أن كلمة «الحساب» أيضاً تشمل مقارنة الشهور القمرية بدورة الشمس، وهي مرحلة متطورة ما بعد العد، وتؤدي لمعرفة التقويم. فكان الشهر في البداية وحدة زمنية بالنسبة لشعوب كثيرة. ويتضح لنا في قصة سيدنا يوسف أن السنة - كوحدة زمنية - كانت عبارة عن الموسم الزراعي، وكانوا يزرعون ثلاثة مواسم في العام، والزراعة كانت قوام الحضارة المصرية ومصدر ثروتها، وكما قال المؤرخ اليوناني «هيرودوت»: مصر هبة النيل، قال «تعالى»: ﴿**قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ**﴾[١]. لاحظ الفرق بين كلمتى «سنَة» و «عام»، فهي تريد أن تقول أنهم سيزرعون محاصيلهم الموسمية ثم العنب الذي سيتم عصره، إذاً العام فيه عدة سنين، أي عدة مواسم زراعية.

وهناك قرينة أخرى، ومن القرآن الكريم، وهي استخدام جملة لبث فيهم: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ**﴾، فصيغة «لبث في» غالباً ما ترد لتتبع بالمكان، ولنلاحظ الشواهد التالية:

قال «تعالى»: ﴿**وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾[٢].

---

١. سورة يوسف: ٤٩.

٢. سورة يوسف: ٤٢.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١].

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[٢].

أما لبث الزمانية، فترد دونما تحديد: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾[٣].

وترد متبوعة بتعبير يدل على الزمن: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[٤].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾[٥].

ومن هنا فإن وجود كلمة «فيهم» بعد «لبث» في قصة نوح إشارة إلى أن المراد هو اللبث وفقاً لحسابهم للزمن، والذي هو بالنسبة للبشر يكون مقدّراً تقديراً. ويزيد الأمر وضوحاً التدقيق في قصة أصحاب الكهف والرقيم حيث قال «تعالى»: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾[٦]، ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

١. سورة الصافات: ١٤٤.
٢. سورة الكهف: ٢٥.
٣. سورة الكهف: ٢٦.
٤. سورة النازعات: ٤٦.
٥. سورة يونس: ٤٥.
٦. سورة الكهف: ١٢.

﴿رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[١]، ثم قال «تعالى»: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾[٢]، أي أن الهدف من معجزة أصحاب الكهف هو تعليمي، الأول خاص بالحياة الروحية لإثبات أن الله يبعث الموتى، والثاني دنيوي لتعليمنا الفرق الطفيف بين السنة القمرية والسنة الشمسية، حيث أن ٣٠٠ سنة شمسية تساوي ٣٠٩ سنة قمرية. ولأن الناس كانوا يقدّرون السنة تقديراً، فلم يستخدم القرآن لفظ «عام» وإنما استخدم لفظ «سنة».

والملاحظ أن السنة القمرية أسهل استخداماً، خصوصاً للأولين الذين لم يتقدّموا كثيراً في الحضارة ومعلوماتها.

ويضيف الأستاذ صلاح إلى استدلالاته أن البابليين هم أقرب الناس لقوم نوح «عليه السلام»، ولم يتفق علماء الآثار على الطريقة التي كانوا يقدّرون بها السنين، حيث عُثر على لوح بالكتابة المسمارية فيه أسماء الملوك الذين حكموا ومددهم. هذا اللوح يُعرَف باسم «قائمة ملوك سومر» أو «صحيفة الملك» أو «ثَبْت الملوك»، وهو عبارة عن نقش قديم مكتوب باللغة السومرية وبالخط المسماري، تضم القائمة أسماء الملوك الذين حكموا سومر «جنوب العراق الحالي» من السلالات السومرية والسلالات اللاحقة، ومُدد مراكز حكمهم.

وجاءت مُدد حكم الملوك بحسب هذا الثَّبْت كالآتي:

مدينة أريدو، حيث حكمها ملكان:

١. سورة الكهف: ٢١.

٢. سورة الكهف: ٢٥.



ثبت ملوك سومر

١. ألولِم: ٢٨ ألف سنة.

٢. ألكَار: ٣٦ ألف سنة.

والمجموع: ٦٤ ألف سنة.

ثم انتقلت الملوكية إلى مدينة باد-تبيرا، وحكمها ثلاثة ملوك:

١. أينملو-أنّا: ٤٣ ألف سنة.

٢. إينمنكَال-أنّا: ٢٨ ألف سنة.

٣. دموزي «تموز»: ٣٦ ألف سنة.

والمجموع: ١٠٨ ألف سنة [١].

وانتقلت فيما بعد إلى مدينة لَرَك، وحكمها ملك واحد اسمه «إينسيبازيانّا» ولمدة ٢٨ ألف سنة.

ثم انتقل المُلك لمدينة سبار، حيث حكمها ملك واحد اسمه «أينميدر-أنّا» لمدة ٢١ ألف سنة.

ثم انتقل المُلك لمدينة «شروباك» والتي حكمها ملك واحد اسمه «أوبار-توتو» لمدة ١٨ ألف سنة. ليكون مجموع الحكم في خمس مدن وثمانية ملوك حكموا ٢٤١ ألف سنة [٢].

---

١. هكذا جاء في المصدر، ومن الواضح أن هناك خطأ ما في البين، فإما الخطأ في الأرقام أو في الجمع، لأن المجموع ١٠٧ ألف سنة وليس ١٠٨ ألفاً.

٢. هكذا جاء في المصدر، مجدداً هناك خطأ ما في البين، فإما الخطأ في الأرقام أو في الجمع، لأن المجموع ٢٣٨ ألف سنة وليس ٢٤١ ألفاً.

ثم حل الطوفان كما ورد في الثَّبت السومري، ثم عادت الملوكية مرة أخرى إلى مدينة كيش الرافدية، حيث حكمها ٢٣ ملكاً بعد الطوفان لمدة ٢٤ ألف سنة تقريباً، وذلك وفق التصوّر التالي:

١. «كَاور» حكم ١٢٠٠ سنة.

٢. «كَلا-ندابا أنّا باد» حكم ٩٦٠ سنة.

٣. «بالاكماتم» حكم ٩٠٠ سنة.

٤. «منكَشلشما» .....

٥. «باهينا» .....[١]

..... إلخ

ثم دُمِّرت كيش وانتقلت الملوكية إلى مدينة «أي-أنّا» ضمن دولة «أوروك» أو «أوروخ»، حيث حكمها ١٢ ملكاً لمدة ٢٣١٠ سنة، ثم دمرت وانتقلت الملوكية إلى «أور» حيث حكمها ٤ ملوك لمدة ١٧٧ سنة، وذلك كالتالي:

١. «ميسانيبدا» حكم ٨٠ سنة.

٢. «ميسكياكَنُنّا» حكم ٣٦ سنة.

٣. «أيلولو» حكم ٢٥ سنة.

٤. «بالولو» حكم ٣٦ سنة [٢].

... إلخ.

١. جزء من الثبت السومري تعرّض للتلف، ولذا لم تتضح الأرقام أعلاه.

٢. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج ١، ص ٣١٩-٣٢٣.

وعلّق الأستاذ صلاح على ما جاء في الجزء الأول من الجدول ما قبل الطوفان أن هناك مبالغة كبيرة في حساب مدد الملوك الذين حكموا، وفجأة نجد في السطر الأخير تحولاً دراماتيكياً حيث رجع الحساب إلى المنطق، حيث صار متوسط مدة الملك حوالى ٤٤ عاماً.

وعلى الرغم من أن علماء التاريخ لم يصلوا إلى سر هذا التفاوت، فهناك عدة سيناريوهات:

الأول: بحسب الكشوف الأثرية فإن المدوّنين الأوائل في تلك الحُقب التي كان يسود فيها تعظيم الملوك والأسطورية كان لديهم ميل نحو تضخيم مدد الملوك بزيادة صفر أو صفرين[١]. وقد وُجدت شواهد على ذلك في بعض التاريخ الفرعوني.

الثاني: هو أن حساب السنين «المقدّر» كان يتم بالقمر حصراً في البداية، إذ يحسبون الشهر وحدة زمنية «سنة»، ولم يعرفوا الحول أو العام في ذلك الزمان. فإذا أزلنا الصفرين من بداية الجدول وقسمنا على ١٢، وهو عدد الشهور القمرية في السنة أو العام، لصار الأمر منطقياً.

كذلك لو ذهبنا إلى منتصف الجدول وأزلنا صفراً وقسمنا على ١٢، لصار الأمر منطقياً أيضاً. ولكن يلاحظ في آخر الجدول كما أسلفت أن هذه العادة تُركت وحُسبت الأعوام بصورة طبيعية. وواضح أن في تلك الفترة عَرف الناس العام أو السنة الشمسية.

---

١. هكذا ورد في عبارة الكاتب، ولكن حيث لم يعرف الناس الأصفار في ذلك الزمان، لذا فقد جاء ذكر الأصفار هنا من تعبير الكاتب بمعنى تضخيم الأرقام.

وهذا يعني أننا إذا أردنا أن نعرف عمر النبي نوح بالأعوام، فعلينا أن نقسم الرقم على ١٢، فيكون الناتج ٧٩ عاماً.

ولما اكتشف الإنسان السنة الشمسية، وحسب باقي عمره الذي قضاه بالأعوام كانت ٥٠ عاماً تضاف إلى النتيجة السابقة، ليكون المجموع ١٢٩ عاماً، وذلك أمر طبيعي لأعمار ذرية آدم في تلك الأيام.

وقد وقع الأستاذ فيصل في خطأ هنا، لأننا إذا اعتبرنا الاستثناء منقطعاً بحيث يكون المعنى: «فلبث فيهم ألف سنة، إلا خمسين عاماً لبثها بعدهم» كما هو مراده مما سبق، فمن المفترض أن يكون الرقم ٨٣ عاماً «تقريباً» وهو حاصل تقسيم ١٠٠٠ على ١٢، ويضاف عليه ٥٠ عاماً أخرى، ليكون المجموع ١٣٣ عاماً. ثم اعتبر أن هذا التمييز بين السنة والعام من الإعجاز القرآني، وأن معرفة هذه المعلومة لم تكن لتتيسر لأي أحد عند نزول القرآن، وأن الكشوف الأثرية الحديثة هي التي أماطت اللثام عن أطنان من الألواح المسمارية المطمورة تحت ركام من التراب والأحجار في العراق وفكّت شفرتها.

وأخيراً قال: (البحث السالف ليس محاولة للغوص في القرآن لنفي المعجزات المثبتة أو نفي طلاقة القدرة الإلهية التي لا تحدّها حدود، لكن يجب التفرقة بين المعجزة والأشياء التي يمكن التوصل إليها ببراهين منطقية، المعجزات ليست كل شيء، فالسنن الكونية المضطردة بثبات منذ بلايين السنين هي المعجزة الحقيقية، فالكون لو بُني على المعجزات لدبت فيه الفوضى والاضطراب والخلل)[1].

1. www.sudaress.com/alrakoba/1073524

هذه المحاولة المذكورة في قراءة الأستاذ صلاح للآية وبهذه القرائن، وإن كان بعضها تخمينياً، تعدّ محاولة جيدة، ويمكنها - إن صحّت - أن تخلّصنا من الإشكالية المطروحة على مضمون الآية.

ولو أشكل أحدهم قائلاً: لماذا ذكرت الآية إذاً هذا الرقم ولم تذكر ذلك بالنسبة لأي من الأنبياء الآخرين؟ أليس السبب هو بيان المدة الطويلة جداً التي هي بمثابة رسالة للنبي «صلى الله عليه وآله» وللمسلمين معه لكي يصبروا في الدعوة؟

لأجيب عن ذلك بأن بقاء نوح مدة ٨٣ عاماً في دعوة قومه ليس بالمدة القليلة أيضاً، وذِكر ذلك يحقق الغرض. إلا أنه يُلاحظ على الاستدلال بالثبت السومري أنه تغافل عن أمرين، الأول أن بداية الثبت يذكر أن الملوكية قبل الطوفان «هبطت» من السماء! وهذا يعني ادّعاء الألوهية في الملوك، ولذا كانت أعمارهم بهذا الطول، مما يقوّي أن التصوّر الموضوع ككل خيالي، لا علاقة له بالواقع، وليست للأرقام قيمة يُستدلّ بها، لاسيما وأننا إذا اعتبرنا أن السنة عبارة عن شهر قمري، فهذا يعني أن مدة حكم أوّل أولئك الملوك ٢٣٣٠ عاماً، والثاني ٣٠٠٠ عاماً... إلخ، فهل نتخلّص بذلك من الإشكال؟

الملاحظة الثانية أن الأرقام ما بعد الطوفان ما زالت كبيرة جداً، إذ يُفترض - بحسب كلام الأستاذ صلاح - أن الآية ذكرت «إلا خمسين عاماً» تنبيهاً على أن البشرية حينذاك اعتمدت التقويم الشمسي أو القمري المبتني على الاثني عشر شهراً، ولا مجال لقسمة الأرقام على ١٢، فيكون حكم أول الملوك ١٢٠٠ عاماً، والثاني ٩٦٠ وهكذا، مما يعني أننا لم نتخلّص من الإشكال.

• **عرض ومناقشة الاحتمال الخامس:**

وهو القول بمجازية التعبير في الآية للدلالة على الكثرة دون الرقم الحقيقي والواقعي لعمر هذا النبي الكريم، ومن المعلوم أنه لو تمّت إحدى التوجيهات السابقة فلا مجال للقول بالمجازية، والتي تحتاج بدورها إلى قرينة، كما أن التفصيل في الرقم المذكور في الآية لربما تعتبر قرينة على الحقيقة لا المجاز، إذ كان بالإمكان الاكتفاء بقول: «ألف سنة» للدلالة على الكثرة.

• **خاتمة:**

ويبقى الملف مفتوحاً، ولربما يصل البعض إلى قرائن أكثر ثباتاً وتؤدّي إلى تقوية الاحتمال السابق وإسناده بمزيد من الأدلة، أو الإتيان بتأويل آخر، أو لربما الحصول على أحافير تُثبت أن الإنسان عاش في بعض الفترات مدداً زمنية تُقدّر بالقرون، وليس من حق أحد - ما دام الأمر كذلك - أن يتّهم القرآن الكريم بالأسطورية لمجرّد أنه لم يستطع أن يتقبّل نصاً دينياً، أو فهِمَه وفق قراءة واحدة.

٣

ديار النبي لوط

٣

ديار النبي لوط

لم يذكر القرآن الكريم اسم ديار قوم النبي لوط «عليه السلام»، ولم يُشر إلى موقعها الجغرافي، ولا العنوان الذي كان يحمله قومه، بينما ذكر أن عاداً هم قوم النبي هود «عليه السلام»، قال الله «تعالى»: ﴿**وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ .....**﴾[١]، وأن ديارهم بالأحقاف، قال «تعالى»: ﴿**وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ .....**﴾[٢] ، وأن ثمود هم قوم النبي صالح «عليه السلام»، قال «تعالى»: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ.....**﴾[٣]، وأن ديارهم -على ما قيل- هي الحِجر المذكورة في الآية التالية، قال «تعالى»: ﴿**وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ، وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ، وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ**﴾[٤]، وأن مدين هي ديار النبي شعيب «عليه السلام»: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ.....**﴾[٥].

---

١. سورة الأعراف:٦٥.

٢. سورة الأحقاف:٢١.

٣. سورة الأعراف:٧٣.

٤. سورة الحجر:٨٠-٨٢.

٥. سورة هود:٨٤.

ويبرز السؤال التالي: أين كانت تقع ديار قوم النبي لوط «عليه السلام»؟

• بحيرة لوط:

عُرف البحر الميت باسم «بحيرة لوط».. فهل جاءت هذه التسمية بلحاظ أن قوم النبي لوط سكنوا هذا الموقع قبل أن يحل بهم العذاب، وتتحول ديارهم إلى منخفَض مليء بالماء شديد الملوحة إلى درجة أنك لا تجد فيه أية سمكة أو شيئاً من الكائنات البحرية التي تعيش عادة في البحيرات المالحة؟ وهل تسميته باسم البحر الميت نسبةً إلى هلاك قوم لوط وإبادتهم؟

ثم إن المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» ذكر هذه البحيرة باسم «البحيرة المقلوبة»... فهل جاءت التسمية بلحاظ ما جاء في وصف العذاب النازل بقوم لوط حيث قال «تعالى»: ﴿**فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا.....**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا.....**﴾[٢] وبما يؤكد أن ديارهم كانت في نفس موقع البحر الميت الآن؟

كما أن المفسّر والمؤرّخ ابن كثير في تفسيره لقوله «تعالى»: ﴿**وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ**﴾[٣] قال: (أي وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري، والمعنوي، والقذف بالحجارة حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة بطريق مَهْيَع مسالِكُه مستمرّة إلى اليوم)[٤].

١. سورة هود:٨٢.

٢. سورة الحجر:٧٣-٧٤.

٣. سورة الحجر: ٧٦.

٤. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص٥٠١.

وابن كثير وإن لم يسمِّ هذه البحيرة، إلا أن البعض استفاد ذلك من مقولته معتبراً أن البحر الميت هو مكان خسف ديار قوم النبي لوط «عليه السلام». فإلى أيّ مدى يمكن تصحيح هذه الفرضية؟

وجاء في قاموس الكتاب المقدس أن «سدوم» -المفترض أن تكون مدينة لوط- تقع اليوم تحت الماء في جنوب البحر الميت، وتجري المحاولات لكشف مكانها بواسطة الغواصين الذين يغوصون تحت الماء بمعداتهم الحديثة[١].

تاريخيّاً، أُطلق على البحر الميت عدة أسماء، من بينها: «بحر الملح» و «بحر العربة» و «البحر الشرقي» و «عمق السديم». وعُرف على عهد النبي عيسى المسيح «عليه السلام» بـ «بحر الموت»، و «بحر سدوم»، كما دُعي «البحيرة المنتنة» لأن مياهه وشواطئه لها رائحة منتنة. كما دُعي «بحيرة زُغر» نسبة إلى بلدة زُغر التي كانت تقع على شاطئه الجنوبي الشرقي، وأُطلق عليه اسم «بحر الزفت» نسبةً إلى قطع الزفت التي كانت تطفو على سطحه في بعض الأحيان وخاصة عند حدوث الزلازل. وقد كان بعض سكان المنطقة يتاجرون في قطع الزفت التي يستخرجونها ويبيعونها. أما الإغريق فكانوا أول من أطلق عليه اسم «البحر الميت» لعدم وجود حياة فيه.

وجيولوجياً، يعدّ البحر الميّت أخفض رقعة على وجه الأرض؛ إذ يقع على عمق ٤١٧ متراً تحت مستوى سطح البحر، وهو أدنى نقطة على اليابسة في العالم، وماؤه أكثر أنواع المياه ملوحة. وبسبب ملوحته العالية، لا تعيش فيه الأسماك، ولا توجد فيه حياة مائية، باستثناء كميات صغيرة من البكتيريا

١. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٦١.

والفطريات. وتذهب إحدى النظريات الجيولوجية إلى أن بداية التشكل الجيولوجي للبحر الميت يعود إلى ما يقارب ٣,٧ مليون سنة، وبعضها إلى أكثر من ذلك، والأرقام على كل حال مليونية ولا علاقة لها بحدث يعود إلى ما قبل أربعة آلاف سنة تقريباً، لكي نقول بأن تشكّل البحر الميّت تم بسبب الهلاك الذي نزل بقوم لوط «عليه السلام»، وأن ديارهم كانت حيث يقع هذا البحر اليوم.

نعم، يمكن افتراض أن ديارهم كانت محاذية لهذا البحر، وفق تشكّله الجيولوجي وسعته في ذلك الزمان، وأن ما حلّ بهم دمّر ديارَهم، فغرقت تحت الماء واختفت عن الأنظار.

وهذا ما دفع بعض الباحثين والآثاريين إلى محاولة الغوص في أعماق البحر الميت بحثاً عن أية آثار قد تعود إلى المدينة المنكوبة.

ووجدت في إحدى المصادر أن غواصة بريطانية قامت في عام ١٩٥٧ بمحاولة لاستكشاف أعماق البحر الميت وتوصّلت إلى وجود بعض الآثار البشرية دون التمكّن من تحديدها أو استخراج شيء من تلك الآثار المزعومة.

وفي عام ١٩٩٩، قام أحد الباحثين الأمريكيين بمحاولة استطلاعية في أعماق البحر الميت بحثاً عن آثار ديار قوط النبي لوط وذلك بالاستعانة بالغواصة «دلتا» وللقيام بتصوير فيلم وثائقي لصالح تلفزيون NBC وبعنوان «ألغاز الكتاب المقدس: سدوم وعمورة».

فبعد مشاهدة صور رادار تابع لوكالة الفضاء الأمريكية «ناسا» وهي

تظهر تشكّلات غير طبيعية «شاذة» على أرضية البحر الميت، احتمل الباحث المتخصص في شئون التوراة «مايكل ساندرز» أنها قد تكون بقايا ديار قوم النبي لوط.

وبعد الحصول على إذن من حكومتي الكيان الصهيوني والأردن، وصل الطاقم العلمي المتخصص في علوم المحيطات والبحار، وبرفقته الغواصة دلتا، التي تمكنت من استكشاف قاع البحر الميت على عمق ١٠٠٠ قدم.

وقد وجدت البعثة مساحة كبيرة من الهياكل أو التشكّلات المغلّفة بالملح التي لربما تكون من صنع الإنسان، دون أن تتمكّن من تأكيد ذلك، ولا تأكيد رجوع تلك الهياكل الملحية إلى المدينتين المدمّرتين. وبحسب التقرير، فإن البعثة العلمية لم تستطع إكمال مشروعها وذلك بسبب بعض العوائق الأمنية والسياسية[١].

إلا أننا عندما نعود إلى القرآن الكريم، سنجد أن الآيات التي تحدّثت عن ديار أولئك القوم جاءت بالصورة التالية:

١. ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

٢. ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

٣. ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[٤].

1. www.deltaoceanographics.com/deadsea.html

٢. العنكبوت:٣٥.

٣. سورة الحجر:٧٦-٧٧.

٤. سورة الصافات:١٣٧-١٣٨.

٤. ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ أي فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم بالرسول ومخالفتهم أوامر الله ﴿بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾[١].

وعندما نجمع ما تدل عليه الآيات السابقة، سيكون من المستبعد أن نذهب إلى القول بأن ديارهم تقع في باطن البحر الميت.. فعلى الرغم من عدم تسمية الآيات لموقع ديارهم، إلا أنها تصرّح بأن آثار وبقايا ديار النبي لوط «عليه السلام» كانت مشهودة في العهد النبوي، وكانت معروفة للناس بأنها ديار أولئك القوم الذين قضوا فجأة في حدث مُهلِك ومروِّع ومضربٍ للمثَل قبل قرابة ٢٥٠٠ سنة من حينه، ولربما أقل من ذلك بقليل، وكان الناس يمرّون عليها – لربما في حركة السفر وتنقّل القوافل – وكانوا يرون تلك الديار المدمَّرة: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾، كما أن وجودها في باطن البحر الميت وعدم ظهورها للعيان لا يمثّل ﴿آيَةً بَيِّنَةً﴾ كما جاء في الآية الشريفة، لاسيما بلحاظ مرور عشرات القرون على تلك الحادثة.

• ديار لوط في الكتاب المقدس:

وإذا كان القرآن الكريم لم يذكر اسم ديار قوم النبي لوط «عليه السلام» ولم يحدد مكانها الجغرافي ولا اسم أولئك القوم، إلا أننا نجد في سفر التكوين من التوراة ما يحدد لنا الاسم، بل موقعها التقريبي.

ولكي نتعرّف على الاسم والمكان – بحسب التوراة – لابد أوّلاً من استعراض قصة رحلة هذا النبي وهجراته بحسب هذا السِّفر، والذي لربما

١. سورة الفرقان:٤٠.

أشار القرآن الكريم إلى جانب منه في قوله «تعالى»: ﴿**فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ**﴾ أي آمن لوط بإبراهيم ﴿**وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[١].

فالقائل وإن كان هو النبي إبراهيم بحسب الظاهر، إلا أن إيمان لوط به يحتمل أنه هاجر معه أيضاً، بل يزداد هذا الاحتمال قوةً ووضوحاً بلحاظ قوله «تعالى» ضمن عرض تفاصيل قصة النبي إبراهيم: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ**﴾[٢]. وهو ما سنناقشه لاحقاً خلال هذا البحث.

وعلى العموم فإن سِفر التكوين يتحدّث عن أن النبي إبراهيم وأباه تارح والنبي لوط وسارة زوجة إبراهيم خرجوا بأجمعهم من مدينة أور: (فَخَرَجُوا مَعًا مِنْ أُورِ الْكَلْدَانِيِّينَ) ومدينة أور كانت تقع بالقرب من مدينة الناصرية الحالية جنوب العراق.. والنص التوراتي لا يوضّح سبب هذه الهجرة المفاجئة.

وقد تكون هذه الهجرة قد تمّت - إن صحّت هذه الرواية التوراتية - بعد إلقاء النبي إبراهيم في النار ومحاولة إحراقه والتخلّص منه بأمر من الملك، فأنجاه الله من كيده... وهي القصة التي لا نجد لها أثراً في الكتاب المقدس، كما قد تكون هذه الهجرة قد تمّت قبل هذه الحادثة (..... فَأَتَوْا إِلَى حَارَانَ) حاران أو حران مدينة قديمة جداً، تقع جنوب تركيا (وَأَقَامُوا هُنَاكَ) حيث توفّي فيها الأب تارح.

---

١. سورة العنكبوت: ٢٦.

٢. سورة الأنبياء:٦٨-٧١.

ولما صار عمر النبي إبراهيم ٧٥ سنة، خرج منها بمعيّة سارة والنبي لوط، واتجهوا بأجمعهم نحو بلاد الكنعانيين، والتي تمثّل جزءً من الأراضي الفلسطينية. وإذ وقع الجدب فيها، انتقلوا إلى مصر، ثم عادوا إلى بلاد الكنعانيين، وعندها افترق النبي لوط عنه، حيث استقر النبي إبراهيم في الضفة الغربية لنهر الأردن، بينما استقر النبي لوط في الضفة الشرقية، وعلى وجه التحديد في قرية تُعرف باسم «سَدُوم».

وجاء النص التوراتي كالتالي: (فَصَعِدَ أَبْرَامُ) أي النبي إبراهيم الخليل «عليه السلام»، ففي التوراة أن هذا هو اسمه الأصلي، وأن الله «عز وجل» غيّر اسمه إلى إبراهيم في قصة ستأتي معنا لاحقاً (مِنْ مِصْرَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، وَلُوطٌ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ. وَكَانَ أَبْرَامُ غَنِيًّا جِدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ. وَسَارَ فِي رِحْلاَتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ، بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ، إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أَوَّلًا. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ. وَلُوطٌ السَّائِرُ مَعَ أَبْرَامَ، كَانَ لَهُ أَيْضًا غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَخِيَامٌ. وَلَمْ تَحْتَمِلْهُمَا الأَرْضُ أَنْ يَسْكُنَا مَعًا، إِذْ كَانَتْ أَمْلاَكُهُمَا كَثِيرَةً، فَلَمْ يَقْدِرَا أَنْ يَسْكُنَا مَعًا. فَحَدَثَتْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنَ رُعَاةِ مَوَاشِي أَبْرَامَ وَرُعَاةِ مَوَاشِي لُوطٍ. وَكَانَ الْكَنْعَانِيُّونَ وَالْفَرِزِّيُّونَ حِينَئِذٍ سَاكِنِينَ فِي الأَرْضِ).

ومن أجل نزع فتيل أية أزمة محتملة، اقترح النبي إبراهيم أن يفترق الطرفان ويختار كلٌ منهما أرضاً للمرعى تبتعد عن الأخرى ولا تزاحمها: (فَقَالَ أَبْرَامُ لِلُوطٍ: «لاَ تَكُنْ مُخَاصَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ رُعَاتِي وَرُعَاتِكَ، لأَنَّنَا نَحْنُ أَخَوَانِ. أَلَيْسَتْ كُلُّ الأَرْضِ أَمَامَكَ؟ اعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالًا فَأَنَا

يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالًا»). وتقول القصة التوراتية أن لوطاً اختار الضفة الشرقية لأنها كانت غنية بالمياه وبالزراعة، تماماً كما كانت مصر في ذلك الحين: (فَرَفَعَ لُوطٌ عَيْنَيْهِ وَرَأَى كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ أَنَّ جَمِيعَهَا سَقْيٌ..... كَجَنَّةِ الرَّبِّ، كَأَرْضِ مِصْرَ..... فَاخْتَارَ لُوطٌ لِنَفْسِهِ كُلَّ دَائِرَةِ الأُرْدُنِّ، وَارْتَحَلَ لُوطٌ شَرْقًا. فَاعْتَزَلَ الْوَاحِدُ عَنِ الآخَرِ. أَبْرَامُ سَكَنَ فِي أَرْضِ كَنْعَانَ، وَلُوطٌ سَكَنَ فِي مُدُنِ الدَّائِرَةِ، وَنَقَلَ خِيَامَهُ إِلَى سَدُومَ. وَكَانَ أَهْلُ سَدُومَ أَشْرَارًا وَخُطَاةً لَدَى الرَّبِّ جِدًّا)[١].

• الحرب بين الممالك العربية:

ثم يتحدث الأصحاح اللاحق عن وقوع حرب بين الممالك «العربية» الواقعة في تلك المنطقة وامتدادها شرقاً إلى عيلام «= إيلام» الواقعة حالياً في إيران على الحدود مع العراق، حيث تشكّل منها اتحادان متنازعان، شاركت في أحد طرفيه: مملكة سدوم، وكان يحكمها الملك «بارع»، ومملكة عمورة، وكان يحكمها الملك «برشاع»، وغيرهما من الممالك... وفي الطرف الآخر اتحاد بين مملكة شِنعار وعيلام وغيرهما من الممالك، وقد قام الاتحاد الثاني بالاجتماع (مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمْقِ السِّدِّيمِ الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمِلْحِ) أي البحر الميت، وانتصروا على الاتحاد الأول، واستعبدوهم لمدة ١٢ سنة.

وفي السنة الثالثة عشرة تمرّدت الممالك المستعبَدة: (فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدْمَةَ، وَمَلِكُ صَبُوبِيمَ، وَمَلِكُ بَالَعَ، الَّتِي هِيَ صُوغَرُ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عُمْقِ السِّدِّيمِ....) وفشل التمرّد (وَعُمْقُ السِّدِّيمِ كَانَ

١. الكتاب المقدس: سِفر التكوين، الأصحاح ١٣، ١-١٣.

فِيهِ آبَارُ حُمَرٍ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكَا سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ) وفي ترجمة أخرى للتوراة أوضح من هذه: «وكان وادي السديم مليئاً بآبار الزفت، فاندحر ملكا سدوم وعمورة وسقطا بينها» (وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ. فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلاَكِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعِمَتِهِمْ وَمَضَوْا).

ومن بين النتائج التي أسفرت عنها هذه المواجهة وقمع التمرّد أن وقع النبي لوط في أسْر الغزاة: (وَأَخَذُوا لُوطًا ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ وَأَمْلاَكَهُ وَمَضَوْا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ).

• النبي إبراهيم يخوض الحرب:

وتتحدث الرواية التوراتية عن بلوغ الخبر للنبي إبراهيم حيث كان يعيش في الضفة الغربية: (فَلَمَّا سَمِعَ أَبْرَامُ، أَنَّ أَخَاهُ) والأصح أن يقال ابن أخيه، وهو لوط كما جاء في ترجمة عربية أخرى عن التوراة (سُبِيَ، جَرَّ غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِه، ثَلاَثَ مِئَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ، وَتَبِعَهُمْ إِلَى دَانَ. وَانْقَسَمَ عَلَيْهِمْ لَيْلًا هُوَ وَعَبِيدُهُ فَكَسَّرَهُمْ وَتَبِعَهُمْ إِلَى حُوبَةَ الَّتِي عَنْ شِمَالِ دِمَشْقَ. وَاسْتَرْجَعَ كُلَّ الأَمْلاَكِ، وَاسْتَرْجَعَ لُوطًا أَخَاهُ أَيْضًا وَأَمْلاَكَهُ، وَالنِّسَاءَ أَيْضًا وَالشَّعْبَ).

كان هذا الانتصار الذي حققه النبي إبراهيم «عليه السلام» على الغزاة مدعاة لابتهاج ملك سدوم: (فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ لاسْتِقْبَالِهِ... وَمَلْكِي صَادِقُ، مَلِكُ شَالِيمَ، أَخْرَجَ خُبْزًا وَخَمْرًا. وَكَانَ كَاهِنًا للهِ الْعَلِيِّ) أي كان ملكي صادق مؤمناً ورجل دين موحِّد (وَبَارَكَهُ وَقَالَ: «مُبَارَكٌ أَبْرَامُ مِنَ اللهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ، وَمُبَارَكٌ اللهُ الْعَلِيُّ الَّذِي أَسْلَمَ أَعْدَاءَكَ فِي يَدِكَ». فَأَعْطَاهُ

عُشْرًا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَقَالَ مَلِكُ سَدُومَ لأَبْرَامَ: «أَعْطِنِي النُّفُوسَ، وَأَمَّا الأَمْلاَكَ فَخُذْهَا لِنَفْسِكَ»).

ترفّع النبي إبراهيم عن أخذ الغنيمة، ولكنه أعطى شركاءه في الحرب أنصبتهم من الغنائم: (فَقَالَ أَبْرَامُ لِمَلِكِ سَدُومَ: «رَفَعْتُ يَدِي إِلَى الرَّبِّ الإِلهِ الْعَلِيِّ مَالِكِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، لاَ آخُذَنَّ لاَ خَيْطًا وَلاَ شِرَاكَ نَعْلٍ وَلاَ مِنْ كُلِّ مَا هُوَ لَكَ، فَلاَ تَقُولُ: أَنَا أَغْنَيْتُ أَبْرَامَ. لَيْسَ لِي غَيْرُ الَّذِي أَكَلَهُ الْغِلْمَانُ، وَأَمَّا نَصِيبُ الرِّجَالِ الَّذِينَ ذَهَبُوا مَعِي: عَانِرَ وَأَشْكُولَ وَمَمْرَا، فَهُمْ يَأْخُذُونَ نَصِيبَهُمْ»).

كان هذا الموقف البطولي الشهم ثم الكريم من قبل النبي إبراهيم مدعاة للتكريم الإلهي له: (بَعْدَ هذِهِ الأُمُورِ صَارَ كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَى أَبْرَامَ فِي الرُّؤْيَا قَائِلًا: «لاَ تَخَفْ يَا أَبْرَامُ. أَنَا تُرْسٌ لَكَ. أَجْرُكَ كَثِيرٌ جِدًّا». فَقَالَ أَبْرَامُ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ الرَّبُّ، مَاذَا تُعْطِينِي وَأَنَا مَاضٍ عَقِيمًا؟ وَمَالِكُ بَيْتِي هُوَ أَلِيعَازَرُ الدِّمَشْقِيُّ؟») وفي ترجمة أخرى: «ووارث بيتي هو أليعازر الدمشقي» أي أن عدم وجود ذرية لإبراهيم سيكون مدعاة لأن يرثه الدمشقي هذا، وهو كما سيأتي عبدٌ ولد في بيت النبي إبراهيم فاتّخذه ولداً بالتبنّي.

هذا الوصف يشبه أيضاً وإلى - حدٍّ بعيد - ما جرى لنبينا محمد «صلى الله عليه وآله» حيث مات أولاده الذكور صغاراً، فاتّخذ من مملوكٍ لزوجته السيدة خديجة - وهو زيد بن حارثة - ولداً له بالتبنّي.

(وَقَالَ أَبْرَامُ أَيْضًا: «إِنَّكَ لَمْ تُعْطِنِي نَسْلًا، وَهُوَذَا ابْنُ بَيْتِي وَارِثٌ لِي») وفي ترجمة أخرى: «وها هو عبدٌ مولودٌ في بيتي يكون وارثي» (فَإِذَا كَلاَمُ الرَّبِّ إِلَيْهِ قَائِلًا: «لاَ يَرِثُكَ هذَا، بَلِ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ أَحْشَائِكَ هُوَ يَرِثُكَ». ثُمَّ أَخْرَجَهُ إِلَى

خَارِجٍ وَقَالَ: «انْظُرْ إِلَى السَّمَاءِ وَعُدَّ النُّجُومَ إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعُدَّهَا». وَقَالَ لَهُ: «هكَذَا يَكُونُ نَسْلُكَ». فَآمَنَ بِالرَّبِّ، فَحَسِبَهُ لَهُ بِرًّا).

• ولادة النبي إسماعيل:

ثم تتحدث القصة التوراتية عن ولادة إسماعيل «عليه السلام» من هاجر، بعد أن خرجت حال حملها نتيجة غيرة سارة منها ومضايقتها لها وظهور الملَك لها: (وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ». وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ») إسماعيل اسم مركب من إسماع «من أصل يسمع»، ومن إيل «بمعنى الإله». وجاء الاسم كثيراً بنقوش اليمن: «ي س م ع إ ل»، وفي نقش واحد بصورة «إ س م ع ل»، وفي نقوش بوادي الشام بصورة «ي س م ع ل». وقد يكون اشتقاق اسم النبي إسماعيل من أن «الله سمع» دعاء إبراهيم ﴿**رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾[١] فوهب له على كبر سنه ولداً «إسماعيل»: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾[٢]. فقد تكون عبارة ﴿**إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ**﴾ إشارة لاشتقاق اسم النبي إسماعيل وقد لا تكون، والله أعلم.

ثم يقول النص التوراتي: (..... فَوَلَدَتْ هَاجَرُ لأَبْرَامَ ابْنًا. وَدَعَا أَبْرَامُ اسْمَ ابْنِهِ الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ «إِسْمَاعِيلَ». كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ سَنَةً لَمَّا وَلَدَتْ هَاجَرُ إِسْمَاعِيلَ لأَبْرَامَ).

---

١. سورة الصافات: ١٠٠.

٢. سورة إبراهيم: ٣٩.

• **التكريم الإلهي:**

وبعد ثلاث عشرة سنة جاءته البشارة مجدداً في استمرار نسله من بعده، ومنهم من سيحمل الرسالة الإلهية كما حملها إبراهيم: (وَلَمَّا كَانَ أَبْرَامُ ابْنَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ سَنَةً ظَهَرَ الرَّبُّ لأَبْرَامَ وَقَالَ لَهُ: «أَنَا اللهُ الْقَدِيرُ. سِرْ أَمَامِي وَكُنْ كَامِلًا، فَأَجْعَلَ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَأُكَثِّرَكَ كَثِيرًا جِدًّا». فَسَقَطَ أَبْرَامُ عَلَى وَجْهِهِ. وَتَكَلَّمَ اللهُ مَعَهُ قَائِلًا: «أَمَّا أَنَا فَهُوَذَا عَهْدِي مَعَكَ، وَتَكُونُ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، فَلاَ يُدْعَى اسْمُكَ بَعْدُ أَبْرَامَ بَلْ يَكُونُ اسْمُكَ إِبْرَاهِيمَ، لأَنِّي أَجْعَلُكَ أَبًا لِجُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ) جاء في التفسير التطبيقي للكتاب المقدس[١] أن الله غيّر اسم أبرام، ويعني «الأب الرفيع» إلى إبراهيم، ويعني «أب لجمهور» ليعكس الاسم مركزه الجديد كأب لأمّة، ومن تلك اللحظة فصاعداً أصبح يُدعى إبراهيم (وَأُثْمِرُكَ كَثِيرًا جِدًّا، وَأَجْعَلُكَ أُمَمًا، وَمُلُوكٌ مِنْكَ يَخْرُجُونَ. وَأُقِيمُ عَهْدِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَبَيْنَ نَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ، عَهْدًا أَبَدِيًّا، لأَكُونَ إِلهًا لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ. وَأُعْطِي لَكَ وَلِنَسْلِكَ مِنْ بَعْدِكَ أَرْضَ غُرْبَتِكَ، كُلَّ أَرْضِ كَنْعَانَ مُلْكًا أَبَدِيًّا. وَأَكُونُ إِلهَهُمْ». وَقَالَ اللهُ لإِبْرَاهِيمَ: «وَأَمَّا أَنْتَ فَتَحْفَظُ عَهْدِي، أَنْتَ وَنَسْلُكَ مِنْ بَعْدِكَ فِي أَجْيَالِهِمْ»).

ويبدو لي أن هذا النص هو الذي تتحدث عنه الآية القرآنية أيضاً في قوله «تعالى»: **﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾**[٢].

---

١. مجموعة محررين: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص ٤٤.

٢. سورة البقرة:١٢٤.

• **البشارة والإنذار:**

تقول القصة التوراتية أنه بعد تلقّي النبي إبراهيم «عليه السلام» البشارة السابقة أرسل الله «عز وجل» ثلاثةً من الملائكة في هيئة بشرية، ومعهم رسالتان، الأولى ترتبط بحمل سارة وهي عجوز عقيم، وأنها ستلد ولداً هو إسحق، والثانية تخص قوم النبي لوط «عليه السلام»: (وَظَهَرَ لَهُ الرَّبُّ عِنْدَ بَلُّوطَاتِ مَمْرَا) منطقة في مدينة الخليل «= حبرون»، وظهور الرب هنا -بحسب ظاهر العبارة- فيه تجسيم للذات الإلهية، ثم ما علاقة هذا الظهور بالرجال الثلاثة الذين كانوا في واقع الحال ثلاثاً من الملائكة؟ سأتطرّق لاحقاً لبيان هذا الأمر وتفسيره (وَهُوَ جَالِسٌ فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَقْتَ حَرِّ النَّهَارِ، فَرَفَعَ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ وَإِذَا ثَلاَثَةُ رِجَال وَاقِفُونَ لَدَيْهِ).

ويتحدث النص كيف أن إبراهيم «عليه السلام» استقبلهم أحسن استقبال، وقدّم لهم في البدء كسرة خبز ليسدّوا بها جوعتهم إلى أن يأتي لهم بالطعام: (فَلَمَّا نَظَرَ رَكَضَ لاسْتِقْبَالِهِمْ مِنْ بَابِ الْخَيْمَةِ وَسَجَدَ إِلَى الأَرْضِ، وَقَالَ: «يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ) مجدداً نواجه مشكلة في العبارة، فمن هو السيد؟ وعينا مَن المقصودة هنا؟ هل هو الله؟ ولماذا يتحوّل الخطاب للمفرد هنا إلى خطاب للرجال الثلاثة في الفقرة اللاحقة: (لِيُؤْخَذْ قَلِيلُ مَاءٍ وَاغْسِلُوا أَرْجُلَكُمْ وَاتَّكِئُوا تَحْتَ الشَّجَرَةِ، فَآخُذَ كِسْرَةَ خُبْزٍ، فَتُسْنِدُونَ قُلُوبَكُمْ ثُمَّ تَجْتَازُونَ، لأَنَّكُمْ قَدْ مَرَرْتُمْ عَلَى عَبْدِكُمْ»). وافق الرجال على هذا الاقتراح: (فَقَالُوا: «هكَذَا تَفْعَلُ كَمَا تَكَلَّمْتَ»).

(فَأَسْرَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْخَيْمَةِ إِلَى سَارَةَ، وَقَالَ: «أَسْرِعِي بِثَلاَثِ كَيْلاَتٍ

دَقِيقًا سَمِيذًا. اعْجِنِي وَاصْنَعِي خُبْزَ مَلَّةٍ». ثُمَّ رَكَضَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى الْبَقَرِ وَأَخَذَ عِجْلًا رَخْصًا وَجَيِّدًا وَأَعْطَاهُ لِلْغُلَامِ فَأَسْرَعَ لِيَعْمَلَهُ. ثُمَّ أَخَذَ زُبْدًا وَلَبَنًا، وَالْعِجْلَ الَّذِي عَمِلَهُ، وَوَضَعَهَا قُدَّامَهُمْ. وَإِذْ كَانَ هُوَ وَاقِفًا لَدَيْهِمْ تَحْتَ الشَّجَرَةِ أَكَلُوا).

وفي هذه التفاصيل التقاء واختلاف مع القصة القرآنية حيث يقول «سبحانه»: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**﴾[1].

وقوله «تعالى»: ﴿**هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ**﴾[2].

فالالتقاء من حيث ذبح العجل السمين وتقديمه إليهم، والاختلاف من حيث أنهم لم يأكلوا في النص القرآني مما جعله يستغرب من ذلك ويستنكر فعلتهم لأنها مخالفة للطبيعة البشرية بلحاظ أنهم مسافرون مما يستدعي كونهم جوعى، وأن طبيعة ذلك الطعام تكون شهية، فلماذا لا يمدّون أيديهم ليأكلوا.. هل لديهم نية مسبقة لخيانة مضيفهم أو إيذائه؟ في المقابل نجد أن النص التوراتي يذكر أنهم أكلوا من ذلك الطعام.

(وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ سَارَةُ امْرَأَتُكَ؟» فَقَالَ: «هَا هِيَ فِي الْخَيْمَةِ». فَقَالَ: «إِنِّي أَرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ امْرَأَتِكَ ابْنٌ». وَكَانَتْ سَارَةُ سَامِعَةً

١. سورة هود:٦٩-٧٠.

٢. سورة الذاريات:٢٤-٢٨.

فِي بَابِ الْخَيْمَةِ وَهُوَ وَرَاءَهُ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَسَارَةُ شَيْخَيْنِ مُتَقَدِّمَيْنِ فِي الأَيَّامِ، وَقَدِ انْقَطَعَ أَنْ يَكُونَ لِسَارَةَ عَادَةٌ كَالنِّسَاءِ. فَضَحِكَتْ سَارَةُ فِي بَاطِنِهَا قَائِلَةً: «أَبَعْدَ فَنَائِي يَكُونُ لِي تَنَعُّمٌ، وَسَيِّدِي قَدْ شَاخَ؟» فَقَالَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ: «لِمَاذَا ضَحِكَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: أَفَبِالْحَقِيقَةِ أَلِدُ وَأَنَا قَدْ شِخْتُ؟ هَلْ يَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّبِّ شَيْءٌ؟ فِي الْمِيعَادِ أَرْجِعُ إِلَيْكَ نَحْوَ زَمَانِ الْحَيَاةِ وَيَكُونُ لِسَارَةَ ابْنٌ». فَأَنْكَرَتْ سَارَةُ قَائِلَةً: «لَمْ أَضْحَكْ». لأَنَّهَا خَافَتْ. فَقَالَ: «لاَ! بَلْ ضَحِكْتِ»).

ونجد القرآن الكريم يقدّم لنا هذا المقطع من القصة بصورة قريبة من النص التوراتي من حيث المضمون وذلك كالتالي: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ**﴾[١] وفي سورة الذاريات: ﴿**فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ، قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ**﴾[٢].

أما الرسالة الثانية الخاصة بقوم النبي لوط «عليه السلام» فقد عُرضت في التوراة بصورة مختلفة عما جاء في القرآن الكريم، ففي القرآن حديث عن أن الملائكة أخبروا إبراهيم بأن العذاب سينزل بحق أولئك القوم، وأن إبراهيم جادلهم في هذا الأمر محاولاً أن تتغيّر الإرادة الإلهية رحمة بالناس لاحتمال إمكانية إصلاحهم وردعهم عن ذنوبهم، أو درءً للعذاب عن المؤمنين

١. سورة هود: ٧١-٧٣.

٢. سورة الذاريات: ٢٩-٣٠.

الموجودين في هذه القرية، ومن بينهم لوط: ﴿**فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ.... فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ، يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ**﴾[١].

وتمّ تقديم الحوار الدائر بين النبي إبراهيم وبين الملائكة في سورة الذاريات كالتالي: ﴿**قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ، مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ**﴾[٢].

ويلتقي هذا الوصف مع ما في القصة التوراتية مع اختلاف جوهري وهو أن الملائكة غادروا المكان دون أن يتحدّثوا عن العذاب الذي سينزل بقوم النبي لوط «عليه السلام»، وأن الحوار دار مباشرة بين الله وبين نبيه إبراهيم «عليه السلام»: (ثُمَّ قَامَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَتَطَلَّعُوا نَحْوَ سَدُومَ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ مَاشِيًا مَعَهُمْ لِيُشَيِّعَهُمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: «هَلْ أُخْفِي عَنْ إِبْرَاهِيمَ مَا أَنَا فَاعِلُهُ، وَإِبْرَاهِيمُ يَكُونُ أُمَّةً كَبِيرَةً وَقَوِيَّةً، وَيَتَبَارَكُ بِهِ جَمِيعُ أُمَمِ الأَرْضِ؟ لأَنِّي عَرَفْتُهُ لِكَيْ يُوصِيَ بَنِيهِ وَبَيْتَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ الرَّبِّ، لِيَعْمَلُوا بِرًّا وَعَدْلاً، لِكَيْ يَأْتِيَ الرَّبُّ لإِبْرَاهِيمَ بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ». وَقَالَ الرَّبُّ: «إِنَّ صُرَاخَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ قَدْ كَثُرَ، وَخَطِيَّتُهُمْ قَدْ عَظُمَتْ جِدًّا. أَنْزِلُ وَأَرَى هَلْ فَعَلُوا بِالتَّمَامِ حَسَبَ صُرَاخِهَا الآتِي إِلَيَّ، وَإِلاَّ فَأَعْلَمُ». وَانْصَرَفَ الرِّجَالُ مِنْ هُنَاكَ وَذَهَبُوا نَحْوَ سَدُومَ، وَأَمَّا

١. سورة هود: ٧٠-٧٦.

٢. سورة الذاريات: ٣١-٣٤.

إِبْرَاهِيمُ فَكَانَ لَمْ يَزَلْ قَائِمًا أَمَامَ الرَّبِّ). ولا يخفى أن العبارات السابقة مع الآية الأولى من الأصحاح ١٨ من سِفر التكوين تتضمّن إيحاءً بالتجسيم، وهو إذ كان مقبولاً ومتصوّراً وفق التفسير المسيحي، إلا أنه يثير إشكالاً بحسب المعتقد اليهودي، وقد طُرح هذا الإشكال على موقع The Torah «التوراة» وذلك بالصورة التالية: هل كان ظهور الله لإبراهيم رؤية في المنام أم زيارة؟

وقد أجاب البروفيسور «بن صهيون كاتز» Prof.Ben-Zion Katz على هذا السؤال، معتبراً أن القراءة الحاخامية التقليدية تذهب إلى القول بأن إبراهيم كان يرى الله في منامه، ثم ما لبثت أن انقطعت تلك الرؤيا بقدوم الملائكة الثلاث ضيوفاً عليه. ثم يثير كاتز بعض الإشكالات اللغوية والبيانية على هذه القراءة التقليدية للنص العبري، معتبراً أن ظاهر النص لا يتوافق مع هذه القراءة التأويلية. فظاهر النص يدل على أن الله «جل وعلا» كان أحد الثلاثة الذين رآهم إبراهيم، ولذا كان - تارة - يخاطب الله مباشرة (يَا سَيِّدُ، إِنْ كُنْتُ قَدْ وَجَدْتُ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ فَلاَ تَتَجَاوَزْ عَبْدَكَ) في أثناء وجود الضيوف الثلاثة، مما يعني أن الله «جل وعلا» كان أحدهم. وهكذا عاد الحديث المباشر مع الله بعد أن بُشِّر إبراهيم بإسحاق ومغادرة الثلاثة للخيمة، ثم الحديث في الأصحاح ١٩ -كما سيأتي- عن اتجاه ملَكين فقط إلى قرية قوم النبي لوط، مما يؤكّد - بحسب كاتز - أن القرءة الظاهرية هي الأولى بالقبول.

واعتبر كاتز أن لجوء الحاخامات إلى القراءة التقليدية التأويلية المتعارضة مع ظاهر النص أمرٌ مفهوم، بلحاظ أن القراءة غير التقليدية

تستدعي التجسيم كما لا يخفى، وتجسيم الذات الإلهية من شأنه خلق إشكالية عقدية لدى المرجعيات الدينية لليهود[١].

ثم يتحدث النص التوراتي عن نفس الفقرة التي جاءت في القرآن كالتالي: **﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ، يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾**[٢].

وتفصيلها في التوراة جاء كالتالي: (فَتَقَدَّمَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «أَفَتُهْلِكُ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ؟ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَمْسُونَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ. أَفَتُهْلِكُ الْمَكَانَ وَلاَ تَصْفَحُ عَنْهُ مِنْ أَجْلِ الْخَمْسِينَ بَارًّا الَّذِينَ فِيهِ؟ حَاشَا لَكَ أَنْ تَفْعَلَ مِثْلَ هذَا الأَمْرِ، أَنْ تُمِيتَ الْبَارَّ مَعَ الأَثِيمِ، فَيَكُونَ الْبَارُّ كَالأَثِيمِ. حَاشَا لَكَ! أَدَيَّانُ كُلِّ الأَرْضِ لاَ يَصْنَعُ عَدْلاً؟» فَقَالَ الرَّبُّ: «إِنْ وَجَدْتُ فِي سَدُومَ خَمْسِينَ بَارًّا فِي الْمَدِينَةِ، فَإِنِّي أَصْفَحُ عَنِ الْمَكَانِ كُلِّهِ مِنْ أَجْلِهِمْ». فَأَجَابَ إِبْرَاهِيمُ وَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى وَأَنَا تُرَابٌ وَرَمَادٌ. رُبَّمَا نَقَصَ الْخَمْسُونَ بَارًّا خَمْسَةً. أَتُهْلِكُ كُلَّ الْمَدِينَةِ بِالْخَمْسَةِ؟» فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ خَمْسَةً وَأَرْبَعِينَ». فَعَادَ يُكَلِّمُهُ أَيْضًا وَقَالَ: «عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ أَرْبَعُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ مِنْ أَجْلِ الأَرْبَعِينَ». فَقَالَ: «لاَ يَسْخَطِ الْمَوْلَى فَأَتَكَلَّمَ. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ ثَلاَثُونَ». فَقَالَ: «لاَ أَفْعَلُ إِنْ وَجَدْتُ هُنَاكَ ثَلاَثِينَ». فَقَالَ: «إِنِّي قَدْ شَرَعْتُ أُكَلِّمُ الْمَوْلَى. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ عِشْرُونَ». فَقَالَ: «لاَ أُهْلِكُ مِنْ أَجْلِ الْعِشْرِينَ». فَقَالَ: «لاَ يَسْخَطِ الْمَوْلَى فَأَتَكَلَّمَ هذِهِ الْمَرَّةَ فَقَطْ. عَسَى أَنْ يُوجَدَ هُنَاكَ عَشَرَةٌ». فَقَالَ:

1. www.thetorah.com/article/gods-appearance-to-abraham-vision-or-visit

٢. سورة هود: ٧٤-٧٦.

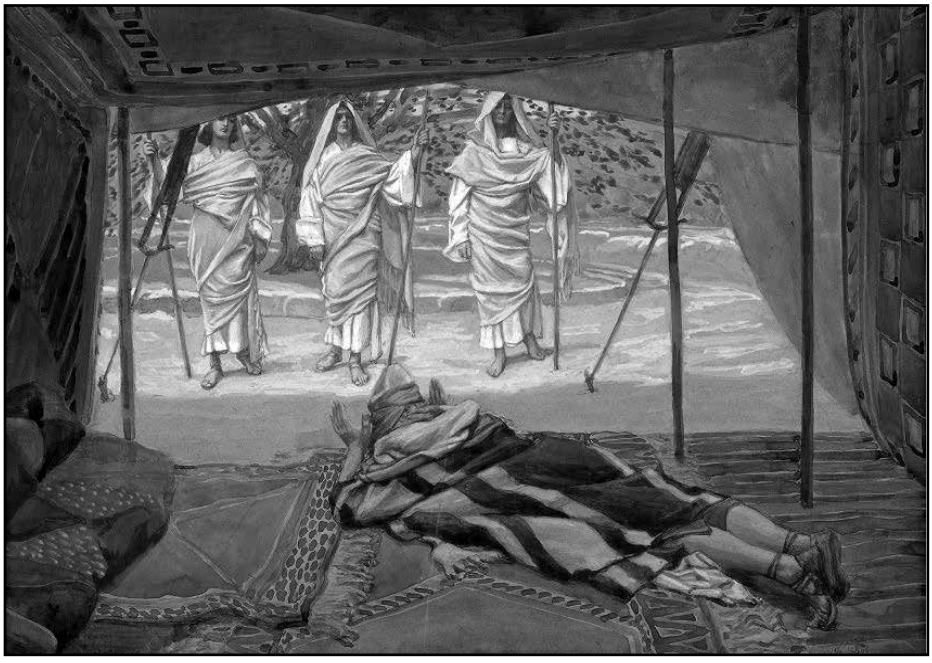
«لاَ أُهْلِكُ مِنْ أَجْلِ الْعَشَرَةِ». وَذَهَبَ الرَّبُّ عِنْدَمَا فَرَغَ مِنَ الْكَلاَمِ مَعَ إِبْرَاهِيمَ، وَرَجَعَ إِبْرَاهِيمُ إِلَى مَكَانِهِ)[١].

• الجريمة الكبرى:

بعد أن أُسدل الستار على المشهد السابق حيث كان النبي إبراهيم في المدينة التي تُعرف اليوم باسم الخليل، تنتقل التوراة للحديث عن سفر الملكَين باتجاه سدوم، حيث يعيش النبي لوط لإنذاره من العذاب، وأمْره بمغادرة القرية بمعيّة أهله ما عدا زوجته، وكيف جاء بعض رجال هذه القرية إلى بيت النبي لوط في محاولة منهم للاعتداء على ضيفيه: (فَجَاءَ الْمَلاَكَانِ إِلَى سَدُومَ مَسَاءً، وَكَانَ لُوطٌ جَالِسًا فِي بَابِ سَدُومَ. فَلَمَّا رَآهُمَا لُوطٌ قَامَ لاسْتِقْبَالِهِمَا، وَسَجَدَ بِوَجْهِهِ إِلَى الأَرْضِ) من الملاحظ تكرُّر هذه العبارة في استقبال النبي إبراهيم للضيوف وفي استقبال النبي لوط أيضاً، وهو ما فُسِّر من قبل بعض شرّاح التنخ بأنه من المراسيم التي كانت دارجة في ذلك الزمان عند استقبال الضيوف تكريماً لهم، بينما فسّر ذلك آخرون بأن السجود كان في قصة النبي إبراهيم لوجود الله «جل وعلا» بينهم، أو لرسل الله، أي الملائكة المكرَّمين كما في قصة النبي لوط.

(وَقَالَ: «يَا سَيِّدَيَّ، مِيلاَ إِلَى بَيْتِ عَبْدِكُمَا وَبِيتَا وَاغْسِلاَ أَرْجُلَكُمَا، ثُمَّ تُبَكِّرَانِ وَتَذْهَبَانِ فِي طَرِيقِكُمَا». فَقَالاَ: «لاَ، بَلْ فِي السَّاحَةِ نَبِيتُ». فَأَلَحَّ عَلَيْهِمَا جِدًّا، فَمَالاَ إِلَيْهِ وَدَخَلاَ بَيْتَهُ، فَصَنَعَ لَهُمَا ضِيَافَةً وَخَبَزَ فَطِيرًا فَأَكَلاَ. وَقَبْلَمَا اضْطَجَعَا أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ، رِجَالُ سَدُومَ، مِنَ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ،

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٨، ١-٣٣.



لوحة تمثّل سجود النبي إبراهيم لضيوفة ترحيبا بهم

كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا. فَنَادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا»).

التوراة المعرَّبة وإن لم تذكر وصفاً أو كلمة تبيّن أن مطلب أولئك القوم كان ممارسة الشذوذ الجنسي مع ضيفي النبي لوط، وأن أكبر خطيئة عُرف بها هذا المجتمع وعوقب عليها لاحقاً هو هذا الشذوذ، إلا أنه في كلمة «لِنَعْرِفَهُمَا» دلالة غير مباشرة على ذلك، وهذا ما بيّنه شرّاح هذا النص في المصادر المختلفة.

يقول القس الأمريكي المعاصر «جون مكارثر» على موقعه التبشيري الشهير Grace To You أن من الواضح أنَّ مدينة سدوم كانت تَعُجُّ بكل أنواع

الإثم، حيث قدّم الأصحاح ١٦ من سِفْر حزقيال لائحةً بعدد من الخطايا الَّتي كانت مُستفحلةً فيها: (هذَا كَانَ إِثْمَ أُخْتِكِ سَدُومَ: الْكِبْرِيَاءُ وَالشَّبَعُ مِنَ الْخُبْزِ وَسَلاَمُ الاطْمِئْنَانِ كَانَ لَهَا وَلِبَنَاتِهَا، وَلَمْ تُشَدِّدْ يَدَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ، وَتَكَبَّرْنَ وَعَمِلْنَ الرِّجْسَ أَمَامِي فَنَزَعْتُهُنَّ كَمَا رَأَيْتُ)[١].

ولكنَّ أيًّا منها - بحسب القس مكارثر - لم يكن صادماً أكثر من «المِثليَّة الجنسيَّة». فالفجور، والزِّنى، وتعدُّد الزَّوجات، وسِفاح القُربى، والاغتصاب، والدَّعارة كانت كُلُّها موجودة في العالم في الوقت الَّذي تقرأون فيه عن الحضارة البشريَّة. وكان من بينها، بكُلِّ تأكيد، خطيَّة «المِثليَّة الجنسيَّة» الَّتي تُطِلُّ برأسها القبيح.

وبعد أن يستعرض قصة وفود الملكَين على النبي لوط، قال: (لقد رَأوا هُنا أجملَ رَجُلَيْن اضطرمت لهما شهوتُهم المنحرفة ووقعت عليهما أعينهم. فقد رأَوْا جسَدَيْنِ جَذَّابَيْنِ فلم يتمكَّنوا من كَبْحِ شَرِّهم الجامح. «أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟» لقد رأيناهُما. «أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا». أي كي نَضطجع معهما. وهذا يُرينا مدى انحراف تلك المدينة. فقد جاء النَّاس من جميع أنحاء المدينة. فهذه لم تكن مجموعة صغيرة، بل أُناسٌ من كُلّ أنحاء المدينة، ومِن كُلّ حَيٍّ فيها. فقد جاء جميع الرِّجال «مِنَ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ». فقد استَفحلت المِثليَّة الجنسيَّة في جميع المراحل العُمريَّة في كُلِّ أنحاء المدينة. «أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا». والكلمة العبريَّة المستخدمة هنا وهي: «يادا» Yada تُشير إلى إقامة علاقة جنسيَّة. فهناك ترجماتٌ تقول:

١. الكتاب المقدس: سفر حزقيال، الأصحاح ١٦، ٤٩-٥٠.

«لنعرفهما»، ولكنَّ المقصود هنا هو ليس مُجرَّد لجنة ترحيب)[١].

ويخطّيء القس مكرثر تفسير هذه العبارة بصورة لا تدلّ على أن جريمتهم كانت الشذوذ، بل سُوء الضِّيافة لديهم، كما قال أحد الكتّاب، ويؤكّد على أن السَّبب في أنَّ الله أهلَكهُم لم يكن سوء ضيافتهم، بل لأنَّهم أرادوا أن يَفعلوا الشَّرّ. فقد أرادوا أن يَهجموا على الملاكَيْن وأن يُمارسوا اللِّواط معهما.

ويؤكّد كلامه بالعرض الذي قدّمه النبي لوط - وسيتحدَّث عنه النص التوراتي - حيث قال: (هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلاً) أي ابنتان عَذراوتان (أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي)[٢]. هذا غريب! أليس كذلك؟ فما الَّذي يفعله هنا؟ إنَّه يقول: انظروا! عِوَضًا عن تنجيس هذين الملاكَيْن الزَّائرَيْن، مِن الأَهْوَنِ عليَّ أن أعطيكما ابنتيَّ العذراوَتيْن. أنت لا تُعطي ابنتيك العذراوَتيْن لأشخاص لمُجرَّد أنَّ النَّاس لا يُحسنون الضِّيافة فتحاول أن تُرضيهم. فكأنَّه يقول: «هل يمكنني أن أُقايضهما بابنتيَّ العذراوَتيْن؟ ألا فعلتم بهما ما تُمليه عليكم شهواتكم عوضاً عن أن تفعلوا ذلك بالملاكَيْن الزَّائرَيْن؟».

ثم يستشهد بالآية ٩ من نفس الأصحاح: (فَقَالُوا: «ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هذَا الإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ، وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا). مَن يكون لوط هذا؟ فهو مَن جاء إلى مدينتنا. وهو غريب. وَهُوَ دَخيل. وَهُوَ لا ينتمي أصلاً إلى

1. www.gty.org/library/sermons-library/نظرة-الله-إلى-المِثليَّة-الجنسيَّة-الجزء-الثَّاني

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ٨.

هنا. والآن، ها هو يجلس ويحكم على تصرُّفاتنا. (الآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا»). وربَّما كانوا يَعنون بذلك أنَّهم سيغتصبونه. وبهذا سيكونون جماعةً اغتصبت ملاكَيْن ثُمَّ جماعةً اغتصبت لوطًا. (فَأَلَحُّوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطٍ جِدًّا وَتَقَدَّمُوا لِيُكَسِّرُوا الْبَابَ)[١]. وهذا يُخبركم شيئًا عن شهوة «المِثليَّة الجنسيَّة» الجامحة[٢].

والذي يؤكد المراد من كلمة «لِنَعْرِفَهُمَا» الواردة في قصة النبي لوط مع ضيفيه وأن المقصود منها الممارسة الجنسية هو ما جاء في قصة آدم وحوّاء في الأصحاح الرابع من سفر التكوين حيث يقول: (وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ)[٣] حيث يتبيّن أن كلمة «عرف» باشتقاقاتها قد تُستخدم للدلالة على ذلك. والكتاب المقدّس بقسميه القديم والجديد يحرّم اللواط ويعتبره فعلاً مجرَّماً، ومن بين النصوص الكتابية التي بيّنت ذلك:

- لا تضاجع ذكرًا مضاجعة امرأة [٤].
- إذا اضطجع رجل مع ذكر اضطجاع امرأة فقد فعلا رجسا كلاهما إنهما يقتلان ودمهما عليهما [٥].
- لذلك أسلمهم الله أيضًا في شهوات قلوبهم إلى النجاسة لإهانة أجسادهم بين ذواتهم.. الذين استبدلوا حق الله بالكذب.. واتقوا وعبدوا

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ٩.

2. www.gty.org/library/sermons-library/ نظرة-الله-إلى-المِثليَّة-الجنسيَّة-الجزء-الثَّاني

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٤، ١.

٤. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الأصحاح ١٨، ٢٢.

٥. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الأصحاح ٢٠، ١٣.

المخلوق دون الخالق الذي هو مبارك إلى الأبد آمين. لذلك أسلمهم الله إلى أهواء الهوان لأن إناثهم استبدلوا الاستعمال الطبيعي بالذي على خلاف الطبيعة... وكذلك الذكور أيضاً، تاركين استعمال الأنثى الطبيعي. اشتعلوا بشهوتهم بعضهم لبعض فاعلين الفحشاء ذكوراً بذكور ونائلين في أنفسهم جزاء ضلالهم المحق[١].

○ لا تضلّوا.. لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ... يرثون ملكوت الله[٢].

تاريخياً، ندّد آباء الكنيسة بالشذوذ الجنسي كونه يتعارض مع تعاليم الكتاب المقدس، ويظهر ذلك من خلال كتابات كل من ترتليان، وقبريانوس القرطاجي، وأمبروسياستر، ويوحنا فم الذهب، وتوما الأكويني، وهايدغارد بنجين، ومارتن لوثر، وأعتبروا هذا النوع من الممارسة الجنسية غير شرعي وضد الطبيعة وغير أخلاقي.

وعلى الرغم من النصوص السابقة ومواقف آباء الكنائس المختلفة وفي عصور مختلفة، إلا أن الطوائف المسيحية – اليوم – لا تُجمع على أن الممارسة الجنسية الشاذة خطيئة – وإن كانت الأغلبية منها ترى ذلك – إذ أن هناك بعض وجهات النظر المسيحية الليبرالية تدعم الشاذين جنسياً، ولا تعتبر الزواج بين الشاذّين أمراً لا أخلاقياً، وتستبعد أن يكون حكم الكتاب المقدس معمماً على جميع الشواذ، إذ يدّعون أن وصف بولس الشواذ في رسالته إلى

١. الكتاب المقدس: رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية، الأصحاح ١: ٢٤-٢٧.
٢. الكتاب المقدس: رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس، الأصحاح ٦: ٩-١٠.

أهل رومية يتضح منه أنه كان يعني بكلامه فئة محددة منهم، بالإضافة إلى استنادهم إلى بعض المقولات التي تنفي أن تكون هذه الممارسة مرضاً أو شذوذاً عن الطبيعة، وبالتالي - بحسب زعمهم - ليس هناك سبب يجعل الله يحرّم هذا السلوك. ومن بين هذه الطوائف التي تسمح بالشذوذ: كنيسة كندا المتحدة، وكنيسة المسيح المتحدة، والكنيسة الأسقفية الأمريكية، والكنيسة الإنجيلية اللوثرية في أمريكا، والكنيسة الإنجيلية اللوثرية في كندا.

أما في القرآن الكريم، فقد تحدّثت الآيات بكل وضوح أن جريمتهم الكبرى والمميزة التي عُرفوا بها، بالإضافة إلى آثام أخرى اشتركوا فيها مع أقوام آخرين هي جريمة الشذوذ الجنسي:

○ **﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ، قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ، قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ﴾**[١].

○ **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ، إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ، وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾**[٢].

---

١. سورة الشعراء: ١٦١-١٦٨.

٢. سورة الأعراف: ٨٠-٨٢.

○ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ، أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾[1].

ونجد في موردين من الآيات السابقة عبارة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ﴾ والتي يُفهم منها أن هؤلاء القوم هم أوّل من مارس هذا النوع من الشذوذ من بين البشر، إلا أن بعض الكتابات المعاصرة تشير إلى أن تاريخ ممارسة الشذوذ الجنسي بين الذكور قديم جداً ويعود - بحسب بعض الآثار والمنحوتات - إلى ما قبل أربعة آلاف سنة بكثير، أي قبل العصر التقريبي الذي عاش فيه النبي لوط. إلا أن الأدلة المقدَّمة غير يقينية وليست واضحة بشكل دقيق للدلالة على ممارسة هذا الفعل القبيح، كما أننا لا نعلم منذ متى بدأ قوم النبي لوط بممارسة هذا الفعل القبيح، فلربما سبقوا عصره بقرون عديدة، وكانوا قد بلغوا في عصره الأوج في علنية الممارسة وسعتها ودون خجل، وقد مرّ بنا في النص التوراتي أن الذين هجموا على بيت النبي لوط طلباً للضيفين: (أَحَاطَ بِالْبَيْتِ رِجَالُ الْمَدِينَةِ، رِجَالُ سَدُومَ، مِنَ الْحَدَثِ إِلَى الشَّيْخِ، كُلُّ الشَّعْبِ مِنْ أَقْصَاهَا. فَنَادَوْا لُوطًا وَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ الرَّجُلاَنِ اللَّذَانِ دَخَلاَ إِلَيْكَ اللَّيْلَةَ؟ أَخْرِجْهُمَا إِلَيْنَا لِنَعْرِفَهُمَا»).

كما يُحتمل أن الآيات القرآنية لا تريد أن تقول أن قوم لوط أوّل من ابتكر ومارس هذا الفعل الشنيع، بل أوّل من شرعنه وجعله أمراً علنياً ومقبولاً

١. سورة العنكبوت: ٢٠-٢٢.

اجتماعياً ولا يتنافى مع شريعة ولا أخلاق بحسب أعرافهم وتقاليدهم. وإذا مورس هذا الفعل من قبل بعض الناس من أقوام أُخر في فترات زمنية سابقة، ولكن في حالات فردية، أو في نطاق ضيّق، فلن يتنافى ذلك مع ما جاء من وصف قرآني لجريمتهم هذه.

نعود من جديد إلى النص التوراتي الذي يفصّل ما جرى لقوم النبي لوط بعد تحرّشهم بضيفيه، حيث حاول أن يُثنيهم عن قرارهم المخزي ولو بعرض ابنتيه للزواج درءً للمفسدة: (فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ لُوطٌ إِلَى الْبَابِ وَأَغْلَقَ الْبَابَ وَرَاءَهُ، وَقَالَ: «لاَ تَفْعَلُوا شَرًّا يَا إِخْوَتِي. هُوَذَا لِي ابْنَتَانِ لَمْ تَعْرِفَا رَجُلًا. أُخْرِجُهُمَا إِلَيْكُمْ فَافْعَلُوا بِهِمَا كَمَا يَحْسُنُ فِي عُيُونِكُمْ. وَأَمَّا هذَانِ الرَّجُلاَنِ فَلاَ تَفْعَلُوا بِهِمَا شَيْئًا، لأَنَّهُمَا قَدْ دَخَلاَ تَحْتَ ظِلِّ سَقْفِي»).

لم يقتنع القوم بكلام النبي لوط وأصرّوا على موقفهم الشنيع، معتبرين أنه شخص غريب وافد عليهم، وليس له أن يُصدر الأحكام بحقّهم، وأن يتهمهم فيما يعتبرونه فعلاً غير مذموم: (فَقَالُوا: «ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هذَا الإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ، وَهُوَ يَحْكُمُ حُكْمًا. الآنَ نَفْعَلُ بِكَ شَرًّا أَكْثَرَ مِنْهُمَا». فَأَلَحُّوا عَلَى الرَّجُلِ لُوطٍ جِدًّا).

في هذا المقطع نجد توافقاً مع ما جاء في القرآن الكريم من جهة، واختلافاً من جهة أخرى، أما جهة الموافقة ففي التفاصيل التالية: ﴿**وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ**﴾ أي كانت تصرّفات أهل البلدة مسيئة بحقّهم حيث أرادوا التحرّش بهم وإغوائهم أو الاعتداء عليهم ﴿**وَضَاقَ**﴾ النبي لوط ﴿**بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ، وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ**

يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ في كناية عن اللواط **﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ، قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ، قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾**[١].

• كيف يكون لوط أخاهم؟

أما الاختلاف فيما سبق بين القرآن والتوراة فبلحاظ أن التوراة تذكر أن القوم ذكروا أن لوطاً شخص غريب وافد على مجتمعهم: (فَقَالُوا: «ابْعُدْ إِلَى هُنَاكَ». ثُمَّ قَالُوا: «جَاءَ هذَا الإِنْسَانُ لِيَتَغَرَّبَ»)، بينما نجد أن القرآن الكريم كرَّر في أكثر من موقع أن لوطاً كان أخاهم، وأنهم كانوا قومه، والقرآن عندما يستعمل مثل هذا المصطلح فإنه يشير إلى أن هذا النبي ابن بلدتهم، وهم قومه وأهله وعشيرته، وهذا ما بيّنتُه بصورة مقارنة في الجزء الأول من هذا الكتاب، حيث نجد استعمال مصطلحي «أخ» و«قوم» بشأن الأنبياء والمرسَل إليهم إلا في مورد النبي شعيب حيث يستعملهما مرّة وذلك عند الحديث عن رسالته إلى أهل مَدْيَن، ويعرض عنه أخرى حين يتحدّث عن رسالته إلى أصحاب الأيكة، بما يدل على أنه كان من مدين، بينما وفد على أصحاب الأيكة وبلّغ رسالته إليهم:

- **﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾**[٢].
- **﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾**[٣].

١. سورة هود: ٧٧-٨٠.

٢. سورة الأعراف: ٦٥.

٣. سورة الشعراء:١٢٣-١٢٤.

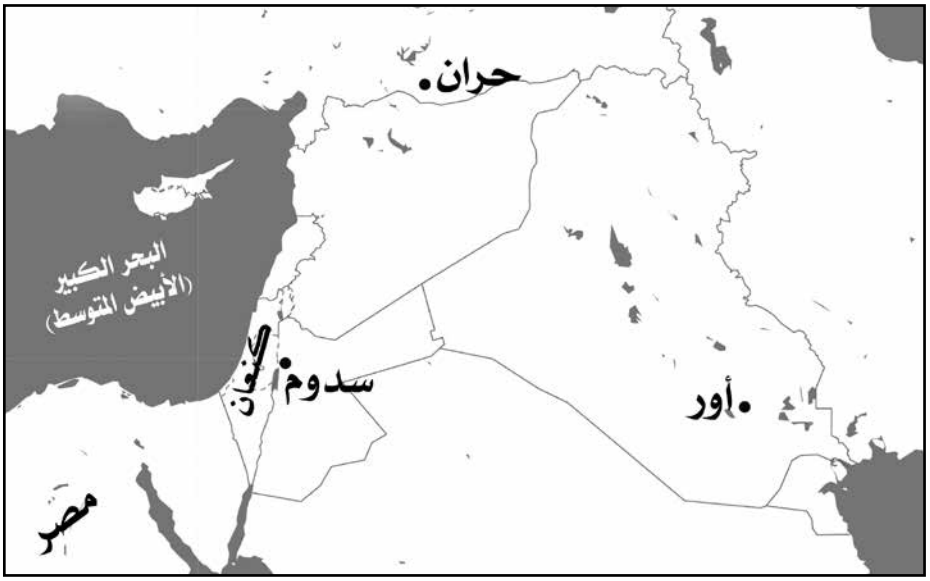
- ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾[١].
- ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾[٢].
- ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾[٣].
- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ.... فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا....﴾[٤].
- ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[٥].
- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾[٦].

وإذا استعدنا مسار هجرات النبي لوط بحسب ما جاء في التوراة، فسنجد أنها بدأت من أور الكلدانيين، ثم الاستقرار في حرّان لفترة من الزمن، ثم الانتقال إلى الأراضي الكنعانية، ومنها إلى مصر، فكنعان مرة أخرى، ثم الاستقرار في مدينة سدوم في الأردن.

بالطبع، فإن القرآن الكريم أشار إلى هجرة النبي لوط مع النبي إبراهيم حتى استقرّ بهم المقام في الأراضي الكنعانية التي عبّر عنها القرآن في أكثر من موضع بعنوان الأرض التي باركها، ولكننا لا نجد - كالعادة - تفصيلاً لمسار الهجرة ومحطّاتها، فهو خارج عن غرض بيان القصة القرآنية.

قال «تعالى»: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا

١. سورة الأعراف: ٧٣.
٢. سورة الشعراء: ١٤١-١٤٢.
٣. سورة الشعراء: ١٦٠-١٦١.
٤. سورة النمل ٥٤-٥٦.
٥. سورة الأعراف: ٨٥.
٦. سورة الشعراء: ١٧٦-١٧٧.



نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ، وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

أي أن النبي لوط كان بمعية النبي إبراهيم عندما خرج من تلك الديار التي كان يسكنها – أيّاً كانت – وتعرّض فيها إلى محاولة القتل حرقاً بعد تحطيمه أصنامهم. إلا أن هذا السيناريو يواجه مشكلةً عند ملاحظة أن الذين نزل بهم العذاب كانوا قوم النبي لوط، وهو أخوهم. فإذا كان النبي لوط من مدينة أور – التي كانت تقع بالقرب من مدينة الناصرية – في جنوب بلاد الرافدين، فكيف يكون أهل سدوم قومه، والفرض أنها مدينة في الأردن؟

وهذا يستدعي وضع عدة احتمالات، من بينها:

١. أنه هاجر أوّلاً – لسبب أو لآخر – مِن سدوم إلى أور الكلدانيين، وقد

١. سورة الأنبياء:٦٨-٧١.

تكون هجرته الافتراضية هذه بغرض التعرّف على الرسالة الجديدة وصاحبها النبي إبراهيم، فلما استقرّ في أور والتقاه آمن به وبرسالته، ثم هاجر معه تلك الهجرات المذكورة في التوراة، ثم عاد واستقر في مدينته وبين أهله وقومه من جديد في نهاية هجراته المتعدّدة مع النبي إبراهيم. وهذا يُضعِف احتمال أنه ابن أخ النبي إبراهيم وابن خالته في نفس الوقت – كما تقول التوراة – لأن أهل سدوم ليسوا أهل أور في جنوب بلاد الرافدين.

٢.أن والدته أو إحدى جداته من سدوم، فهم أخواله، فعندما هاجر من جنوب بلاد الرافدين إلى أن استقر به المقام في نهاية المطاف في سدوم، فإنه في الواقع نزل على أخواله، ولذا فهم قومه من جهة الأم أو إحدى الجدات. وأما إذا صحّحنا مقولة بعض المصادر الكتابية والإسلامية أن والدته هي أخت سارة زوجة النبي إبراهيم، فإنّ دائرة الاحتمالات تضيق لتنتقل إلى الجدات دون الأم مباشرة. علماً بأن التوراة تزعم أن سارة هي أخت إبراهيم لأبيه، وزوجته في نفس الوقت !

٣. أن أهل سدوم – أو بعضهم – وأهل أور – أو بعضهم – من قبيلة أو شعب واحد، ولكن الهجرات التي عُرفت بها المنطقة عبر الزمن جعلتهم موزّعين جغرافياً بهذا الشكل، ولذا عندما استقرّ لوط في سدوم، فقد استقرّ عند فرع من فروع قومه الذين ينتمي إليهم فعلياً، ولم يكن دخيلاً عليهم ومنتمياً إليهم بالولاء مثلاً.

٤. أن القرية التي استقرّ فيها النبي لوط وكانت تعمل الخبائث ثم أنزل الله بها العذاب وأهلكها وأهلَها، لم تكن في الأردن، سواء أكان اسمها سدوم

أو غير ذلك، بل كانت تقع في مكانٍ قريب من أور الكلدانيين جنوب بلاد الرافدين أو وسطه، بحيث أن أهلها كانوا ينتمون إلى نفس القوم الذين ينحدر منهم النبيّان إبراهيم ولوط. وهذا يعني وقوع مَن كتب التوراة الحاضرة في خطأ فادح من الناحية الجغرافية، أو تعمّد التلاعب في المعلومات.

٥. أن النبيين إبراهيم ولوط لم يكونا من أور الكلدانيين، بل كانوا من منطقة قريبة من سدوم في الأردن، ثم هاجرا منها إلى أن استقرّ النبي لوط في سدوم، وجرى لها ما جرى. وهذا أيضاً يعني وقوع مَن كتب التوراة الحاضرة في خطأ فادح من الناحية الجغرافية، أو تعمّد التلاعب في المعلومات.

وبالنظر إلى مسار الهجرات وتكوين المجتمعات البشرية في الدول المعروفة حالياً باسم العراق وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان وجنوب تركيا قبل أكثر من أربعة آلاف سنة – أي قبل عهد النبيين إبراهيم ولوط ببضعة قرون – فإنني أستقرب الاحتمال الثالث، وأنقل هنا كلمات للدكتور خزعل الماجدي وهو يتحدّث عن الأموريين وهجراتهم وتوزّعهم الجغرافي في المنطقة، حيث ذكر أن الآموريين – ويسمّون بقليل من الدقة العموريون – Amorite/Amurru هم الأقوام السامية القديمة التي بدأت بالظهور على مسرح التاريخ في الألف الرابع قبل الميلاد، ويضع المؤرخون تاريخاً تقريبياً لبدء هجراتهم الأولى حوالي ٣٥٠٠ ق.م. أي قبل ٥٥٠٠ سنة من الآن تقريباً. وكان العراق مهداً لهم، وموطنهم الأصلي كان متاخماً للضفاف الغربية للفرات وفي رقعة انتشار صحراوية واسعة غربية تمتد حتى بلاد الشام. ومن هناك انتشروا غرباً ثم عادوا وزحفوا عسكرياً إلى الشرق واحتلوا بعض المدن السومرية.

ويضيف الدكتور الماجدي أن اسمهم يظهر للمرة الأولى في التاريخ في مدوّنات الملك الأكادي «شار كالي – شاري» حوالي ٢٢١٥ ق.م. بوصفهم البدو في منطقة الفرات الأوسط منذ الألفية الثالثة، ثم سيظهر انتشار الآموريين تدريجياً في جميع أنحاء الهلال الخصيب، حتى تظهر في نهاية المطاف سلالة في بابل ، ويُعلن حمورابي من بابل نفسَه بأنه ملك الآموريين.

ويشير نصٌّ من عهد «أمي – صادوقا» ملك بابل ١٦٤٦–١٦٢٦ ق.م. على أن كلمة «آموري» استعملت في مقابل كلمة «أكادي» لتشير إلى العناصر السامية الغربية التي عايشت سكان بلاد الرافدين من الأكاديين، ولتدل أيضاً على أن الآموريين كانوا في زيادة مستمرة بعد قرون من التسلل والغزو، وكيف أنهم ذابوا في المجتمع البابلي الذي أصبحوا فيه على قدم المساواة مع السكان الأصليين. ولا شك أن الآموريين الأوائل اندفعوا باتجاه السواحل الخليجية أوّلاً، ثم السواحل الشامية، وعُرفوا فيما بعد بـ «الكنعانيين=شعب شام» الذين يعني اسمهم سكان المنخفضات «كنع = كنخ = الأرض المنخفضة» وسكان السواحل المتوسطة الشامية الذين تشكّلوا ثقافياً ودينياً بطريقة جديدة مختلفة. وقد كانت سواحل الخليج العربي وشمال الجزيرة أماكن سكنٍ لهم، وخصوصاً في مناطق أم النار ودلمون. أما الآموريون الذي ظلوا رهن الصحراء وبعض السهول التي تقع شرق مواطن الكنعانيين فقد ظلوا يُعرفون بهذا الاسم وأحياناً بالعموريين.

أما الآموريون الذين قفزوا إلى مدن وادي الرافدين وأسسوا سلالة «إيسن» ثم سلالة بابل الأولى ثم الدولة البابلية القديمة، فقد صار من الطبيعي أن

يُطلق عليهم البابليون حسب المدينة العظيمة التي سكنوها وأصبحت عاصمة دولتهم الكبيرة.

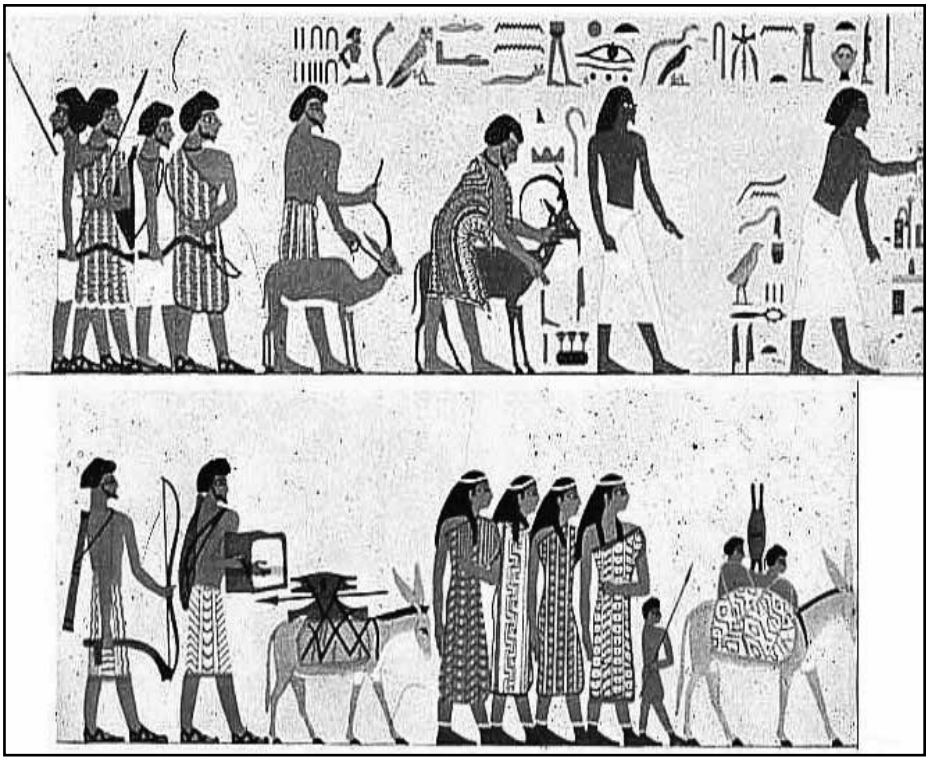
ويرى الدكتور الماجدي أن الآموريين الذين استمروا في العصر الحديدي في صحراء العراق والشام والجزيرة هم ما أصبحنا نعرفهم بـ «العرب». وهكذا نجد أن الآموريين هم بحق ما يُعرف باسم «الساميين الأوائل» وهم أصل أغلب الشعوب السامية، ومنهم العرب والعبريين[١].

وإذا أردنا أن نوظّف ما ذكره الدكتور الماجدي لنتحدث عن العصر الذي عاش فيه النبيّان إبراهيم ولوط - أي قبل أقل من أربعة آلاف سنة - فإننا سنجد أن بعض الآموريين قد استطاعوا تشكيل مجموعة دويلات في نهايات القرن الثالث قبل الميلاد وذلك في أوج حالةٍ من الضعف أصابت مملكة أور السومرية، وامتد عصر دويلات المدن الآمورية لما يقرب أربعة قرون حتى أصبحت فيما بعد تحت حكم مملكة آمورية واحدة شملت بلادَ وادي الرافدين والشام[٢].

وجاء تأسيس المملكة الآمورية بدءً على يد أحد الشيوخ الآموريين ويُعرف باسم «سومو-أبوم» والذي استغل النزاع بين سلالتي «إيسن» و«لارسا»، فانفصل بمدينة بابل وأعلن نفسه ملكاً عليها ١٨٣٠-١٨١٧ ق.م. مؤسساً بذلك سلالة بابل الأولى الآمورية الطابع والتي كانت نواة لتأسيس دولة بابل الأولى القديمة ١٨٣٠-١٥٨٠ ق.م. وبذلك أسس الآموريون القاعدة الحضارية

١. الماجدي: الحضارات السامية المبكرة، ص ٢٤٩-٢٥١.

٢. الماجدي: الحضارات السامية المبكرة، ص ٢٥٦-٢٥٧.



لوحة فرعونية تمثّل دخول بعض الآموريين إلى مصر وتعود تقريبا إلى عام ١٩٠٠ ق.م. وقد عُثر عليها في قبر أمنمحات الأول.

الأولى لبابل التي ذاع صيتها في العالم القديم بأكمله. وعلى عهد «سومو-أبوم» كانت مدينة أور، التي تذكر التوراة أنها مدينة النبيين إبراهيم ولوط، تابعةً لبابل، فشيّد فيها هذا الملك بعض المعابد. ولما جاء مِن بعده الملك «سومولا-إيلو» وحكم من سنة ١٨١٧-١٧٨٠ق.م. وسّع المملكة وجعلها قوية وأحدث انقلاباً في الديانة الآمورية، إذ ارتفعت مكانة الإله مردوخ وأصبح بديلاً عن الإله آمورو، وارتقت الإلهة عشتار مكانة عالية.

وتوالى الملوك الآموريون البابليون حتى جاء عهد سادسهم، الملك حورابي

والذي امتدت فترة حكمه من ١٧٢٨ إلى ١٦٨٦ ق.م. وغدا أعظم ملك بابلي آموري، حيث استطاع أن يؤسس إمبراطورية بابلية وحّدت العراق القديم، وضمّت أطرافاً من عيلام «=إيلام» والشام. وفي عصره أخذ الآلهة «أنو» و«إنليل» و«شمش» أدواراً مهمة في المعتقد البابلي[١].

تعليق: هذا العصر -وفي ظل حكم البابليين الآموريين على وجه التحديد- هو العصر الذي عاش في جانب منه النبيّان إبراهيم ولوط، وفي موازاة مملكة بابل الآمورية قامت ممالك آمورية أخرى في الأردن القديم.

وقد ذكر الدكتور الماجدي أنه بعد دراسة وتمحيص الأقوام التي سكنت بلاد الأردن القديم في العصرين البرونزي المتوسط والمتأخر والحديدي المبكر والمتوسط، ظهر لنا بالكثير من الوضوح والجلاء أن هذه الأقوام ومدنها ما هي إلا أقوام آمورية، فلا نستطيع نسبتها إلى الآراميين أو الكنعانيين أو العرب الشماليين، بسبب عدم توافق عقائدها ولغتها وكتابتها مع هذه الأقوام، لذلك لا نجد نسباً أجدر من النسب الآموري لها. وهذه الممالك الآمورية في الأردن القديم كالتالي:

١. الممالك الآمورية في العصر البرونزي المتوسط ١٩٥٠-١٥٥٠ ق.م.

٢. الممالك الآمورية في العصر البرونزي المتأخر، أي القرن ١٢ ق.م.

٣. الممالك الآمورية في العصر الحديدي المبكر والمتوسط ١٢٠٠-٥٥٠ ق.م[٢].

١. الماجدي: الحضارات السامية المبكرة، ص ٣٠١-٣٠٢.

٢. الماجدي: الحضارات السامية المبكرة، ص ٣٣٩-٣٤٠.

تعليق: من الواضح أن المملكة الأولى منها تتزامن مع عصر النبيين إبراهيم ولوط، ولذا نستطيع فرض انتقالهما من المملكة البابلية الآمورية في جنوب بلاد الرافدين إلى إحدى الممالك الآمورية في الأردن، فهو أمرٌ معقول وقابل للتصوّر والتصديق.

وباعتقادي أن هذه الصورة التي قدّمها الدكتور الماجدي في كتابه يمكنها أن تفسّر لنا كيف يمكن للنبي لوط أن يهاجر من دياره، أي مدينة أور بحسب التوراة والواقعة في جنوب بلاد الرافدين ليستقر في سدوم في الأردن، ويبقى مع ذلك يخاطب أهلها على أنهم قومه، ويتحدث القرآن عنه بصفته أخاً لهم.

• إنزال العذاب:

وتكمل القصة التوراتية تفاصيل ما حدث للنبي لوط بعد إصرار القوم على أن يُخرج إليهم ضيفيه ولجوئهم إلى استعمال القوة: (وَتَقَدَّمُوا لِيُكَسِّرُوا الْبَابَ، فَمَدَّ الرَّجُلاَنِ أَيْدِيَهُمَا وَأَدْخَلاَ لُوطًا إِلَيْهِمَا إِلَى الْبَيْتِ وَأَغْلَقَا الْبَابَ. وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ عَلَى بَابِ الْبَيْتِ فَضَرَبَاهُمْ بِالْعَمَى، مِنَ الصَّغِيرِ إِلَى الْكَبِيرِ، فَعَجِزُوا عَنْ أَنْ يَجِدُوا الْبَابَ).

وهذا المقطع الأخير يتوافق - بحسب ظاهر العبارة - مع ما جاء في الوصف القرآني حيث قال «تعالى»: ﴿**وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ**﴾[١].

(وَقَالَ الرَّجُلاَنِ) أي الملَكان (لِلُوطٍ: «مَنْ لَكَ أَيْضًا ههُنَا؟ أَصْهَارَكَ

١. سورة القمر: ٣٧.

وَبَنِيكَ وَبَنَاتِكَ وَكُلَّ مَنْ لَكَ فِي الْمَدِينَةِ، أَخْرِجْ مِنَ الْمَكَانِ، لأَنَّنَا مُهْلِكَانِ هذَا الْمَكَانَ، إِذْ قَدْ عَظُمَ صُرَاخُهُمْ أَمَامَ الرَّبِّ، فَأَرْسَلَنَا الرَّبُّ لِنُهْلِكَهُ». فَخَرَجَ لُوطٌ وَكَلَّمَ أَصْهَارَهُ الآخِذِينَ بَنَاتِهِ وَقَالَ: «قُومُوا اخْرُجُوا مِنْ هذَا الْمَكَانِ، لأَنَّ الرَّبَّ مُهْلِكٌ الْمَدِينَةَ». فَكَانَ كَمَازِحٍ فِي أَعْيُنِ أَصْهَارِهِ).

إلى هنا لا نجد ذكراً لامرأة لوط، إذا أنها لن تكون من الناجين لموقفها المشين في دعم قوم النبي لوط ضده، وهذا الوصف متوافق مع ما صرّحت به الآيات القرآنية:

○ **﴿قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾**[١].

○ **﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ، إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾**[٢].

○ **﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾**[٣].

وغيرها من الآيات القرآنية الشريفة، إلا أن النص التوراتي يعود ليذكر امرأة لوط ضمن المسموح لهم بالنجاة: (ولكن وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ». وَلَمَّا تَوَانَى، أَمْسَكَ الرَّجُلاَنِ بِيَدِهِ وَبِيَدِ امْرَأَتِهِ وَبِيَدِ ابْنَتَيْهِ، لِشَفَقَةِ

١. سورة هود: ٨١.

٢. سورة الحجر: ٥٧-٦٠.

٣. سورة الشعراء: ١٧٠-١٧١.

الرَّبِّ عَلَيْه، وَأَخْرَجَاهُ وَوَضَعَاهُ خَارِجَ الْمَدِينَة. وَكَانَ لَمَّا أَخْرَجَاهُمْ إِلَى خَارِجٍ أَنَّهُ قَالَ: «اهْرُبْ لِحَيَاتِكَ. لاَ تَنْظُرْ إِلَى وَرَائِكَ، وَلاَ تَقِفْ فِي كُلِّ الدَّائِرَةِ. اهْرُبْ إِلَى الْجَبَلِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ»).

ثم يتحدث النص التوراتي عن رغبة النبي لوط في اللجوء إلى مدينة صوغر بدلاً من الجبل، فسمح له الله بذلك، ليعود النص فيتحدّث عن مخالفة امرأة لوط للنهي الإلهي عن الالتفات إلى الوراء والنظر فيما سيجري على القرية في تلك اللحظة، وتحوّلها - بسبب هذه المخالفة - إلى عمود من ملح!

(وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ. وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتِ الأَرْضِ. وَنَظَرَتِ امْرَأَتُهُ مِنْ وَرَائِهِ فَصَارَتْ عَمُودَ مِلْحٍ).

وقد أشير في القرآن الكريم إلى مسألة النهي عن الالتفات أثناء الهروب من القرية: ﴿**وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ**﴾ ولكن ليس في نفس سياق القصة التوراتية، حيث أن استثناء امرأة لوط من النجاة لم يكن بسبب هذه المخالفة وفي لحظات الهروب، بل كان سابقاً لذلك ولأنها كانت مناصرةً لقوم النبي لوط، وقد أخبر الملائكة النبي إبراهيم من قبل أن العذاب سيشملها: ﴿**قَالَ**﴾ والمتحدث هو النبي إبراهيم ﴿**فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ، إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ**﴾[1].

١. سورة الحجر: ٥٧-٦٠.

وتحدّث القرآن الكريم عن امرأة لوط في محل آخر واصفاً إياها بالكفر والخيانة لزوجها دون توضيح لطبيعة هذه الخيانة وحدود الكفر وطبيعته، وذلك بلحاظ أن استعمال القرآن لكلمة الكفر لا يعني بالضرورة الشرك بالله أو عدم الإيمان به، بل قد يشمل التمرّد على أوامره، أو الكفر بالنِّعم، أو الاعتقاد ببعض ما لا يصحّ نسبته إلى الله: ﴿**ضَرَبَ اللّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[١].

نقل الطبرسي في تفسيره عن ابن عباس أن امرأة لوط كانت تدل على أضيافه، فكان ذلك خيانتهما، وما بغت امرأة نبي قط، أي ما مارست البغاء، وإنما كانت خيانتهما في الدين. ونقل عن الضحاك أن خيانتها كانت بقيامها بالنميمة، إذا أفشت إلى المشركين ما أوحى الله لنبيه[٢].

ونقل الطبري آراء مختلفة حول حقيقة هذه الخيانة، ونقل عن بعض المرويات ما يدل على أن خيانتها تمثّلت في أن لوطاً كان يُسِرّ الضيف، أي يخفيه، بينما كانت هي تَدُلّ عليه وتُخبر الناس بدخولهم في ضيافة زوجها. كما نقل مرويات أخرى تتراوح بين الخيانة في الدين وإفشاء سر النبي لوط فيما كان يوحى إليه[٣].

وقد اعتبر العلامة السيد محمد حسين فضل الله في تفسيره أن خيانتهما

---

١. سورة التحريم: ١٠.

٢. الطبرسي: مجمع البيان، ج ١٠، ص٦٣.

٣. الطبري: جامع البيان، ج ١٢، ص ١٦٠.

كانت في موقفهما المضاد للرسالة، حيث اتبعتا قومهما في الكفر، ولم تنسجما مع طبيعة موقعهما الزوجي الذي يفرض عليهما أن تكونا من أوائل المؤمنين بالرسالة، لأنهما تعرفان من استقامة زوجيهما وأمانتهما وصدقهما وجدّيتهما ما لا يعرفه الآخرون، فلا يبقى لهما أيّ عذرٍ في الانحراف عن خط الرسالة والرسول، ولكن المشكلة أنهما كانتا غير جادّتين في مسألة الانتماء الإيماني والالتزام العملي، فلم تنظرا إلى المسألة نظرةً مسؤولةً، بل عاشتا الجو العصبي الذي يربطهما بتقاليد قومهما، فكانتا تفشيان أسرار النبيين في ما قد يسيء إلى مصلحة الرسالة والرسول، وكانتا تبتعدان في سلوكهما عن منطق القيم الروحية الإيمانية لتبقيا مع منطق الوثنية، ما يجعل البيت الزوجي النبوي يتحرك في دائرة الجاهلية إلى جانب دائرة الإيمان، ولعل ضلال ابن نوح كان خاضعاً لتأثير والدته، ويقال: إن امرأة لوط كانت تُخبر قومها بالضيوف الذين يزورون زوجها، ليقوموا بالاعتداء عليهم، فكانت خيانتهما للموقف وللموقع[١].

والقرآن الكريم والتوراة يلتقيان في تفاصيل قصة النبي لوط في أن النجاة لم تُكتَب إلا لبيت واحد، وهو بيت النبي لوط فقط: ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[٢].

• وصف العذاب المدمِّر:

عندما نستقريء الوصف القرآني للعذاب النازل بقوم النبي لوط، سنجده

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج٢٢، ص٣٢٨-٣٢٩.

٢. سورة الذاريات: ٣٥-٣٦.

يتمثّل في التالي:

○ ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ، مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[١].

○ ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ، فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[٢].

○ ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾[٣].

○ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾[٤].

○ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ، إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ، نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ، وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ، وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ، وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ، فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾[٥].

---

١. سورة هود: ٨١-٨٣.

٢. سورة الحجر: ٧٣-٧٤.

٣. سورة العنكبوت: ٣٤.

٤. سورة الشعراء: ٥٨.

٥. سورة القمر:٣٣-٣٩.

وخلاصة ما سبق أن العذاب الذي نزل عليهم تمثّل في عدّة أمور:

١. كان خروج لوط ومن معه من القرية في وقت السَّحَر، أي الثلث الأخير من الليل ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ**﴾ ﴿**قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ**﴾ بينما يقول النص التوراتي أن خروجهم كان فجراً (وَلَمَّا طَلَعَ الْفَجْرُ كَانَ الْمَلاَكَانِ يُعَجِّلاَنِ لُوطًا قَائِلَيْنِ: «قُمْ خُذِ امْرَأَتَكَ وَابْنَتَيْكَ الْمَوْجُودَتَيْنِ لِئَلاَّ تَهْلِكَ بِإِثْمِ الْمَدِينَةِ»)[١].

٢. فاجأهم العذاب أوّل الصباح، مع شروق الشمس ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**﴾ وهذا يلتقي مع النص التوراتي حيث جاء فيه: (وَإِذْ أَشْرَقَتِ الشَّمْسُ عَلَى الأَرْضِ دَخَلَ لُوطٌ إِلَى صُوغَرَ، فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ)[٢].

٣. نزول الحجارة النارية من السماء كما ينزل ماء المطر ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ**﴾ ﴿**وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاء مَطَرُ الْمُنذَرِينَ**﴾ ﴿**إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا**﴾ عذاباً ينزل بشكل متتابع كما تنزل حبات المطر ﴿**مِّنَ السَّمَاء**﴾ والمنضود هو الموضوع بعضه على بعض. والمعنى هنا أنها متتابعة متتالية في النزول ليس بينها فترة. وهذا يلتقي مع النص التوراتي حيث جاء فيه: (فَأَمْطَرَ الرَّبُّ عَلَى سَدُومَ وَعَمُورَةَ كِبْرِيتًا وَنَارًا مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ مِنَ السَّمَاءِ)[٣].

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ١٥.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ٢٣-٢٤.

٣. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ٢٤.

٤. هذه الحجارة كانت ذات علامات مخصوصة تجعلها مميَّزة عن سائر أنواع الحجارة ﴿**مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ**﴾ قال الآلوسي في تفسيره: أي عليها سيما - أي علامة - يُعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض[١]. وهذه الخصوصية لم تُذكر في التوراة.

٥. رافق هذه الحجارة صيحة وصوت عظيم ﴿**فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ**﴾ وهذه الخصوصية لم تُذكر في التوراة.

٦. لم تتحدّث الآيات القرآنية عن دخان شديد متصاعد من الأرض إلى السماء، لربما نتيجة الحرائق التي وقعت على إثر نزول الحجارة النارية أو الحمم البركانية - على فرض أن الكارثة كانت انفجاراً بركانياً - أو من فوّهة البركان نفسه، ولكن نجد هذا الوصف حاضراً في النص التوراتي: (وَتَطَلَّعَ نَحْوَ سَدُومَ وَعَمُورَةَ، وَنَحْوَ كُلِّ أَرْضِ الدَّائِرَةِ، وَنَظَرَ وَإِذَا دُخَانُ الأَرْضِ يَصْعَدُ كَدُخَانِ الأَتُونِ)[٢].

٧. ذكر القرآن الكريم أن من آثار هذا التدمير ﴿**جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا**﴾ واعتبر الطبري أن المعنى هو جعل عالي أرضهم سافلَها، بينما ذكر الطبرسي أن المراد قلب القرية أسفلها أعلاها. وذهب ابن عاشور إلى القول بأن القرية انقلبت عليهم انقلاب خسفٍ حتى صار عالي البيوت سافلاً، أي وسافلها عالياً، وذلك من انقلاب الأرض بهم. وهذا يشابه ما جاء في النص التوراتي: (وَقَلَبَ تِلْكَ الْمُدُنَ، وَكُلَّ الدَّائِرَةِ، وَجَمِيعَ سُكَّانِ الْمُدُنِ، وَنَبَاتِ الأَرْضِ.....

١. الآلوسي: روح المعاني، ج٤، ص ٣٠٩.

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ٢٨.

وَأَرْسَلَ لُوطًا مِنْ وَسَطِ الانْقِلاَبِ. حِينَ قَلَبَ الْمُدُنَ الَّتِي سَكَنَ فِيهَا لُوطٌ)[١]. ويمكن تفسير ذلك بصورة مجازية، وبمعنى أنه تم تدميرها بشدّة.

كانت هذه العلائم التي وردت في القرآن الكريم والكتاب المقدّس عرضتها بشكل مقارن... فماذا تقول الاكتشافات الأثرية الحديثة عن هذه الكارثة؟ وأين وقعت على وجه التحديد؟ بما قد يساعد على تقريب احتمالات تحديد الموقع الذي كان يستقر فيه قوم النبي لوط والذي نزل عليهم العذاب فيه.

• اكتشاف الموقع ومصدر الكارثة:

كان التصوّر السائد إلى زمن قريب هو أن هذه العلامات تدلّ على وقوع بركان - على الأغلب - والذي قضى على الحياة في المنطقة وغمرها بحممه ودخانه وغازاته الكبريتية السامة وبصخوره المنصهرة.

إلا أن بعثة استكشافية أمريكية بدأت في عام ٢٠١٥ بدراسة ميدانية لاكتشاف ديار قوم النبي لوط، ومصدر الكارثة المفاجئة التي حلّت بهم وقضت عليهم وعلى المدن والقرى المجاورة لهم. وفي سنة ٢٠١٨ قدّمت البعثة تقريراً علمياً عن احتمال انفجار نيزك في الجو - وعلى ارتفاع منخفض من الأرض - فوق منطقة من الأردن مما سبّب وقوع هذه الكارثة.

وبهذا الخصوص ذكر عالم الآثار المشارك في هذا البحث الميداني «فيليب سيلفيا» أن التعرّف على الكربون المشعّ والمعادن المكتشفة التي تبلورت فوراً في درجات حرارة عالية تشير إلى أن انفجاراً هائلاً تسبّب فيه

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١٩، ٢٥-٢٨.



نيزك انفجر في الجو دمّر الحضارة فوراً في سهل دائري بعرض ٢٥ كيلومتراً. ومن المحتمل أن طبقة كثيفة من أملاح البحر الميت اندفعت لتغطّي الأراضي القريبة منها، وأن الناس هجروها لمدة ٦٠٠-٧٠٠ سنة. وتشير الحفريات في خمسة مواقع كبيرة في منطقة الأغوار الوسطى إلى أن جميع هذه المواقع كانت مسكونة بشكل مستمر لمدة ٢٥٠٠ عام على الأقل حتى الانهيار الجماعي المفاجئ في نهاية العصر البرونزي. وقد حدّدت المسوحات الأرضية ١٢٠ مستوطنة إضافية أصغر في المنطقة يشتبه الباحثون في أنها تعرضت أيضاً للحرارة والرياح الشديدة التي سببت الانهيار. وقال سيلفيا أن ما يتراوح بين ٤٠ إلى ٦٥ ألف شخص كانوا يسكنون منطقة الأغوار الوسطى عندما ضربت الكارثة الكونية، وأن الكربون المشع في مدينة «تل الحمام» يشير إلى أن الجدران المبنية من الطوب الطيني لجميع المباني تقريباً اختفت فجأة منذ حوالي ٣٧٠٠ عام، تاركة فقط الأسس الحجرية. والأكثر من ذلك، فإن

الطبقات الخارجية للعديد من قطع الفخار من نفس الفترة الزمنية تظهر علامات على ذوبان الزجاج. وقال سيلفيا إن بلورات الزركون في تلك الأغلفة الزجاجية تشكلت في غضون ثانية واحدة في درجات حرارة مرتفعة للغاية، ربما تكون ساخنة مثل سطح الشمس. الرياح القوية تسببت في ظهور حبيبات معدنية كروية صغيرة سقطت كالمطر على تل الحمام. وقد تعرّف فريق البحث على هذه القطع الصغيرة من الصخور الموجودة على أجزاء الفخار في الموقع[١].

الوصف السابق يمكنه أن ينطبق فعلاً على طبيعة العذاب وصفاته التي تحدّثت عنها الآيات القرآنية – وحتى التوراة – من قبيل نزول حجارة نارية من السماء وتحمل علامات خاصة يُعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض، والصيحة الناشئة من انفجار النيزك، وانقلاب القرية رأساً على عقب، والذي قد يُفسّر بالتدمير الشديد أو بوقوع خسف في الأرض نتيجة نزول الحجارة النيزكية وارتطامها باليابسة، فانقلبت البيوت والأحياء رأساً على عقب.

هذه الدراسة الميدانية والنتائج التي توصّلت إليها البعثة الأمريكية إن كانت بالفعل تخصّ ديار قوم النبي لوط، فمن دون شك ستُعتبر فتحاً علمياً يُساند النصوص الدينية في القرآن الكريم والتوراة حول قصة قوم لوط النبي، وبما يردّ على كثير من المشككين الذي يعتبرون أن هذه القصص الدينية ليست سوى أساطير من وحي الخيال، تناقلتها المجتمعات البشرية القديمة، وأريد من سردها تهذيب المجتمعات.

1. www.sciencenews.org/article/exploding-meteor-may-have-wiped-out-ancient-dead-sea-communities

٤

هامان

٤

هامان

جاء ذِكر «هامان» في القرآن ٦ مرات، في ثلاث سور قرآنية، هي القصص والعنكبوت وغافر، ومقروناً في كل مرّة بذِكر فرعون، وفي مرتين من المرات الست اقترن ذِكر قارون بذِكره. وذلك وفق البيان التالي:

- **﴿وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾**[١].

- **﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾**[٢].

- **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾**[٣].

- **﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ**

١. سورة القصص: ٦.

٢. سورة القصص: ٧-٨.

٣. سورة القصص: ٣٨.

فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ، وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ، فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(١).

○ **﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾**(٢).

○ **﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾**(٣).

ولكن عندما نعود إلى الكتاب المقدس فإننا لن نجد حديثاً عن شخصية في البلاط الفرعوني تحمل هذا الاسم ضمن سيرة النبي موسى «عليه السلام» أو في العهد القريب منه، بل سنجد شخصية هامان حاضرة في قصة مدوَّنة في سِفر «إستير»(٤)، والتي تعود أحداثها إلى ما بعد عهد النبي موسى بقرابة تسعة قرون، وفي منطقة جغرافية بعيدة تماماً عن مصر، وتفاصيل وأحداث لا علاقة لها بموسى وفرعون!

هذه المقارنة بين القرآن الكريم والكتاب المقدس دفعت ببعض

١. العنكبوت:٣٨-٤٠.

٢. غافر:٢٣-٢٤.

٣. غافر:٣٦-٣٧.

٤. سنتعرض للقصة لاحقاً.

المستشرقين إلى القول بأن النبي «صلى الله عليه وآله» قد وقع في خطأ تاريخي فاحش -حين صدرت عنه هذه الآيات القرآنية بحسب زعمهم- نتيجة خلطه بين أسماء الشخصيات والأحداث والأزمنة، ولربما بسبب سوء الحفظ عن ظهر غيب لما تلقّاه عن بعض الأحبار والرهبان خلال فترة شبابه، واسترجعه خلال فترة دعوته للإيمان بنبوّته.

الدكتور «آدم سيلفرشتاين» Adam Silverstein في بحث صدر عام ٢٠٠٨ تحت عنوان انتقال هامان من الجاهلية إلى الإسلام Haman's Transition from The Jahiliyya to Islam وهو زميل كلية «كوينز» بنيويورك ومحاضر أبحاث جامعية في كلية الدراسات الشرقية بجامعة أكسفورد، والمنشور لصالح كلية العلوم الإنسانية في الجامعة العبرية في القدس، يذكر[١] أن الأب «لودوفيكو ماراشي» Ludovico Marracci «ت١٧٠٠م» هو أول باحث يقوم بالتعرض إلى هذه المسألة والمقارنة بين هامان القرآن وهامان الكتاب المقدس. والأب «ماراشي» راهب إيطالي من روما، وكاهن الاعتراف الخاص بالبابا «إنوسنت» الحادي عشر، والمختص في مجال القرآن في عصور ما قبل العصر الحديث. ونَقل «سيلفرشتاين» عنه نصاً يتهم فيه النبي «صلى الله عليه وآله» أيضاً باقتباس قصة برج بابل من التوراة وإقحامها في قصة موسى وفرعون حيث قال «تعالى»: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ**﴾[٢].

1. Silverstein: Haman's Transition from The Jahiliyya to Islam, p287.

٢. سورة غافر: ٣٦.

إلا أنه يبدو أن القاضي «بيدرو دي لا كافاليريا» Pedro de la Cavalleria قد سبق ماراشي بقرابة ٢٥٠ سنة في طرح هذه الإشكالية في عمل أنجزه عام ١٤٥٠م وبعنوان «حماسة المسيح ضد اليهود والمسلمين والكفار» Christ's Zeal Against Jews, Saracens, and Infidels ونُشر في البندقية في عام ١٥٩٢، وتضمّن في البين كلاماً مسيئاً للنبي «صلى الله عليه وآله»[١].

ومثل «ماراشي» و«دي لا كافاليريا» قام المستشرق الإنجليزي «جورج سيل» George Sale «ت ١٧٣٦م»، الذي ترجم معاني القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية سنة ١٧٣٤ م، ومؤلف The General Dictionary بإثارة هذه الإشكالية معتبراً أنه من المستحيل إقناع المسلمين بأن محمداً قد ارتكب خطأ في ذلك بحسب زعمه.

وأشار شيخ المستشرقين الألمان «ثيودور نولدكه» Theodor Nöldeke «ت١٩٣٠م» إلى أن أكثر اليهود جهلاً لن ينسب وزير الملك الفارسي هامان ليكون وزيراً لفرعون، أما الباحث الكلداني «هرمز منغنا» الشهير بـ «ألفونس منغنا» Alphonse Mingana «ت ١٩٣٧م»، وهو يستعرض «المفارقات» القرآنية -بحسب زعمه- في قصة بني إسرائيل فقد قال أنّ من الطبيعي أن يُصاب قاريء القرآن بالدهشة حين يجد فيه أن هامان كان وزيراً لفرعون وليس أحشويروش «= أجزركسيس الكبير = زركسيس = Assueru».

واعتبر المستشرق البلجيكي «هنري لامنس» Henri Lammens «ت١٩٣٧م» والمتخصص في التاريخ الإسلامي أن هذه المقولة في القرآن

1. www.islamic-awareness.org/quran/contrad/external/haman

بمثابة –مفارقة تاريخية صارخة– وأنها جاءت نتيجة «للخلط بين هامان وزير الملك أحشويروش، وبين وزير فرعون موسى»[١].

وعلى خطاهم سار الألماني «جوزيف هوروفيتز» Josef Horovitz «ت١٩٣١م»، والأمريكي «تشارلز كتلر توري» Charles Cutler Torrey «ت١٩٥٦م»، و«آرثر جيفري» Arthur Jeffery «ت ١٩٥٩م».

كما أن موسوعة الإسلام The Encyclopaedia Of Islam وتحت عنوان «هامان» قالت: (اسم شخص يربطه القرآن بفرعون، نتيجة خلط –لم يمكن تفسيره إلى الآن– مع شخصية وزير الملك أحشويروش في سِفر إستير من الكتاب المقدس)[٢]. وتعود الموسوعة لتكرر ذات الادعاء تحت عنوان «فرعون»[٣].

وبالعودة إلى بحث الدكتور آدم سيلفرشتاين نجده يشير إلى الخلط الذي وقع فيه المؤرخون المسلمون نتيجة «المغالطة» التي وقع فيها القرآن بالخلط بين هامان وزير الملك أحشويروش وبين وزير فرعون موسى، مستشهداً بكلام المؤرخ المسلم المطهر بن طاهر المقدسي «ت ٣٥٥ هـ» حيث قال: (وسمعت القصّاص يزعمون أن فرعون كان من أهل بلخ) مدينة صغيرة في أفغانستان (وهامان من سرخس) مدينة تاريخية في تركمنستان وتقابلها في إيران مدينة تحمل ذات الاسم (وأنهما أوّل مَن حمل بزر البطيخ إلى مصر،

1. www.islamic-awareness.org/quran/contrad/external/haman

2. Encyclopaedia Of Islām: A Dictionary Of The Geography, Ethnography And Biography Of The Muhammadan Peoples, 1936, Volume III, E. J. Brill: Leyden & Luzac & Co.: London, pp. 244-245.

3. p. 917.

فزرعا وتموّلا واستوليا على المقابر، لا يدَعان ميتاً يُقبر إلا بجعلٍ) أي مقابل ثمن (ثمّ ملك فرعون واستوزر هامان، والله أعلم)[١].

علماً بأن المقدسي عقّب كلامه هذا مباشرة بقوله: (وقد قلت لك في غير موضع من هذا الكتاب أن ما من هذه الأقاصيص والأخبار فاستمِعها وأعرِضْ عنها، ولا تشتغل بالاعتلال بها) بحث عللها ومحاولة تفسيرها (وطلب المخرج لمعانيها، لأنها لا توجب عِلماً ولا عملاً)[٢]، ولكن سيلفرشتاين لم يُشر إلى ذلك.

ثم نقل سيلفرشتاين -وبشكل مختصر- قصة أخرى عن كتاب قصص الأنبياء لمحمد بن عبدالله الكسائي «ت٣٥٠هـ» وفيها أن فرعون موسى -قبل أن يصبح فرعوناً- قامر في بعض الأيام، فخسر كل شيء، بما في ذلك قميصه الذي يرتديه، وبقي في خَلَقٍ لا يستره؛ فاستحيا من الناس أن يروه كذلك؛ فهرب حتى صار إلى قرية من قرى مصر؛ وتتوالى مغامراته إلى أن وقع في قلبه أن يجلس على باب مقابر مصر ويطلب أرباب الجنائز بشيء، ويُظهِر أنه يأمر بذلك بإذنِ الملك؛ ففعل ذلك مدة حتى اجتمع له مال عظيم؛ واتّخذ له أعواناً وحَفدةً يُعينونه على ذلك، فماتت ابنةُ الملك؛ فحُملت إلى المقبرة، فتعلّق بها أعوان فرعون على العادة لأخذ الإتاوة؛ فاتّصل الخبر بالملك؛ فأمر بإحضاره وأراد قتلَه؛ فقصّ عليه قصّتَه، وفدى نفسه بما جمعه من المال؛ فعظُم عند الملك، وأقرّه على عمله؛ ثم ما لبث أن استولى على الحكم، وأتاه إبليس وسجد بين يديه، وسمّاه إلهاً ورباً، ثم سجد له هامان

١. المقدسي: البدء والتاريخ ج٣، ص٨١-٨٢.

٢. المقدسي: البدء والتاريخ ج٣، ص ٨٢.

والوزراء والملوك والأعوان وغيرهم؛ وبعث إلى أسباط بني إسرائيل، فدعاهم إلى الطاعة والسجود له؛ فسجدوا وقصدوا بالسجود لله «تعالى». وكان فرعون يعبد الثور، والقِبط يعبدون الأصنام، وبنو إسرائيل يعبدون الله؛ فبلغه ذلك، فأحضر عبَّادَهم وقال: قد بلغني أنكم مطيعون لي في الظاهر، مخالفون لي في الباطن، فاسجدوا لي. فأبوا ذلك، وكان فيهم جماعة من أولاد يوسف ويهوذا، فقتلهم، ثم قتل خلقاً كثيراً، وتبعه الباقون وأسرّوا الإيمان؛ ثم إن فرعون استعبد الناس ووضع عليهم الخراج الكثير، وشقَّ عليهم في الأعمال[١].

واعتبر سيلفرشتاين أن بعض تفاصيل هذه القصة دليل على وقوع الخلط عند المؤرخين المسلمين بين قصة إستير وهامان -وهي القصة التي سنذكرها لاحقاً في المقدمة الأولى- وبين قصة فرعون موسى وهامان، وأن سبب هذا الخلط هو القرآن نفسه. ويأتي هذا من سيلفرشتاين على الرغم من أن الكسائي إنما ينقل هذه القصة عن وهب بن منبّه اليهودي، فمن الذي دخل على الخط ليُحدث مثل هذا الخلط لدى المؤرّخين المسلمين؟

ومن أجل استيضاح هذه المسألة وردّ هذه الشبهة عن القرآن الكريم، نحن بحاجة إلى استعراض بعض المقدمات التمهيدية، ومِن ثَم الانتقال إلى النتيجة، علماً بأن وقوع بعض المؤرخين المسلمين كالمقدسي والكسائي، بل وبعض المفسّرين، في أخطاء تاريخية فادحة لا يحمل القرآن وزرها، لأنهم في واقع الحال وقعوا -أحياناً- في حبائل القصاصين ومُسلمة أهل الكتاب

١. النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣، ص٣٣٤-٣٣٥. نقلاً عن كتاب المبتدأ في قصص الأنبياء «عليهم الصلاة والسلام».

ممن تعمّدوا تزييف الحقائق أو وضع الأساطير أو خلط المعلومات، وهو ما أكدتُ عليه في هذا الكتاب أكثر من مرة، كما أن بعض المفسرين والمؤرخين -على الرغم من عدم اطلاعهم المباشر على كتب اليهود والنصارى وجهلهم باللغة العبرية والآرامية- كانوا حذرين أحياناً ومنتبهين إلى ما قام به رواة الإسرائيليات والمسيحيات والقصص الأسطورية، ويشيرون من وقت لآخر إلى هذه النقطة ويحذّرون من الاغترار بمروياتهم، ويذكرون أنهم إنما يأتون بها للمعرفة والعرض لا للتصديق بمضامينها.

- **سِفر إستير:**

يذكر قاموس الكتاب المقدس أن إستير -وليس هذا اسمها الأصلي بل اسمها «هدَّسة» أي شجرة الآس- كانت فتاة إسرائيلية جميلة، وهي ابنة أبيجائل من ذرية -سبط- بنيامين ابن النبي يعقوب. تيتّمت في صغرها، فأحضرها ابن عمِّها مردخاي -الذي تبناها- إلى شوشن «= سوسة = سوس» التي كانت عاصمة المملكة الفارسية في القرن الخامس قبل الميلاد.

وأما اسمها الآخر «إستير» فقد اختُلف في أصله، بين أن يكون من أصل هندي قديم، ومعناه «سيدة صغيرة»، ثم انتقل إلى الفارسية وأصبح معناه كوكب أو نجـم، وبين أن يرجع إلى أصل أكادي -أي من العراق القديم- وهي كلمة «أشتار = عشتار» ويقابلها في العبرية «عشتاروت = عشتاروث»، وبالإنجليزية ستار Star. [1]

1. st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/01_A/A_242.html

وفي كتاب التفسير التطبيقي للكتاب المقدس نجد أن قصة إستير تبدأ في عام ٤٨٣ ق. م. بعد مرور مائة وثلاث سنوات على سبي نبوخذ نصر لليهود، وبعد مرور خمس وخمسين سنة على قيادة «زربابل» لأول مجموعة من المسبيين للعودة إلى أورشليم «= القدس»[١].

عاشت إستير في مملكة فارس، حيث كان والدها من بين المسبيين الذين لم يرغبوا في العودة إلى ديارهم التي سُبوا منها، رغم أن الملك الفارسي كورش كان قد أصدر مرسوماً يسمح لهم بذلك. لقد كان المسبيون من اليهود يستمتعون بقسط وافر من الحرية في الدولة الفارسية، وبقي فيها الكثيرون منهم، لأنهم كانوا قد أسسوا أعمالاً ناجحة، أو لأنهم خافوا من مخاطر رحلة العودة إلى الوطن.

وتعاقب الملوك على عرش فارس بعد كورش، وكان أحشويروش خامس ملوك فارس «٤٨٦-٤٦٥ ق.م» وقصره الشتوي في مدينة شوشن من إقليم خوزستان حالياً. وقد أقام الملك أحشويروش وليمة لكبار الشخصيات، وإذ لعبت الخمر برأسه، أمر أن تُحضَر زوجته الملكة «وشتي» كي يرى الرجال جمالها الرائع. وحيث رفضت الملكة ذلك، نبذها الملك وأمر بأن يبحثوا له مِن بين فتيات مملكته مَن يمكن لها أن تكون الملكة الجديدة، فتمّ اختيار إستير من بين كل الفتيات، ونُصّبت ملكةً في عام ٤٧٩ ق.م. دون أن يعلم الملك أنها يهودية من بني إسرائيل، وصار ابن عمها مردخاي حاجباً له.

هنا يبرز اسم هامان في القصة، وهو هامان بن هَمَداثا الأَجَاجِي، والذي

١. مجموعة محررين: التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، ص١٠٥٣.

استطاع أن يكسب ثقة الملك بشكل كبير، دون أن توضّح القصة سبب ذلك: (وَبَعْدَ ذَلِكَ رَفَّعَ الْمَلِكُ أَحَشْوِيرُوشُ مِنْ مَقَامٍ وَعَظَّمَهُ، وَجَعَلَ مَرْتَبَتَهُ فَوْقَ مَرَاتِبِ جَمِيعِ رُؤَسَائِهِ الآخَرِينَ، فَصَارَ جَمِيعُ رِجَالِ الْمَلِكِ الْوَاقِفِينَ عِنْدَ بَابِ الْمَلِكِ يَنْحَنُونَ وَيَسْجُدُونَ لِهَامَانَ بِمُوجِبِ أَمْرِ الْمَلِكِ. أَمَّا مُرْدَخَايُ فَأَبَى أَنْ يَنْحَنِيَ أَمَامَهُ وَيَسْجُدَ لَهُ)[١] ومنذ تلك اللحظة بدأ الصراع بين الرجلين، لاسيما بعد أن اكتشف هامان الأصل اليهودي لمردخاي.

وبحسب بعض شارحي الكتاب المقدّس فإن هامان من نسل ملك قبيلة العماليق العربية، ولذلك لُقِّب بالأجاجي، نسبة إلى «أجاج» ملك العماليق الذي تهاون الملك الإسرائيلي طالوت «= شاول» في قتله، فقطَّعه النبي صموئيل[٢]، ومن جهة أخرى فإن مردخاي نفسه من ذرية والد طالوت. من هنا اعتُبر أن العداء بين هامان الأجاجي ومردخاي الإسرائيلي يعود بجذوره إلى مئات السنين.

إلا أن شرّاحاً آخرين للكتاب المقدس خطّأوا هذه المعلومة، معتبرين أن لقب أجاجي ليس نسبةً لملك العماليق، بل لمقاطعة فارسية تحمل ذات الاسم.

وعلى كل حال، وفي أجواء هذا الصراع، عمل هامان على أن ينتقم لنفسه، لا بقَتْل مردخاي فحسب، بل بإبادة كل اليهود في كل أنحاء الإمبراطورية.

ومن خلال بعض الدسائس، أقنع هامانُ الملكَ بما كان يدور في رأسه، وأصدر أمراً -كتبه هامان- يتضمّن إبادة كل اليهود في الإمبراطورية

١. الكتاب المقدس: سفر إستير، الأصحاح ٣، ١-٢.

٢. الكتاب المقدس: سفر صموئيل الأول، الأصحاح ١٥، ٨ - ٣٣.

الفارسية، بما في ذلك الساكنين بعيداً في ديارهم. وكان هذا القرار كفيلاً بإبادة اليهود، إلا أن تدخُّل الملكة إستير لحماية بني جنسها حال دون ذلك، إذ أقنعت الملك -وهو تحت تأثير الخمرة- أنه ما لم يكن من الممكن إلغاء أمر الإبادة، فليُصدر الملكُ إذناً لليهود بأن يدافعوا عن أنفسهم، وأن يردّوا الاعتداء الواقع عليهم إن شاءوا ذلك. ولم تكتفِ الملكة بذلك، بل حرّضت على هامان، فأمر الملك بقتله مصلوباً، ووهبها كل ممتلكاته.

يقول سفر إستير: (وَتَجَمَّعَ الْيَهُودُ فِي مُدُنِهِمْ فِي كُلِّ أَرْجَاءِ دِيَارِ الْمَلِكِ أَحَشْوِيرُوشَ لِيُدَافِعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ضِدَّ السَّاعِينَ لإِيذَائِهِمْ، فَلَمْ يَجْرُؤْ أَحَدٌ عَلَى مُجَابَهَتِهِمْ لأَنَّ الرُّعْبَ مِنْهُمْ هَيْمَنَ عَلَى جَمِيعِ الأُمَمِ، وَقَامَ رُؤَسَاءُ الأَقَالِيمِ وَالْحُكَّامُ وَالْوُلاَةُ وَوُكَلاَءُ الْمَلِكِ بِمُسَاعَدَةِ الْيَهُودِ خَوْفاً مِنْ مُرْدَخَايَ، لأَنَّهُ أَصْبَحَ يَتَمَتَّعُ بِنُفُوذٍ عَظِيمٍ فِي قَصْرِ الْمَلِكِ، وَذَاعَ صِيتُهُ فِي كُلِّ الأَقَالِيمِ، بَعْدَ أَنْ تَزَايَدَتْ شُهْرَتُهُ وَعَظَمَتُهُ. وَقَهَرَ الْيَهُودُ جَمِيعَ أَعْدَائِهِمْ وَقَتَلُوهُمْ بِالسَّيْفِ وَأَهْلَكُوهُمْ، وَفَعَلُوا بِهِمْ مَا شَاءُوا، فَأَبَادُوا فِي الْعَاصِمَةِ شُوشَنَ خَمْسَ مِئَةِ رَجُلٍ. كَمَا قَتَلُوا فَرْشَنْدَاثَا وَدَلْفُونَ وَأَسْفَاثَا، وَفُورَاثَا وَأَدَلْيَا وَأَرِيدَاثَا، وَفَرْمَشْتَا وَأَرِيسَايَ وَأَرِيدَايَ وَيزَاثَا، وَهُمْ عَشَرَةُ أَبْنَاءِ لِهَامَانَ بْنِ هَمَدَاثَا عَدُوِّ الْيَهُودِ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقْدِمُوا إِطْلاقاً عَلَى النَّهْبِ)[1]. ولم تكتف إستير بما سبق، بل طلبت من الملك أن يصلب أبناء هامان العشرة، فكان لها ما طلبت.

وتختتم قصة إستير وهامان كالتالي: (ثُمَّ اجْتَمَعَ الْيَهُودُ الْمُقِيمُونَ فِي الْعَاصِمَةِ شُوشَنَ فِي الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ أَيْضاً مِنْ شَهْرِ آذَارَ، وَقَتَلُوا ثَلاثَ مِئَةِ

١. الكتاب المقدس: سفر إستير، الأصحاح ٩، ٢-١٠.

رَجُلٍ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقْدِمُوا عَلَى النَّهْبِ. كَمَا تَآزَرَ الْيَهُودُ الْبَاقُونَ الْمُنْتَشِرُونَ فِي أَقَالِيمِ الْمَلِكِ وَدَافَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَاسْتَرَاحُوا مِنْ أَعْدَائِهِمْ، بَعْدَ أَنْ قَتَلُوا خَمْسَةً وَسَبْعِينَ أَلْفاً مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يُقْدِمُوا عَلَى النَّهْبِ. حَدَثَ هَذَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ آذَارَ، وَاسْتَرَاحُوا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْهُ، حَيْثُ احْتَفَلُوا فِيهِ شَارِبِينَ فَرِحِينَ)[1].

من خلال العرض السابق، نجد أن كل التفاصيل المتعلقة بالزمن والمكان الذي عاش فيه هامان الأجاجي هذا، وما جرى له من أحداث، غير متوافقة مع شيء مما تحدّث عنه القرآن حول هامان، وأن الأجاجي لا يمت بصلة إلى هامان الذي يتحدث عنه القرآن بوصفه أحد معاوني فرعون الذي عاصره النبي موسى «عليه السلام».

• الدقة في القرآن:

الأمر الآخر الذي يجب أن نأخذه بعين الاعتبار ونحن نناقش هذه المسألة، أن بعض المستشرقين في حين أنهم يحاولون أن يصفوا موارد من القرآن بأنها «مفارقات وأخطاء تاريخية فادحة» نجدهم يتغافلون عن الدقة في القرآن والتي تتعارض فيها المعلومة مع ما في الكتاب المقدس، بينما تتوافق مع المعطيات التاريخية.

من أمثلة ذلك أن الله «سبحانه وتعالى» عندما يعرض قصة النبي يوسف «عليه السلام» فإنه لا يعبِّر عن حاكم مصر بعنوان «فرعون» على الرغم من أن هذا هو اللقب الذي يشتهر به حكامها، بل ونجد أن التوراة تتحدث عن

١. الكتاب المقدس: سفر إستير، الأصحاح ٩، ١٥-١٧.

حاكم مصر على عهد النبي يوسف «عليه السلام» بعنوان «فرعون». قال «تعالى»: ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ.... وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ... قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ... كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاء اللّهُ**﴾[1].

أما في التوراة فنجد أن حاكم مصر على عهد النبي يوسف يسمى فرعون: (فَقَالاَ لَهُ: «حَلُمْنَا حُلْمًا وَلَيْسَ مَنْ يُعَبِّرُهُ». فَقَالَ لَهُمَا يُوسُفُ: «أَلَيْسَتْ للّه التَّعَابِيرُ؟ قُصَّا عَلَيَّ». فَقَصَّ رَئِيسُ السُّقَاةِ حُلْمَهُ عَلَى يُوسُفَ وَقَالَ لَهُ: «كُنْتُ فِي حُلْمِي وَإِذَا كَرْمَةٌ أَمَامِي. وَفِي الْكَرْمَةِ ثَلاَثَةُ قُضْبَانٍ، وَهِيَ إِذْ أَفْرَخَتْ طَلَعَ زَهْرُهَا، وَأَنْضَجَتْ عَنَاقِيدُهَا عِنَبًا. وَكَانَتْ كَأْسُ فِرْعَوْنَ فِي يَدِي، فَأَخَذْتُ الْعِنَبَ وَعَصَرْتُهُ فِي كَأْسِ فِرْعَوْنَ، وَأَعْطَيْتُ الْكَأْسَ فِي يَدِ فِرْعَوْنَ». فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ: «هذَا تَعْبِيرُهُ: الثَّلاَثَةُ الْقُضْبَانِ هِيَ ثَلاَثَةُ أَيَّام. فِي ثَلاَثَةِ أَيَّام أَيْضًا يَرْفَعُ فِرْعَوْنُ رَأْسَكَ وَيَرُدُّكَ إِلَى مَقَامِكَ، فَتُعْطِي كَأْسَ فِرْعَوْنَ فِي يَدِهِ كَالْعَادَةِ الأُولَى حِينَ كُنْتَ سَاقِيَهُ..... وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ سَنَتَيْنِ مِنَ الزَّمَانِ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَى حُلْمًا: وَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ عِنْدَ النَّهْرِ، وَهُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهْرِ حَسَنَةِ الْمَنْظَرِ وَسَمِينَةِ اللَّحْمِ، فَارْتَعَتْ فِي رَوْضَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ بَقَرَاتٍ أُخْرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهْرِ قَبِيحَةِ الْمَنْظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحْمِ، فَوَقَفَتْ بِجَانِبِ الْبَقَرَاتِ

١. سورة يوسف ٤٣-٧٦.

الأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، فَأَكَلَتِ الْبَقَرَاتُ الْقَبِيحَةُ الْمَنْظَرِ وَالرَّقِيقَةُ اللَّحْمِ الْبَقَرَاتِ السَّبْعَ الْحَسَنَةَ الْمَنْظَرِ وَالسَّمِينَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ. ثُمَّ نَامَ فَحَلُمَ ثَانِيَةً: وَهُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبْعُ سَنَابِلَ رَقِيقَةٍ وَمَلْفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرْقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا. فَابْتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبْعَ السَّمِينَةَ الْمُمْتَلِئَةَ. وَاسْتَيْقَظَ فِرْعَوْنُ، وَإِذَا هُوَ حُلْمٌ. وَكَانَ فِي الصَّبَاحِ أَنَّ نَفْسَهُ انْزَعَجَتْ، فَأَرْسَلَ وَدَعَا جَمِيعَ سَحَرَةِ مِصْرَ وَجَمِيعَ حُكَمَائِهَا. وَقَصَّ عَلَيْهِمْ فِرْعَوْنُ حُلْمَهُ، فَلَمْ يَكُنْ مَنْ يُعَبِّرُهُ لِفِرْعَوْنَ. ثُمَّ كَلَّمَ رَئِيسُ السُّقَاةِ فِرْعَوْنَ قَائِلًا: «أَنَا أَتَذَكَّرُ الْيَوْمَ خَطَايَايَ»[١].

وعلى الرغم من تشابه القصة في المصدرين في تفاصيلها إلى حد كبير، إلا أن القرآن الكريم يكرر عنوان «الملك» دون فرعون على الرغم من أن الحديث عن حاكم مصر، وما ذاك إلا لحقيقة تاريخية هي أن العصر الذي دخل فيه يوسف أرض مصر كان عهد حكم مَن يُعرفون باسم الهكسوس، وهم غزاة جاءوا من صحراء بلاد الشام، ولعلهم كانوا من الأموريين، فأسقطوا حكم فرعون ذلك الوقت، واستمرّوا في حكم مصر قرابة القرنين، ولذا فإن حاكم مصر لم يكن فرعوناً، بل ملكاً من ملوك الشعب الذي احتلّ مصر، وقد تحدثتُ عن الآموريين ضمن بحث «ديار النبي لوط» من هذا الكتاب.

ومن أمثلة الدقة القرآنية الحديث عن ادعاء فرعون الألوهية، قوله «تعالى»: ﴿**وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾[٢].

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، من الأصحاحين ٤٠-٤١.

٢. سورة القصص: ٣٨.

ولو عدنا إلى النقوش المثبتة على جدران مقبرة الوزير المصري رخميرع «= رخ مي رع» وزير «تحتمس الثالث» والتي تحتوي على حجرتين وتعتبر بمثابة سجلات تاريخية لحقبة طويلة من تاريخ الأسرة الثامنة عشر؛ بالإضافة إلى توصيف مظاهر الحياة والشعائر الدينية والحياة الاجتماعية والسياسية في تلك الفترة، فسنجد في ضمنها ما ترجمته: (ماذا يمثّل ملك مصر العليا؟ ماذا يمثّل ملك مصر السفلى؟ إنه الإله الذي بإرادته توهب الحياة للناس. إنه هو الأب والأم لجميع الرجال؛ وحده لا مثيل له)[1].

هذا يبيّن أن المسئولين في مصر القديمة اعتبروا فرعون الإله الأعلى، وهذا يشير - بشكل غير مباشر - إلى مقولة فرعون للملأ: ﴿**مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾. ويضيف رخميرع أن لدى حاكم مصر صفات إلهية مثل العلم الكلّي حيث لا يخفى عليه شيء والإبداع في الخلق.

وقارن الآثاري العراقي الأشهر د. طه باقر في كتابه «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: حضارة وادي النيل» بين صورة الملك في العراق القديم وبين صورة فرعون مصر في المعتقدات والأعراف السائدة آنذاك، حيث قال أن الملكية في العراق القديم وإن كانت مقدّسة وأصلها من الآلهة، إلا أن الذي كان يتقلّدها من البشر كان بشراً اعتيادياً، وقد يُقدَّس لأنه يحمل حملاً مقدّساً أو وظيفة مقدّسةً، ويقابل ذلك في مصر أن الذي يتقلّد الملوكية من البشر كان إلهاً نفسه، هذا هو جوهر الاختلاف في الأصل النظري للملوكية

1. K. Sethe, Urkunden Der 18. Dynastie: Historisch-Biographische Urkunden, 1909, Volume IV, J. C. Hinrichs'sche Buchhandlung: Leipzig, IV 1077, 17-18.

في كلتا الحضارتين. فالفرعون كان إلهاً بالتجسيد Incarnate God منذ ولايته للعهد.

وإذ كان الملك في حضارة وادي الرافدين مفوَّضاً من قبل الآلهة ووكيلها والواسطة بين المجتمع البشري وبين الآلهة ليجعل علاقات البشر منسجمة مع قوى فوق الطبيعة، فإنّ الملك في حضارة مصر كان من مجمع الآلهة، أي أنه إله نزل وتجسّد في الفرعون ليحكم الناس، ولما كان رأس المجتمع المسئول عن إدارته إلهاً، فإن شعور هذا المجتمع بالضمان في هذه الحياة إنما هو شعور الاطمئنان. لقد عبد المجتمع الملك بصفته إلهاً لضمان الانسجام بينه وبين قوى الطبيعة.

ونجد انعكاس ألوهية الملك واضحة في التعبير الفني في مصر حيث الملك يُمثَّل في المشاهد الحربية وحدَه على الغالب بدون جيش، كما في تمثيل صفحة الملك «نارمر»، وفي منحوتة «طوطمس الثالث» في الكَرْنَك.

ويضيف الدكتور طه باقر أن فكرة ألوهية الفرعون تتضمن بالتجسيد جيلين من الفراعنة، فإنّ اعتلاء الملك الجديد للعرش يعني اندماج قوى الملك الراحل بالملك الجديد، ويستمر الملك الميت في حكم البشر الأموات، إلا أنّ الملك الميت يصير بالتجسيد بمثابة الإله أوسيريس، أما الملك الذي يخلف الملك الميت فيصير الإله «هورَس ابن أوسيريس = حورس بن أوزيريس» الذي أعقب أباه وصار ملكاً أيضاً. كما أن الملك الجديد يتجسّد أيضاً بالإله الشمس «رع» أو يصير ابنه، وهكذا تستمر الدورة.

وكان الفرعون – بحسب الدكتور طه باقر – يُسمّى في كثير من النصوص

باسم الإله «نيتجير» Netjer أو «الإله الخيّر الطيّب». وقد صار شخص الملك بسبب ألوهيته مشحوناً بالقدسية بالنسبة إلى البشر الآخرين من ناحية الاقتراب منه ومخاطبته، فكانوا لا ينطقون باسمه، بل يشيرون إليه بصفات التعظيم كصاحب الجلالة، وأنهم صاروا يشيرون إليه في عهد الإمبراطورية منذ السلالة الثامنة عشرة باسم الفرعون، أي البيت العظيم، وهي الكنية التي أُطلقت على جميع ملوك مصر[١].

وحيث أن حاكم مصر على عهد النبي موسى كان من السلالة التاسعة عشرة، فإن عنوان «فرعون» كان لقباً له، دون حاكم مصر على عهد النبي يوسف «عليه السلام» والذي لم يكن مصريّ الأصل، وسبق عهده حكمَ الأسرة الثامنة عشرة التي جاءت بعد حكم الهكسوس، وبالتالي لم يكن لقب فرعون قد ابتُكر بعدُ، وهذا يزيد التأكيد حول ما ذكرناه مسبقاً من دقّة القرآن في التمييز بين الحاكمين من حيث اللقب.

وأما اتّهام النبي بأنه خلط ما بين برج بابل وبين قصة طلب فرعون من هامان أن يبني له صرحاً لعله يطّلع إلى إله موسى، فهو مجرد اتهام باطل وناتج عن الجهل بمعطيات تاريخ مصر الفرعونية. يقول عالم المصريات السير «فليندرز بيتري» Sir Flinders Petrie في كتابه «الحياة الدينية في مصر القديمة» Religious Life In Ancient Egypt ما ترجمته: (تم التعبير عن الرغبة في الصعود إلى الآلهة في السماء من خلال إرادة ارتفاع السلم إلى الأعلى.... عندما أقبل الناس على عبادة الإله «رع»، ظهرت الرغبة

١. طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: حضارة وادي النيل، ص ١٨٣-١٨٥.

في الانضمام إلى مجموعة من الآلهة الذين شكلوا حاشية «رع» في سفينته العظيمة في السماء)[١].

إن فكرة تسلّق فرعون لبرج أو سلّم للوصول إلى إله موسى، كما ذُكر في القرآن، تتفق مع أساطير مصر القديمة. يطلب الفرعون من الآلهة -أو الرجال- بناء سلم أو برج من أجل الصعود والتحدث مع الآلهة.

في كتابه «السحر المصري» Egyptian Magic ينقل عالم المصريات «كريستيان جاك» Christian Jacq نصاً فرعونياً وترجمته كالتالي: (حال وقوفه أمام الآلهة، يظهر الفرعون سلطته. يأمرهم ببناء سلّم حتى يصعد إلى السماء. إذا لم يطيعوه ، فلن يحصلوا منه على طعام ولا عطاءات. لكن الملك يأخذ احتياطاً واحداً. ليس هو نفسه -كفرد- مَن يتكلم، ولكنها القوة الإلهية: «لست أنا مَن يقول هذا لكم، بل الآلهة، إن السِّحر هو الذي يتحدث». عندما يُكمل الفرعون صعوده، والسِّحر عند قدميه: «ترتعد السماء، وتهتز الأرض أمامي، لأنني ساحر، فأنا أملك السحر». إنه هو أيضاً مَن يثبّت الآلهة على عروشهم، مما يُثبت أن الكون يعترف بكامل قوته)[٢].

أصبح من الواضح الآن أن فكرة صعود فرعون إلى السماء للوصول إلى الآلهة في مصر القديمة فكرة موجودة بشكل مستقل عن القصة التوراتية لبرج بابل، وأن اتهام النبي بالخلط مجرد اتهام باطل وبلا أساس، بل إن

1. Sir. F. Petrie, Religious Lie In Ancient Egypt, 1924, Constable & Company Ltd.: London, pp. 208-209.

2. C. Jacq (Trans. J. M. Davis), Egyptian Magic, 1985, Aris & Phillips Ltd. & Bolchazy-Carducci Publishers: Chicago, p. 11.

الدليل يعضد النص القرآني، بل وشاهد آخر على دقّة القرآن وأن مصدره سماوي وليس من صُنع محمد «صلى الله عليه وآله».

هذه الدقة القرآنية –مثلاً– لا تلقى عناية من قبل المستشرقين والمتأثّرين بهم والذين يحاولون اصطياد الأخطاء والتعارضات والمفارقات في القرآن الكريم ما استطاعوا، وقد استعرضت بعضاً منها في الجزء الأول من هذا الكتاب ضمن بحث قصص النبي سليمان وعزير وغير ذلك.

بل وجدنا أن بعض المستشرقين عند الحديث عن بعض الشخصيات أو الأحداث يخلطون ما جاء في القرآن الكريم ببعض ما جاء في الروايات ومقولات المفسّرين والمؤرّخين، ليُوهموا القاريء غير المطّلِع أنّ القرآن متوافق مع تلك الروايات والمقولات والقصص، والحال أن الأمر مخالف لذلك تماماً، وأن القرآن بريء من كثير منها، بل ولربما يعارضها صراحةً.

ولو أن القرآن كان من تأليف نبينا محمد «صلى الله عليه وآله»، وأنه أخذ معلوماته من كتب اليهود والنصارى، وأنه وقع في أخطاء تاريخية نتيجة الوهم والخلط في المعلومات، لما وجدنا مثل هذه الدقة في المعلومة والتي تلتقي مع الحقيقة التاريخية، وتفترق عن النص التوراتي الذي وقع كاتبوه أو مترجموه في الخطأ أو عدم الدقة.

تبقى هنا نقطة لا أودّ تفويتها، حيث ذكر الدكتور طه باقر أن الملك في حضارة وادي الرافدين يُعدّ مفوَّضاً من قبل الآلهة ووكيلها والواسطة بين المجتمع البشري وبين الآلهة.

فلعل هذا المعتقد القديم الراسخ في حضارات عراق ما قبل الإسلام هو منطلق مقولة الغلاة الذين برزوا في الوسط الشيعي في العهد العباسي الأول، وادّعوا أن الإمام واسطة الفيض الإلهي، وأنّ الخلقَ يُرزقون من خلالهم.

وقد روى الشيخ الصدوق[١] في كتابه «عيون أخبار الرضا» عن ياسر الخادم قال: (قلت للرضا «عليه السلام»: ما تقول في التفويض؟ فقال: إن الله «تبارك وتعالى» فوض إلى نبيه «صلى الله عليه وآله» أمْرَ دينه فقال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾[٢] فأما الخلق والرزق فلا. ثم قال «عليه السلام»: إن الله «عز وجل» خالق كل شئ وهو يقول «عز وجل» ﴿**اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[٣]).

وقال الدكتور عبد الرسول الغفار في كتابه «شبهة الغلو عند الشيعة»: (يُقسّم التفويض إلى فرعين رئيسين: أولاً، تفويض أمر الخلق والرزق. ثانياً، تفويض أمر الدين والسياسة. ثم لكل فرع قسمان، القسم الأول، التفويض -المطلق- بالمعنى الأعم. القسم الثاني، التفويض -المقيَّد- بالمعنى الأخص. هذا القسم من كلا الفرعين مختص بالله وحده لا شريك له، حيث هو المشرّع الأساس والأول وهو الخالق والصانع ومبدع كل شيء -الكائنات وكل الموجودات- لذا فإن أمر العباد ومآلهم إليه «سبحانه»، فهو اللطيف الخبير والبصير، له الأمر من قبل ومن بعد. من مصاديق القسم الأول من

١. الصدوق: عيون أخبار الرضا، ص٣٢٦.

٢. سورة الحشر: ٧.

٣. سورة الروم: ٤٠.

الفرع الأول هي: الرازقية والخالقية والإهداء والإظلال، والإحاطة، والإماتة، والإحياء والابتلاء -بالمرض- والإشفاء... إلخ، وغير ذلك من خصوصيات الرب الخالق الواحد الفرد الصمد .

قال «تعالى» في شأن الرزق: ﴿**إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ**﴾(١).

وقوله «تعالى»: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾(٢).

وقوله «تعالى»: ﴿**اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ**﴾(٣).

وقوله «تعالى»: ﴿**قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ**﴾(٤). وهناك عشرات الآيات لا منازع فيها أن الرازق هو الله «سبحانه وتعالى».

وقال «تعالى» في شأن الخالقية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ**﴾(٥).

وقوله «تعالى»: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ**﴾(٦).

وقوله «تعالى»: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾(٧).

١. سورة الذاريات: ٥٨.
٢. سورة الروم: ٤٠.
٣. سورة الشورى: ١٩.
٤. سورة يونس: ٣١.
٥. سورة البقرة: ٢١.
٦. سورة الرحمن: ١٤.
٧. سورة الأنعام: ١.

وقوله «تعالى»: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[١].

وقوله «تعالى»: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾[٢].

وقوله «تعالى»: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٣].

وقوله «تعالى»: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٤].

آيات كثيرة «٣٠٠» مورد في الخلق والإيجاد. وقال «تعالى» في شأن الهداية والضلالة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[٥].

وقوله «تعالى»: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[٦]. والآيات كثيرة جداً في هذا الباب.

وفي الإحاطة، قال «تعالى»: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾[٧].

وفي الإماتة والإحياء قال «تعالى»: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[٨].

وقوله «تعالى»: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا

١. سورة البقرة: ٢٩.
٢. سورة الأنبياء: ٣٣.
٣. سورة الملك: ٢.
٤. سورة الفرقان: ٢.
٥. سورة الرعد: ٢٧.
٦. سورة القصص: ٥٦.
٧. سورة الطلاق: ١٢.
٨. سورة الدخان: ٨.

مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا، لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[١].

وأما في الابتلاء والإشفاء قوله «تعالى»: **﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾**[٢].

هذه جملة من الآيات في بعض الموارد لبعض الخصوصيات التي انفرد بها الله «سبحانه» دون سائر خلقه، وهناك خصوصيات كثيرة في أمر التفويض؛ التفويض بالمعنى المطلق أو الأعم بحيث هي ثابتة للمولى دون غيره في أمر الخلق والرزق والأحياء والابتلاء والإهداء والإضلال ... إلخ. أما القسم الأول من الفرع الثاني «تفويض أمر الدين بالمعنى الأعم» فهو كذلك من مختصات الله «سبحانه وتعالى»، لأن هذا القسم من التفويض يراد به التشريع. والتشريع بالمعنى الأعم أو المطلق يكون من مختصات الباري «سبحانه». قال «تعالى»: **﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾**[٣].

وقوله «تعالى»: **﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾**[٤].

وقوله «تعالى»: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾**[٥].

١. سورة الفرقان: ٤٨-٤٩.

٢. سورة الشعراء: ٧٨-٨٢.

٣. سورة المائدة: ٤٨.

٤. سورة الجاثية: ١٨.

٥. سورة الشورى: ١٣.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾[١].

أما الأخبار الدالة على أن هذا التفويض من مختصات الله «تعالى» فهي كثيرة نذكر منها: روى الصدوق بإسناده عن بريد بن عمير بن معاوية الشامي قال: (عن بريد عمير بن معاوية الشامي قال: دخلت على علي بن موسى الرضا بمرو فقلت له: يا بن رسول الله، روي لنا عن الصادق جعفر بن محمد «عليهما السلام» قال: إنه لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين، فما معناه؟ قال: من زعم أن الله يفعل أفعالنا ثم يعذّبنا عليها فقد قال بالجبر، ومن زعم أن الله «عز وجل» فوّض أمر الخلق والرزق إلى حججه «عليهم السلام» فقد قال بالتفويض، والقائل بالجبر كافر، والقائل بالتفويض مشرك. فقلت له: يا بن رسول الله فما أمر بين أمرين؟ فقال: وجود السبيل إلى إتيان ما أمروا به، وترك ما نهوا عنه.....إلخ)[٢].

التفويض الذي ورد -والنهي عنه- هو ذلك التفويض في أمر العباد والخلق والرزق وغير ذلك التي هي من مختصات الله «تعالى» وما ورد من الأحاديث في أمر التفويض الذي فوض الله به نبيه أو الأئمة «عليهم السلام» إنما هو في أمر الدين، أي وكّل لهم بيان أحكام الحلال والحرام والمندوب والمكروه، وإنهم أمناء الله على دينه، فيحلّلون ما أحلّ الله، ويحرّمون ما حرم الله «تعالى»)[٣].

---

١. سورة الشورى: ٢١.

٢. الصدوق: عيون أخبار الرضا، ج ٢، ص ١١٤.

٣. الغفار: شبهة الغلو عند الشيعة، ص ١٦٣-١٦٧.

• هامان في التراث الفرعوني:

في ضمن الموارد الكثيرة التي عرض فيها القرآن الكريم تفاصيل قصة النبي موسى «عليه السلام» مع فرعون، نجد أن هامان يمثّل شخصية ثانوية، يظهر أحياناً في بعض التفاصيل، ويغيب في كثير من المشاهد والمواقع، ولكنه يبرز في تلك الموارد كشخصية ذات مقام وصاحب قرار، ولنلاحظ دلالة استعمال كلمة ﴿**وَجُنُودَهُمَا**﴾ الواردة في قوله «تعالى»: ﴿**وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾[١]، وقوله «تعالى»: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ**﴾[٢].

وأنّ موسى كان مرسَلاً إلى هامان -ضمناً- كما كان مرسلاً إلى فرعون: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ**﴾[٣]، وأن العقاب الدنيوي حين نزل بفرعون نزل بهامان أيضاً: ﴿**وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ، فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ**﴾[٤]

ثم إن القرآن الكريم يجعله في مصاف فرعون وقارون «الثري جداً» ويحمّل الثلاثة مسئوليتهم الدنيوية والأخروية في مواجهة الرسالة الموسوية.

مع كل هذه الحقائق القرآنية إلا أننا لا نجد ضمن ما تم العثور عليه من

---

١. سورة القصص: ٦.

٢. سورة القصص: ٨.

٣. سورة غافر: ٢٣-٢٤.

٤. سورة العنكبوت: ٣٩.

آثار فرعونة ما يدلّ على وجود شخص يحمل اسم «هامان» – لا سيّما في عصر الأسرة التاسعة عشرة التي من المفترَض أن يُمثّل جانباً منها عصر النبي موسى – فكيف يمكن حلّ هذه الإشكالية والتي تمثّل محور هذا البحث؟

لعل أساس الخلل في عملية البحث أنها كانت في اتجاه البحث عن شخص يحمل هذا الاسم، بينما من الأنسب أن نبحث عن شخص يحمل هذا اللقب، تماماً كما أن الاسم المقترن معه في القرآن هو فرعون، وهو ليس اسم شخص بل لقب ملكي... أي أن علينا أن نبحث عن موقع قيادي متقدِّم في البلاط الفرعوني ويتم نعْت مَن يتقلّده بلقب «هامان».

في «موسوعة القرآن» Encyclopaedia Of The Qur'an تساءل الباحث أ. هـ. جونز A. H. Johns عمّا إذا كان عنوان «هامان» في العربية بمثابة صدى تعريبي لكلمة «ها-أمين» Ha-Amen في اللغة المصرية القديمة، والتي تمثّل لقب الكاهن المصري الأعلى، والذي يحتلّ المرتبة الثانية في سلّم الأهمية بعد الفرعون[1].

هذا التساؤل وإن لم يقدّم دليلاً يمكن الاعتماد عليه لتأكيد الفكرة وتحويلها من مجرد احتمال إلى رأي قاطع، أو شبه قاطع، إلا أنه فتح الباب لبعض الباحثين كي يتقدّموا خطوات في هذا الاتجاه في محاولة منهم للوصول إلى نتيجة يمكن أن تساهم في تجلية الصورة.

وهذا ما قام به الباحثون على موقع Islamic Awareness على الإنترنت

1. A. H. Jones, "Hāmān", in J. D. McAuliffe (Ed.), Encyclopaedia Of The Qur'an, 2002, Volume II, op. cit., p. 399.

حيث اعتبروا أن عملية التحقق هذه تستدعي الأخذ بعين الاعتبار القرائن من القرآن نفسه، حيث قدّم كتاب الله ثلاث صفات رئيسة لهذه الشخصية:

١. شغل منصباً كبيراً بدرجة كافية ليتم ذكره مع فرعون مراراً وتكراراً.

٢. تم تكليفه بمشروع بناء مهم للغاية، مشيراً إلى أنه يمتلك الأقدمية والمهارة اللازمة لإتمام المهمة.

٣. تصريح فرعون المتضمّن قوله: ﴿**يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ**﴾[١] يرتبط باللاهوت المصري القديم، ومن المناسب أن يُعيّن فرعون شخصاً للقيام بهذه المهمة بحيث يكون محيطاً بمسائل العقيدة المصرية القديمة أيضاً، أي أن يكون نوعاً من الكهنة البنّائين. لذلك يمكننا أن نتوقع أن يكون هامان المذكور في القرآن ذا علاقة بعملية البناء بالإضافة إلى الأنشطة الكهنوتية.

ويضيف الباحثون في هذا الموقع أننا حيث نأخذ بعين الاعتبار هذه النقاط الهامة الثلاث، فإن السؤال الذي يطرح نفسه الآن هو عن أي فترة من تاريخ مصر القديمة يجب أن نبحث كي نتوصّل إلى الشخصية التي ذُكرت في القرآن بعنوان هامان. لقد أوضحت الدراسة التي قام بها الموقع حول تحديد هوية فرعون في زمن موسى أن هذه هي الفترة الزمنية المرتبطة برعمسيس الثاني، أي ما بين ١٢٧٩ – ١٢١٣ق.م.

١. غافر:٣٦-٣٧.

معجم المصطلحات المصرية القديمة الذي يحمل عنوان Ägyptischen Götter Und Götterbezeichnungen في نسخته المحدّثة والشاملة، يتضمّن أسماء الآلهة المصرية القديمة والعناوين الدينية المرتبطة بها، ونجد فيه معلومات مثيرة للاهتمام تحت عنوان الإله المصري القديم «هامن» ḤMN ومن بينها أن هذا المصطلح يستخدم كعنوان لـ «هم-نتر» ḥm-ntr... فمن هو هذا الشخص؟

كلمة «هم-نتر» في المصرية القديمة تعني حرفياً «خادم الإله» أو «عبد الإله» حيث «ḥm = عبد أو خادم؛ ntr = إله». وبمعنى آخر فإن «هم-نتر» كاهن ذكر، في مقابل «همت-نتر» التي تدل على كاهنة أنثى[1].

وهذا يعني أن «هامن» في مصر القديمة كان يستخدم لقباً لكاهن في معبد خاص بالإله «هامن» نفسه. وحيث أن الإله «هامن» كان إلهاً صغيراً في مصر القديمة، ومحلياً أيضاً، فمن المستبعد جداً حينئذ أن يكون الكاهن الخاص به هو المقصود بهامان المذكور في القرآن الكريم. ومع ذلك، فإن هذه المعلومة التي قدّمها المعجم تترك لنا دليلاً مثيراً للاهتمام حين ترشدنا إلى أن كاهن المعبد في مصر القديمة يمكن أن يحمل لقباً مطابقاً لاسم الإله الخاص بذلك المعبد.

في زمن رعمسيس الثاني ثالث حكام الأسرة التاسعة عشرة، وهو العصر الذي نبحث فيه عن هامان المذكور في القرآن، فإن الإله المصري القديم

1. J. P. Allen, Middle Egyptian - An Introduction To The Language And Culture Of Hieroglyphs, 2010, Cambridge University Press: Cambridge (UK), pp. 44, 58, 465.

«آمون» أو «إمن» Amun - IMN، قد خُصِّص له معبد كبير في الكرنك، وفي ذلك يقول عالم الآثار البريطاني «كينيث كيتشن» Kenneth Kitchen: (وقفت الآلهة العظيمة للدولة على رأس مصر، كرعاة لفرعون. كان أشهرهم آمون، إله الهواء وصاحب القوى الخفية للتوالد والخصوبة، والمستوطن في طيبة. وكإله للإمبراطورية، كان هو مانح النصر للفراعنة المحاربين... إليه -أي آمون- تنتمي كل المعابد العظمى في طيبة)[١].

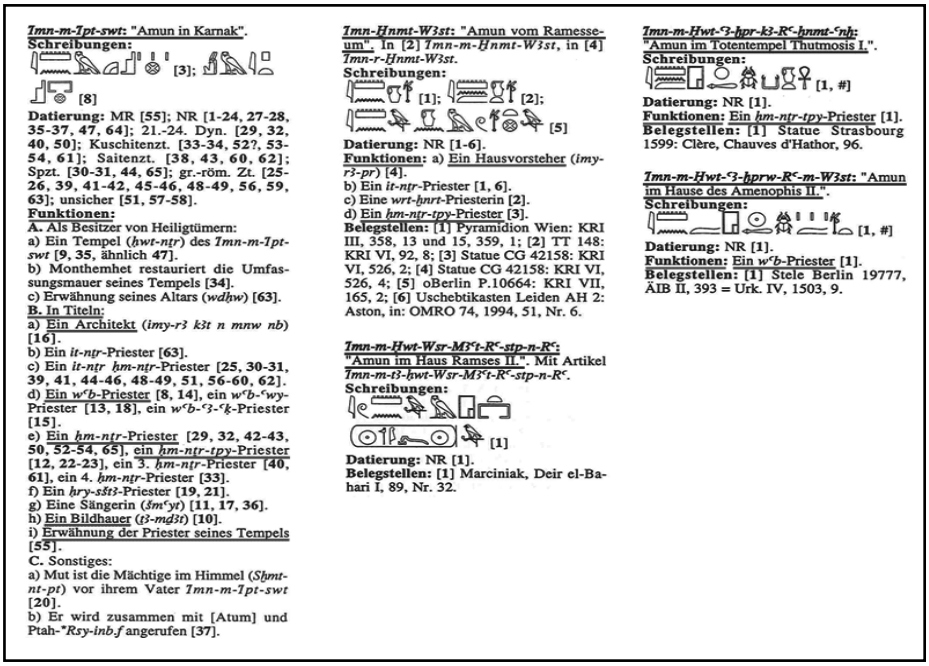
هل حمَل الكهنة في معبد آمون في مصر القديمة لقباً يتضمن في جزء منه اسم الإله آمون؟ الجواب... نعم.

حيث يذكر معجم المصطلحات المصرية القديمة الذي يحمل عنوان Lexikon Der Ägyptischen Götter Und Götterbezeichnungen تحت اسم الإله المصري القديم «إمن» أن النقوش المصرية القديمة وأوراق البردي وغيرها من الأدبيات تذكر أن كلمة «إمن» تدخل في تركيب أسماء الكهنة أصحاب المراتب المختلفة.

والمثير أيضاً دخول هذه الكلمة في تركيب عنوان أحد المعماريّين وأحد النحّاتين وأحد المغنّين. قد تكون هذه الفئات من الناس - بمن فيهم الكاهن الأكبر لهذا المعبد - مرتبطة بالإله المصري القديم «إمن» من خلال دورهم في بناء معبد آمون وإنشاد الترانيم الخاصة به.

وباختصار، من الواضح أنه تم استخدام كلمة «إمن» في الألقاب، ليس فقط

1. K. A. Kitchen, Pharaoh Triumphant: The Life And Times Of Ramesses II, King Of Egypt, 1982, Aris & Phillips Ltd.: Warminster (England), p. 159.



Jmn-m-Jpt-swt: "Amun in Karnak".
Schreibungen:
[3]; [8]
Datierung: MR [55]; NR [1-24, 27-28, 35-37, 47, 64]; 21.-24. Dyn. [29, 32, 40, 50]; Kuschitenzt. [33-34, 52?, 53-54, 61]; Saitenzt. [38, 43, 60, 62]; Spzt. [30-31, 44, 65]; gr.-röm. Zt. [25-26, 39, 41-42, 45-46, 48-49, 56, 59, 63]; unsicher [51, 57-58].
Funktionen:
A. Als Besitzer von Heiligtümern:
a) Ein Tempel (*ḥwt-nṯr*) des *Jmn-m-Jpt-swt* [9, 35, ähnlich 47].
b) Monthemhet restauriert die Umfassungsmauer seines Tempels [34].
c) Erwähnung seines Altars (*wdḥw*) [63].
B. In Titeln:
a) Ein Architekt (*imy-rꜣ kꜣt n mnw nb*) [16].
b) Ein *it-nṯr*-Priester [63].
c) Ein *it-nṯr ḥm-nṯr*-Priester [25, 30-31, 39, 41, 44-46, 48-49, 51, 56-60, 62].
d) Ein *wꜥb*-Priester [8, 14], ein *wꜥb-ꜥwy*-Priester [13, 18], ein *wꜥb-ꜥꜣ-ꜥḳ*-Priester [15].
e) Ein *ḥm-nṯr*-Priester [29, 32, 42-43, 50, 52-54, 65], ein *ḥm-nṯr-tpy*-Priester [12, 22-23], ein 3. *ḥm-nṯr*-Priester [40, 61], ein 4. *ḥm-nṯr*-Priester [33].
f) Ein *ḥry-sšt*ꜣ-Priester [19, 21].
g) Eine Sängerin (*šmꜥyt*) [11, 17, 36].
h) Ein Bildhauer (*tꜣ-mḏꜣt*) [10].
i) Erwähnung der Priester seines Tempels [55].
C. Sonstiges:
a) Mut ist die Mächtige im Himmel (*Sḫmt-nt-pt*) vor ihrem Vater *Jmn-m-Jpt-swt* [20].
b) Er wird zusammen mit [Atum] und Ptah-"*Rsy-inb.f* angerufen [37].

Jmn-Ḥnmt-W3st: "Amun vom Ramesseum". In [2] *Jmn-m-Ḥnmt-W3st*, in [4] *Jmn-r-Ḥnmt-W3st*.
Schreibungen:
[1]; [2]; [5]
Datierung: NR [1-6].
Funktionen: a) Ein Hausvorsteher (*imy-rꜣ-pr*) [4].
b) Ein *it-nṯr*-Priester [1, 6].
c) Eine *wrt-ḫnrt*-Priesterin [2].
d) Ein *ḥm-nṯr-tpy*-Priester [3].
Belegstellen: [1] Pyramidion Wien: KRI III, 358, 13 und 15, 359, 1; [2] TT 148: KRI VI, 92, 8; [3] Statue CG 42158: KRI VI, 526, 2; [4] Statue CG 42158: KRI VI, 526, 4; [5] oBerlin P.10664: KRI VII, 165, 2; [6] Uschebtikasten Leiden AH 2: Aston, in: OMRO 74, 1994, 51, Nr. 6.

Jmn-m-Ḥwt-Wsr-Mꜣꜥt-Rꜥ-stp-n-Rꜥ: "Amun im Haus Ramses II.". Mit Artikel *Jmn-m-tꜣ-ḥwt-Wsr-Mꜣꜥt-Rꜥ-stp-n-Rꜥ*.
Schreibungen:
[1]
Datierung: NR [1].
Belegstellen: [1] Marciniak, Deir el-Bahari I, 89, Nr. 32.

Jmn-m-Ḥwt-ꜥꜣ-ḫpr-kꜣ-Rꜥ-ḥnmt-ꜥnḫ: "Amun im Totentempel Thutmosis I.".
Schreibungen:
[1, #]
Datierung: NR [1].
Funktionen: Ein *ḥm-nṯr-tpy*-Priester [1].
Belegstellen: [1] Statue Strasbourg 1599: Clère, Chauves d'Hathor, 96.

Jmn-m-Ḥwt-ꜥꜣ-ḫprw-Rꜥ-m-W3st: "Amun im Hause des Amenophis II.".
Schreibungen:
[1, #]
Datierung: NR [1].
Funktionen: Ein *wꜥb*-Priester [1].
Belegstellen: [1] Stele Berlin 19777, ÄIB II, 393 = Urk. IV, 1503, 9.

وظائف مختلفة من اسم الإله المصري القديم «إمن» المذكورة في كتاب:
Lexikon Der Ägyptischen Götter Und Götterbezeichnungen

للفئة الكهنوتية، ولكن أيضاً لأولئك المشاركين في البناء. واستخدام اسم الإله «إمن» في العنوان الذي يحمله شخص، هو كاهن ومهندس معماري في نفس الوقت يُعدّ أمراً مثيراً للاهتمام، حيث يبدو أنه يضيف قيمةً إلى الفرضية التي نحاول إثباتها، ومن هنا علينا الاستعانة بالبُعد الصوتي والمعجمي لكلمة «إمن».

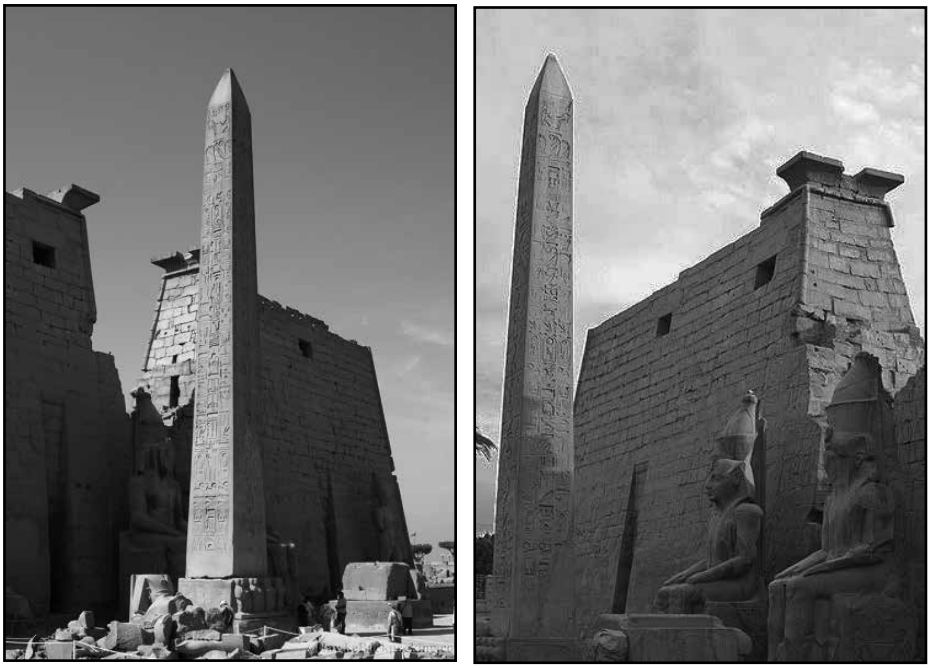
كيف كانت يُلفظ اسم الإله «إمن»؟ الهيروغليفية المصرية القديمة والتي لا تحتوي على حروف العلة لن تكون ذات فائدة كبيرة، على خلاف الكتابة المسمارية التي تتضمن الحروف المتحركة، وهذا ما نجده في نص معاهدة التحالف التي تمّت بين ملك الحثّيين «حاتّوسيليس الثالث» وبين رعمسيس

الثاني، وكُتبت بالنقش المسماري وتضمّنت نقش الحروف المتحركة، مما مكّننا من معرفة كيفية نُطق كلمة «إمن» في المصرية القديمة حيث كُتبت هكذا: «أمانا».

وحيث مرّ بنا أن فرعون كان بمثابة الوريث التجسيدي للخالق وصورته الحيّة على الأرض، فإنّ هذا الجانب من الألوهية الملكية كانت حاصلة أيضاً للكاهن الأكبر – على الأقل – أثناء أداء الطقوس الكهنوتية، بل تطوّرت هذه الفكرة لاحقاً، فقد كان «حَرحُور» كبير كهنة آمون الذي عاش في الفترة المبكرة من الأسرة العشرين قد أصبح قوياً لدرجة أنه كان في الواقع الحاكم الفعلي لمدينة طيبة، ولذا تمّ تصويره وهو يرتدي تيجان مصر، وهو الشيء الذي كان مخصصاً حصرياً للفراعنة. في وقتٍ ما خلال فترة حكمه بدأ «حرحور» في الإصرار على أن الإله آمون كان يوجّهه في أمور الدولة وأنه ككاهن لآمون كان المفضّل من قبل الإله كحاكم لمصر العليا والسفلى، وقائداً أعلى للجيوش.

وقد كانت لرعمسيس الثاني إنجازات كثيرة لصالح الإله آمون، ووُجد منقوشاً تحت تمثال رعمسيس الثاني: (لقد قمت بإنجازات لخدمة آمون، وأشرفتُ عليها بنفسي قربةً لربي. لقد صنعت له هيكلاً) مَعبداً يُطلق عليه اسم (رعمسيس – مريامون – الذي يسمع الصلوات، وذلك في البوابة العليا لمقام آمون. وقمت بنصب مسلّات من الجرانيت فيه، وقد اقتربت قممها من السماء، وجعلت أمامها شُرفة حجرية، أمام طيبة، والمَرْج، والحدائق المزروعة بالأشجار)[1].

1. E. Frood, Biographical Texts From Ramessid Egypt, 2007, op. cit., pp.41-42.



وجها المسلّة الجرانيتية أمام تمثال رمسيس الثاني في الكرنك

وقد يَطرح البعض إشكالاً مفاده أن فرعون - بصفته حاكماً للبلاد - كان يحمل عنوان الكاهن الأكبر للإله آمون ولباقي الآلهة، فكيف يزاحمه في هذا المنصب شخص آخر؟ في الواقع لم يكن حَمْل رعمسيس الثاني لقب الكاهن الأكبر سوى صِفَة شرفية، أما على المستوى العملي، فقد كان أحد المختصّين من الكهنة هو الذي يقوم بدور الكاهن الأكبر فيما له علاقة بالمراسم الدينية والاحتفالات وغير ذلك من الشئون المناطة بهذا المقام. تماماً كما تُعتبر ملكة بريطانيا اليوم رئيسة الكنيسة، وهو عنوان شرفي فقط.

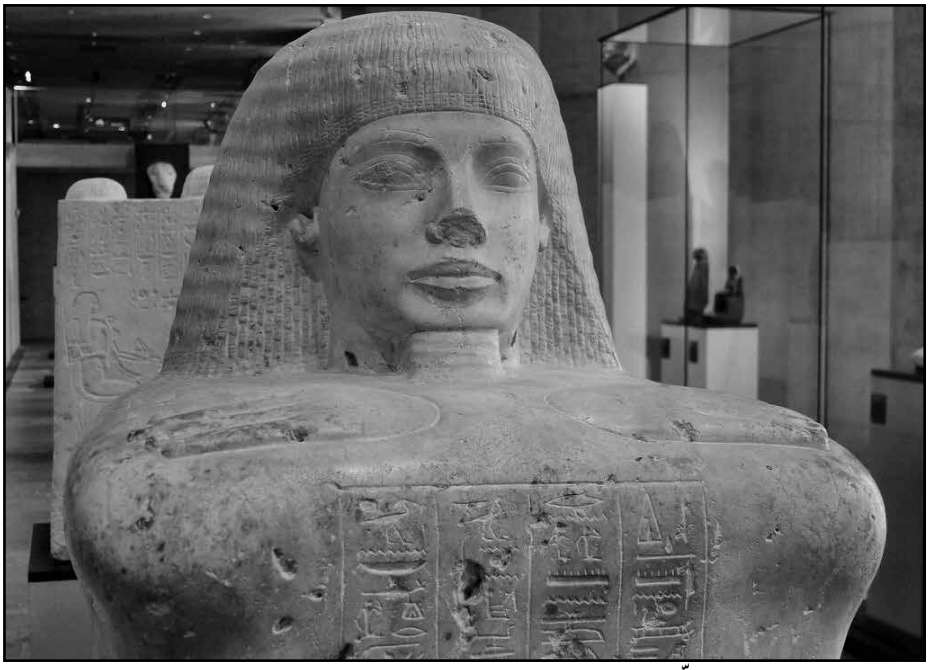
وبالجمع بين هذه المعطيات، مع ما ذكرناه سابقاً من خصوصيات استقيناها من القرآن حول شخصية هامان، فإن احتمالية كون العنوان

«هامان» نسخة معرّبة من «أمانا» المصرية القديمة ستتعزّز أكثر، تماماً كما أن كلمة فرعون المستعملة في القرآن للدلالة على حاكم مصر على عهد النبي موسى هي نسخة معرّبة للكلمة المصرية القديمة «بِرعا»، وهو اللقب المستخدم للإشارة إلى حاكم مصر من عصر الدولة الحديثة وما بعدها.

ولنبحث الآن في التاريخ المصري القديم المعاصر لرعمسيس الثاني، هل وُجد في ذلك العصر كاهن جمع بين مهمته وبين دور المعماري البنّاء؟

من خلال مراجعة كتاب البروفيسور كيتشن الذي ذكرناه مسبقاً، يتبيّن لنا أن من بين سبعة كهنة كبار عاصروا رعمسيس الثاني، فقط اثنان منهم أُطلق عليهم صفة «رئيس الإنشاءات»، وهما الكاهن الأعظم للإله آمون واسمه «بَاك إن خُونْس =بَاك إن خُونْسو»... ووزير الوجه البحري والكاهن الأكبر للإله أوزيريس «بارع حتب الأول».

وبينما لا نجد نصاً يتحدّث عن إنجازات البناء التي قام بها «بارع حتب الأول» بأمر فرعون، فإننا أمام عدة نصوص تتحدث عن إنجازات «بَاك إن خُونْس» العظيمة، والذي يُعدّ أحد أكبر المهندسين المعماريين في مصر القديمة، حيث بدأت مسيرته في عهد الملك سيتي الأول، والد رعمسيس الثاني. انضمّ إلى كهنة معبد آمون، وصار كبير كهنته لمدة ٢٧ عاماً على الأقل. خدم رعمسيس الثاني طوال فترة حكمه. ويشتهر «بَاك إن خُونْس» بإشرافه على بناء معبد آمون في الكَرْنَك، وهو الهيكل «=المعبد» الأكبر الذي تم إنشاؤه في مصر على الإطلاق، ويتألف من محيط واسع يحتوي على معبد آمون بالإضافة إلى العديد من المعابد الفرعية للآلهة الأخرى.



تمثال الكاهن البنّاء: باك إن خونس.. والمحتمل أن يكون هامان نفسه

مثل هذا البناء الضخم والخاص بالإله آمون ليس أمراً مفاجئاً على الإطلاق، فقد تنامت عبادة الإله آمون خلال فترة حكم الأسرة الثامنة عشرة -باستثناء عهد أخناتون- وتدرّجت شهرة عبادته وانتشارها حتى صار الإله الرئيس لمصر وإله الدولة الراعي لها على عهد الأسرة التاسعة عشرة التي ينتمي إليها رعمسيس الثاني، وحصدت الدعوة لعبادته وتقديم الثروات والقرابين له من الثروات ما حصدت.

ومن هنا يبدو من المنطقي جداً أن يكلّف فرعونُ كبيرَ مستشاريه الدينيين والبنّاء الأكبر «بَاك إن خُونْس» بمهمة بناء مبنى ديني يتناسب مع هذا الصعود الكبير لهذا الإله.

وبنظرة أخرى نستطيع القول أنّ من المنطقي أيضاً أن يطلب رعمسيس الثاني من «بَاك إن خُونْس» الذي كان رئيس كهنة آمون بالإضافة إلى شَغْله منصب رئيس البناء والتعمير أن يقوم بتشييد الصرح العظيم الذي يريد من خلاله إثبات بطلان كلام النبي موسى، وصحة ألوهية الإله آمون والمعتقدات المرتبطة به والتي يتحمّل «بَاك إن خُونْس» رعايتها ككاهن أكبر لمعبد آمون.

وهذا يقودنا في نهاية المطاف إلى القول بأنّ هذا الكاهن وكبير المعماريين على عهد فرعون موسى - باحتمال كبير - هو «هامان» الذي تحدّث عنه القرآن الكريم، وأنه شخصية حقيقية، وأن هذا لقبه، وأنه لا يوجد خلط بين هامان المصري وهامان صاحب ملك فارس الذي عاش بعده بأكثر من تسعة قرون.

• نهاية هامان:

بالعودة إلى القرآن الكريم، يمكننا القول بأن نهاية هامان كانت كارثية، ويبدو أنه غرق مع فرعون موسى حين كان يطارد بني إسرائيل، ولنلاحظ الآيات التالية: **﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ، وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ، فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾**[1].

١. سورة العنكبوت: ٣٨-٤٠.

إذا قسّمنا أنواع العذاب المذكورة في الآيات السابقة، وهي أربعة: «الحاصب - الصيحة - الخسف - الإغراق» على الأقوام والشخصيات المختلفة، ومجموعهم خمسة: «عاد - ثمود - قارون - فرعون - هامان»، فسنجد ما يلي:

١. قوم عاد أُهلكوا بالحاصب، وهي الريح التي ترمي بالحصباء والحصى الصغار، وقيل: الحاصب الريح المُهلكة في البر، بينما القاصف الريح المُهلكة في البحر: ﴿**وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾[١].

٢. قوم ثمود أُهلكوا بالصيحة: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..... وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾[٢].

وفي مورد آخر: ﴿**وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا..... فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ**﴾[٣].

٣. قارون بالخسف: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ..... فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ**﴾[٤].

٤. فرعون عن طريق الغرق: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ**

---

١. سورة الحاقة: ٦-٧.

٢. سورة هود: ٦١-٦٧.

٣. سورة الأعراف: ٧٣-٧٨.

٤. سورة القصص: ٧٦-٨١.

فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

فما هو مصير هامان من بين هذه الصور من العذاب المذكورة في الآيات وقد ورد اسمه ضمن المعذّبين بها؟

إنّ من المنطقي أن يُقال أنه لاقى ذات المصير الذي لاقاه سيده فرعون حين أُغرق في الماء وهو يُطارد موسى وبني إسرائيل، وهذا ما يفسّر لنا كيفية توزيع الأنواع الأربعة من العذاب على خمسة أقوام وشخصيات. وإذا رجعنا إلى ما ذُكر حول نهاية الكاهن الأكبر وكبير البنّائين على عهده «بَاك إن خُونْس»، فإنّ المصادر المصرية القديمة تذكر أنه مات بالقرب من فرعون، وهذا في حدّ ذاته يمثّل قرينة أخرى تزيد من قوة الاحتمال المفترض بأن «بَكنخُونْس» ليس سوى هامان[٢].

وإنْ لم يَقتنع البعض بهذه النتائج التي تمّ التوصّل إليها، مع وجود كل هذه الإشارات والقرائن والتشابهات بين النص القرآني والمعطيات الآثارية، فيمكن على الأقل القول بأن الاتّهام الذي أطلقه بعض المستشرقين القدماء والمعاصرين بحقّ النبي «صلى الله عليه وآله» بأنه أخطأ في ذِكر «هامان» ضمن القصة القرآنية يُعدُّ تُهمةً غير علمية، ولا يمكنها أن تصمد أمام النقد وقائمة الاحتمالات المنطقية في قراءة التاريخ.

---

١. سورة يونس: ٩٠.

2. www.islamic-awareness.org/quran/contrad/external/haman

٥

الطعام الكوشر

٥

الطعام الكوشر

كوشر أو كشروت כַּשְׁרוּת هو الطعام الحلال حسب الشريعة اليهودية، أما غير الكوشر فيسمى طريفه טרפה.

قال الله «تعالى»: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[١].

يمكننا أن نفهم من الآيتين السابقتين أن بعض اليهود أثاروا في وجه النبي محمد «صلى الله عليه وآله» والمسلمين إشكاليةً عقدية وشرعية مفادها أن ادّعاءكم حلّية بعض الأطعمة – وبحسب بعض الروايات لحوم الإبل على وجه التحديد – لا يتوافق مع شريعة الله، لأن الله حرّمها كما حرّم لحم الخنزير، وهذا مورد من الموارد التي تؤكّد أن الرسالة والشريعة التي جاء بها محمد ليست من نفس المنهل الذي أخذ منه موسى شريعته ورسالته، وأنه شيء صنعه هو وأخذ بعضه من شريعة موسى وبعضه من مصادر أخرى.

١. سورة آل عمران: ٩٣-٩٤.

فنزلت الآيتان - وبِلُغةٍ تحدٍّ واضحة - وهي تدعو أهل الكتاب أن يأتوا بالتوراة التي يؤمنون بها ويعتبرونها مصدر شريعتهم، وليبرهنوا من خلالها بأن الله قد حرّم ما يدّعون حرمته من الطعام، وليخطِّئوا بذلك ما جاء في القرآن وفي شريعة محمد «صلى الله عليه وآله» حول حلّيتها.

فماذا يمكن أن نجد في التوراة مما يدل على بطلان هذا الإشكال ويؤكد صحة هذا الرد القرآني؟ سنمضي مع التوراة خطوة خطوة في محاولة لاستقراء الموارد التي تحدثت عن طعام الإنسان وما كان منه حلالاً وما حُرِّم، ونصيغ الأفكار على شكل نقاط:

١. في بداية سِفر التكوين عند الحديث عن قصة آدم وحواء وإغواء الشيطان لهما نجد أن الله يعاقب آدم وزوجه بمجموعة إجراءات، من بينها: (وَقَالَ لآدَمَ: لأَنَّكَ سَمِعْتَ لقَوْلِ امْرَأَتِكَ وَأَكَلْتَ مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِي أَوْصَيْتُكَ قَائِلاً: لاَ تَأْكُلْ مِنْهَا، مَلْعُونَةٌ الأَرْضُ بِسَبَبِكَ. بِالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ) فقد كان الطعام في الجنة «الأرضية» التي عاشا فيها متوفراً، والحصول عليه ميسّراً، ولكنهما - بخطيئتهما وإخراجهما من تلك الجنة وانتقالهما للعيش في بيئة أخرى لا تتوفّر فيها الامتيازات التي توافرت فيها - فقدا هذا الامتياز، وصار لزاماً عليهما أن يعملا في الحقل من أجل أن يزرعا ويحصلا على الطعام بعد حلول موسم الحصاد، وهو أمر لم يكونا قد اعتادا عليه من قبل، وفيه من المشقة ما لا يخفى.

(وَشَوْكاً وَحَسَكاً تُنْبِتُ لَكَ) بما يدلّ على تغيّر البيئة التي سيعيشان فيها، وكأنها أقرب إلى البيئة الجافة والحارة منها إلى البيئة التي تتوافر فيها

الأمطار ويعتدل فيها الجو (وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزاً حَتَّى تَعُودَ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أُخِذْتَ مِنْهَا) أي إلى مماتك (لأَنَّكَ تُرَابٌ وَإِلَى تُرَابٍ تَعُودُ»)[١].

ويمكن أن ننتزع من النص السابق أن آدم وحواء - ما قبل الخطيئة - كانا يأكلان طعاماً متنوعاً، لا يقتصر على الطعام النباتي، بل قد يشمل لحوم الدواب والطيور، ولربما الأسماك أيضاً، إذ لا دلالة في هذا النص على اقتصار طعامهما على النبات، فعندما قال: (بالتَّعَبِ تَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ.... وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ. بِعَرَقِ وَجْهِكَ تَأْكُلُ خُبْزاً) لا يعني أنه كان فيما سبق يأكل فقط من العشب أو النبات الذي كان ينبت تلقائياً ومن دون حاجة إلى زراعة، بل قد يشمل اللحوم أيضاً، ولربما مُنِع منها بعد وقوعه في المعصية كنوع من العقوبة. بالطبع هذا كله وفق تفسير ظاهر النص، وأما إذا لجأنا إلى التأويل بالمعنى الرمزي[٢] فسيكون المراد مختلفاً، ولربما يشير إلى دخول البشرية في مرحلةِ تبدّل مناخي أدّى إلى نوع من التصحّر وفقدان الموارد الطبيعية.

٢. كلمات بعض شراح «التنخ» - وتعليقاً على النص السابق - تنصّ على أن طعام الإنسان في الأصل كان النبات فقط.

قال البابا شنودة الثالث في كتابه روحانية الصوم: (فلم يكن آدم وحواء يأكلان في الجنة سوي النباتات: البقول والثمار. وهكذا قال الله لآدم وحواء:

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ١، ١٧-١٩.
٢. راجع بحث من هو آدم؟ من نفس هذا الكتاب.

«إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْل يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا» «تك ١: ٢٩». بل حتى الحيوانات إلى ذلك الحين كانت نباتية أيضاً، إذ قال الرب: «وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَاماً» «التكوين: ١، ٣٠». وبعد طرد الإنسان من الجنة، بقي أيضاً نباتياً. ولكنه إلي جوار البقول وثمار الأرض، أعطي أن يأكل من عشب الأرض، أي من الخضراوات، فقال له الرب بعد الخطية: «وَتَأْكُلُ عُشْبَ الْحَقْلِ» «تك ٣: ١٨». ولم نسمع أن أبانا آدم مرض بسبب سوء التغذية، ولا أمنا حواء. بل نسمع أن أبانا آدم – وهو نباتي – عاش ٩٣٠ سنة «تك ٥:٥». وهكذا طالت أعمار أبنائه وأبناء أبنائه في هذه الأجيال النباتية.. «تك٥»[1].

ونجد السؤال التالي على موقع Chabad الإلكتروني، وهو موقع شهير يختص بعقائد اليهود وشريعتهم وتاريخهم وما يتعلّق بشئونهم الدينية: (هل أنتم متأكدون من تحريم تناول الإنسان للحوم إلى أن انتهى الطوفان؟)

وجاءت الإجابة بقلم «شاؤول ولف» وفيها أن الفرضية الشائعة هي أن آدم وحواء كانا نباتيين، وأن الله لم يسمح بقتل الحيوانات وتناول لحومها إلا بعد حوالي ١٦٠٠ عام من خلق العالم، أي بعد نهاية طوفان نوح، وعندها تم كسر هذا الحظر. هذا ما يدل عليه النص التوراتي «التكوين ١: ٢٩–٣٠»، وكذلك التلمود حيث نجد في «السنهدرين ٥٩ ب» ما ترجمته العربية عن الترجمة الإنجليزية، حيث لم أجد هذا النص في الترجمة العربية للتلمود البابلي:

1. vegan.yoo7.com/t85-topic

(قال الربّي يهودا باسم الربيين: لم يسمح لآدم بتناول اللحم، حيث نقرأ في الآية: «إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْل يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا، وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَاماً»)[1].

وتنص الآية ٩ من الإصحاح ٣ من سفر التكوين على السماح لنوح وذريته بتناول اللحوم، ومع ذلك، يصعب التسليم بهذا القول وذلك عندما نأخذ بعين الاعتبار القوانين العالمية السبعة التي صدرت بحق آدم وذريته. يسرد التلمود في السنهدرين ٥٦أ Sanhedrin 56a هذه القوانين السبعة على النحو التالي:

عَلِم الربيّون «الحاخامات» أن نوحاً وأبناءه أُعطوا سبع وصايا:

- وجوب إقامة نظام قضائي
- تحريم التجديف
- تحريم عبادة الأصنام
- تحريم العلاقات المحرمة
- تحريم القتل
- تحريم السرقة
- تحريم تناول لحم حيوان ما دام حياً

1. Rav Yehudah said in the name of Rav: “Adam was not permitted to eat meat, as the verse reads, ‘It will be yours for food. And to all the beasts of the earth.’ [For you and for the beasts,] but not the beasts for you.” (Talmud, Sanhedrin 59b).

وينبّه الكاتب على أن الوصية السابعة تعني عدم شمولية هذا المنع لتناول لحوم جثث الحيوانات الميتة، وأن التمعّن والتدقيق في نصوص التلمود تقودنا إلى القول بأن هذه القوانين أُعطيت لآدم مِن قَبلُ، ولم تكن قاصرة على نوح وذريته.

وهذا يطرح إشكالية مهمة، فإذا كان المطلوب من آدم أن يكون نباتياً، وحُرّم عليه تناول أي نوع من اللحوم، فلماذا كان من الضروري أن يُنهَى عن تناول لحم الحيوان ما دام حياً؟

أشار الكاتب إلى أن المعلقين على هذا النص قدّموا عدة معالجات لهذه الإشكالية:

أ. فمنهم مَن اعتبر أن المنع كان خاصاً بقتل الحيوان، لا تناول اللحم، ولذا كان من المباح له أن يأكل من لحم الميتة لو شاء.

ب. ومنهم من اعتبر أن الله أراد لآدم وذريته أن يكونوا نباتيين، ويمنعهم من أكل اللحوم مطلقاً، بما في ذلك لحم الميتة.

ويختم الكاتب بقوله: باختصار، إن فهم الطبيعة الغذائية لآدم يعتمد على تحديد زمن تشريع القانون السابع، أي عدم تناول لحم حيوان ما دام حياً، فإذا كان القانون قد شُرِّع مع بقية القوانين الستة الأخرى، فيجب علينا حينئذ أن نستنتج أنه تم السماح لآدم بأكل اللحم وليس قتل الحيوانات. أما إذا قلنا بأنه شُرِّعَ في وقت لاحق، فيمكننا أن نفترض أن آدم كان بالفعل نباتياً [1].

1. www.chabad.org/parshah/article_cdo/aid/3087361/jewish/Are-You-Sure-Meat-Was-Forbidden-Until-After-the-Flood.htm

٣. وللقس وليم مارش في كتابه «السّنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم» رأي في المسألة، حيث أشار في البدء إلى ما جاء في الآيات ١١-١٣ من الأصحاح الأول من سفر التكوين من ذِكرٍ لثلاثة أنواع من النبات، وهي العشب والبقل والشجر، وذلك ضمن الحديث عن خلق السماوات والأرض والشمس والقمر وإيجاد الحياة على الأرض، والآية كالتالي: (وَقَالَ اللهُ: لِتُنْبِتِ الأَرْضُ عُشْباً وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْراً، وَشَجَراً ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَراً كَجِنْسِه، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ. وَكَانَ كَذلِكَ. فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْباً وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْراً كَجِنْسِه وَشَجَراً يَعْمَلُ ثَمَراً بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِه. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ)[١]، وأن الله أعطى الإنسان أكمل النوعين وأعلاهما طعاماً، أي البقل والشجر، بينما صار العشب للحيوانات، بينما تبيّن الآية الثلاثين: (وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَاماً. وَكَانَ كَذلِكَ)[٢]، أن الله أعطى البهائم والطيور العشب الأخضر، أي النوع الأدنى. ولا يراد بذلك أن الله منع الحيوانات والطيور من أكل الأثمار والبزور، بل إن أصل قوام أجسادها هي أوراق العشب وسوقه. وفي كل هذا دليل على أن الإنسان أعلى من سائر الحيوان.

ومما يستحق الذكر هنا - بحسب مارش - أن الطعام المعيّن للإنسان هو من النوع الذي يستلزم إعداداً خاصاً وطبخاً ليصلح للأكل كالقمح والحبوب والبقول وكثير من الأثمار. ولزوم إعداد هذه الأطعمة وطبخها كان من أكثر أسباب الترفيه والتهذيب الإنساني في اجتماع العائلة حول مائدة الطعام.

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين: الأصحاح ١، ١١-١٣.
٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين: الأصحاح ١، ٣٠.

ثم تساءل مارش: «وهل اعتاد الإنسان أكل اللحوم قبل الطوفان؟»، وأجاب معتبراً أن الله أباح لنوح ونسله بعد الطوفان أكلها، وجاء ذلك صريحاً في قوله: (كُلُّ دَابَّةٍ حَيَّةٍ تَكُونُ لَكُمْ طَعَامًا. كَالْعُشْبِ الأَخْضَرِ دَفَعْتُ إِلَيْكُمُ الْجَمِيعَ. غَيْرَ أَنَّ لَحْمًا بِحَيَاتِهِ، دَمِهِ، لاَ تَأْكُلُوهُ) أي لا تأكلوها ما دامت على قيد الحياة والدم يتواجد ويتحرك فيها، وأنه لا صعوبة في فرض أن أولاد آدم قبل الطوفان اكتفوا بأكل الأثمار والنباتات، لأن السواد الأعظم من قبائل آسيا اليوم لا يأكلون اللحم إلا نادراً، لكنهم يتناولون اللبن والجبن وغيرهما من نتاج الحيوان. فالطعام الأصلي المعيّن للإنسان نباتي، والتصريح بإباحة أكل اللحوم لم يكن إلا بعد الطوفان.

إلا أن مارش تدارك الكلام السابق بلحاظ أن السُّلطة التي وُهبت للإنسان على السمك والطير وكل حيوان تستلزم ذلك، فقد جاء في الآية الثامنة والعشرين من الأصحاح الأول من سفر التكوين، وفيه (وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا، وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ). وهذا الاستدلال من القس مارش استدلال لطيف، وفي محلّه، بلحاظ أن من مصاديق التسلّط عليها أكلها.

ثم استدلّ مارش على رأيه هذا بأمر آخر، وهو أن الجلود التي لبسها آدم وحواء عند طردهما من الفردوس برهان على ذبح البهائم قبل ارتكابهما للخطيئة، كما أن تقديم هابيل من أبكار غنمه ومِن سِمانها دليلٌ على أن الذي قدّم هذه الذبيحة أكَل منها، هو وعياله، كما تقتضيه المراسم الدينية، حيث

يُقدَّم قسم من القربان للّه ويُحرَق على المذبح، ويَأكل الإنسان مما تبقّى من الذبيحة، وكأنه ضيفُ اللّه.

وحيث ذهب القس مارش إلى القول بأن الإنسان - منذ آدم وحواء - أكل لحم الحيوان، إلا أنه قيّد ذلك في العهد السابق لانتهاء الطوفان بكونه ضمن مراسيم تقديم القرابين، لا مطلقاً، وأن (نسل شيث قبل الطوفان لم يأكل اللحم أكلاً عادياً، بل حين تقديم الذبائح، وأن اللّه بعد الطوفان أباح أكل اللحم مطلقاً).

وأخيراً ذكر مارش فلسفة الإباحة المطلقة بقوله: (ونرى في ذلك حكمة اللّه ورحمته للإنسان فإنه في الأقاليم الشمالية والجنوبية الباردة يقل النبات ويكثر الحيوان الموافق للطعام ويحتاج الإنسان إلى أكل اللحم هناك أكثر من سكان الأقاليم الحارة والمعتدلة)[١].

• نسخ التشريع:

بناء على الآراء السابقة يتّضح أن أكل لحم كل أنواع الحيوانات، من الدواب والطيور والأسماك كان مباحاً - على الأقل - بعد انتهاء طوفان النبي نوح «عليه السلام»، إن لم يكن منذ عهد آدم.. (كُلُّ دَابَّةٍ حَيَّةٍ تَكُونُ لَكُمْ طَعَامًا. كَالْعُشْبِ الأَخْضَرِ دَفَعْتُ إِلَيْكُمُ الْجَمِيعَ)، على أن لا يكون مقتطعاً من حيوان حي أو أن لا يكون مشتملاً على الدم: (غَيْرَ أَنَّ لَحْمًا بِحَيَاتِهِ، دَمِهِ، لاَ تَأْكُلُوهُ)[٢].. فمتى بدأ تقنين ذلك وتحريم بعض أنواعها؟

١. مارش: السّنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم، شرح الأصحاح ١.
٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين: الأصحاح ٩، ٣-٤.

• في سفر اللاويين:

ليس في النص التوراتي أية إشارة إلى هذا التقنين إلا بعد نزول الشريعة على النبي موسى «عليه السلام»، فقد جاء في سفر اللاويين: (وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا لَهُمَا: «كَلِّمَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: هذِهِ هِيَ الْحَيَوَانَاتُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا مِنْ جَمِيعِ الْبَهَائِمِ الَّتِي عَلَى الأَرْضِ).

ثم يسرد النص التوراتي أنواع الدواب المباحة والمحرمة: (كُلُّ مَا شَقَّ ظِلْفًا وَقَسَمَهُ ظِلْفَيْنِ، وَيَجْتَرُّ مِنَ الْبَهَائِمِ، فَإِيَّاهُ تَأْكُلُونَ. إِلاَّ هذِهِ فَلاَ تَأْكُلُوهَا مِمَّا يَجْتَرُّ وَمِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ: الْجَمَلَ، لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. وَالْوَبْرَ، لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. وَالأَرْنَبَ، لأَنَّهُ يَجْتَرُّ لكِنَّهُ لاَ يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. وَالْخِنْزِيرَ، لأَنَّهُ يَشُقُّ ظِلْفًا وَيَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ، لكِنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. مِنْ لَحْمِهَا لاَ تَأْكُلُوا، وَجُثَّتَهَا لاَ تَلْمِسُوا. إِنَّهَا نَجِسَةٌ لَكُمْ).

وأما الأسماك فجاء فيها التالي: («وَهذَا تَأْكُلُونَهُ مِنْ جَمِيعِ مَا فِي الْمِيَاهِ: كُلُّ مَا لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ فِي الْمِيَاهِ، فِي الْبِحَارِ وَفِي الأَنْهَارِ، فَإِيَّاهُ تَأْكُلُونَ. لكِنْ كُلُّ مَا لَيْسَ لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ فِي الْبِحَارِ وَفِي الأَنْهَارِ، مِنْ كُلِّ دَبِيبِ فِي الْمِيَاهِ وَمِنْ كُلِّ نَفْسٍ حَيَّةٍ فِي الْمِيَاهِ، فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ، وَمَكْرُوهًا يَكُونُ لَكُمْ. مِنْ لَحْمِهِ لاَ تَأْكُلُوا، وَجُثَّتَهُ تَكْرَهُونَ. كُلُّ مَا لَيْسَ لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ فِي الْمِيَاهِ فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ).

وما يخص الطيور: («وَهذِهِ تَكْرَهُونَهَا مِنَ الطُّيُورِ. لاَ تُؤْكَلْ. إِنَّهَا مَكْرُوهَةٌ: اَلنَّسْرُ وَالأَنُوقُ وَالْعُقَابُ وَالْحِدَأَةُ وَالْبَاشِقُ عَلَى أَجْنَاسِهِ، وَكُلُّ غُرَابٍ عَلَى

أَجْنَاسه، وَالنَّعَامَةُ وَالظَّلِيمُ وَالسَّأَفُ وَالْبَازُ عَلَى أَجْنَاسه، وَالْبُومُ وَالْغَوَّاصُ وَالْكُرْكِيُّ وَالْبَجَعُ وَالْقُوقُ وَالرَّخَمُ وَاللَّقْلَقُ وَالْبَبْغَا عَلَى أَجْنَاسه، وَالْهُدْهُدُ وَالْخُفَّاشُ. وَكُلُّ دَبِيبِ الطَّيْرِ الْمَاشِي عَلَى أَرْبَع. فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ. إِلاَّ هذَا تَأْكُلُونَهُ مِنْ جَمِيعِ دَبِيبِ الطَّيْرِ الْمَاشِي عَلَى أَرْبَع: مَا لَهُ كُرَاعَانِ فَوْقَ رِجْلَيْهِ يَثِبُ بِهِمَا عَلَى الأَرْضِ. هذَا مِنْهُ تَأْكُلُونَ: الْجَرَادُ عَلَى أَجْنَاسه، وَالدَّبَا عَلَى أَجْنَاسه، وَالْحَرْجُوانُ عَلَى أَجْنَاسه، وَالْجُنْدُبُ عَلَى أَجْنَاسِهِ. لكِنْ سَائِرُ دَبِيبِ الطَّيْرِ الَّذِي لَهُ أَرْبَعُ أَرْجُل فَهُوَ مَكْرُوهٌ لَكُمْ).

وأما الحشرات والزواحف وأمثالها فالحكم فيها كالتالي: («وَكُلُّ دَبِيبٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ فَهُوَ مَكْرُوهٌ لاَ يُؤْكَلُ. كُلُّ مَا يَمْشِي عَلَى بَطْنِه، وَكُلُّ مَا يَمْشِي عَلَى أَرْبَع مَعَ كُلِّ مَا كَثُرَتْ أَرْجُلُهُ مِنْ كُلِّ دَبِيبٍ يَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ، لاَ تَأْكُلُوهُ لأَنَّهُ مَكْرُوهٌ)[1].

• في سفر التثنية:

والأصحاح ١٤ من سفر تثنية الاشتراع يؤكد المضمون السابق: (هذِهِ هِيَ الْبَهَائِمُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا: الْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالْمَعْزُ، وَالإِيَّلُ وَالظَّبْيُ وَالْيَحْمُورُ وَالْوَعْلُ وَالرِّئْمُ وَالثَّيْتَلُ وَالْمَهَاةُ. وَكُلُّ بَهِيمَةٍ مِنَ الْبَهَائِمِ تَشُقُّ ظِلْفًا وَتَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ وَتَجْتَرُّ فَإِيَّاهَا تَأْكُلُونَ. إِلاَّ هذِهِ فَلاَ تَأْكُلُوهَا، مِمَّا يَجْتَرُّ وَمِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ الْمُنْقَسِمَ: الْجَمَلُ وَالأَرْنَبُ وَالْوَبْرُ، لأَنَّهَا تَجْتَرُّ لكِنَّهَا لاَ تَشُقُّ ظِلْفًا، فَهِيَ نَجِسَةٌ لَكُمْ. وَالْخِنْزِيرُ لأَنَّهُ يَشُقُّ الظِّلْفَ لكِنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. فَمِنْ لَحْمِهَا لاَ تَأْكُلُوا وَجُثَّتَهَا لاَ تَلْمِسُوا).

---

١. الكتاب المقدس: سفر اللاويين: الأصحاح ١١، ١-٤٢.

وحول الكائنات البحرية يقول: («وَهذَا تَأْكُلُونَهُ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْمِيَاه: كُلُّ مَا لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ تَأْكُلُونَهُ. لكِنْ كُلُّ مَا لَيْسَ لَهُ زَعَانِفُ وَحَرْشَفٌ لاَ تَأْكُلُوهُ. إِنَّهُ نَجِسٌ لَكُمْ).

وحول الطيور يقول: («كُلَّ طَيْرٍ طَاهِرٍ تَأْكُلُونَ. وَهذَا مَا لاَ تَأْكُلُونَ مِنْهُ: النَّسْرُ وَالأَنُوقُ وَالْعُقَابُ، وَالْحِدَأَةُ وَالْبَاشِقُ وَالشَّاهِينُ عَلَى أَجْنَاسِه، وَكُلُّ غُرَابٍ عَلَى أَجْنَاسِه، وَالنَّعَامَةُ وَالظَّلِيمُ وَالسَّأَفُ وَالْبَازُ عَلَى أَجْنَاسِه، وَالْبُومُ وَالْكُرْكِيُّ وَالْبَجَعُ وَالْقُوقُ وَالرَّخَمُ وَالْغَوَّاصُ، وَاللَّقْلَقُ وَالْبَبَغَاءُ عَلَى أَجْنَاسِه، وَالْهُدْهُدُ وَالْخُفَّاشُ. وَكُلُّ دَبِيبِ الطَّيْرِ نَجِسٌ لَكُمْ. لاَ يُؤْكَلُ. كُلَّ طَيْرٍ طَاهِرٍ تَأْكُلُونَ)[1].

• فلسفة نسخ التشريع:

وللأب أنطونيوس فكري محاولة لبيان فلسفة تغيّر التشريع بخصوص تناول اللحم إذ اعتبر أن طعام الإنسان في الأصل كان من العشب الأخضر، ثم سمح له الله بأكل لحوم الحيوانات والطيور والأسماك. لماذا؟ سقوط الإنسان «آدم» بارتكاب الخطيئة حوّل طبعه لطبعٍ وحشي، حتى أن قايين «قابيل» قتل أخاه هابيل، بل إن وحشية الإنسان انعكست على الحيوان أيضاً، فبحسب انطونيوس فإن بعض الحيوانات الأليفة صارت متوحشة، وهكذا بالنسبة إلى بعض الطيور والأسماك... وحرصاً من الله أن لا يتحول الإنسان لوحش يأكل أخاه، سمح الله بأكل لحوم الحيوانات! ومع هذا نجد أن بعض القبائل تأكل لحم الإنسان! قد تكون الأرض ضعُفت نتيجة اللعنة وأصبحت تُعطي نباتات أضعف. قد تكون العلة في ضعف جسد الإنسان الذي أصبح يحتاج لطعام

١. الكتاب المقدس: سفر سفر التثنية: الأصحاح ١٤، ٤-٢٠.

أقوى، ليهيئ الطريق لقبول الشريعة الموسوية التي بها يلتزم الكاهن أن يأكل من بعض الذبائح[١].

• نتيجة المقارنة:

من خلال العرض السابق ندرك أن تحريم تناول لحوم بعض أنواع الحيوان ليس تحريماً أصيلاً في كل الشرائع السماوية، وأن شريعة إبراهيم، وما كان عليه إسحاق ويعقوب «إسرائيل» وذريته «بنو إسرائيل» - إلى نزول التوراة بحسب النصوص السابقة - لم تحرّم أكل لحوم الإبل والأرانب والسباع ولا حتى الخنزير، وهذا يتوافق مع جاء في الآيات القرآنية التي تردّ على إشكالية إباحة لحم الإبل بقولها: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ قبل نزول التوراة والتشريعات التي عرضناها من سفر اللاويين وسفر التثنية ﴿**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾ فقد امتنع النبي يعقوب عن تناول بعض ما كان مباحاً في أصل الشريعة الإبراهيمية وسار بنوه على هذا الامتناع احتراماً واستناناً بسنّة أبيهم، وليس من باب ادّعاء نزول التشريع الإلهي الناسخ للإباحة المطلقة، وكل هذا كان ﴿**مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**﴾ فإن كنتم تدّعون شيئاً خلاف هذه الحقيقة ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ وحيث أن التوراة تؤكد عدم التحريم قبل نزول الشريعة الموسوية، لذا ﴿**فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[٢].

---

1. drghaly.com/articles/display/10464

٢. سورة آل عمران: ٩٣-٩٤.

وجاء في التلمود: (ويجادل الربي يهودا: ألم يكن عرق النسا محرماً من زمن أبناء يعقوب، وكان أكل الحيوانات النجسة) أي التي يحرم تناولها (لا يزال مباحاً لهم؟)[١].

هذا يدل على أن أبناء يعقوب كانوا يتمتعون بوضع أحفاد نوح، أي جواز أكل لحوم تلك الحيوانات التي حرّمتها الشريعة الموسوية.

• ماذا حرّم النبي يعقوب على نفسه؟

جاء في الآيات السابقة عبارة: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾، فماذا حرّم النبي يعقوب «عليه السلام» على نفسه تحديداً، وتبعه على ذلك بنوه وذريتُهم مِن بعدهم؟

بالعودة إلى مرويات المسلمين فسنجد أنها منقسمة إلى آراء عدة، ويمكن استعراضها كالتالي:

١. عن ابن عباس أن اليهود قالوا للنبي «صلى الله عليه وآله»: (أخبِرنا، ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يسكن البدو، فاشتكى عرق النسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها، فلذلك حرّمها. قالوا: صدقت)[٢].

وليس من الواضح معنى قوله: «فلم يجد شيئاً يلائمه إلا لحوم الإبل وألبانها، فلذلك حرّمها».. هل المراد أنه لم يجد شيئاً يسبب هذا الألم سوى لحوم الإبل وألبانها، أم أنه لم يجد شيئاً يطيب له أكثر منهما فحرّمهما على نفسه كنوع من النذر أملاً في الشفاء كما سيأتي في الرواية التالية؟

١. التلمود البابلي، الجزء ١٦، القسم الخامس، ص٣٠٠.
٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٢، ص ٨٧.

٢. عن عباس: (أن عصابة من اليهود حضرت رسولَ الله «صلى الله عليه وسلم»، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا أيّ الطعام حرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرضَ مرضًا شديدًا، فطال سقمه منه، فنذر لله نذرًا لئن عافاه الله من سقْمه ليحرّمنّ أحبّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبّ الطعام إليه لُحمان الإبل، وأحبّ الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم)[١].

٣. عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدّي: (أقبل يعقوب «عليه السلام» مِن حَرّان) من مدن بلاد ما بين النهرين، تقع حالياً جنوب شرق تركيا عند منبع نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات (يريد بيت المقدس حين هرب من أخيه عيصو، وكان رجلاً بطِشاً قوياً، فلقيه ملَك فظنّ يعقوب أنه لص، فعالجه أن يَصرعه، فغمز الملَك فخذ يعقوب «عليه السلام»، ثم صعد الملَك إلى السماء ويعقوب ينظر إليه، فهاج عليه عِرق النسا، ولقي من ذلك بلاء شديداً، فكان لا ينام الليل مِن الوجع، ويبيت وله زُقاء - أي صياح - فحلف يعقوب «عليه السلام» إن شفاه الله «جل وعز» ألا يأكل عِرقاً، ولا يأكل طعاماً فيه عِرق، فحرّمها على نفسه، فجعل بنوه يتّبعون بعدَ ذلك العروق فيخرجونها من اللحم. وكان سبب غمز الملَك ليعقوب أنه كان نذر إنْ وهب الله له اثني عشر ولداً وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرَهم. فكان ذلك للمَخرج مِن نَذره)[٢].

٤. عن الحسن في قوله: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ قال:

١. الطبري: جامع البيان، ج٣، ص٣٥٢.
٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١، ص ٢٠٣.

(كان إسرائيل حرّم على نفسه لحومَ الإبل، وكانوا يزعمون أنهم يجدون في التوراة تحريم إسرائيل على نفسه لحومَ الإبل وإنما كان حرّم إسرائيل على نفسه لحوم الإبل قبل أن تنـزل التوراة، فقال الله: ﴿**فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾، فقال: لا تجدون في التوراة تحريم إسرائيل على نفسه، أي لحم الإبل)[١].

٥. عن مجاهد في قوله: ﴿**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾. قال: (حرّم لحم الأنعام)[٢].

٦. عن عكرمة: (حرم زائدتي الكبد، والكليتين، والشحوم، إلا ما حملته الظهور)[٣].

٧. عن سعيد بن جبير: (أنه كان به ذلك الداء فأكل من لحوم الإبل فبات بليلة يزقو فحلف أن لا يأكله أبداً)[٤].

٨. روي عن الحسن: (حرّمه على نفسه تعبداً وسأل الله «تعالى» أن يجيز له فحرّم «سبحانه» على وُلده ذلك)[٥].

٩. وقيل: (إنه حرمه وكفّ نفسه عنه كما يحرم المستظهر في دينه من الزهاد اللذائذ على نفسه)[٦].

---

١. الطبري: جامع البيان، ج٣، ص٣٥١.
٢. الطبري: جامع البيان، ج٣، ص٣٥١.
٣. الطبرسي: مجمع البيان، ج٢، ص٣٤٤.
٤. الآلوسي: روح المعاني، ج٤، ص٢.
٥. الآلوسي: روح المعاني، ج٤، ص٢.
٦. الآلوسي: روح المعاني، ج٤، ص٢.

١٠. وفي تفسير البغوي أن سبب نزول هذه الآية: (أن اليهود قالوا لرسول الله «صلى الله عليه وسلم»: تزعم أنك على ملة إبراهيم؟ وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل وألبانها وأنت تأكلها، فلستَ على ملته! فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: كان ذلك حلالاً لإبراهيم «عليه السلام». فقالوا: كل ما نحرّمه اليوم كان ذلك حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله «تعالى» هذه الآية ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ يريد: سوى الميتة والدم، فإنه لم يكن حلالاً قط)[١] ولا دلالة في الآية على هذا الاستثناء الأخير.

وبالعودة إلى التوراة سنجد أنها تذكر أن يعقوب حرّم على نفسه شيئاً من الطعام، وذكرت قصةً أشبه بالأسطورة منها إلى الحقيقة في تبرير هذا التحريم، وهي قريبة مما جاء في القول الثالث الذي ذكرناه من بين أقوال مفسّري القرآن الكريم حول الآيات من سورة آل عمران، والقصة التوراتية تتلخّص في أن النبي يعقوب «عليه السلام» كان هارباً من أخيه «عيسو»، ثم قرر بعد فترة أن يعود مجدداً إلى دياره حيث يتواجد أخوه، وفي الطريق التقى ببعض الملائكة: (وَأَمَّا يَعْقُوبُ فَمَضَى فِي طَرِيقِهِ وَلاَقَاهُ مَلاَئِكَةُ اللهِ. وَقَالَ يَعْقُوبُ إِذْ رَآهُمْ: «هذَا جَيْشُ اللهِ!». فَدَعَا اسْمَ ذلِكَ الْمَكَانِ «مَحَنَايِمَ»).

ولكي يمهّد الطريق لعودته، أرسل النبي يعقوب مَن يُخبر عيسو بقراره العودة متذللاً أمام قوة أخيه ليسمح له بالعودة: («هكَذَا تَقُولُونَ لِسَيِّدِي عِيسُوَ: هكَذَا قَالَ عَبْدُكَ يَعْقُوبُ: تَغَرَّبْتُ عِنْدَ لاَبَانَ) هو خال النبي يعقوب، وأبو زوجتيه ليا وراحيل، واسمه لابان بن بيتويل לָבָן הָאֲרַמִי، ومعنى لابان:

١. البغوي: معالم التنزيل، ص٢٢٤.

أبيض، ولعله من كلمة «لَبَن»، وكان يسكن في أرض «فدان» من بلاد ما بين النهرين، ولما توفي الخال قرر النبي يعقوب العودة إلى بلاد كنعان (وَلَبِثْتُ إِلَى الآنَ. وَقَدْ صَارَ لِي بَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَغَنَمٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ. وَأَرْسَلْتُ لأُخْبِرَ سَيِّدِي لِكَيْ أَجِدَ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ». فَرَجَعَ الرُّسُلُ إِلَى يَعْقُوبَ قَائِلِينَ: «أَتَيْنَا إِلَى أَخِيكَ، إِلَى عِيسُو، وَهُوَ أَيْضًا قَادِمٌ لِلِقَائِكَ، وَأَرْبَعُ مِئَةِ رَجُل مَعَهُ»).

بحسب هذه القصة، فإن النبي يعقوب تخوّف من جواب أخيه، واتّخذ إجراء احترازياً: (فَقَسَمَ الْقَوْمَ الَّذِينَ مَعَهُ وَالْغَنَمَ وَالْبَقَرَ وَالْجِمَالَ إِلَى جَيْشَيْنِ. وَقَالَ: «إِنْ جَاءَ عِيسُو إِلَى الْجَيْشِ الْوَاحِدِ وَضَرَبَهُ، يَكُونُ الْجَيْشُ الْبَاقِي نَاجِيًا»).

ثم دعا يعقوب «عليه السلام» ربّه طالباً منه العون والنجاة من بطش أخيه: (وَبَاتَ هُنَاكَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَأَخَذَ مِمَّا أَتَى بِيَدِهِ هَدِيَّةً لِعِيسُو أَخِيهِ: مِئَتَيْ عَنْزٍ وَعِشْرِينَ تَيْسًا، مِئَتَيْ نَعْجَةٍ وَعِشْرِينَ كَبْشًا، ثَلاَثِينَ نَاقَةً مُرْضِعَةً وَأَوْلاَدَهَا، أَرْبَعِينَ بَقَرَةً وَعَشَرَةَ ثِيرَانٍ، عِشْرِينَ أَتَانًا وَعَشَرَةَ حَمِيرٍ، وَدَفَعَهَا إِلَى يَدِ عَبِيدِهِ قَطِيعًا قَطِيعًا عَلَى حِدَةٍ. وَقَالَ لِعَبِيدِهِ: «اجْتَازُوا قُدَّامِي وَاجْعَلُوا فُسْحَةً بَيْنَ قَطِيعٍ وَقَطِيعٍ»).

بات يعقوب «عليه السلام» تلك الليلة في نفس المكان الذي تلقّى فيه جواب أخيه، وأرسل الهدايا مقسَّمة إلى وحدات متفرقة: (ثُمَّ قَامَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَأَخَذَ امْرَأَتَيْهِ وَجَارِيَتَيْهِ وَأَوْلاَدَهُ الأَحَدَ عَشَرَ وَعَبَرَ مَخَاضَةَ يَبُّوقَ) المخاضة: مكان ضحل من النهر أو الجدول يسهل خوضه أو السباحة فيه (أَخَذَهُمْ وَأَجَازَهُمُ الْوَادِيَ، وَأَجَازَ مَا كَانَ لَهُ. فَبَقِيَ يَعْقُوبُ وَحْدَهُ، وَصَارَعَهُ إِنْسَانٌ حَتَّى طُلُوعِ الْفَجْرِ) ولا يوضّح النص من هو أو ما هي حقيقة هذا الإنسان ولماذا

صارعه (وَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لاَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِهِ، فَانْخَلَعَ حُقُّ فَخْذِ يَعْقُوبَ فِي مُصَارَعَتِهِ مَعَهُ. وَقَالَ: «أَطْلِقْنِي، لأَنَّهُ قَدْ طَلَعَ الْفَجْرُ». فَقَالَ: «لاَ أُطْلِقُكَ إِنْ لَمْ تُبَارِكْنِي». فَقَالَ لَهُ: «مَا اسْمُكَ؟» فَقَالَ: «يَعْقُوبُ». فَقَالَ: «لاَ يُدْعَى اسْمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ»). أما في النص العبري فقد جاءت الآية كالتالي:

וַיֹּאמֶר לֹא יַעֲקֹב יֵאָמֶר עוֹד שִׁמְךָ כִּי אִם־יִשְׂרָאֵל כִּי־שָׂרִיתָ עִם־אֱלֹהִים וְעִם־אֲנָשִׁים וַתּוּכָל. ولفظه بالكتابة الإنجليزية:

way-yō-mer, lō ya-‘ă-qōḇ yê-’ā-mêr ‘ō-wḏ šim-ḵā, kî ’im-yiś-rā-’êl; kî- śā-rî-ṯā ‘im- ’ĕ-lō-hîm wə-‘im- ’ă-nā-šîm wat-tū-ḵāl.

وترجمته في بعض النسخ الإنجليزية:

And He said: not Jacob shall be called anymore Your name but Israel for you have struggled with God and with men and have prevailed.

لأنك صارعت مع الله ومع الناس! وكلمة صارعت متماثلة إلى حد كبير مع لفظها بالعبرية שָׂרִיתָ : śā-rî-ṯā.

أي أن يعقوب – بحسب هذا النص – صارع الله وهو في صورة إنسان! والذي يؤكّد هذا المعنى تتمة القصة في التوراة: (وَسَأَلَ يَعْقُوبُ وَقَالَ: «أَخْبِرْنِي بِاسْمِكَ». فَقَالَ: «لِمَاذَا تَسْأَلُ عَنِ اسْمِي؟» وَبَارَكَهُ هُنَاكَ. فَدَعَا يَعْقُوبُ اسْمَ

الْمَكَانِ «فَنِيئِيلَ» قَائِلًا: «لأَنِّي نَظَرْتُ اللهَ وَجْهًا لِوَجْهٍ، وَنُجِّيَتْ نَفْسِي». وَأَشْرَقَتْ لَهُ الشَّمْسُ إِذْ عَبَرَ فَنُوئِيلَ وَهُوَ يَخْمَعُ عَلَى فَخْذِهِ).

ويؤكد أحبار اليهود على أن المصارعة حدثت مع ملاك من الملائكة وليس مع الله على خلاف ظاهر النص التوراتي، ونجد في التلمود أن يعقوب «عليه السلام» قال للذي صارعه عندما طلب منه أن يُطلقه لأنه قد طلع الصباح: (هل أنت لص أم متشرد حتى تخشى الصباح؟ فأجاب: إنني ملاك، ولم يحن وقت مدحي للرب منذ بُرئت إلى الآن). ثم يستغرق النص التلمودي في بيان الأقسام الثلاثة للملائكة المسبِّحين(١).

بعد أن انتهت التوراة من وصف الحدث، أعقبت ذلك ببيان مسألة امتناع بني إسرائيل عن تناول «عرق النسا = גִּיד הַנָּשֶׁה [وتلفظ Gid Hanasheh]» ويُقصد بذلك حرمة تناول العصب الوركي Sciatic Nerve، وتُعرف هذه الحالة المرضية المرتبطة بهذا العصب باسم «عرق النسا» Sciatica وهو ألم يمتد على طول العصب الوركي، ويتفرع من أسفل ظهرك ممتداً إلى الوركين والأرداف وأسفل كل ساق. وعادة ما يؤثّر عرق النسا في جانب واحد فقط من الجسم، وينشأ عرق النسا – عادةً – عندما يضغط القرص المنفتق أو النتوءات العظمية في العمود الفقري أو تضيق مسافات العمود الفقري «تضيُّق القناة الشوكية» على جزء من العصب. يسبب هذا الإصابة بالالتهاب والشعور بالألم والشعور غالباً ببعض الوخز في الساق المصابة.

وهذا الحدث الذي وقع ليعقوب «عليه السلام» بحسب النص التوراتي هو

١. التلمود البابلي، القسم الخامس، قوداشيم، ج١٦، ص٢٨١.

العلة في تحريم تناول العصب الوركي في الشريعة اليهودية: (لذلكَ لاَ يَأْكُلُ بَنُو إِسْرَائِيلَ عِرْقَ النَّسَا الَّذِي عَلَى حُقِّ الْفَخِذِ إِلَى هذَا الْيَوْمِ، لأَنَّهُ ضَرَبَ حُقَّ فَخْذِ يَعْقُوبَ عَلَى عِرْقِ النَّسَا)[١].

ونجد النص التالي في «المشنا» من التلمود: (ينطبق تحريم عرق النسا - أي العصب - في الأرض المقدسة وخارجها، خلال وجود الهيكل) المعبد الذي في بيت المقدس (وبعده) بعد تدميره كما هو الحال في هذا الزمان (على الحيوانات المكرّسة) المنذورة أو القرابين (وغير المكرّسة، وينطبق على الماشية والحيوانات البرية، على الفخذ الأيمن والأيسر، ولكنه لا ينطبق على الطيور لأن ليس لها فخذ كشكل الملعقة، العضلات الموجودة على عظمة الفخذ مسطحة في الطائر، وليس مقعرة كعظمة البهائم، أما في المواشي فإن هذه العظمة تشبه ظهر الملعقة أو الهراوة. وهذه الخاصية محرّمة بشكل صريح)[٢].

ثم يذكر هذا النص التلمودي وجود الاختلاف بين الربيّين في إمكانية الاعتماد على القصّاب في إزالة هذا العصب: (ولا يؤتمن اللحامون على إزالة عرق النسا لأنه يتطلّب عملاً شاقاً ودقيقاً، وليس من السهل أن يتتبعه اللحام في كل تشعباته، ولذلك لا ينبغي للمرء أن يعتمد عليه، وهذا ما يراه الربّي مائير، أما الحاخامات فيقولون: إنهم مؤتمنون عليه)[٣].

---

١. الكتاب المقدس: سفر التكوين ٣٢.

٢. التلمودالبابلي، القسم الخامس، قوداشيم، ج١٦، ص٢٧٥.

٣. التلمود البابلي، القسم الخامس، قوداشيم، ج١٦، ص٢٧٥.

وفي شرح العبارة السابقة تقول الجمارا: (إذا أكل شخص حجم حبة زيتون من عِرق النسا من هذا الفخذ، وحجم حبة زيتون من عرق النسا الفخذ الآخر، فقد استحق ثمانين جلدة)[١].

ولكن ما هي أهمية العصب الوركي ليؤكل؟ وهل يأكله الناس عادة؟ وما قيمة أن يحرّمه يعقوب على نفسه، سواء كردّة فعل على ما وقع له بحسب هذه القصة التوراتية، أو لسبب آخر من قبيل المشاكل الصحية التي قد تترتب نتيجة تناول جزء من جسد الحيوان؟

هناك شرحات لحمية معينة من البقر وغيرها، مثل قطعة الـ «فيليه مينيون» Filet Mignon لا يأكلها اليهودي المتديّن، بسبب اختلاط لحمها بهذا العصب، وبالشحم الممنوع تناوله.

يقول الربي «أليعازر بوسنر» Eliezer Posner: (لا يمكن إلا للفرد الماهر للغاية فصل الأجزاء المحظورة عن اللحوم الكوشر القريبة من هذا العصب والشحم الملتقص بها، في عملية تسمى Nikkur وتعني النّقر والتنقيب، وبالتالي، من الصعب العثور على قطعة فيليه مينيون تكون مباحة وفق الشريعة اليهودية «كوشر»... وينطبق الشيء نفسه مع شرائح لحم الأرداف والخاصرة وساق الخروف).

ومن أحبار اليهود من توسّع في الأمر ولم يكتف بعرق النسا، حيث اعتبر أن عنوان Gid Hanasheh أوسع منه، ويشمل أجزاء أخرى من جسد الحيوان المذبوح بصورة متوافقة مع الشريعة اليهودية «الكوشر».

١. التلمود البابلي، القسم الخامس، قوداشيم، ج١٦، ص ٢٧٨.

يقول الربّي «يرميوهو كاغانوف» Yirmiyohu Kaganoff أن كلمة Gid في العبرية تعني الأجزاء العصيّة والمطاطة التي يصعب مضغها، وقد يراد بها الأعصاب والأوتار والأربطة أو حتى الأوعية الدموية، وأن في التلمود حديث عن تحريم تناول Gid العروق «الأوتار، الأعصاب، الأربطة، الأوعية الدموية» الداخلية الممتدة على طول العظام، والعروق الخارجية الممتدة مع اللحم. هذا فضلاً عن تحريم تناول طبقة من الدهون الواقية المحيطة بهذه العروق التي فصّلنا المراد منها [١].

وبالبحث في التوراة والتلمود لم أجد تحريماً للحم الجمل ولبنه من قبل يعقوب «عليه السلام» كما جاء في بعض المرويات، واقتصر الأمر على تحريم عرق النسا فقط، والله أعلم بالمراد من قوله: ﴿**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾.

والطريف في الأمر أنه في حين روي عن ابن عباس أن الأطباء ربطوا بين إصابة النبي يعقوب بعرق النسا وبين تناول لحم الإبل، كما في الخبر التالي: (لما أصاب يعقوب «عليه السلام» عرق النسا، وصف الأطباء له أن يجتنب لحوم الإبل، فحرّمها على نفسه. فقالت اليهود: إنما نحرم على أنفسنا لحوم الإبل، لأن يعقوب حرمها وأنزل الله تحريمها في التوراة) نجد أن علم التغذية الحديث يدلّ على عكس ذلك تماماً، فعلى موقع nutritionride وتحت عنوان «فوائد لحم الإبل» جاء: (لحم الإبل مفيد لعلاج أمراض مختلفة.... من بينها الحمى الموسمية، عرق النسا، وآلام الكتف... إلخ).

1. www.yeshiva.co/midrash/9338

Camel meat is beneficial in curing different diseases. Let's take a look at conditions that camel cure: Camel meat can cure seasonal fever, sciatica, and shoulder pain.....[1]

• تحريم الشحوم:

وهناك آية قرآنية أخرى تحدّثَت عن تحريم بعض أنواع الحيوانات والشحوم على اليهود، وليس على عموم بني إسرائيل ليُدّعَى أن ذلك التحريم كان قديماً وأصيلاً، وأن إباحتها في الإسلام يتعارض مع القول بأنه امتداد للشريعة الإبراهيمية، بل جاء التحريم ضمن الشريعة الموسوية، وكحكم خاص بأتباعها، وهي نوع من العقوبة على ما قدّمت أيديهم.

فبعد أن تحدّث الله «تعالى» عن تشريع اللحم «الحلال» بالنسبة إلى المسلمين في قوله: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[2] بيّن الله «تعالى» أن دائرة تحريم اللحوم لليهود أوسع منها في الإسلام، وأن الحكم ليس أصيلاً بل طارئاً وفق معطيات معينة، وكعقوبة يُراد بها تغليظ التشريع لجعل الأمور أكثر تعقيداً وصعوبة عليهم، وهي كالتالي:

١. ﴿**وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ**﴾. ذكر الطبرسي في مجمع البيان وآخرون، أن المفسرين اختلفوا في معناه، فقيل:

---

1. nutritionride.com/benefits-of-camel-meat

٢. سورة الأنعام:١٤٥.

أ) هو كل ما ليس بمنفرج الأصابع كالإبل والنعام والإوزّ والبط، عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة ومجاهد والسدي.

ب) هو الإبل فقط عن ابن زيد.

ج) كل السباع والكلاب والسنانير وما يصطاد بظفره، عن الجبائي.

د) كل ذي مخلب من الطير وكل ذي حافر من الدواب، عن القتيبي والبلخي.

ولعل الآية تشير إلى ما جاء في سفر اللاويين وسفر التثنية، وعرضناه سابقاً ضمن هذا البحث، وفيه أن معيار إباحة لحم الحيوان – من غير الطيور والكائنات البحرية – أن يجمع صِفَتين، الأولى أن يكون مشقوق الظلف، والثانية أن يجترّ طعامه، وأي حيوان فقد الصفتين أو أحداهما فهو محرّم أكلُه.

والنص التوراتي كالتالي: (هذِهِ هِيَ الْبَهَائِمُ الَّتِي تَأْكُلُونَهَا: الْبَقَرُ وَالضَّأْنُ وَالْمَعْزُ، وَالإِيَّلُ وَالظَّبْيُ وَالْيَحْمُورُ وَالْوَعْلُ وَالرِّئْمُ وَالثَّيْتَلُ وَالْمَهَاةُ. وَكُلُّ بَهِيمَةٍ مِنَ الْبَهَائِمِ تَشُقُّ ظِلْفًا وَتَقْسِمُهُ ظِلْفَيْنِ) الظِّلْفُ في اللغة العربية: الظُّفْرُ المشقوق للبقرة والشاة والظَّبْي ونحوها (وَتَجْتَرُّ فَإِيَّاهَا تَأْكُلُونَ. إلاَّ هذه فَلاَ تَأْكُلُوهَا، ممَّا يَجْتَرُّ وَممَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ الْمُنْقَسِمَ: الْجَمَلُ وَالأَرْنَبُ وَالْوَبْرُ، لأَنَّهَا تَجْتَرُّ لكنَّهَا لاَ تَشُقُّ ظِلْفًا، فَهِيَ نَجِسَةٌ لَكُمْ. وَالْخِنْزِيرُ لأَنَّهُ يَشُقُّ الظِّلْفَ لكنَّهُ لاَ يَجْتَرُّ فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ. فَمِنْ لَحْمِهَا لاَ تَأْكُلُوا وَجُثَثَهَا لاَ تَلْمِسُوا).

وحيث أنه ليس للإبل أظلاف مشقوقة، بل أخفاف ومن قطعة واحدة، لذا فهي محرّمة بحسب القاعدة المذكورة في التوراة. وحيث أن سباع الحيوانات

والخنازير لا تجتر، فهي محرّمة أيضاً. وقد يكون استعمال مصطلح ﴿**ذِي ظُفُرٍ**﴾ في الآية القرآنية شاملاً لعنوانين:

١. كل ما له ظفر «ظلف» واحد غير مشقوق، والإفراد في اللفظ للدلالة على العدد.

٢. كل ما له ظفر «مخلب» كالحيوانات المفترسة، والكلمة تدل على الجنس.

ويبقى الخنزير خارج هذا القيد، وقد يكون منضماً إلى ما له مخالب من حيث التشابه في عدم الاجترار. ولربما يُقال أن الآية تشير إلى صنف واحد فقط من المحرمات، وهي السباع التي لها مخالب، ولم تتعرّض لذِكر الخنزير والإبل لأنها ليست في وارد حصر موارد التحريم عند اليهود، بل ذِكر واحدة منها فقط، لاسيما وأنها لم تأت بصيغة الحصر كما هو واضح.

٢. ﴿**وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ**﴾[١].

ونجد في التوراة تحريم تناول الشحم - في العبرية חֵלֶב وتُلفظ خلف Chelev، Kheylev - من الحيوانات التي يُجوز تقديمها كقرابين للمعبد -في العبرية קָרְבָּן وتُلفَظ قربان qorbān - وهي كما جاءت في النص التالي: (وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: كُلَّ شَحْمِ ثَوْرٍ أَوْ كَبْشٍ أَوْ مَاعِزٍ لاَ تَأْكُلُوا. وَأَمَّا شَحْمُ الْمَيْتَةِ وَشَحْمُ الْمُفْتَرَسَةِ فَيُسْتَعْمَلُ لِكُلِّ عَمَلٍ، لكِنْ أَكْلًا لاَ تَأْكُلُوهُ)[٢].

١. سورة الأنعام: ١٤٦.

٢. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الأصحاح ٧، ٢٢-٢٤.

ومن هنا نجد أن الآية ذكرت خصوص شحم البقر والغنم، لأنها هي التي يجوز أن تُقدَّم كقرابين للمعبد وفق الشريعة الموسوية، تماماً كما جاء في سفر اللاويين: (وَدَعَا الرَّبُّ مُوسَى وَكَلَّمَهُ مِنْ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ قَائِلًا: كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: إِذَا قَرَّبَ إِنْسَانٌ مِنْكُمْ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ مِنَ الْبَهَائِمِ، فَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ تُقَرِّبُونَ قَرَابِينَكُمْ)[١].

وجاء في المشنا من التلمود أن تحريم الشّحم أشدّ من تحريم الدّم من بعض النواحي، وتحريم الدّم أشدّ من تحريم الشّحم من بعض النواحي. تحريم الشّحم أشدّ من حيث أنّ الشحم يخضع لقانون تدنيس المقدسات، ويتعرّض الذي يرتكبه لعقوبة «بيجول» وهو مصطلح يُطلق على لحم القربان الذي أصبح قديماً وملوّثاً، و«نوتار» وهو مصطلح يُطلق على لحوم القرابين التي تُترك بعد أن تُصبح غير قابلة للأكل و «النجاسة»، والأمر ليس كذلك في حالة الدم. وتحريم الدم أشد من حيث أنه ينطبق على الماشية وعلى الحيوانات البرية والطيور، سواء كانت «طاهرة = حلال» أو «نجسة = محرّمة»، أما تحريم الشحم فلا ينطبق إلا على الماشية «الطاهرة»[٢].

ويستثنى من هذا الشحم المحرَّم، بعض طبقات الدهون الداخلية المغطاة بشريحة لحم، وليس بالجلد أو الأوتار. وتشير المصادر اليهودية إلى صعوبة تمييز الشحوم المباحة من المحرّمة في جوف البهيمة أحياناً، ويجب أن يكون الشخص مدرباً بشكل جيد ليتمكن من تشخيص ذلك.

---

١. الكتاب المقدس: سفر اللاويين، الأصحاح ١، ١-٢.

٢. التلمودالبابلي، القسم الخامس، قوداشيم، ج١٦، ص ٣٣٦.

وهذا جزء من تغليظ التشريع الهادف لجعل الأمور أكثر صعوبة بالنسبة إليهم، وكنوع من العقوبة الواقعة عليهم نتيجة ما قدّمت أيديهم، فقد تحدّثت الآية القرآنية عن سبب التحريم وبيّنته بالصورة التالية: ﴿**ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ**﴾ الصادر عنهم على عهد موسى «عليه السلام» لا بعد ذلك، لأن التوراة النازلة عليه اشتملت على هذا التشريع ﴿**وَإِنَّا لَصَادِقُونَ**﴾ مما يؤكّد من جهة أن التحريم ليس أصيلاً بل تشريعاً طارئاً، ومن جهة أخرى أنهم ينكرون ارتباط هذا التشريع بالعقوبة ﴿**فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ**﴾[١].

أما طبيعة هذا البغي الصادر عنهم على عهد موسى «عليه السلام» والذي ترتّب عليه هذا التحريم، أو بتعبير آية أخرى، الظلم الصادر عنهم والصدّ عن سبيل الله كثيراً: ﴿**فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللّهِ كَثِيرًا**﴾[٢] فلم يتم توضيحه وبيانه، ولابد أنه مرتبط بمجموعة من سلوكياتهم التمرّدية التي تحدّث القرآن عن بعضها، من قبيل قولهم ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[٣] وعبادتهم العجل بعد النجاة من فرعون وعبور اليم، والشكوى من موسى «عليه السلام» بأنه كان سبباً للحوق الأذى بهم، والشك فيه، والتمرّد على أوامره، وقولهم: ﴿**فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ**﴾، وقول موسى: ﴿**إِنِّي**

١. سورة الأنعام: ١٤٦-١٤٧.
٢. سورة النساء: ١٦٠.
٣. سورة الأعراف: ١٣٨.

﴿لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾[١]... إلخ القائمة الطويلة التي اختصرها القرآن وتحدثت عنها التوراة مفصّلاً.

• تحريم أكل اللحم مع اللبن:

من الموارد الأخرى التي يحرّمها اليهود على أنفسهم ضمن قائمة الطعام هي تناول اللحم مع اللبن. والنص الذي يستند إليه في الأساس هذا التشريع هو ما جاء في التوراة من نَهي عن طبخ الجدي بلبن أمه: (لاَ تَطْبُخْ جَدْيًا بِلَبَنِ أُمِّهِ)[٢]، ويتكرر بنفس العبارة في نفس السفر ولكن في الأصحاح ٣٤: ٢٦، ثم في سفر التثنية ١٤: ٢١ وبنفس التعبير.

وفي المشنا من التلمود: (يحرم طبخ كل أنواع اللحم في اللبن باستثناء لحم السمك والجراد، كما يحرم وضع اللحم على المائدة مع الجبن. هذا إجراء احتياطي فرضه الربيّون لمنع أكل الاثنين معاً، باستثناء لحم السمك والجراد)[٣].

واختلف الباحثون في بيان العلة في نزول هذا التشريع على النبي موسى «عليه السلام». فقد أرجع بعض الباحثين هذا الأمر إلى محاربة عادة وثنية وطقس سحريّ كان معروفاً لدى الحثّيين الذين اعتادوا على هذا النوع من الطبخ ضمن مراسيم وثنيّة وسحريّة يريدون من خلالها أن يُحقّق لهم إلهُ المحاصيل الزراعية زيادة في الإنتاج هذا العام والعام الذي يليه، لذا فإن

---

١. سورة المائدة: ٢٤.

٢. الكتاب المقدس: سفر الخروج، الأصحاح ٢٣، ١٩.

٣. التلمود البابلي، القسم الخامس، قوداشيم، ج١٦، ص ٣٠٩.

الحثّيين كانوا يرشّون الأشجار والحقول والبساتين ومزارع العنب بالحساء الناتج عن هذا الطبيخ، معتقدين أن مثل هذه الممارسة ستُرضي الإله ويزداد لديهم الإنتاج.

وحيث أن الناس يستقون من الأمم عاداتها السحرية والخرافية وتتحوّل أحياناً إلى ما يشبه العقيدة عندهم - وهو أمر مشهود إلى هذا اليوم وفي مختلف المجتمعات البشرية - ورغبةً في تجنيب المؤمنين بالرسالة الموسوية اتّباع ذات الطقوس الوثنيّة السحريّة لزيادة المحصول، لذا فقد نزل تشريع خاص بتحريم تقليد هذه العادة الباطلة [1].

أما الربّيّان «عوبديا سفورنو» و «سولومون لونتشيتز» - وهما من شرّاح النصوص الدينية اليهودية في أواخر العصور الوسطى - فقد اعتبرا أن هذا التشريع التوراتي يشير ضمنياً إلى ممارسة دينية كنعانية، يتم فيها طهي الماعز الصغير في حليب أمه بهدف الحصول على مساعدة من الإله لزيادة الإنتاج الحيواني في قطعانهم.

وهناك رأي ثالث يذهب إلى أنّ مرجع هذا النهي يعود إلى مسألة صحيّة لا أكثر، حيث تعاني نسبة طاغية من بني إسرائيل، ولاسيّما كبار السن منهم - وبصورة وراثية - من الحساسيّة من مادة «اللاكتوز» المتوافرة في الحليب، مما يسبب لهم توعكاً صحياً ناتجاً عن عسر الهضم.

وفريق رابع متمثّل في بعض أحبار اليهود ممن اعتبروا أن المسألة ذات خلفية أخلاقية، إذ أن طبخ الجدي بلبن أمه تَصرّف لا إنساني، وهو يشابه

1. biblehub.com/niv/exodus/23-19.htm

النهي الوارد عن جمع البيض من العش أثناء مراقبة الطيور الأم.

ولكن يبدو أن اليهود تمادوا في الأخذ بهذا التشريع، ووسّعوا دائرته، ليشمل منع أكل اللحوم مع الألبان في آن واحد مطلقاً، ويُعرف هذا الأمر بالعبرية بعنوان בשר בחלב ولفظه Basar Bechalav ومعناه الحرفيّ «لحم في الحليب». ففي التلمود ثلاثة تشريعات رئيسة مرتبطة بهذا الأمر:

١. حظر الطهي بمزيج من الحليب واللحوم.

٢. حظر تناول خليط مطهو من الحليب واللحوم.

٣. حظر استخلاص أي مشتق من خليط اللبن واللحوم المطبوخة.

حتى أنهم صاروا يتأكّدون مِن عَدم تَبقّي شيء من اللحم بين ثنايا أسنانهم، ويعمدون إلى استعمال السواك وغيره لضمان عدم وجود شيء من بقايا اللحم في الفم.

ووضَع الربيّون زمناً خاصاً يجب أن يَمضي كي يُباح لليهودي أن يأكل اللحم بعد أن شَربَ اللبن أو أكلَ الجبن وما شابه، وبالعكس. ثم وقع الخلاف بين أحبارهم في تحديد هذا الزمن الفاصل بينهما.

وجاء في التلمود أن الربّي «مار عقبا» قال: (إنني في هذه المسألة كالخل للنبيذ مقارنةً بأبي، فلو كان أبي سيأكل لحماً الآن، فإنه لن يأكل جبنة إلى نفس هذه الساعة غداً، أما أنا فلا آكل الجبنة في نفس الوجبة، ولكنني آكلها على الوجبة التالية)[١].

١. التلمود لبابلي، القسم الخامس، قوداشيم، ج١٦، ص ٣١١.

واعتبر الربّي «يعقوب بن مائير» بأن سلوك «مار عقبا» كان مجرد اختيار شخصي، بينما اعتبر ربيّون بارزون في القرون الوسطى أن ممارسة «مار عقبا» يجب أن تُعامل كحد أدنى من معايير السلوك في مثل هذه الحالات.

وإذ اقترح الربّي ابن ميمون الانتظار لمدة ست ساعات بعد تناولها كحد أدنى للفاصل بين تناول اللحم ومنتجات الألبان؛ نجد ربيّين آخرين يحدّدونها بثلاث ساعات، وقيل ساعة، وقيل بكفاية الانتظار حتى تناول وجبة جديدة، ولو بمجرد تنظيف الطاولة، وغسل الفم، وتلاوة الدعاء الخاص بتناول الطعام، بل إن بعضهم اكتفى بتنظيف الفم عن طريق تناول خبز جاف دون الحاجة إلى الشطف بالماء[١]. على أن بعض الربّيين أعطوا استثناءات أيضاً للأطفال والنساء المرضِعات، حيث أباح لهم تناول اللحوم مع منتجات الألبان في وجبة غذائية واحدة.

• **المنسَف الأردني:**

وفي التراث الأردني العربي قصة طريفة تُحكى وتخصّ تناول اللحم المطبوخ باللبن، إذ قيل أن الملك العربي «ميشع» ملك موآب، وضِمْن صراعه مع جيرانه من ملوك اليهود حينها، ولشعوره بخطرهم، سعى إلى تحشيد شَعْبِه معنوياً وعملياً، وكان مِن بين وسائل هذا التحشيد أنْ طلب مِن شَعبه طبْخ اللحم باللبن، فاستجابوا له بأجمعهم، فكان بمثابة إعلان عام لمخالفة اليهود وبشكل تعبوي شامل، وصارت – أو ظهرت – طبخة «المنسف» الشهيرة التي تتضمّن في وصفتها طبخ اللحم بمنتج لبني –الجميد ولربما اللبن

١. التلمود البابلي، القسم الخامس، قوداشيم، ج١٦، ص ٣١٠.

الرائب أيضاً- وسيلة تعبوية استطاع من خلالها أن ينتصر في معركته ضد اليهود. الأردنيون استطيبوا هذه الأكلة واستمروا بطبخها إلى يومنا هذا تفاؤلاً بالنصر الذي طالعهم معها، واتّخذ كلُّ مَن سكن أرض الأردن من المنسف أكلته المحببة [١].

• إلغاء التشريع عند المسيحيين:

انقسم المسيحيون إلى قائل باستمرارية التشريعات الموسوية الخاصة بالطعام، وقائل بأنها قد نُسخت، وأن المسيح «عليه السلام» قد ألغى التمييز بين الأطعمة الطاهرة والنجسة، فأخذوا يأكلون كل ما قُدِّم لهم بدون سؤال حول ما إذا كان مذبوحاً لوثن أم أنه مذبوح باسم الله، وكان هذا الفريق الثاني يشتري ما يُباع في الملحمة، ويأكل كل ما يُقدّم له على مائدة غير المؤمن، بقطع النظر عن كونه طاهراً أو نجساً، مباحاً أو محرّماً حسب شريعة اليهود.

ثم قام بولس الرسول بحسم المسألة، واعتبار أن كل شيء طاهر للطاهرين، وأن الوثن لا يمثّل حقيقة ولا يؤثّر الذبح له على حلّيتها.

ومع أن المسيحية -بحسب المدَّعى- ألغت النجاسة والطهارة الشرعية (وحرّرت الأمم من نير الطقوس الموسوية، إلا أنّ المجمع الرسولي المنعقد في أورشليم منع الأمم من المخنوق والدم)[٢].

---

1. www.gerasanews.com/print/111769

2. st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/16_TAH/TAH_22.html

• **المسلمون وتحريم الطعام:**

عندما يُنزِل الله شريعة تجديدية أو يُرسل رسولاً إلى أمّة من الأمم، فإنّ من بين مضامين هذه الحالة التجديدية والرسالة رفع بعض الأحكام التشديدية - الاستثنائية وغير الأصيلة - والتي جاءت لمعالجة خلل معيّن، أو كنوع من العقوبة، أو كاستجابة لطلبٍ وإلحاح من قِبل الناس جهلاً منهم أو إصراراً على أمرٍ أراد الله أن يخفّفه عنهم فأبوا ذلك، كما قال «تعالى»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّٰهُ عَنْهَا وَاللّٰهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ، قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ**﴾[١].

ومن صور ذلك التخفيف في التشريع ما جاء في قوله «تعالى» بخصوص رسالة المسيح عيسى بن مريم «عليهما السلام»: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّٰهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ..... وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ**﴾[٢].

وهكذا نجد مثل هذا الوصف بحق رسالة وشريعة النبي محمد «صلى الله عليه وآله» حيث قال «تعالى»: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ**

١. سورة المائدة:١٠١-١٠٢.
٢. سورة آل عمران:٤-٥٠.

وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١).

وقد قدّم الله «سبحانه» في القرآن الكريم قائمةً بالطعام المحرّم على المؤمنين بالشريعة المحمدية، واستعمل فيها – مرّتين – لغة وأدوات الحصر دفعاً لأي شبهة أو محاولة للتأويل.

١. قال الله «تعالى» في سورة الأنعام المكية: **﴿قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**(٢).

٢. وقال الله «تعالى» في سورة البقرة، وهي سورة مدنية: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ، ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾**(٣).

٣. وقال الله «تعالى» من قبلُ في سورة النحل المكية: **﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ**

١. سورة الأعراف: ١٥٧.
٢. سورة الأنعام:١٤٥.
٣. سورة البقرة: ١٧٢-١٧٦.

اللّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاشْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وَعَلَى الَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

٤. وقال «تعالى» مرّة أخرى في مقام البيان والتفصيل في سورة المائدة، وهي مدنية: **﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللّهُ فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ، الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾**(٢).

---

١. سورة النحل: ١١٤-١١٩.

٢. سورة المائدة: ٣-٥.

ومن مجموع هذه الآيات نكون أمام القائمة التالية من الطعام المحرّم:

١. الميتة: أي الحيوان الذي مات حتف أنفه.

٢. الدم المسفوح.

٣. لحم الخنزير

٤. ما أُهلّ به لغير الله: أي ما ذُبح للآلهة والأوثان مثلاً، بحيث يُسمّى عليه بغير اسم الله.

٥. المنخنقة: التي تموت خنقاً.

٦. الموقوذة: التي تموت بفعل ضربة على الرأس

٧. المتردّية: التي تموت بفعل سقوطها من مكان مرتفع، أو في مكان منخفض.

٨. النطيحة: التي تموت بفعل تلقّيها نطحة من حيوان آخر.

٩. ما أكل السبع: التي تموت بافتراسها من قبل حيوان آخر.

١٠. المذبوح على النصب: وهي حجارة كان يَذبح عليها أهل الجاهلية ضمن مراسيم وشعائر وثنية.

وإذا كان الفقهاء يُدرجون «المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع» تحت عنوان الميتة، إلا أن العرب في زمن نزول الآيات كانوا يعتبرون الميتة ما مات حتف أنفه فقط. قال الطبرسي في مجمع البيان: (إنَّ الفائدة في ذلك أنَّهم كانوا لا يعدّون الميتة إلاَّ ما مات حتف أنفه من دون شيء من هذه الأسباب، فأعلمهم الله «سبحانه» أنَّ حكم الجميع واحد، وأنَّ وجه

الاستباحة هو التذكية المشروعة فقط)[١]... هذا احتمال، ومن المحتمل أنها من مصاديق «الميتة» حيث لم يرد ذِكرُها في الآيات الأخرى التي تحدثت عمّا يحرم أكله، ولكن ذُكرت كنوع من البيان والتفصيل لدفع أية شبهة قد تحدث عند البعض في مورد قد يُعتبر غير مشمول بالآية.

وهكذا قد يُقال أن المذبوح على النُّصب يدخل ضمن عنوان ﴿**مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ**﴾ وقُدِّم في الآية كقسيم لسائر الأقسام من باب التوضيح ودفع الشبهة في عدم شمول التحريم له بلحاظ خصوصية الطريقة التي يتم تنفيذها فيه، بينما الإشكال واحد، وهو الذَّبح لغير الله وضمن شعائر وتشريعات وثنية، ولذا لا نجده مذكوراً في الآيات الأخرى.

وإذا أردنا أن نقدّم المعلومة وفق المفهوم الفقهي الدارج اليوم، فإن التحريم يشمل الأقسام التالية:

١. الميتة

٢. الدم

٣. لحم الخنزير

٤. ما ذُبح أو تم اصطياده باسم غير الله، ويشمل المذبوح أو المصطاد دون ذكر اسم الله عليه لقوله «تعالى»: ﴿**وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّٰهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ**﴾[٢].

---

١. الطوسي: مجمع البيان، ج ٣، ص ١٥٨.

٢. سورة الأنعام: ١٢١.

هذا هو المحرَّم من الطعام. وقد يقال بأن الآية وإن كانت ظاهرة في اقتصار التحريم على هذه الأمور، إلا أننا نجد في الفقه الإسلامي من المحرّمات ما هو أكثر من ذلك، فما السبب؟

الإجابة الأولى: أن هذه الآية واردةٌ في حصر المتعارف من الحيوانات التي يأكلها الناس في ذلك الوقت، فيخرج منها أمثال الحيوانات التي لم يتعارف بينهم أكلها، كالكلاب والسباع والحشرات ونحوها، فلم تكن مشمولة تحت عنوان ﴿**عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ**﴾ كي تخرج منها.. أي من بين هذه الحيوانات المتعارف أكلها، فإن الحرام منها عبارة عن كذا وكذا. وبعبارة أخرى أن الحصر إضافي وليس حقيقياً.

الإجابة الثانية: هذه الآية ناظرة فقط إلى نفي الأحكام الخرافية التي كانت شائعةً وسائدةً في أوساط المشركين، من قبيل تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام، قال «تعالى»: ﴿**مَا جَعَلَ اللّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾[1].

وقال «تعالى»: ﴿**ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِي**

١. سورة المائدة: ١٠٣.

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ...﴾[١]. وكأن الآية ١٤٥ تقول: إن المحرّمات الإلهية هي هذه المذكورة في الآية، وليست تلك التي ادّعاها المشركون. فالحصر إضافي بهذا اللحاظ.

الإجابة الثالثة: التوجيهان السابقان خلاف الظاهر، والآيات في مورد البيان والتفصيل والحصر الحقيقي لا الإضافي، وهذا ما تؤكده عدد من الروايات المروية في كتب المسلمين، ومن بينها:

١. عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (ما أحلَّ اللهُ في كتابه فهو حلال، وما حرّم فهو حرام...)[٢].

٢. عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام» أنه قال: (ليس الحرام إلا ما حرّم الله في كتابه، ثم قال: اقرأ هذه الآية: **﴿قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾**)[٣].

٣. عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام»: (أنه سئل عن سباع الطير والوحش، حتى ذُكر له القنافذ والوطواط والحمير والبغال والخيل، فقال: ليس الحرام إلا ما حرّم الله في كتابه، وقد نهى رسول الله

---

١. سورة الأنعام: ١٤٣-١٤٥.

٢. أخرجه البزار (٤٠٨٧)، والطبراني في «مسند الشاميين»، ح٢١٠٢، والدارقطني ج٢، ص١٣٧، باختلاف يسير. وقال الألباني: إسناده صالح.

٣. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٣٠٩٩٩.

«صلى الله عليه وآله» يوم خيبر عنها، وإنما نهاهم من أجل ظهورهم أن يفنوه، وليس الحُمُر بحرام، ثم قال: أقرأ هذه الآية: ﴿**قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾)[١].

٤. عن أبي بصير عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كان يكره أن يؤكل لحم الضب والأرنب والخيل والبغال، وليس بحرام كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير، وقد نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن لحوم الحمر الأهلية، وليس بالوحشية بأس)[٢].

٥. عن زرارة، عن أحدهما «عليهما السلام» أنه قال: (إنّ أكْل الغراب ليس بحرام، إنما الحرام ما حرّم الله في كتابه، ولكن الأنفس تتنزّه عن كثير من ذلك تقززاً)[٣].

٦. عن زرارة، قال: (سألت أبا عبد الله «عليه السلام» عن الجريث؟ فقال: وما الجريث؟ فنعتّه له، فقال: ﴿**قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ**﴾ إلى آخر الآية، ثم قال: لَم يحرّم الله شيئاً من الحيوان في القرآن إلا الخنزير بعينه، ويُكره كل شيء من البحر ليس له قشر مثل الورق، وليس بحرام، إنما هو مكروه)[٤].

---

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٣٠١٣٦.

٢. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٣٠١٣٧.

٣. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٣٠١٤٠.

٤. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٣٠١٧٣.

٧. عن محمد بن مسلم قال: (سألت أبا عبد الله «عليه السلام» عن الجرّي والمارماهي والزمّير، وما ليس له قشر من السمك، أحرام هو؟ فقال لي: يا محمد! اقرأ هذه الآية التي في الأنعام: ﴿**قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا**﴾، قال: فقرأتها حتى فرغت منها، فقال: إنما الحرام ما حرّم الله ورسوله في كتابه، ولكنهم قد كانوا يعافون أشياء، فنحن نعافها)[١].

ومن الملاحظ في كل الروايات السابقة أنها وضعت المعيار في الطعام المحرّم، وأن المرجع في ذلك كتاب الله، وأن كتاب الله لم يحرّم من أنواع الكائنات الحية سوى الخنزير بنفسه، وتحريم الميتة تحريم عارض بسبب عدم الذبح أو الصيد بالطريقة المقررة شرعاً، وبعض الروايات تصرّح بأنه «ليس الحرام إلا ما حرّم الله في كتابه» أو ما في معنى ذلك، وكلّ ذلك يؤدّي بالتَّبع إلى أنَّ الآية بصدد الحصر الحقيقي لا الإضافي.

وقد يعترض معترض بأنه لربّما كان تحريم بعض الكائنات الحية – كما في بعض الأحاديث – منطلقاً من اندراجها تحت عنوان «الخبائث» الذي أشارت إليه الآية الكريمة الواردة في قوله «تعالى»: ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ**﴾[٢].

إلا أنّ هذا الاعتراض لا يتم، لأن مفهوم الخبائث من المفاهيم المتحرّكة التي تختلف فيها الأذواق في حياة الشعوب بحسب مدلولها العرفي في إطلاق

١. الحر العاملي: وسائل الشيعة، ح ٣٠١٧٤.

٢. سورة الأعراف: ١٥٧.

الكلمة، فقد يكون الشيء خبيثاً لدى جماعة وغير خبيث عند جماعةٍ أخرى، وقد لا ينطبق - في المفهوم العام - على كثير من المحرّمات كالسباع في الطير أو في الحيوانات البحرية[١].

بالطبع فإنّ كثيراً من فقهاء المسلمين وسّعوا دائرة المحرّمات في قائمة ما يُباح تناوله من لحوم الحيوانات البرية والبحرية والطيور بالإضافة إلى الحشرات والزواحف، معتمدين في ذلك على فهمهم للآيات القرآنية الشريفة وأنها في مقام الحصر الإضافي، ومن خلال روايات كثيرة تدلّ على سعة دائرة التحريم، والقول بإمكانية تخصيص أو تقييد القرآن بالحديث.. إلا أنّ الأوفق بظاهر الآيات الشريفة هي تلك الروايات الدالة على عدم تحريم إلا ما حرّم الله في كتابه، مع الأخذ بعين الاعتبار ما في بعض الآيات من تحذير وتهديد في حالة مخالفة ما جاء في هذا الحصر لموارد المحرّم من الطعام، حيث قال «تعالى»: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَلاَ تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ**﴾، وقال «سبحانه»: ﴿**... فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ، قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ...**﴾.

---

١. فضل الله: من وحي القرآن، ج٩، ص٣٥٦.

٦

بلعام بن بعور

٦

بلعام بن بعور

تحدّث القرآن الكريم عن شخصية عاشت في زمن ما، دون أن يسمّيها ومن غير أن يُحدِّد الزمن الذي عاشت فيه، ولكنه قدّمها بالصورة التالية، قال «تعالى»: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[١].

شخص لم ينتفع بما يملك من المعرفة، ومن النِّعم الخاصة التي أنعم الله بها عليه، فانحرف عن الخط المستقيم، وهوى إلى الأرض في حالة انحطاط على المستوى الروحي والفكري، وصار مَضرباً للمثل في تخلّي العلماء عن مقتضى علمهم، وعن مسئولية هذا العلم، وعن الانهيار الأخلاقي والسلوكي الذي قد يُبتلَى به أصحاب المعرفة والدين والمقامات الإيمانية المميزة.

فمَن هو هذا الشخص؟ وفي أي زمن عاش؟ وما الذي صدر عنه على وجه التحديد بحيث قُدِّم بهذه الصورة البشعة؟

---

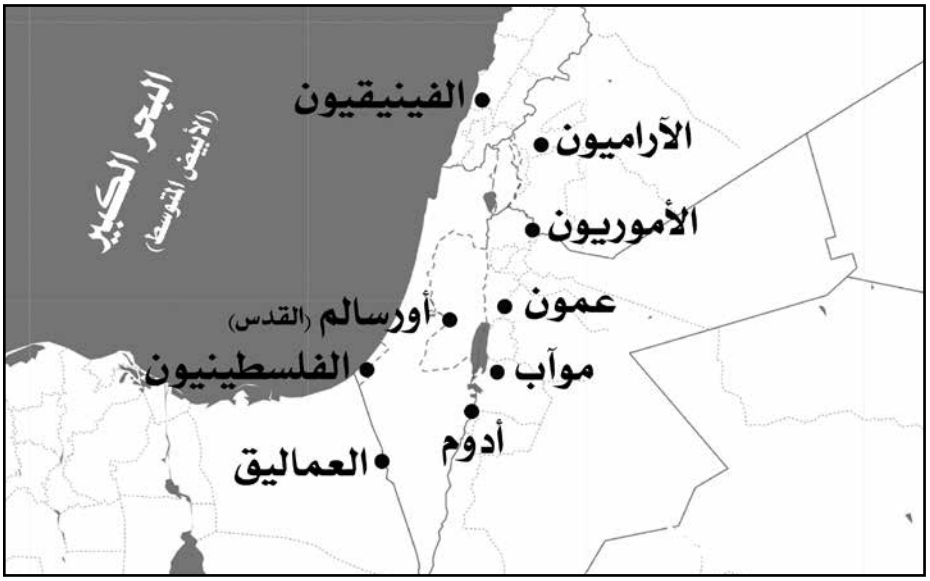
١ سورة الأعراف : ١٧٥.

مِن المحتمل أن القرآن الكريم يشير هنا إلى ما جاء في سِفر العَدد من التوراة، والقصة بحسبها حدَثت بعد سنتين مِن خروج النبي موسى «عليه السلام» ومَن معه من بني إسرائيل من مصر: (وَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَنَزَلُوا فِي عَرَبَاتِ مُوآبَ[١] مِنْ عَبْرِ أُرْدُنِّ أَرِيحَا. وَلَمَّا رَأَى بَالاَقُ[٢] بْنُ صِفُّورَ جَمِيعَ مَا فَعَلَ إِسْرَائِيلُ بِالأَمُورِيِّينَ[٣]، فَزِعَ مُوآبُ مِنَ الشَّعْبِ جِدًّا لأَنَّهُ كَثِيرٌ، وَضَجِرَ مُوآبُ مِنْ قِبَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ مُوآبُ لِشُيُوخِ مِدْيَانَ: «الآنَ يَلْحَسُ الْجُمْهُورُ كُلَّ مَا حَوْلَنَا كَمَا يَلْحَسُ الثَّوْرُ خُضْرَةَ الْحَقْلِ». وَكَانَ بَالاَقُ بْنُ صِفُّورَ مَلِكًا لِمُوآبَ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ. فَأَرْسَلَ رُسُلاً إِلَى بَلْعَامَ بْنِ بَعُورَ... لِيَدْعُوَهُ قَائِلاً: «هُوَذَا شَعْبٌ قَدْ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ. هُوَذَا قَدْ غَشَّى وَجْهَ الأَرْضِ، وَهُوَ مُقِيمٌ مُقَابِلِي. فَالآنَ تَعَالَ وَالْعَنْ لِي هذَا الشَّعْبَ، لأَنَّهُ أَعْظَمُ مِنِّي، لَعَلَّهُ يُمْكِنُنَا أَنْ نَكْسِرَهُ فَأَطْرُدَهُ مِنَ الأَرْضِ، لأَنِّي عَرَفْتُ أَنَّ الَّذِي تُبَارِكُهُ مُبَارَكٌ وَالَّذِي تَلْعَنُهُ مَلْعُونٌ»)[٤].

بحسب النصوص والشروح الكتابية فإن «بلعام» وبالعبرية בִּלְעָם، בִּלְעָם وإنْ لم يكن مِن بني إسرائيل، إلا أنه كان من «أولياء الله» وصاحب كرامات، وقيل بل كان نبياً، وعلى رأي آخر أنه كان عرّافاً، بل ساحراً.

وفي بعض تعابير الكتاب المقدس ما يشير إلى أنه كان يوحَى إليه أو يُلهَم أو يُحدَّث، إذ نجد في التوراة تعابير من قبيل: (فَأَتَى اللهُ إِلَى بَلْعَامَ)[٥]..

١. كانت مملكة موآب تقع شرق البحر الميت، وجزء من الأردن الحالي.
٢. ملك موآب.
٣. الأموريون أو العموريون كانوا منتشرين في حواضر بلاد ما بين النهرين وبلاد الشام منطلقين من مناطق البادية العربية وذكرناهم في بحث ديار النبي لوط.
٤. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢، ١-٦.
٥. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢، ٩.



(فَقَالَ اللهُ لِبَلْعَامَ)[١].. (ثُمّ كَشَفَ الرّبُّ عَنْ عَيْنَيْ بَلْعَامَ، فَأَبْصَرَ مَلاَكَ الرّبِّ وَاقِفًا فِي الطّرِيقِ وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ فِي يَدِهِ، فَخَرّ سَاجِدًا عَلَى وَجْهِهِ)[٢].

جاء في قاموس الكتاب المقدس: (بلعام اسم عبري، ربما كان معناه «الملتهم») أي مشتق من كلمة «بلع» (وهو ابن بعور، مِن «فتور» وهي قرية فيما بين النهرين) بحسب نفس هذا القاموس وتحت عنوان «فتور» جاء أنها مدينة قرب الفرات، عند جبال أرام النهرين. استولى عليها «شلمناصر» الثاني ملك آشور من الحثّيين، وكانوا يدعونها «پترو». وقد ظهر اسمها قبل ذلك بزمان طويل في جدول «تحتمس» الثالث للمدن السورية. وكانت واقعة على الشاطئ الغربي من الفرات قرب نهر الساجور على بعد بضعة أميال من «قرقميش».

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢، ١٢.
٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢، ٣١.

وكما هو معروف فإن قرقميش أو كركميش أو جرابلس، مدينة أثرية سورية تقع في نقطة عبور هامة على الفرات، إذ تُعتبر بوابة بلاد الشام إلى الأناضول، وبوابة الأناضول إلى بلاد الرافدين. وبالرجوع إلى الخارطة سنجد المسافة بعيدة جداً بين موقع الأحداث ومسقط رأس بلعام، والانتقال عادة لا يكون ضمن هذه المسافات عن طريق «الأتان» أي أنثى الحمار، فإما أن نقول بأنه قد انتقل للسكن في منطقة قريبة من موقع الأحداث، وأن فتور هي مسقط رأسه، وإما أن نقول أن فتور في النص السابق ليست القريبة من جرابلس، بل اسم مكان آخر قريب من مَدين.

وقد أشار إلى هذه الإشكالية موقع www.jewishvirtuallibrary.org وهو يتحدّث عن مسقط رأس بلعام، حيث يعيدنا إلى النص التوراتي القائل على لسان بلعام نفسه: (وَقَالَ: «مِنْ أَرَامَ أَتَى بِي بَالاَقُ مَلِكُ مُوآبَ، مِنْ جِبَالِ الْمَشْرِقِ)[1]، فالرجل آرامي، علماً بأن النسختين اللاتينية والسامرية للتوراة ترجمت المقطع الأخير من النص التالي من الأصحاح ٢٢ من سفر العدد: (فَأَرْسَلَ رُسُلاً إِلَى بَلْعَامَ بْنِ بَعُورَ، إِلَى فَتُورَ الَّتِي عَلَى النَّهْرِ فِي أَرْضِ بَنِي شَعْبِهِ) كما يلي:

أرض بني عمون : ereṣ benê ʿAmmô [n]

بدلاً من ما لفظه في التوراة العبرية:

أرض شعبه : benê > ammô

ثم يؤكد الكاتب هذه الفكرة من خلال الاكتشاف الأثري الذي وقع سنة

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣، ٧. وفي ترجمة أخرى «من جبال قديم».



١٩٦٧ في «دير علا» من الأردن والذي يحتوي على نص قديم جداً يذكر بلعام بن بعور باسمه وتفاصيل أخرى حوله، وأن هذا النقش يعزز هويته كشخصية أتت من بلد مجاور داخلي، وليس من أرض بعيدة تقع على الحدود التركية الحالية مع سورية. وسأشير في نهاية البحث إلى هذا الاكتشاف الأثري.

أعود مجدداً إلى ما جاء في قاموس الكتاب المقدس عن شخصية بلعام: (وكان نبياً مشهوراً في جيله) وقد تبيّن معنا في بداية هذا الكتاب تحت عنوان «مسائل مهمة» أن مفهوم النبوة لدى اليهود والنصارى لا يتطابق مع مفهومها لدى المسلمين (والظاهر أنه كان موحّداً يعبد الله، وليس ذلك بعجيب لأنه من وطن إبراهيم الخليل، حيث يُظَن أن أصول تلك العبادة كانت لم تزل معروفة عند أهل تلك البلاد، ما بين النهرين في أيام هذا الرجل. وقد ذاع صيت هذا النبي بين أهل ذلك الزمان، فعلا شأنه وصارت تقصده الناس من

جميع أنحاء البلاد ليتنبأ لهم عن أمور متعلقة بهم) هذا يكشف لنا المراد من معنى النبوة في هذا النص، وهو الإخبار عن المغيبات، وليس بالمعنى الخاص الذي نستعمله كمسلمين (أو ليباركهم ويبارك مقتنياتهم وما أشبه. ومما هو جدير بالذكر أن بالاق ملك موآب استدعاه إليه ليلعن شعب إسرائيل، وأما هو فسأل ربه ليلة قدمت عليه رسل موآب، فلم يأذن له. فلما كان الصباح رفض طلب بالاق وإن كان قد ذهب وبارك بني إسرائيل «عد ٢٢: ٩- ٢٤: ٢٥»[١]. ولكنه دبّر وسيلة للإيقاع بهم في شرك عبادة الأصنام. وقد حارب بنو إسرائيل المديانيين وقُتِل بلعام «عد ٣١: ٨، ١٦؛ يهوذا ١١»)[٢].

مما سبق يتبيّن لنا من خلال التراث الكتابي أن بلعام كان على دين إبراهيم الخليل «عليه السلام» شأنه في ذلك شأن قرينَيْه المعاصريْن له وهما – كما يذكر التلمود – أيّوب ويثرون.

أما بلعام فهو محور بحثنا، وأما أيوب فهو النبي المذكور في القرآن الكريم، وأما يثرون فهو والد زوجة النبي موسى الذي كان يعيش في «مدين»، وكان كاهن مدين، ويُطلَق عليه أيضاً «حُباب» و «رعوئيل»، واختُلف أيها اسمه وأيها مِن ألقابه، علماً بأن معنى «رعوئيل» هو «صديق الله»، و«حباب» يقارب «حبيب» و «يثرون» يعني «صاحب الفضيلة»، واعتبرته بعض المرويات التفسيرية للقرآن بأنه النبي شعيب المذكور في القرآن والذي كان مبعوثاً إلى مدين وإلى أصحاب الأيكة، وعندي أن كونه شعيباً أمرٌ مشكوك فيه.

---

١. أي في سفر العدد من التوراة، الأصحاح ٢٢... إلخ.

٢. مجمع الكنائس الشرقية :قاموس الكتاب المقدس، ص ١٨٩.

وعلى العموم، فإنّ بعض النصوص الحاخامية تذكر أن الثلاثة كانوا على دين إبراهيم «عليه السلام»، وبحسب التلمود فإنهم بأجمعهم لم يكونوا من ذرية النبي يعقوب، أي لم يكونوا من «بني إسرائيل»، وإن كانوا من «أنبياء الله»، وقد عاشوا في عصر واحد، إذ طلب منهم فرعون أن يشيروا عليه في القرار الذي كان يفكّر في تطبيقه والخاص بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل بمصر. ويقول النص التلمودي السابق أن بلعام وافقه على التخلص منهم، بينما وقف يثرون موقفاً معارضاً، فيما سكت أيوب وامتنع عن الكلام. وبحسب التلمود فإن هذا الموقف السلبي لأيوب تحوّل إلى نقمة إلهية عليه، حيث فقد أمواله وصحّته وأولاده كما جاء في القصة القرآنية وفي الكتاب المقدس أيضاً.

• شخصية بلعام في الكتاب المقدس:

إنّ كان القرآن الكريم قد أشار إلى هذه الشخصية مرة واحدة، إلا أنه يُعدّ من الشخصيات الكتابية المشهورة، وجاء ذِكره في مواضع عدة من العهدين القديم والجديد من الكتاب المقدس، كما جاء ذِكره في التلمود وفي مصادر يهودية أخرى. ومن بين هذه الموارد، بالإضافة إلى قصته الواردة في سِفر العَدد مِن التوراة، وهو ما سنعرض له بالتفصيل لاحقاً:

١. في سِفر التثنية أو سفر تثنية الاشتراع «بالعبرية: דברים» من التوراة، وهو سفر مخصص في غالبه لبيان الأحكام الشرعية والتكاليف الملقاة على عاتق المؤمن بالرسالة الموسوية، بيان لحكم شرعي يخص منع دخول الموآبيين والعمونيين في الدين اليهودي، وفي الأثناء يُذكر بلعام لما له من

علاقة بموقف الموآبيين من النبي موسى «عليه السلام»: (لاَ يَدْخُلْ عَمُّونِيٌّ وَلاَ مُوآبِيٌّ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. حَتَّى الْجِيلِ الْعَاشِرِ لاَ يَدْخُلْ مِنْهُمْ أَحَدٌ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ إِلَى الأَبَدِ، مِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُلاَقُوكُمْ بِالْخُبْزِ وَالْمَاءِ فِي الطَّرِيقِ عِنْدَ خُرُوجِكُمْ مِنْ مِصْرَ، وَلأَنَّهُمُ اسْتَأْجَرُوا عَلَيْكَ بَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ مِنْ فَتُورِ أَرَامِ النَّهْرَيْنِ لِكَيْ يَلْعَنَكَ. وَلكِنْ لَمْ يَشَإِ الرَّبُّ إِلهُكَ أَنْ يَسْمَعَ لِبَلْعَامَ، فَحَوَّلَ لأَجْلِكَ الرَّبُّ إِلهُكَ اللَّعْنَةَ إِلَى بَرَكَةٍ، لأَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ قَدْ أَحَبَّكَ)[١].

٢. ما جاء في سفر يشوع من تذكير إلهي بموقف بلعام من موسى «عليه السلام»: (وَجَمَعَ يَشُوعُ جَمِيعَ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ إِلَى شَكِيمَ. وَدَعَا شُيُوخَ إِسْرَائِيلَ وَرُؤَسَاءَهُمْ وَقُضَاتَهُمْ وَعُرَفَاءَهُمْ فَمَثَلُوا أَمَامَ الرَّبِّ. وَقَالَ يَشُوعُ لِجَمِيعِ الشَّعْبِ: «هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهُ إِسْرَائِيلَ:)[٢] ويبدأ النص بذكر «كلام الله» الموجّه إلى بني إسرائيل تذكيراً بنعمه عليهم، مع تمرّدهم المتكرر عبر التاريخ، ثم يذكّرهم بجانب من موقف بلعام الذي كاد أن يدعو عليهم، وكيف دفع الله البلاء عنهم: (ثُمَّ أَتَيْتُ بِكُمْ إِلَى أَرْضِ الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ فَحَارَبُوكُمْ، وَدَفَعْتُهُمْ بِيَدِكُمْ فَمَلَكْتُمْ أَرْضَهُمْ وَأَهْلَكْتُهُمْ مِنْ أَمَامِكُمْ. وَقَامَ بَالاَقُ بْنُ صِفُّورَ مَلِكُ مُوآبَ وَحَارَبَ إِسْرَائِيلَ، وَأَرْسَلَ وَدَعَا بَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ لِكَيْ يَلْعَنَكُمْ. وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَسْمَعَ لِبَلْعَامَ، فَبَارَكَكُمْ بَرَكَةً وَأَنْقَذْتُكُمْ مِنْ يَدِهِ)[٣].

٣. «نحميا» بحسب بعض تفاسير الكتاب المقدس من أنبياء بني إسرائيل، وهو اسم عبري معناه «تحنن يهوه». كان من اليهود المسبيين في بابل،

١. الكتاب المقدس: سفر التثنية، الأصحاح ٢٣، ٣-٥.
٢. الكتاب المقدس: سفر يشوع، الأصحاح ٢٤، ١-٢.
٣. الكتاب المقدس: سفر يشوع، الأصحاح ٢٤، ٨-١٠.

واشتغل في بلاط الملك الفارسي «أرتحتشستا» ساقياً. تقول السيرة المحكية لهذه الشخصية في التراث الكتابي أن نحميا تمكن من إقناع الملك الفارسي بالسماح له بالعودة إلى القدس، وأمر الملك بإرسال كوكبة من الفرسان لحراسته طوال الطريق، وأعطاه رسائل توصية إلى عموم حكام المناطق الفارسية في سورية، وعيّنه حاكماً على «ولاية اليهودية».

وفي الكتاب المقدس يوجد سِفر باسمه، وفي هذا السِّفر نجد إشارة مجدّدة إلى نفس الحادثة المتعلقة بموقف بلعام من النبي موسى، فعند رجوع نحميا من فارس للمرة الثانية: (فِي ذلِكَ الْيَوْمِ قُرِئَ فِي سِفْرِ مُوسَى فِي آذَانِ الشَّعْبِ، وَوُجِدَ مَكْتُوبًا فِيهِ أَنَّ عَمُّونِيًّا) العمونيون أحد الشعوب العربية القديمة التي استوطنت في شمال الأردن منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى جانب الأدوميين والموآبيين، حيث أقاموا حضارتهم فيه، واتّخذوا من عمّون أو عمّان حالياً عاصمة لهم (وَمُوآبِيًّا لاَ يَدْخُلُ فِي جَمَاعَةِ اللهِ إِلَى الأَبَدِ) وهذا بمثابة إعلان حرمان لهم من الهداية والدخول في رحمة الله (لأَنَّهُمْ لَمْ يُلاَقُوا بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالْخُبْزِ وَالْمَاءِ، بَلِ اسْتَأْجَرُوا عَلَيْهِمْ بَلْعَامَ لِكَيْ يَلْعَنَهُمْ، وَحَوَّلَ إِلهُنَا اللَّعْنَةَ إِلَى بَرَكَةٍ)[١].

٤. مجدداً في سِفر «ميخا» يتم التذكير بالحادثة وبنعمة الله على بني إسرائيل فيها، وموقف بلعام في مقابل طلب ملك موآب. و«ميخا المورشتي» نسبة إلى قرية «مورشيث غاث» التي كانت تقع جنوب مملكة يهوذا، واسمه بالعبرية: מִיכָה הַמּוֹרַשְׁתִּי وبالإنجليزية: Micah ومعناه في اللغة العبرية

١. الكتاب المقدس: سفر نحميا، الأصحاح ١٣، ١-٢.

«الشخص الذي يحب اللّه»، بحسب التراث الكتابي أحد أنبياء بني إسرائيل عاش ما بين سنة ٧٣٧-٦٩٦ ق. م. في مملكة يهوذا، وقد عاصر أنبياء آخرين معه من قبيل إشعياء وعاموس وهوشع.

جاء في هذا السفر: (اِسْمَعُوا مَا قَالَهُ الرَّبُّ: «.... يَا شَعْبِي، مَاذَا صَنَعْتُ بِكَ وَبِمَاذَا أَضْجَرْتُكَ؟ اشْهَدْ عَلَيَّ! إِنِّي أَصْعَدْتُكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، وَفَكَكْتُكَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ، وَأَرْسَلْتُ أَمَامَكَ مُوسَى وَهارُونَ وَمَرْيَمَ. يَا شَعْبِي اذْكُرْ بِمَاذَا تَآمَرَ بَالاَقُ مَلِكُ مُوآبَ، وَبِمَاذَا أَجَابَهُ بَلْعَامُ بْنُ بَعُورَ، مِنْ شِطِّيمَ إِلَى الْجِلْجَالِ، لِكَيْ تَعْرِفَ إِجَادَةَ الرَّبِّ»)[١].

٥. وهكذا نجد في العهد الجديد ذِكراً لبلعام، وذلك في «رسالة بطرس الرسول الثانية» وهو أحد حواريي السيد المسيح «عليه السلام» واسمه «سمعان = شمعون» ولقبه «بطرس» «باليونانية: Πέτρος بيتروس» ويعني الصخرة الصلدة، ولذا يُطلق عليه في العربية «الصفا»، وكلمة بطرس و«البتراء» من جَذر لغوي واحد.

وبحسب الرواية المسيحية فهو ابن يوحنا، ومن قرية بيت صيدا في شمال الجليل قرب بحيرة طبرية. يحتل بطرس مكانة خاصة لدى المسيحيين ويعتبره الكاثوليك أول باباوات الكنيسة الكاثوليكية. قام بطرس بالوعظ والتبشير في مجتمعات متفرقة ذات أصول يهوديّة ووثنيّة يونانيّة وفي مناطق مختلفة من بلاد الشام وآسيا الصغرى واليونان. وتقول المصادر المسيحية أنه توجه إلى روما مؤسساً كنيستها أيضاً، حيث قضى فيها نحو ٢٥ عاماً قبل أن يُقتل خلال

١. الكتاب المقدس: سفر ميخا، الأصحاح ٦، ١-٥.

اضطهاد المسيحيين الذي تمّ أيام الإمبراطور «نيرون» عام ٦٧م وصُلب مقلوباً. ويحوي العهد الجديد على رسالتين منسوبتين لبطرس، إلا أن هذا يقابله قول ببطلان نسبتها إليه، وأنها كُتبت من قبل مؤلفين مختلفين.

وفي ما يخص بلعام، فقد جاء في «رسالة بطرس الرسول الثانية»: (وَلكِنْ، كَانَ أَيْضًا فِي الشَّعْبِ أَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ، كَمَا سَيَكُونُ فِيكُمْ أَيْضًا مُعَلِّمُونَ كَذَبَةٌ، الَّذِينَ يَدُسُّونَ بِدَعَ هَلاَكٍ. وَإِذْ هُمْ يُنْكِرُونَ الرَّبَّ الَّذِي اشْتَرَاهُمْ، يَجْلِبُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ هَلاَكًا سَرِيعًا... قَدْ تَرَكُوا الطَّرِيقَ الْمُسْتَقِيمَ، فَضَلُّوا، تَابِعِينَ طَرِيقَ بَلْعَامَ بْنِ بَصُورَ الَّذِي أَحَبَّ أُجْرَةَ الإِثْمِ)[١].

٦. وفي العهد الجديد ذكر آخر لبلعام، وذلك في رسالة يهوذا، حيث يبدو أن الصراع المسيحي مع أحبار اليهود كان محتدماً بشدة، الأمر الذي كان يستدعي صورة بلعام وانحرافه، تشبيهاً لهم به.

وتختلف الآراء حول حقيقة كاتب هذا السفر، ففي العهد الجديد عُرف أكثر من شخص باسم يهوذا من بينهم يهوذا الملقب بلباوس وتداوس وهو من جملة حواريي المسيح الإثني عشر، ويرجِّح الكاثوليك أنه هو صاحب الرسالة، حيث يعرّف الكاتب عن نفسه في مطلعها بهذا الشكل: (يَهُوذَا، عَبْدُ يَسُوعَ الْمَسِيحِ، وَأَخُو يَعْقُوبَ، إِلَى الْمَدْعُوِّينَ الْمُقَدَّسِينَ فِي اللهِ الآبِ، وَالْمَحْفُوظِينَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ)[٢]، ويهوذا الإسخريوطي المتَّهم بالوشاية على المسيح «عليه السلام» وتسليمه إلى الرومان واليهود، ولذا من المستبعد أن يكون هو

١. الكتاب المقدس: رسالة بطرس الثانية، ١- ١٥.
٢. الكتاب المقدس: رسالة يهوذا، ١.

صاحب الرسالة، ويهوذا الدمشقي وهو المذكور في سِفر أعمال الرسل، حيث كان شاول «بولس» مقيماً عنده عند وصوله إلى دمشق، وهذه الرجل مجهول ولايعرف عنه شيئاً، ويهوذا برسابا وهو أحد الرجلين الذين أُرسلا مع بولس وبرنابا بتكليف من مجمع أورشليم إلى أنطاكية لإعلان موقف الكنيسة من المؤمنين من ذوي الخلفية غير اليهودية، ولا يُعرف الكثير عن هذا الرجل أيضاً. وبشكل عام، يوصف هذا السِّفر من قبل شرّاح الكتاب المقدس بأنه رسالة تشجيع للمؤمنين ضد شرور الفجّار الذين تنتظرهم دينونة الله ومحاسبته لهم في «اليوم العظيم».

أما ما جاء بخصوص بلعام في هذا السفر فكالتالي: (اضْطُرِرْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكُمْ وَاعِظًا أَنْ تَجْتَهِدُوا لأَجْلِ الإِيمَانِ الْمُسَلَّمِ مَرَّةً لِلْقِدِّيسِينَ. لأَنَّهُ دَخَلَ خُلْسَةً أُنَاسٌ قَدْ كُتِبُوا مُنْذُ الْقَدِيمِ لِهذِهِ الدَّيْنُونَةِ، فُجَّارٌ، يُحَوِّلُونَ نِعْمَةَ إِلهِنَا إِلَى الدَّعَارَةِ، وَيُنْكِرُونَ السَّيِّدَ الْوَحِيدَ: اللهَ وَرَبَّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحَ. فَأُرِيدُ أَنْ أُذَكِّرَكُمْ، وَلَوْ عَلِمْتُمْ هذَا مَرَّةً، أَنَّ الرَّبَّ بَعْدَمَا خَلَّصَ الشَّعْبَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ، أَهْلَكَ أَيْضًا الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا.... وَيْلٌ لَهُمْ! لأَنَّهُمْ سَلَكُوا طَرِيقَ قَايِينَ، وَانْصَبُّوا إِلَى ضَلاَلَةِ بَلْعَامَ لأَجْلِ أُجْرَةٍ، وَهَلَكُوا فِي مُشَاجَرَةِ قُورَحَ)[١].

و«قورح» وبالعبرية: קֹרַח الذي قُرن اسمه ببلعام و«قايين = قابيل ابن آدم» اسم عِبري معناه «قرع» وهو ابن يصهار بن قهات بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل «عليه السلام»، وعليه فهو ابن عم النبي موسى، لأنه موسى بن عمران – عمرام – بن قهات بن لاوي.

١. الكتاب المقدس: رسالة يهوذا، ٣-١١.

بحسب النص التوراتي، أخذ قورح موقفاً مضاداً للنبيَّين موسى وهارون «عليهما السلام»، و وفق رأي بعض الباحثين، فإنّ قورح هو «قارون» المذكور في القرآن الكريم حيث قال «تعالى»: ﴿**إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنّ اللّه لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّه الدّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللّه إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنّ اللّه لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ، قَالَ إِنّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنّ اللّه قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ، فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنّهُ لَذُو حَظّ عَظِيمٍ، وَقَالَ الّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللّه خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقّاهَا إِلّا الصّابِرُونَ، فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللّه وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ، وَأَصْبَحَ الّذِينَ تَمَنّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنّ اللّه يَبْسُطُ الرّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنّ اللّه عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ، تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ**﴾[1].

وقصته في التوراة كالتالي: (وَأَخَذَ قُورَحُ بْنُ يصْهَارَ بْنِ قَهَاتَ بْنِ لاَوِي، وَدَاثَانُ وَأَبِيرَامُ ابْنَا أَلِيآبَ، وَأُونُ بْنُ فَالَتَ، بَنُو رَأُوبَيْنَ، يُقَاوِمُونَ مُوسَى مَعَ

١. سورة القصص: ٧٦-٨٣.

أُنَاسٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، مِئَتَيْنِ وَخَمْسِينَ رُؤَسَاءِ الْجَمَاعَةِ مَدْعُوِّينَ لِلاجْتِمَاعِ ذَوِي اسْمٍ. فَاجْتَمَعُوا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ وَقَالُوا لَهُمَا: «كَفَاكُمَا! إِنَّ كُلَّ الْجَمَاعَةِ بِأَسْرِهَا مُقَدَّسَةٌ وَفِي وَسَطِهَا الرَّبُّ. فَمَا بَالُكُمَا تَرْتَفِعَانِ عَلَى جَمَاعَةِ الرَّبِّ؟». فَلَمَّا سَمِعَ مُوسَى سَقَطَ عَلَى وَجْهِهِ. ثُمَّ كَلَّمَ قُورَحَ وَجَمِيعَ قَوْمِهِ قَائِلًا: «غَدًا يُعْلِنُ الرَّبُّ مَنْ هُوَ لَهُ، وَمَنِ الْمُقَدَّسُ حَتَّى يُقَرِّبَهُ إِلَيْهِ. فَالَّذِي يَخْتَارُهُ يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ»)[١].

ولمّا تلاقى الجمعان في هذه المباهلة دار حوار بين موسى وخصومه، وكان من بين ما جرى: (فَقَالَ مُوسَى: «بِهذَا تَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّبَّ قَدْ أَرْسَلَنِي لأَعْمَلَ كُلَّ هذِهِ الأَعْمَالِ، وَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ نَفْسِي. إِنْ مَاتَ هؤُلاَءِ كَمَوْتِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَأَصَابَتْهُمْ مَصِيبَةُ كُلِّ إِنْسَانٍ، فَلَيْسَ الرَّبُّ قَدْ أَرْسَلَنِي. وَلكِنْ إِنِ ابْتَدَعَ الرَّبُّ بِدْعَةً وَفَتَحَتِ الأَرْضُ فَاهَا وَابْتَلَعَتْهُمْ وَكُلَّ مَا لَهُمْ، فَهَبَطُوا أَحْيَاءً إِلَى الْهَاوِيَةِ، تَعْلَمُونَ أَنَّ هؤُلاَءِ الْقَوْمَ قَدِ ازْدَرَوُا بِالرَّبِّ». فَلَمَّا فَرَغَ مِنَ التَّكَلُّمِ بِكُلِّ هذَا الْكَلاَمِ، انْشَقَّتِ الأَرْضُ الَّتِي تَحْتَهُمْ، وَفَتَحَتِ الأَرْضُ فَاهَا وَابْتَلَعَتْهُمْ وَبُيُوتَهُمْ وَكُلَّ مَنْ كَانَ لِقُورَحَ مَعَ كُلِّ الأَمْوَالِ، فَنَزَلُوا هُمْ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُمْ أَحْيَاءً إِلَى الْهَاوِيَةِ، وَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمِ الأَرْضُ، فَبَادُوا مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ. وَكُلُّ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ حَوْلَهُمْ هَرَبُوا مِنْ صَوْتِهِمْ، لأَنَّهُمْ قَالُوا: «لَعَلَّ الأَرْضَ تَبْتَلِعُنَا». وَخَرَجَتْ نَارٌ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ وَأَكَلَتِ الْمِئَتَيْنِ وَالْخَمْسِينَ رَجُلًا الَّذِينَ قَرَّبُوا الْبَخُورَ)[٢].

هذه الحادثة بحسب التوراة وقعت بعد خروج موسى ببني إسرائيل من

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ١٦: ١-٥.
٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ١٦: ٢٨-٣٥.

مصر، فهل استطاع أن يحمل قارون ثروته إلى الصحراء، أو أن يكوّنها هناك؟ من الصعب تصوّر ذلك، وإن كان في بعض ملامح الاسم ومسألة ابتلاع الأرض له تشابهاً مع القصة القرآنية. والله أعلم.

٧. سِفر رؤيا يوحنا اللاهوتي من أسفار العهد الجديد، وهو السِّفر الوحيد الذي يتخصص في ذِكر النبوءات وما سيحدث في مستقبل الأيام. ويأتي ترتيبه عادة الأخير بين مجموع أسفار الكتاب المقدس. يذكر مؤلف السِّفر نفسه في النص باسم «يوحنا»، لكن هويته الدقيقة تبقى نقطة محل نقاش. فبعض الكتّاب المسيحيين في القرن الثاني اعتبروه الحواري «يوحنا بن زبدي». أما في العصر الحديث فقد شكّك الباحثون في هويته، دون تحديد واضح لها، كما أن بعض الباحثين المعاصرين يعتبرون مؤلف كتاب الرؤيا شخصية افتراضية يسمونها «يوحنا البطمسي». القسم الأكبر من المصادر التقليدية تؤرخ تأليف السِّفر إلى عهد الإمبراطور دوميتيان «٨١-٩٦م».

يشتمل هذا السِّفر على رؤى مختلفة تصبّ في غالبيتها باتجاه الحديث عن وقائع المستقبل بعودة السيد المسيح «عليه السلام» إلى الأرض وقيامته الأخيرة، وتعذيب الشريرين والشيطان، والحديث عن معارك آخر الزمان، وقيام مملكة المسيح وأمثال ذلك. وفي الأصحاحين الثاني والثالث منه سبع رسائل لسبع كنائس هي: أفسس، سميرنا، برغامس، ثياتيرا، ساردس، فيلادلفيا، لاوديكية.

وفي الرسالة الخاصة بالكنيسة الثالثة جاء ذِكر لبلعام وموقفه المشين ضد النبي موسى «عليه السلام» ومساندته لملك موآب: ﴿وَاكْتُبْ إِلَى مَلاَكِ

الْكَنِيسَةِ الَّتِي فِي بَرْغَامُسَ: «هذَا يَقُولُهُ الَّذِي لَهُ السَّيْفُ الْمَاضِي ذُو الْحَدَّيْنِ: أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ، وَأَيْنَ تَسْكُنُ حَيْثُ كُرْسِيُّ الشَّيْطَانِ، وَأَنْتَ مُتَمَسِّكٌ بِاسْمِي، وَلَمْ تُنْكِرْ إِيمَانِي حَتَّى فِي الأَيَّامِ الَّتِي فِيهَا كَانَ أَنْتِيبَاسُ شَهِيدِي الأَمِينُ الَّذِي قُتِلَ عِنْدَكُمْ حَيْثُ الشَّيْطَانُ يَسْكُنُ. وَلكِنْ عِنْدِي عَلَيْكَ قَلِيلٌ: أَنَّ عِنْدَكَ هُنَاكَ قَوْمًا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعْلِيمِ بَلْعَامَ، الَّذِي كَانَ يُعَلِّمُ بَالاَقَ أَنْ يُلْقِيَ مَعْثَرَةً أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنْ يَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ، وَيَزْنُوا. هكَذَا عِنْدَكَ أَنْتَ أَيْضًا قَوْمٌ مُتَمَسِّكُونَ بِتَعْلِيمِ النُّقُولاَوِيِّينَ الَّذِي أُبْغِضُهُ. فَتُبْ وَإِلاَّ فَإِنِّي آتِيكَ سَرِيعًا وَأُحَارِبُهُمْ بِسَيْفِ فَمِي)[1].

• قصة بلعام في الكتاب المقدس:

جاءت قصة بلعام في التوراة مفصّلة تفصيلاً طويلاً – في مقابل إيجاز شديد في القرآن بل إشارة سريعة بغرض ضرب المثل وذلك على فرض صحة كون المراد من الآية هو بلعام ذاته – واشتملت على شخصيات وحوارات وأحداث كثيرة، وهي تخصّ مشهداً من مشاهد حركة بني إسرائيل في جانب من أرض الشام على عهد النبي موسى «عليه السلام» بعد رفضهم دخول أرض «كنعان»، حيث توجّهوا إلى برّية «سين» إلى الجنوب من البحر الميت نواحي صحراء النقب، ثم شمالاً نحو موآب، شرقي نهر الأردن، فحاول «بالاق بن صفور» ملك موآب مضايقتهم ومنعهم من السيطرة على أراضيه، وهو ما دفعه إلى الاستعانة ببلعام بن بعور، وهنا تبدأ الأحداث.

وخلاصة القصة بحسب النص التوراتي تتمثّل في امتناع بلعام عن

١. الكتاب المقدس: سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، الأصحاح ٢: ١٢-١٦.

الاستجابة لطلب الملك عدة مرات، على الرغم من الإغراءات التي أغراه بها، وإن كان في قرارة نفسه - ولربما بدافع الغيرة والحسد وحب المال - يرغب في تأييد الملك والاستجابة لطلبه، وإنما منعه من ذلك أن الله «عز وجل» كان يُبيّن له خطيئة الوقوف في وجه موسى «عليه السلام» ومَن معه، ويحذّره من ذلك. وتُبيّن القصة التوراتية كيف خرج بلعام في نهاية المطاف باتجاه مملكة موآب، وكيف أن الله وضع في طريقه عدة عقبات وعلامات تؤكد جريمة الانتصار للملك، وكَشف له المستقبل الذي ينتظر بني إسرائيل في نصر الله لهم، فاستجاب لأمر الله إلى أن ضعف في نهاية المطاف، فالتفّ على النهي الإلهي بأنْ لم يلعن موسى ومَن معه، بل اقترح على الملك اقتراحاً يَهزم به بني إسرائيل، بأن يرسل نساء مدينته ليرتكبوا الزنا مع الرجال، فيُنزل عليهم غضب الله، ويلتهوا عن القتال. وهذا ما حدث فعلاً، فتفشّى الوباء بين بني إسرائيل وغضب الله عليهم ثم تداركتهم رحمتُه. وكان موقف بلعام في القصة - وما زال - مضرباً للمثل عند أهل الكتاب والمسلمين على حدٍّ سواء.

بدأت القصة في سفر العدد كالتالي: (وَارْتَحَلَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَنَزَلُوا فِي عَرَبَاتِ مُوآبَ مِنْ عَبْرِ أُرْدُنِّ أَرِيحَا. وَلَمَّا رَأَى بَالاَقُ بْنُ صِفُّورَ جَمِيعَ مَا فَعَلَ إِسْرَائِيلُ بِالأَمُورِيِّينَ) حيث انتصر بنو إسرائيل عليهم (فَزِعَ مُوآبُ مِنَ الشَّعْبِ جِدًّا لأَنَّهُ كَثِيرٌ، وَضَجِرَ مُوآبُ مِنْ قِبَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ مُوآبُ لِشُيُوخِ مِدْيَانَ: «الآنَ يَلْحَسُ الْجُمْهُورُ كُلَّ مَا حَوْلَنَا كَمَا يَلْحَسُ الثَّوْرُ خُضْرَةَ الْحَقْلِ». وَكَانَ بَالاَقُ بْنُ صِفُّورَ مَلِكًا لِمُوآبَ فِي ذلِكَ الزَّمَانِ. فَأَرْسَلَ رُسُلًا إِلَى بَلْعَامَ بْنِ بَعُورَ، إِلَى فَتُورَ) على الرغم من بُعد المسافة (الَّتِي عَلَى النَّهْرِ فِي أَرْضِ بَنِي شَعْبِهِ

لِيَدْعُوَهُ قَائِلًا: «هُوَذَا شَعْبٌ قَدْ خَرَجَ مِنْ مِصْرَ. هُوَذَا قَدْ غَشّى وَجْهَ الأَرْضِ، وَهُوَ مُقِيمٌ مُقَابِلِي. فَالآنَ تَعَالَ وَالْعَنْ لِي هذَا الشَّعْبَ، لأَنَّهُ أَعْظَمُ مِنِّي، لَعَلَّهُ يُمْكِنُنَا أَنْ نَكْسِرَهُ فَأَطْرُدَهُ مِنَ الأَرْضِ، لأَنِّي عَرَفْتُ أَنَّ الَّذِي تُبَارِكُهُ مُبَارَكٌ وَالَّذِي تَلْعَنُهُ مَلْعُونٌ». فَانْطَلَقَ شُيُوخُ مُوآبَ وَشُيُوخُ مِدْيَانَ، وَحُلْوَانُ الْعِرَافَةِ فِي أَيْدِيهِمْ) أي حملوا معهم بعض الهدايا (وَأَتَوْا إِلَى بَلْعَامَ وَكَلَّمُوهُ بِكَلاَمِ بَالاَقَ. فَقَالَ لَهُمْ: «بِيتُوا هُنَا اللَّيْلَةَ فَأَرُدَّ عَلَيْكُمْ جَوَابًا كَمَا يُكَلِّمُنِي الرَّبُّ». فَمَكَثَ رُؤَسَاءُ مُوآبَ عِنْدَ بَلْعَامَ)[1].

بحسب النص التوراتي فإنّ بلعام كان يوحَى إليه بنحو من الوحي، وإنْ صحّ هذا فهو يعني نبوّته وفق المفهوم الإسلامي للنبوّة، لأن الوحي – كما نعرف – مختص بالأنبياء عادةً، فكيف لنبي أن يسقط مثل هذه السقطة التي يُشبَّه فيها بالكلب كما جاء في القرآن الكريم؟ نعم، يمكن أن يقال أن الوحي لا يخصّ الأنبياء فقط، إذ شمل السيدة مريم بنت عمران «عليها السلام».

وعلى كل حال يصف المقطع التالي الحوار الدائر بين بلعام وبين الله والذي سيرتِّب موقفه على أساس ذلك: (فَأَتَى اللهُ إِلَى بَلْعَامَ وَقَالَ: «مَنْ هُمْ هؤُلاَءِ الرِّجَالُ الَّذِينَ عِنْدَكَ؟». فَقَالَ بَلْعَامُ للهِ: «بَالاَقُ بْنُ صِفُّورَ مَلِكُ مُوآبَ قَدْ أَرْسَلَ إِلَيَّ يَقُولُ: هُوَذَا الشَّعْبُ الْخَارِجُ مِنْ مِصْرَ قَدْ غَشّى وَجْهَ الأَرْضِ. تَعَالَ الآنَ الْعَنْ لِي إِيَّاهُ، لَعَلِّي أَقْدِرُ أَنْ أُحَارِبَهُ وَأَطْرُدَهُ». فَقَالَ اللهُ لِبَلْعَامَ: «لاَ تَذْهَبْ مَعَهُمْ وَلاَ تَلْعَنِ الشَّعْبَ، لأَنَّهُ مُبَارَكٌ». فَقَامَ بَلْعَامُ صَبَاحًا وَقَالَ لِرُؤَسَاءِ بَالاَقَ: «انْطَلِقُوا إِلَى أَرْضِكُمْ لأَنَّ الرَّبَّ أَبَى أَنْ يَسْمَحَ لِي بِالذَّهَابِ مَعَكُمْ»)[2].

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ١-٨.

٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ٩-١٣.

بالطبع فإن الملك لم يرتضِ هذا الرد ولذا قام بمحاولة ثنيه عن هذا القرار بإرسال وفد آخر ومشكّل من رجالات من ذوي شأن ومقام أعلى ومنّاه بتقديم العطايا التي يطلبها: (فَقَامَ رُؤَسَاءُ مُوآبَ وَأَتَوْا إِلَى بَالاَقَ وَقَالُوا: «أَبَى بَلْعَامُ أَنْ يَأْتِيَ مَعَنَا». فَعَادَ بَالاَقُ وَأَرْسَلَ أَيْضًا رُؤَسَاءَ أَكْثَرَ وَأَعْظَمَ مِنْ أُولئِكَ. فَأَتَوْا إِلَى بَلْعَامَ وَقَالُوا لَهُ: «هكَذَا قَالَ بَالاَقُ بْنُ صفُّورَ: لاَ تَمْتَنِعْ مِنَ الإِتْيَانِ إِلَيَّ، لأَنِّي أُكْرِمُكَ إِكْرَامًا عَظِيمًا، وَكُلَّ مَا تَقُولُ لِي أَفْعَلُهُ. فَتَعَالَ الآنَ الْعَنْ لِي هذَا الشَّعْبَ»)[١].

لم ينثنِ بلعام عن موقفه، ولكنه أراد أن يجرّب مع «اللّه» ثانيةً، لعل وعسى، إذ من الصعب تفويت مثل هذه الجائزة. فإنْ كان هذا غرضه من المحاولة الثانية فلا شك أن هذا لا يتناغم مع شخصية ونفسية وتقوى الأنبياء: (فَأَجَابَ بَلْعَامُ وَقَالَ لِعَبِيدِ بَالاَقَ: «وَلَوْ أَعْطَانِي بَالاَقُ مِلْءَ بَيْتِهِ فِضَّةً وَذَهَبًا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَتَجَاوَزَ قَوْلَ الرَّبِّ إِلهِي لأَعْمَلَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا. فَالآنَ امْكُثُوا هُنَا أَنْتُمْ أَيْضًا هذِهِ اللَّيْلَةَ لأَعْلَمَ مَاذَا يَعُودُ الرَّبُّ يُكَلِّمُنِي بِهِ»)[٢].

وفعلاً جاءه الجواب بالسماح له بالذهاب معهم، ولكن بشرط أن يعمل كما يوحَى إليه لاحقاً: (فَأَتَى اللّهُ إِلَى بَلْعَامَ لَيْلاً وَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَتَى الرِّجَالُ لِيَدْعُوكَ فَقُمِ اذْهَبْ مَعَهُمْ، إِنَّمَا تَعْمَلُ الأَمْرَ الَّذِي أُكَلِّمُكَ بِهِ فَقَطْ»)[٣].

وهكذا شدّ بلعام الرحال وتوجّه مع الوفد إلى مملكة موآب بانتظار التوجيهات «الإلهية» بحسب هذه الرواية التوراتية: (فَقَامَ بَلْعَامُ صَبَاحًا وَشَدَّ

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ١٤-١٧.
٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ١٨-١٩.
٣. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ٢٠.

عَلَى أَتَانِهِ وَانْطَلَقَ مَعَ رُؤَسَاءِ مُوآبَ. فَحَمِيَ غَضَبُ اللهِ لأَنَّهُ مُنْطَلِقٌ)[١] أي كان الغضب الإلهي بسبب سرعة انطلاق بلعام معهم تحقيقاً لمطلبهم مما يعكس تشوّقه لتحقيق مآربه ومآربهم.

وفي تعليق لطيف حول المقطع التالي من قصة بلعام على موقع مجلة «الكلمة» وهو موقع مسيحي يهتمّ بشرح الكتاب والمقدّس والتعليق عليه ويكتب مقالاته «تاسوس كيولاشوجلو» وهو يوناني الأصل قال الكاتب: (الرجل الذي يتبع قلبه الله ١٠٠٪ لن ينتظر، فسيصرف الأمراء مرة أخرى، إذ أن الله قد أوضح له الأمر من قبل، وأنه لا يجب أن يذهب معهم. ولكن بلعام لم يفعل ذلك. عوضاً عن هذا قال أنه سيفحص الأمر مع الله مرة أخرى. وبالرغم من أن هذا كان لا يزال حسناً، وبالقطع لم يكن سيئاً بقدر الذهاب معهم بدون فحص الأمر مع الله إطلاقاً، إلا أنه بالفعل يُظهِر انشقاقاً وتقلّباً ونية لعدم صرف ممثلي بالاق غير مرضيين. فأنت ترجو الله مرة أخرى فقط من أجل شيء لا تزال تريده، وأنه لم يرُق لك ولم ترض بما أخبرك به الله في المرة الأولى. وهذا هو ما حدث هنا. أراد بلعام أن يذهب معهم؛ فقد كانت الهدايا والمكارم أكثر من قدرته على رفضها. ومن ناحية أخرى، لم يرد أيضاً أن يعصي الله! كان سيسعد لو ذهب إلى هناك، ولعن إسرائيل وجلب المكافآت وصار الأمر حسناً مع الله كذلك... وبعدُ، في الصباح، نراه على حماره مستعداً للرحلة الطويلة! فلم يرد أن يضيع ثانية واحدة ولم ينتظر دعوة أحد! ونتيجة لذلك، ثار غضب الله وأرسل ملاكه للوقوف ضده)[٢].

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ٢١-٢٢.

2. www.al-kalema.org/طريق-بلعام.htm

ونستكمل أحداث القصة كما جاءت في الأصحاح ٢٢ من سفر العدد: (وَوَقَفَ مَلاَكُ الرَّبِّ فِي الطَّرِيقِ لِيُقَاوِمَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ عَلَى أَتَانِهِ وَغُلاَمَاهُ مَعَهُ. فَأَبْصَرَتِ الأَتَانُ مَلاَكَ الرَّبِّ وَاقِفًا فِي الطَّرِيقِ وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ فِي يَدِهِ، فَمَالَتِ الأَتَانُ عَنِ الطَّرِيقِ وَمَشَتْ فِي الْحَقْلِ. فَضَرَبَ بَلْعَامُ الأَتَانَ لِيَرُدَّهَا إِلَى الطَّرِيقِ. ثُمَّ وَقَفَ مَلاَكُ الرَّبِّ فِي خَنْدَقٍ لِلْكُرُومِ، لَهُ حَائِطٌ مِنْ هُنَا وَحَائِطٌ مِنْ هُنَاكَ. فَلَمَّا أَبْصَرَتِ الأَتَانُ مَلاَكَ الرَّبِّ زَحَمَتِ الْحَائِطَ) أي اقتربت من الحائط كثيراً والتصقت به وهي تمشي (وَضَغَطَتْ رِجْلَ بَلْعَامَ بِالْحَائِطِ، فَضَرَبَهَا أَيْضًا. ثُمَّ اجْتَازَ مَلاَكُ الرَّبِّ أَيْضًا وَوَقَفَ فِي مَكَانٍ ضَيِّقٍ حَيْثُ لَيْسَ سَبِيلٌ لِلنُّكُوبِ يَمِينًا أَوْ شِمَالاً. فَلَمَّا أَبْصَرَتِ الأَتَانُ مَلاَكَ الرَّبِّ، رَبَضَتْ تَحْتَ بَلْعَامَ. فَحَمِيَ غَضَبُ بَلْعَامَ وَضَرَبَ الأَتَانَ بِالْقَضِيبِ)[١].

إلى هنا تسير الأحداث بصورة معقولة، ولكننا نُفاجأ بالتفصيل التالي الذي أقل ما يُقال عنه بأنه تفصيل غريب: (فَفَتَحَ الرَّبُّ فَمَ الأَتَانِ، فَقَالَتْ لِبَلْعَامَ: «مَاذَا صَنَعْتُ بِكَ حَتَّى ضَرَبْتَنِي الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ؟». فَقَالَ بَلْعَامُ لِلأَتَانِ: «لأَنَّكِ ازْدَرَيْتِ بِي. لَوْ كَانَ فِي يَدِي سَيْفٌ لَكُنْتُ الآنَ قَدْ قَتَلْتُكِ». فَقَالَتِ الأَتَانُ لِبَلْعَامَ: «أَلَسْتُ أَنَا أَتَانَكَ الَّتِي رَكِبْتَ عَلَيْهَا مُنْذُ وُجُودِكَ إِلَى هذَا الْيَوْمِ؟ هَلْ تَعَوَّدْتُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ هكَذَا؟» فَقَالَ: «لاَ». ثُمَّ كَشَفَ الرَّبُّ عَنْ عَيْنَيْ بَلْعَامَ، فَأَبْصَرَ مَلاَكَ الرَّبِّ وَاقِفًا فِي الطَّرِيقِ وَسَيْفُهُ مَسْلُولٌ فِي يَدِهِ، فَخَرَّ سَاجِدًا عَلَى وَجْهِهِ)[٢].

---

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ٢٢-٢٧.

٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ٢٨-٣١.

بعد ذلك، ينتقل الحوار الدائر بين بلعام والأتان إلى حوار بينه وبين الملاك: (فَقَالَ لَهُ مَلاَكُ الرَّبِّ: «لِمَاذَا ضَرَبْتَ أَتَانَكَ الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ؟ هأَنَذَا قَدْ خَرَجْتُ لِلْمُقَاوَمَةِ لأَنَّ الطَّرِيقَ وَرْطَةٌ أَمَامِي، فَأَبْصَرَتْنِي الأَتَانُ وَمَالَتْ مِنْ قُدَّامِي الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَاتٍ. وَلَوْ لَمْ تَمِلْ مِنْ قُدَّامِي لَكُنْتُ الآنَ قَدْ قَتَلْتُكَ وَاسْتَبْقَيْتُهَا». فَقَالَ بَلْعَامُ لِمَلاَكِ الرَّبِّ: «أَخْطَأْتُ. إِنِّي لَمْ أَعْلَمْ أَنَّكَ وَاقِفٌ تِلْقَائِي فِي الطَّرِيقِ. وَالآنَ إِنْ قَبُحَ فِي عَيْنَيْكَ فَإِنِّي أَرْجِعُ». فَقَالَ مَلاَكُ الرَّبِّ لِبَلْعَامَ: «اذْهَبْ مَعَ الرِّجَالِ، وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ بِالْكَلاَمِ الَّذِي أُكَلِّمُكَ بِهِ فَقَطْ»)[١].

كان النص في بدايته موحياً بأن الكلام كان يدور بين بلعام وبين الله، ولكن الفقرة الأخيرة تبيِّن أن الكلام كان يدور بين الملاك وبين بلعام، ولربما يوجَّه ذلك بلحاظ أن الملاك لا ينطق إلا بما يوحى إليه، لذا اعتُبر كلامه كلام الله: (فَانْطَلَقَ بَلْعَامُ مَعَ رُؤَسَاءِ بَالاَقَ. فَلَمَّا سَمِعَ بَالاَقُ أَنَّ بَلْعَامَ جَاءَ، خَرَجَ لاسْتِقْبَالِهِ إِلَى مَدِينَةِ مُوآبَ الَّتِي عَلَى تَخْمِ أَرْنُونَ الَّذِي فِي أَقْصَى التُّخُومِ)[٢] جاء في قاموس الكتاب المقدس أن «أرنون» اسمٌ لنهر يُدعى اليوم «نهر أو وادي الموجب» ويقع في الأردن[٣]. وبالعودة إلى الجغرافيا الحديثة نعرف أنه وادي شديد الانحدار يصب ماؤه في البحر الميت، وكان قديماً يشكل جزءً من الحدود الشمالية لمملكة موآب، يقع على بعد ٤ كم جنوب مدينة «ذيبان». أطلق العرب على هذا الوادي لفظ «موجب» المشتقة من «وجب» وتعني «سقط مُحدثاً ضجة»،أي أن مياهه تنحدر باعثة هديراً.

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ٣٢-٣٥.
٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ٣٥-٣٦.
٣. مجمع الكنائس الشرقية: قاموس الكتاب المقدس، ص ٥٧.

استقبل الملك بلعام موجّاً إليه شيئاً من العتاب: (فَقَالَ بَالاَقُ لِبَلْعَامَ: «أَلَمْ أُرْسِلْ إِلَيْكَ لأَدْعُوَكَ؟ لِمَاذَا لَمْ تَأْتِ إِلَيَّ؟ أَحَقًّا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أُكْرِمَكَ؟» فَقَالَ بَلْعَامُ لِبَالاَقَ: «هأَنَذَا قَدْ جِئْتُ إِلَيْكَ. أَلَعَلِّي الآنَ أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِشَيْءٍ؟ اَلْكَلاَمُ الَّذِي يَضَعُهُ اللهُ فِي فَمِي بِهِ أَتَكَلَّمُ». فَانْطَلَقَ بَلْعَامُ مَعَ بَالاَقَ وَأَتَيَا إِلَى قَرْيَةِ حَصُوتَ. فَذَبَحَ بَالاَقُ بَقَرًا وَغَنَمًا، وَأَرْسَلَ إِلَى بَلْعَامَ وَإِلَى الرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ. وَفِي الصَّبَاحِ أَخَذَ بَالاَقُ بَلْعَامَ وَأَصْعَدَهُ إِلَى مُرْتَفَعَاتِ بَعْلٍ، فَرَأَى مِنْ هُنَاكَ أَقْصَى الشَّعْبِ)[١] أي استطاع من ذلك الارتفاع أن يشاهد كل جموع بني إسرائيل. وبذا ينتهي الأصحاح ٢٢ من سِفر العدد، ويبدأ الأصحاح التالي بإكمال مجريات الأحداث.

(فَقَالَ بَلْعَامُ لِبَالاَقَ: «ابْنِ لِي هُهُنَا سَبْعَةَ مَذَابِحَ وَهَيِّئْ لِي هُهُنَا سَبْعَةَ ثِيرَانٍ وَسَبْعَةَ كِبَاشٍ». فَفَعَلَ بَالاَقُ كَمَا تَكَلَّمَ بَلْعَامُ. وَأَصْعَدَ بَالاَقُ وَبَلْعَامُ ثَوْرًا وَكَبْشًا عَلَى كُلِّ مَذْبَحٍ. فَقَالَ بَلْعَامُ لِبَالاَقَ: «قِفْ عِنْدَ مُحْرَقَتِكَ، فَأَنْطَلِقَ أَنَا لَعَلَّ الرَّبَّ يُوافِي لِلِقَائِي، فَمَهْمَا أَرَانِي أُخْبِرْكَ بِهِ». ثُمَّ انْطَلَقَ إِلَى رَابِيَةٍ)[٢].

هكذا أعدّ بلعام العدّة لاستجابة دعائه من قبل الله، وكأنه بهذه الذبائح يريد أن يشتري رضا ربه ويرشيه ليسمح له بالدعاء على موسى، فيشفي غليله ويُطفئ نار الحسد في قلبه، ويحصل فوق ذلك على الهدايا المرتقبة من ملك موآب!

(فَوَافَى اللهُ بَلْعَامَ، فَقَالَ لَهُ: «قَدْ رَتَّبْتُ سَبْعَةَ مَذَابِحَ وَأَصْعَدْتُ ثَوْرًا وَكَبْشًا عَلَى كُلِّ مَذْبَحٍ». فَوَضَعَ الرَّبُّ كَلاَمًا فِي فَمِ بَلْعَامَ وَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَى بَالاَقَ وَتَكَلَّمْ

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٢: ٣٧-٤١.
٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣: ١-٣.

هكَذَا»)[١] أي ألزمه الله - وحياً - بأن يقول لملك موآب ما يلخّص الموقف من لعن موسى.

وفعلاً، توجّه بلعام إلى الملك: (فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ عِنْدَ مُحْرَقَتِهِ هُوَ، وَجَمِيعُ رُؤَسَاءِ مُوآبَ. فَتَطَقَ بِمَثَلِهِ) أي الكلام الذي أوحي إليه (وَقَالَ: «مِنْ أَرَامَ أَتَى بِي بَالاَقُ مَلِكُ مُوآبَ، مِنْ جِبَالِ الْمَشْرِقِ: تَعَالَ الْعَنْ لِي يَعْقُوبَ، وَهَلُمَّ اشْتِمْ إِسْرَائِيلَ. كَيْفَ أَلْعَنُ مَنْ لَمْ يَلْعَنْهُ اللهُ؟ وَكَيْفَ أَشْتِمُ مَنْ لَمْ يَشْتِمْهُ الرَّبُّ؟ إِنِّي مِنْ رَأْسِ الصُّخُورِ أَرَاهُ، وَمِنَ الآكَامِ أُبْصِرُهُ. هُوَ ذَا شَعْبٌ يَسْكُنُ وَحْدَهُ، وَبَيْنَ الشُّعُوبِ لاَ يُحْسَبُ. مَنْ أَحْصَى تُرَابَ يَعْقُوبَ وَرُبْعَ إِسْرَائِيلَ بِعَدَدٍ؟ لِتَمُتْ نَفْسِي مَوْتَ الأَبْرَارِ، وَلْتَكُنْ آخِرَتِي كَآخِرَتِهِمْ»)[٢].

تفاجأ الملك بهذا الكلام غير المنتظَر والمخالف للغرض من قدوم بلعام ووقوفه هذا الموقف وتقديم هذه الذبائح لاستجابة الدعاء: (فَقَالَ بَالاَقُ لِبَلْعَامَ: «مَاذَا فَعَلْتَ بِي؟ لِتَشْتِمَ أَعْدَائِي أَخَذْتُكَ، وَهُوَ ذَا أَنْتَ قَدْ بَارَكْتَهُمْ». فَأَجَابَ وَقَالَ: «أَمَا الَّذِي يَضَعُهُ الرَّبُّ فِي فَمِي أَحْتَرِصُ أَنْ أَتَكَلَّمَ بِهِ؟»)[٣].

لم ييأس الملك من إقناع بلعام، وحاول أن يلتفّ على قراره وكلامه: (فَقَالَ لَهُ بَالاَقُ: «هَلُمَّ مَعِي إِلَى مَكَانٍ آخَرَ تَرَاهُ مِنْهُ. إِنَّمَا تَرَى أَقْصَاءَهُ فَقَطْ، وَكُلَّهُ لاَ تَرَى. فَالْعَنْهُ لِي مِنْ هُنَاكَ». فَأَخَذَهُ إِلَى حَقْلِ صُوفِيمَ إِلَى رَأْسِ الْفِسْجَةِ، وَبَنَى سَبْعَةَ مَذَابِحَ، وَأَصْعَدَ ثَوْرًا وَكَبْشًا عَلَى كُلِّ مَذْبَحٍ)[٤].

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣: ٤-٥.
٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣: ٦-١٠.
٣. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣: ١١-١٢.
٤. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣: ١٣-١٤.

أعجبت الفكرةُ بلعام: (فَقَالَ لِبَالاَقَ: «قِفْ هُنَا عِنْدَ مُحْرَقَتِكَ وَأَنَا أُوافِي هُنَاكَ». فَوَافَى الرَّبُّ بَلْعَامَ وَوَضَعَ كَلاَمًا فِي فَمِهِ وَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَى بَالاَقَ وَتَكَلَّمْ هكَذَا». فَأَتَى إِلَيْهِ وَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ عِنْدَ مُحْرَقَتِهِ، وَرُؤَسَاءُ مُوآبَ مَعَهُ. فَقَالَ لَهُ بَالاَقُ: «مَاذَا تَكَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ؟» فَنَطَقَ بِمَثَلِهِ وَقَالَ: «قُمْ يَا بَالاَقُ وَاسْمَعْ. اصْغَ إِلَيَّ يَا ابْنَ صِفُّورَ. لَيْسَ اللهُ إِنْسَانًا فَيَكْذِبَ، وَلاَ ابْنَ إِنْسَانٍ فَيَنْدَمَ. هَلْ يَقُولُ وَلاَ يَفْعَلُ؟ أَوْ يَتَكَلَّمُ وَلاَ يَفِي؟ إِنِّي قَدْ أُمِرْتُ أَنْ أُبَارِكَ. فَإِنَّهُ قَدْ بَارَكَ فَلاَ أَرُدُّهُ.لَمْ يُبْصِرْ إِثْمًا فِي يَعْقُوبَ، وَلاَ رَأَى تَعَبًا فِي إِسْرَائِيلَ. الرَّبُّ إِلهُهُ مَعَهُ، وَهُتَافُ مَلِكٍ فِيهِ. اَللهُ أَخْرَجَهُ مِنْ مِصْرَ. لَهُ مِثْلُ سُرْعَةِ الرِّئْمِ) اختلف الشرّاح في الحيوان المشار إليه هنا، فقيل أنه الثور البري، ولربما أريد به «الريم» وهو نوع من الغزلان (إِنَّهُ لَيْسَ عِيَافَةٌ عَلَى يَعْقُوبَ، وَلاَ عِرَافَةٌ عَلَى إِسْرَائِيلَ. فِي الْوَقْتِ يُقَالُ عَنْ يَعْقُوبَ وَعَنْ إِسْرَائِيلَ مَا فَعَلَ اللهُ. هُوَذَا شَعْبٌ يَقُومُ كَلَبْوَةٍ، وَيَرْتَفِعُ كَأَسَدٍ. لاَ يَنَامُ حَتَّى يَأْكُلَ فَرِيسَةً وَيَشْرَبَ دَمَ قَتْلَى»)[١].

حين وجد الملك أن لا طريق إلى لعن موسى ومن معه، لجأ إلى محاولة إقناع بلعام بعدم الدعاء لهم وعدم مباركتهم: (فَقَالَ بَالاَقُ لِبَلْعَامَ: «لاَ تَلْعَنْهُ لَعْنَةً وَلاَ تُبَارِكْهُ بَرَكَةً». فَأَجَابَ بَلْعَامُ وَقَالَ لِبَالاَقَ: «أَلَمْ أُكَلِّمْكَ قَائِلًا: كُلُّ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ الرَّبُّ فَإِيَّاهُ أَفْعَلُ؟»)[٢].

ومن جديد سعى الملك لمحاولة أخرى: (فَقَالَ بَالاَقُ لِبَلْعَامَ: «هَلُمَّ آخُذْكَ إِلَى مَكَانٍ آخَرَ، عَسَى أَنْ يَصْلُحَ فِي عَيْنَيِ اللهِ أَنْ تَلْعَنَهُ لِي مِنْ هُنَاكَ». فَأَخَذَ

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣: ١٥-٢٤.
٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣: ٢٥-٢٦.

بَالاَقُ بَلْعَامَ إِلَى رَأْسِ فَغُورَ الْمُشْرِفِ عَلَى وَجْهِ الْبَرِّيَّةِ. فَقَالَ بَلْعَامُ لِبَالاَقَ: «ابْنِ لِي هُنَا سَبْعَةَ مَذَابِحَ، وَهَيِّئْ لِي هُنَا سَبْعَةَ ثِيرَانٍ وَسَبْعَةَ كِبَاشٍ». فَفَعَلَ بَالاَقُ كَمَا قَالَ بَلْعَامُ، وَأَصْعَدَ ثَوْرًا وَكَبْشًا عَلَى كُلِّ مَذْبَحٍ)[١].

انتهى الأصحاح ٢٣ بالجملة السابقة، ويبدأ الأصحاح ٢٤ ببيان موقف بلعام الذي بدأ يبارك موسى ومَن معه ويدعو لهم، وذلك على خلاف رغبة الملك: (فَلَمَّا رَأَى بَلْعَامُ أَنَّهُ يَحْسُنُ فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ أَنْ يُبَارِكَ إِسْرَائِيلَ، لَمْ يَنْطَلِقْ كَالْمَرَّةِ الأُولَى وَالثَّانِيَةِ لِيُوافِيَ فَأْلًا، بَلْ جَعَلَ نَحْوَ الْبَرِّيَّةِ وَجْهَهُ. وَرَفَعَ بَلْعَامُ عَيْنَيْهِ وَرَأَى إِسْرَائِيلَ حَالا حَسَبَ أَسْبَاطِهِ، فَكَانَ عَلَيْهِ رُوحُ اللهِ، فَنَطَقَ بِمَثَلِهِ وَقَالَ: «وَحْيُ بَلْعَامَ بْنِ بَعُورَ. وَحْيُ الرَّجُلِ الْمَفْتُوحِ الْعَيْنَيْنِ. وَحْيُ الَّذِي يَسْمَعُ أَقْوَالَ اللهِ. الَّذِي يَرَى رُؤْيَا الْقَدِيرِ، مَطْرُوحًا وَهُوَ مَكْشُوفُ الْعَيْنَيْنِ: مَا أَحْسَنَ خِيَامَكَ يَا يَعْقُوبُ، مَسَاكِنَكَ يَا إِسْرَائِيلُ! كَأَوْدِيَةٍ مُمْتَدَّةٍ. كَجَنَّاتٍ عَلَى نَهْرٍ، كَشَجَرَاتِ عُودٍ غَرَسَهَا الرَّبُّ. كَأَرْزَاتٍ عَلَى مِيَاهٍ. يَجْرِي مَاءٌ مِنْ دِلاَئِهِ، وَيَكُونُ زَرْعُهُ عَلَى مِيَاهٍ غَزِيرَةٍ، وَيَتَسَامَى مَلِكُهُ عَلَى أَجَاجَ وَتَرْتَفِعُ مَمْلَكَتُهُ. اَللهُ أَخْرَجَهُ مِنْ مِصْرَ. لَهُ مِثْلُ سُرْعَةِ الرِّئْمِ. يَأْكُلُ أُمَمًا، مُضَايِقِيهِ، وَيَقْضِمُ عِظَامَهُمْ وَيُحَطِّمُ سِهَامَهُ. جَثَمَ كَأَسَدٍ. رَبَضَ كَلَبْوَةٍ. مَنْ يُقِيمُهُ؟ مُبَارِكُكَ مُبَارَكٌ، وَلاَعِنُكَ مَلْعُونٌ»)[٢].

ونتيجة ذلك غضب الملك، وبدأ يلوم بلعام، والرجل لا يملك إلا أن يُقدّم تبريراته: (فَاشْتَعَلَ غَضَبُ بَالاَقَ عَلَى بَلْعَامَ، وَصَفَّقَ بِيَدَيْهِ وَقَالَ بَالاَقُ لِبَلْعَامَ:

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٣: ٢٧-٣٠.
٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٤: ١-٩.

«لتَشْتِمَ أَعْدَائِي دَعَوْتُكَ، وَهُوَ ذَا أَنْتَ قَدْ بَارَكْتَهُمُ الآنَ ثَلاَثَ دَفَعَات. فَالآنَ اهْرُبْ إِلَى مَكَانِكَ. قُلْتُ أُكْرِمُكَ إِكْرَامًا، وَهُوَ ذَا الرَّبُّ قَدْ مَنَعَكَ عَنِ الْكَرَامَةِ». فَقَالَ بَلْعَامُ لِبَالاَقَ: «أَلَمْ أُكَلِّمْ أَيْضًا رُسُلَكَ الَّذِينَ أَرْسَلْتَ إِلَيَّ قَائِلاً: وَلَوْ أَعْطَانِي بَالاَقُ مِلْءَ بَيْتِهِ فِضَّةً وَذَهَبًا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَتَجَاوَزَ قَوْلَ الرَّبِّ لأَعْمَلَ خَيْرًا أَوْ شَرًّا مِنْ نَفْسِي. الَّذِي يَتَكَلَّمُهُ الرَّبُّ إِيَّاهُ أَتَكَلَّمُ. وَالآنَ هُوَ ذَا أَنَا مُنْطَلِقٌ إِلَى شَعْبِي. هَلُمَّ أُنْبِئْكَ بِمَا يَفْعَلُهُ هذَا الشَّعْبُ بِشَعْبِكَ فِي آخِرِ الأَيَّامِ») وصار يتحدّث عما سيجري في قادم الأيام من تسلّط بني إسرائيل على قسم واسع من البلاد التي صار يعدّدها: موآب، أدوم، مملكة العماليق.. إلخ (ثُمَّ قَامَ بَلْعَامُ وَانْطَلَقَ وَرَجَعَ إِلَى مَكَانِهِ. وَبَالاَقُ أَيْضًا ذَهَبَ فِي طَرِيقِهِ)[١].

بهذا المشهد ينتهي الأصحاح ٢٤ من سفر العدد، ويبدأ الأصحاح التالي بقوله: (وَأَقَامَ إِسْرَائِيلُ فِي شِطِّيمَ) جاء في قاموس الكتاب المقدس أنه من سهول موآب في شرق الأردن مقابل أريحا (وَابْتَدَأَ الشَّعْبُ يَزْنُونَ مَعَ بَنَاتِ مُوآبَ)[٢] ولا يذكر هذا الأصحاح، أية مدخلية لبلعام في حدوث هذه الانعطافة الغريبة في الأحداث، إلا أن الأصحاح ٣١ يذكر أن تفشّي الزنا بالموآبيات وما ترتّب على ذلك من انتشار الوباء بين بني إسرائيل – ولعله مرض جنسي تفشّى فيهم – إنما كان بتوجيه من بلعام للملك الموآبي بغرض إلهاء بني إسرائيل عن القتال، ودفْعهم للتمرّد على التعاليم الإلهية الناهية عن الزنا، بل ولحرفهم عن التوحيد.

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٤: ١٠-٢٥.

٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٥: ١.

ففي ضمن عرض الأصحاح ٣١ لموقف النبي موسى «عليه السلام» من قادته العسكريين الذين لم يقتلوا النساء الزانيات في مملكة موآب بعد اقتحام «مدين» جاء النص كالتالي: (وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هَلْ أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أُنْثَى حَيَّةً؟ إِنَّ هؤُلاَءِ كُنَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حَسَبَ كَلاَمِ بَلْعَامَ، سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ فِي أَمْرِ فَغُورَ، فَكَانَ الْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ)[١].

وهذا ما أكدته نصوص أخرى، من بينها ما جاء في سفر رؤيا يوحنا حيث قال: (عِنْدَكَ هُنَاكَ قَوْمًا مُتَمَسِّكِينَ بِتَعْلِيمِ بَلْعَامَ، الَّذِي كَانَ يُعَلِّمُ بَالاَقَ أَنْ يُلْقِيَ مَعْثَرَةً أَمَامَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَنْ يَأْكُلُوا مَا ذُبِحَ لِلأَوْثَانِ، وَيَزْنُوا)[٢].

وفي شرح الآية الأولى من الأصحاح ٢٥ من سِفر العدد قال القمص «أنطونيوس فكري»: (إذ لم يستطع بلعام أن يلعن الشعب فيأخذ مكافأته التي يحلم بها، قدّم لبالاق مشورة شريرة، وهو أن يُلقي معثرة لهذا الشعب خلال الموآبيات فيحلّ بهم غضب الله فينهزموا. وهنا نجد المؤامرة بين موآب ومديان على مستوى ملك موآب وشيوخ مديان. بل امتدت لأن تتآمر بنات موآب مع بنات مديان ليُسقطوا الشَّعب في الزنا. وكانت العبادة الوثنية تحتوى طقوس زنا في معابدهم فأحبّها الشعب اليهودي)[٣].

ويُكمل الأصحاح تفاصيل الأحداث: (فَدَعَوْنَ الشَّعْبَ إِلَى ذَبَائِحِ آلِهَتِهِنَّ،

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٣١: ١٥-١٦.

٢. الكتاب المقدس: سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي، الأصحاح ٢: ١٢-١٤.

3. st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/04-Sefr-El-Adad/Tafseer-Sefr-El-3adad__01-Chapter-25.html#1

فَأَكَلَ الشَّعْبُ وَسَجَدُوا لآلِهَتِهِنَّ. وَتَعَلَّقَ إِسْرَائِيلُ بِبَعْلِ فَغُورَ) إله وثني عبَدَه الموآبيون ويعني «إله الفتح» وقيل بل هو إله الفجور أو أنه إله يُنسَب إلى مدينة «فغور» (فَحَمِيَ غَضَبُ الرَّبِّ عَلَى إِسْرَائِيلَ. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «خُذْ جَمِيعَ رُؤُوسِ الشَّعْبِ وَعَلِّقْهُمْ لِلرَّبِّ مُقَابِلَ الشَّمْسِ، فَيَرْتَدَّ حُمُوُّ غَضَبِ الرَّبِّ عَنْ إِسْرَائِيلَ». فَقَالَ مُوسَى لِقُضَاةِ إِسْرَائِيلَ: «اقْتُلُوا كُلُّ وَاحِدٍ قَوْمَهُ الْمُتَعَلِّقِينَ بِبَعْلِ فَغُورَ»)[١]. أمام هذا الموقف القاطع والشديد للنبي موسى، قام أحد بني إسرائيل بموقف معارض وكأنه يتحدّى بذلك قراره «عليه السلام»، إذ قدّم امرأة من زانيات مدين لإخوته ليزنوا بها: (وَإِذَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ جَاءَ وَقَدَّمَ إِلَى إِخْوَتِهِ الْمِدْيَانِيَّةَ، أَمَامَ عَيْنَيْ مُوسَى وَأَعْيُنِ كُلِّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهُمْ بَاكُونَ لَدَى بَابِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ. فَلَمَّا رَأَى ذلِكَ فِينْحَاسُ بْنُ أَلِعَازَارَ بْنِ هَارُونَ الْكَاهِنِ، قَامَ مِنْ وَسَطِ الْجَمَاعَةِ وَأَخَذَ رُمْحًا بِيَدِهِ، وَدَخَلَ وَرَاءَ الرَّجُلِ الإِسْرَائِيلِيِّ إِلَى الْقُبَّةِ وَطَعَنَ كِلَيْهِمَا، الرَّجُلَ الإِسْرَائِيلِيَّ وَالْمَرْأَةَ فِي بَطْنِهَا. فَامْتَنَعَ الْوَبَأُ عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَكَانَ الَّذِينَ مَاتُوا بِالْوَبَإِ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفًا.... وَكَانَ اسْمُ الرَّجُلِ الإِسْرَائِيلِيِّ الْمَقْتُولِ الَّذِي قُتِلَ مَعَ الْمِدْيَانِيَّةِ، زِمْرِيَ بْنَ سَالُو، رَئِيسَ بَيْتِ أَبٍ مِنَ الشِّمْعُونِيِّينَ. وَاسْمُ الْمَرْأَةِ الْمِدْيَانِيَّةِ الْمَقْتُولَةِ كُزْبِيَ بِنْتَ صُورٍ، هُوَ رَئِيسُ قَبَائِلِ بَيْتِ أَبٍ فِي مِدْيَانَ)[٢].

• نهاية بلعام في الكتاب المقدس:

وتحدّث النص التوراتي كذلك عن نهاية بلعام، حيث قضى مقتولاً ضمن

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٥: ٢-٥.

٢. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٢٥: ٦-١٥.

الحرب التي خاضها بنو إسرائيل مع «المديانيين». جاء النص كالتالي: (وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «انْتَقِمْ نَقْمَةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْمِدْيَانِيِّينَ، ثُمَّ تُضَمُّ إِلَى قَوْمِكَ». فَكَلَّمَ مُوسَى الشَّعْبَ قَائِلًا: «جَرِّدُوا مِنْكُمْ رِجَالًا لِلْجُنْدِ، فَيَكُونُوا عَلَى مِدْيَانَ لِيَجْعَلُوا نَقْمَةَ الرَّبِّ عَلَى مِدْيَانَ. أَلْفًا وَاحِدًا مِنْ كُلِّ سِبْطٍ مِنْ جَمِيعِ أَسْبَاطِ إِسْرَائِيلَ تُرْسِلُونَ لِلْحَرْبِ». فَاخْتِيرَ مِنْ أُلُوفِ إِسْرَائِيلَ أَلْفٌ مِنْ كُلِّ سِبْطٍ. اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا مُجَرَّدُونَ لِلْحَرْبِ. فَأَرْسَلَهُمْ مُوسَى أَلْفًا مِنْ كُلِّ سِبْطٍ إِلَى الْحَرْبِ، هُمْ وَفِينْحَاسَ بْنَ أَلِعَازَارَ الْكَاهِنِ إِلَى الْحَرْبِ، وَأَمْتِعَةُ الْقُدْسِ وَأَبْوَاقُ الْهُتَافِ فِي يَدِهِ. فَتَجَنَّدُوا عَلَى مِدْيَانَ كَمَا أَمَرَ الرَّبُّ وَقَتَلُوا كُلَّ ذَكَرٍ. وَمُلُوكُ مِدْيَانَ قَتَلُوهُمْ فَوْقَ قَتْلاَهُمْ: أَوِيَ وَرَاقِمَ وَصُورَ وَحُورَ وَرَابِعَ. خَمْسَةَ مُلُوكِ مِدْيَانَ. وَبَلْعَامَ بْنَ بَعُورَ قَتَلُوهُ بِالسَّيْفِ)[١].

وأكّد سفر يشوع قتله بالسيف: (وَبَلْعَامُ بْنُ بَعُورَ الْعَرَّافُ قَتَلَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِالسَّيْفِ مَعَ قَتْلاَهُمْ)[٢].

ثم يتحدّث نص سِفر العَدد عن التدمير الواسع الذي قام به بنو إسرائيل بحق أعدائهم، وعن عدم التزام القادة بتعاليم النبي موسى والقاضية بقتل كل امرأة شاركت في المؤامرة التي خطّط لها بلعام، وأدّت إلى إهلاك رجال كثيرين من بني إسرائيل بالوباء، وكذلك قتل أبنائهن الذكور: (وَسَبَى بَنُو إِسْرَائِيلَ نِسَاءَ مِدْيَانَ وَأَطْفَالَهُمْ، وَنَهَبُوا جَمِيعَ بَهَائِمِهِمْ، وَجَمِيعَ مَوَاشِيهِمْ وَكُلَّ أَمْلاَكِهِمْ. وَأَحْرَقُوا جَمِيعَ مُدُنِهِمْ بِمَسَاكِنِهِمْ، وَجَمِيعَ حُصُونِهِمْ بِالنَّارِ. وَأَخَذُوا كُلَّ الْغَنِيمَةِ وَكُلَّ النَّهْبِ مِنَ النَّاسِ وَالْبَهَائِمِ، وَأَتَوْا إِلَى مُوسَى وَأَلِعَازَارَ

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٣١: ١-٨.
٢. الكتاب المقدس: سفر يشوع، الأصحاح ١٣: ٢٢.

الْكَاهِنِ وَإِلَى جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِالسِّبْيِ وَالنَّهْبِ وَالْغَنِيمَةِ إِلَى الْمَحَلَّةِ إِلَى عَرَبَاتِ مُوآبَ الَّتِي عَلَى أُرْدُنِّ أَرِيحَا. فَخَرَجَ مُوسَى وَأَلِعَازَارُ الْكَاهِنُ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ الْجَمَاعَةِ لاسْتِقْبَالِهِمْ إِلَى خَارِجِ الْمَحَلَّةِ. فَسَخِطَ مُوسَى عَلَى وُكَلاَءِ الْجَيْشِ، رُؤَسَاءِ الأُلُوفِ وَرُؤَسَاءِ الْمِئَاتِ الْقَادِمِينَ مِنْ جُنْدِ الْحَرْبِ. وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هَلْ أَبْقَيْتُمْ كُلَّ أُنْثَى حَيَّةً؟ إِنَّ هؤُلاَءِ كُنَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، حَسَبَ كَلاَمِ بَلْعَامَ، سَبَبَ خِيَانَةٍ لِلرَّبِّ فِي أَمْرِ فَغُورَ، فَكَانَ الْوَبَأُ فِي جَمَاعَةِ الرَّبِّ. فَالآنَ اقْتُلُوا كُلَّ ذَكَرٍ مِنَ الأَطْفَالِ. وَكُلَّ امْرَأَةٍ عَرَفَتْ رَجُلاً بِمُضَاجَعَةِ ذَكَرٍ اقْتُلُوهَا. لكِنْ جَمِيعُ الأَطْفَالِ مِنَ النِّسَاءِ اللَّوَاتِي لَمْ يَعْرِفْنَ مُضَاجَعَةَ ذَكَرٍ أَبْقُوهُنَّ لَكُمْ حَيَّاتٍ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَانْزِلُوا خَارِجَ الْمَحَلَّةِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ، وَتَطَهَّرُوا كُلُّ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا، وَكُلُّ مَنْ مَسَّ قَتِيلاً، فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ وَفِي السَّابِعِ، أَنْتُمْ وَسَبْيُكُمْ. وَكُلُّ ثَوْبٍ، وَكُلُّ مَتَاعٍ مِنْ جِلْدٍ، وَكُلُّ مَصْنُوعٍ مِنْ شَعْرِ مَعْزٍ، وَكُلُّ مَتَاعٍ مِنْ خَشَبٍ، تُطَهِّرُونَهُ»[١].

• بلعام في بعض الأدبيات اليهودية:

يتّضح من كلمات بعض أحبار اليهود، تضخيم صورة بلعام في أدبياتهم. لقد رأوا فيه أحد الأنبياء السبعة الذين تحدّثوا للعالم عن الفتن والملاحم والأحداث المستقبلية، في مقابل النبي موسى «عليه السلام» الذي تحدّث عن ذلك لبني إسرائيل فقط. بل إنهم قدّموه كشخصية أعظم من موسى نفسه في كثير من النواحي: «لم يقم أي نبي مثل موسى في إسرائيل، ولكن قام رجل مثله ليكون نبياً لكل شعوب العالم. فمن هو؟ بلعام بن بعور، ولكن هناك فرق بين نبوة موسى ونبوة بلعام:

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ٣١: ٩-٢٠.

١. لم يعرف موسى – عند بعثته – مَن تكلم معه، ولكن بلعام عرف.

٢. لم يعرف موسى متى سيتحدّث معه الله، بينما عرف بلعام ذلك.

٣. لم يتحدث موسى مع الله حتى وقف، بينما تحدث بلعام معه وهو يسقط.

وأوضح هؤلاء الحاخامات المبالغون بشأن بلعام أن قدرته على إنزال اللعنة الحقيقية وتأثيرها في المستهدف ناتجة عن قدرته على التأكد من الساعة التي يغضب فيها الله بالدقة!

في المقابل اعتبر بعض الأحبار الآخرين أنه يمثّل شخصية غير أخلاقية: عين شريرة، وروح متكبّرة، ونفس معتزّة بذاتها. كان بلعام أحد مستشاري فرعون، وهو الذي نصح بإغراق الأطفال الذكور في النيل؛ وفي النهاية تمنّىاقتلاع شعب بأكمله من جذوره، ومن دون سبب واضح. كما أنّه وجّه الملك بالاق إلى السبيل التي من خلالها يستطع أن يدمّرهم. لقد كان هذا الفعل هو الذي تسبب في خروج الروح القدس من الشعوب غير اليهودية، وصار الوحي والنبوّة منذ ذلك الحين أمراً خاصاً ببني إسرائيل[١].

وقد جاء في التلمود أن بلعام كان أعرجاً: (وقال الحاخام يوحنان أيضاً: أن بلعام كان أعرجاً في رجل واحدة، وكان سمسون[٢] أعرجاً في كلتا قدميه)[٣].

---

1. www.jewishvirtuallibrary.org/balaam

٢. سمسون أو شمشون هو أحد القضاء (الأسباط) الإثني عشر من بعد يوشع، وآخرهم. راجع بحث فك لغز الأسباط في الجزء الأول من هذا الكتاب.

٣. التلمود: ج٩، القسم الثالث نشيم، ص٢٥٥.

• تأويل الآيتين في تفسير الطبري:

سعى مفسّرو ومأوّلو القرآن الكريم للتحقق من الشخصية المعنيّة في الآيتين «١٥٦-١٥٧» من سورة الأعراف، فتخبّطوا وحرّفوا القصة التوراتية.

قال الطبري: (واختلف أهل التأويل فيه. فقال بعضهم: هو رجل من بني إسرائيل). ثم سرَد أسماء بعض مَن قال ذلك، مع تحديد اسم الشخصية وموطنها أحياناً:

١. بلعم: (حدثنا حميد بن مسعدة، قال: حدثنا بشر بن المفضل قال: حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله) أي عبدالله بن مسعود (في هذه الآية: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ قال: هو بَلْعَم).

٢. بلعم بن أبَر: (قال: حدثنا أبي، عن سفيان، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله قال: هو بلعم بن أَبَر. حدثنا ابن حميد قال: حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود، في قوله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**﴾ قال: رجل من بني إسرائيل يقال له: بَلْعَم بن أَبَر). ثم ذكر الطبري أنه روي عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود أنه ذكر نفس الكلام دون أن يقول: «بن أبر».

٣. بلعم بن أُبُر: (حدثنا الحسن بن يحيى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا الثوري، عن الأعمش، عن منصور عن أبي الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود، مثله =إلا أنه قال ابن أُبُر، بضم «الباء»).

٤. بلعم بن باعر: (حدثنا ابن وكيع قال: حدثنا عمران بن عيينة، عن حصين، عن عمران بن الحارث، عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعر).

٥. بلعم بن باعر من بني إسرائيل: (حدثني محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم، عن عيسى، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد: ﴿**فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ قال: بلعام بن باعر، من بني إسرائيل).

٦. بلعام: (حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا عبد الرحمن وابن أبي عدي، عن شعبة، عن حصين، عن عكرمة قال في الذي ﴿**آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾قال: هو بلعام).

٧. بلعم من أهل اليمن: (حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي، عن أبيه، عن ابن عباس، قوله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ قال: هو رجل يدعى بلعم، من أهل اليمن).

٨. بلعم من مدينة الجبارين: (حدثني المثنى قال: حدثنا عبد الله بن صالح قال: حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قوله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ قال: هو رجل من مدينة الجبارين يقال له: بلعم).

٩. بلعم من بني إسرائيل وكان يملك الاسم الأعظم ووقعت قصته على عهد نبوة وحكم يوشع بن نون: (حدثني موسى قال: حدثنا عمرو قال: حدثنا أسباط، عن السدي قال: إن الله لما انقضت الأربعون سنة = يعني التي قال الله فيها: ﴿**فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً**﴾[1]، بعث يوشع بن نون نبياً،

١. سورة المائدة: ٢٦.

فدعا بني إسرائيل، فأخبرهم أنه نبيٌّ، وأن الله قد أمره أن يقاتل الجبّارين، فبايعوه وصدّقوه. وانطلق رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم، وكان عالماً يعلم الاسم الأعظم المكتوم، فكفر، وأتى الجبارين، فقال: لا ترهبوا بني إسرائيل، فإني إذا خرجتم تقاتلونهم أدعو عليهم دعوةً فيهلكون. وكان عندهم فيما شاء من الدنيا، غير أنه كان لا يستطيع أن يأتي النساءَ من عِظَمهنّ) ضخامة أجسادهن (فكان ينكح أتانًا له) لاحظ تحريف القصة التوراتية عند ذكر الأتان (وهو الذي يقول الله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾، أي تبصّر، فانسلخ منها، إلى قوله: ﴿**وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ**﴾).

١٠. بلعم من بني إسرائيل وكان نبياً: (حدثني الحارث قال: حدثنا عبد العزيز قال: حدثنا أبو سعد، عن غيره = قال: الحارث: قال عبد العزيز: يعني: عن غير نفسه= عن مجاهد قال: هو نبي في بني إسرائيل، يعني بلعم، أوتي النبوّة، فرشاه قومه على أن يسكت، ففعل وتركهم على ما هُمْ عليه).

١١. بلعام بن باعر وكان قد أوتي كتاباً سماوياً: (حدثنا القاسم قال: حدثنا الحسين قال: حدثنا أبو تميلة، عن أبي حمزة، عن جابر، عن مجاهد، وعكرمة، عن ابن عباس قال: كان في بني إسرائيل بلعام بن باعر أوتي كتاباً).

١٢. أمية بن أبي الصلت: (حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثنا سعيد بن السائب، عن غطيف بن أبي سفيان، عن يعقوب ونافع بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو قال في هذه الآية: ﴿**الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ قال: هو أمية بن أبي الصلت).

(حدثنا ابن المثنى قال: حدثنا ابن أبي عدي قال: أنبأنا شعبة، عن يعلى بن

عطاء، عن نافع بن عاصم قال: قال عبد الله بن عمرو: هو صاحبُكم أمية بن أبي الصلت) وإنما قال «صاحبكم» لأنه كان يتحدّث إلى بعض الرجال من «ثقيف».

وقبل التعليق على هذا التأويل، فلنتعرّف أوّلاً على الشخصية. هو أمية بن أبي الصلت عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن عزة بن عوف بن ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن أبو عثمان. ويقال: أبو الحكم الثقفي، ويقال له «أبو الحكم» شاعر جاهلي ومن رؤساء ثقيف، اشتُهر بالحنيفية والتوحيد، وكان من الدعاة إلى نبذ الأصنام. كما أنه أحد شعراء ثقيف وشرفائها كما كان أبوه من قبله أحد زعماء ثقيف بالطائف. عايش أمية بن أبي الصلت ظهور دعوة النبي محمد «صلى الله عليه وآله»، وقد روي أنه التقاه وتحاور معه وسمع منه القرآن لكنه أبى أن يسلم، وأن أمية بن أبي الصلت منعه من الإسلام الحسد أو الحقد.

جاء في كتاب «البداية والنهاية» لابن كثير: (قال الحافظ ابن عساكر: هو شاعر جاهلي قدم دمشق قبل الإسلام.... وقيل: إنه كان مستقيماً، وإنه كان في أول أمره على الإيمان، ثم زاغ عنه، وأنه هو الذي أراده الله «تعالى» بقوله: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ «الأعراف: ١٧٥». قال الزبير بن بكار: فولدت رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف، أمية الشاعر ابن أبي الصلت....). ورقية هي أخت «أمية» جدّ الأمويين، وجدّ أبي سفيان. وهذا يعني أن بني أمية أبناء خاله.

ثم روى ابن كثير الحادثة التالية على لسان أبي سفيان وهي تدلّ على أن أمية بن أبي الصلت كان من النصارى، قال: (وقال الطبراني: حدثنا علي بن

عبد العزيز..... عن مروان بن الحكم، عن معاوية بن أبي سفيان، عن أبيه قال: خرجت أنا وأمية بن أبي الصلت الثقفي تجاراً إلى الشام، فكلما نزلنا منزلا أخذ أمية سِفراً له يقرؤه علينا، فكنا كذلك حتى نزلنا قرية من قرى النصارى، فجاؤه وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم، ثم رجع في وسط النهار، فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما، وقال لي: هل لك يا أبا سفيان في عالم من علماء النصارى إليه يتناهي علم الكتاب تسأله. قلت: لا إرب لي فيه، واللّه لئن حدّثني بما أحب لا أثق به، ولئن حدّثني بما أكره لأجدن منه. قال: فذهب وخالفه شيخ من النصارى فدخل عليّ فقال: ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ؟ قلت: لست على دينه. قال: وإنْ؟! فإنك تسمع منه عجباً وتراه. ثم قال لي: أثقفي أنت؟ قلت: لا، ولكن قرشي. قال: فما يمنعك من الشيخ؟ فواللّه إنه ليحبكم ويوصي بكم. قال: فخرج من عندنا، ومكث أميّة عندهم حتى جاءنا بعد هدأة من الليل، فطرح ثوبيه ثم انجدل على فراشه، فواللّه ما نام ولا قام حتى أصبح كئيباً حزيناً ساقطاً غَبُوقه على صَبُوحِه[1] ما يكلمنا ولا نكلمه. ثم قال: ألا ترحل؟ قلت: وهل بك من رحيل؟ قال: نعم. فرحلنا فسرنا بذلك ليلتين، ثم قال في الليلة الثالثة: ألا تحدّث يا أبا سفيان؟ قلت: وهل بك من حديث، واللّه ما رأيت مثل الذي رجعت به من عند صاحبك. قال: أما إن ذلك لشيء لست فيه، إنما ذلك لشيء وجلت منه من منقلبي، قلت: وهل لك من منقلب؟ قال: أي واللّه، لأموتن ثم لأحيين، قال: قلت: هل أنت قابل أمانتي؟ قال: على ماذا؟ قلت: على أنك لا تُبعث ولا

١. الصبوح: شراب اللبن في الصباح. الغبوق: شراب اللبن في المساء، والتعبير كناية عن الاضطراب و عدم الاتزان.

تُحاسب، قال: فضحك، ثم قال: بلى! واللّه يا أبا سفيان لنُبعثن، ثم لنُحاسبن، وليدخلن فريق الجنة، وفريق النار. قلت: ففي أيهما أنت أخبرك صاحبُك؟ قال: لا عِلم لصاحبي بذلك، لا فيّ ولا في نفسه. قال: فكنّا في ذلك ليلتين يعجب مني وأضحك منه، حتى قدمنا غوطة دمشق فبعنا متاعنا، وأقمنا بها شهرين، فارتحلنا حتى نزلنا قرية من قرى النصارى، فلما رأوه جاؤه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيعتهم، فما جاء إلا بعد منتصف النهار، فلبس ثوبيه وذهب إليهم حتى جاء بعد هدأة من الليل، فطرح ثوبيه، ورمى بنفسه على فراشه، فواللّه ما نام ولا قام، وأصبح حزيناً كئيباً لا يكلمنا ولا نكلمه. ثم قال: ألا ترحل؟ قلت: بلى إن شئت، فرحلنا كذلك في بثه وحزنه ليالي).

وتستمر الرواية في ذكر تفاصيل الحوار بين أبي سفيان وابن أبي الصلت، وكأنّه يحاول أن يستكشف مَن هو النبي القادم، حيث يبدو أنه سمع في المحطّتين السابقتين كلاماً حول بشاراتٍ بقرب بعثة هذا النبي.

وأكمل أبو سفيان الرواية ناقلاً ما سمعه أمية من العالم النصراني: (جئت هذا العالِم فسألته عن أشياء، ثم قلت: أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر. قال: هو رجل من العرب. قلت: قد علمت أنه من العرب، فمن أي العرب هو؟ قال: من أهل بيت تحجّه العرب. قلت: وفينا بيت تحجّه العرب؟ قال: هو من إخوانكم من قريش، فأصابني واللّه شيء ما أصابني مثله قط. وخرج من يدي فوز الدنيا والآخرة. وكنت أرجو أن أكون إياه. قلت: فإذا كان ما كان فصفه لي. قال: رجل شاب حين دخل في الكهولة. بدوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم، ويصل الرحم، ويأمر بصلتها، وهو محوج كريم الطرفين،

متوسط في العشيرة، أكثر جنده من الملائكة. قلت: وما آية ذلك؟ قال: قد رجفت الشام منذ هلك عيسى بن مريم «عليه السلام» ثمانين رجفة كلها فيها مصيبة، وبقيت رجفة عامة فيها مصائب. قال أبو سفيان: فقلت: هذا والله الباطل. لئن بعث الله رسولاً لا يأخذه إلا مسنّاً شريفاً. قال أمية: والذي حلفت به إن هذا لهكذا يا أبا سفيان).

قال أبو سفيان: (ثم خرجنا حتى إذا كان بيننا وبين مكة مرحلتان ليلتان أدركَنا راكبٌ مِن خلفنا فسألناه فإذا هو يقول: أصابت أهل الشام بعدكم رجفة دمّرت أهلها، وأصابتهم فيها مصائب عظيمة. قال أبو سفيان: فأقبل عليَّ أمية فقال: كيف ترى قول النصراني يا أبا سفيان؟ قلت: أرى وأظن والله إنّ ما حدثك به صاحبُك حق. قال أبو سفيان: فقدِمنا مكة فقضيتُ ما كان معي، ثم انطلقتُ حتى جئت اليمن تاجراً فكنت بها خمسة أشهر، ثم قدمت مكة فبينا أنا في منزلي، جاءني الناس يسلمون علي ويسألون عن بضائعهم، حتى جاءني محمد بن عبد الله، وهندٌ عندي تلاعب صبيانها، فسلم عليّ ورحب بي، وسألني عن سفري ومقامي، ولم يسألني عن بضاعته. ثم قام. فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها، وما سألني هذا عن بضاعته. فقالت لي هند: أو ما علمت شأنه؟ فقلت وأنا فزع: ما شأنه؟ قالت: يزعم أنه رسول الله! فوقذتني) أي أثّر كلامها فيه وكأنها ضربته فأحسّ بالوجع (وتذكرت قوْل النصراني، فرجفت حتى قالت لي هند: مالك؟ فانتبهت فقلت: إن هذا لهو الباطل، لهو أعقل من أن يقول هذا. قالت: بلى، والله إنه ليقولن ذلك ويدعو إليه، وإن له لصحابة على دينه، قلت:

هذا هو الباطل. قال: وخرجْتُ، فبينا أنا أطوف بالبيت إذ بي قد لقيته فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا، وكان فيها خير، فأرسِل مَن يأخذها، ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي، فأبى عليّ وقال: إذن لا آخذها. قلت: فأرسل فخذها، وآنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إليّ بضاعته فأخذها وأخذت منه ما كنت آخذ من غيره).

وتنتقل الرواية للحديث حول اللقاء التالي الذي وقع بين أبي سفيان وأمية: (قال أبو سفيان: فلم أنشب أن خرجت إلى اليمن، ثم قدمت الطائف، فنزلت على أمية بن أبي الصلت، فقال لي: يا أبا سفيان ما تشاء هل تذكر قول النصراني؟ فقلت: أذكره، وقد كان. فقال: ومن؟ قلت: محمد بن عبد الله. قال: ابن عبد المطلب؟ قلت: ابن عبد المطلب. ثم قصصت عليه خبر هند. قال: فالله يعلم؟ وأخذ يتصبب عرقاً ثم قال: والله يا أبا سفيان لعله. إن صفته لهي، ولئن ظهر وأنا حي لأطلبن من الله «عز وجل» في نصره عذراً).

فماذا كان موقف أمية بحسب هذه الرواية؟ قال أبو سفيان: (ومضيت إلى اليمن، فلم أنشب أن جاءني هنالك استهلالُه، وأقبلت حتى نزلت على أمية بن أبي الصلت بالطائف، فقلت: يا أبا عثمان، قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعته، فقال: قد كان لعمري. قلت: فأين أنت منه يا أبا عثمان؟ فقال: والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبداً. قال أبو سفيان: وأقبلت إلى مكة، فوالله ما أنا ببعيد حتى جئت مكة، فوجدت أصحابه يُضرَبون ويُحقَّرون. قال أبو سفيان: فجعلت أقول: فأين جنده من الملائكة؟ قال: فدخلني ما يدخل الناس من النفاسة)[1].

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢٤١-٢٤٤.

وروى ابن كثير رواية أخرى تذكر تفاصيل مختلفة ترتبط بلقائه بالنبي واعترافه بنبوته دون الدخول في الإسلام، ثم تغيير موقفه بعد مقتل بعض أبناء خؤولته في معركة بدر الكبرى. والرواية يرويها ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر عن الزهري أنه قال: (قال أمية بن أبي الصلت:

ألا رسول لنا منا يُخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجراني

قال: ثم خرج أمية بن أبي الصلت إلى البحرين، وتنبأ رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وأقام أمية بالبحرين ثماني سنين، ثم قدم الطائف فقال لهم: ما يقول محمد بن عبد الله؟ قالوا: يزعم أنه نبي هو الذي كنت تتمنى. قال: فخرج حتى قدم عليه مكة فلقيه فقال: يا ابن عبد المطلب ما هذا الذي تقول؟ قال: أقول إني رسول الله، وأن لا إله إلا هو. قال: إني أريد أن أكلمك فعدني غداً. قال: فموعدك غداً. قال: فتحب أن آتيك وحدي أو في جماعة من أصحابي، وتأتيني وحدك أو في جماعة من أصحابك؟ فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أي ذلك شئت. قال: فإني آتيك في جماعة، فأت في جماعة. قال: فلما كان الغد غدا أمية في جماعة من قريش، قال: وغدا رسول الله «صلى الله عليه وسلم» معه نفر من أصحابه حتى جلسوا في ظل الكعبة. قال: فبدأ أمية فخطب، ثم سجع، ثم أنشد الشعر، حتى إذا فرغ الشعر قال: أجبني يا ابن عبد المطلب فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم، يس، وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ**﴾. حتى إذا فرغ منها وثب أمية يجر رجليه قال: فتبعته قريش يقولون: ما تقول يا أمية؟ قال: أشهد أنه على الحق.فقالوا: هل تتبعه؟ قال: حتى أنظر في أمره. قال: ثم خرج أمية إلى

الشام، وقدم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» المدينة فلما قتل أهل بدر، قدم أمية من الشام حتى نزل بدراً، ثم ترحّل يريد رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال قائل: يا أبا الصلت ما تريد؟ قال: أريد محمداً. قال: وما تصنع؟ قال: أؤمن به، وألقي إليه مقاليد هذا الأمر. قال: أتدري من في القليب؟) أي قتلى معركة بدر الكبرى (قال: لا. قال: فيه عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وهما ابنا خالك – وأمه ربيعة بنت عبد شمس – قال: فجدع أذني ناقته، وقطع ذنبها، ثم وقف على القليب يقول:) وأنشد أبياتاً من الشعر في رثائهم (ثم رجع إلى مكة والطائف وترك الإسلام)[١].

فإن صحّت هذه الرواية، فإنّه يمكن قبول أن تكون الآيتان نازلتين فيه، بشرط أن تكونا مدنيّتين، لأن سورة الأعراف مكية، والرواية تتحدّث عن موقف أمية بعد هجرة النبي إلى المدينة.

وإن صحّت الرواية الأولى المروية على لسان أبي سفيان، فيمكن تأويل الآيتين حينئذ بحيث يكون المقصود هو أمية، كما يمكن أن تنطبق عليه الآيتان، لا أنهما نازلتان فيه بل نازلتان في بلعام، وهو الأرجح، بلحاظ أنهما جاءتا بعد سياق طال فيه الحديث عن بعض قصص بني إسرائيل، بِدءً من الآية ١٠٣ إلى الآية ١٧٤ وهي التي تسبق الآيتين التي نبحث بشأنهما مباشرة.

كل هذا على أن يكون المراد من إتيان أمية بن أبي الصلت «الآيات» الدلائل على نبوة محمد «صلى الله عليه وآله»، وأنه بعد أن ثبتت له صحة نبوّته بطرق مختلفة رفض التصديق برسالته وتأييده إلى أن مات.

١. ابن كثير: البداية والنهاية، ج١، ص٢٤٦.

وبعد أن جاء الطبري بكل هذه التأويلات علّق قائلاً: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن اللّه «تعالى ذِكره» أمرَ نبيه «صلى اللّه عليه وسلم» أن يتلو على قومه خبرَ رجلٍ كان اللّه آتاه حُجَجه وأدلته، وهي «الآيات». وقد دلّلنا على أن معنى «الآيات»: الأدلة والأعلام، فيما مضى، بما أغنى عن إعادته. وجائز أن يكونَ الذي كان اللّه آتاه ذلك بلعم، وجائز أن يكون أمية. وكذلك «الآيات» إن كانت بمعنى الحجّة التي هي بعض كُتُب اللّه التي أنزلها على بعض أنبيائه، فتعلَّمها الذي ذكرَه اللّه في هذه الآية، وعناه بها، فجائز أن يكون الذي كان أوتيها بلعم، وجائز أن يكون أمية، لأن أمية كان، فيما يقال، قد قرأ من كتب أهل الكتاب. وإن كانت بمعنى كتاب أنزله اللّه على مَنْ أمر نبيّ اللّه «عليه الصلاة والسلام» أن يتلوَ على قومه نبأه، أو بمعنى اسم اللّه الأعظم، أو بمعنى النبوّة، فغير جائز أن يكون معنياً به أمية، لأن أمية لا تختلف الأمّة في أنه لم يكن أوتي شيئاً من ذلك). وختم الطبري كلامه برأي علمي دقيق حيث قال: (ولا خبرَ بأيِّ ذلك المراد) أي ليس لدينا حديث معتبر مروي عن النبي «صلى اللّه عليه وآله» يبيّن حقيقة الآيات التي أوتيها هذا الرجل (وأيّ الرجلين المعنيّ، يوجب الحجة) لأن كل ما سبق مجرّد أقوال وتأويلات اجتهادية من أصحابها، وليست أحاديث مروية عن النبي «صلى اللّه عليه وآله» (ولا في العقل دلالة على أيِّ ذلك المعنيُّ به من أيٍّ. فالصواب أن يقال فيه ما قال اللّه، ونُقِرّ بظاهر التنزيل على ما جاء به الوحي من اللّه).

هذا ويُضاف إلى القولين السابقين - بلعام وأمية - ثلاثة أقوال أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره:

١) أن يكون المراد بالرجل أبو عامر الراهب، واسمه عبد عمرو بن صيفي بن مالك بن النعمان الأوسي، أحد بني ضبيعة بن زيد من الأوس، وكنيته أبو عامر ولقبه الراهب، لأنه كان من رهبان النصارى، وهو والد حنظلة غسيل الملائكة. كان يطمح أن يصبح الشخصية الدينية الأولى في يثرب قبل هجرة النبي، فجاءت الهجرة النبوية فأفسدت عليه تطلعاته، فما كان منه إلا أن اتّخذ موقفاً عدائياً من النبي وحالف قريشاً وشارك في بعض غزواتها ضد المسلمين، وتحالف مع منافقي المدينة وخطّط معهم للانقلاب على النبي والمسلمين، وباءت كل خططه بالفشل. سمّاه الرسول أبو عامر الفاسق.

قال سعيد بن المسيب: (نزلت في أبي عامر بن صيفي، وكان يلبس المسوح) لباس خاص يصنع من نسيج خشن، وعادة يكون من شعر الماعز، يلبسه الرهبان دلالةً على الزهد (في الجاهلية، فكفر بالنبي «صلى اللّه عليه وسلم». وذلك أنه دخل على النبي المدينة فقال: يا محمد، ما هذا الذي جئتَ به؟ قال: جئتُ بالحنيفية، دين إبراهيم. قال: فإني عليها. فقال النبي «صلى اللّه عليه وسلم» لستَ عليها، لأنك أدخلت فيها ما ليس منها. فقال أبو عامر: أمات اللّه الكاذب منّا طريداً وحيداً. فقال النبي «صلى اللّه عليه وسلم»: نعم، أمات اللّه الكاذب منّا كذلك - وإنما قال هذا يُعرِّض برسول اللّه حيث خرج من مكة - فخرج أبو عامر إلى الشام ومرّ إلى قيصر وكتب إلى المنافقين: استعدّوا، فإنّي آتيكم من عند قيصر بجند لنُخرج محمداً من المدينة، فمات بالشام وحيداً. وفيه نزل: ﴿**وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ**﴾[1]).

١. سورة التوبة: ١٠٧.

٢) عن عبادة بن الصامت: (نزلت في قريش، آتاهم الله آياته التي أنزلها الله «تعالى» على محمد «صلى الله عليه وسلم» فانسلخوا منها، ولم يقبلوها).

٣) وقيل: (نزلت في اليهود والنصارى، انتظروا خروج محمد «صلى الله عليه وسلم» فكفروا به)[١].

• تأويل الآيتين في تفسير القرطبي:

في تفسير القرطبي تفاصيل أخرى حول الموضوع، وهذه التفاصيل تزداد غرابة، وقد اعتدنا من بعض الرواة والمفسّرين أن يضيفوا شيئاً على روايات مَن سبقهم. ومن بين هذه الإضافات:

١. قال القرطبي: (واختلف في تعيين الذي أوتي الآيات، فقال ابن مسعود وابن عباس : هو بلعام بن باعوراء، ويقال ناعم، من بني إسرائيل في زمن موسى «عليه السلام»، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش!).

٢. وقال في ادّعاء انحرافه إلى الإلحاد: (وكان في مجلسه اثنتا عشرة ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه ثم صار بحيث إنه كان أوّل من صنّف كتاباً في أن «ليس للعالَم صانِع»).

٣. ونقل عن مالك بن دينار تفصيلاً آخر لم نجد في الأصل التوراتي ولا في سائر مرويات المفسرين السابقة، قال: (بعث بلعام بن باعوراء إلى ملك مدين ليدعوه إلى الإيمان، فأعطاه وأقطعه، فاتّبع دينه وترك دين موسى «عليه السلام»، ففيه نزلت هذه الآيات).

---

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٢٠٣-٢٠٤.

٤. وعن المعتمر بن سليمان عن أبيه قال: (كان بلعام قد أوتي النبوة، وكان مجاب الدعوة، فلما أقبل موسى في بني إسرائيل يريد قتال الجبارين، سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعو على موسى، فقام ليدعو فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه! فقيل له في ذلك، فقال: لا أقدر على أكثر مما تسمعون. واندلع لسانه على صدره! فقال: قد ذهبَت مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة، وسأمكُر لكم، فإني أرى أن تُخرجوا إليهم فتياتكم، فإن الله يُبغض الزنى، فإن وقعوا فيه هلكوا. ففعلوا فوقع بنو إسرائيل في الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون ألفاً).

٥. ثم نجده يقدّم لنا رواية أخرى غريبة، تذكر أن وجود موسى في التيه هو نتيجة استجابة دعاء بلعام عليه! قال القرطبي: (وروي أن بلعام بن باعوراء دعا ألا يدخل موسى مدينة الجبارين، فاستجيب له وبقي في التيه. فقال موسى: يا رب، بأي ذنب بقينا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعام. قال: فكما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه. فدعا موسى أن ينزع الله عنه الاسم الأعظم، فسلخه الله ما كان عليه).

٦. ونقل القرطبي عن أبي حامد الغزّالي عن بعض العرفاء قولاً فيه تحريف للقصة ولدلالة الآية القرآنية، قال: (وسمعتُ بعض العارفين يقول: إن بعض الأنبياء سأل الله «تعالى» عن أمر بلعام وطرْده بعد تلك الآيات والكرامات، فقال الله «تعالى»: لم يشكرني يوماً من الأيام على ما أعطيته، ولو شكرني على ذلك مرة لما سلبته).

٧. وعن مجاهد ذكر قوله: (إنه أوتي النبوة، فرشاه قومه على أن يسكت،

ففعل وتركهم على ما هم عليه. قال الماوردي: وهذا غير صحيح، لأن الله «تعالى» لا يصطفي لنبوته إلا مَن علم أنه لا يَخرج عن طاعته إلى معصيته).

٨. أما الرواية الآتية فهي أشبه بقصص «ألف ليلة وليلة» أو ما يُحكى للأطفال قبل النوم، قال القرطبي: (وقال ابن عباس في رواية: نزلت في رجل كان له ثلاث دعوات يستجاب له فيها، وكانت له امرأة يقال لها «البسوس» فكان له منها ولد، فقالت: اجعل لي منها دعوة واحدة. فقال: لك واحدة، فما تأمرين؟ قالت: ادعُ الله أن يجعلني أجمل امرأة في بني إسرائيل. فلما علمت أنه ليس فيهم مثلها رغبت عنه، فدعا الله عليها أن يجعلها كلبة نبّاحة. فذهب فيها دعوتان، فجاء بنوها وقالوا: لا صبر لنا عن هذا، وقد صارت أمُّنا كلبة يُعيِّرنا الناس بها، فادع الله أن يردها كما كانت، فدعا فعادت إلى ما كانت، وذهبت الدعوات) أي الثلاثة (فيها)[١].

• تأويل الآيتين في بعض المصادر الإمامية:

نجد في تفسير علي بن إبراهيم القمي - الذي بيّنت في بداية الكتاب عدم ثبوت نسبة ما في النسخة المتوفرة من الكتاب له - أنّ الآيتين نزلتا في بلعم بن باعورا، وكان من بني إسرائيل. والرواية قريبة المضمون من الفكرة الإجمالية للقصة التوراتية مع بعض الاختلاف، من قبيل كون الملك هو فرعون مصر وليس ملك موآب. كما أن في نهاية الرواية قصة غريبة وغير منطقية تدفعنا إلى أن نشك في صحتها.

قال: (وحدثني أبي، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا «عليه

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج٤، ص٢٠٣-٢٠٤.

السلام» أنه أعطي بلعم بن باعورا الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيستجيب له، فمال إلى فرعون، فلما مرّ فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليمر في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته، فأقبل يضربها فأنطقها الله «عز وجل» فقالت: ويلك، على ماذا تضربني؟ أتريد أن أجئ معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟ فلم يزل يضربها حتى قتلها، وانسلخ الاسم من لسانه، وهو قوله: ﴿**فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث**﴾ وهو مثل ضربه. فقال الرضا «عليه السلام»: فلا يدخل الجنة من البهائم إلا ثلاثة: حمارة بلعم، وكلب أصحاب الكهف، والذئب، وكان سبب الذئب أنه بعث ملك ظالم رجلاً شرطياً ليحشر قوماً من المؤمنين ويعذبهم، وكان للشرطي ابن يحبّه، فجاء ذئب فأكل ابنه فحزن الشرطي عليه، فأدخل الله ذلك الذئب الجنة لما أحزن الشرطي!).

بينما في قصص الأنبياء للراوندي ما يدل على أن الأحداث وقعت على عهد يوشع بن نون، كما جاء في إحدى روايات الطبري، وتفاصيلها الأخرى متماشية مع مجمل القصة التوراتية سوى ما سيأتي في آخرها، عند ذِكر عدد الذين ماتوا بالوباء، والمدة التي استغرقها الأمر، والرواية كالتالي: (بالإسناد إلى الصدوق، عن أبيه، عن سعد ومحمد العطار، عن ابن عيسى عن البزنطي، عن عبد الرحمن بن سيابة، عن معاوية بن عمار رفَعَه قال: فُتحت مدائن الشام على يوشع بن نون، ففتحها مدينة مدينة حتى انتهى

إلى البلقاء، فلقوا فيها رجلاً يقال له بالق، فجعلوا يخرجون يقاتلونه لا يقتل منهم رجل، فسأل عن ذلك فقيل: إن فيهم امرأة عندها علم، ثم سألوا يوشع الصلح، ثم انتهى إلى مدينة أخرى فحصرها وأرسل صاحب المدينة إلى بلعم ودعاه، فركب حماره إلى الملك، فعثر حمارُه تحتَه، فقال: لم عثرت؟ فكلمه الله: لم لا أعثر وهذا جبرئيل بيده حربة ينهاك عنهم؟) والصحيح أن يقال «أنطقه الله» وليس «كلّمه» (وكان عندهم أن بلعم أوتي الاسم الأعظم، فقال الملك: ادعُ عليهم - وهو المنافق الذي روي أن قوله «تعالى»: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا**﴾ نزل فيه - فقال لصاحب المدينة: ليس للدعاء عليهم سبيل، ولكن أشير عليك أن تزيّن النساء وتأمرهن أن يأتين عسكرهم فيتعرّضن للرجال، فإن الزناء لم يظهر في قوم قط إلا بعث الله عليهم الموت فلما دخل النساء العسكر وقع الرجال بالنساء، فأوحى الله إلى يوشع: إن شئت سلطت عليهم العدو، وإن شئت أهلكتهم بالسنين، وإن شئت بموت حثيث عجلان، فقال: هم بنو إسرائيل، لا أحب أن يسلط الله عليهم عدوّهم، ولا أن يهلكهم بالسنين، ولكن بموت حثيث عجلان، قال: فمات في ثلاث ساعات من النهار سبعون ألفاً بالطاعون)[١].

• بلعام في نقش أثري مكتَشَف:

في عام ١٩٦٧، تم اكتشاف نقش أثري كُتب بالآرامية، وتضمّن هذا النقش اسم بلعام بن بعور، فما حكاية هذا النقش؟ وما الذي يمكن أن يدلّ عليه؟

مدينة «دير علا» من المدن الريفية والزراعية التي تقع في حوض الأغوار

١. القمي، تفسير علي بن إبراهيم، ج١، ص ٢٤٨.

الوسطى بمحافظة البلقاء، وفيها أثر قديم يُعرف بالتل الأثري. الذي يبعد عن نهر الأردن حوالي ٥ كم شرقاً. وبالتنسيق ما بين جامعة لايدن الهولندية وجامعة اليرموك، كان التل حقلاً للبحث من قبل فريق عمل «فرانكن».

ومن بين مكتشفَات هذا التل ما يعود إلى العصر البرونزي الأول، أي ١٧٠٠ ق.م، والبرونزي المتأخر، أي ١٥٥٠ ق.م، والعصر الحديدي الأول، أي ما بين ١٢٠٠-١٠٠٠ق.م، بالإضافة إلى العصر الحديدي الثاني، أي ما بين ٢٨٥٠-٢٥٨٠ سنة وقد تميّز هذا العصر بدخول هذه المنطقة تحت النفوذ الآشوري، وخاصة بعد ٧٥٠ ق.م.

ومن المكتشفات المهمة بهذا التل وهذا العصر نقشٌ كُتب باللغة الآرامية الأولى أو الأقدم محلياً - كنعانية - ويُدعى نقش بلعام بن بعور. وهذا النقش يمثّل لوح سبّورة، ويظهر أن البناء لربما كان مدرسة.

كتب أ.د. سلطان المعاني حول هذا الموضوع، قال: (أربعة عقود مضت على اكتشاف نقش الجص الآرامي من دير علا، وثلاثة أخرى انقضت على نشره، وفيهما بقي الصمت مطبقاً على أقدم نص أدبي أردني عرفناه حتى اللحظة. هو نص مكوّن من تأليفتين، الأولى في ستة عشر سطراً، والثانية في ثمانية عشر سطراً. وقد ترجم النقش إلى العربية من خلال النص الإنجليزي الصادر فصلاً في كتاب إدوارد لبنسكي: دراسات في النقوش والأسماء الأرامية Edward Lipinski, Studies in Aramaic Inscriptions and Onomastics II, Leuven, 1994، حيث يُحمد لعمر الغول من كلية الآثار والأنثربولوجيا في جامعة اليرموك ترجمة هذا الفصل في إصدار خاص، أسماه: نقش الجص

الآرامي من دير علا، وهو من منشورات عمادة البحث العلمي والدراسات العليا في جامعة اليرموك، وسلسلة منشورات البنك الأهلي عام ١٩٩٧م.

يدفع «إدوارد ليبنسكي» عن النصين الشّكّ في كونهما آراميين، بعدما حار الباحثون في نسبتهما الى أحد فروع اللهجات السامية الشمالية الغربية، الكنعانية والآرامية، فمنذ ساعة الكشف عنهما في دير علا عام سبعة وستين من القرن العشرين الفائت، أثناء حفريات جامعة لايدن على يد فرانكن، عدّهُ علماء الساميات كشفاً مهماً يفوق - في حدس بعضهم - كل ما اكتشف في الأردن من نقوش سامية، وقد تصدّى لدرسه عدد من الباحثين، على رأسهم «هوفتايزر» و«فان در كوي» و«لومبير»... وقد أرجع الباحثون زمن النصين المكتوبين بالحبر الأسود والأحمر على كسارة طينية مطلية باللون الأبيض إلى حوالي القرن التاسع قبل الميلاد «الغول، مدخل تاريخي ولغوي»....

أنقذ علماء اللغات السامية والآثار نصاً آرامياً يرقى إلى الفترة ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد على اختلاف تأريخه بين العلماء، وقد كُتب النقش على الجص بحبر ذي لونين، نالت العوامل الطبيعية منه، فأتلفت أجزاءً من حروفه، بل وأسطره. وقد أنبأت إيحاءات النص الأول، بكارثة طبيعية تُحيكها الآلهة ضد الأرض، وذلك بأفول الشمس وحجب ضيائها على المستهدَفين مِن قوم «بلعام بن بعور المؤابي؟» المتنبئ.. وجاء سبب التغير في ناموس الكون المبتغى بغيّ الناس وانقلاب منظومة المعايير والقيم.

إذن هو الغضب المولود من رحم النبوءة.. يهبط ثقيلاً على قلب بلعام.. غضب أسود ينهمر من السماء.. وإلى الوادي تتسلل خيوط العتمة.. في عراء

تلك الليلة نادت الآلهة ابن بعور نداء مسكوناً بالارتعاش.. تخثَّر الدم.. ثقلت اليد.. سقطت اليمنى.. أراد سرُّهُ الصامت أن يفلت، يصرخ في البيوت الجاثمة في سحيق الوادي.. من يبلغ القوم بما قشعمت به الآلهة ليلاً.

١. تحذير سفر بلعام بن بعور. رجل راء الآلهة هو ، وتأتي إليه الآلهة بالليل، ويكشفون له

٢.أمر إيل عينَه، ويقولون لبلعام بن بعور هكذا: «دنا لوجئْ راهنُه: النار لكوخه دنت»

٣. ويقوم بلعام في الصباح: ارتخت اليد سقطت اليمين وصوماً يصوم في خدره وما استطاع أن يطمئنّ، وبكاءً

٤.يبكي. يدخل قومه إليه، ويقولون لبلعام بن بعور: «لم تصوم، ولم تبكي؟»

.. أي حمل ناءت به روحه التي هوّمت ليلاً تسبح في رؤيا النار التي دنت كوخه.. في اليد رخاوة.. وعلى اللسان لجلجة، عرّاف قد انسلّت إرادته قسراً.. وفي القلب حرقة واشتعال.. بلعام يقوم في الصباح.. يدعو قومه.. يعلن الحرائق.. وبحر الدماء.. يقولون: يا بلعام لم البكاء.. ولم الصوم عن الكلام.. «ويقول لهم: اجلسوا، أحكي لكم ما الشّدّايون أقسموا، واذهبوا انظروا أفعال الآلهة، الآلهة اجتمعوا، وأقام الشدّايون اجتماعاً، وقالوا للشمس: عسى أن تفضي مزاليج السماء، بعبُّك عسى أن تكون ظلمة، وليس إشراق، رهبة وليس فتنة. عسى أن تهبي رعباً بعبّ الظُّلمة، وعسى ألا تتوهجي إلى الأبد.«الغول ص ٢٦».

إن النص الآرامي من دير علا رؤيا متنبئ أو عراف راودته ليلاً نذير شؤم وهلاك، اجتمع حوله ناسه وشعبه.. بدأ بقص الرؤيا وهول ما أخبرته به الآلهة.. ثم ينقطع خبر الرؤيا بغتة لتَلَف النص، وكأنما ترك الفرصة سانحة لاستكمال الرؤيا لكل من يخلفون، كيفما يرون، وكيفما يستجد، وكيفما تتلوّن أذهان الناس وعقلياتهم. ويعكس ذاك النص الأدبي ظلامية النظرة ووحشية المآل في سردية تستحق النظر والدرس في أول نص أدبي أردني يعود إلى قرابة ثلاث آلاف سنة. فإذا كان نقش ميشع مسلة تأريخية تعود إلى القرن التاسع قبل الميلاد، فإن نقش دير علا رؤيا أحادية الحكاية، مسرودة بنفس القص الأسطوري الشرقي القديم في أوغاريت وبلاد ما بين النهرين وبعض مقاطع النقوش الكنعانية. وقد نالت تلك النقوش من الاهتمام والدرسة ما أبرز مكانة التراث الأدبي في الشرق القديم ، وقلما كان الالتفات إليها في الأردن ، سوى ما درسه مَن أشرنا إليهم من المستشرقين، وترجمة وحيدة بالعربية لدراسة إدوارد ليبنسكي للغول ، وهي مادة هذا العرض.

الآلهة هائجة يملؤها الحنق.. في اجتماع الآلهة ذاك حرضوا عليكم الشمس، لأنكم أبناء الفتنة والغواية.. أطبقتم على الناموس بما لا يحتمل.. حرضوها أن تستل من على الأرض ضياءها.. تجهز عليها حتى مزاليج السماء.. واستحلفوها أن تستجيب لنداء العدم.. فلا تشرق أبداً، عسى الأرض تغرق في بحر الظلام.. جفلت الشمسُ.. فَعَسُوها أن تلقي في قلوبهم الرعب، وظلام رهبة لا فتنة.

ها هو بلعام الرائي يوقظ الأعماق بقسوة.. يعريها.. يشق طريق الرعشات المتواطئة مع السنونو والفراخ واللقلق إذ تتحدى الغرابان والنعام والصقور.

أيها القوم الآلهة تقول لكم: لا عاصم لكم اليوم.. فكيف أطفأتم الناموس؟ فاعتلى الرويبضة.. حتى الطيور.. صارت اليمامة فيها عبدة القمري، الصقور ترقب الحمامة ترقى مصاعدها وتسكن أعشاشها. والأرانب تتقافز احتداماً فوق العشب، أو باللهفة المحمومة ترتشف الوطاويط خمراً؟ أويرتوي الخفاش من الشراب المخمر.. وحوش البرية سمعت.. استحالت شياطين نفثت كل احتراقها فوق المدينة.. فانزلي يا بروق وراوغي الأرض باشتعال الحرائق.. إذ أن السنونو يتحدّى العقاب، وفراخ الرُّخم النعام، واللقلق صغار الصقر، والصدى أفراخ مالك الحزين، والقُمريّة تطيِّر اليمامة، والعصفور كلٌ قنٌ للحدأة، والحمامة الصغيرة الطيور من المضجع، المكان حيث تقود العصا النَّعاج، تأكل الأرانب العشب، والخفاش من الشراب المخمَّر يرتوي، والوطاويط شربوا خمراً، والضباع سمعت الأمر. جِراءُ الثُّعال[1] عُلِّموا الألف باء، جاءت الحشود: المُتَبَطِّل على الحكيم يضحك، والغانية تمزج المرّ، والكاهنة أُغويت، وتفتح أرضاً غير مقدسة بالليل ولحامل إزار حارس. تقديرا قدّرها، وتقديراً قدّرته، تغيب عن الوعي... ويسمع الصم من بعيد .. انقطع... والأحمق رأوا الاضطراب، شجّر وعشتر لم يتبيّنا معنى.... النمر، الخَنّوص يطارد بني..... الأسنان والأعضاء التناسلية - الأوصال، والعين..... .

كان الجدار قد أعلن الاهتراء والتلف.. وقد نالت السنون من صفحته، وما

١. أي صغار الثعالب.

علاه من رسم الخط المعنون بالأحمر.. وهي إشارة نبوءة أو عرافة، فعلها المصريون القدماء قبلاً، وبدا ذاك الخط المرسوم بالحبر الأسود نوافذ على الأفق الشاسع الغافي في ضواحي الأحقاب والقرون.. بدا جليلاً ذا مهابة.. يحرك حروفة المنفصلات وكأنها أجساد نور تغمر المكان.. ترقب من يفك عقدة صمتها.. وغموض سرّها. إن نص عراف الآلهة المؤابي بلعام بن بعور، رغم ما انتابه من تلف ورغم ما اعتور بعض المفردات والجمل من غموض، يبقى نصاً أدبياً مثيولوجياً يستحق التناول والتوظيف في نصوصنا الإبداعية، وذلك بعثاً لنص أدبي أردني قديم.

في تلك الرؤيا عاشر الإله «شَجّر» عاشقُ الخراب واليباب «عشتار»، وعاودها.. فحزمت الآلهة أمر طوقها على الأرض... لكنها الرؤيا التي لم تشأ لها الأيام أن تكتمل.. ليستفيق القرن العشرون على هذا الكشف العظيم وقد نالت الهزات الأرضية عبر القرون من توالي النص في أسطره الأخيرة.

أما التأليفة الثانية فقد جاءت مبتورة البداية والنهاية، وانتاب بعض أسطرها التلف مما أفقدها كثيرا من كلماتها التي لفت النص بالغموض، ولكننا، رغم ذلك، أمام نص طقسي، يصور حالة عاطفية حسية ذات طابع سحري، تهبط فيها فتاة من العالم العلوي إلى صاحب النقش في العالم السفلي، حيث سُجّي ميتاً في بيت أبديته، وينتهي الأمر بضابية لا نجزم فيما إذا كان الإنجاب قد تمّ من هذا الملك العنّين ليستمر ملكه على الأرض بعدما مات دونما ذرية)[1].

1. www.addustour.com/articles/813956 -من-أدب-الشرق-القديم-في-الأردن

• **خاتمة:**

من كل ما سبق نستطيع القول أن حسم تأويل آيتي سورة الأعراف بكونها تتحدّث عن بلعام بن بعور على وجه التحديد أمر يصعب تأكيده بشكل قاطع، ولكنه هو الأرجح بلحاظ عدة قرائن، كما أنني لا أميل إلى القول بأن الآية تقدّم نموذجاً مطلقاً وأنها ليست في مورد الحديث عن شخصية معيّنة، وذلك بلحاظ مضمون الخطاب: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**﴾ ولم يقل «سبحانه»: «واضرب لهم مثلاً....» أو ما شابه ذلك، مما يوحي بأن الحديث هنا عن شخصية حقيقية عاشت في زمنٍ ما، وعرف الناس موقفها، ولو بشكل إجمالي.

٧

شبر وشبر

٧

شبر وشبير

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

جاء في كتب الحديث والسيرة أنه تمّت تسمية الإمامين الحسن والحسين «عليهما السلام» ابني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب «عليه السلام» بهذين الاسمين تشبّهاً بتسمية النبي هارون بن عمران «عليه السلام» ابنيه باسم شبر وشبير.

وفي بعض الروايات أن معنى شبر في العبرية: حسن، وشبير: حسين.. وهذا يستدعي طرح بعض الأسئلة كالتالي:

هل كان للنبي هارون «عليه السلام» ولدان حملا هذين الاسمين؟

وهل شبر بمعنى حسن، وشبير بمعنى حسين؟

فلنستعرض بدءً بعض الروايات الواردة في كتب المسلمين بهذا الخصوص مع بعض التعليقات المختصرة، علماً بأننا سنعتمد في المقام الأول على ما

١. سورة البقرة: ٢٤٨.

جمعه العلامة المجلسي في الجزء ٤٣ من بحار الأنوار والذي عنونه كالتالي: «في تاريخ الإمامين الهمامين قرتي عين رسول الثقلين الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة أجمعين، صلوات الله عليهما أبد الآبدين، ولعنة الله على أعدائهما في كل حين، باب ولادتهما وأسمائهما وعللها ونقش خواتيمهما صلوات الله عليهما»[١]:

○ الرواية الأولى: مناقب ابن شهراشوب: (ولد الحسين «عليه السلام» عام الخندق بالمدينة يوم الخميس أو يوم الثلاثاء لخمس خلون من شعبان سنة أربع من الهجرة بعد أخيه بعشرة أشهر وعشرين يوماً، واسمه: الحسين، وفي التوراة شبير، وفي الإنجيل طاب، وكنيته: أبوعبد الله، والخاص أبوعلي. وألقابه: الشهيد السعيد، والسبط الثاني، والإمام الثالث).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق بما يلي:

١. النص السابق كلام المؤرخ ابن شهراشوب وليس برواية.

٢. ليس فيه دلالة على أن تسمية الحسين بهذا الاسم جاءت تشبّهاً بتسمية هارون ابنه شبيراً.

٣. الظاهر من قول ابن شهراشوب: «وفي التوراة شبير» أن الحسين «عليه السلام» مذكور في التوراة وبهذا الاسم العبري.

٤. أن الحسين «عليه السلام» مذكور في الإنجيل أيضاً، ولكن باسم «طاب»، ولعله يقصد أن هذه التسمية جاءت هكذا باللغة الآرامية والتي

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٤٣، ص ٢٢٧.

قيل أنها اللغة الأصلية للإنجيل على خلاف التوراة التي كانت بالعبرية. وقد اختلف الباحثون في علوم الديانات والتاريخ القديم في اللغة التي كان يتحدث بها الرسول الكريم عيسى بن مريم «عليه السلام» وتلك التي كُتب بها الإنجيل. ويجمع الباحثون أن فلسطين زمن بعثة هذا النبي كانت بمثابة لوحة فسيفسائية، وأن سكانها كانوا خليطاً من أكثر من شعب ولسان، وكانوا يتكلّمون بدرجات متفاوتة: العبرانية، والآرامية، واليونانية، واللاتينية. وأقوال الباحثين المعاصرين مردّدة بخصوص لغة الإنجيل ما بين اليونانية والآرامية. وهناك قول بأن العهد الجديد ككل كُتب باليونانية التي كانت الأوسع انتشاراً في المنطقة التي دُوِّنت فيها، عدا إنجيل «متّى» الذي كُتِب باليونانية والآرامية.

وهناك قول قديم قال به ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ومفاده أن السيد المسيح «عليه السلام» لم يتكلم بغير العبرانية، وبحسب هذا الادعاء فإنّ من المفترض أن يكون الإنجيل نازلاً بالعبرية أيضاً. علماً بأن اللغة الآرامية نشأت في أجزاء من سورية الحالية وشمال العراق، وكانت لغة رسمية في بعض دول العالم القديم، واللغة اليومية في الهلال الخصيب الذي يشمل العراق وأجزاء من بلاد الشام. تعود بدايات كتابتها للقرن العاشر قبل الميلاد، إلا أنها أصبحت اللغة المسيطرة في الهلال الخصيب بدءً من القرن الخامس قبل الميلاد. ما زالت اللغة مستعملة بين المسيحيين من أتباع الكنائس المسيحية السريانية في سورية والعراق وتركيا وإيران.

٥. ولكن من المحتمل أنه قصد أن هناك مَن حمل هذا الاسم في التوراة باللغة العبرية، فكان «شبير»، وفي الإنجيل باللغة الآرامية، فكان «طاب».

○ الرواية الثانية: علل الشرائع، أمالي الصدوق: ..... عن الثمالي، عن زيد بن علي، عن أبيه علي بن الحسين «عليهما السلام» قال: (لما ولدت فاطمة الحسن «عليهما السلام» قالت لعلي «عليه السلام»: سمِّه. فقال: ما كنتُ لأسبق باسمه رسولَ الله. فجاء رسولُ الله «صلى الله عليه وآله» فأُخرِج إليه في خرقة صفراء، فقال: ألم أنهكم أن تلفّوه في خرقة صفراء؟) مِن الباحثين مَن اعتبر أن كراهة النبي للفّ المولود بخِرقة صفراء وتفضيله اللفّ بخرقة بيضاء يعود إلى أن اللون الأصفر لا تظهر فيها الأوساخ بسرعة وبشكل واضح، على خلاف الخرقة البيضاء، فكان البُعد الصحّي في المسألة هو منطلق كراهة النبي لذلك. ومن الممكن أن تكون كراهته قائمة على أساس أن استعمال الثياب بهذا اللون كان من خصوصيات الوثنيين، حيث نشهد اليوم أن الرهبان في البوذية والهندوسية يرتدون خرقاً من درجات اللون الأصفر. وعند الهندوس هو اللون المقدس (ثم رمى بها وأخذ خرقة بيضاء فلفّه فيها ثم قال لعلي «عليه السلام»: هل سمّيته؟ فقال: ما كنت لأسبقك باسمه، فقال «صلى الله عليه وآله»: وما كنت لأسبق باسمه ربّي «عز وجل». فأوحى الله «تبارك وتعالى» إلى جبرئيل أنه قد ولد لمحمد ابن، فاهبط فأقرئه السلام وهنّئه وقل له: إن علياً منك بمنزلة هارون من موسى، فسمّه باسم ابن هارون. فهبط جبرئيل «عليه السلام» فهنّأه مِن الله «عز وجل» ثم قال: إن الله «تبارك وتعالى» يأمرك أن تسمّيه باسم ابن هارون، قال: وما كان اسمه؟ قال: شبر. قال: لساني عربي. قال: سمّه الحسن. فسمّاه الحسن. فلما وُلد الحسين «عليه السلام» أوحى الله «عز وجل» إلى جبرئيل «عليه السلام» أنه

قد ولد لمحمد ابن، فاهبط إليه فهنّئه، وقل له: إنّ علياً منك بمنزلة هارون من موسى، فسمّه باسم ابن هارون. قال: فهبط جبرئيل «عليه السلام» فهنّأه مِن الله «تبارك وتعالى» ثم قال: إنّ علياً منك بمنزلة هارون مِن موسى، فسمّه باسم ابن هارون. قال: وما اسمه؟ قال: شبير. قال: لساني عربي. قال: سمّه الحسين. فسمّاه الحسين).

ثم علّق المجلسي على الرواية بقوله: (بيان: قال الفيروزآبادي: شبر كبقم، وشبير كقمير، ومُشَبِّر كمُحَدِّث أبناء هارون «عليه السلام». قيل وبأسمائهم سمى النبي «صلى الله عليه وآله» الحسن والحسين والمحسن).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق وتعليق المجلسي عليه بما يلي:

١. النص هذه المرّة رواية عن الإمام زين العابدين «عليه السلام».

٢. التسميتان مِن عند الله «عز وجل».

٣. التسميتان جاءتا تماثلاً لتسمية النبي هارون ابنيه، مع المحافظة على المعنى وتغيير اللغة، وبلحاظ أن منزلة علي «عليه السلام» من النبي «صلى الله عليه وآله» بمنزلة النبي هارون من النبي موسى «عليهما السلام».

٤. أشير إلى هذه المنزلة في الحديث المشهور الذي رواه المسلمون في كتبهم عن النبي «صلى الله عليه وآله» وذلك قبيل غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة. ومن بين المصادر ما جاء في «فتح الباري شرح صحيح البخاري» لابن حجر العسقلاني في شرحه للحديث برقم «٣٥٠٣»: (حدّثني محمد بن بشار حدّثنا غندر حدّثنا شعبة عن سعد قال: سمعت إبراهيم بن سعد عن أبيه قال:

قال النبي «صلى الله عليه وسلم» لعلي: أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟).

قال ابن حجر: (ولابن سعد من حديث البراء وزيد بن أرقم في نحو هذه القصة: «قال: بلى يا رسول الله، قال: فإنه كذلك». وفي أوّل حديثهما أنه «عليه الصلاة والسلام» قال لعلي:: «لا بد أن أقيم أو تقيم، فأقام علي. فسمع ناساً يقولون: إنّما خلّفه لشيء كرهه منه، فاتّبعَه فذكر له ذلك، فقال له الحديث، وإسناده قوي. ووقع في رواية عامر بن سعد بن أبي وقاص عند مسلم والترمذي قال: «قال معاوية لسعد: «ما منعك أن تسب أبا تراب؟ قال: أمّا مَا ذكرتُ ثلاثاً قالهن له رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فلن أسبّه». فذكر هذا الحديث. وقوله: لأعطينّ الراية رجلاً يُحبّه الله ورسوله. وقوله: لما نزلت فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين فقال: اللهم هؤلاء أهلي. وعند أبي يعلى عن سعد من وجه آخر لا بأس به قال: لو وضع المنشار على مفرقي على أن أسبّ علياً ما سببته أبداً. وهذا الحديث أعني حديث الباب دون الزيادة روي عن النبي «صلى الله عليه وسلم» عن غير سعد من حديث عمر وعلي نفسه وأبي هريرة وابن عباس وجابر بن عبد الله والبراء وزيد بن أرقم وأبي سعيد وأنس وجابر بن سمرة وحبشي بن جنادة ومعاوية وأسماء بنت عميس وغيرهم، وقد استوعب طرقه ابن عساكر في ترجمة علي. وقريب من هذا الحديث في المعنى حديث جابر بن سمرة قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم» لعلي: مَن أشقى الأولين؟ قال: عاقر الناقة. قال: فمن أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: قاتلُك. أخرجه الطبراني، وله

شاهد من حديث عمار بن ياسر عند أحمد، ومن حديث صهيب عند الطبراني، وعن علي نفسه عند أبي يعلى بإسناد لين، وعند البزار بإسناد جيد. واستدل بحديث الباب على استحقاق علي للخلافة دون غيره من الصحابة، فإن هارون كان خليفة موسى، وأجيب بأن هارون لم يكن خليفة موسى إلا في حياته لا بعد موته لأنه مات قبل موسى باتفاق، أشار إلى ذلك الخطابي. وقال الطيبي: معنى الحديث أنه متصل بي، نازل مني منزلة هارون من موسى. وفيه تشبيه مبهم بيّنه بقوله: إلا أنه لا نبي بعدي، فعُرف أن الاتصال المذكور بينهما ليس من جهة النبوة بل من جهة ما دونها، وهو الخلافة، ولما كان هارون المشبَّه به إنما كان خليفة في حياة موسى، دل ذلك على تخصيص خلافة علي للنبي «صلى الله عليه وسلم» بحياته، والله أعلم. وقد أخرج المصنف من مناقب علي أشياء في غير هذا الموضع، منها حديث عمر «علي أقضانا» وسيأتي في تفسير البقرة. وله شاهد صحيح من حديث ابن مسعود عند الحاكم، ومنها حديث قتاله البغاة، وهو حديث أبي سعيد تقتل عماراً الفئةُ الباغية، وكان عمار مع علي، وقد تقدّمت الإشارة إلى الحديث المذكور في الصلاة. ومنها حديث قتاله الخوارج، وقد تقدّم من حديث أبي سعيد في علامات النبوة، وغير ذلك مما يُعرَف بالتتبّع، وأوعبُ مَن جمَع مناقبه من الأحاديث الجياد النسائي في كتاب «الخصائص». وأما حديث مَن كنت مولاه فعليٌّ مولاه فقد أخرجه الترمذي والنسائي، وهو كثير الطرق جداً، وقد استوعبها ابن عقدة في كتابٍ مفرَد، وكثير من أسانيدها صحاح وحسان، وقد روينا عن الإمام أحمد قال: ما بلغَنا عن أحدٍ من الصحابة ما بلغَنا عن علي بن أبي طالب).

يمكن أن يُردّ على ما جاء في الكلام السابق عن خصوصية هذه المنزلة في حياة النبي بقوله «صلى الله عليه وآله» في ذيل الحديث: (إلا أنه لا نبي بعدي)، وفيه دلالة واضحة على استمرارية المنزلة بعده، وأنها لم تكن تخصّ زمن حياته فقط.

وقد استدلّ علماء الإمامية على فهمهم لحديث المنزلة من خلال ما جاء في القرآن الكريم من قصة النبيَّين الكريمين، وذلك كالتالي:

المنزلة الأولى، النبوّة: قال «تعالى»: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا**﴾[١].

المنزلة الثانية، الوزارة: قال «تعالى» عن لسان النبي موسى: ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي**﴾[٢]، وقال «تعالى»: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا**﴾[٣]، وعن لسان النبي موسى: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي**﴾[٤].

المنزلة الثالثة، الخلافة: قال «تعالى»: ﴿**وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾[٥].

المنزلة الرابعة، القرابة القريبة: قال «تعالى» عن لسان النبي موسى «عليه السلام»: ﴿**وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي،**

١. سورة مريم:٥٣.
٢. سورة طه: ٢٩-٣٠.
٣. سورة الفرقان: ٣٥.
٤. سورة القصص: ٣٤.
٥. سورة الأعراف: ١٤٢.

وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[١]. ورسول الله «صلى الله عليه وآله» يُخبِر في حديث المنزلة عن ثبوت جميع هذه المنازل القرآنية لهارون.

٥. لو رجعنا إلى معاجم اللغة فسنجد أن ضبط كلمة «بقم» التي استشهد بها الفيروزآبادي يختلف بحسب المعنى، بل قد يتّحد المعنى ولكن يَختلف الناس في التلفّظ بالكلمة لأنها ليست عربية الأصل. وذلك كما يلي:

البُقَّمُ: نبات عُشْبِيٌّ طِبِّيّ، من أَصل هندي.

البُقَّمُ: شجرةُ جَوْزِ ماثِلٍ.

البَقْمُ: نوع شجر من القرنيَّات الفراشية، وورقُ شجرِه كورق اللوز، وساقُه حمراء.

البَقَّمُ: خَشَبٌ شَجَرُهُ عِظامٌ، ووَرَقُهُ كَوَرَقِ اللَّوْزِ، وساقُهُ أَحْمَرُ، يُصْبَغُ بطَبيخِه، ويُلْحِمُ الجِراحاتِ، ويَقْطَعُ الدَّمَ المُنْبَعِثَ من أيِّ عُضْوٍ كان، ويُجَفَّفُ القُروحَ.

ويبدو أن المراد مما سبق متحد، ولكن اختُلف في ضبط الكلمة، وكلها تشير إلى جنس من النباتات تختلف أشكالها وصفاتها من بلد إلى آخر، واسمها العلمي Caesalpinia.

وأيضاً نجد في معاجم اللغة أن البُقْمُ، والبُقُمُ: بَطْنٌ من العَرَبِ. وهذا معنى آخر يضاف إلى المعنى السابق، وضبط الكلمة متعدِّد ضمن المعنى الواحد، كما أنه يختلف عن ضبط الكلمات السابقة.

---

١. سورة طه: ٢٩-٣٢.

وهكذا نجد أن ضبط كلمة «قمير» يختلف بحسب المعنى:

القَمِيرُ: مَن يُقامِرك.

القُمَيْرُ: مُصغَّرُ القَمَر، ويُطلَقُ عليه أَولَ الشهْرِ وآخِرَه.

فبحسب التشبيه الذي ذكره المجلسي فإنّ الاحتمالات لضبط كلمتي «شبر» و «شبير» ستكون كالتالي:

شُبَّر - شَبْر - شَبَّر - شُبْر - شُبُر - شَبِير - شُبَيْر

ولو عدنا إلى النسخة المطبوعة المضبوطة من كتاب «القاموس المحيط» فسنجد أن الضبط كالتالي:

السَّخِيَّةُ. وكتَنُّورٍ: البُوقُ. والمَشابِرُ: حُزُوزٌ في ذِراعٍ يُتَبايَعُ بها، وأنهارٌ تَنْخَفِضُ فَيَتادى إليها الماءُ من مَواضِعَ، جَمْعُ مَشْبَرٍ ومَشْبَرَةٍ. والأُشْبُورُ: بالضم: سَمَكٌ. وشَبِرَ، كفَرِحَ: بَطِرَ. وشَبَّرُ، كبَقَّم، وشَبْبِرٌ، كقَمْبِرٍ(٢)، ومُشَبِّرٌ، كمحدثٍ: أَبْناءُ هارونَ عليه السلامُ، قيلَ: وبأسمائهم سَمَّى النبي، ﷺ، الحسنَ والحُسينَ والمُحَسِّنَ. وشَبَّرَ تَشْبيراً: قَدَرَ، و≈فلاناً فَتَشَبَّرَ: عَظَّمَهُ فَتَعَظَّمَ. وتَشابَرا: وبالتحريكِ: الانْقِطاعُ، وانْقِلابُ الجَفْنِ من أعْلَى وأسْفلَ، وانْشِقاقُه، أو اسْتِرخاءُ أسْفَلِه، شَتِرتِ العَيْنُ والرجُلُ، كفَرِحَ وعُنِيَ، وانْشَتَرَتْ وشَتَرَها وأشْتَرَها وشَتَّرَها، وانْشِقاقُ الشَّفَةِ السُّفْلَى، ودُخُولُ الخَرْم والقَبْضِ في الهَزَجِ فيصيرُ مَفاعِيلُنْ فاعِلُنْ، وقَلْعَةٌ بأَرَّانَ بين بَرْدَعَةَ وكَنْجَةَ. وشَتِرَ به، كفَرِحَ: سَبَّهُ. وشَتَرَهُ: غَتَّه وجَرَجَه. وكزُبَيْرٍ: ابنُ شَكَلٍ، وابنُ نَهارٍ، تابِعِيَّانِ. وأُشْتُرٌ، كأُرْدُنَّ: لَقَبٌ.

= عن الآخر. فتأمل. اهـ. شارح.

(١) هكذا في نسخة، والصواب: شبر بن شبر. اهـ. شارح.

(٢) ضبطه الشارح بالتصغير، ثم قال: وفي التكملة: مثل أمير. اهـ. زاد عاصم: وكسكيت. اهـ.

○ الرواية الرابعة: عيون أخبار الرضا «عليه السلام»: بالأسانيد الثلاثة، عن الرضا، عن آبائه، عن علي بن الحسين «عليهم السلام» عن أسماء بنت

عميس قالت: (قَبِلْتُ[١] جدتَك فاطمة «عليها السلام» بالحسن والحسين «عليهما السلام»، فلما وُلد الحسن «عليه السلام» جاء النبي «صلى الله عليه وآله» فقال: يا أسماء، هاتي ابني. فدفعتُه إليه في خرقة صفراء، فرمى بها النبي «صلى الله عليه وآله» وقال: يا أسماء، ألم أعهد إليكم أن لا تلفّوا المولود في خرقة صفراء؟! فلففْتُه في خرقة بيضاء ودفعته إليه، فأذّن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى ثم قال لعلي «عليه السلام»: بأي شيء سمَّيت ابني؟ قال: ما كنت أسبقُك باسمه يا رسول الله، كنت أحب أن أسمّيه حَرْباً. فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: ولا أسبق أنا باسمه ربّي. ثم هبط جبرئيل «عليه السلام» فقال: يا محمد، العليُّ الأعلى يُقرئك السلام ويقول: عليٌّ منك بمنزلة هارون من موسى، ولا نبي بعدَك. سمِّ ابنَك هذا باسم ابن هارون. قال النبي «صلى الله عليه وآله»: وما اسم ابن هارون؟ قال: شبر، قال النبي «صلى الله عليه وآله» لساني عربي. قال جبرئيل «عليه السلام»: سمّه الحسن. قالت أسماء: فسمّاه الحسن. فلما كان يومُ سابعِه عقَّ النبي «صلى الله عليه وآله» عنه بكبشين أملحين، وأعطى القابلةَ فخذاً ودیناراً وحلَق رأسه، وتصدّق بوزن الشعر ورِقاً[٢] وطلى رأسه بالخَلوق[٣] ثم قال: يا أسماء، الدَّمُ فِعلُ الجاهلية[٤]. قالت أسماء: فلما كان بعدَ حَول، وُلد الحسين «عليه السلام»، وجاءني النبي «صلى الله عليه وآله» فقال: يا أسماء، هلمّي

١. أي كانت قابلة، وهي التي تساعد المرأة على الولادة .
٢. دراهم من فضّة.
٣. نوع من الطيب أعظم أجزائه من الزعفران.
٤. أي أن تلطيخ وطلاء رأس المولود بالدم من عادات الجاهلية.

ابني، فدفعْتُه إليه في خرقة بيضاء، فأذّن في أذنه اليمنى، وأقام في اليسرى، ووضعه في حِجره فبكى، فقالت أسماء: قلت: فداك أبي وأمي ممّ بكاؤك؟ قال: علَى ابني هذا. قلت: إنه وُلِد الساعةَ يا رسول الله «صلى الله عليه وآله». فقال: تقتله الفئة الباغية مِن بعدي، لا أنالهم الله شفاعتي. ثم قال: يا أسماء، لا تُخبري فاطمة بهذا، فإنها قريبة عهد بولادته. ثم قال لعلي «عليه السلام»: أي شيء سميتَ ابني؟ قال: ما كنت لأسبقك باسمه يا رسول الله، وقد كنت أحب أن أسمّيه حرباً. فقال النبي «صلى الله عليه وآله»: ولا أسبق باسمه ربّي «عز وجل». ثم هبط جبرئيل «عليه السلام» فقال: يا محمد، العليّ الأعلى يقرئك السلام، ويقول لك: عليٌّ منك كهارون من موسى، سمّ ابنَك هذا باسم ابن هارون. قال النبي «صلى الله عليه وآله»: وما اسم ابن هارون؟ قال: شبير. قال النبي «صلى الله عليه وآله»: لساني عربي. قال جبرئيل: سمّه الحسين. فسمّاه الحسين. فلما كان يومُ سابعِه عقّ عنه النبي «صلى الله عليه وآله» بكبشين أملحين[1] وأعطى القابلة فَخِذاً ودیناراً، ثم حلق رأسه، وتصدّق بوَزن الشَّعر ورِقاً وطلَى رأسَه بالخلوق، فقال: يا أسماء، الدم فِعْل الجاهلية).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق بما يلي:

١. هذه الرواية أيضاً عن الإمام زين العابدين «عليه السلام»، ولكنه يرويها هذه المرّة عن أسماء بنت عميس، بينما لم يصرّح في الرواية السابقة عمّن رواها، مع وضوح أنه لم يشهد الحدث، فهو ابن الحسين. والمتبادر في أحاديث الأئمة «عليهم السلام» في مثل هذه الحالات أنهم يروون عن بعضهم

١. الأملح هو الأبيض الذي يخالطه سواد.

البعض، ولكن المدَّعى في هذه الرواية أنها عن أسماء بنت عميس، ويبدو أنها نفس الرواية السابقة.

٢. هل يصح أن تكون السيدة أسماء بنت عميس قد شهدت الحدث؟ وهل يصح أن يكون الإمام زين العابدين «عليه السلام» قد روى عنها؟

فلنتعرّف بدءً على هذه الشخصية، ثم نستعرض ماذا قال الباحثون بخصوص هذين السؤالين.

ضُبط نسبها كالتالي: أسماء بنت عميس بن مَعْد بن الحارث بن تَيم بن كعب بن مالك بن قحافة بن عامر بن ربيعة بن عامر بن معاوية بن زيد بن مالك بن بشر بن وهب الله بن شهران بن عفرس بن خلف بن خثعم بن أنمار، وتكنى بأم عبد الله.

وأمها هند بنت عوف بن زهير بن الحارث.

وأختها لأبيها وأمها سلمى بنت عميس زوجة حمزة بن عبدالمطلب. أي أن جعفر بن أبي طالب عديل عمه حمزة بن عبدالمطلب.

وأخواتها لأمها:

أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث

وأم المؤمنين زينب بنت خُزيمة

ولبابة الصغرى بنت الحارث أم خالد بن الوليد

ولبابة الكبرى بنت الحارث زوجة العباس بن عبد المطلب.

كانت أسماء بنت عميس من أوائل مَن آمن بالرسالة المحمدية من النساء، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب وهي عروس، فولدت له في الحبشة عبد الله وعون ومحمد، وهاجرت منها إلى المدينة سنة ٧هـ مع زوجها وأبنائها.

فلما استشهد جعفر في غزوة مؤتة سنة ٨ هـ، تزوّج بها الخليفة أبو بكر بعد وفاة زوجته أم رومان، فولدت له محمداً. توفي الخليفة أبو بكر عنها سنة ١٣ هـ، ثم تزوج بها الإمام علي فولدت له يحيى، وفي قول: وعون ومحمد. اختُلف في زمن وفاتها، فقيل سنة ٣٨ هـ، وقيل بعد استشهاد أمير المؤمنين علي، وقيل سنة ٦٠ هـ.

بناء على ما سبق، حاول بعض الباحثين توجيه حضورها ولادة الحسنين «عليهما السلام» بلحاظ حصول ذلك في سنتي «٣ و٤ أو ٥ هـ» أي قبل هجرتها إلى المدينة، فقيل:

أ. حضرت المدينة في تلك الفترة ثم عادت إلى الحبشة ثم هاجرت نهائياً إلى المدينة سنة ٧ هـ.

ب. هاجرت إلى المدينة في تلك الفترة وبقي زوجها جعفر في الحبشة إلى أن هاجر إليها لوحده سنة ٧ هـ.

ج. وقع خلط بينها وبين أختها سلمى زوجة حمزة بن عبدالمطلب، وأن هذا الخلط تم من قبل بعض رواة الخبر عن الإمام زين العابدين «عليه السلام».

د. وقع خلط بينها وبين أسماء بنت يزيد الأنصارية، حيث أن شهرة بنت

عميس جعلت بعض الرواة يضيفون من عند أنفسهم - وبغرض التوضيح - كلمة «بنت عميس».

هذه المحاولات لتصحيح رواية الإمام زين العابدين «عليه السلام» عن أسماء تواجه الملاحظات التالية:

أ. أنها مجرّد توجيهات دون دليل يمكن الركون إليه.

ب. الرأي الأشهر أن وفاة أسماء بنت عميس كانت في نفس سنة ولادة الإمام زين العابدين «عليه السلام»، فلا يصح بناء على ذلك أنه يروي الحدث عنها.

ج. رواية الإمام زين العابدين «عليه السلام» عن أختها سلمى بنت عميس مستبعدة بلحاظ أنه لم يرد اسمها في أي من النصوص المروية عن الإمام زين العابدين «عليه السلام» بخصوص هذا الحدث، بل كل النصوص - على اختلاف ألفاظها ومصادرها - تذكر اسم أسماء.

د. علاوة على ذلك فإنّ وفاة سلمى كانت على عهد رسول الله كما قال البعض، وإن كانت سنة وفاتها غير محددة.

هـ. التوجيه بأن المراد بها أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرئ القيس بن عبد الأشهل الأنصارية الأوسية توجيه بلا دليل، وإن كانت روايته «عليه السلام» عنها أمراً ممكناً في نفسه، لأنها توفيت في حدود سنة ٧٠ هـ.

٣. هذه الرواية تُكرر تسمية الحسنين وفقاً لتسمية ابني هارون، ولكنها تضيف بعض النقاط إلى ما جاء في الرواية السابقة، وهي:

أ. رغبة الإمام علي «عليه السلام» في تسمية ابنه «حرباً».

ب. بعض التفاصيل الخاصة بآداب المولود.

ج. الإخبار بمقتل الحسين «عليه السلام».

○ الرواية الخامسة: عيون أخبار الرضا «عليه السلام»: (بهذا الاسناد عن الحسن بن علي «عليهما السلام» أنه سُمّي حسناً يوم السابع، واشتُقّ من اسم الحسن حسيناً، وذَكر أنه لم يكن بينهما إلا الحمل. صحيفة الرضا «عليه السلام»: عنه «عليه السلام» مثله).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق بما يلي:

١. هذه الرواية عن الإمام الحسن «عليه السلام».

٢. ليس في الرواية أية إشارة عن وجود وحي إلهي بخصوص اختيار الاسمين.

٣. لا إشارة عن ارتباط اسم الحسن واسم الحسين باسمي ولدي النبي هارون.

٤. المتبادر من لفظ الرواية أن اسم الحسين اشتُقَّ له من اسم أخيه، لربما اشتقّه النبي أو علي، وليس وَحياً إلهياً.

○ الرواية الثامنة: معاني الأخبار، علل الشرائع: ..... عن جابر قال: (لما حملت فاطمة بالحسن فولدت .....) وجاء برواية قريبة جداً في مضمونها الإجمالي من الرواية الرابعة والمروية عن الإمام زين العابدين «عليه السلام».

○ الرواية التاسعة: علل الشرائع: بالإسناد، عن الجوهري، عن الحكم بن أسلم، عن وكيع، عن الأعمش، عن سالم قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إني سمَّيت ابنيَّ هذين باسم ابني هارون، شبراً وشبيراً).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق بما يلي:

١. هذه الرواية مروية بسند من أسانيد روايات أهل السنة.

٢. الأعمش يروي عن سالم، وهو سالم بن أبي الجعد «ت١٠٠ هـ»، وهو تابعي كوفي، ولم يكن صحابياً، ولذا فنحن لا نعلم عمّن روى الخبر عن رسول الله.

٣. ليس في الخبر ما يدل على أن التسمية كانت بوحي إلهي، ولكنها تدلّ على أن التسمية جاءت بلحاظ اسمي ولدي النبي هارون.

○ الرواية العاشرة: علل الشرائع: بالإسناد، عن الضُّبّي، عن حرب بن ميمون، عن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس، عن أبيه، عن جده قال: قال النبي «صلى الله عليه وآله»: (يا فاطمة، اسم الحسن والحسين في ابني هارون شبر وشبير لكرامتهما على الله «عز وجل»).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق بما يلي:

١. الرواية مروية عن عبدالله بن عباس.

٢. فيها إشارة إلى بُعد وحياني في التسمية.

٣. وفيها أيضاً دلالة على ارتباط التسمية بابني هارون.

○ الرواية الحادية عشرة: معاني الأخبار، علل الشرائع: الحسن بن محمد بن يحيى العلوي، عن جده، عن أحمد بن صالح التميمي، عن عبد الله بن عيسى، عن جعفر بن محمد، عن أبيه «عليهما السلام» قال: (أهدى جبرئيل إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله» اسم الحسن بن علي وخرقة حرير من ثياب الجنة، واشتق اسم الحسين من اسم الحسن).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق بما يلي:

١. الرواية مروية عن الإمام محمد الباقر «عليه السلام».

٢. الرواية تنص على البُعد الوحياني في التسمية.

٣. ولكنها تؤكد ما جاء في الرواية برقم ٥ من أن اسم الحسين كان اشتقاقاً من اسم الحسن، ولم يكن أمراً وحيانياً في ذاته، وإن كان الفاعل مردّداً بين جبريل والنبي.

٤. لم تذكر هذه الرواية علاقة قطعة الحرير هذه بالاسم، ولكن في رواية أخرى وردت في كتاب «شرح الأخبار» للقاضي النعمان المغربي وهو من أهم أعلام الإسماعيلية برقم «١٠٤٥»: (يحيى بن الحسين، بإسناده، عن جعفر بن محمد بن علي، عن أبيه، قال: لما وُلد الحسن بن علي «عليه السلام» أهدى جبرائيل «عليه السلام» للنبي «صلى الله عليه وآله» اسمه في سَرَقَة من حرير[١] من ثياب الجنة مكتوب فيها حسن، واشتقّ منه اسم الحسين «عليه السلام».

١. قِطْعة من جَيِّد الحرير.

فلما ولدت فاطمة «عليها السلام» الحسن «عليه السلام» أتت به رسول الله «صلى الله عليه وآله» فسمّاه: حسناً. فلما ولدت الحسين «عليه السلام» أتته به، فقال: هذا أحسن من ذلك، فسماه الحسين).

وسيأتي معنا التعليق على ذيل الرواية ضمن التعليق على الرواية التالية المروية في كتابي «معاني الأخبار» و«علل الشرائع» وكلاهما للشيخ محمد بن علي الصدوق.

○ الرواية الثانية عشرة: معاني الأخبار، علل الشرائع: الحسن العلوي، عن جده، عن داود بن القاسم، عن عيسى عن يوسف بن يعقوب، عن ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة قال: (لما ولدت فاطمة الحسن جاءت به إلى النبي «صلى الله عليه وآله» فسمّاه حسناً، فلما ولدت الحسين جاءت به إليه فقالت: يا رسول الله، هذا أحسن مِن هذا، فسمّاه حسيناً).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق بما يلي:

١. الرواية مرويّة عن عكرمة بن عبد الله البربري المدني «ت ١٠٥هـ»، وكان مولى عبد الله بن عباس، ويعدّ تابعياً، ولا نعلم عمّن يروي الخبر فقد سمع عن غير ابن عباس، وقيل أنه انضمّ إلى الخوارج لاحقاً، وروي عن سعيد بن المسيب أنه كان يقول لغلام له: (يا بُرَد، لا تكذب عليّ كما يكذب عكرمة على ابن عباس).

٢. التسمية جاءت من قبل النبي.

٣. ليس في الرواية ما يدلّ على أن التسمية كانت وحيانية.

٤. ليس في الرواية ما يدل على ارتباط التسمية باسمي ولدي هارون.

٥. تدل الرواية على اشتقاق اسم الحسين من اسم الحسن.

٦. لا أدري ما معنى قول الزهراء «عليها السلام» - بحسب الرواية - (هذا أحسن مِن هذا) ولا كيف يكون الاشتقاق بالتصغير مع أنه أحسن من أخيه الحسن؟! إلا أن يقال أن النبي خالف رأيها فسمّاه حسيناً.

○ الرواية التاسعة والعشرون: مناقب ابن شهرآشوب: (ابن بطة في الإبانة من أربع طرق منها أبو الخليل، عن سلمان قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: سمّى هارون ابنيه شبراً وشبيراً. وإني سمّيت ابني الحسن والحسين).

وتحت نفس الرقم قال المجلسي: مسند أحمد وتاريخ البلاذري وكتب الشيعة أنه قال: (إنما سمّيتهم بأسماء أولاد هارون شبراً وشبيراً «ومشبراً»).

فردوس الديلمي[١] عن سلمان قال النبي «صلى الله عليه وآله»: (سمى هارون ابنيه شَبَراً وشبيراً، وإنني سميت ابنيّ الحسن والحسين بما سمّى هارون ابنيه).

عطاء بن يسار[٢]، عن أبي هريرة قال: (قَدِم راهب على قَعُود[٣] له فقال: دلّوني على منزل فاطمة «عليها السلام» قال: فدلّوه عليها فقال لها: يا بنت

١. كتاب «الفردوس بمأثور الخطاب» لشيرويه بن شهردار الديلمي «ت ٥٠٩ هـ». محدث ومؤرخ من أهل السنة. قال الذهبي عه: «هو متوسط الحفظ، وغيره أبرع منه وأتقن».

٢. عطاء بن يسار، تابعي، فارسي، مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث. كان قاصاً. ذكره ابن حبان في الثقات. قدم الشام ثم مصر فكان أهلها يكنونه بأبي يسار، وكان صاحب قصص وعبادة وفضل. «ت ١٠٣هـ» بالإسكندرية، وروي أن الحجاج تتبّعه فقتله.

٣. الجمل البَكْرُ إلى أن يصير في السَّادسة.

رسول الله، أخرجي إليّ ابنيك. فأخرجت إليه الحسن والحسين فجعل يقبّلهما ويبكي ويقول: اسمهما في التوراة شبير وشَبَر، وفي الإنجيل طاب وطيب. ثم سأل عن صِفة النبي «صلى الله عليه وآله» فلما ذكروه قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله «صلى الله عليه وآله»).

يمكن التعليق على ما جاء في النص السابق بما يلي:

١. نقل المجلسي هذه المرة بعض الروايات من مصادر أهل السنة.

٢. لا دلالة على وحيانية الاسمين بل التشبّه بتسمية هارون لابنيه.

٣. دخل عطاء القاص على خط الرواية، وأعطى للمسألة بُعداً آخر ارتبط براهب مسيحي، وبالتوراة والإنجيل.

٤. ظهر لنا اسم جديد وهو طيب يقابل اسم حسين.

○ الرواية الثلاثون: مناقب ابن شهرآشوب: عمران بن سلمان وعمرو بن ثابت قالا: (الحسن والحسين اسمان من أسامي أهل الجنة ولم يكونا في الدنيا).

جابر قال النبي «صلى الله عليه وآله»: (سُمّي الحسن حسناً لأن بإحسان الله قامت السماوات والأرضون، واشتق الحسين من الإحسان، وعلي والحسن اسمان من أسماء الله تعالى، والحسين تصغير الحسن).

يمكن التعليق على ما جاء في النصين السابقين بما يلي:

١. دخل وصف جديد على الاسمين وأنهما من أسماء أهل الجنة. فهل ستتغير أسماء الناس فيها؟

٢. لم يتسمّ أحدٌ بهذين الاسمين من قبل. ولابد أن يكون ذلك باللفظ لا بالمعنى، وإلا ألغينا وجود اسمي شبر وشبير، لأن من المفترض دلالتهما على ذات المعنى.

٣. رواية جابر تدل على بُعد آخر في التسمية، وارتباط ذلك بصفة واسم من أسماء الله عزوجل.

وهناك روايات قصيرة أخرى وكلمات بعض المصنّفين في الحديث والتاريخ لا تتضمّن شيئاً جديداً يُضاف على ما سبق.

• في مرويات أهل السنة:

لو عدنا إلى مرويات أهل السنة في هذا الباب فسنجد في مسند أحمد بن حنبل ما يشبه الروايات التي في كُتب الشيعة، وفي بعضها ذِكر لمولود للإمام علي وُلد على عهد رسول الله فسمّاه مُحسِّناً، وأنه كاسم الابن الثالث لهارون «مشبر». ومن بينها ما جاء في المجلد الأول منه:

حدثنا حجاج، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن هانيء بن هانيء، عن علي «رضي الله عنه» قال: (لما وُلد الحسن جاء رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقال: أروني ابني، ما سمّيتموه؟ قلت: سميته حرباً. قال: بل هو حسن. فلما وُلد الحسين قال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلت: سميته حرباً. قال: بل هو حسين. فلما وَلدت الثالث جاء النبي «صلى الله عليه وسلم» فقال: أروني ابني، ما سميتموه؟ قلت: حرباً. قال: بل هو محسن. ثم قال: سمّيتهم بأسماء ولد هارون، شبر وشبير ومشبر)[1].

١. ابن حنبل: المسند، ج ٩٠٧.

وفي تاريخ دمشق لابن عساكر: (عن سالم بن أبي الجعد قال: قال علي: كنت رجلاً أحب الحرب، فلما وُلد الحسن هممت أن أسمّيه حرباً لأني كنت أحب الحرب، فسمّاه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الحسن، فلما وُلد الحسين هممت أن أسمّيه حرباً لأني كنت أحب الحرب، فسماه رسول الله «صلى الله عليه وسلم» الحسين، فقال: «إني سمّيت ابنيّ هذين باسم ابني هارون: شبر وشبير»)[١].

• في المعاجم اللغوية:

ونجد في بعض المعاجم اللغوية ذِكراً لهذه الأسماء وارتباطها بأبناء هارون، وقد مرّ بنا ما جاء في «القاموس المحيط». ومن نماذج ما جاء في المعاجم اللغوية ما ذكره ابن منظور في «لسان العرب» في مادة «شبر»: (قال ابن بَرِّي: ولم يذكر الجوهري شَبَّر وشَبيراً في اسم الحسن والحُسين «عليهما السلام». قال: ووجدت ابن خالويه قد ذكر شرحهما فقال: شَبَّرُ وشَبِيرٌ ومُشَبِّرٌ، هم أَولاد هارون، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، ومعناها بالعربية حسن وحسين ومُحَسِّن، قال: وبها سَمَّى علي «عليه السلام» أَولاده شَبَّرَ وشَبِيراً ومُشَبِّراً، يعني حسناً وحُسيناً ومُحَسِّناً، رضوان الله عليهم أَجمعين)[٢].

• قراءة في الكتاب المقدس:

بعد هذا الاستعراض لعديد من مرويات الشيعة والسنة في هذا الموضوع ننتقل إلى الكتاب المقدّس بقسميه القديم «التنخ» والجديد، وفي بعض مصادر

١. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ح ١١٦٠٦.

٢. ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص٣٩٣.

اليهود والنصارى، لننظر هل فيها ما يدلّ فعلاً على وجود أولاد لهارون يحملون هذه الأسماء: شبر - شبير - مشبر - طاب - طيب؟ أو ذكراً للحسن والحسين في تلك الكتب تحت هذه الأسماء؟

سِفر أخبار الأيام الأول[١]، وهو من أسفار «التنخ» يذكر أسماء نسل النبي يعقوب «عليه السلام»، أي بني إسرائيل، لعدة قرون، وحين نتتبع هذه الأسماء بحثاً عن هارون «عليه السلام»، فسنجد أن له من الأولاد الذكور أربعة: ناداب - وأبيهو - وأليعازار - وإيثامار. والنص في الأصحاح السادس من سفر أعمال الأيام الأول من «التنخ» باللغة العربية كالتالي: (بَنُو لاَوِي: جَرْشُونُ وَقَهَاتُ وَمَرَارِي. وَبَنُو قَهَاتَ: عَمْرَامُ وَيِصْهَارُ وَحَبْرُونُ وَعُزِّيئِيلُ. وَبَنُو عَمْرَامَ: هَارُونُ وَمُوسَى وَمَرْيَمُ. وَبَنُو هَارُونَ: نَادَابُ وَأَبِيهُو وَأَلِيعَازَارُ وَإِيثَامَارُ. أَلِعَازَارُ وَلَدَ فِينَحَاسَ، وَفِينَحَاسُ وَلَدَ أَبِيشُوعَ، وَأَبِيشُوعُ وَلَدَ بُقِّيَ، وَبُقِّي وَلَدَ عُزِّيَ، وَعُزِّي وَلَدَ زَرَحْيَا، وَزَرَحْيَا وَلَدَ مَرَايُوثَ، وَمَرَايُوثُ وَلَدَ أَمَرْيَا، وَأَمَرْيَا وَلَدَ أَخِيطُوبَ، وَأَخِيطُوبُ وَلَدَ صَادُوقَ، وَصَادُوقُ وَلَدَ أَخِيمَعَصَ، وَأَخِيمَعَصُ وَلَدَ عَزَرْيَا، وَعَزَرْيَا وَلَدَ يُوحَانَانَ، وَيُوحَانَانُ وَلَدَ عَزَرْيَا، وَهُوَ الَّذِي كَهَنَ فِي الْبَيْتِ الَّذِي بَنَاهُ سُلَيْمَانُ فِي أُورُشَلِيمَ، وَعَزَرْيَا وَلَدَ أَمَرْيَا، وَأَمَرْيَا وَلَدَ أَخِيطُوبَ، وَأَخِيطُوبُ وَلَدَ صَادُوقَ، وَصَادُوقُ وَلَدَ شَلُّومَ، وَشَلُّومُ وَلَدَ حِلْقِيَّا، وَحِلْقِيَّا وَلَدَ عَزَرْيَا، وَعَزَرْيَا وَلَدَ سَرَايَا،

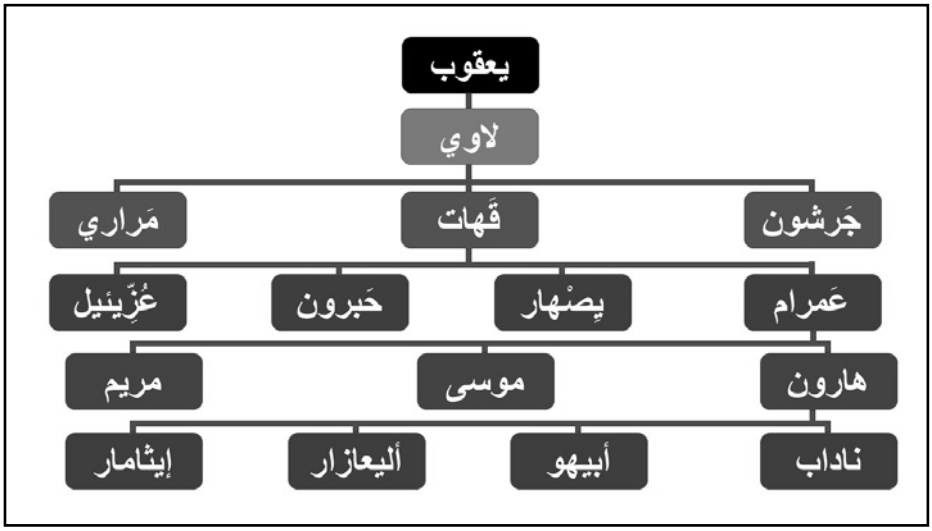
١. سفرا أخبار الأيام، وهما سفر واحد في المخطوطات العبرية القديمة. وقد قسّمها مترجمو الترجمة السبعينية إلى سفرين. ينقسم السفران إلى أربعة أقسام:

(١) مقدمة، وقد تضمنت تسلسل الوجود البشري بالأسماء.

(٢) موت شاول «طالوت» وحكم داود.

(٣) حكم سليمان.

(٤) تقسيم المملكة، وأسماء ملوك مملكة يهوذا حتى السبي البابلي، وأمر كورش الملك.



مخطط توضيحي لنسب أبناء هارون

وَسَرَايَا وَلَدَ يَهُوصَادَاقَ، وَيَهُوصَادَاقُ سَارَ فِي سَبْيِ الرَّبِّ يَهُوذَا وَأُورُشَلِيمَ بِيَدِ نَبُوخَذْنَاصَّرَ)[١].

والآية الثالثة من هذا الأصحاح في النص بالخط العبري الحديث جاءت كالتالي: ובני עמרם אהרן. ומשה ומרים ובני. אהרן נדב ואביהוא. אלעזר ואיתמר. ولفظ الآية السابقة بالعبرية – بالكتابة الإنجليزية – كالتالي:

VBNY 'yMUrM 'aHUrN VMShH VMUrYM VBNY 'aHUrN NDB V'aBYHV'a 'aL'yZUr V'aYThMUr.

ولفظ الآية السابقة بالعبرية – بالكتابة العربية – كالتالي: (وبني عمرم أهرن وموشه ومريم وبني أهرن ندب وأبيهوا أليعزور وأيثمور).

١. الكتاب المقدس: سفر أخبار الأيام، الأصحاح ٦ ، ١-١٥.

وفي إحدى الترجمات الإنجليزية:

And the children of Amram: Aaron, and Moses, and Miriam. And the sons of Aaron: Nadab, and Abihu, Eleazar, and Ithamar.

النص السابق لا يشتمل على اسم «شبر» أو أي اشتقاق له ولا قريب من لفظه.. فهل من الممكن أن تكون أسماء أولاد هارون ذات معنى مشترك مع شبر، لا بنفس اللفظ، بلحاظ أن من نصوص التنخ ما قد كُتب بالآرامية، لنقول إثر ذلك بأن اسم أحد أولاد هارون بالعبرية يقابل من حيث المعنى كلمة شبر ذات الأصل اللغوي الآرامي مثلاً؟ هذا بالطبع يستدعي ترجمة معاني أسماء الأولاد الأربعة لهارون. وبحسب «قاموس الكتاب المقدس» من إعداد «مجمع الكنائس الشرقية»[١]، فإن:

١. ناداب: اسم عبري معناه «كريم».

٢. أبيهو: اسم عبري ومعناه «الأب هو» أو «أبي هو».

٣. أليعازر وأليعزر: اسم عبري معناه «الله عون».

٤. إيثامار: كلمة عبرية معناها «ساحل النخيل».

وبحسب قاموس موقع Bible Study Tools [٢]:

ناداب: حُر - كريم Nadab: liberal, generous

1. st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/Kamous-Al-Engeel-index.html

2. www.biblestudytools.com

أبيهو: هو أبي Abihu: he is my father

أليعازار: عون الله Eleazar: help of God

إيثامار: أرض النخيل Ithamar: land of palm

مما سبق يتضح أن ليس من أبناء هارون من حمل الاسم شبر أو ما يقاربه، لا من حيث اللفظ، ولا من حيث المعنى.

وعند البحث في المصادر والموسوعات اليهودية المختلفة المتوفرة على شبكة الإنترنت لن نجد أيضاً ما يساعد على أن يكون لهارون ابناً حمل هذا الاسم أو ما يقاربه من حيث اللفظ أو المعنى.

• المحاولة التصحيحية الأولى:

حيث أن هارون توفّي قبل موسى، فأوصى ليوشع بن نون من بعده، فمن المحتمل - في إطار الفرضية - أن يكون في البين خطأ وقع فيه بعض الرواة.

بمعنى أن النبي «صلى الله عليه وآله» لربما قال - مثلاً - «ابن وصي موسى» فقام بعض الرواة باستبدال ذلك العنوان بـ «ابن هارون» تخيلاً منهم أنه قصد هارون، بينما قصد الوصي الفعلي من بعده وهو يوشع بن نون.

لذا فإن وجهتنا الثانية في البحث في «التنخ» عمّا له علاقة بذريّة يوشع «يهوشوع / هوشع» ابن نون. وعند البحث في هذا المجال سنجد أمامنا قولين:

١. عدم وجود أدلة كافية على وجود ذرية له.

٢. تزوج امرأة اسمها رحاب، ورُزق ببنات فقط.

وسواء أخذنا بالقول الأول أو الثاني، سندرك لماذا لا نجد ذِكراً لذريته في سِفر أخبار الأيام، على خلاف سائر الشخصيات المذكورة فيه.

• المحاولة التصحيحية الثانية:

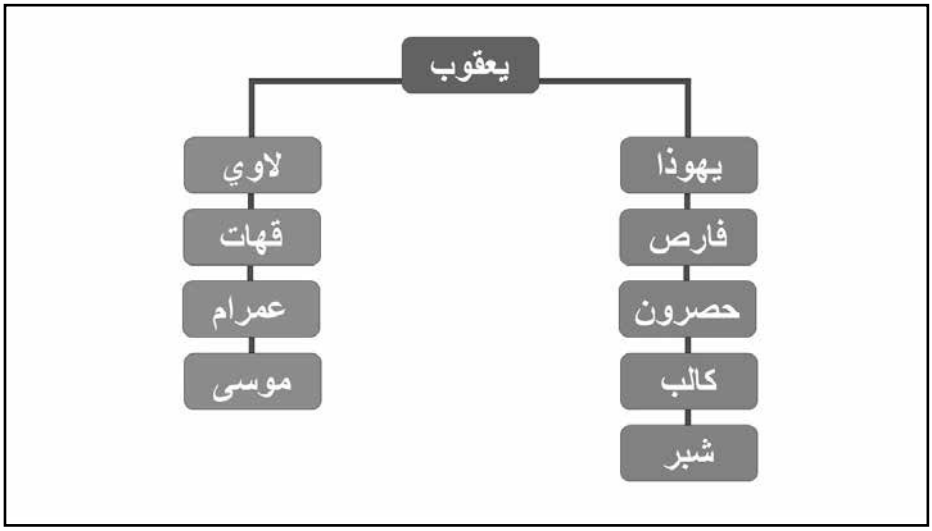
هذا يدفعنا إلى البحث عمّن حمل هذا الاسم في الكتاب المقدس، وحينئذ سنجد في الأصحاح الثاني من سِفر أخبار الأيام الأوّل أن من ذرية كالب بن حصرون ولد اسمه شَبَر.. فمن هو؟

جاء في هذا الأصحاح ما يلي: سِفر أخبار١ : ٢ (هؤُلاَءِ بَنُو إِسْرَائِيلَ: رَأُوبَيْنُ، شَمْعُونُ، لاَوِي وَيَهُوذَا، يَسَّاكَرُ وَزَبُولُونُ، دَانُ، يُوسُفُ وَبَنْيَامِينُ، نَفْتَالِي، جَادُ وَأَشِيرُ) هؤلاء أولاد يعقوب الاثنا عشر.

ثم يبدأ الأصحاح بذكر ذرية يهوذا وهو رابع الأولاد بحسب الترتيب، لأن ملوك بني إسرائيل كانوا من نسله فقط: (بَنُو يَهُوذَا: عَيْرُ وَأُونَانُ وَشَيْلَةُ. وُلِدَ الثَّلاَثَةُ مِنْ بِنْتِ شُوعَ الْكَنْعَانِيَّةِ. وَكَانَ عَيْرُ بِكْرُ يَهُوذَا شِرِّيرًا فِي عَيْنَيِ الرَّبِّ فَأَمَاتَهُ. وَثَامَارُ كَنَّتُهُ[1] وَلَدَتْ لَهُ فَارَصَ وَزَارَحَ. كُلُّ بَنِي يَهُوذَا خَمْسَةٌ. ابْنَا فَارَصَ: حَصْرُونُ وَحَامُولُ)

ثم بعد عدة آيات ينتقل الأصحاح لذكر أسماء ذرية حَصرون: (وَبَنُو حَصْرُونَ الَّذِينَ وُلِدُوا لَهُ: يَرَحْمَئِيلُ وَرَامُ وَكَلُوبَايُ) أي القادر أو الشجاع، وهو نفسه كالب الذي سيُذكَر في الآيات التالية حيث تزوج أكثر من امرأة ورُزق منهن ذكوراً وإناثاً: (وَكَالَبُ بْنُ حَصْرُونَ وَلَدَ مِنْ عَزُوبَةَ امْرَأَتِهِ .... وَمَاتَتْ

١. أي كنة يعقوب.



مخطط توضيحي لنسب النبي موسى وكالب

عَزُوبَةُ فَاتَّخَذَ كَالَبُ لِنَفْسِه أَفْرَاتَ... وَعِيفَةُ سُرِّيَّةُ كَالَبَ... وَأَمَّا مَعْكَةُ سُرِّيَّةُ كَالَبَ فَوَلَدَتْ: شَبَرَ وَتَرْحَنَةَ)[١].

فمن هو الأب «كالب» الذي لربما أشار النبي «صلى الله عليه وآله» إليه حين سمّى الحسن «عليه السلام» باسم ابنه – من حيث المعنى – فأخطأ بعض الرواة وظنوا أنه يريد بذلك هارون؟

نعود إلى القرآن الكريم لنجد أن سورة المائدة تحكي لنا حدثاً مفصلياً من أيام موسى «عليه السلام» بعد النجاة من فرعون والانتقال إلى الأرض المباركة، قال «تعالى»: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن**

١. الكتاب المقدس: سفر أخبار الأيام، الأصحاح٢، ١-٤٨.

الْعَالَمِينَ، يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّٰه لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ، قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىَ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ، قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّٰه عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّٰه فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ، قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلاَ تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

فمن الرجلان الممدوحان في الآية؟

عند العودة إلى التوراة، سنجد القصة ذاتها بتفاصيل أكثر مع تسمية الأشخاص. فقد جاء في الأصحاحات الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر من سفر «العَدد» ما يلي: (وَبَعْدَ ذلكَ ارْتَحَلَ الشَّعْبُ مِنْ حَضَيْرُوتَ وَنَزَلُوا فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ. ثُمَّ كَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «أَرْسِلْ رِجَالًا لِيَتَجَسَّسُوا أَرْضَ كَنْعَانَ الَّتِي أَنَا مُعْطِيهَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. رَجُلًا وَاحِدًا لِكُلِّ سِبْطٍ مِنْ آبَائِهِ تُرْسِلُونَ. كُلُّ وَاحِدٍ رَئِيسٌ فِيهِمْ». فَأَرْسَلَهُمْ مُوسَى مِنْ بَرِّيَّةِ فَارَانَ حَسَبَ قَوْلِ الرَّبِّ. كُلُّهُمْ رِجَالٌ هُمْ رُؤَسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَهذِهِ أَسْمَاؤُهُمْ: .....) وبعد ذكر الأسماء يقول النص: (فَأَرْسَلَهُمْ مُوسَى لِيَتَجَسَّسُوا أَرْضَ كَنْعَانَ، وَقَالَ لَهُمْ: «اصْعَدُوا مِنْ هُنَا إِلَى الْجَنُوبِ وَاطْلَعُوا إِلَى الْجَبَلِ، وَانْظُرُوا الأَرْضَ، مَا هِيَ: وَالشَّعْبَ السَّاكِنَ فِيهَا، أَقَوِيٌّ هُوَ أَمْ ضَعِيفٌ؟ قَلِيلٌ أَمْ كَثِيرٌ؟ وَكَيْفَ هِيَ الأَرْضُ الَّتِي هُوَ

١. سورة المائدة: ٢٠-٢٦.

سَاكِنٌ فِيهَا، أَجَيِّدَةٌ أَمْ رَدِيئَةٌ؟ وَمَا هِيَ الْمُدُنُ الَّتِي هُوَ سَاكِنٌ فِيهَا، أَمُخَيَّمَاتٌ أَمْ حُصُونٌ؟ وَكَيْفَ هِيَ الأَرْضُ، أَسَمِينَةٌ أَمْ هَزِيلَةٌ؟ أَفِيهَا شَجَرٌ أَمْ لاَ؟ وَتَشَدَّدُوا فَخُذُوا مِنْ ثَمَرِ الأَرْضِ». وَأَمَّا الأَيَّامُ فَكَانَتْ أَيَّامَ بَاكُورَاتِ الْعِنَبِ. فَصَعِدُوا وَتَجَسَّسُوا الأَرْضَ).

وبعد ذكر تفاصيل عن الأراضي التي تجسّسوا عليها وما جرى لهم قال: (وَأَخْبَرُوهُ وَقَالُوا: «قَدْ ذَهَبْنَا إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرْسَلْتَنَا إِلَيْهَا، وَحَقًّا إِنَّهَا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا، وَهذَا ثَمَرُهَا. غَيْرَ أَنَّ الشَّعْبَ السَّاكِنَ فِي الأَرْضِ مُعْتَزٌّ، وَالْمُدُنُ حَصِينَةٌ عَظِيمَةٌ جِدًّا. وَأَيْضًا قَدْ رَأَيْنَا بَنِي عَنَاقَ هُنَاكَ. الْعَمَالِقَةُ سَاكِنُونَ فِي أَرْضِ الْجَنُوبِ، وَالْحِثِّيُّونَ وَالْيَبُوسِيُّونَ وَالأَمُورِيُّونَ سَاكِنُونَ فِي الْجَبَلِ، وَالْكَنْعَانِيُّونَ سَاكِنُونَ عِنْدَ الْبَحْرِ وَعَلَى جَانِبِ الأُرْدُنِّ». لكِنْ كَالِبُ أَنْصَتَ الشَّعْبَ إِلَى مُوسَى وَقَالَ: «إِنَّنَا نَصْعَدُ وَنَمْتَلِكُهَا لأَنَّنَا قَادِرُونَ عَلَيْهَا». وَأَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ صَعِدُوا مَعَهُ فَقَالُوا: «لاَ نَقْدِرُ أَنْ نَصْعَدَ إِلَى الشَّعْبِ، لأَنَّهُمْ أَشَدُّ مِنَّا». فَأَشَاعُوا مَذَمَّةَ الأَرْضِ الَّتِي تَجَسَّسُوهَا، فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلِينَ: «الأَرْضُ الَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا هِيَ أَرْضٌ تَأْكُلُ سُكَّانَهَا، وَجَمِيعُ الشَّعْبِ الَّذِي رَأَيْنَا فِيهَا أُنَاسٌ طِوَالُ الْقَامَةِ. وَقَدْ رَأَيْنَا هُنَاكَ الْجَبَابِرَةَ، بَنِي عَنَاقَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ. فَكُنَّا فِي أَعْيُنِنَا كَالْجَرَادِ، وَهكَذَا كُنَّا فِي أَعْيُنِهِمْ». فَرَفَعَتْ كُلُّ الْجَمَاعَةِ صَوْتَهَا وَصَرَخَتْ، وَبَكَى الشَّعْبُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ. وَتَذَمَّرَ عَلَى مُوسَى وَعَلَى هَارُونَ جَمِيعُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَالَ لَهُمَا كُلُّ الْجَمَاعَةِ: «لَيْتَنَا مُتْنَا فِي أَرْضِ مِصْرَ، أَوْ لَيْتَنَا مُتْنَا فِي هذَا الْقَفْرِ! وَلِمَاذَا أَتَى بِنَا الرَّبُّ إِلَى هذِهِ الأَرْضِ لِنَسْقُطَ بِالسَّيْفِ؟ تَصِيرُ نِسَاؤُنَا وَأَطْفَالُنَا غَنِيمَةً. أَلَيْسَ خَيْرًا لَنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى مِصْرَ؟» فَقَالَ بَعْضُهُمْ

لِبَعْض: «نُقِيمُ رَئِيسًا وَنَرْجِعُ إِلَى مِصْرَ». فَسَقَطَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَى وَجْهَيْهِمَا أَمَامَ كُلِّ مَعْشَرِ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَيَشُوعُ بْنُ نُونَ وَكَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ، مِنَ الَّذِينَ تَجَسَّسُوا الأَرْضَ، مَزَّقَا ثِيَابَهُمَا وَكَلَّمَا كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلَيْنِ: «الأَرْضُ الَّتِي مَرَرْنَا فِيهَا لِنَتَجَسَّسَهَا جَيِّدَةٌ جِدًّا جِدًّا. إِنْ سُرَّ بِنَا الرَّبُّ يُدْخِلُنَا إِلَى هذِهِ الأَرْضِ وَيُعْطِينَا إِيَّاهَا، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا. إِنَّمَا لاَ تَتَمَرَّدُوا عَلَى الرَّبِّ، وَلاَ تَخَافُوا مِنْ شَعْبِ الأَرْضِ لأَنَّهُمْ خُبْزُنَا. قَدْ زَالَ عَنْهُمْ ظِلُّهُمْ، وَالرَّبُّ مَعَنَا. لاَ تَخَافُوهُمْ». وَلكِنْ قَالَ كُلُّ الْجَمَاعَةِ أَنْ يُرْجَمَا بِالْحِجَارَةِ).

ثم يتحدث النص التوراتي كيف غضب الله «عز وجل» على بني إسرائيل وأراد إهلاكهم، وكيف تدخّل موسى «عليه السلام» طلباً للتوبة والرحمة بهم، فأبدل الله عقوبة الإهلاك بعقوبة التيه في البرِّية أربعين سنة وحرمانهم من الدخول إلى الأرض المباركة ما عدا يوشع وكالب، وسيكون معهما رجال هم من ذرية ذلك الجيل المعاند: (إِنَّ جَمِيعَ الرِّجَالِ الَّذِينَ رَأَوْا مَجْدِي وَآيَاتِي الَّتِي عَمِلْتُهَا فِي مِصْرَ وَفِي الْبَرِّيَّةِ، وَجَرَّبُونِي الآنَ عَشَرَ مَرَّاتٍ، وَلَمْ يَسْمَعُوا لِقَوْلِي، لَنْ يَرَوْا الأَرْضَ الَّتِي حَلَفْتُ لآبَائِهِمْ. وَجَمِيعُ الَّذِينَ أَهَانُونِي لاَ يَرَوْنَهَا. وَأَمَّا عَبْدِي كَالِبُ فَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ كَانَتْ مَعَهُ رُوحٌ أُخْرَى، وَقَدِ اتَّبَعَنِي تَمَامًا، أُدْخِلُهُ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي ذَهَبَ إِلَيْهَا، وَزَرْعُهُ يَرِثُهَا. وَإِذِ الْعَمَالِقَةُ وَالْكَنْعَانِيُّونَ سَاكِنُونَ فِي الْوَادِي، فَانْصَرِفُوا غَدًا وَارْتَحِلُوا إِلَى الْقَفْرِ فِي طَرِيقِ بَحْرِ سُوفَ». وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى وَهَارُونَ قَائِلًا: «حَتَّى مَتَى أَغْفِرُ لِهذِهِ الْجَمَاعَةِ الشِّرِّيرَةِ الْمُتَذَمِّرَةِ عَلَيَّ؟ قَدْ سَمِعْتُ تَذَمُّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي يَتَذَمَّرُونَهُ عَلَيَّ. قُلْ لَهُمْ: حَيٌّ أَنَا يَقُولُ الرَّبُّ، لأَفْعَلَنَّ بِكُمْ كَمَا تَكَلَّمْتُمْ فِي أُذُنَيَّ. فِي هذَا الْقَفْرِ تَسْقُطُ جُثَثُكُمْ، جَمِيعُ الْمَعْدُودِينَ

مِنْكُمْ حَسَبَ عَدَدِكُمْ مِن ابْنِ عِشْرِينَ سَنَةً فَصَاعِدًا الَّذِينَ تَذَمَّرُوا عَلَيَّ. لَنْ تَدْخُلُوا الأَرْضَ الَّتِي رَفَعْتُ يَدِي لأُسْكِنَنَّكُمْ فِيهَا، مَا عَدَا كَالِبَ بْنَ يَفُنَّةَ وَيَشُوعَ بْنَ نُونٍ. وَأَمَّا أَطْفَالُكُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ يَكُونُونَ غَنِيمَةً فَإِنِّي سَأُدْخِلُهُمْ، فَيَعْرِفُونَ الأَرْضَ الَّتِي احْتَقَرْتُمُوهَا. فَجُثَثُكُمْ أَنْتُمْ تَسْقُطُ فِي هذَا الْقَفْرِ، وَبَنُوكُمْ يَكُونُونَ رُعَاةً فِي الْقَفْرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَيَحْمِلُونَ فُجُورَكُمْ حَتَّى تَفْنَى جُثَثُكُمْ فِي الْقَفْرِ. كَعَدَدِ الأَيَّامِ الَّتِي تَجَسَّسْتُمْ فِيهَا الأَرْضَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، لِلسَّنَةِ يَوْمٌ. تَحْمِلُونَ ذُنُوبَكُمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً فَتَعْرِفُونَ ابْتِعَادِي. أَنَا الرَّبُّ قَدْ تَكَلَّمْتُ. لأَفْعَلَنَّ هذَا بِكُلِّ هذِهِ الْجَمَاعَةِ الشِّرِّيرَةِ الْمُتَّفِقَةِ عَلَيَّ. فِي هذَا الْقَفْرِ يَفْنَوْنَ، وَفِيهِ يَمُوتُونَ». أَمَّا الرِّجَالُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمْ مُوسَى لِيَتَجَسَّسُوا الأَرْضَ، وَرَجَعُوا وَسَجَّسُوا عَلَيْهِ كُلَّ الْجَمَاعَةِ بِإِشَاعَةِ الْمَذَمَّةِ عَلَى الأَرْضِ، فَمَاتَ الرِّجَالُ الَّذِينَ أَشَاعُوا الْمَذَمَّةَ الرَّدِيئَةَ عَلَى الأَرْضِ بِالْوَبَإِ أَمَامَ الرَّبِّ. وَأَمَّا يَشُوعُ بْنُ نُونَ وَكَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ، مِنْ أُولئِكَ الرِّجَالِ الَّذِينَ ذَهَبُوا لِيَتَجَسَّسُوا الأَرْضَ، فَعَاشَا)[1].

وقد جاء ذكر «كالب بن يفنة» لاحقاً في سفر «يشوع» أي سفر «يوشع بن نون» وصي النبي موسى، وهو كتاب يأتي بعد التوراة من حيث الترتيب في الكتاب المقدس. في هذا السِّفر نجد أن كالب يطلب من القائد المنتصر يوشع أن يجعله حاكماً على بعض أرض كنعان «حبرون: الخليل»، فصارت تحت حكمه وحكم ذريته من بعده.

من المحتمل - بحسب بعض المعلقين على الكتاب المقدس - أن يكون كالب بن يفنة هو ذاته كالب بن حصرون الذي ذكرنا أن له ولداً باسم شبر، على

١. الكتاب المقدس: سفر العدد، الأصحاح ١٢-١٤.

اعتبار أن يفنة لقب لحصرون أو بالعكس، أو أن له أكثر من اسم، أو لغير ذلك من الأسباب.

جاء في الموسوعة اليهودية أن المصادر الحاخامية تقول باتحاد الشخصيتين، وأن يفنة لقب لحصرون لأنه تحول بعيداً عن النوايا الشريرة للجواسيس الآخرين الذين نصحوا الناس بعدم الذهاب إلى الأرض المقدسة. فجذر كلمة «يفونه יפונה» في العبرية هو «فنه פנה» يعني «استدار – تحوّل».

In the rabbinical sources, Caleb, the son of Hezron (I Chron. ii. 18-20), is identified with Caleb, the son of Jephunneh (Num. xiii. 6), the epithet "Jephunneh" having been given to him because he “turned away” (יפונה = פנה)[١] from the sinful intention of the other spies who advised the people against going into the Holy Land)[٢].

إلا أن قسماً آخر من الشرّاح والمعلّقين – بالعربية والإنجليزية والعبرية – يؤكدون أنهما شخصيتان مختلفتان. فقد جاء مثلاً في كتاب «السّنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم» للقس وليم مارش (وكالب بن حصرون «ع١٨» وهو كلوباي في «ع٩» وغير كالب بن يفنه الذي كان أحد الجواسيس «عدد١٣: ٩»)[٣].

وهكذا نجد على موقع الدكتور غالي وهو يجيب على سؤال حول هذا

١. ي ف و ن هـ – ف ن هـ.

2. www.jewishencyclopedia.com/articles/3918-caleb

3. call-of-hope.com/new/site/pages/itemFormat.php?lang=ara&section=al-kanz&item=30-4&format=xml

الموضوع فيقول: (يوجد شخصين باسم كالب ذُكروا في العهد القديم: وهم كالب ابن يفنه الشخصية المشهورة والثاني كالب ابن حصرون) ثم يقدم توضيحاً مطوّلاً بالأدلة على اختلاف الشخصيتين[1]، قال: (الشبهة: جاء في يشوع ١٤: ٦ أن اسم والد كالب كان يفُنَّة، «٦ فَتَقَدَّمَ بَنُو يَهُوذَا إِلَى يَشُوعَ فِي الْجِلْجَالِ. وَقَالَ لَهُ كَالَبُ بْنُ يَفُنَّةَ الْقَنِزِّيُّ: «أَنْتَ تَعْلَمُ الْكَلاَمَ الَّذِي كَلَّمَ بِهِ الرَّبُّ مُوسَى رَجُلَ اللهِ مِنْ جِهَتِي وَمِنْ جِهَتِكَ فِي قَادَشَ بَرْنِيعَ..». ولكن ١ أخبار، ٢: ١٨ يقول إن «كَالَبُ بْنُ حَصْرُونَ وليس بْنُ يَفُنَّةَ الْقَنِزِّيُّ. وَكَالَبُ بْنُ حَصْرُونَ وَلَدَ مِنْ عَزُوبَةَ امْرَأَتِهِ وَمِنْ يَرِيعُوثَ. وَهؤُلاَءِ بَنُوهَا: يَاشَرُ وَشُوبَابُ وَأَرْدُونُ..») .

وأضيف: (ونقرأ في ١ أخبار، ٢ :٥٠ أن اسم والده لا حَصْرُونَ ولا يَفُنَّةَ الْقَنِزِّيُّ وإنما هو شخص آخر تماماً. إنه ابْنِ حُورَ «٥٠ هؤُلاَءِ هُمْ بَنُو كَالَبَ بْنِ حُورَ بِكْرِ أَفْرَاتَةَ. شُوبَالُ أَبُو قَرْيَةِ يَعَارِيمَ ٥١ وَسَلْمَا أَبُو بَيْتِ لَحْم، وَحَارِيفُ أَبُو بَيْتِ جَادِيرَ». ابن مَن إذاً كالب هذا؟ لا يُعقل أن يكون ابناً لآباء ثلاثة) .

بعد هذا الاستشكال يجيب الدكتور غالي: (الرد: في البدايه أوضّح أن المشكك أخطأ وخلط بين بعض الشخصيات، رغم أنهم في أزمنه مختلفة، فيوجد شخصين باسم كالب ذُكروا في العهد القديم، وهما كالب بن يفنة الشخصيه المشهورة، والثاني كالب بن حصرون حفيد حور) .

ثم يأتي بنبذة مختصرة عن الأول منهما، قال: (كالب بن يفنة الجاسوس: Caleb اسم عبري معناه «كلب» وهو اسم: ابن يفنة Jephunneh القنزي

1. drghaly.com/articles/display/10771

وأخو عثنيئيل الأكبر «عد[1] ٣٢: ١٢ ويش ١٥: ١٧ و ١ أخبار ٤: ١٥ بالمقابلة مع ١ أخبار ٤: ١٣». كان رأساً لبيت أحد آباء سبط يهوذا وهو أحد الجواسيس الاثني عشر الذين ارسلهم موسى ليتجسسوا على أرض كنعان، وواحد من الأثنين الذين بقيا امينين ليهوه منهم في حملة الاستيلاء على أرض كنعان «عد ١٣ و ١٤ ويش ١٤: ٦-١٤». وقد كان أيضاً أحد أفراد الجماعة التي أقامها موسى، قبل الدخول إلى أرض كنعان، لتقسيم الأرض، وكان يمثل في ذلك العمل سبط يهوذا حسب العادة «عد ٣٤: ١٩»، كان عمره ٨٥ سنة لما تم الاستيلاء على أرض كنعان «يش ١٤: ٧ و ١٠».... وكان نصيبه من القسمة مدينة حَبْرُون «يش ١٤: ١٤» التي طرد منها العناقيين الذين كانوا يقيمون فيها «ص ١٥: ١٣ و ١٤» - راجع حبرون- وقد اشترك في الاستيلاء على البلدة المجاورة المدعوة قرية سفر أو دبير «يش ١٥: ١٥ -١٩». وناحية جنوبي كالب المذكورة في «١ صم ٣٠: ١٤» يمكن أن تكون جنوبي «حبرون» أو جوار «دبير».

وأول عدد يتكلم عنه هو سفر العدد ١٣: ٦ «مِنْ سِبْطِ يَهُوذَا كَالِبُ بْنُ يَفُنَّةَ». فهو من سبط يهوذا، ويشوع وكالب متقاربين في السن، وكالب أصغر من يشوع بسنوات قليلة، وشرح الكتاب نسب كالب ابن يفنه، سفر العدد ٣٢: ١٢ «مَا عَدَا كَالِبَ بْنَ يَفُنَّةَ الْقِنِزِّيَّ وَيَشُوعَ بْنَ نُونَ، لأَنَّهُمَا اتَّبَعَا الرَّبَّ تَمَامًا». وله أخ اسمه قيناز، سفر يشوع ١٥: ١٧ «فَأَخَذَهَا عُثْنِيئِيلُ بْنُ قَنَازَ أَخُو كَالَبَ. فَأَعْطَاهُ عَكْسَةَ ابْنَتَهُ امْرَأَةً». الذي أصبح قاضي لإسرائيل، القضاة ٣: ٩ «وَصَرَخَ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى الرَّبِّ، فَأَقَامَ الرَّبُّ مُخَلِّصًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَخَلَّصَهُمْ، عُثْنِيئِيلَ بْنَ

١. عد، يش، ص، عبارة عن اختصارات لأسماء الأسفار، عد: سفر العدد - يش: سفر يشوع، ص: سفر صموئيل.

قَنَازَ أَخَا كَالِبَ الأَصْغَرَ». وبالطبع لأن كالب شخص مشهور وبطل من أبطال إسرائيل فتسمّى البعض باسمه).

ثم بدأ حديثه عن كالب بن حصرون، قال: (أما عن الشخصية الأخرى، سفر أخبار الأيام الأول ٢ «١٦ وَأُخْتَاهُمْ صَرُويَةُ وَأَبِيجَايِلُ. وَبَنُو صَرُويَةَ: أَبْشَايُ وَيُوآبُ وَعَسَائِيلُ، ثَلاَثَةٌ. ١٧ وَأَبِيجَايِلُ وَلَدَتْ عَمَاسَا، وَأَبُو عَمَاسَا يَثْرُ الإِسْمَاعِيلِيُّ. ١٨ وَكَالَبُ بْنُ حَصْرُونَ وَلَدَ مِنْ عَزُوبَةَ امْرَأَته وَمِنْ يَرِيعُوثَ. وَهؤُلاَءِ بَنُوهَا: يَاشَرُ وَشُوبَابُ وَأَرْدُونُ. ١٩ وَمَاتَتْ عَزُوبَةُ فَاتَّخَذَ كَالَبُ لِنَفْسه أَفْرَاتَ فَوَلَدَتْ لَهُ حُورَ. ٢٠ وَحُورُ وَلَدَ أُورِيَ، وَأُورِي وَلَدَ بَصَلْئِيلَ. ٢١ وَبَعْدُ دَخَلَ حَصْرُونُ عَلَى بِنْتِ مَاكِيرَ أَبِي جِلْعَادَ وَاتَّخَذَهَا وَهُوَ ابْنُ سِتِّينَ سَنَةً فَوَلَدَتْ لَهُ سَجُوبَ. ٢٢ وَسَجُوبُ وَلَدَ يَائِيرَ، وَكَانَ لَهُ ثَلاَثٌ وَعِشْرُونَ مَدِينَةً فِي أَرْضِ جِلْعَادَ. ٢٣ وَأَخَذَ جَشُورَ وَأَرَامَ حَوُّوثَ يَائِيرَ مِنْهُمْ مَعَ قَنَاةَ وَقُرَاهَا، سِتِّينَ مَدِينَةً. كُلُّ هؤُلاَءِ بَنُو مَاكِيرَ أَبِي جِلْعَادَ. ٢٤ وَبَعْدَ وَفَاةِ حَصْرُونَ فِي كَالَبَ أَفْرَاتَةَ، وَلَدَتْ لَهُ أَبِيَّاهُ امْرَأَةُ حَصْرُونَ أَشْحُورَ أَبَا تَقُوعَ. ٢٥ وَكَانَ بَنُو يَرَحْمَئِيلَ بِكْرِ حَصْرُونَ: الْبِكْرُ رَامَ، ثُمَّ بُونَةَ وَأَوْرَنَ وَأَوْصَمَ وَأَخِيًّا»).

ومما سبق استنتج أنه: (شخص زمنه قريب من زمن الملوك، وليس هو كالب بن يفنة بالطبع. وأخو كالب ابن حصرون هو يرحمئيل وليس قناز بالطبع «٤٢ وَبَنُو كَالَبَ أَخِي يَرَحْمَئِيلَ: مِيشَاعُ بِكْرُهُ. هُوَ أَبُو زِيفَ. وَبَنُو مَرِيشَةَ أَبِي حَبْرُونَ». وكالب ابن حصرون هذا كان له سراري على عكس كالب ابن يفنة «٤٦ وَعِيفَةُ سُرِّيَّةُ كَالَبَ وَلَدَتْ: حَارَانَ وَمُوصَا وَجَازِيزَ. وَحَارَانُ وَلَدَ جَازِيزَ. ٤٧ وَبَنُو يَهْدَايَ: رَجَمُ وَيُوثَامُ وَجِيشَانُ وَفَلَطُ وَعِيفَةُ وَشَاعَفُ. ٤٨ وَأَمَّا مَعْكَةُ سُرِّيَّةُ

كَالَبَ فَوَلَدَتْ: شَبَرَ وَتَرْحَنَةَ». واسم جده الأكبر إفراته التي تسميت منطقة بيت لحم على اسمه كما أوضحت «٥٠ هؤُلاَءِ هُمْ بَنُو كَالَبَ بْنِ حُورَ بِكْرِ أَفْرَاتَةَ. شُوبَالُ أَبُو قَرْيَةِ يَعَارِيمَ ٥١ وَسَلْمَا أَبُو بَيْتِ لَحْمٍ، وَحَارِيفُ أَبُو بَيْتِ جَادِيرَ».

وسِفر الأخبار نفسه يؤكد أنهما شخصيتان مختلفتان، فبعد هذا بإصحاحين، وتحديداً في الاصحاح الرابع، يتكلّم عن نسل كالب بن يفنه، سفر أخبار الأيام ٤: «١٣ وَابْنَا قَنَازَ: عُثْنِيئِيلُ وَسَرَايَا، وَابْنُ عُثْنِيئِيلَ حَثَاثُ. ١٤ وَمَعُونُوثَايُ وَلَدَ عَفْرَةَ، وَسَرَايَا وَلَدَ يُوآبَ أَبَا وَادِي الصُّنَّاعِ، لأَنَّهُمْ كَانُوا صُنَّاعًا. ١٥ وَبَنُو كَالِبَ بْنِ يَفُنَّةَ: عِيرُو وَأَيْلَةُ وَنَاعِمُ. وَابْنُ أَيْلَةَ قَنَازُ»).

وقال: (ونتأكّد أنهما شخصيتان مختلفتان لأن أبناء كالب بن يفنة: عيرو وأيلة وناعم، أما أبناء كالب بن حصرون هم: ميشاع وحاران وموصا وجازيز وشبر وترحنة، فهذا دليل ثاني أنهم شخصين مختلفين. ودليل ثالث أن كالب ابن حصرون هو من كالب إفراته، وهي التي من منطقة بيت لحم بالقرب من أورشليم، سفر أخبار الأيام الأول ٢: «٢٤ وَبَعْدَ وَفَاةِ حَصْرُونَ فِي كَالَبِ أَفْرَاتَةَ، وَلَدَتْ لَهُ أَبِيَّاهُ امْرَأَةُ حَصْرُونَ أَشْحُورَ أَبَا تَقُوعَ». وهي كانت ملك جده إفراته، سفر أخبار الأيام الأول ٢: ٥٠ «هؤُلاَءِ هُمْ بَنُو كَالَبَ بْنِ حُورَ بِكْرِ أَفْرَاتَةَ. شُوبَالُ أَبُو قَرْيَةِ يَعَارِيمَ»، سفر أخبار الأيام الأول ٤: ٤ «وَفَنُوئِيلُ أَبُو جَدُورَ، وَعَازَرُ أَبُو حُوشَةَ. هؤُلاَءِ بَنُو حُورَ بِكْرِ أَفْرَاتَةَ أَبِي بَيْتِ لَحْمٍ».

أما كالب بن يفنه فهو تملّك حبرون، سفر يشوع ١٤: ١٣ «فَبَارَكَهُ يَشُوعُ، وَأَعْطَى حَبْرُونَ لِكَالَبَ بْنِ يَفُنَّةَ مُلْكًا»، وحبرون تختلف تماماً عن إفراته).

وختم كلامه قائلاً: (وبهذا تأكّدنا أنهما شخصان مختلفان، وكالب بن

حصرون كما وضّحت هو حفيد حور، بِكر إفراته أبي بيت لحم، فلذلك تسمي مرة باسم كالب بن حصرون – أبيه – ومرّة باسم كالب ابن حور جدّه. وكالب هذا سُمّي باسم كلوباي، سفر أخبار الأيام الأول ٢: ٩ «وَبَنُو حَصْرُونَ الَّذِينَ وُلِدُوا لَهُ: يَرْحَمْئِيلُ وَرَامُ وَكَلُوبَايُ». وقد أكد هذا كلٌّ مِن «قاموس الكتاب المقدس» الذي وضّح أنهما شخصيتان مختلفتان، كالب بن يفنه وكالب بن حصرون، وأيضاً «قاموس برون» العبري:

H3612

כלב

kâlêb

BDB Definition:

Caleb = “dog”

1) the godly son of Jephunneh and the faithful spy who reported the Promised Land favourably and urged its capture

2) son of Hezron and grandson of Pharez and great grandson of Judah and the father of Hur

وأيضاً المفسر جيل:

1Ch 2:18 And Caleb the son of Hezron,.... The same that is called Chelubai, 1Ch_2:9 but not the same with Caleb the

son of Jephunneh, made mention of in the books of Numbers, Joshua, and Judges:

والمفسرون اليهود أيضاً مثل ابن عزرا وغيرهم الكثير، وأيضاً مفسرون شرقيون مثل أبونا أنطونيوس فكري: كالب بن حصرون = هو كلوباى في آية «٩». وكالب هذا غير كالب بن يفنة أحد الجواسيس «عد ١٣:٦»)[١].

ويمكن أن أضيف على ما سبق أنه لو كان «يفنه» لقباً لحصرون، لكان المفترض أن يكون النص كالتالي: «كالب يفنه» أي كالب «المبتعد/المتجنب» وليس «كالب بن يفنه».

وعلى كل حال، لو قبلنا بالرأي الأول أو الثاني، فسنكون قد توصّلنا أخيراً إلى شخصية مذكورة في العهد القديم «التنخ» - وليس في خصوص التوراة - تحمل اسم «شَبَر» وهو ابن كالب بن حصرون... فماذا ذكرت المصادر اليهودية والنصرانية عن هذا الاسم؟

مع ملاحظة الاختلاف أحياناً حول ضبط الكلمة من حيث التشكيل «شَبَر- شِبِر - شَبِر»، والذي قد يعود أحياناً إلى اختلاف اللهجات، أو التصحيف، أو اختلاف الآراء.

نجد على موقع biblehub.com التحليل التالي للكلمة الواردة في «التنخ» وعن أصلها اللغوي:

Sheber: a son of Caleb
Original Word: שֶׁבֶר

1. drghaly.com/articles/display/10771

Part of Speech: Proper Name Masculine

Definition: a son of Caleb

Word Origin: from shabar to break, break in pieces[١]

أي أن شِبِر اسم عَلَم لأحد أولاد كالب وبمعنى «مفتول العضلات أو رجولي» ويأتي من الفعل «شَبَر» والتي تعني «حطّم وشظّى» وبالتالي فهي قريبة من كلمة «شَطَر» في العربية.

بحسب موقع unbound.biola.edu فإن لكلمة شَبَر معاني أخرى وفق ورودها في الكتاب المقدس، وهي كالتالي:

الفعل شَبَر بمعنى صَبر، انتظَر، توقّع، اختبر، أمِلَ، حطّم، شظّى، مزّق، دمّر، يشتري حبوباً، يبيع حبوباً ومعان قريبة من ذلك.

الاسم شِبِر بمعنى تحطيم، تشطير، محاجر، حبوب، ذرة، كَسْر[٢].

أما في «قاموس الكتاب المقدس» فإنّ الاسم شبر: «اسم عبري ربما كان معناه: أسد، ابن كالب من مَعْكَة سُريّته»[٣]. فالكلمة بهذا التوضيح تقترب من الكلمة العربية «شبل» والتي تُطلق على ابن الأسد.

وحيث كان الاسم «شبيرو» من الأسماء والألقاب العائلية المشهورة لدى اليهود، لذا فقد قمت بالبحث حول تفسيرهم لمعنى هذا الاسم.

---

1. biblehub.com/hebrew/7669.htm
2. unbound.biola.edu
3. st-takla.org/Full-Free-Coptic-Books/FreeCopticBooks-002-Holy-Arabic-Bible-Dictionary/22_K/K_006.html

وبحسب موقع quora.com الموسوعي في إجابة السؤال التالي:

What does the name "Shapiro" mean, and what is its origin?

أي: ما معنى الاسم «شبيرو» وما مصدره؟ كانت الإجابة ضمن احتمالات من بينها:

It could mean “handsome.”

The Hebrew word “shapir” means handsome or pretty.

أي: يمكن أن تعني وسيم. تعني الكلمة العبرية Shapir وسيم أو جميل[١].

وبذا نقترب من معنى «حسن» العربية، ولكن مع ملاحظة أن ضبطها يكون بكسر الحرف الثاني «P» الذي يقابل «الباء»، فتكون الكلمة «شَبِر» وليس «شَبَر».

ولكن عند العودة إلى الكتابة العبرية لهذا الاسم سنجده كالتالي: שפירא والحرف الأخير א هو الألف وليس الواو. فلماذا تُقرأ «شبيرو» وليس «شبيرا»؟ السبب هو أن هذا التلفّظ يعود إلى اللغة اليديشية، واللغة اليديشية لغة يهود أوروبا، وقد نمت خلال القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين من لغات عدة، منها الآرامية والألمانية والإيطالية والفرنسية والعبرية. يتحدث بها ما يقارب ١,٥ ملايين شخص حول العالم، أغلبهم يهود أشكناز، أما في العبرية فسنجد بحسب موقع Baby Names Pedia الخاص بمعاني أسماء الأطفال ما يلي:

[(s)ha-pi-ra, sh-ap-ira] The baby girl name Shapira is pronounced as -SHey-PIH-R-aa-. Shapira is primarily used in

1. www.quora.com

the Hebrew language and it is of Aramaic origin. The name means good[1].

أي أن الاسم «شبيرا» خاص بالإناث، وتستعمل في المقام الأول في اللغة العبرية، والكلمة آرامية الأصل، وتعني «حَسَنة». وهذا يعني أن الاسم مستعمل عند اليهود للذكر والأنثى، ويتميّز بالتلفظ بالواو في آخره إن كان للذكر، وبالألف في آخره إن كان للأنثى.. والمعنى: حسن وحسنة.

• النتائج المستخلصة:

وعلى كل حال، فإنه يمكن تلخيص النتائج التي تم التوصّل إليها من خلال هذا البحث إلى ما يلي:

١. لا وجود لولد ولا حفيد للنبي هارون حمل اسم «شبر» أو ما يقاربه لفظاً، ولا اسماً لأحدهم يَعني بحسب اللغة العربية «حسن»، ولا ما يقارب هذا المعنى.

٢. يوشع بن نون هو وصي النبي موسى من بعده، ولو افترضنا أن الرواة وضعوا اسم هارون بدلاً عن عنوان «وصي موسى» خطأً أو تصرّفاً من عند أنفسهم، فلن يسعفنا هذا الخيار أيضاً، لعدم وجود ذرية له بهذا الاسم ولا بمعنى «حسن».

٣. وجدنا اسم «شَبَر» في سِفر أخبار الأيام الأول، وهو ابن «كالب بن حصرون» الذي من المحتمل أنه ذات «كالب بن يفنة» الذي كان من المؤمنين الثابتين في نصرتهم للنبي موسى، وقد أثنى عليه القرآن، كما أثنت عليه التوراة.

1. www.babynamespedia.com/meaning/Shapira

٤. ولكن لم يكن «كالب» وصياً للنبي موسى، لا في حياته ولا بعد مماته، ولم أجد في المصادر اليهودية ولا النصرانية ما يدل على أنه كان وصي «يوشع بن نون»، وقد انتهى «سِفر يوشع» وبدأ سِفر «القضاة» المخصّص للزمن اللاحق بعهد «يوشع» دون ذِكر لوجود وصيٍّ واحد له، بل يبدو أن بني إسرائيل كانوا منقسمين بحسب توزيع الأراضي الذي تم على عهد النبي يوشع وفق أسباطهم.

وبداية سِفر القضاة تُرشد إلى هذا المعنى: (وَكَانَ بَعْدَ مَوْتِ يَشُوعَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَأَلُوا الرَّبَّ قَائِلِينَ: «مَنْ مِنَّا يَصْعَدُ إِلَى الْكَنْعَانِيِّينَ أَوَّلًا لِمُحَارَبَتِهِمْ؟»)[١]. فهم بحاجة إلى قائد محدّد.

ولو كان يوشع قد حدّد لهم ذلك القائد لما طرحوا هذا السؤال. وجاءت الإجابة كالتالي: (فَقَالَ الرَّبُّ: «يَهُوذَا يَصْعَدُ) أي سِبط يهوذا، أي القبيلة من ذريته (هُوَذَا قَدْ دَفَعْتُ الأَرْضَ لِيَدِهِ»)[٢]. وهنا يبرز اسم كالب من جديد كقائد لسِبط يهوذا وذلك في الآية الثانية عشرة من نفس الأصحاح: (فَقَالَ كَالَبُ: «الَّذِي يَضْرِبُ قَرْيَةَ سَفَرٍ وَيَأْخُذُهَا، أُعْطِيهِ عَكْسَةَ ابْنَتِي امْرَأَةً»)[٣].

وتتوالى الأحداث بعد ذلك بما يعطينا الانطباع بأنه صار القائد الميداني «الحاكم» مِن بعد يوشع. ويؤيد هذا ما جاء على موقع Bible Study عنه:

He is mentioned as being a prince (nasi, or chief, rosh) of the tribe of Judah[٤].

---

١. الكتاب المقدس: سفر القضاة، الأصحاح ١ : ١.

٢. الكتاب المقدس: سفر القضاة، الأصحاح ١ : ٢.

٣. الكتاب المقدس: سفر القضاة، الأصحاح ١ : ١٢.

4. www.bible-studys.org

Nasi'נָשִׂיא is a Hebrew title meaning "prince" in Biblical Hebrew, "Prince [of the Sanhedrin]" in Mishnaic Hebrew, or "president" in Modern Hebrew. The Talmudic book of Horayot actually defines this to mean the king[١].

وترجمة ما سبق كالتالي: كان – كالب –أمير «ناسي، قائد، رأس» سِبط «قبيلة» يهوذا.

ناسي كلمة عبرية وتعني «أمير» في العبرية التوراتية – أو اللغة العبرية الكلاسيكية، هي اللغة العبرية القديمة التي كتبت بها التوراة والتي كانت كذلك محكية على لسان بني إسرائيل في أرض مصر، وأرض كنعان – وفي العبرية التلمودية بمعنى «أمير السنهدرين[٢]»، أو الرئيس في العبرية الحديثة. وفي كتاب «القرارات[٣]» من التلمود تعني في الواقع «ملك».

وللطبري في تاريخه كلام حول هذا الأمر حيث قال: (ونرجع الآن إلى ذكر أمر بني إسرائيل، والقوّام كانوا بأمورهم بعد يوشع بن نون والأحداث التي كانت في عهد زو وكيقباذ، ولا خلاف بين أهل العلم بأخبار الماضين وأمور الأمم السالفين من أمتنا وغيرهم أنّ القيّم بأمور بني إسرائيل بعد يوشع كان كالب بن يوفنا)[٤].

1. ipfs.io/ipfs/QmXoypizjW3WknFiJnKLwHCnL72vedxjQkDDP1mXWo6uco/wiki/Nasi_(Hebrew_title).html

٢. الكتاب المقدس: سفر القضاة، الأصحاح ١ : ١.

٣. الكتاب المقدس: سفر القضاة، الأصحاح ١ : ١.

٤. هورايوت أو القرارات: من أجزاء التلمود.

وبإضافة كلام الطبري إلى ما سبق نستطيع القول أن كالب كان الحاكم والقائم الفعلي لبني إسرائيل بعد النبي موسى ويوشع بن نون.

مما سبق يمكننا القول أن من المحتمل قيام بعض الرواة – خطأ أو تصرّفاً من عند أنفسهم – بتبديل هذا المعنى بوضع اسم «هارون» بدلاً عنه.

٥. وبذا يكون اسم شبر قد تُرجم إلى العربية من قِبَل الوحي أو النبي إلى حسن، ثم اشتقّ النبي منه اسم حسين، ولربما محسن أيضاً، كما دلّت على ذلك بعض الروايات.

٨

آصف بن برخيا

٨

آصف بن برخيا

قال الله «عز وجل»: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ، فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ، إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ، أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ، اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ، إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ، قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ، قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ، فَلَمَّا جَاء سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ

خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ، ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ، قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

• خلاصة القصة:

تأتي الأحداث المرويّة في هذه الآيات الشريفة في معرض قصة النبي/الملك سليمان «عليه السلام» وملكة سبأ، حيث جاء الهدهد بخبرها وخبر قومها، ثم أرسل سليمان معه رسالة، فاستشارت قومها، واستقر الرأي على اتخاذ المسار الدبلوماسي السياسي لا العسكري، مع محاولة الرشوة بالهدايا تخفيفاً من احتمال حدّة الموقف وتطوّر الأحداث إلى نشوب حرب أو محاولة غزو.

ردّ النبي/الملك سليمان الهديّة مهدّداً ومتوعِّداً، فقرَّرت الملكة الانتقال إلى الخطة «ب»، وهي خطة دبلوماسية سياسية أخرى. ولابدّ أنها قد سبق وسمعت بقوة سلطان سليمان وقدرات مملكته. كما أن توسّط الهدهد في تسليم الرسالة يُعدّ في حدّ ذاته مؤشراً واضحاً على تميّز هذا السلطان وقدراته.

ثم إنّ مضمون الرسالة **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾** الذي يؤكّد على البُعد الإيماني والرحمة والذي دفعها إلى التعبير عنه بقولها: **﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ**

١. سورة النمل:٢٠-٤٠.

إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ كان عاملاً آخر دفعها نحو الإصرار على المسار السلمي الدبلوماسي، وعدم الاستكبار والتحدّي والتحريض على القتال وإعلان نوع من الاستعداد للدخول في معارك مع مملكة سليمان، على الرغم من أن مملكتها كانت ذات قوّة عسكرية عدّة وعتاداً، بدليل قول الملأ من قومها: ﴿**نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيد**﴾.

وحيث كان غرض النبي/الملك سليمان هو هداية الملكة وقومها إلى توحيد الله، فقد سعى بحكمته إلى التدبير الذي تحكي عنه هذه الآيات والمتعلّق بجلب عرشها بصورة تفوق قدرة الإنسان إلى هذا اليوم، وبما يؤكّد علاقته الغيبية بالله وصحّة دعوته من خلال المنطق الذي ينفع معها كملكة، بلحاظ أن الملوك من شأنهم – عادة – تقييم الأمور من خلال المنظور المادي والقوة والسلطة.

وكما ذكرتُ من قبل في الجزء الأول من الكتاب، في البحث الخاص بتسخير الله الجنّ للخدمة في مملكة سليمان «عليه السلام»، فإن قوة هذا النبي/الملك وعظمة مُلكه لا تنحصر فقط في قدراته كفرد، علماً وحكمة كما حكى ذلك القرآن الكريم في قوله «تعالى»: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا.... وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾[1]، وقوله «سبحانه»: ﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾[2].

---

١. سورة النمل:١٥-١٧.

٢. سورة الأنبياء:٧٨-٧٩.

بل بما سخّر الله له من أفراد كيفاً وكمّاً، وبما سخّر له من أنواع الجن والطير وغير ذلك ممن سمّاهم القرآن «بالجنود»، ومن خلال قوى الطبيعة التي امتلك هذا النبي/الملك شيئاً من العلم بشؤونها وكيفية تسخيرها لمصلحة مملكته والاستفادة منها.

قال «تعالى»: ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ، وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ**﴾[1].

وقال «عز وجل»: ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ، وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾[2]. وهذا ما جعله يخاطب الملأ عنده مطالباً بمن يحقّق له مطلبه، وهو جَلْب عرش ملكة سبأ.

وبحسب خرائط «غوغل» لو أردت أن تقود سيارتك من القدس إلى مدينة مأرب على الطريق الساحلي المحاذي للبحر الأحمر، فالمسافة ستكون في حدود ٢٦٤٦ كم، وتحتاج إلى قيادة ٣٠ ساعة مستمرة بالسيارة على الطريق الساحلي، أو ٢,٥ بالطائرة. ولو قطعت هذه المسافة بمسير قوافل الجمال، فإنها ستستغرق ٦٠ يوماً تقريباً «٤٥ كم في اليوم».

ومَطلبُه هذا لتحقيق غرض وهو: ﴿**أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾، ويبدو أن المراد هو التسليم أو الاستسلام له، والذي سيقود بالتَّبع إلى أن يُسلموا لله

١. سورة الأنبياء:٨١-٨٢.

٢. سورة النمل:١٦-١٧.



«عز وجل»، وهي الغاية الأسمى في مُجريات الأحداث. وقد تضمّنت رسالته قوله: ﴿**أَلاَّ تَعْلُواْ عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ لا بمعنى مؤمنين بالرسالة الإلهية، بل بمعنى منقادين طائعين مسلّمين لما يريده منهم، مِن التزام وسلوك وموقف.

وعلى إثر هذا الطلب جاءه الردّ الأول: ﴿**قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ**﴾.. فما معنى عفريت؟

١. العفريت هو المارد الخبيث، قال الطبرسي في «مجمع البيان» في تفسيره للآية ٣٩ من سورة النمل: (يقال رجل عِفريَة نِفريَة أي خبيث داه. قال ذو الرمّة:

كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ في إثْرِ عِفْرِيَةٍ ... مُسَوَّمٌ في سَوادِ اللَّيْلِ مُنْقَضِبُ

وأصل العفريت والعفرية من العَفر وهو التراب) وفي العبرية עפר وتُلفظ عَفَر وتعني التراب أيضاً (لأنه يصرع قرنه في العفر، ومنه قيل للأسد عَفَرْنَى، وللناقة الشديدة عِفِرْناة، قال الأعشى:

بِذاتِ لَوْثٍ عِفِرْناةٍ إذا عَثَرَتْ فَالتَّعْسُ أَدْنَى لَها مِنْ أَنْ يُقال لَعا)[١].

وقال الفخر الرازي في «التفسير الكبير» في تفسير الآية أيضاً: (والعَفْر، والعِفريت، والعِفرية، والعِفراة، والعِفارية - من الرجال - الخبيث المنكَر، الذي يَعفِرُ أقرانه) يضرب بهم الأرض ويمرّغهم في التراب (ومن الشياطين: الخبيث المارد)[٢].

٢. العفريت هو المارد القوي الداهية. قال الشيخ الطوسي في «التبيان» في تفسير نفس الآية: (ومعنى عفريت: مارد، قوي، داهية، يقال: عفريت وعِفْريَة، ويُجمع عفاريت، وعفاري. قال سيبويه: هو مأخوذ من العَفْر. والمعنى كل سديد في مذهبه من الدهاء والنكارة والنجابة)[٣].

٣. العفريت هو الشديد الذي لا يُصاب ولا يُنال، قال ابن عاشور في «التحرير والتنوير» في تفسير نفس الآية: (حسبما يُستخلص من مختلف كلمات أهل اللغة أنه اسم للشديد الذي لا يُصاب ولا ينال، فهو يُتَّقى لشَره. وأصله اسمٌ لعُتاة الجن، ويوصف به الناس على معنى التشبيه)[٤].

---

١. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٧ ، ص ٣٨٣.

٢. الرازي: التفسير الكبير، ج ١٢ ، ص ٣٢.

٣. الطوسي :التبيان، ج ٨ ، ص ٩٦.

٤. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ١٩، ص ٢٧٠-٢٧١.

أما التعبير بقوله: ﴿**قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ**﴾ يعني بحسب الظاهر ساعات قليلة بحسب عُرف الملوك، وقد لا تزيد على ساعتين أو ثلاثة.

وإذا صحّ هذا الفرض، فإن السرعة المفترضة لإحضار هذا العفريت للعرش كانت ستبلغ ضعف سرعة الطائرة التجارية تقريباً، بلحاظ خَطّي الذهاب والعودة والتي تستغرق بحسب سرعة الطائرات في الأجواء المرتفعة ما يقارب الخمس ساعات.

فأسرع طائرة عسكرية استطاعت أن تسير بسرعة ٣٥٢٩ كم في الساعة، أما في عالم الطائرات التجارية فالسرعة القصوى تزيد على ٩٠٠ كم في الساعة بقليل، وتبلغ أقصى سرعة لأسرع قطار يعمل اليوم ٦٠٠ كم في الساعة تقريباً، وهناك مشروع روسي للنقل بالقطارات عبر «أنبوب» مفرّغ من الهواء، ويُعرف باسم Hyperloop، ويطمح أن تصل سرعة النقل عبره إلى أكثر من ١٢٢٠ كم في الساعة تقريباً.

ثم إنَّ وصْف هذا العفريت نفسه بأنه «قوي» يأتي بلحاظ أن المعطيات المادية للعرش «الحجم والوزن» بالإضافة إلى المسافة المقطوعة والسرعة الفائقة للانتقال تتطلب القوة.

وعندما وصف نفسه بأنه «أمين» فإنما جاء ذلك بلحاظ أن عرش مثل هذه الملكة التي كانت تحكم دولة ثرية وذات حضارة عريقة تستدعي أن يكون مصنوعاً من الذهب - غالباً - ومرصّعاً بالأحجار الكريمة وما إلى ذلك،

وهو ما قد يُغري بسرقته بأكمله، أو على الأقل سرقة بعض أجزائه...

وقد أكّد مصداقيته في هذين الوصفين بلحاظ استعمال «إنّ» و «اللام» بما يتضمّنان من دلالة على التأكيد.

أما الرد الثاني الذي جاءه من الملأ فكان بهذه الصورة: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ ولاشك أن هذا الإنجاز الذي لن يستغرق ثانية واحدة، بلحاظ أن الطّرف يعني الجفن الأعلى، يُعدّ أمراً خارقاً إلى هذا اليوم. وهذا يستدعي طرح عدة أسئلة:

- من القائل؟
- وعن أي كتاب تتحدث الآية؟
- وما نوعية هذا العلم؟
- وكيف اكتسبه؟

• مقولات ومرويات الإمامية:

١. العلامة الطباطبائي: (مقابلته لِمَن قبلَه دليل على أنه كان من الإنس، وقد وردت الروايات عن أئمة أهل البيت «عليه السلام» أنه كان آصف بن برخيا وزير سليمان ووصيه. وقيل: هو الخضر، وقيل: رجل كان عنده اسم الله الأعظم الذي إذا سُئل به أجاب، وقيل: جبرئيل، وقيل: هو سليمان نفسه، وهي وجوه لا دليل على شيء منها)[١].

٢. تفسير العياشي: (روى العياشي في تفسيره، بالإسناد قال: التقى موسى) الملقب بالمبرقع (بن محمد بن علي بن موسى ويحيى بن أكثم فسأله.

١. الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٦٢.

قال: فدخلت على أخي علي بن محمد «عليهما السلام» إذ دار بيني وبينه من المواعظ حتى انتهيت إلى طاعته فقلت له: جُعلت فداك، إنّ ابن أكثم سألني عن مسائل أفتيه فيها. فضحك ثم قال: هل أفتيته فيها؟ قلت: لا. قال: ولم؟ قلت: لم أعرفها. قال: ما هي؟ قلت: قال: أخبِرني عن سليمان، أ كان محتاجاً إلى عِلم آصف بن برخيا؟ ثم ذكرت المسائل الأخر. قال: اكتب يا أخي بسم اللّه الرحمن الرحيم. سألتَ عن قول اللّه «عز وجل» في كتابه: ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ فهو آصف بن برخيا، ولم يَعجز سليمان عن معرفة ما عرف آصف، لكنه أحب أن تعرف أمتُه من الجن والإنس أنه الحجة من بعده، وذلك مِن عِلم سليمانَ أودعَه آصفَ بأمرِ اللّه، ففهّمه اللّه ذلك لئلّا يُختلَف في إمامته ودلالته، كما فهم سليمان في حياة داود) إشارة إلى قوله «عز وجل»: ﴿**وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ، فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ**﴾[1] (ليُعرف إمامته ونبوّته مِن بعده لتأكيد الحجة على الخلق)[2].

علماً بأن تفسير العياشي يُعدّ من أقدم التفاسير الروائية الشيعية، ألّفه أبو النظر محمد بن مسعود بن عيّاش السلمي السمرقندي المعروف بالعياشي «ت٣٢٠ هـ». شمل تفسيره كل القرآن إلا أنّ المتبقِّي مِن نُسخه تفسير سورة الحمد إلى سورة الكهف. ما يُميِّز تفسيره عن سائر التفاسير الروائية في القرون الأولى هو الاهتمام بالمسائل الفقهية في آيات الأحكام. كما كان

١. سورة الأنبياء: ٧٨-٧٩.

٢. الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٧١، نقلاً عن تفسير العياشي.

العياشي يعنى بالمسائل الكلامية والمذاهب في تفسيره، ويأتي بروايات تتعلّق بها. من سلبيات تفسيره حذف أسانيد الروايات.

٣. تفسير القمي: (فقال آصف بن برخيا ﴿**أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ فدعا الله باسمه الأعظم فخرج السرير من تحت كرسي سليمان)[١].

وهكذا نجد في تفسير الميزان والعياشي والقمي توافقاً على أن صاحب المقولة شخصية تحمل اسم «آصف بن برخيا»... وعلى هذا دلّت بعض الروايات المروية عن أهل البيت «عليهم السلام»... فما مدى صحة هذه النسبة؟

• مقولات ومرويات أهل السنة:

في الواقع أننا عندما نعود إلى تفاسير أهل السنة، سنجد أيضاً ذِكراً لآصف بن برخيا على أنه المعنيّ بهذه القصة القرآنية.

١. تفسير الطبري: (عن ابن إسحاق: ... فقال آصف بن برخيا، وكان صِدّيقاً يعلم الاسم الأعظم الذي إذا دُعي الله به أجاب، وإذا سُئل به أعطى: ﴿**أَنَا**﴾ يا نبيّ الله ﴿**آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾)[٢].

٢. تفسير الدر المنثور للسيوطي: (وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ قال: آصف: كاتب سليمان. وأخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان قال: هو آصف بن برخيا. وكان صدّيقاً يعلم

١. القمي: تفسير القمي، ج٢، ص١٢٨.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ٩، ص ٥٢٤.

الاسم الأعظم..... وأخرج ابن عساكر عن الحسن قال: هو آصف بن برخيا بن مشعيا بن منكيل، واسم أمه باطورا من بني إسرائيل)[١].

٣. بالطبع هذا لا يعني انحصار التأويلات الواردة عند أهل السنّة بآصف بن برخيا فقط، حيث نجد المفسّر الطبري يذكر احتمالات أخرى، قال: (وكان رجلاً فيما ذُكر من بني آدم، فقال بعضهم: اسمه بليخا. عن قَتادة، في قوله ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ قال: كان اسمه بليخا... عن قَتادة ﴿**قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ**﴾ قال: رجل من بني آدم أحسبه قال: من بني إسرائيل، كان يعلم اسم الله الذي إذا دعي به أجاب..... أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: .... وخرج يومئذٍ رجل عابد في جزيرة من البحر، فلما سمع العفريت ﴿**قَالَ أنا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ قال: ثم دعا باسم من أسماء الله، فإذا هو يُحمل بين عينيه)[٢].

٤. وهكذا فعل السيوطي حيث قال: (.... وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان اسمه أسطوم. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن لهيعة قال: هو الخضر. وأخرج ابن أبي حاتم عن زهير بن محمد قال: هو رجل من الإنس يقال له: ذو النور..... وأخرج ابن جرير عن قتادة ﴿**قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ قال: كان اسمه تمليخا)[٣]. ولكن نسخة تفسير الطبري المتوفرة تذكره باسم «بليخا»، ومثل هذه التصحيفات متعارفة كأخطاء تقع من قبل النسّاخ.

---

١. السيوطي: الدر المنثور، ج ٥، ص ٢٠٥.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ٩، ص ٥٢٣.

٣. السيوطي: الدر المنثور، ج ٥، ص ٢٠٥.

٥. قال القرطبي في «جامع الأحكام»: (أكثر المفسرين على أن الذي عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بني إسرائيل، وكان صدّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أَعْطى، وإذا دعي به أجاب... قال السُّهَيليّ: الذي عنده علم من الكتاب هو آصف بن برخيا ابن خالة سليمان.... قال ابن عطية: وقالت فرقة هو سليمان «عليه السلام»... قال بحر: هو مَلَك بيده كتاب المقادير، أرسله الله عند قول العفريت. قال السُّهَيليّ: وذكر محمد بن الحسن المقرىء أنه ضَبَّة بن أُدّ؛ وهذا لا يصح أَلبتة لأن ضَبَّة هو ابن أُدّ ابن طابخة، واسمه عمرو بن إلياس بن مُضر بن نِزار بن معَدّ: ومعدّ كان في مدة بختنصر، وذلك بعد عهد سليمان بدهر طويل؛ فإذا لم يكن معدّ في عهد سليمان، فكيف ضَبّة بن أدّ وهو بعده بخمسة آباء؟ وهذا بيّن لمن تأمله. ابن لهِيَعة: هو الخضر «عليه السلام». وقال ابن زيد: الذي عنده علم من الكتاب رجل صالح كان في جزيرة من جزائر البحر... وقول سابع: إنه رجل من بني إسرائيل اسمه يمليخا كان يعلم اسم الله الأعظم؛ ذكره القشيري. وقال ابن أبي بزة: الرجل الذي كان عنده علم من الكتاب اسمه أسطوم وكان عابداً في بني إسرائيل؛ ذكره الغزنوي... وقول ثامن: إنه جبريل عليه السلام قاله النّخَعي؛ وروي عن ابن عباس)[١].

وبذا يتبيّن لنا أن الاحتمالات المطروحة سوى آصف:

١. تمليخا أو يمليخا أو بليخا

٢. الخضر

١. القرطبي: جامع الأحكام، ج٧، ص ١٣٦-١٣٧.

٣. ذو النور

٤. أسطوم

٥. ملَك بيده كتاب المقادير

٦. رجل عابد صالح كان يعيش في جزيرة

٧. سليمان «عليه السلام»

٨. ضَبَّة بن أُدّ

٩. جبريل «عليه السلام»

١٠. رجل من بني إسرائيل

ولكن آصف بن برخيا، الذي وُصف تارة بأنه ابن خالة سليمان، وأخرى بأنه كاتبه، وثالثه بأنه وصيّه، هو الأشهر على الإطلاق مقارنة بسائر الأسماء. فما مدى صحة هذه النسبة؟ وهل تساعد الأدلة والمعطيات التاريخية على التصديق بصدور هذه المرويات عن أهل البيت «عليهم السلام» وبالتالي تصحيح نسبة الاسم للشخص المذكور في الآية؟ وهكذا فعل مفسّرو أهل السنة اعتماداً على ما روي عن ابن عباس وآخرين... فهل يمكن تصحيح نسبة الاسم للشخص المذكور في الآية؟

• **التحقيق في المسألة**:

أوّل ما يشكّكنا - أو يجعلنا نتوقّف على الأقل - في قبول صحة نسبة الاسم للشخص المذكور في الآية - وقبل الانتقال لدراسة مصادر اليهود والنصارى

والبحث فيها - أننا عندما نعود إلى تفسير الطبري للاطلاع على ما جاء بهذا الشأن، سنجد أن المصدر الحقيقي والأقدم لمقولة أن الشخص المعني هو آصف بن برخيا ليس سوى أحد مُسلمة أهل الكتاب.

ففي تفسير الطبري: (عن ابن إسحاق، عن بعض أهل العلم عن وَهب بن مُنبّه، قال: ذكروا أن آصِف بن برخيا توضّأ ثم ركع ركعتين ثم قال: يا نبيّ الله، امدد عينك حتى ينتهي طرفك، فمدّ سليمان عينَه ينظر إليه نحو اليمن، ودعا آصف فانخرق بالعرش مكانه الذي هو فيه، ثم نبع بين يدي سليمان)[١].

وبرأيي أن هذه الرواية الإسرائيلية الكاذبة هي رأس الخيط للتحقيق في مدى صحة النسبة، وأن وهب بن منبّه هو المصدر الأساس لهذه المقولة، وعنه أخذ قتادة وابن إسحاق وآخرون، ومن ثَمّ تغلغلت مقولتُه إلى كتب التفسير والحديث عند الشيعة بعنوان أنها من مرويات الأئمة «عليهم السلام»، وهو الأمر الذي تكشّف لي عدة مرّات عند تصنيفي لكتاب «ميثولوجيا الخضر» وفي بعض البحوث التي ألقيتها ضمن سلسلة «في عمق التاريخ» خلال شهر رمضان ١٤٣٩ هـ، وأثبتُّها في الجزء الأول من كتابي الذي حمل ذات العنوان.

ولا شك أن مِن حق كل باحث أن يقف ملياً ويتردّد كثيراً في قبول مقولات وهب بن مُنبّه.. فمن هو؟ وما هي الإشكالات المثارة بحقّه؟

- **وهب بن منبه**:

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» عن نسبه: (وهب بن منبه بن كامل بن

١. الطبري: جامع البيان، ج ١٩، ص ٤٦١.

سيج بن الأسوار الأبناوي أبو عبدالله الصنعاني). وعن قوميّته قال: (قال العجلي: «وهب تابعي ثقة كان على قضاء صنعاء» وقال غيره: «كان أبوه منبّه من أهل هراة فأُرسل إلى اليمن زمن كسرى فأسلم في حياة النبي «صلى الله عليه وسلم» وحسن إسلامه»).

وعن علمه قال: (وكان صدوقاً عالماً قد قرأ في كتب الأولين وعرف قصص الأنبياء «عليهم السلام» وكان يُشبَّه بكعب الأحبار في زمانه، وكلاهما تابعي لكن مات قبله بنحو من ثمانين سنة. فمولد وهب قريب من وفاة كعب، وفي الصحيحين حديث عمرو بن دينار عن وهب بن منبه عن أخيه همام عن أبي هريرة.. وعن وهب قال: «كانوا يقولون عبد الله بن سلَام أعلم أهل زمانه، وكان كعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمعهما؟» يعني نفسه).

وأما عبادته وأخلاقه وروحانيته فقال عنها: (وقال مثنى بن الصباح: «لبث وهب أربعين سنة لم يسب شيئاً فيه روح، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءً!!» ثم قال وهب: «قرأت ثلاثين كتاباً نزلت على ثلاثين نبياً». وقال عبد الصمد بن مغفل: «صحبت عمّي وهباً أشهراً يصلي الغداة بوضوء العشاء». وقيل: «لبث أربعين سنة لم يرقد على فراش»! روى عبد المنعم بن إدريس، عن أبيه قال: «كان وهب يحفظ كلامه، فإنْ سَلم يومه أفطر، وإلا طوى». وروى عبد الصمد عن الجعد بن درهم قال: «ما كلّمت عالماً قط إلا حلَّ حَبوته) أي قام (أو غضِب، إلا وهب بن منبه». معمر عن سماك بن الفضل قال: «كنا عند عروة أمير اليمن إلى جنبه وهب في قوم، فشكوا عاملهم وذكروا منه شيئاً قبيحاً، فتناول وهب عصا فضرب بها رأس العامل

حتى سال دمه، فضحك عروة بن محمد وقال: يعيب علينا أبو عبدالله الغضب وهو يغضب! فقال: ما لي لا أغضب وقد غضب الذي خلق الأحلام فقال: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾[١]. ويُروى أنهم قالوا لوهب: «إنك تحدثنا بالرؤيا فتقع حقاً. فقال: هيهات، ذهب ذلك عني مذ وُلِّيت القضاء». وعن البشارة النبوية بشأنه قال: عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: «يكون في أمتي رجلان أحدهما يقال له وهب يهب الله له الحكمة، والآخر يقال له غيلان، هو أضر على أمتي من إبليس». وقد بيّن الذهبي ضعف إسناد هذا الخبر بأكثر من راوٍ. وعن بعض آرائه العقدية قال: قال أحمد بن حنبل: «كان يُتَّهم بشيء من القدر، ورجع». وقال عمرو بن دينار: «دخلت على وهب بصنعاء، فأطعمني من جَوزةٍ في داره فقلت له: وددت أنك لم تكن كتبت في القَدَر كتاباً، فقال: وأنا والله وددت ذلك». وقال حماد بن سلمة: «ثنا أبو سنان، سمعت وهب بن منبه يقول: كنت أقول بالقدَر حتى قرأت بضعاً وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء: من جعل شيئاً من المشيئة إلى نفسه فقد كفر، فتركت قولي»[٢].

إلى هنا لا نجد إلا الثناء الجميل على الرجل، بل والمقام الرفيع الذي ناله بالعبادة والعلم والأخلاق والقضاء وغير ذلك، مع مبالغات عديدة في هذا الشأن. كما أن الحديث عن اطلاعه الواسع على كتب الأنبياء - بزعمه - يثير الشك في النفس ويطرح تساؤلاً مشروعاً عن مدى تأثّره بتلك الكتب الموروثة عن أهل الكتاب، وإقحامها في ما قدّمه ورواه للمسلمين.

١. سورة الزخرف: ٥٥.

٢. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٧، ص ٤٩٧-٤٩٩

وعلى كل حال، فإن القوم قد أخذوا عن وهب من العلوم والمعارف ما شاؤوا، فهل كان تقييمهم له صحيحاً؟

كتب خير الدين الزِّركلي[١] عن وهب بن منبه فقال: (كثيرُ الأخبار عن الكتب القديمة، عالمٌ بأساطير الأولين ولا سيما الإسرائيليات. يُعدّ في التابعين، أصله من أبناء الفرس الذين بَعث بهم كسرى إلى اليمن، وأمه من حِمير. ولد ومات بصنعاء وولاه عمر بن عبدالعزيز قضاءها. وكان يقول: سمعت اثنين وتسعين كتاباً كلها أُنزلت من السماء، اثنان وسبعون منها في الكنائس، وعشرون في أيدي الناس لا يعلمها إلا قليل..... وفي «طبقات الخواص» أنه صحب ابن عباس ولازمه ثلاث عشرة سنة. من كتبه «ذِكْر الملوك المتوَّجة مِن حِمْيَر وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم». رآه ابن خلكان في مجلد واحد، وقال: هو من الكتب المفيدة. وله «قصص الأنبياء» و «قصص الأخيار» ذكرهما صاحب كشف الظنون[٢])[٣].

وبذا بدأت تتبدّى بعض الحقيقة.. فالرجل من المهتمين بكتب أهل الكتاب وبالقصص، وإذا أضفنا إلى ذلك أنه صحب بعض الصحابة، وصحبه بعض تابعي التابعين، سنعرف كيف قام بإقحام رواياته وقصصه وآرائه وخلفيتِه الثقافية والعرقية والعقدية في ما ورثه المسلمون عنه، تارة بعنوان مروياته

١. كاتب ومؤرخ وشاعر «ت١٣٩٦هـ». تنقل الزِّرِكْلي في عدد من البلاد العربية وكان يهاجم الاستعمار الفرنسي بشعره، ويتعاون مع المجاهدين في مقاومة الفرنسيين، فحُكم عليهِ بالإعدام أكثر من مرّة. وله عدة مؤلفات من أشهرها موسوعة «الأعلام» في ٨ مجلدات.

٢. أي موسوعة «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة «ت١٠٦٨هـ».

٣. الزركلي: الأعلام، ج ٨ ، ص١٢٥.

عن الصحابة، وأخرى بعنوان منقولاته عن كتب أهل الكتاب، وثالثه من خلال اهتماماته القصصية.

وقد أزاح العلامة الشيخ محمد رشيد رضا[١] الستار في مقال له في مجلة «المنار» وبشكل واضح عن الدور الذي لعبه ابن منبه في حقن التراث الإسلامي بجراثيم الروايات الإسرائيلية، وعن الخدمة التي قدّمها الأمويون له حتى صار مرجعاً للمسلمين في شؤون دينهم وعلَماً من أعلامهم تحفّ به صنوف الثناء والمدائح. قال: (ضعفه عمر بن الفلاس، واغترَّ به الجمهور؛ لأن جل روايته للإسرائيليات، ولم يكونوا يدققون النظر في نقدها تدقيقهم في نقد روايات أصول الدين وفروعه، وقلما كان أحد من رجال الجرح والتعديل يعرف شيئًا من كتب أهل الكتاب ليصح حكمه على الرواة عنها، على أن البخاري «رحمه الله تعالى» لم يَروِ عنه حديثًا في صحيحه مرفوعًا ولا قصة إسرائيلية، ولا مسألة علمية، وإنما روى عنه أثرًا واحدًا، وهو ما حدّث به عن أخيه همام عن أبي هريرة من قوله: ليس أحدٌ أكثر مني حديثًا إلا عبد الله بن عمرو بن العاص، فإنه كان يكتب ولا أكتب. ولم ينفرد به وهب بل تابعه عليه معمر عن همام، فلا يصح أن يعد وهب من رواة صحيح البخاري الذين ائتمنهم على سنة الرسول «صلى الله عليه وسلم». هذا، وإن ما نقلوه عنه من الرجوع عن عقيدة القدر لرمي له بعقيدة الجبر المحض وهي شر منها، فكانوا بذلك كمن يغسل الدم بالبول، وهو مع ذلك يدل على كذبه فيما يرويه عن كتب الأنبياء

١. محمد رشيد رضا «ت ١٣٥٤هـ» عالم دين ومفكر إسلامي وأديب من لبنان. يُعدّ من رواد الإصلاح الإسلامي في القرن الرابع عشر الهجري، وقد تتلمذ على يد الشيخ محمد عبده، بما يمثّل الامتداد الديني والفكري والثقافي لحركة السيد جمال الدين الأفغاني. أسس مجلة المنار، وله عدة مؤلفات.

«عليهم السلام»، فقد ذكروا عنه أنه قال: كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتاباً من كتب الأنبياء في كلها (من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر) فتركت قولي. اهـ. مِن تهذيب التهذيب ومقدّمة فتح الباري للحافظ ابن حجر.)[١].

ثم علّق الشيخ محمد رشيد رضا على ما سبق فاضحاً كذب هذه المقولة ومضمون ما رواه عن الكتب المزعومة للأنبياء من عدة جهات ونذكرها من خلال النقاط التالية:

أولاً: إن كتب الأنبياء التي بأيدي أهل الكتاب لا تبلغ هذا العدد.

ثانياً: كُتب أهل الكتاب لا تشتمل على هذا، ولا يُعرَف لهم نقل له في مجادلاتهم في هذه المسألة.

ثالثاً: إن هذا القول باطل قطعاً بدليل الآيات الكثيرة في القرآن، المثبتة لمشيئة الإنسان، كقوله «عز وجل»: ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾[٢] ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ**﴾[٣] ﴿**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ**﴾[٤] ﴿**فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ**﴾[٥] ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**﴾[٦]، وفي معنى الآيات أحاديثُ

1.www.minhajsalafi.com/kutub/gwame3/Web/6947/030.html

والموقع يحتوي على مجلة المنار، ج ٢٦، ص٧١٦.

٢. سورة الكهف: ٢٩.

٣. سورة التكوير: ٢٨.

٤. سورة فصلت: ٤٠.

٥. سورة النور: ٦٢.

٦. سورة المدثر: ٣٧.

كثيرة أيضاً، ولا يناف في هذه الآيات قوله «عز وجل»: ﴿**وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ**﴾[١] بل يقرّرها ويؤكدها إذ هو صريح في أن الله «عز وجل» شاء أن يكون للبشر مشيئة خلقها لهم فيما خلقه من صفاتهم وغرائزهم وقواهم.

رابعاً: إن وهباً قد انتقل من بدعة القدرية إلى بدعة الجبرية التي هي شر منها وأضر، وأدهى وأمر، فهي التي أماتت قلوب المسلمين وهممهم التي فتحوا بها البلاد، ودكوا بها الأطواد، وأرضتهم بالذل والهوان، وتعبدتهم للظلمة منهم، ثم للمستعبدين لهم من غيرهم.

وأعقب ملاحظاته السابقة بقوله: (هذا وإنّ عمدَتنا في جرح رواية وهب ما جاء به من الإسرائيليات التي نقطع ببطلانها وهو آفتها كروايات كعب فيها، وقد شوَّها تفسير كتاب الله بما بثَّا فيها من الخرافات، وبما أدخلا فيها من العقائد الباطلة، ومن تأييد عقائد أهل الكتاب والشهادة لكتبهم التي بين أيديهم بالصحة).

واستشهد بواحدة من مرويات وهب بن منبه لتأييد الحقيقة السابقة فقال: (ونكتفي في هذه - وهي شرُّها - بما نقله الحافظ ابن كثير عنه في تفسير قوله «عز وجل»: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللّهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[٢] قال: قال وهب بن منبه: «إن التوراة والإنجيل كما أنزلهما الله «تعالى»، لم يُغيَّر منهما حرف، ولكنهم

١. سورة التكوير: ٢٩.

٢. سورة آل عمران: ٧٨.

يُضلّون بالتحريف والتأويل، وكتب كانوا يكتبونها من عند أنفسهم: ﴿**وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ**﴾ فأما كتب الله فإنها محفوظة ولا تُحوَّل»).

ثم ذكر تعليق ابن كثير على الرواية السابقة، قال: (قال ابن كثير: فإنّ عنى وهب ما بأيديهم من ذلك فلا شك أنه قد دخلها التبديل والتحريف والزيادة والنقص، وأما تعريب ذلك المشاهَد بالعربية ففيه خطأ كبير وزيادات كثيرة، ونقصان ووهم فاحش، وهو من باب تفسير المعرّب المعبَّر، وفهْمُ كثير منهم - بل أكثرهم بل جمعيهم - فاسد. وأما إن عنى كتب الله التي هي كُتبه مِن عنده، فتلك كما قال محفوظة لم يدخلها شيء).

وأتْبَع العلامة محمد رشيد رضا ذلك برأيه مُغلِقاً الباب أمام أي تبرير يمكن أن يُقدَّم لصالح وهب بن منبه، فقال: (إن ابن كثير قد علم من حال كتب أهل الكتاب ما لم يكن يعلم أئمة الجرح والتعديل ممن فوقه، كأحمد وابن معين والبخاري ومسلم الذين لم يروا هذه الكتب كما رآها، ولم يطَّلعوا على ما بيّنه المطَّلعون عليها قبله من تحريفها وأغلاطها ومخالفتها لما نقطع به من أصول الإيمان بالله ورسوله إلخ، كابن حزم وابن تيمية أستاذه، ولو علم أولئك ما علمه هؤلاء من ذلك لجزموا بأن وهباً كان كذاباً غاشّاً للمسلمين بصلاحه، ولم يقبلوا له رواية قط، كما كانوا يجزمون بجرح مَن يقول في الدين بدون ما زعمه من كون التوراة والإنجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب كما أنزلهما الله «عز وجل» لم يتغير منهما حرف واحد. وإن تحريفهم لهما إنما كان في تأويلهما، وفي نسبة بعض المسائل التي ليست فيهما إليهما، أي كما

يفعل المبتدعون في الإسلام والمتعصبون للمذاهب في تأويل القرآن والحديث لإثبات بدعهم ومذاهبهم، وكما أراد ابن كثير عفا الله عنه أن يلتمس لوهب تأويلات كتأويلات متعصبي المذاهب لمشايخهم، ولو نقل هذا القول عن جهمي أو معتزلي أو شيعي لقطع هو وأمثاله بخروجه به من الملة، فهذا التأويل بديهي البطلان؛ لأن كل أحد يجزم بأن وهباً يتكلم عن التوراة والإنجيل الموجودين في الأرض لا عن اللوح المحفوظ، ولا عن علم الله «عز وجل»، وعن كلامه الذي هو صفة من صفاته).

وختم العلامة محمد رشيد رضا مقالَه بعقد مقارنة بين حجم المروي في تفسير ابن كثير من الإسرائيليات والمسيحيات وبين غيره من الكتب فقال: (ولو أردنا أن نجمع من تفسير ابن كثير وحده ما فيه من الإسرائيليات وغيرها عن وهب نفسه وعن صنوه في روايتِها، كعب الأحبار وننتقدها، لألَّفنا في ذلك كتاباً خاصاً، مع العلم بأن ابن كثير رحمه الله تعالى يحترس مما لم يحترس غيره منها. وأما إذا رجعنا إلى كتب القصاصين والمفسرين الذين جمعوا كل ما سمعوا فإننا نجد هنالك العجب العجاب والذي يقال فيه: إنه لا تُلبس عليه ثياب، ويا حسرتا على من يظنون أن سنة النبي المختار، تزول الثقة بها بجرح وهب وكعب الأحبار)[1].

وبرأيي فإنَّ ما ختم به العلامة محمد رشيد رضا يوضّح حجم الكارثة التي ألحقها وهب بن منبه وكعب الأحبار وسواهما ممن أقحموا القصص

1. www.minhajsalafi.com/kutub/gwame3/Web/6947/030.html

والموقع يحتوي على مجلة المنار، ج ٢٦، ص٧١٦.

ومرويات أهل الكتاب وأباطيلهم وموروثات الثقافات المختلفة باسم تفسير القرآن والحديث النبوي ومرويات الصحابة مما لا يحتاج معه إلى مزيد من الشرح والبيان.

• قراءة في مصادر أهل الكتاب:

تبيّن لنا من بحوث سابقة أنّ مُسلِمة أهل الكتاب ككعب الأحبار ووهب بن منبه وأخيه همام لم يكونوا صادقين في ما ادّعوه من نقل لما جاء في التوراة وغيرها من مصادر أهل الكتاب. وهذا ما سيتكشّف معنا أيضاً حين البحث عن حقيقة شخصية آصف بن برخيا في تراث أهل الكتاب.

فقد ورد اسم هذه الشخصية في الأصحاح ٦ من سِفر أخبار الأيام الأوّل من العهد القديم «التنخ» عند ذِكر أسماء «المغنّين» أي قرّاء الأدعية والتواشيح والمنشدين على عهد النبي داود «عليه السلام»: (وَهؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ أَقَامَهُمْ دَاوُدُ عَلَى الْغِنَاءِ فِي بَيْتِ الرَّبِّ بَعْدَمَا اسْتَقَرَّ التَّابُوتُ) أي وضع التابوت في المكان المخصص له في المعبد وسيأتي ذكر ذلك في النص اللاحق (وَكَانُوا يَخْدِمُونَ أَمَامَ مَسْكَنِ خَيْمَةِ الاجْتِمَاعِ بِالْغِنَاءِ إِلَى أَنْ بَنَى سُلَيْمَانُ بَيْتَ الرَّبِّ فِي أُورُشَلِيمَ، فَقَامُوا عَلَى خِدْمَتِهِمْ حَسَبَ تَرْتِيبِهِمْ. وَهؤُلاَءِ هُمُ الْقَائِمُونَ مَعَ بَنِيهِمْ..... آسَافُ بْنُ بَرَخْيَا بْنِ شِمْعِي بْنِ مِيخَائِيلَ بْنِ بَعَسِيَا بْنِ مَلْكِيَا بْنِ أَثْنَايَ بْنِ زَارَحَ بْنِ عَدَايَا بْنِ أَيْثَانَ بْنِ زِمَّةَ بْنِ شِمْعِي بْنِ يَحَثَ بْنِ جَرْشُومَ بْنِ لاَوِي)[1].

وورد اسمه مجدداً في مشهد آخر، وهو وضع التابوت في مكانه في المعبد

١. الكتاب المقدس: سفر أخبار الأيام الأول، الأصحاح ٦، ٣١-٤٣.

أيام النبي داود «عليه السلام» في مورد آخر من سفر أخبار الأيام الأول: (وَعَمِلَ دَاوُدُ لِنَفْسِه بُيُوتًا فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ، وَأَعَدَّ مَكَانًا لِتَابُوتِ اللهِ وَنَصَبَ لَهُ خَيْمَةً..... وَحَمَلَ بَنُو اللاَّوِيِّينَ تَابُوتَ اللهِ كَمَا أَمَرَ مُوسَى حَسَبَ كَلاَمِ الرَّبِّ بِالْعِصِيِّ عَلَى أَكْتَافِهِمْ. وَأَمَرَ دَاوُدُ رُؤَسَاءَ اللاَّوِيِّينَ أَنْ يُوقِفُوا إِخْوَتَهُمُ الْمُغَنِّينَ بِآلاَتِ غِنَاءٍ، بِعِيدَانٍ وَرَبَابٍ وَصُنُوجٍ[1]، مُسَمِّعِينَ بِرَفْعِ الصَّوْتِ بِفَرَحٍ. فَأَوْقَفَ اللاَّوِيُّونَ هَيْمَانَ بْنَ يُوئِيلَ، وَمِنْ إِخْوَتِهِ آسَافَ بْنَ بَرَخْيَا.... وَالْمُغَنُّونَ: هَيْمَانُ وَآسَافُ وَإِيثَانُ بِصُنُوجِ نُحَاسٍ لِلتَّسْمِيعِ..... وَجَعَلَ أَمَامَ تَابُوتِ الرَّبِّ مِنَ اللاَّوِيِّينَ خُدَّامًا، وَلأَجْلِ التَّذْكِيرِ وَالشُّكْرِ وَتَسْبِيحِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ: آسَافَ الرَّأْسَ وَزَكَرِيَّا ثَانِيَهُ، وَيَعِيئِيلَ وَشَمِيرَامُوثَ وَيَحِيئِيلَ وَمَتَّثْيَا وَأَلِيآبَ وَبَنَايَا وَعُوبِيدَ أَدُومَ وَيَعِيئِيلَ بِآلاَتِ رَبَابٍ وَعِيدَانٍ. وَكَانَ آسَافُ يُصَوِّتُ بِالصُّنُوجِ... حِينَئِذٍ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ أَوَّلاً جَعَلَ دَاوُدُ يَحْمَدُ الرَّبَّ بِيَدِ آسَافَ وَإِخْوَتِهِ: «احْمَدُوا الرَّبَّ. ادْعُوا بِاسْمِهِ. أَخْبِرُوا فِي الشُّعُوبِ بِأَعْمَالِهِ. غَنُّوا لَهُ. تَرَنَّمُوا لَهُ. تَحَادَثُوا بِكُلِّ عَجَائِبِهِ. افْتَخِرُوا بِاسْمِ قُدْسِهِ. تَفْرَحُ قُلُوبُ الَّذِينَ يَلْتَمِسُونَ الرَّبَّ. اطْلُبُوا الرَّبَّ وَعِزَّهُ. الْتَمِسُوا وَجْهَهُ دَائِمًا)[2].

وفي الأصحاح ٢٥ منه: (وَأَفْرَزَ دَاوُدُ وَرُؤَسَاءُ الْجَيْشِ لِلْخِدْمَةِ بَنِي آسَافَ وَهَيْمَانَ وَيَدُوثُونَ الْمُتَنَبِّئِينَ بِالْعِيدَانِ وَالرَّبَابِ وَالصُّنُوجِ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ مِنْ رِجَالِ الْعَمَلِ حَسَبَ خِدْمَتِهِمْ. مِنْ بَنِي آسَافَ: زَكُّورُ وَيُوسُفُ وَنَثَنْيَا وَأَشَرْئِيلَةُ. بَنُو آسَافَ تَحْتَ يَدِ آسَافَ الْمُتَنَبِّئِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ.... كُلُّ هؤُلاَءِ تَحْتَ يَدِ أَبِيهِمْ

١. جاء في معاجم اللغة أن الصَّنْج: صَفائحُ صُفْرٍ صَغيرةٌ مستديرةٌ تُثَبَّتُ في أطرافِ الدُّفِّ أو في أَصابع الراقصة يُدقُّ بها عند الطَّرَب.

٢. الكتاب المقدس: سفر أخبار الأيام الأول، الأصحاح ١٥-١٦.

لأَجْلِ غِنَاءِ بَيْتِ الرَّبِّ بِالصُّنُوجِ وَالرَّبَابِ وَالْعِيدَانِ لِخِدْمَةِ بَيْتِ اللهِ، تَحْتَ يَدِ الْمَلِكِ وَآسَافَ وَيَدُوثُونَ وَهَيْمَانَ. وَكَانَ عَدَدُهُمْ مَعَ إِخْوَتِهِمِ الْمُتَعَلِّمِينَ الْغِنَاءَ لِلرَّبِّ، كُلِّ الْخَبِيرِينَ مِئَتَيْنِ وَثَمَانِيَةً وَثَمَانِينَ)[١].

هذا المشهد يعبّر عما نراه اليوم في بعض الصلوات والقدّاسات التي تُقام في أماكن العبادة المخصصة لليهود والنصارى، وهو ما يختلف عن أسلوب العبادة في الإسلام. وفي الواقع أن اليهود يعتمدون في صلواتهم التي تقام في كنسهم على الموسيقى.

فعلى موقع My Jewish Learning مقال حول هذا العنوان، وفيه يقول الكاتب ما ترجمته:

(تعتمد الصلاة اليهودية بشكل كبير على الموسيقى، ويعود هذا على الأقل إلى زمان الهيكل الأول في القدس، وكان اللاويون هم المسؤولون عن الغناء والضرب على الآلات الموسيقية كجزء من خدمة الهيكل والتي كانت تتمركز حول المراسيم الخاصة بتقديم القرابين. ولكن مع نفي الشعب اليهودي عام ٧٠م، تحوّل تركيز العبادة اليهودية من القرابين إلى تلاوة النصوص).

Jewish prayer relies heavily on music. Dating back at least to the times of the First Temple in Jerusalem, Levites had the responsibility of singing and playing instruments as part of the Temple service, which centered around sacrificial practices. With the exile of the Jewish people in 70 C.E., the focus of Jew-

١. الكتاب المقدس: سفر أخبار الأيام الأول، الأصحاح ٢٥، ١-٧.

ish worship shifted from sacrifice to the recitation of texts[١].

وهكذا نجد على موقع Ask Moses إجابة على التساؤل التالي: (هل تشتمل الصلاة في الكنيس على الموسيقى والغناء؟). والإجابة:

(هناك Nigunim) وهي نفس كلمة «أنغام» بالعربية («أغاني» الفرح، وNigunim الحزن، ولكل منهما أوقات خاصة ومحددة، ومفهوم كل أغنية يعكس ذلك).

Does synagogue prayer include music and singing?

There are Nigunim (songs) of joy, and nigunim of bitterness. Both of these, joy and bitterness, have known and fixed times, each one in its own proper time. However, in general, the concept of song is revelation of the essence."[٢]

• **مفهوم النبوة**:

ولكن يستوقفنا هنا ما جاء في النص السابق من وصف «آساف» بأنه من (الْمُتَنَبِّئِينَ).. فهل هذا يعني أنه كان نبياً؟

بالعودة إلى بداية الكتاب في البحث الوارد تحت عنوان «مسائل مهمة» سندرك أن مفهوم النبوة لدى الكتابيين لا يطابق مفهومه عند المسلمين، وأنه يشمل الأفراد القادرين على التنبّوء والإخبار عن المستقبل ولو عن طريق

1. www.myjewishlearning.com/article/synagogue-religious-music

2.www.askmoses.com/en/article/287,2067186/Does-synagogue-prayer-include-music-and-singing.html

الرؤى أو بعض الوسائل، فيشمل العرّافين مثلاً وغيرهم، كما يشمل الأفراد الملهَمين بنحو من الإلهام، دون أن يكونوا من «الأنبياء» وفق المفهوم الإسلامي.

ومن هنا حين وُصف «آساف» بأنه من (الْمُتَنَبِّئِينَ) نبّه القمص تادرس يعقوب في شرحه للعبارة إلى دلالة هذه الكلمة فقال: (التسبيح لله هنا دُعي تَنَبُّؤاً)[١].

وكذلك قال القس أنطونيوس فكري: (المتنبئين = كانت تسميتهم هكذا لأنهم بتسبيحهم علّموا الشعب التسبيح والشكر والحمد والصلاة. والتسبيح هو موهبة من الله)[٢] أي بلحاظ أنها كالإلهام منه.

الأمر الآخر الذي يجب مناقشته هنا حقيقة كون «آصف بن برخيا» وصياً للنبي/الملك سليمان كما جاء في بعض الروايات الإسلامية.

عندما نعود إلى «التنخ» ومصادر يهودية أخرى، سنجد أن سليمان قد نصب ابنه «رَحُبْعَام» وصياً وملكاً من بعده، ولا علاقة لآساف أو آصف بذلك لا من قريب ولا بعيد.

في سفر الملوك الأول: (وَكَانَت الأَيَّامُ الَّتِي مَلَكَ فِيهَا سُلَيْمَانُ فِي أُورُشَلِيمَ عَلَى كُلِّ إِسْرَائِيلَ أَرْبَعِينَ سَنَةً. ثُمَّ اضْطَجَعَ سُلَيْمَانُ مَعَ آبَائِهِ وَدُفِنَ فِي مَدِينَةِ

1.st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Tadros-Yacoub-Malaty/13-Sefr-Akhbar-El-Ayam-El-Awal/Tafseer-Sefr-Akhbar-El-Ayam-El-Awal__01-Chapter-25.html

2.st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/13-Sefr-Akhbar-El-Ayam-El-Awal/Tafseer-Sefr-Akhbar-El-Ayam-El-Awal__01-Chapter-25.html

دَاوُدَ أَبِيهِ، وَمَلَكَ رَحُبْعَامُ ابْنُهُ عِوَضًا عَنْهُ)[١]. وفيه أيضاً: (وَأَمَّا رَحُبْعَامُ بْنُ سُلَيْمَانَ فَمَلَكَ فِي يَهُوذَا. وَكَانَ رَحُبْعَامُ ابْنَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً فِي أُورُشَلِيمَ)[٢].

بالطبع، كانت بوادر التمرّد على اختيار سليمان لابنه موجودة على عهده، وبعد وفاته لم يُبايع «رحُبعام» ملكاً إلا سبطا يهوذا وبنيامين، اللذان كانا يقيمان في أورشليم وما حولها إلى جنوب فلسطين، ورفض الأسباط العشرة الآخرون مبايعته، فانقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين، مملكة إسرائيل في الشمال، وكان أول ملوكهم «يَرُبْعام بن نباط» وهو ليس من أسرة داود، وعاصمتها السامرة، وكانت هذه المملكة هي الأكبر من حيث المساحة والعدد. وقد أشرك يربعام وصنع أوثاناً ومعابد لها، ودعا بني إسرائيل إلى عبادتها بدلاً من الذهاب إلى أورشليم، فأجابوه، ودامت دولتهم ٢٥٠ سنة وانتهت سنة ٧٢١ قبل الميلاد حينما غزاهم سرجون ملك آشور واستولى على السامرة وسبَى الأسباط وأجلى اليهود إلى ما وراء نهر الفرات وبذلك انتهت هذه الدولة ولم تقم لها قائمة.

والمملكة الأخرى هي مملكة يهوذا في الجنوب، والتي حكمها رحبعام بن سليمان وعاصمتها أورشليم، وقد استمرت أكثر من أختها إسرائيل وتعرضت لغزوات من الشمال والجنوب، وكان آخرها على يد نبوخذ نصر ملك بابل الذي غزاها سنة ٦٠٦ قبل الميلاد، وتغلب عليها ودفعت له الجزية.

---

١. الكتاب المقدس: سِفر الملوك الأول، الأصحاح ١١، ٤٢-٤٣.

٢. الكتاب المقدس: سِفر الملوك الأول، الأصحاح ١٤، ٢١.

ثم ثارت مرة أُخرى فغزاها سنة ٥٩٣ فسبى من شعبها عشرة الآف من بينهم أعيانها وأشرافها وكنوز الهيكل، وثارت عليه سنة ٥٩٣ قبل الميلاد فأتاها هذه المرة سنة ٥٨٦ قبل الميلاد وهدم أسوارها وأحرق الهيكل وسبى اليهود إلى بابل.

• **تفسير الحدث**:

أما الحديث عن كيفية تمكّن هذه الشخصية من الإتيان بعرش ملكة سبأ في أقل من لحظة ووصفه في القرآن الكريم بأنه: ﴿**الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ**﴾ فقد اختلف تفسيره في الروايات وأقوال المفسّرين، وذلك كالتالي:

قال العلامة الطباطبائي: (وقد اعتُني بشأن علمه أيضاً إذ نُكّر فقيل: عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ، أي علم لا يحتمل اللفظُ وصفَه. والمراد بالكتاب الذي هو مبدأ هذا العلم العجيب إما جنس الكتب السماوية أو اللوح المحفوظ. والعلم الذي أخذه هذا العالم منه كان علماً يسهّل له الوصول إلى هذه البُغية. وقد ذكر المفسرون أنه كان يعلم:

- اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب
- وربما ذكر بعضهم أن ذلك الاسم هو الحي القيّوم
- وقيل ذو الجلال والإكرام
- وقيل الله الرحمن
- وقيل هو بالعبرانية آهياً شراهياً
- وقيل إنه دعا بقوله يا إلهنا وإله كل شيء إلهاً واحداً لا إله إلا أنت إيتني بعرشها.

إلى غير ذلك مما قيل). ثم تحدّث العلامة عن أمرين لهما علاقة بما سبق، الأول منهما متعلّق بحقيقة الاسم الأعظم، قال: (من المحال أن يكون الاسم الأعظم الذي له التصّرف في كل شيء من قبيل الألفاظ ولا المفاهيم التي تدل عليها وتكشف عنها الألفاظ، بل إنْ كان هناك اسم له هذا الشأن أو بعض هذا الشأن، فهو حقيقة الاسم الخارجية التي ينطبق عليها مفهوم اللفظ نوعاً من الانطباق، وهي الاسم حقيقة واللفظ الدال عليها اسم الاسم).

الأمر الآخر الذي تحدّث عنه العلامة الطباطبائي هو كيفية تحقق ذلك الأمر العجيب، قال: (ولم يرد في لفظ الآية نبأ من هذا الاسم الذي ذكروه، بل الذي تتضمنه الآية أنه كان عنده علم من الكتاب، وأنه قال أنا آتيك به، ومن المعلوم مع ذلك أن الفعلَ فعلُ الله حقيقة. وبذلك كله يتحصّل أنه كان له مِن العلم بالله والارتباط به ما إذا سأل ربّه شيئاً بالتوجه إليه لم يتخلّف عن الاستجابة. وإن شئت فقل: إذا شاءه الله «سبحانه». ويتبين مما تقدم أيضاً أن هذا العلم لم يكن من سنخ العلوم الفكرية التي تقبل الاكتساب والتعلم)[١].

وهكذا أكّد الفخر الرازي على وجود الاختلاف بين المفسرين، قال: (اختلفوا في الكتاب، فقيل اللوح المحفوظ، والذي عنده علم منه جبريل «عليه السلام». وقيل كتاب سليمان، أو كتاب بعض الأنبياء)[٢].

أما الطبري فقد جاء بعدة احتمالات ضمن عرض الأسماء المحتملة: (عن الزهريّ، قال: دعا الذي عنده علم من الكتاب: يا إلهنا وإله كلّ شيء إلهاً

١. الطباطبائي: تفسير الميزان، ج ١٥، ص ٣٦٣.

٢. الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ١٢، ص ٣٣.

واحداً، لا إله إلا أنت، ائتني بعرشها، قال: فمثل بين يديه) وهذا يعني أن الأمر تحقّق من خلال الدعاء من قِبَل الرجل والإجابة الإلهية.

الاحتمال الثاني: (عن قَتادة ﴿**قالَ الَّذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ**﴾ قال: رجل من بني آدم أحسبه قال: من بني إسرائيل، كان يعلم اسم الله الذي إذا دُعي به أجاب).

الاحتمال الثالث: (قال ابن زيد: .... وخرج يومئذٍ رجل عابد في جزيرة من البحر، فلما سمع العفريت ﴿**قالَ أنا آتيكَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَرْتَدَّ إلَيْكَ طَرْفُكَ**﴾ قال: ثم دعا باسمٍ من أسماء الله، فإذا هو يُحمل بين عينيه)[1].

أما ابن عاشور فقال: (أي عنده علم مكتسب من الكتب، أي من الحكمة، وليس المراد بالكتاب التوراة)[2].

ومن المحتمل أن يكون المراد بهذه العبارة القرآنية أن هذا الشخص كانت لديه معرفة بسر من أسرار الطبيعة، أو بعبارة أخرى معرفة بقانون من قوانين الفيزياء، بحيث يكون المراد بالكتاب هو كتاب التكوين، أي القوانين التي جعلها الله كامنة في هذا الوجود، ومن خلالها تنتظم الأمور، ومن خلالها يمكن للإنسان أن يخترع الأدوات والأجهزة ووسائل النقل والمواصلات وغير ذلك.

واستعمال كلمة الكتاب في هذا المعنى نجده في قوله «تعالى»: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي**

١. الطبري: جامع البيان، ج٩، ص ٥٢٣.

٢. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج١٩، ص ٢٧١.



الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[١]، وقوله «تعالى»: **﴿وَإِن مَّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾**[٢].

١. سورة الأنعام:٣٨.

٢. سورة الإسراء:٥٨.

فلولا تلك القوانين لما أمكن تحليق طائرة ولا تسيير مركبة ولا تشغيل هاتف ولا بناء حائط ولا تبليط شارع ولا أي شيء آخر. وقد استخدم هذا الشخص ذلك القانون فحقق من خلاله ما حقّق من أمر ما زال الإنسان عاجزاً عن تحقيقه على الرغم من كل التطور العلمي والصناعي الذي نشهده.

وقد تحدث د. يحيى المحجري في كتابه «آيات قرآنية في مشكاة العلم» حول احتمال علاقة «فيزياء الكم» بكيفية نقل العرش، قال: (كيف يتمكن مخلوق من إحضار عرش ملكة سبأ في ذلك العصر من على بعد آلاف الكيلو مترات في جزء من ثانية أي قبل أن يرتد إلى سليمان طرفه؟ ولكن العلم الحديث يخبرنا بأن هذا لا يتحتم أن يكون سحراً. فحدوثه ممكن من الناحية العلمية أو على الأقل من الناحية النظرية بالنسبة لمقدرتنا في القرن العشرين.

أما كيف يَحدُث ذلك فهذا هو موضوعنا. الطاقة والمادة صورتان مختلفتان لشيءٍ واحد، فالمادة يمكن أن تتحول إلى طاقة والطاقة إلى مادة وذلك حسب المعادلة المشهورة، وقد نجح الإنسان في تحويل المادة إلى طاقة وذلك في المفاعلات الذرية التي تولد لنا الكهرباء ولو أن تحكمه في هذا التحويل لا يزال يمر بأدوار تحسين وتطوير، وكذلك فقد نجح الإنسان – ولو بدرجة أقل بكثير – من تحويل الطاقة إلى مادة وذلك في معجلات الجسيمات Particle Accelerator ولو أن ذلك ما زال يتم حتى الآن على مستوى الجسيمات. فتحوّل المادة إلى طاقة والطاقة إلى مادة أمر ممكن علمياً وعملياً فالمادة والطاقة قرينان، ولا يعطل حدوث هذا التحول على نطاق واسع إلا صعوبة حدوثه والتحكم فيه تحت الظروف والإمكانيات العلمية والعملية الحالية، ولا شك أن التوصل إلى الطرق

العلمية والوسائل العملية المناسبة لتحويل الطاقة إلى مادة والمادة إلى طاقة في سهولة ويسر يستدعي تقدماً علمياً وفنياً هائلين.

فمستوى مقدرتنا العلمية والعملية حاليا في هذا الصدد ليس إلا كمستوى طفل يتعلم القراءة، فإذا تمكن الإنسان في يوم من الأيام من التحويل السهل الميسور بين المادة والطاقة فسوف ينتج عن ذلك تغيرات جذرية بل وثورات ضخمة في نمط الحياة اليومي وأحد الأسباب أن الطاقة ممكن إرسالها بسرعة الضوء على موجات ميكرونية إلى أي مكان نريد، ثم نعود فنحولها إلى مادة! وبذلك نستطيع أن نرسل أي جهاز أو حتى منزلاً بأكمله إلى أي بقعة نختارها على الأرض أو حتى على القمر أو المريخ في خلال ثوان أو دقائق معدودة. والصعوبة الأساسية التي يراها الفيزيائيون لتحقيق هذا الحلم هي في ترتيب جزئيات أو ذرات المادة في الصورة الأصلية تماماً، كل ذرة في مكانها الأول الذي شغلته قبل تحويلها إلى طاقة لتقوم بوظيفتها الأصلية. وهناك صعوبة أخرى هامة يعاني منها العلم الآن وهي كفاءة والتقاط الموجات الكهرومغناطيسية الحالية والتي لاتزيد على ٦٠٪ وذلك لتبدد أكثرها في الجو.

كل هذا كان عرضاً سريعاً لموقف العلم وإمكانياته الحالية في تحويل المادة إلى طاقة والعكس. فلنعد الآن لموضوع نقل عرش الملكة بلقيس، فالتفسير المنطقي لما قام به الذي عنده علم من الكتاب – سواء أكان إنسي أو جني – حسب علمنا الحالي أنه قام أولا بتحويل عرش ملكة سبأ إلى نوع من الطاقة ليس من الضروري أن يكون في صورة طاقة حرارية مثل الطاقة التي نحصل عليها من المفاعلات الذرية الحالية ذات الكفاءة المنخفضة، ولكن طاقة تشبه الطاقة

الكهربائية أو الضوئية يمكن إرسالها بواسطة الموجات الكهرومغناطيسية. والخطوة الثانية هي أنه قام بإرسال هذه الطاقة من سبأ إلى ملك سليمان، ولأن سرعة انتشار الموجات الكهرومغناطيسية هي نفس سرعة انتشار الضوء أي ٣٠٠,٠٠٠ كم - ثانية، فزمن وصولها عند سليمان ثلاثة آلاف كيلومتراً.. والخطوة الثالثة والأخيرة أنه حوّل هذه الطاقة عند وصولها إلى مادة مرة أخرى في نفس الصورة التي كانت عليها أي أن كل جزيء وكل ذرة رجعت إلى مكانها الأول!

إن إنسان القرن العشرين ليعجز عن القيام بما قام به هذا الذي عنده علم من الكتاب منذ أكثر من ألفي عام. فمقدرة الإنسان الحالي لا تتعدى محاولة تفسير فهم ما حدث. فما نجح فيه إنسان القرن العشرين هو تحويل جزء من مادة العناصر الثقيلة مثل اليورانيوم إلى طاقة بواسطة الانشطار في ذرات هذه العناصر. أما التفاعلات النووية الأخري التي تتم بتلاحم ذرات العناصر الخفيفة مثل الهيدروجين والهليوم والتي تولد طاقات الشمس والنجوم فلم يستطع الإنسان حتى الآن التحكم فيها. وحتى إذا نجح الإنسان في التحكم في طاقة التلاحم الذري، لا تزال الطاقة المتولدة في صورة بدائية يصعب إرسالها مسافات طويلة بدون تبديد الشطر الأكبر منها. فتحويل المادة إلى موجات ميكرونية يتم حاليا بالطريقة البشرية في صورة بدائية تستلزم تحويل المادة إلى طاقة حرارية ثم إلى طاقة ميكانيكية ثم إلى طاقة كهربائية وأخيرا إرسالها على موجات ميكرونية. ولهذا السبب نجد أن الشطر الأكبر من المادة التي بدأنا بها تبددت خلال هذه التحويلات ولا يبقى إلا جزء صغير نستطيع

إرساله عن طريق الموجات الميكرونية . فكفاءة تحويل المادة إلى طاقة حرارية ثم إلى طاقة ميكانية ثم إلى طاقة كهربائية لن يزيد عن عشرين في المائة ٢٠٪ حتى إذا تجاوزنا عن الضعف التكنولوجي الحالي في تحويل اليورانيوم إلى طاقة فالذي يتحول إلى طاقة هو جزء صغير من كتلة اليورانيوم أما الشطر الأكبر فيظل في الوقود النووي يشع طاقته على مدى آلاف وملايين السنيين متحولاً إلى عناصر أخرى تنتهى بالرصاص. وليس هذا بمنتهى القصد!

ففي الطرف الآخر يجب التقاط وتجميع هذه الموجات ثم إعادة تحويلها إلى طاقة ثم إلى مادة كل جزئ وكل ذرة وكل جسيم إلى نفس المكان الأصلي ، وكفاءة تجميع هذه الأشعة الآن وتحويلها إلى طاقة كهربائية في نفس الصورة التي ارسلت بها قد لا تزيد عن ٥٠ ٪ أي أنه ما تبقى من المادة الأصلية حتى الآن بعد تحويلها من مادة إلى طاقة وإرسالها عن طريق الموجات الكهرومغناطيسية المكرونية واستقبالها وتحويلها مرة أخرى إلى طاقة هو ١٠٪ وذلك قبل أن نقوم بالخطوة النهائية وهي تحويل هذه الطاقة إلى مادة.

وهذه الخطوة الأخيرة – أي تحويل هذه الطاقة إلى مادة في صورتها الأولى – هو ما يعجز عنه حتى الآن إنسان القرن العشرين ولذلك فنحن لا ندري كفاءة إتمام هذه الخطوة الأخيرة وإذا فرضنا أنه تحت أفضل الظروف تمكن الإنسان من تحويل ٥٠ ٪ من هذه الطاقة المتبقية إلى مادة فالذي سوف نحصل عليه هو أقل من ٥٪ من المادة التي بدأنا بها ومعنى ذلك أننا إذا بدأنا بعرش الملكة بلقيس وحولناه بطريقة ما إلى طاقة وأرسلنا هذه الطاقة على موجات ميكرونية، ثم استقبلنا هذه الموجات وحولناها إلى طاقة مرة أخرى أو

إلى مادة فلن نجد لدينا أكثر من ٥٪ من عرش الملكة بلقيس وأما الباقي فقد تبدد خلال هذه التحويلات العديدة نظرا للكفاءات الرديئة لهذه العمليات، وهذه الـ ٥٪ من المادة الأصلية لن تكفي لبناء جزء صغير من عرشها مثل رجل أو يد كرسي عرش الملكة .

إن الآيات القرآنية لا تحدد شخصية هذا الذي كان «عنده علم من الكتاب» هل كان إنسياً أم جنياً! وقد ذكر في كثير من التفاسير أن الذي قام بنقل عرش بلقيس هو من الإنس ويدعى آصف بن برخياء، ونحن نرجح أن الذي قام بهذا العمل هو عفريت آخر من الجن، فاحتمال وجود إنسان في هذا العصر على هذه الدرجة الرفيعة من العلم والمعرفة هو إحتمال جد ضئيل. فقد نجح هذا الجني في تحويل عرش بلقيس إلى طاقة ثم إرساله مسافة آلاف الكيلو مترات ثم إعادة تحويله إلى صورته الأصلية من مادة تماما كما كان في أقل من ثانية، أو حتى في عدة ثوان إذا اعتبرنا عرض الجني الأول الذي أبدى استعداده لإحضار العرش قبل أن يقوم سليمان «عليه السلام» من كرسيه.

فمستوى معرفة وقدرة أي من الجنيين الأول والثاني منذ نيف وألفي عام لأرفع بكثير من مستوى المعرفة والقدرة الفنية والعلمية التي وصل إليها إنسان القرن العشرين)[1].

هذا الذي ذكره بعنوان أنه ممكن نظرياً تحقق لاحقاً ولو على نطاق بسيط، فقد كتب الأستاذ موسى ديب الخوري مقالاً تحت عنوان «النقل الكوانتي للمادة» قال فيه: (هكذا، بعد أن كان النقل عن بعد مجرد فضول نظري، إذا

١. يوسف الحاج أحمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، ص٤٠٨-٤١١ نقلاً عن كتاب «آيات قرآنية في مشكاة العلم» د. يحيى المحجري.

بالنقل الكوانتي يصبح حديث العلماء التجريبيين. في عام ١٩٩٧، استطاع فريق من الفيزيائيين نقل الحالة الكوانتية لحبيبة ضوء، أي الفوتون، نقلاً كوانتياً عن بعد! وفي حزيران من عام ٢٠٠٤ تم تحقيق خطوة جديدة وهامة. فقد نجح فريقان منفصلان في النقل عن بعد لحالة كوانتية لذرة. ويحاول العلم اليوم الاقتراب من الخيال العلمي أكثر وأكثر، فهل سنرى قريباً النقل عن بعد لجزيئات ولو صغيرة؟

مصطلح النقل عن بعد Téléportation كان قد اخترع من قبل الكاتب الأمريكي «شارل فور» في بداية القرن العشرين. ثم استخدم عدة مرات من قبل كتّاب الخيال العلمي للإشارة إلى أنماط من نقل المادة، حيث تحول هذه الأخيرة أولاً إلى طاقة ثم يعاد تكوينها عند نقطة الوصول أو الهدف بعد أن تكون المادة قد نقلت عبر الفضاء. لكن في الصيرورة الكوانتية التي تم اكتشافها عام ١٩٩٢ يأخذ «النقل عن بعد» معنى مختلفاً بعض الشيء، فالأمر يتعلق هنا بنقل الحالة الكوانتية لجسيم، أو لمنظومة كوانتية أكثر تعقيداً، دون نقل فعلي للجسيم نفسه، على الرغم من أنه من المستحيل فيزيائياً معرفة الوصف الدقيق للحالة الكوانتية المتضمنة في التجربة! ويبدو للوهلة الأولى أنه من المستحيل تحقيق هذه المهمة.

فإذا كان من المستحيل معرفة الحالة الكوانتية لجسيم، فكيف يكون بالإمكان نقلها إلى مكان محدد دون نقل الجسيم الذي يتضمنها؟

مع ذلك، فإن هذه النقطة بالذات هي التي تسمح بعملية النقل عن بعد الكوانتية والتي تجعل في الوقت نفسه وجودها أمرًا مذهلاً. لقد اختار العلماء

الذين قاموا بالتجربة هذا المصطلح «النقل عن بعد» بسبب تشابهات كثيرة مع المفهوم نفسه في الخيال العلمي، فهناك ضرورة «تدمير» الحالة الأصلية لكي نعيد بناءها في مكان أبعد، الأمر الذي يعني أنه لن يوجد أبدًا أكثر من «نسخة» منها في الوقت نفسه، وهناك أيضًا المعلومة الكلاسيكية التي يجب أن تنقل بين نقطة الانطلاق ونقطة الوصول، الأمر الذي يوافق نقلاً للطاقة؛ وأخيراً، بسبب الاختلاف الكبير مع مفهوم النقل الشائع، الذي يفترض أن المرسل يعرف بالضبط نقطة الوصول، الأمر الذي ليس صحيحًا بالضرورة بالنسبة للنقل عن بعد.).

وبعد شرح علمي مطوّل قال: (ماذا بعد نقل الذرات عن بعد؟ هل سيكون من الممكن نقل الأجسام الأكثر تعقيداً؟ جزيء أو فيروس أو حتى إنسان؟ وما هي حدود النقل عن بعد؟ للإجابة عن ذلك لنعد إلى أسس النقل عن بعد كوانتياً. فلنقل الأجسام لا بد من توفر «قناة نقل عن بعد» غير مادية.

إنها منظومة من الأجسام المتشابكة. غير أن حجم الأجسام التي يمكن أن تتشابك محدود من خلال الظاهرة المسماة اللاإتساقية Décohérence، وهي ظاهرة تصف المرور من العالم الكوانتي، عالم اللامتناهي في الصغر، إلى العالم الكلاسيكي، عالم التجربة الحسية. في نهاية التسعينيات بين فريق أنطون زيغلر أن الفوليرين، وهي عبارة عن جزيئات كروية مؤلفة من نحو ستين ذرة من الكربون، يمكن أن تسلك كأجسام كوانتية. من هنا فإن خطوة واحدة فقط تفصلنا عن تشبيك الفوليرين ثم نقلها عن بعد كوانتياً. لكن مع هذا، فإن الفوليرين هي جزيئات كبيرة الحجم ومكونة من ذرات

متطابقة لا تتحرك بعضها بالنسبة للأخرى. فهي ليست نموذجية بالنسبة لمعظم الجزيئات التي تسهل تخلخلاتها الداخلية اللاإتساقية. ولكي نستطيع أن ننقل عن بعد جزيء بروتين أو فيروسًا أو كائنًا بشريًا، وهو كائن مؤلف من ألف مليار مليار مليار ذرة، فإننا سنواجه مشكلة جديدة تتمثل في كمية المعلومات التي يجب معالجتها.

ويجب أن نذكِّر أنه لم يتم حتى الآن النقل الكوانتي سوى لخاصية كوانتية واحدة مزدوجة محمولة على فوتون أو على ذرة. ولهذا يبقى نقل الأجسام المحسوسة من مجال الخيال العلمي. لكن على الرغم من أن النقل عن بعد في الخيال العلمي، وفي برامج مثل ستار تريك، حيث نرى نقلاً آنياً للمادة، أمر غير ممكن، فإن النقل الكوانتي للذرات يقترب كثيراً مما نجده في برامج الخيال العلمي من حيث الفكرة والمنهج. فالمادة تظل في مكانها، في الكاشف المصدِّر، كما يجب أن تكون موجودة أيضاً في الجانب الآخر في الكاشف المتلقي، لكن البنية المدرجة في «المادة المصدرة» تنحلُّ، بينما تكتسب «المادة المتلقية»، التي كانت في البدء بلا أي بنية، تكتسب تحديداً البنية المنقولة عن بعد. إن هذا التقسيم بين «مادة – طاقة» من جهة، و«بنية – حالة كوانتية» من جهة أخرى، كان قائماً منذ أرسطو: بما يعرف بالجوهر المادي والشكل. فالجوهر المادي لا ينقل، لكن يمكن فعلاً نقل الشكل.

توفي «آشر بيريز» أحد أعضاء الفريق الذي اقترح في عام ١٩٩٢ فكرة النقل الكوانتي للمادة، في أول كانون الثاني ٢٠٠٥، وكان يحب دائماً في مثل هذه المناسبة عند الحديث عن آفاق النقل الكوانتي للمادة ذكر إجابة قصيرة

رد بها على سؤال أحد الصحفيين حول ما إذا كان بالإمكان نقل الفكر إضافة إلى الجسد، فأجاب: لا، لا يمكننا أن ننقل سوى الفكر)[١].

فهل هذا هو معنى قوله: ﴿**فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ**﴾، ولم يقل «أهذا عرشك»؟

وفي الختام، لو أردنا تلخيص الاحتمالات السابقة فسنخلص إلى العناوين التالية:

١. امتلاك علم طبيعي «فيزيائي»

٢. دعاء وإجابة إكراماً له

٣. امتلاك اسم الله الذي يتحقق من خلاله أي شيء

٤. امتلاك علم من خلال الحكمة

1. www.maaber.org/issue_february11/epistemology1.htm

٩

قصة أصحاب السبت

٩

قصة أصحاب السبت

أشير إلى قصة أصحاب السبت في القرآن ثلاث مرات، وهي كالتالي:

﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ، وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ، فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[١].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ آمِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً﴾[٣].

١. سورة الأعراف:١٦٣-١٦٦.

٢. سورة البقرة:٦٤-٦٥.

٣. سورة النساء:٤٧.

فكيف تناول المفسرون هذه القصة من حيث التأويل، أي من حيث تحديد اسم القرية وموقعها الجغرافي وزمن الحدث وطبيعة ما حدث ... إلخ؟

• **التحديد الجغرافي:**

عندما نعود إلى كتب التفسير، سنجد أنها تذكر عدة احتمالات حول التحديد الجغرافي لموقع القرية، ويمكن تلخيصها كالتالي:

○ **أيلة:** قال الطبري في تفسير الآية ١٦٣ من سورة الأعراف: (كانت بحضرة البحر، أي بقرب البحر وعلى شاطئه. واختلف أهل التأويل فيها، فقال بعضهم: هي أيلة)[١].

أيلة أو آيلة، مدينة قديمة أنشئت على الموقع الحالي لمدينة العقبة الموجودة في جنوب الأردن، وتقع أطلالها شمال غرب المركز الحالي لمدينة العقبة.

وقد استعرض الطبري أسماء بعض مَن قال بأنها مدينة أصحاب السبت، وهم كالتالي:

١. (حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا ابن إدريس، عن محمد بن إسحاق، عن داود بن حصين، عن عكرمة عن ابن عباس: ﴿**وَاسْئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ**﴾ قال: هي قرية يقال لها أيلة، بين مَدْيَن والطُّور).

٢. (حدثنا القاسم، قال: ثنا الحسين، قال: ثني حجاج، عن ابن جريج، عن عبد الله بن كثير، في قوله: ﴿**وَاسْئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ**﴾ قال: سمعنا أنها أيلة).

١. الطبري: جامع البيان، ج ٩، ص ١٢١-١٢٢.

٣. (حدثنا موسى بن هارون، قال: ثنا عمرو، قال: ثنا أسباط، عن السديّ، قال: هم أهل أيلة، القرية التي كانت حاضرة البحر).

٤. (حدثني الحرث، قال: ثنا أبو سعد، عن مجاهد، في قوله: ﴿**وَاسْئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ**﴾ قال أيلة).

٥. (حدثنا بشر بن معاذ، قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد، عن قتادة: ﴿**وَاسْئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ...**﴾ الآية، ذُكر لنا أنها كانت قرية على ساحل البحر يُقال لها أيلة)[١].

○ **مقنا / مقناة:** قال الطبري: (وقال آخرون: هي مقنا)[٢].

مقنا أو مقناء مدينة ساحلية تقع على خليج العقبة في منطقة تبوك السعودية، وتبعد عن تبوك ٢٣٥كم، وتشتهر بمناظرها الخلابة، كما تمتاز بكثرة وجود أشجار النخيل بها والفواكه والمانجو والليمون وكذلك مناظرها البحرية الخلابه الغنية بالأحياء البحرية والشعب المرجانية.

وصاحب هذه المقولة كما ذكر الطبري كالتالي:

١. (حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن يزيد[٣]، في

١. الطبري: جامع البيان، ج ٩، ص ١٢٢-١٢٣.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ٩، ص ١٢٣.

٣. يونس بن يزيد بن أبي النجاد الأيلي، مولى معاوية بن أبي سفيان. عن أحمد بن حنبل، قال وكيع: (رأيت يونس بن يزيد وكان سيئ الحفظ). قال الأثرم: (أنكر أبو عبد الله على يونس فقال: كان يجيء عن سعيد بأشياء ليست من حديث سعيد، وضعّف أمر يونس، وقال: لم يكن يعرف الحديث. وقال أبو زرعة النصري: (سمعت أحمد بن حنبل يقول: في حديث يونس بن يزيد مُنكرات عن الزُّهري) وكان قد صحب الزهري ثنتي عشرة سنة. بعد كل هذا عُبِّر عنه بالإمام الثقة!

قوله: ﴿وَاسْئَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ﴾ قال: هي قرية يقال لها مقنا بين مَدين وعينونَى)[١].

ونقل القرطبي تحديد موضع مقنا حيث قال مستعرضاً أقوال المفسرين: (هي ساحل من سواحل الشأم، بين مَدْين وعَيْنون، يقال لها: مقناة)[٢].

○ **مَدين:** ثم ذَكر الطبري الرأي الثالث، قال: (وقال آخرون: هي مَدين)[٣].

مدين أو مدائن شعيب أو مغاير شعيب: مدينة تاريخية تضم بيوتاً ومعابد أثرية منحوتة في الصخر والجبال، وهي شبيه بآثار «مدائن صالح». تقع حالياً في مدينة تسمى «البدع»، ولا تقع على -أو بالقرب من- مسطح مائي كالبحر أو النهر أو البحيرة.

وصاحب هذه المقولة كما ذكر الطبري كالتالي:

١. (حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثني محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: هي قرية بين أيلة والطور يقال لها مَدين)[٤]. لاحظ أن عكرمة روى قولين مختلفين عن ابن عباس، واتضح لنا أن مدين لا تقع على البحر أو أي مسطح مائي أصلاً.

○ **طبرية:** أما الطبرسي في تفسيره «مجمع البيان» فقد أضاف إلى ما

---

١. الطبري: جامع البيان، ج ٦، ص ١٦٣.
٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ١٩٤.
٣. الطبري: جامع البيان، ج ٩، ص ١٢٣.
٤. الطبري: جامع البيان، ج ٩، ص ١٢٣.

سبق اسم بلدة أخرى هي «طبرية»، قال: (وقريبة من البحر على شاطىء البحر وهي إيلة عن ابن عباس. وقيل: هي مدين عنه أيضاً. وقيل: طبرية عن الزُّهْري)[١].

وهكذا فعل الفخر الرازي، قال: (الأكثرون على أن تلك القرية أيلة. وقيل: مدين. وقيل طبرية، والعرب تسمى المدينة قرية)[٢]. والجملة الأخيرة دفع لإشكال قد يُثار على تسمية بعض هذه المدن باسم قرية، وهي أكبر من ذلك، فطبريا أو طبريّة مِن أقدم مدن فلسطين، وتبعد عن القدس ١٩٨ كم تقريباً. تُعد المدينة من المدن المقدسة الأربعة عند اليهود.

○ **أيكة**: وفي تفسير القمي «أيكة» بدلاً من «أيلة»، ولا نعلم هل أن هذا من التصحيف، أم المراد بذلك مدينة قوم النبي شعيب «عليه السلام» حيث قال الله «تعالى»: **﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾**[٣].

والرواية كالتالي: (عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: وجدنا في كتاب علي «عليه السلام» أن قوماً من أهل أيكة.....)[٤].

فإنّ قلنا بعدم تصحيف الكلمة، وقلنا كذلك باتحاد «مدين» مع «أيكة» بلحاظ أن القرآن الكريم ذكر بعثة النبي شعيب «عليه السلام» مرّة إلى مدين،

---

١. الطبرسي: مجمع البيان، ج ٤، ص٣٨٠.

٢. الفخر الرازي: التفسير الكبير، ج ١٥، ص٣٦.

٣. سورة آل عمران:٧.

٤. القمي: تفسير علي بن إبراهيم القمي، ج ١، ص ٢٤٤.



كما في قوله «تعالى»: ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ**﴾[١]، ومرة إلى أصحاب الأيكة كما مرّ بنا، فستكون الأقوال لدينا أربعة، وهي: أيلة، مقنا، مدين، طبرية. وأما إذا قلنا بعدم اتحاد «مدين» مع «أيكة» بلحاظ أن سورة الشعراء كانت تصف الأقوام الذين أرسل الله «عز وجل» إليهم الأنبياء بإضافة «أخوهم»، قال «تعالى»:

﴿**كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾[٢].

﴿**كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ**﴾[٣].

---

١. سورة الأعراف:٨٥.

٢. سورة الشعراء: ١٠٥-١٠٦.

٣. سورة الشعراء: ١٢٣-١٢٤.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[١].

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[٢].

ولم تُذكر هذه الإضافة مع اسم النبي «شعيب»، قال «تعالى»: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾[٣].

بينما ذكر الله في سورة الأعراف أن شعيباً أخو مدين: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، واستنتج البعض من ذلك أن «مدين» ليست «أيكة» أو «الأيكة»، بل منطقة قريبة منها، وأن شعيباً أُرسل إلى أهل مدينته «مدين» كما أُرسل إلى المدينة الأخرى «أيكة» أو «الأيكة»، وبذا تكون الأقوال حول موقع أصحاب السبت خمسة. وحيث أن الأربعة الأولى ليست مروية عن النبي «صلى الله عليه وآله» بل هي أقوال بعض المفسرين، والأخيرة مروية عن الإمام علي «عليه السلام»، فهي ستكون مرجّحة عليها والمتعيّنة لو استطعنا إثبات صحة نسبتها إلى الإمام، وهو ما لا نملكه بسبب أن نسخة تفسير القمي المتوفرة بين أيدينا - كما ذكرت في بداية الكتاب - هي مزيج من أكثر من كتاب ومؤلف، ولا يمكن الوثوق بكل ما جاء فيها، ومن بينها هذه الرواية... هذا كله على فرض أن «أيكة» ليست «أيلة» ولا «مدين».

- **التحديد الزمني:**

قام القرطبي في تفسيره «جامع الأحكام» بتحديد المقطع الزمني الذي

١. سورة الشعراء: ١٤١-١٤٢.

٢. سورة الشعراء: ١٦٠-١٦١.

٣. سورة الشعراء: ١٧٦-١٧٧.

وقعت فيه هذه القصة، وإن لم يؤكّد ذلك أو ينفيه، قال: (ورُوي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود «عليه السلام»)[١]. أي قبل ٣٠٠٠ سنة تقريباً. ولا نعلم من الراوي؟ وهل يروي ذلك عن النبي «صلى الله عليه وآله»؟ وما سند الرواية؟

ولذا فالمسألة ستبقى غامضة على مستوى تحديد المكان والزمان إلى أن نبحث فيها خارج إطار مرويات المسلمين، فلعلنا نصل إلى شيء في المقام.

وقد أحسن الطبري حيث قال معلِّقاً بعد ذكر أقوال المفسرين: (والصواب من القول في ذلك أن يقال: هي قرية حاضرة البحر، وجائز أن يكون أيلة، وجائز أن تكون مدين، وجائز أن تكون مقنا لأن كلّ ذلك حاضرة البحر. ولا خبر عن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقطع العذر بأن ذلك من أيّ، والاختلاف فيه على ما وصَفْت، ولا يوصل إلى علم ما قد كان فمضى مما لم نعاينه، إلاَّ بخبرٍ يوجب العلم، ولا خبر كذلك في ذلك)[٢].

• التأويل بالرأي:

والحقيقة أن كل الأقوال السابقة - ما عدا رواية القمي والتي عرفنا حال سندها ومصدرها - تندرج تحت عنوان التأويل بلا علم والذي حذّرت منه الآية الشريفة حيث قال «تعالى»: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ**

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٤، ص ١٩٤.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ٦، ص ٩٢.

اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[١]. إذ لا نجد قولاً منسوباً إلى النبي «صلى الله عليه وآله» ولا إلى أحد من أهل بيته «عليهم السلام»، بل قد تكون أقوالاً اجتهادية أو مأخوذة عن مُسلِمة أهل الكتاب. ويجب أن ننتبه إلى أن كثيراً من التأويلات الواردة في كتب التفسير - بحسب التتبع - هي من هذا القبيل، وتدخل في إطار ما يُعرف بعنوان التفسير بالرأي، أي بلا دليل ولا قرينة، والذي يشمل التأويل ضمناً، وقد وردت عدة روايات في النهي عن ذلك، ومن بينها:

○ عن النبي الأكرم «صلى الله عليه وآله»: (أكثر ما أخاف على أمّتي مِن بعدي رجلٌ يتناول القرآن، يضعه على غير مواضعه)[٢].

○ وعن الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أنه قال: (مَن فسّر القرآن برأيه فأصاب لم يؤجر، وإن أخطأ كان إثمه عليه)[٣].

○ وعن الإمام علي الرضا «عليه السلام» أنه قال لعلي بن محمد بن الجهم: (لا تؤوّل كتاب الله «عز وجل» برأيك)[٤].

وما ينطبق على التحديد الجغرافي والزمني واسم قرية أصحاب السبت ينطبق على التفاصيل التي لم يذكرها القرآن الكريم حول القصة، ولم ينقل منها إلا القليل الذي أراد من خلاله أن يقدِّم الفكرة المطلوب بيانها دون الدخول في تفاصيل الأحداث.

---

١. سورة آل عمران: ٧.
٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج٨٩، ص١١١، ح٢٠.
٣. مقدمة تفسير العياشي، ج١، ص ١٧.
٤. الصدوق: عيون أخبار الرضا، ج١، ص ١٥٣.

ومضمون القصة القرآنية - بغض النظر عن الروايات - كالتالي: قرية على ساحل البحر، يسكنها بنو إسرائيل ويلتزمون بالشريعة الموسوية القاضية بأن يكون يوم السبت - ويبدأ من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت - يوماً بلا عمل، ومخصصاً للعبادة، أراد الله «عز وجل» أن يختبر مدى التزامهم بالشريعة، وحيث كان اقتصادهم وحياتهم قائمة على صيد الأسماك، لذا فقد شاء الله أن يجعل اختبارهم في هذا المورد على وجه الخصوص. وتَمثَّل هذا الاختبار الإلهي في أن تأتي الأسماك التي كانوا يرغبون في اصطيادها بالقرب من الساحل وبشكل ظاهر بَيّن ﴿**شُرَّعاً**﴾ وذلك في خصوص يوم السبت، على خلاف باقي أيام الأسبوع. لم يستطع قسم من صيادي أهل هذه القرية مقاومة هذا الإغراء، فتعدّوا على التشريع الإلهي فانقسم مجتمعهم بالإضافة إلى المتعدّين إلى قسمين آخرين.. قسم غير مبالي، وقسم معارض ينهى عن المنكر الذي فعلوه.

وتُشير الآية إلى أن القسم غير المبالي حاول تَنْي الناهين عن المنكر عن دورهم الإصلاحي، في الوقت الذي أصرّوا فيه على المضي قُدُماً في هذا الطريق تحمّلاً للمسؤولية وإعذاراً أمام الله «عز وجل». وحيث تجاوز المعتدون حدودَهم وطغوا في جريمتهم بعد أن نُهوا عنها وتخلّوا عن الميثاق الخاص بيوم السبت، لذا فقد أنزل الله عقوبته بهم وبمن سكت عن الحق ولم ينه عن المنكر.. ونجّى الآخرين. أما العقوبة الإلهية فتمثّلت في أنْ جَعلهم قِردةً خاسئين.. هذه هي خلاصة القصة كما جاءت في القرآن.. وأما في بعض الروايات فنجد تفاصيل أكثر بهذا الخصوص، وسنتناولها لاحقاً في حينه.

ولابد لنا هنا من وقفة مع خصوصية التشريع المتعلّق بيوم السبت لدى اليهود بالمستوى الذي تنزل فيه العقوبة الإلهية، وبهذه الصورة التي ذكرتها الآيات الشريفة.

• تشريع السبت في التنخ:

في التوراة - وكما أكّد ذلك القرآن الكريم - أنّ الله «عز وجل» ألزم النبي موسى «عليه السلام» ومَن آمن برسالته بميثاق السبت، والنصوص على هذا كثيرة، مِن بينها ما جاء عن الكلام الذي دار بين موسى وبين الله «عز وجل» خلال لقاء الأربعين ليلة.

فقد جاء في الأصحاح ٣١ من سفر الخروج: (وَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: وَأَنْتَ تُكَلِّمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَائِلًا: سُبُوتِي تَحْفَظُونَهَا، لأَنَّهُ عَلاَمَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ فِي أَجْيَالِكُمْ لتَعْلَمُوا أَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي يُقَدِّسُكُمْ، فَتَحْفَظُونَ السَّبْتَ لأَنَّهُ مُقَدَّسٌ لَكُمْ. مَنْ دَنَّسَهُ يُقْتَلُ قَتْلًا).

نلاحظ التشديد في الالتزام بالتشريع لما لدى القوم من روحية التمرد وهو ما سيكررونه خلال تاريخهم عدة مرات.

(إِنَّ كُلَّ مَنْ صَنَعَ فِيهِ عَمَلًا تُقْطَعُ تِلْكَ النَّفْسُ مِنْ بَيْنِ شَعْبِهَا. سِتَّةَ أَيَّامٍ يُصْنَعُ عَمَلٌ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتُ عُطْلَةٍ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ. كُلُّ مَنْ صَنَعَ عَمَلًا فِي يَوْمِ السَّبْتِ يُقْتَلُ قَتْلًا. فَيَحْفَظُ بَنُو إِسْرَائِيلَ السَّبْتَ يَصْنَعُوا السَّبْتَ فِي أَجْيَالِهِمْ عَهْدًا أَبَدِيًّا. لهُوَ بَيْنِي وَبَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلاَمَةٌ إِلَى الأَبَدِ)[1] مجدداً نلاحظ التأكيد من خلال التكرار ومن خلال التهديد والتأبيد في التشريع.

١. الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر الخروج، الأصحاح ٣١، ١٢-١٧.

ويتكرر هذا العهد في سفر الخروج واللاويين ثم في سِفر التثنية الذي يتضمّن الوصايا «المواثيق» العشر.

فقد جاء في الأصحاح ٥ من سِفر التثنية: (وَدَعَا مُوسَى جَمِيعَ إِسْرَائِيلَ وَقَالَ لَهُمْ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ الْفَرَائِضَ وَالأَحْكَامَ الَّتِي أَتَكَلَّمُ بِهَا فِي مَسَامِعِكُمُ الْيَوْمَ، وَتَعَلَّمُوهَا وَاحْتَرِزُوا لِتَعْمَلُوهَا... أَنَا كُنْتُ وَاقِفًا بَيْنَ الرَّبِّ وَبَيْنَكُمْ فِي ذلِكَ الْوَقْتِ لِكَيْ أُخْبِرَكُمْ بِكَلاَمِ الرَّبِّ، لأَنَّكُمْ خِفْتُمْ مِنْ أَجْلِ النَّارِ، وَلَمْ تَصْعَدُوا إِلَى الْجَبَلِ. فَقَالَ:) وبدأ بالتوحيد (أَنَا هُوَ الرَّبُّ إِلهُكَ الَّذِي أَخْرَجَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ مِنْ بَيْتِ الْعُبُودِيَّةِ. لاَ يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي. لاَ تَصْنَعْ لَكَ تِمْثَالاً مَنْحُوتًا صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقُ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ أَسْفَلُ وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الأَرْضِ. لاَ تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلاَ تَعْبُدْهُنَّ، لأَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكَ إِلهٌ غَيُورٌ، أَفْتَقِدُ ذُنُوبَ الآبَاءِ فِي الأَبْنَاءِ وَفِي الْجِيلِ الثَّالِثِ وَالرَّابِعِ مِنَ الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي، وَأَصْنَعُ إِحْسَانًا إِلَى أُلُوفٍ مِنْ مُحِبِّيَّ وَحَافِظِي وَصَايَايَ. لاَ تَنْطِقْ بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكَ بَاطِلاً، لأَنَّ الرَّبَّ لاَ يُبْرِئُ مَنْ نَطَقَ بِاسْمِهِ بَاطِلاً).

ثم انتقل إلى تشريع السبت (احْفَظْ يَوْمَ السَّبْتِ لِتُقَدِّسَهُ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَشْتَغِلُ وَتَعْمَلُ جَمِيعَ أَعْمَالِكَ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَسَبْتٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ، لاَ تَعْمَلْ فِيهِ عَمَلاً مَّا أَنْتَ وَابْنُكَ وَابْنَتُكَ وَعَبْدُكَ وَأَمَتُكَ وَثَوْرُكَ وَحِمَارُكَ وَكُلُّ بَهَائِمِكَ، وَنَزِيلُكَ الَّذِي فِي أَبْوَابِكَ لِكَيْ يَسْتَرِيحَ، عَبْدُكَ وَأَمَتُكَ مِثْلَكَ. وَاذْكُرْ أَنَّكَ كُنْتَ عَبْدًا فِي أَرْضِ مِصْرَ، فَأَخْرَجَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ مِنْ هُنَاكَ بِيَدٍ شَدِيدَةٍ وَذِرَاعٍ مَمْدُودَةٍ. لأَجْلِ ذلِكَ أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ أَنْ تَحْفَظَ يَوْمَ السَّبْتِ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ كَمَا أَوْصَاكَ الرَّبُّ إِلهُكَ، لِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ، وَلِكَيْ يَكُونَ لَكَ

خَيْرٌ عَلَى الأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلهُكَ). وبعد هذا التفصيل بما يدلّ على أهمية الأمر والعناية به لاسيما وأنه جاء بعد الوصية بالتوحيد ينتقل إلى العناوين الأخرى: (لاَ تَقْتُلْ، وَلاَ تَزْنِ، وَلاَ تَسْرِقْ، وَلاَ تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ، وَلاَ تَشْتَهِ امْرَأَةَ قَرِيبِكَ، وَلاَ تَشْتَهِ بَيْتَ قَرِيبِكَ وَلاَ حَقْلَهُ وَلاَ عَبْدَهُ وَلاَ أَمَتَهُ وَلاَ ثَوْرَهُ وَلاَ حِمَارَهُ وَلاَ كُلَّ مَا لِقَرِيبِكَ)[١].

وبالمناسبة، فإنّ سورة البقرة حين أشارت إلى قصة أصحاب السبت سبقتها بالحديث عن مشهد أخْذ الميثاق من بني إسرائيل على عهد النبي موسى «عليه السلام» عند جبل الطور: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ، فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[٢].

وأشار القرآن الكريم إلى هذا الميثاق المأخوذ من بني إسرائيل في موردين آخرين، وذلك في قوله «عز وجل»: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ وبعد أن نفت الآية أن يكون إبراهيم «عليه السلام» من المشركين ردّاً على مزاعم العرب المشركين أنهم على ملّة إبراهيم، انتقل بهذه المناسبة إلى إبطال ما يشبه تلك المزاعم، وهي مزاعم اليهود أن ملّة اليهودية هي ملّة إبراهيم «عليه السلام» وبما يثير سؤالاً من المعاندين: كيف يكون الإسلام من ملّة إبراهيم، وفيه جُعل يوم الجمعة اليومَ

١. الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر التثنية، الأصحاح ٥، ١-٢١.
٢. سورة البقرة:٦٤-٦٥.

المقدس، بينما جَعلت التوراة لليهود يوم التّقديس يوم السبت؟ ولعلّ اليهود شغبوا بذلك على المسلمين، فقال الله «سبحانه وتعالى» في معرض الجواب على هذا الإشكال: ﴿**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ**﴾ وفُرِضَت أحكامه من قبيل التفرّغ للعبادة وتحريم العمل فيه والتجارة والصيد، واستخدام الخدم والدوابّ وما إلى ذلك ﴿**عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ**﴾ أي في تشريع السبت من حيث تفاصيله والمراوغة في تطبيقه والبحث عن الحيل للتملّص من التزاماته وتبعاته: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾[١].

والمعنى الإجمالي للآية أنه إنما جُعل يوم السبت للعبادة يوماً في كل أسبوع تشديداً وابتلاء وفتنة وكُلفة على اليهود الذين اختلفوا فيه بعد تشريعه، بين مَن قَبِله ومَن ردّه ومَن احتال فيه للعمل مع التظاهر بقبوله، و إنّ ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون.

وهكذا تحدثت سورة النساء عن هذا التشريع الذي أُلزم به بنو إسرائيل وتمّ تحذيرهم من مغبّة التهاون في أمره، واعتبار هذا الميثاق ميثاقاً غليظاً، قال «عز وجل»: ﴿**وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا**﴾ فهل التزموا بذلك؟ لقد تمرّد منهم أقوامٌ فعاقبهم الله على ذلك: ﴿**فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[٢].

---

١. سورة النحل:١٢٣-١٢٤.

٢. سورة النساء:١٥٤-١٥٥.

• صور من التمرّد على تشريع السبت:

ومن الصور التي نقلها العهد القديم «التنخ» بهذا الخصوص ما تحقق على عهد النبي موسى «عليه السلام»: (وَأَتَى كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَى بَرِّيَّةِ سِينٍ، الَّتِي بَيْنَ إِيلِيمَ وَسِينَاءَ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسَ عَشَرَ مِنَ الشَّهْرِ الثَّانِي بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. فَتَذَمَّرَ كُلُّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ. وَقَالَ لَهُمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ: «لَيْتَنَا مُتْنَا بِيَدِ الرَّبِّ فِي أَرْضِ مِصْرَ، إِذْ كُنَّا جَالِسِينَ عِنْدَ قُدُورِ اللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزًا لِلشِّبَعِ. فَإِنَّكُمَا أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هذَا الْقَفْرِ لِكَيْ تُمِيتَا كُلَّ هذَا الْجُمْهُورِ بِالْجُوعِ». فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «هَا أَنَا أُمْطِرُ لَكُمْ خُبْزًا مِنَ السَّمَاءِ. فَيَخْرُجُ الشَّعْبُ وَيَلْتَقِطُونَ حَاجَةَ الْيَوْمِ بِيَوْمِهَا. لِكَيْ أَمْتَحِنَهُمْ، أَيَسْلُكُونَ فِي نَامُوسِي أَمْ لاَ) أي هل سيطيعون أمري ويتّبعون شريعتي أم سيتمرّدون ويكرّرون احتجاجاتهم وتذمّرهم؟ (وَيَكُونُ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ أَنَّهُمْ يُهَيِّئُونَ مَا يَجِيئُونَ بِهِ فَيَكُونُ ضِعْفَ مَا يَلْتَقِطُونَهُ يَوْمًا فَيَوْمًا»).

قام النبيّان موسى وهارون «عليهما السلام» بإبلاغ القوم رسالةَ الله: (فَقَالَ مُوسَى وَهَارُونُ لِجَمِيعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: «فِي الْمَسَاءِ تَعْلَمُونَ أَنَّ الرَّبَّ أَخْرَجَكُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. وَفِي الصَّبَاحِ تَرَوْنَ مَجْدَ الرَّبِّ لاسْتِمَاعِهِ تَذَمُّرَكُمْ عَلَى الرَّبِّ. وَأَمَّا نَحْنُ فَمَاذَا حَتَّى تَتَذَمَّرُوا عَلَيْنَا؟». وَقَالَ مُوسَى: «ذلِكَ بِأَنَّ الرَّبَّ يُعْطِيكُمْ فِي الْمَسَاءِ لَحْمًا لِتَأْكُلُوا، وَفِي الصَّبَاحِ خُبْزًا لِتَشْبَعُوا، لاسْتِمَاعِ الرَّبِّ تَذَمُّرَكُمُ الَّذِي تَتَذَمَّرُونَ عَلَيْهِ. وَأَمَّا نَحْنُ فَمَاذَا؟ لَيْسَ عَلَيْنَا تَذَمُّرُكُمْ بَلْ عَلَى الرَّبِّ». وَقَالَ مُوسَى لِهَارُونَ: «قُلْ لِكُلِّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ: اقْتَرِبُوا إِلَى أَمَامِ الرَّبِّ لأَنَّهُ قَدْ سَمِعَ تَذَمُّرَكُمْ». فَحَدَثَ إِذْ كَانَ هَارُونُ يُكَلِّمُ كُلَّ جَمَاعَةِ

بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمُ الْتَفَتُوا نَحْوَ الْبَرِّيَّةِ، وَإِذَا مَجْدُ الرَّبِّ قَدْ ظَهَرَ فِي السَّحَابِ. فَكَلَّمَ الرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: «سَمِعْتُ تَذَمُّرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. كَلِّمْهُمْ قَائِلًا: فِي الْعَشِيَّةِ تَأْكُلُونَ لَحْمًا، وَفِي الصَّبَاحِ تَشْبَعُونَ خُبْزًا، وَتَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمْ»).

وتحقق الوعد الإلهي بإشباع القوم لحماً وبالبديل عن الخبز الذي يحتاجون فيه إلى الزراعة والحصاد والجمع والتنظيف والطحن والخَبز، فكان أن توفَّر هذا الطعام دون جهد يبذلونه، إلا بمقدار الجمع لما سيكون ميسّراً لهم ومتوافراً بكثرة، ودون انقطاع: (فَكَانَ فِي الْمَسَاءِ أَنَّ السَّلْوَى[1] صَعِدَتْ وَغَطَّتِ الْمَحَلَّةَ. وَفِي الصَّبَاحِ كَانَ سَقِيطُ النَّدَى حَوَالَيِ الْمَحَلَّةِ. وَلَمَّا ارْتَفَعَ سَقِيطُ النَّدَى إِذَا عَلَى وَجْهِ الْبَرِّيَّةِ شَيْءٌ دَقِيقٌ مِثْلُ قُشُورٍ. دَقِيقٌ كَالْجَلِيدِ عَلَى الأَرْضِ. فَلَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ قَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «مَنْ هُوَ؟» لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا مَا هُوَ. فَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي أَعْطَاكُمُ الرَّبُّ لِتَأْكُلُوا. هذَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي أَمَرَ بِهِ الرَّبُّ. الْتَقِطُوا مِنْهُ كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أَكْلِهِ. وَقَالَ لَهُمْ مُوسَى: «لاَ يُبْقِ أَحَدٌ مِنْهُ إِلَى الصَّبَاحِ»).

وظهرت أوّل حالة تمرّد منهم نتيجة الجشع وعدم الثقة بكلام الله ونبيّه وضعف إيمانهم: (لكِنَّهُمْ لَمْ يَسْمَعُوا لِمُوسَى، بَلْ أَبْقَى مِنْهُ أُنَاسٌ إِلَى الصَّبَاحِ، فَتَوَلَّدَ فِيهِ دُودٌ وَأَنْتَنَ. وَكَانُوا يَلْتَقِطُونَهُ صَبَاحًا فَصَبَاحًا كُلُّ وَاحِدٍ عَلَى حَسَبِ أَكْلِهِ. وَإِذَا حَمِيَتِ الشَّمْسُ كَانَ يَذُوبُ. ثُمَّ كَانَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ أَنَّهُمُ الْتَقَطُوا خُبْزًا مُضَاعَفًا، عُمرَيْنِ لِلْوَاحِدِ. فَجَاءَ كُلُّ رُؤَسَاءِ الْجَمَاعَةِ وَأَخْبَرُوا مُوسَى. فَقَالَ لَهُمْ: «هذَا مَا قَالَ الرَّبُّ: غَدًا عُطْلَةٌ، سَبْتٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ. اخْبِزُوا مَا

١. طائر السمّان.

تَخْبِزُونَ وَاطْبُخُوا مَا تَطْبُخُونَ. وَكُلُّ مَا فَضلَ ضَعُوهُ عِنْدَكُمْ لِيُحْفَظَ إِلَى الْغَدِ». فَوَضَعُوهُ إِلَى الْغَدِ كَمَا أَمَرَ مُوسَى، فَلَمْ يُنْتِنْ وَلاَ صَارَ فِيهِ دُودٌ. فَقَالَ مُوسَى: «كُلُوهُ الْيَوْمَ، لأَنَّ لِلرَّبِّ الْيَوْمَ سَبْتًا. الْيَوْمَ لاَ تَجِدُونَهُ فِي الْحَقْلِ. سِتَّةَ أَيَّامٍ تَلْتَقِطُونَهُ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتٌ، لاَ يُوجَدُ فِيهِ»).

وقام البعض بالتمرّد على أمر موسى «عليه السلام» مرة أخرى وبما له علاقة بتشريع يوم السبت: (وَحَدَثَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ أَنَّ بَعْضَ الشَّعْبِ خَرَجُوا لِيَلْتَقِطُوا فَلَمْ يَجِدُوا. فَقَالَ الرَّبُّ لِمُوسَى: «إِلَى مَتَى تَأْبَوْنَ أَنْ تَحْفَظُوا وَصَايَايَ وَشَرَائِعِي؟ انْظُرُوا! إِنَّ الرَّبَّ أَعْطَاكُمُ السَّبْتَ. لِذلِكَ هُوَ يُعْطِيكُمْ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ خُبْزَ يَوْمَيْنِ. اجْلِسُوا كُلُّ وَاحِدٍ فِي مَكَانِهِ. لاَ يَخْرُجْ أَحَدٌ مِنْ مَكَانِهِ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ». فَاسْتَرَاحَ الشَّعْبُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ. وَدَعَا بَيْتُ إِسْرَائِيلَ اسْمَهُ «مَنًّا». وَهُوَ كَبِزْرِ الْكُزْبَرَةِ، أَبْيَضُ، وَطَعْمُهُ كَرِقَاقٍ بِعَسَلٍ)[1].

وهكذا نجد صورة للتمرّد على تشريع السبت على عهد النبي «إرميا»، الذي عاصر السبي البابلي وما سبق ذلك من أحداث في القرن السادس قبل الميلاد: (هكَذَا قَالَ الرَّبُّ لي: «اذْهَبْ وَقِفْ فِي بَابِ بَنِي الشَّعْبِ الَّذِي يَدْخُلُ مِنْهُ مُلُوكُ يَهُوذَا وَيَخْرُجُونَ مِنْهُ، وَفِي كُلِّ أَبْوَابِ أُورُشَلِيمَ، وَقُلْ لَهُمْ: اسْمَعُوا كَلِمَةَ الرَّبِّ يَا مُلُوكَ يَهُوذَا، وَكُلَّ يَهُوذَا، وَكُلَّ سُكَّانِ أُورُشَلِيمَ الدَّاخِلِينَ مِنْ هذِهِ الأَبْوَابِ. هكَذَا قَالَ الرَّبُّ: تَحَفَّظُوا بِأَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَحْمِلُوا حِمْلاً يَوْمَ السَّبْتِ وَلاَ تُدْخِلُوهُ فِي أَبْوَابِ أُورُشَلِيمَ، وَلاَ تُخْرِجُوا حِمْلاً مِنْ بُيُوتِكُمْ يَوْمَ السَّبْتِ، وَلاَ تَعْمَلُوا شُغْلاً مَّا، بَلْ قَدِّسُوا يَوْمَ السَّبْتِ كَمَا أَمَرْتُ آبَاءَكُمْ. فَلَمْ يَسْمَعُوا وَلَمْ يُمِيلُوا أُذُنَهُمْ، بَلْ قَسَّوْا

١. الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر الخروج، الأصحاح ١٦، ١- ٣١.

أَعْنَاقَهُمْ لِئَلاَّ يَسْمَعُوا وَلِئَلاَّ يَقْبَلُوا تَأْدِيبًا). وبعد أن بيّن لهم النتائج التي يمكن أن تترتب على طاعتهم حذّرهم من مغبّة العصيان: (وَلكِنْ إِنْ لَمْ تَسْمَعُوا لِي لِتُقَدِّسُوا يَوْمَ السَّبْتِ لكَيْلاَ تَحْمِلُوا حِمْلًا وَلاَ تُدْخِلُوهُ فِي أَبْوَابِ أُورُشَلِيمَ يَوْمَ السَّبْتِ، فَإِنِّي أُشْعِلُ نَارًا فِي أَبْوَابِهَا فَتَأْكُلُ قُصُورَ أُورُشَلِيمَ وَلاَ تَنْطَفِئُ»)[١].

وعلى عهد «نحميا بن حكليا»[٢] وقع تمرّد آخر على تشريع السبت نجده في النص التالي: (فِي تِلْكَ الأَيَّامِ رَأَيْتُ) الرائي هو نحميا (فِي يَهُوذَا قَوْمًا يَدُوسُونَ مَعَاصِرَ فِي السَّبْتِ) أي يعصرون العنب لصناعة الخمر في ذلك اليوم (وَيَأْتُونَ بِحُزَمٍ وَيُحَمِّلُونَ حَمِيرًا، وَأَيْضًا يَدْخُلُونَ أُورُشَلِيمَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِخَمْرٍ وَعِنَبٍ وَتِينٍ وَكُلِّ مَا يُحْمَلُ، فَأَشْهَدْتُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَيْعِهِمِ الطَّعَامَ. وَالصُّورِيُّونَ) أهالي مدينة صور اللبنانية (السَّاكِنُونَ بِهَا) أورشليم (كَانُوا يَأْتُونَ بِسَمَكٍ وَكُلِّ بِضَاعَةٍ، وَيَبِيعُونَ فِي السَّبْتِ لِبَنِي يَهُوذَا فِي أُورُشَلِيمَ. فَخَاصَمْتُ عُظَمَاءَ يَهُوذَا وَقُلْتُ لَهُمْ: «مَا هذَا الأَمْرُ الْقَبِيحُ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ وَتُدَنِّسُونَ يَوْمَ السَّبْتِ؟ أَلَمْ يَفْعَلْ آبَاؤُكُمْ هكَذَا فَجَلَبَ إِلهُنَا عَلَيْنَا كُلَّ هذَا الشَّرِّ، وَعَلَى هذِهِ الْمَدِينَةِ؟) يشير إلى ما فعلوه على أيام إرميا كما ذكرنا في المورد السابق.

وكان من نتائج انحرافهم هذا وتمرّدهم أن تسلّط عليهم نبوخذ نصّر، وتم تدمير الهيكل وسبي بني إسرائيل، وبَيْن الموردين قرابة قرن من الزمن: (وَأَنْتُمْ تَزِيدُونَ غَضَبًا عَلَى إِسْرَائِيلَ إِذْ تُدَنِّسُونَ السَّبْتَ»)[٣].

---

١. الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر إرميا، الأصحاح ١٧، ١٩-٢٧.

٢. عرضت بعضاً من سيرته ضمن بحث بلعام بن بعور.

٣. الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر نحميا، الأصحاح ١٣، ١٥-١٨.

بعد أكثر من قرن من النص السابق احتلّ الإسكندر المقدوني[١] الذي احتلّ مساحة شاسعة من أوروبا وآسيا، وينقل لنا النص التالي صورة من صور التمرّد على تشريع يوم السبت على عهد أحد خلفائه: (إِنَّ الإِسْكَنْدَرَ بْنَ فِيلُبُّسَ المَكْدُونِيَّ بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنْ أَرْضِ كِتِّيمَ وَإِيقَاعِهِ بِدَارِيُوسَ مَلِكِ فَارِسَ وَمَادَايَ، مَلَكَ مَكَانَهُ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ مَلَكَ عَلَى الْيُونَانِ. ثُمَّ آثَارَ حُرُوبًا كَثِيرَةً، وَفَتَحَ حُصُونًا مُتَعَدِّدَةً، وَقَتَلَ مُلُوكَ الأَرْضِ، وَاجْتَازَ إِلَى أَقَاصِي الأَرْضِ، وَسَلَبَ غَنَائِمَ جُمْهُورٍ مِنَ الأُمَمِ، فَسَكَتَتِ الأَرْضُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَتَرَفَّعَ فِي قَلْبِهِ وَتَشَامَخَ. وَحَشَدَ جَيْشًا قَوِيًّا جِدًّا، وَاسْتَوْلَى عَلَى الْبِلاَدِ وَالأُمَمِ وَالسَّلاَطِينِ، فَكَانُوا يَحْمِلُونَ إِلَيْهِ الْجِزْيَةَ. وَبَعْدَ ذلِكَ انْطَرَحَ عَلَى فِرَاشِهِ، وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ بِالْمَوْتِ، فَدَعَا عَبِيدَهُ الْكُبَرَاءَ الَّذِينَ نَشَأُوا مَعَهُ مُنْذُ الصِّبَاءِ، فَقَسَمَ مَمْلَكَتَهُ بَيْنَهُمْ فِي حَيَاتِهِ. وَكَانَ مُلْكُ الإِسْكَنْدَرِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وَمَاتَ. فَتَمَلَّكَ عَبِيدُهُ كُلٌّ وَاحِدٍ فِي مَكَانِهِ، وَلَبِسَ كُلٌّ مِنْهُمُ التَّاجَ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَكَذلِكَ بَنُوهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ سِنِينَ كَثِيرَةً، فَكَثُرَتِ الشُّرُورُ فِي الأَرْضِ. وَخَرَجَتْ مِنْهُمْ جُرْثُومَةٌ أَثِيمَةٌ، هِيَ أَنْطِيُوكُسُ الشِّهِيرُ ابْنُ أَنْطِيُوكُسَ الْمَلِكِ، وَكَانَ رَهِينَةً فِي رُومِيَةَ، وَمَلَكَ فِي السَّنَةِ الْمِئَةِ وَالسَّابِعَةِ وَالثَّلاَثِينَ مِنْ دَوْلَةِ الْيُونَانِ. وَفِي تِلْكَ الأَيَّامِ خَرَجَ مِنْ إِسْرَائِيلَ أَبْنَاءٌ مُنَافِقُونَ، فَأَغْرَوْا كَثِيرِينَ قَائِلِينَ: «هَلُمَّ نَعْقِدْ عَهْدًا مَعَ الأُمَمِ حَوْلَنَا فَإِنَا

١. أحد ملوك مقدونيا الإغريق، ومن أشهر القادة العسكريين والفاتحين عبر التاريخ. وُلد الإسكندر في مدينة پيلا قرابة سنة ٣٥٦ ق.م، وتتلمذ على يد الفيلسوف والعالم الشهير أرسطو حتى بلغ ربيعه السادس عشر. وبحلول عامه الثلاثين، كان قد أسس إحدى أكبر وأعظم الإمبراطوريات التي عرفها العالم القديم، والتي امتدت من سواحل البحر الأيوني غربًا وصولاً إلى سلسلة جبال الهمالايا شرقًا. توفي الإسكندر في قصر نبوخذنصّر ببابل، في العاشر أو الحادي عشر من يونيو سنة ٣٢٣ ق.م، وله من العمر اثنان وثلاثون سنة.

مُنْذُ انْفَصَلْنَا عَنْهُمْ لَحِقَتْنَا شُرُورٌ كَثِيرَةٌ». فَحَسُنَ الْكَلاَمُ فِي عُيُونِهِمْ. وَبَادَرَ نَفَرٌ مِنَ الشَّعْبِ، وَذَهَبُوا إِلَى الْمَلِكِ، فَأَطْلَقَ لَهُمْ أَنْ يَصْنَعُوا بِحَسَبِ أَحْكَامِ الأُمَمِ. فَابْتَنَوْا مَدْرَسَةً فِي أُورُشَلِيمَ عَلَى حَسَبِ سُنَنِ الأُمَمِ. وَعَمِلُوا لَهُمْ غُلْفًا وَارْتَدُّوا عَنِ الْعَهْدِ الْمُقَدَّسِ، وَمَازَجُوا الأُمَمَ وَبَاعُوا أَنْفُسَهُمْ لِصَنِيعِ الشَّرِّ. وَلَمَّا اسْتَتَبَّ الْمُلْكُ لأَنْطِيُوكُسَ، أَزْمَعَ عَلَى امْتِلاَكِ مِصْرَ لِيَكُونَ مَالِكًا عَلَى كِلْتَا الْمَمْلَكَتَيْنِ، فَدَخَلَ مِصْرَ بِجَيْشٍ كَثِيفٍ وَعَجَلاَتٍ وَفِيَلَةٍ وَفُرْسَانٍ وَأُسْطُولٍ عَظِيمٍ. وَأَثَارَ الْحَرْبَ عَلَى بَطْلَمَاوُسَ مَلِكِ مِصْرَ، فَارْتَاعَ بَطْلَمَاوُسُ مِنْ وَجْهِهِ وَهَرَبَ، وَسَقَطَ قَتْلَى كَثِيرُونَ. فَاسْتَحْوَذُوا عَلَى الْمُدُنِ الْحَصِينَةِ بِأَرْضِ مِصْرَ وَسَلَبُوا غَنَائِمَ أَرْضِ مِصْرَ. وَرَجَعَ أَنْطِيُوكُسُ بَعْدَمَا أَوْقَعَ بِمِصْرَ، وَذَلِكَ فِي السَّنَةِ الْمِئَةِ وَالثَّالِثَةِ وَالأَرْبَعِينَ، وَنَهَضَ نَحْوَ إِسْرَائِيلَ. فَصَعِدَ إِلَى أُورُشَلِيمَ بِجَيْشٍ كَثِيفٍ، وَدَخَلَ الْمَقْدِسَ بِتَجَبُّرٍ، وَأَخَذَ مَذْبَحَ الذَّهَبِ، وَمَنَارَةَ النُّورِ مَعَ جَمِيعِ أَدَوَاتِهَا، وَمَائِدَةَ التَّنْضِيدِ، وَالْمَسَاكِبَ وَالْجَامَاتِ وَمَجَامِرَ الذَّهَبِ وَالْحِجَابَ وَالأَكَالِيلَ وَالْحِلْيَةَ الذَّهَبِيَّةَ الَّتِي كَانَتْ عَلَى وَجْهِ الْهَيْكَلِ وَحَطَّمَهَا جَمِيعًا. وَأَخَذَ الْفِضَّةَ وَالذَّهَبَ وَالآنِيَةَ النَّفِيسَةَ، وَأَخَذَ مَا وَجَدَ مِنَ الْكُنُوزِ الْمَكْنُونَةِ أَخَذَ الْجَمِيعَ وَانْصَرَفَ إِلَى أَرْضِهِ. وَأَكْثَرَ مِنَ الْقَتْلِ وَتَكَلَّمَ بِتَجَبُّرٍ عَظِيمٍ. فَكَانَتْ مَنَاحَةٌ عَظِيمَةٌ فِي إِسْرَائِيلَ فِي كُلِّ أَرْضِهِمْ، وَانْتَحَبَ الرُّؤَسَاءُ وَالشُّيُوخُ وَخَارَتِ الْعَذَارَى وَالْفِتْيَانُ وَتَغَيَّرَ جَمَالُ النِّسَاءِ، وَكُلُّ عَرُوسٍ اتَّخَذَ مَرْثَاةً، وَالْجَالِسَةُ فِي الْحَجَلَةِ عَقَدَتْ مَنَاحَةً. فَارْتَجَّتِ الأَرْضُ عَلَى سُكَّانِهَا، وَجَمِيعُ آلِ يَعْقُوبَ لَبِسُوا الْخِزْيَ. وَبَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنَ الأَيَّامِ، أَرْسَلَ الْمَلِكُ رَئِيسَ الْجِزْيَةِ إِلَى مُدُنِ يَهُوذَا، فَوَفَدَ عَلَى أُورُشَلِيمَ فِي جَيْشٍ كَثِيفٍ، وَخَاطَبَهُمْ خِطَابَ سَلاَمٍ مَكْرًا فَوَثِقُوا بِهِ، ثُمَّ هَجَمَ عَلَى الْمَدِينَةِ فَجْأَةً،

وَضَرَبَهَا ضَرْبَةً عَظِيمَةً، وَأَهْلَكَ شَعْبًا كَثِيرًا مِنْ إِسْرَائِيلَ، وَسَلَبَ غَنَائِمَ الْمَدِينَةِ وَأَحْرَقَهَا بِالنَّارِ، وَهَدَمَ بُيُوتَهَا وَأَسْوَارَهَا مِنْ حَوْلِهَا، وَسَبَوُا النِّسَاءَ وَالأَوْلاَدَ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الْمَوَاشِي، وَبَنَوْا عَلَى مَدِينَةِ دَاوُدَ سُورًا عَظِيمًا مَتِينًا وَبُرُوجًا حَصِينَةً فَصَارَتْ قَلْعَةً لَهُمْ، وَجَعَلُوا هُنَاكَ أُمَّةً أَثِيمَةً رِجَالاً مُنَافِقِينَ، فَتَحَصَّنُوا فِيهَا، وَوَضَعُوا فِيهَا السِّلاَحَ وَالطَّعَامَ وَجَمَعُوا غَنَائِمَ أُورُشَلِيمَ، وَوَضَعُوهَا هُنَاكَ فَصَارُوا لَهُمْ شَرَكًا مُهْلِكًا، وَكَانَ ذلِكَ مَكْمَنًا لِلْمَقْدِسِ، وَشَيْطَانًا خَبِيثًا لإِسْرَائِيلَ عَلَى الدَّوَامِ، فَسَفَكُوا الدَّمَ الزَّكِيَّ حَوْلَ الْمَقْدِسِ وَنَجَّسُوا الْمَقْدِسَ. فَهَرَبَ أَهْلُ أُورُشَلِيمَ بِسَبَبِهِمْ، فَأَمْسَتْ مَسْكَنَ غُرَبَاءَ وَصَارَتْ غَرِيبَةً لِلْمَوْلُودِينَ فِيهَا، وَأَبْنَاؤُهَا هَجَرُوهَا. وَرَدَّ مَقْدِسُهَا خَرَابًا كَالْقَفْرِ، وَحُوِّلَتْ أَعْيَادُهَا مَنَاحَةً وَسُبُوتُهَا عَارًا وَعِزُّهَا اضْمِحْلاَلاً. وَعَلَى قَدْرِ مَجْدِهَا أَكْثَرَ هَوَانُهَا، وَرِفْعَتُهَا آلَتْ إِلَى مَنَاحَةٍ. وَكَتَبَ الْمَلِكُ أَنْطِيُوكُسُ إِلَى مَمْلَكَتِهِ كُلِّهَا بِأَنْ يَكُونُوا جَمِيعُهُمْ شَعْبًا وَاحِدًا، وَيَتْرُكُوا كُلٌّ وَاحِدٍ سُنَنَهُ. فَأَذْعَنَتِ الأُمَمُ بِأَسْرِهَا لِكَلاَمِ الْمَلِكِ. وَكَثِيرُونَ مِنْ إِسْرَائِيلَ ارْتَضَوْا دِينَهُ) أي الوثنية (وَذَبَحُوا لِلأَصْنَامِ، وَدَنَّسُوا السَّبْتَ. وَأَنْفَذَ الْمَلِكُ كُتُبًا عَلَى أَيْدِي رُسُلٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَمُدُنِ يَهُوذَا، أَنْ يَتْبَعُوا سُنَنَ الأَجَانِبِ فِي الأَرْضِ. وَيَمْتَنِعُوا عَنِ الْمُحْرَقَاتِ وَالذَّبِيحَةِ وَالسَّكِيبِ[1] فِي الْمَقْدِسِ، وَيُدَنِّسُوا السُّبُوتَ وَالأَعْيَادَ، وَيُنَجِّسُوا الْمَقَادِسَ وَالْقَدِّيسِينَ، وَيَبْتَنُوا مَذَابِحَ وَهَيَاكِلَ وَمَعَابِدَ لِلأَصْنَامِ، وَيَذْبَحُوا الْخَنَازِيرَ وَالْحَيَوَانَاتِ النَّجِسَةَ، وَيَتْرُكُوا بَنِيهِمْ قُلْفًا، وَيُقَذِّرُوا نُفُوسَهُمْ بِكُلِّ نَجَاسَةٍ وَرِجْسٍ، حَتَّى يَنْسَوُا الشَّرِيعَةَ

١. السكيب «مشتق من سكب» وهو عبارة عن خمر كان يُسكب في القدس بمقدار معيّن مع طقوس تقديم القرابين لدى اليهود. وقد عرف الوثنيون السكيب من قبل، حيث كانوا يسكبون مقداراً من الدم مع القربان الذي يقدّمونه لآلهتهم.

وَيُغَيِّرُوا جَمِيعَ الأَحْكَام. وَمَنْ لاَ يَعْمَلْ بِمُقْتَضَى كَلاَم الْمَلِك يُقْتَلْ. وَكَتَبَ بِمِثْلِ هذَا الْكَلاَم كُلِّه إِلَى مَمْلَكَته بِأَسْرِهَا، وَأَقَامَ رُقَبَاءَ عَلَى جَمِيع الشَّعْب، وَأَمَرَ مَدَائِنَ يَهُوذَا بِأَنْ يَذْبَحُوا فِي كُلِّ مَدِينَة. فَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ كَثِيرُونَ مِنَ الشَّعْب، كُلُّ مَنْ نَبَذَ الشَّرِيعَةَ فَصَنَعُوا الشَّرَّ فِي الأَرْض، وَأَلْجَأُوا إِسْرَائِيلَ إِلَى الْمُخْتَبَآتِ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ فَرُّوا إِلَيْه)[1].

• القصة في مرويات المسلمين:

روى المسلمون في كتب التفسير والحديث والتاريخ حول هذه القصة روايات كثيرة تضاربت في مضامينها، ولم تعتمد على أساس متين يمكن الركون إليه في تصديق تفاصيلها، وسأكتفي بعرض بعض النماذج التي تفي للدلالة على الغرض، مع ملاحظة ترتيب العرض وفقاً للتدرّج في توسّع القصة في تلك المرويات، والتنبيه بخصوص الموارد التي تتضح فيها مخالفة الظاهر القرآني.

○ **الرواية الأولى:** (أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**﴾ قال: هي قرية على شاطيء البحر بين مصر والمدينة يقال لها أيلة، فحرَّم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم، فكانت تأتيهم يوم سبتهم شُرّعاً في ساحل البحر، فإذا مضى يوم السبت لم يقدروا عليها، فمكثوا كذلك ما شاء الله، ثم إنّ طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم، فنهتهم طائفة فلم يزدادوا إلا غيّاً. فقالت طائفة من النهاة: تعلَمون أن هؤلاء قومٌ قد حَقَّ عليهم العذاب ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُم**﴾ وكانوا أشد غضباً من الطائفة الأخرى، وكلٌّ قد

١. الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر المكابيين الأول، الأصحاح١، ١-٥٦.

كانوا ينهون، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالتا: ﴿**لِمَ تَعِظُونَ**﴾ والذين قالوا ﴿**مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُم**﴾، وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة)[١].

لا نجد في هذه الرواية ما يَخرج عن ظاهر سياق القصة القرآنية إلا من حيث تحديد اسم القرية، وتبرئة الفئة الثانية وعدم شمولها بالعذاب، على الرغم من أن ظاهر الآيات القرآنية أنهم كانوا من المشمولين.

○ **الرواية الثانية:** (وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ...**﴾ الآية. قال: إن الله إنما افترض على بني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم يوم الجمعة، فخالفوا إلى السبت فعظَّموه وتركوا ما أُمروا به) دخل هنا عنصر جديد في القصة لا دليل عليه من القرآن، كما وليس بالضرورة أن يكون اليوم الذي خصّصه الله «عز وجل» لعبادته في كل الشرائع هو يوم واحد، أي يوم الجمعة، وقد مرّ بنا سابقاً التعرّض لذلك في بيان قوله «تعالى»: ﴿**إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾[٢]، ولكن هكذا شاء الراوي أن يُضيف عنصراً من عنده تحقيقاً لمزيد من الإثارة، وإظهاراً للعلم، أو تلاعباً في مدلول القصة القرآنية، لاسيما وأن النصوص العديدة ومن بينها ظاهر قوله «عز وجل»: ﴿**وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُواْ فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا، فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنبِيَاء**

١. السيوطي: الدر المنثور، ج٣، ص ٢٥١-٢٥٢.
٢. سورة النحل:١٢٣-١٢٤.

بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاّ قَلِيلاً﴾[١] تؤكّد على أن تشريع السبت كان قائماً منذ عهد النبي موسى «عليه السلام» وليس هو من مبتدعات أصحاب تلك القرية أو مَن سبقهم، فارتباط رفع الطور مع أخذ الميثاق منهم، وفي ضمنه ميثاق السبت - كما في الآية - خير دليل على ذلك، وقد تعرّضْتُ إلى موضوع رفع الطور في الجزء الأول من الكتاب.

وكما فعل هذا الراوي، قام آخر مجهول بنسبة هذا القول إلى الإمام جعفر الصادق «عليه السلام»، ففي علل الشرائع: (.... عن رجل، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: إن اليهود أُمروا بالإمساك يوم الجمعة فتركوا يوم الجمعة وأمسكوا يوم السبت، فحُرِّم عليهم الصيد يوم السبت)[٢].

نعود من جديد إلى رواية ابن عباس حول القصة: (فلما ابتدعوا السبت ابتُلوا فيه) اختُبِروا فيه (فحُرِّمت عليهم الحيتان، وهي قرية يقال لها مدين بين أيلة والطور، فكانوا إذا كان يوم السبت شَرعت لهم الحيتان ينظرون إليها في البحر، فإذا انقضى السبت ذهبت فلم تُرَ حتى مثله من السبت المقبل، فإذا جاء السبت عادت شُرّعاً. ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فحزمه بخيط ثم ضرب له وتداً في الساحل وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغد جاء فأخذه فأكله سرّاً) بحسب هذه الرواية فإن هذا التصرّف كان بداية المخالفة، ولا نعلم مِن أين جاء ابن عباس أو مَن وضع الرواية على لسانه بهذا التفصيل؟ (ففعلوا ذلك وهم ينظرون لا يتناهون إلا بقية منهم، فنهوهم حتى إذا ظهر ذلك في

١. سورة النساء: ١٥٤-١٥٥.

٢. الشيخ الصدوق: علل الشرائع، ص٣٥.

الأسواق علانية قالت طائفة للذين ينهونهم ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّٰهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ قالوا ﴿**قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ**﴾ في سخطنا أعمالهم (ففعلوا ذلك وهم ينظرون لا يتناهون إلا بقية منهم، فنهوهم حتى إذا ظهر ذلك في الأسواق علانية قالت طائفة للذين ينهونهم ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللّٰهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا**﴾ قالوا ﴿**مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ**﴾ في سخطنا أعمالهم ﴿**وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾. فكانوا أثلاثاً. ثلثاً نهى، وثلثاً قالوا ﴿**لِمَ تَعِظُونَ**﴾ وثلثاً أصحاب الخطيئة، فما نجا إلا الذين نهوا وهلك سائرهم) وهذا أوفق بظاهر الآيات من الرواية الأولى(فأصبح الذين نهوا ذات غداة في مجالسهم يتفقدون الناس لا يرونهم، وقد باتوا من ليلتهم وغلّقوا عليهم دورهم، فجعلوا يقولون: إن للناس شأناً فانظروا ما شأنهم) أي أن الوضع غير طبيعي إذ لم يخرجوا من بيوتهم كالمعتاد ويستدعي التحقق (فاطّلعوا في دورهم فإذا القوم قد مُسِخوا ! يعرفون الرجل بعينه وإنّه لَقِرد، والمرأة بعينها، وإنها لقِردة)[1] وهذه إضافة من عند الرواي، وهي وإن كانت لا تتعارض والقصة القرآنية إلا أن المجيء بها هنا لا دليل عليه.

ولو قارنا بين الروايتين نعرف أننا أمام قُصّاص بدأوا يطوّرون القصة على لسان ابن عباس بصورة تدريجية،فلاحظ كيف تطوّرت في مرحلة لاحقة.

○ **الرواية الثالثة:** (وأخرج عبدُ بنُ حميد عن عكرمة) اعتدنا أن يروي عكرمة عن ابن عباس، فمن المحتمل أنه يرويها عنه هنا أيضاً وإن لم يذكر اسمه (قال: كانت قرية على ساحل البحر يقال لها أيلة، وكان على ساحل

١. السيوطي: الدر المنثور، ج٣، ص٢٥٢.

البحر صنمان من حجارة مستقبِلان الماء، يقال لأحدهما لقيم والآخر لقمانة، فأوحى الله إلى السمك، أن حج يوم السبت إلى الصنمين، وأوحى إلى أهل القرية: أني قد أمرت السمك أن يحجّوا إلى الصنمين يوم السبت فلا تعرضوا للسمك يوم لا يمتنع منكم، فإذا ذهب السبت فشأنكم به فصيدوه) دخلت هنا تفاصيل جديدة تُضيف المزيد من الإثارة على القصة، وهي ليست إلا من بنات خيال الراوي القاص، وبحسب القصة القرآنية لا علاقة لأية أصنام بالاختبار الإلهي وبما سيجري على القوم، وهل يُغري الله الناس بالاعتقاد بكرامة للأصنام ويوهمهم بذلك لكي ينحرفوا عن التوحيد وبوحي منه؟ (فكان إذا طلع الفجر يوم السبت أقبل السمك شُرّعاً إلى الصنمين لا يمتنع مِن آخذٍ يأخذه، فظهر يوم السبت شيء من السمك في القرية فقالوا: نأخذه يوم السبت فنأكله يوم الأحد، فلما كان يوم السبت الآخر ظهر أكثر من ذلك، فلما كان السبت الآخر ظهر السمك في القرية، فقام إليهم قوم منهم فوعظوهم فقالوا: اتقوا الله. فقام آخرون فقالوا ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾. فلما كان سبت من تلك الأسبات فشى السمك في القرية، فقام الذين نَهوا عن السوء فقالوا: لا نبيت معكم الليلة في هذه القرية. فقيل لهم: لو أصبحتم فانقلبتم بذراريكم ونسائكم. قالوا: لا نبيت معكم الليلة في هذه القرية، فإن أصبحنا غدونا فأخرجنا ذرارينا وأمتعتنا من بين ظهرانيكم، وكان القوم شاتين) كل هذه التفاصيل إضافات من قبل الراوي زيد بها على الرواية الثانية، ولا دليل عليها (فلما أمسوا أغلقوا أبوابهم، فلما أصبحوا لم يَسمع

القوم لهم صوتاً ولم يَروا سِرجاً خرج من القرية...! قالوا: قد أصاب أهل القرية شر...! فبعثوا رجلاً منهم ينظر إليهم، فلما أتى القرية إذا الأبواب مغلّقة عليهم، فاطّلع في دار فإذا هم قرود كلهم، المرأة أنثى والرجل ذكر، ثم اطّلع في دار أخرى فإذا هم كذلك، الصغير صغير والكبير كبير) هذه إضافة لم نجدها في الرواية الثانية، ثم يسترسل الرواي بإضافة المزيد من التفاصيل من جيبه (ورجع إلى القوم فقال: يا قوم نزل بأهل القرية ما كنتم تحذرون، أصبحوا قردة كلهم لا يستطيعون أن يفتحوا الأبواب، فدخلوا عليهم فإذا هم قردة كلهم، فجعل الرجل يوميء إلى القرد منهم أنت فلان، فيومىء برأسه: نعم. وهم يبكون فقالوا: أبْعَدَكم الله! قد حذّرناكم هذا، ففتحوا لهم الأبواب فخرجوا فلحقوا بالبرِّيَّة)[١].

○ **الرواية الرابعة:** قال القرطبي: (ورُوي في قصص هذه الآية أنها كانت في زمن داود «عليه السلام»، وأنّ إبليس أوْحَى إليهم فقال: إنما نُهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتّخَذوا الحياض؛ فكانوا يسوقون الحِيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد)[٢]. وهذا التفصيل لم نجده في الروايات السابقة، ولا نعلم مَن الراوي وعمّن أخذ الرواية.

○ **الرواية الخامسة:** (وروى أشهب عن مالك قال: زعم ابن رُومان[٣])

١. السيوطي: الدر المنثور، ج٣، ص ٢٥٣.

٢. القرطبي: جامع الأحكام، ج٤، ص ٢١٩.

٣. وقد قال ابن عبدالبر في «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»: (أبو روح يزيد بن رومان الأسدي مولى الزبير بن العوام، كان أحد قراء أهل المدينة، وكان عالماً بمغازي رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، وكان ثقة سكن المدينة، وبها كانت وفاته سنة ثلاثين ومائة).

وفي هذا التعبير ما لا يخفى من عدم قناعة مالك بما قال لمجهولية المصدر (أنهم كانوا يأخذ الرجل خيطاً ويضع فيه وَهَقة) الحبل في أَحد طرفيه أُنشوطةٌ يُطْرح في عنق الدَّابة حتى تؤخَذَ (وألقاها في ذنَب الحوت، وفي الطرف الآخر من الخيط وَتِد وتركه كذلك إلى الأحد، ثم تطرّق الناس حين رأُوا مَن صنع هذا لا يُبْتَلى، حتى كثُرَ صيد الحوت، ومُشي به في الأسواق، وأعلن الفَسَقة بصيده) أي جاهروا بذلك (فقامت فرقة من بني إسرائيل ونهت، وجاهرت بالنهي واعتزلت. وقيل: إن الناهين قالوا: لا نساكنكم؛ فقسّموا القرية بجدار) هذه إضافة جديدة (فأصبح الناهون ذات يوم في مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا: إن للناس لشأناً؛ فعلَوْا على الجدار فنظروا فإذا هم قِردة، ففتحوا الباب ودخلوا عليهم، فعرفت القِردة أنسابَها من الإنس، ولم تعرف الإنس أنسابهم من القِردة فجعلت القِردة تأتي نسيبها من الإنس فَتَشُم ثيابه وتبكي) اختلفت التفاصيل هنا عن رواية سابقة، ومن الواضح أن الراوي أراد أن يضفي بعداً عاطفياً على هذا المشهد (فيقول: ألم ننهكم! فتقول برأسها نعم. قال قتادة: صار الشبان قردةً والشيوخ خنازير) هذه إضافة تخالف ما في القرآن من أن الله قال لهم كونوا قردة خاسئين (فما نجا إلا الذين نَهوْا، وهلك سائرهم)[1].

○ **الرواية السادسة:** قال القرطبي في بيان تفاصيل أخرى عمَد مِن خلالها إلى تحديد عدد كل فئة من الفئات الثلاث التي انقسم إليها مجتمع تلك القرية: (وقال جمهور المفسرين: إن بني إسرائيل افترقت ثلاث فِرَق،

١. القرطبي: جامع الأحكام، ج١، ص ٢٩٩.

وهو الظاهر من الضمائر في الآية. فرقة عَصَتْ وصادت، وكانوا نحواً من سبعين ألفاً. وفرقة نَهَت واعتزلت، وكانوا اثنَيْ عشر ألفاً. وفرقة اعتزلت ولم تَنْهَ ولم تَعْص)[١] ولم يحدّدوا عددهم.

○ **الرواية السابعة:** عن الإمام علي زين العابدين «عليه السلام» أنه قال: (فكانوا في المدينة نيفاً وثمانين ألفاً، فعل هذا منهم سبعون ألفاً، وأنكر عليهم الباقون)[٢]. ومضمونها قريب من مضمون ما نقله القرطبي عن جمهور المفسرين، ولم تثبت صحة نسبة هذا التفسير الموجود بأيدي الناس إلى الإمام الحسن العسكري «عليه السلام». قال السيد أبوالقاسم الخوئي: (التفسير المنسوب إلى العسكري «عليه السّلام» لم يثبت بطريق قابل للاعتماد عليه، فإن في طريقه جملة من المجاهيل كمحمّد بن القاسم الاسترابادي، ويوسف بن محمد بن زياد، وعلي بن محمد بن سيار، فليلاحظ هذا إذا أريد بالتفسير المنسوب إلى العسكري «عليه السّلام» هو الّذي ذكره الصدوق «قدّس سرّه» بإسناده عن محمد بن القاسم الاسترابادي، والظاهر أنه مجلّد واحد كما لا يخفى على من لاحظ التفسير الموجود بأيدينا اليوم. وأما لو أريد به هو الّذي ذكره محمّد بن علي بن شهرآشوب على ما نقله في المستدرك، فالسند إليه صحيح، لأنه ذكر الحسن بن الخالد البرقي أخو محمد بن خالد من كتبه تفسير العسكري من إملاء الإمام «عليه السّلام»، والحسن بن خالد ممن وثّقه النجاشي. وللمشايخ إليه طرق صحيحة، إلاّ أن الظاهر أنه غير التفسير الّذي ذكره الصدوق بإسناده عن محمد بن القاسم الاسترابادي، لأنه نقل أن التفسير

١. القرطبي: جامع الأحكام، ج٧، ص ٣٠٧.

٢. العسكري: تفسير الإمام العسكري، ص ٢٦٩.

الذي عُدّ مِن كتب البرقي مائة وعشرون مجلداً، وهذا لم يصل إلينا أبداً، وإنما الموجود بأيدينا مجلّد واحد يتطابق لما نقله الصدوق «قدّس سرّه»)[١].

○ **الرواية الثامنة:** في تفسير ابن كثير روايات أخرى تضمنت تفاصيل لم تذكرها الروايات السابقة، ومن بينها الرواية التالية التي تمثّل حواراً بين عكرمة وبين سيّده ابن عباس، ولا ندري هل اخترع عكرمة هذا الحوار كما هي عادته، أم الرجل المجهول الذي روى عنه، أم ابن جُريج[٢]: (قال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج، حدثني رجل عن عكرمة قال: جئتُ ابنَ عباس يوماً وهو يبكي، وإذا المصحف في حِجْره، فأعظمْتُ أنْ أدنو منه، ثم لم أزل على ذلك حتى تقدمتُ فجلست، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس جعلني الله فداك؟ قال: فقال: هؤلاء الورقات. قال: وإذا هو في سورة الأعراف، قال: تعرف أيلة؟ قلت: نعم، قال: فإنه كان بها حي من اليهود) هذا تفصيل جديد حيث لم تذكر الروايات السابقة أن اليهود يشكّلون جزء فقط من أبناء القرية (سيقت الحيتان إليهم يوم السبت، ثم غاصت، لا يقدرون عليها حتى يغوصوا بعد كَدّ ومؤنة شديدة) أيضاً لا نجد هذا التفصيل في الروايات السابقة (كانت تأتيهم يوم سبتهم شُرّعاً بيضاء سماناً، كأنها الماخض تنتطح ظهورها لبطونها بأفنيتهم) الماخض: الحامل كبيرة البطن التي يأتيها المخاض وهو

١. الخوئي: كتاب الاجتهاد والتقليد من التنقيح في شرح العروة الوثقى، ص٢٢١.

٢. في سير أعلام النبلاء للذهبي: (قال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعي، وسعيد بن عبد العزيز، وابن جريج: لمن طلبتم العلم؟ كلهم يقول: لنفسي. غير أن ابن جريج فإنه قال: طلبته للناس. قلت: ما أحسن الصدق! واليوم تسأل الفقيه الغبي: لمن طلبت العلم؟ فيبادر ويقول: طلبته لله، ويكذب، إنما طلبه للدنيا، ويا قلة ما عرف منه) ولا أدري هل في عدم الإخلاص لله مديح أم اكتفى الوليد بالصدق منقبة؟ وفي سير أعلام النبلاء للذهبي: (قلت: الرجل في نفسه ثقة، حافظ، لكنه يدلّس بلفظة «عن» و «قال»)! وقد ذكرت في الجزء الأول من الكتاب أن المكثرين في النقل عن الإسرائيليات على ثلاث مراتب، المرتبة الأولى: المكثرون جداً ومنهم ابن جريج.

تفصيل آخر جديد (فكانوا كذلك برهة من الدهر، ثم إن الشيطان أوحى إليهم فقال: إنما نُهِيتُهم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت، فخذوها فيه، وكلوها في غيره من الأيام. فقالت ذلك طائفة منهم، وقالت طائفة: بل نُهيتم عن أكلها وأخذها وصيدها يوم السبت. فكانوا كذلك حتى جاءت الجمعة المقبلة، فغدت طائفة بأنفسها وأبنائها ونسائها، واعتزلت طائفة ذات اليمين وتنحّت، واعتزلت طائفة ذات اليسار وسكتت، وقال الأيمنون ويلكم، اللّه اللّه، ننهاكم أن تتعرضوا لعقوبة اللّه، وقال الأيسرون ﴿**لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا لله مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيدًا**﴾ قال الأيمنون ﴿**مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾ أي ينتهون، إن ينتهوا فهو أحب إلينا أن لا يُصابوا ولا يَهلكوا، وإن لم ينتهوا فمعذرة إلى ربكم) هذه التقسيمة إلى اليمين واليسار والكلمات المنقولة على ألسنتهم كلها إضافات من عند مخترع الرواية (فمضوا على الخطيئة، وقال الأيمنون: فقد فعلتم يا أعداء اللّه، واللّه لا نبايتكم الليلة في مدينتكم، واللّه ما نراكم تُصبحون حتى يُصبحكم اللّه بخسف أو قذف أو بعض ما عنده من العذاب. فلما أصبحوا ضربوا عليهم الباب، ونادوا فلم يُجابوا، فوضعوا سلّماً) إضافة جديدة (وأعلَوا سور المدينة رجلاً، فالتفت إليهم، فقال: أي عباد اللّه، قردة - واللّه - تعادي تعاوي لها أذناب) وهذه أيضاً إضافات جديدة (قال ففتحوا فدخلوا عليهم، فعرفت القرود أنسابها من الإنس... إلخ)[1].

○ **الرواية التاسعة:** ونقل ابن كثير رواية ابن رومان التي مضت بعنوان «الرواية الخامسة» ولكن بتفاصيل أخرى حول شواء السمك، والحوار بين أوّل شخص تعدّى وبين بعض أهل القرية: (قال: كانت تأتيهم يوم السبت، فإذا

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٢٣٥-٢٣٦.

كان المساء ذهبَت، فلا يُرى منها شيء إلى يوم السبت الآخر، فاتخذ لذلك رجل خيطاً ووتداً، فربط حوتاً منها في الماء يوم السبت، حتى إذا أمسوا ليلة الأحد أخذه فاشتواه، فوجد الناس ريحه، فأتوه فسألوه عن ذلك فجحدهم) فأنكر معرفته بشيء (فلم يزالوا به حتى قال لهم: فإنه جلد حوت وجدناه. فلما كان السبت الآخر فعل مثل ذلك، ولا أدري لعله قال: ربط حوتين، فلما أمسى من ليلة الأحد، أخذه فاشتواه، فوجدوا رائحة فجاؤوا فسألوه فقال لهم: لو شئتم صنعتم كما أصنع، فقالوا له: وما صنعت؟ فأخبرهم، ففعلوا مثل ما فعل، حتى كَثُر ذلك. وكانت لهم مدينة لها رَبَض) ما يشبه السور (يغلقونها عليهم، فأصابهم من المسخ ما أصابهم.... إلخ)[١].

○ **الرواية العاشرة:** عن عكرمة عن ابن عباس: (.... ثم إن رجلاً منهم أخذ حوتاً فخزم أنفه، ثم ضرب له وتداً في الساحل، وربطه وتركه في الماء، فلما كان الغد أخذه فشواه فأكله) وذِكر خَزْم الأنف لم يرد من قبل (فعل ذلك وهم ينظرون ولا ينكرون، ولا ينهاه منهم أحد إلا عصبة منهم نهوه حتى ظهر ذلك في الأسواق، ففُعل علانية.... إلخ)[٢].

○ **الرواية الحادية عشرة:** أما في تفاسير الشيعة الإمامية فنجد الرواية التالية المروية في تفسير علي بن إبراهيم القمي أنه قال: (حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن علي بن رياب عن أبي عبيدة عن أبي جعفر «عليه السلام» قال: وجدنا في كتاب علي «عليه السلام» أن قوماً من أهل أيكة

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٢٣٦.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٢، ص ٢٣٦.

من قوم ثمود) فهم بذا ليسوا من بني إسرائيل، ولا نعلم كيف سبق النبي موسى ثمود في الترتيب الزمني، وما علاقة تشريع السبت بثمود، وهذا حتماً مخالف لظاهر الآيات القرآنية (وإن الحيتان كانت سبقت إليهم يوم السبت ليختبر الله طاعتهم في ذلك، فشرعت إليهم يوم سبتهم في ناديهم وقدّام أبوابهم في أنهارهم وسواقيهم فبادروا إليها فأخذوا يصطادونها) هذه إضافة لم نجدها في الروايات السابقة (فلبثوا في ذلك ما شاء الله، لا ينهاهم عنها الأحبار ولا يمنعهم العلماء من صيدها.... إلخ)[١].

وذكرت في بداية الكتاب تحت عنوان «مسائل مهمة» أن نسبة هذه النسخة المتداولة من التفسير لعلي بن إبراهيم القمي غير ثابتة.

○ **الرواية الثانية عشرة:** وفي رواية أخرى في نفس الكتاب تفصيل جديد، ولكن الرواية عن أبي الجارود وليست منسوبة لعلي بن إبراهيم القمي: (وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر «عليه السلام»..... إن أصحاب السبت قد كان أملى الله لهم حتى أَثِروا وقالوا: إن السبت لنا حلال، وإنما كان حُرِّم على أولينا، وكانوا يعاقَبون على استحلالهم السبت، فأما نحن فليس علينا حرام، وما زلنا بخير منذ استحللنا، وقد كثرت أموالنا وصحّت أبداننا، ثم أخذهم الله ليلاً وهم غافلون)[٢].

وهي بذا تتعارض مع رواية أخرى في نفس الكتاب ولكن مروية عن القمي وفيها أن التشريع كان يخصّ الجمعة، وأن هؤلاء القوم هم الذين بدّلوه إلى السبت.

---

١. القمي: تفسير القمي، ج١، ص ٢٤٤.

٢. القمي: تفسير القمي، ج١، ص ١٨١.

○ **الرواية الثالثة عشرة:** وفيها ما يخالف ظاهر القصة القرآنية حيث توسّعت في المسخ: (.... عن الكلبي النسابة قال: سألت أبا عبد الله «عليه السلام» عن الجِرّي؟ فقال: إن الله «عز وجل» مسَخ طائفة من بني إسرائيل، فما أخذ منهم بحراً فهو الجرّي والزمّير والمارماهي وما سوى ذلك، وما أخذ منهم براً فالقردة والخنازير والوبَر والورل وما سوى ذلك)[١].

○ **الرواية الرابعة عشرة:** وهي رواية مرسلة وردت في تفسير العياشي عن هارون بن عبد العزيز رفعه إلى أحدهم «عليهم السلام»، وفي مضمونها ما يُضحك الثكلى، قال: (جاء قوم إلى أمير المؤمنين «عليه السلام» بالكوفة وقالوا له: يا أمير المؤمنين، إن هذه الجراري) جمع جرّي[٢] (تباع في أسواقنا، قال: فتبسّم أمير المؤمنين «عليه السلام» ضاحكاً ثم قال: قوموا لأريكم عجباً، ولا تقولوا في وصيِّكم إلا خيراً. فقاموا معه فأتوا شاطئ الفرات فتفل فيه تفلة وتكلّم بكلمات فإذا بجرّيثة رافعة رأسها، فاتحة فاها، فقال له أمير المؤمنين «عليه السلام»: مَن أنت؟ الويل لك ولقومك! فقال: نحن من أهل القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يقول الله في كتابه: ﴿**إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً**﴾ الآية) يا لها من سمكة تحفظ القرآن! (فعرض الله علينا ولايتك فقعدنا عنها، فمسَخنا الله) ما بعد هذا التحريف للقصة القرآنية من تحريف، فقد بزّ به الواضع كل مَن سبقه ومَن جاء بعده (فبعضُنا في

١. الكليني: الفروع من الكافي، ج٢، ص١٤٥.

٢. السلوريات أو القراميط أو أسماك الجري هي رتبة من الأسماك التي تضم الكثير من الأنواع، تتميز هذه الأسماك عن غيرها بأنها تمتلك طبقة عظمية تغطي جلدها بدلاً من القشور والحراشف. تعيش هذه الأسماك في طبقة الماء السفلية،على القاع. يتغذى هذا النوع من الأسماك على الخضر والنباتات والأعشاب بالإضافه إلى الديدان والأسماك الصغيرة وحتى الجرذان الصغيرة.

البر وبعضنا في البحر، فأما الذين في البحر فنحن الجراري، وأما الذين في البر فالضب واليربوع. قال: ثم التفت أمير المؤمنين إلينا فقال: أسمعتم مقالتها؟ قلنا: اللهم نعم) لم يكتف الكذّاب بهذا القدَر، بل أضاف معلومة لم ولن يسمع بها أحد في علم الأحياء، وكأنّه أراد الإمعان في الاستخفاف بعقول الناس (قال: والذي بعث محمداً بالنبوة لَتحيض كما تحيض نساؤكم)[1].

○ **الرواية الخامسة عشرة:** وهي مروية في التفسير المنسوب للإمام العسكري «عليه السلام» عن الإمام زين العابدين «عليه السلام» وفيها أن الطريقة التي اعتُمدت للتحايل على التشريع كانت كالتالي: (فتوسّلوا إلى حيلة ليحلّوا بها لأنفسهم ما حرم الله، فخدّوا أخاديد وعملوا طرقاً تؤدّي إلى حياض، يتهيأ للحيتان الدخول فيها من تلك الطرق ولا يتهيأ لها الخروج إذا همت بالرجوع، فجاءت الحيتان يوم السبت جارية على أمان الله لها، فدخلت في الأخاديد وحصلت في الحياض والغدران، فلما كانت عشية اليوم همّت بالرجوع منها إلى اللجج لتأمن صائدها، فرامت الرجوع فلم تقدر، فبقيت ليلتها في مكان يتهيأ أخذُها بلا اصطياد، لاسترسالها فيه وعجزها عن الامتناع لمنع المكان لها، فكانوا يأخذونها يوم الأحد، ويقولون: ما اصطدنا في السبت، وإنما اصطدنا في الأحد، وكذب أعداء الله بل كانوا آخذين لها بأخاديدهم التي عملوها يوم السبت حتى كثر من ذلك مالُهم وثراؤهم وتنعّموا بالنساء وغيرهن لاتساع أيديهم به). وفي تتمة الرواية إضافة لم ترد في الروايات السابقة: (فما زالوا كذلك ثلاثة أيام، ثم بعث الله عليهم مطراً

١. العياشي: تفسير العياشي، ج٢، ص ٣٥.

وريحاً فجرفتهم إلى البحر، وما بقي مِسخٌ بعد ثلاثة أيام، وأما الذين ترون من هذه المصوَّرات بصورها فإنما هي أشباهها، لا هي بأعيانها ولا مِن نسلها)[١].

○ **الرواية السادسة عشرة:** ونقل المجلسي رواية عن ابن عباس لم يذكر مصدرها، ثم جاء بتعليق من عنده، دون تمييز بين الرواية والتعليق، فإن كانت تتمة لكلام ابن عباس فهي لم ترد في ما تناولناه من رواياته. والعبارة كالتالي: (قال ابن عباس: فمسَخهم الله عقوبة لهم، وكانوا يتعاوون) هل انتهت رواية المجلسي عن ابن عباس إلى هذا الحد أم أنها اشتملت العبارة التالية؟ (وبقوا ثلاثة أيام لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا، ثم أهلكهم الله «تعالى»، وجاءت ريح فهبّت بهم فألقتهم في الماء، وما مسخ الله أمة إلا أهلكها) من جديد لا نعلم هل انتهت رواية ابن عباس إلى هنا أم امتدت لتشمل جزءً من العبارة التالية؟ (فهذه القردة والخنازير ليست من نسل أولئك) ما بعد هذه العبارة هي من كلام المجلسي حتماً: (ولكن مَسْخ أولئك على صورة هؤلاء يدل عليه إجماع المسلمين على أنه ليس في القردة والخنازير من هو من أولاد آدم، ولو كانت من أولاد المسوخين لكانت من بني آدم)[٢].

○ **الرواية السابعة عشرة:** وبخلاف القول ببقائهم ثلاثة أيام، نقل المجلسي قولين آخرين، وعلّق بعد ذلك قائلاً: (وقيل: عاشوا سبعة أيام ثم ماتوا، عن مقاتل، وقيل: إنهم توالدوا، عن الحسن، وليس بالوجه، لأن من المعلوم أن القردة ليست من أولاد آدم، كما أن الكلاب ليست منهم، ووردت

١. العسكري: تفسير الإمام العسكري، ص ٢٦٩-٢٧١.

٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٤، ص ٥٩ .

الرواية عن ابن مسعود قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: إن الله «تعالى» لم يمسخ شيئاً فجعل له نسلاً وعقباً)[١].

• القصة لدى أهل الكتاب:

عندما نعود إلى الآيات القرآنية سنجد أن الخطاب في المورد الأول والثاني في سورتي الأعراف والبقرة كان موجَّهاً لبني إسرائيل وبالصورة التالية:

- ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾.
- ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾.

بينما كان الخطاب في المورد الثالث «سورة النساء» للذين أوتوا الكتاب:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ .... أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ﴾.

وهذا يعني أن القصة لا بد وأن تكون معلومة لدى أهل الكتاب عموماً أو خصوص بني إسرائيل - أو اليهود - منهم، لا سيما بلحاظ قوله «سبحانه تعالى»: ﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾، وخصوصاً أن كلمة ﴿لَقَدْ﴾ هي في الأصل «قد»، وتفيد التحقيق إذا دخلت على الفعل الماضي، وإدخال اللام عليها يكون بغرض التوكيد. وبالتالي يُفترض أن نجد في نصوص اليهود - على وجه التحديد - ما يدل على هذه القصة، فالمسألة لا تخص تاريخ النصارى، على اعتبار أن الخطاب لما كان موجّهاً لبني إسرائيل، وضمن قصص وأحداث جرت في عهد ما قبل بعثة السيد المسيح «عليه السلام»، فلابد أن تكون هذه القصة ضمن التراث اليهودي، وإن كانت بداية النصرانية قد ظهرت في بيئة

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٤، ص ٦٢.

بني إسرائيل أيضاً. فهل في العهد القديم «التنخ» ما يشير إلى هذه القصة؟

على الرغم من الخطاب القرآني لبني إسرائيل الدال على علمهم بهذه القصة إلا أننا عندما نقوم بالبحث في العهد القديم لن نصل إلى أي نص يرتبط بهذا الحدث. وقد التفت المفسّر ابن عاشور إلى هذه المسألة، وافترض أن القرآن أشار ضمنياً إلى أنها ليست جزءً من العهد القديم، معتبراً أن وراء إخفاء القصة من قبلهم سبباً ما. قال: (غُيّر أسلوب الخبر عن بني إسرائيل هُنا، فابتدىءَ ذِكرُ هذه القصة بطلب أن يسأل سائل بني إسرائيل الحاضرين عنها) حيث كانت الآيات السابقة بصيغة الخبر ﴿**وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[1].

ثم صارت بصيغة الخطاب للحاضر: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ**﴾، قال: (فنعلم من ذلك أن لهذه القصص الآتية شأناً غير شأن القصص الماضية، ولا أحسب ذلك إلاّ من أجل أن هذه القصة ليست مما كُتب في توراة اليهود ولا في كتب أنبيائهم، ولكنها مما كان مروياً عن أحبارهم، ولذلك افتُتحت بالأمر بسؤالهم عنها، لإشعار يهود العصر النبوي بأن الله أطلع نبيّه «عليه الصلاة والسلام» عليها، وهم كانوا يكتمونها، وذلك أن الحوادث التي تكون مواعظ للأمة فيما اجترحته من المخالفات والمعاصي

١. سورة الأعراف: ١٥٩-١٦٠.

تبقي لها عَقب الموعظة أثراً قد تُغيَّر الأمة به. ولكن ذلك التعيير لا يؤبَه به في جانب ما يحصل من النفع لها بالموعظة، فالأمة في خُوَيْصتها لا يهتم قادتها ونصحاؤها إلاّ بإصلاح الحال، وإن كان في ذكر بعض تلك الأحوال غضاضة عندها وامتعاض، فإذا جاء حكم التاريخ العام بين الأمم تناولتْ الأمم أحوال تلك الأمة بالحُكم لها وعليها، فبقيت حوادث فلتاتها مَغمزاً عليها ومَعرّة تُعيّر بها، وكذلك كان شَأن اليهود لما أضاعوا مُلكهم ووطنهم وجاوروا أمماً أخرى فأصبحوا يكتمون عن أولئك الجيرة مَسَاوي تاريخهم، حتى أرسل الله محمداً «صلى الله عليه وسلم» فعلّمه من أحوالهم ما فيه معجزة لأسلافهم، وما بقي معرّة لأخلافهم، وذلك تَحدّ لهم، ووخز على سوء تلقّيهم الدعوة المحمدية بالمكر والحسد. فالسؤال هنا في معنى التقرير لتقريع بني إسرائيل وتوبيخهم وَعدّ سوابق عصيانهم، أي ليس عصيانهم إياك ببدع، فإن ذلك شنشنة قديمة فيهم. وليس سؤال الاستفادة لأن الرسول «صلى الله عليه وسلم» قد أُعلم بذلك من جانب ربه «تعالى»، وهو نظير همزة الاستفهام التقريري فَوَزان ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ**﴾ وزان : «أعدوتم في السبت»، فإن السؤال في كلام العرب على نوعين، أشهرهما أن يسأل السائل عما لا يعلمه ليعلمه، والآخر أن يسأل على وجه التقرير حين يكون السائل يعلم حصول المسئول عنه، ويعلم المسئول أن السائل عالم وأنه إنما سأله ليقرره)[١].

وسبقه القرطبي قائلاً: (وكان اليهود يكتمون هذه القصة لما فيها من السُّبّة عليهم)[٢].

١. ابن عاشور: التحرير والتنوير، ج ٩، ص ١٤٦-١٤٧.

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٧، ص ١٩٤.

ولو افترضنا أننا لم نجد شيئاً عن القصة ضمن التراث اليهودي المدوّن خارج العهد القديم «التنخ» نفسه، فإن هذا سيجعلنا نقول أن القصة كانت من التراث الشفوي الذي كان يتم تداوله من جيل إلى جيل دون الجرأة على تدوينه كتابياً، بل ولربما أخفوه مع ما أخفوه من أمور أخرى كما قال «سبحانه» عن سلوكهم هذا: ﴿**وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ**﴾[١].

ولكن قبل البتّ في الأمر لابد أن نبحث في الدائرة الأكبر من العهد القديم، بما يشمل التلمود وسائر المصادر المدوّنة قدر المستطاع، ومن خلال الوسائل المتاحة، فهل يمكننا أن نجد شيئاً حينئذ؟

تعرّض لهذه المسألة عدد من المستشرقين والباحثين الغربيين ضمن كتاباتهم عن القرآن الكريم أو تراث اليهود في المنطقة العربية. ومن بين مَن كتب في هذا المجال الثلاثي «كارستن شابكو- شمويل شبكارو - آلان ليفنسون» Carsten Schapkow, Shmuel Shepkaru and Alan Levenson في مؤلَّف حمل عنوان: The Jews of Arab Lands «يهود الأراضي العربية»[٢].

جاء في الفصل الثاني من الكتاب وتحت عنوان «القردة ومعضلة السبت» Apes and the Sabbath Problem[٣] أن نتائج التحقيق الأكثر جدوائية

١. سورة الأنعام: ٩١.

2. www.academia.edu/19017618/Apes_and_the_Sabbath_Problem

٣. ص ٤١-٤٣.

بين ما وصل إليه الباحثون الغربيون حول الموضوع ضمن تتبّعهم في المدراش، أي التفاسير والتعليقات على التنخ، هو ما ذكره «هاينريخ سبيير» Heinrich Speyer في كتابه «الروايات التوراتية في القرآن» Die Biblischen Erzählungen im Koran من مقاربة ما بين القصة القرآنية وما جاء في التلمود البابلي في «قدوشين ٧٢أ».

وبالعودة إلى النص التلمودي المشار إليه سنجد بالعبرية ما جاء كالتالي:

כי הוה ניחא נפשיה דרבי אמר הומניא איכא בבבל כולה עמונאי היא מסגריא איכא בבבל כולה דממזירא היא בירקא איכא בבבל שני אחים יש שמחליפים נשותיהם זה לזה בירתא דסטיא איכא בבבל היום סרו מאחרי המקום דאקפי פירא בכוורי בשבתא ואזיל וצדו בהו בשבתא ושמתינהו ר' אחי ברבי יאשיה ואישתמוד אקרא דאגמא איכא בבבל אדא בר אהבה יש בה.

وترجمة المقطع الذي يهمّنا إلى الإنجليزية هي:

When Rabbi Yehuda HaNasi was dying, he said prophetically: ....There is a [town called] BirtadeSatya in Babylon. Today they have turned away from the Almighty. A fish-pond overflowed on the Sabbath, so they went and fished in it on the Sabbath. Rabbi Ahi son of R. Yoshia announced a ban [or curse] on them, so they apos-tatized (or were destroyed) [1].

والترجمة العربية عن الترجمة الإنجليزية للنص العبري كالتالي: (عندما كان الحاخام «يهودا هاناسي» يحتضر، قال متنبئاً: .... هناك في بابل –بلدة

1. www.academia.edu/19017618/Apes_and_the_Sabbath_Problem, p41.

تسمى- «بيريتا ديساتيا». اليوم تحوّلوا بعيداً عن الله. ماذا فعلوا؟ فاضت قناة مياه بالأسماك، فذهبوا وحاصروها «نصبوا لها شرَكاً» في يوم السبت. طردهم الحاخام أهاي ابن الحاخام يوشيا، وأصبحوا جميعاً مرتدين). وفي هامش ترجمة هذا النص التلمودي على ذات الموقع وبرقم ٣٧ - وهو يعرض نص التلمود - شرح العبارة الأخيرة أنه تم تدميرهم.

أما في النسخة العربية من التلمود البابلي والمطبوعة في الأردن فقد جاء فيها النص بعيد الدلالة عمّا سبق، وفيه - للأسف - شيء من الغموض: (عندما كان رابي يحتضر قال: هناك قرية في بابل تدعي هومانة..... وهناك «بيرثا دي ساتا» في بابل في هذه الأيام، لقد ضلوا عن درب القدير، وطاف قارب صيد يوم السبت، وذهبوا للصيد يوم السبت، عند ذلك أعلن الحبر «أهي بن الحبر يوسيا» العقوبة عليهم، فقد ارتدّوا عن اليهودية)[١].

وعند ترجمة ما جاء عن «سبيير» نقلاً عن النص التلمودي، وجدت بالمقارنة أن فيه شيئاً من الاختلاف، حيث يذكر أن الربّي بن يوشيا بعد أن اصطادوا السمك في السبت أعلن أن النقمة «أو اللعنة» قد حلّت بهم، فصاروا مرتدّين «أو دُمِّروا». وذكر المؤلف في الهامش أن بلدة «بيرثا دي ساتا» أو «بيرتا ديساتيا» تقع بالقرب من بغداد دون أن يحدد موقعها الدقيق أو تسميتها المعاصرة.

ومن خلال تتبّع المصادر المختلفة استطعت التوصّل إلى أن هذه البلدة التي كانت تعتبر من مواطن استقرار اليهود في العراق آنذاك تقع بالقرب من مدينة «طيسفون» التاريخية وأصلها «طوسفون»، وتُعرف كذلك باسم «قطيسفون» أو

١. التلمود البابلي: ج١٠، القسم الثالث نشيم، قدوشين، الفصل الرابع، ص ٣٦٤.

«قطسيفون» وبالفارسية «تيسپون»؛ والتي كانت عاصمة الفرثيين «الأشكانيين» ثم الساسانيين من بعدهم. بُنيت «طيسفون» على الضفة الشرقية لنهر دجلة على بُعد ٣٥ كم جنوب شرق بغداد.

من أشهر معالم هذه المدينة القديمة بناء طاق كسرى أو إيوان كسرى الذي كان مقرّ الحكم الساساني حيث اتّخذت المدينة عاصمة شتوية لحكمهم، بينما جعلوا مدينة «اصطخر» القريبة من «پرسپوليس» عاصمتهم الصيفية حتى الفتح الإسلامي الذي أطاح بالإمبراطورية الساسانية.

وتُعتبر «طيسفون» إحدى مكوّنات مدينة «سلمان باك» حالياً، والتي كانت تُعرف باسم المدائن إذ تكوّنت من مجموعة مدن هي: «طيسفون، وسلوقيا، وميناء أوبيس النهري»، لذلك أطلق عليها العرب تسمية «المدائن» التي يقال أنها كلمة ذات أصل آرامي تعني المدن. وحيث عاش فيها الصحابي سلمان الفارسي بعد أن أصبح والياً عليها مِن قبل الخليفة عمر بن الخطاب، ومات ودُفن فيها، لذلك أخذت المدينة اسمه، حيث باتت تُعرف باسم «سلمان باك» أي سلمان الطاهر.

ومن المعلومات التي وردت في التاريخ حول بلدة «بيرتا ديساتيا» أنه خلال الغزو الذي شنّه الإمبراطور الروماني «جوليان =يوليان» المعروف باسم «يوليان المرتد أو الجاحد» «ت٣٦٣م» على بلاد بابل وما بين النهرين، حاصر مدينة «طيسفون»، ومن بين العديد من البلدات والقرى التي دمّرها هناك بلدة سكانها من اليهود تُعرف باسم «بيرتا»، أو «بيثرا Bithra» بحسب المؤرخ البيزنطي «سوزومن Sozomen» «ت٤٥٠م». كما تم تدمير مدينة «پيروز

شاپور»، التي كانت تضم عدداً كبيراً من السكان اليهود[١]. وذكروا أيضاً أن بلدة «بيرتا» حين دُمِّرت كانت في الأساس قد هُجِرت من قبل سكانها اليهود، ولذا فقد عمد جوليان إلى الانتقام بحرقها[٢].

نعود من جديد إلى أصل البحث، حيث جاء في كتاب «يهود الأراضي العربية» أن «سبيير» لم يلحظ وجود إشارة أخرى واردة في التلمود الفلسطيني حول انتهاك السبت عن طريق صيد السمك «شبت١٠:٧».

كما جاء في هذا النص التلمودي أن ربّيّي – حاخامات – بلدة «قيسارية[٣]» اعتبروا أن من يصطاد السمك أو يَقتل أي شيء في يوم السبت فإنه يعدّ مسؤولاً ومحاسباً بسبب هذا الانتهاك للتشريع الخاص بيوم السبت.

وفي سفر «نحميا» نصاً حول انتهاك السبت بما له علاقة بالسمك، والنص فيه كالتالي: (فِي تِلْكَ الأَيَّامِ رَأَيْتُ فِي يَهُوذَا قَوْمًا يَدُوسُونَ مَعَاصِرَ فِي السَّبْتِ، وَيَأْتُونَ بِحُزَمٍ وَيُحَمِّلُونَ حَمِيرًا، وَأَيْضًا يَدْخُلُونَ أُورُشَلِيمَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ بِخَمْرٍ وَعِنَبٍ وَتِينٍ وَكُلِّ مَا يُحْمَلُ، فَأَشْهَدْتُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ بَيْعِهِمِ الطَّعَامَ. وَالصُّورِيُّونَ السَّاكِنُونَ بِهَا كَانُوا يَأْتُونَ بِسَمَكٍ وَكُلِّ بِضَاعَةٍ، وَيَبِيعُونَ فِي السَّبْتِ لِبَنِي يَهُوذَا فِي أُورُشَلِيمَ. فَخَاصَمْتُ عُظَمَاءَ يَهُوذَا وَقُلْتُ لَهُمْ: «مَا هذَا الأَمْرُ الْقَبِيحُ الَّذِي تَعْمَلُونَهُ وَتُدَنِّسُونَ يَوْمَ السَّبْتِ؟)[٤].

1. www.jewishvirtuallibrary.org/babylonia

2. www.jewishencyclopedia.com/articles/2286-babylonia

٣. من مدن فلسطين وتبعد عن حيفا ٣٧كم جنوباً. تقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وهي من أقدم المناطق التي سكنها البشر.

٤. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر نحميا، الأصحاح ١٣: ١٦.



ونقل الكتاب عن «سبيير» أيضاً نصاً عن الربّي «إرميا بار/بن أليعازار» أن فكرة مسخ بعض بني إسرائيل إلى قرود ليست غريبة على التراث اليهودي. ففي النص المذكور حول بناء برج بابل يتحدث الكاتب عن انقسام المشاركين في البناء إلى ثلاثة فئات، قسم اختاروا عبادة الأصنام، وقسم اختاروا الصعود وشن حرب – أي ضد الله – والقسم الثالث اختاروا الصعود إلى أعلى البرج والإقامة فيه، وأن الله مسخ القسم الثاني فصاروا قردة.

ولربما كانت الترجمة التالية لهذا النص التلمودي أفضل بياناً حيث تذكر أنهم انقسموا إلى ثلاث مجاميع:

- قالت الأولى: سنصعد إلى السماء ونضع آلهتنا هناك ونعبدها.

○ وقالت الثانية: سنتدفق في السماء حيث الله ونقارن قوتنا بقوته.

○ وقالت الثالثة: سنرميه بالرماح والسهام. وأن الفئة الأولى تغيّر مظهرها وأصبحت كالقردة.

They divided into three parties; the first party said: "We will ascend to heaven and place there our gods, and worship them." The second party said: "We will pour into the heavens of the Lord and match our strength with His." And the third party said: "Yea, we will smite Him with arrow and with spear."

According to their deserts did God punish the three rebellious parties. Those who had said, "We will place our gods in the heavens," were changed in appearance, and became like apes; those who had said, "We will smite Him with arrows," killed one another through misunderstandings; and those who had said, "Let us try our strength with His," were scattered over the face of the earth.(١)

وجاء في هامش كتاب «يهود الأراضي العربية» أن المورد الآخر الذي أشار إليه «سبيير» حول مسخ الإنسان إلى قرد في التراث اليهودي ما جاء كتعليقة في كتاب «بريشيت رابا ٢٣ : ٦» على الآية ٢٦ من الأصحاح ٤ من سفر التكوين من التوراة وفيها حول آدم وذريته: (وَلِشِيثَ أَيْضًا وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ. حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ)(٢) حيث سئل الربّي «أبا كوهين باربديلا»

1. www.sacred-texts.com/jud/pol/pol04.htm

٢. الكتاب المقدس: العهد القديم، سفر التكوين، الأصحاح ٤: ٢٦.

لماذا ذَكر النص آدم فشيث فأنوش ثم سكت؟ فأجاب: (أن الله خلق هؤلاء على صورته، ثم لما ساء الناس تغيرت أربعة أمور:

- أصبحت الجبال صخرية.
- وتكوّنت أكوام الديدان على أجساد الموتى.
- وأصبحت وجوه الناس على هيئة وجوه القردة.
- وصار الناس غير محصّنين أمام الشياطين).

وأضاف لقد جاء هذا التعليق بسبب التوقف المفاجيء في تسلسل النَّسب في الكتاب المقدس حيث توقفت عند «شيث». ثم تبدأ الآية التالية في الأصحاح الخامس، حيث يعود النص ليسلسل الأنساب من جديد، والربيون بصدد البحث عن السبب في هذا التوقف المفاجيء والبدء من جديد، وذلك اعتماداً على كلمة Huchal (הוּחַל)[١] والتي يمكن أن تعني «لقد بدأت» و «تدنّس». لم أقم بإجراء دراسة واسعة النطاق ، لكن الأدلة القصصية تدعم ملاحظتي التي تشير إلى أن إحدى الآيات التي تتذكر العقاب تعتبر معيارية في الروايات عن المجتمعات القديمة الخاطئة التي يعاقبها الله أو يدمرها

Speyer notes a second example of people changing into apes in Bereshit Rabba 23:6 in relation to Gen. 4:26: And to Seth, in turn, a son was born, and he named him Enosh. It was then that [people] began (הוּחַל) to invoke the Lord by name.

Abba Cohen Bardela was asked [Why does Scripture enu-

١. الواردة في الآية ٢٦ من الأصحاح الرابع والتي جاءت كالتالي: (وَلِشِيثَ أَيْضًا وُلِدَ ابْنٌ فَدَعَا اسْمَهُ أَنُوشَ. حِينَئِذٍ ابْتُدِئَ أَنْ يُدْعَى بِاسْمِ الرَّبِّ).

merate] Adam, Seth, Enosh and then become silent? He answered, “Until here [in the Torah] they were created in the likeness and image [of God]. But from here forward the generations worsened and the centaurs were created. Four aspects changed in the days of Enosh son of Seth. The mountains became rocky, the dead began to swarm of worms, and [peoples’] faces were made into apes, and they became vulnerable (חולין) to demons.” The comment was stimulated by the unusual break in the biblical genealogy, ending with Seth. The following verse begins chapter 5 and starts the genealogy over again. The rabbis are seeking to understand why the break and re-start, and the exegesis is built upon a play on the word huchal (הוּחַל), which can mean both “it was begun” and “it/he was profaned.”(١)

مما سبق يتضح لنا أن في التراث اليهودي المدوّن، في التلمود على وجه التحديد، ما يشير إلى قصة انتهاك حرمة السبت بصيد السمك الذي كان يفيض في «بركة/قناة» الماء يوم السبت، ونهّي الربّي «أهاي بن يوشيا» لهم، ثم لعنهم وتدميرهم. ولو كانت هذه هي نفس القصة القرآنية، فإن التحديد الجغرافي لها سيكون مختلفاً عما جاء في كتب التفسير لدى المسلمين، فقد وقع الحدث في العراق، على بعد ٣٥ كم تقريباً جنوب بغداد في بلدة مأهولة باليهود.

وكوّن الآيات القرآنية قد ذكرت أن القرية كانت حاضرة البحر، لا يخدش

1. www.academia.edu/19017618/Apes_and_the_Sabbath_Problem, p43

في احتمالية أن تكون بلدة بيرتا هذه الواقعة على نهر الفرات هي المقصودة، لأن البحر في اللغة العربية هو: (الماءُ الكثيرُ، مِلْحاً كان أَو عَذْباً، وهو خلاف البَرِّ، سمي بذلك لعُمقِه واتساعه، قد غلب على المِلْح حتى قَلّ في العَذْبِ، وجمعه أَبْحُرٌ وبُحُورٌ وبِحارٌ)[١].

وكذلك فإنّ توقيتها لن يكون في عهد النبي داود «عليه السلام» كما مرّ بنا في تفسير القرطبي، بل في عهد ما بعد السبي البابلي، لأن الرابي «أهاي» عاش في ذلك العهد لا عهد النبي داود. كما أن في تراث اليهود المدوَّن ما يشير أيضاً إلى أن فكرة مسخ الإنسان إلى قرد ليست غريبة عنهم، وإن لم ترتبط بالقصة التي نبحث فيها. هذا، وقد اختلف مفسرو النصوص اليهودية والمسلمون أيضاً في كيفية هذا المسخ وطبيعته، وهو ما سنعرض له في ما يلي.

• تأويل المسخ:

لم يتّفق المفسرون والباحثون المسلمون في تأويلهم لمعنى قول الله «تعالى»: ﴿**قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾. ويمكن أن نلحظ هذا الاختلاف ضمن ما جاء في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا حيث قال: (ومسخهم مسْخَ خلق وبدن فكانوا قردة بالفعل، أو مسخ خلق ونفس، فكانوا كالقردة في طيشها وشرّها وإفسادها لِمَا تصل إليه أيديها؟ والأوّل قول الجمهور، والثاني قول مجاهد قال: مُسخت قلوبهم فلم يوفّقوا لفهم الحق)[٢].

(وقال مجاهد: لم يُمسخوا قردة وإنما هو مَثَلٌ ضربه الله كما قال: ﴿**كَمَثَلِ**

١. ابن منظور: لسان العرب، ج ٤ ،ص ٤١.
٢. رضا: تفسير المنار، ج ٩، ص٣١٦.

الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ وحكي عنه) أي مجاهد (أيضاً أنه قال: مُسخت قلوبهم، فجُعلت كقلوب القردة لا تقبل وعظاً ولا تتقي زجراً. وهذان القولان يخالفان الظاهر الذي أكثر المفسرين عليه من غير ضرورة تدعو إليه)[١].

وتشير الموسوعة اليهودية The Jewish Encyclopedia وتحت عنوان «القرود» Apes إلى ما يشبه هذا التأويل الذي قال به البعض، فقد جاء أن الربيين قارنوا كبار السن بالقردة «كنوع من التشبيه». كما استُخدمت القردة كوسيلة للمقارنة، حيث اعتُبرت سارة بالنسبة إلى حواء كالقرد بالنسبة إلى إنسان، وحواء بالنسبة إلى آدم كالقرد بالنسبة إلى إنسان، وآدم بالنسبة إلى الله كالقرد بالنسبة إلى إنسان[٢]!

أما العلامة الطباطبائي فقد تعرّض إلى هذه المسألة في بحث فلسفي مُلحق بتفسير آية سورة البقرة، معتبراً أن حدوث الانقلاب في الصورة الإنسانية إلى الصورة القردية أمر ممكن في حدّ ذاته، وأنه ليس تبدلاً للحقيقة الإنسانية. قال: (السورة كما ترى مشتملة على عدة من الآيات المعجزة، في قصص بني إسرائيل وغيرهم، كفرق البحر وإغراق آل فرعون في قوله «تعالى»: ﴿**وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ**﴾[٣] الآية، وأخذ الصاعقة بني إسرائيل وإحيائهم بعد الموت في قوله «تعالى»: ﴿**وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ**﴾[٤] الآية، وتظليل الغمام وإنزال المن

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٤، ص ٥٩.

2. www.jewishencyclopedia.com/articles/1631-apes

٣. سورة البقرة: ٥٠، والآية: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

٤. سورة البقرة: ٥٥. والآية كالتالي: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

والسلوى عليهم في قوله «تعالى»: ﴿**وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ**﴾[١] الآية، وانفجار العيون من الحجر في قوله «تعالى»: ﴿**وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ**﴾[٢] الآية، ورفع الطور فوقهم في قوله «تعالى»: ﴿**وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ**﴾[٣] الآية، ومسخ قوم منهم في قوله «تعالى»: ﴿**فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**﴾[٤] الآية، وإحياء القتيل ببعض البقرة المذبوحة في قوله: ﴿**فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا**﴾[٥] الآية، وكإحياء قوم آخرين في قوله ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ**﴾[٦] الآية، وكإحياء الذي مر على قرية خربة في قوله: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا**﴾[٧] الآية، وكإحياء الطير بيد إبراهيم

١. سورة البقرة: ٥٧. والآية كالتالي: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

٢. سورة البقرة: ٦٠. والآية كالتالي: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

٣. سورة البقرة: ٦٣. والآية كالتالي: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

٤. سورة البقرة: ٦٥. والآية كالتالي: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾.

٥. سورة البقرة: ٧٣. والآية كالتالي: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٦. سورة البقرة: ٢٤٣. والآية كالتالي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

٧. سورة البقرة: ٢٥٩. والآية كالتالي: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

في قوله «تعالى»: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[١] الآية، فهذه اثنتا عشرة آية معجزة خارقة للعادة جرت أكثرها في بني إسرائيل - ذكرها القرآن - وقد بينا فيما مر إمكان وقوع المعجزة وأن خوارق العادات جائزة الوقوع في الوجود وهي مع ذلك ليست ناقضة لقانون العلية والمعلولية الكلي، وتبين به أن لا دليل على تأويل لآيات الظاهرة في وقوع الاعجاز، وصرفها عن ظواهرها ما دامت الحادثة ممكنة، بخلاف المحالات كانقسام الثلاثة بمتساويين وتولد مولود يكون أبا لنفسه، فإنه لا سبيل إلى جوازها. نعم تختص بعض المعجزات كإحياء الموتى والمسخ ببحث آخر، فقد قيل: إنه قد ثبت في محله أن الموجود الذي له قوة الكمال والفعلية إذا خرج من القوة إلى الفعل فإنه يستحيل بعد ذلك رجوعه إلى القوة ثانياً، وكذلك كل ما هو أكمل وجوداً فإنه لا يرجع في سيره الاستكمالي إلى ما هو أنقص وجودا منه من حيث هو كذلك. والإنسان بموته يتجرد بنفسه عن المادة فيعود موجوداً مجرداً مثالياً أو عقلياً، وهاتان الرتبتان فوق مرتبة المادة، والوجود فيهما أقوى من الوجود المادي، فمن المحال أن تتعلق النفس بعد موتها بالمادة ثانيا، وإلا لزم رجوع الشئ إلى القوة بعد خروجه إلى الفعل، وهو محال، وأيضا الانسان أقوى وجودا من سائر أنواع الحيوان، فمن المحال أن يعود الانسان شيئا من سائر أنواع الحيوان بالمسخ)[٢].

---

١. سورة البقرة: ٢٦٠. والآية كالتالي: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

٢. الطباطبائي: الميزان، ج ١، ص ٢٠٥-٢٠٦.

ثم ردّ العلامة على هذا المدّعى بصحة القاعدة وخطأ التطبيق على المسخ، معتبراً أننا: (لو فرضنا إنساناً تغيرت صورته إلى صورة نوع آخر من أنواع الحيوان كالقرد والخنزير فإنما هي صورة على صورة، فهو إنسان خنزير أو إنسان قردة، لا إنسان بطلت إنسانيته وخلت الصورة الخنزيرية أو القردية محلها، فالانسان إذا كسب صورة من صور الملكات تصورت نفسه بها ولا دليل على استحالة خروجها في هذه الدنيا من الكمون إلى البروز على حد ما ستظهر في الآخرة بعد الموت، وقد مر أن النفس لو فرضنا إنساناً تغيرت صورته إلى صورة نوع آخر من أنواع الحيوان كالقرد والخنزير فإنما هي صورة على صورة، فهو إنسان خنزير أو إنسان قردة، لا إنسان بطلت إنسانيته وخلت الصورة الخنزيرية أو القردية محلها. فالانسان إذا كسب صورة من صور الملكات تصورت نفسه بها ولا دليل على استحالة خروجها في هذه الدنيا من الكمون إلى البروز على حد ما ستظهر في الآخرة بعد الموت، وقد مر أن النفس الإنسانية في أول حدوثها على السذاجة يمكن أن تتنوع بصورة خاصة تخصصها بعد الإبهام وتقيدها بعد الاطلاق والقبول، فالممسوخ من الإنسان إنسان ممسوخ لا أنه ممسوخ فاقد للإنسانية)[1].

فلو قبلنا بهذا التأويل، فهل كان المسخ للوجه فقط أم لكل البُنية الجسدية؟ وهل يحمل الإنسان في جيناته القابلية لتغيّر شكله بهذه الصورة كما يحدُث لبعض مَن يصيبهم خلل هرموني؟ أم أن الأمر وقع بصورة إعجازية فحسب؟

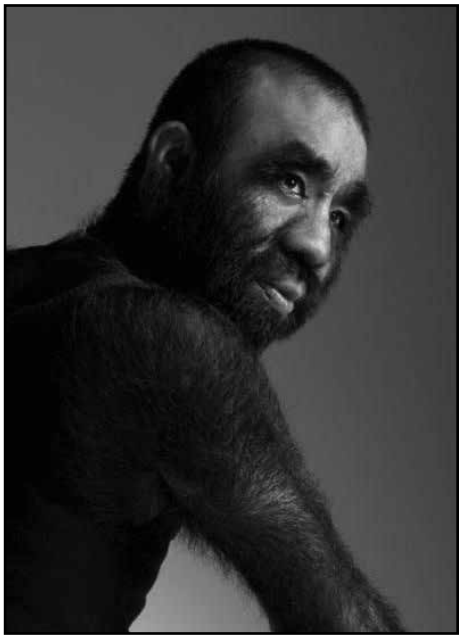
وهذا الخلل الهرموني المعروف باسم «فرط الشعر» المسمّى أيضاً بمتلازمة

١. الطباطبائي: الميزان، ج ١، ص ٢٠٨-٢٠٩

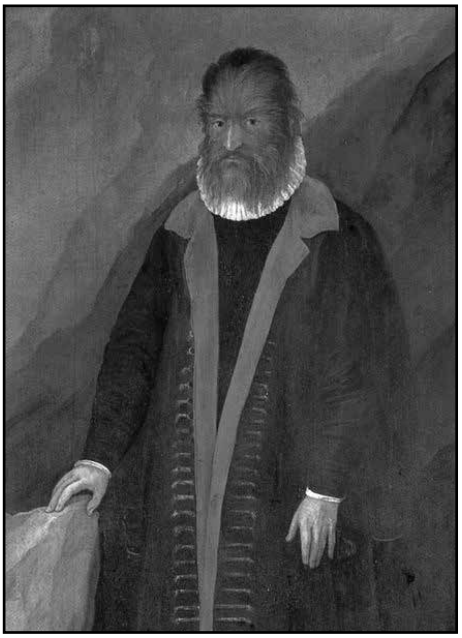
«أمبراس» أو متلازمة الذئب Werewolf Syndrome أو Hypertrichosis هو معدل غير طبيعي لنمو الشعر في الجسم، وقد سمّيت الكثير من حالات الإصابة بفرط الشعر بمتلازمة المستئذبين، وهي تسمية غير رسمية، وذلك لأن المظهر الخارجي يشبه أسطورة المستئذبين. هنالك نوعان مختلفان لفرط الشعر وهما: فرط الشعر الكلي، وهو الذي يظهر في جميع أجزاء الجسم، وفرط الشعر الموضعي، والذي يكون محدوداً في منطقة معينة من الجسم، كما يمكن لفرط الشعر أن يكون خَلقياً منذ الولادة، أو مكتسباً. تظهر زيادة نمو الشعر في مناطق مختلفة من الجلد باستثناء شعر العانة الناتج عن هرمون الأندروجين والوجه ومنطقة الإبطين. كان لدى العديد من مؤدّي عروض السيرك في القرن التاسع عشر والعشرين فرط في الشعر. والمغنّي الصيني المعاصر «يو زينهوان» Yu Zhenhuan يغطي الشعر ٩٦٪ من جسده. وعلى العموم، لا نستطيع أن نجزم بشيء من الاحتمالات السابقة، والعلم عند الله وحده، وهو على كل شيء قدير.

ولنلاحظ أن في القرآن الكريم حديثاً عن مسخ آخر، هو مسخ الإنسان إلى خنزير، قال «تعالى»: ﴿**قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُوْلَـئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاء السَّبِيلِ**﴾[1]. وفي التراث الحديثي توسُّع أكبر، مرّت بنا بعض موارده، وفي وسائل الشيعة تحت عنوان «باب تحريم لحوم المسوخ، وبيضها من جميع أجناسها، وتحريم لحوم الناس» ٢١ حديثاً، ومنها:

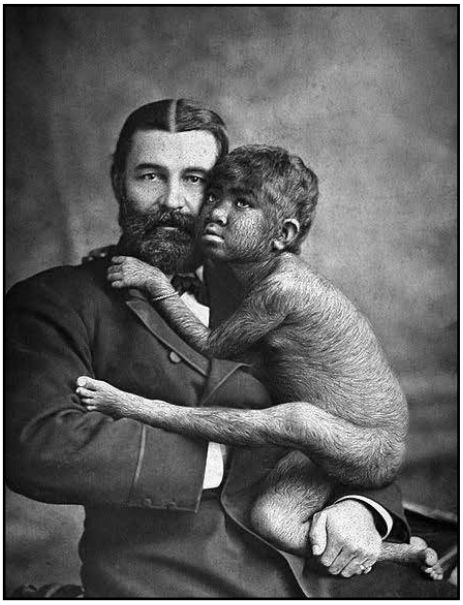
١. سورة المائدة: ٦٠.



Krao Farini, 1883



Petrus Gonsalvus



Krao Farini, 1883



Alice Elizabeth Doherty

○ رواية برقم ٣٠٠٨٩ عن الكليني بسنده عن الحلبي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (سألته عن أكل الضب؟ فقال: إن الضب والفارة والقردة والخنازير مسوخ).

○ رواية برقم ٣٠٠٩٤ بسند عن أبي الحسن الرضا «عليه السلام»، قال: (الطاوس مِسخ، كان رجلاً جميلاً، فكابر امرأة رجل مؤمن تحبّه، فوقع بها، ثم راسلته بعد، فمسخهما الله طاووسين أنثى وذكراً، فلا تأكل لحمه، ولا بيضه).

○ رواية برقم ٣٠٠٩٥ بسند عن محمد بن الحسن الأشعري عن أبي الحسن الرضا «عليه السلام» قال: (الفيل مسخ، كان ملكاً زنّاء، والذئب مسخ، كان أعرابياً ديوثاً، والأرنب مسخ، كانت امرأة تخون زوجها، ولا تغتسل من حيضها، والوطواط مسخ، كان يسرق تمور الناس، والقردة والخنازير قوم من بني إسرائيل، اعتدوا في السبت، والجريث والضب فرقة من بني إسرائيل، لم يؤمنوا حيث نزلت المائدة على عيسى بن مريم، فتاهوا، فوقعت فرقة في البحر، وفرقة في البر، والفارة وهي الفويسقة، والعقرب كان نماماً، والدب والوزغ والزنبور كان لحاماً يسرق في الميزان).

وفي البين روايات أخرى تذكر نفس الأنواع أو أنواعاً أخرى من الحيوانات التي مُسخ الإنسان على صورتها، أو أن الموجودة حالياً هي المسوخ البشرية، وفيها أن أسباب المسخ مختلفة عن الروايات السابقة، ومثال ذلك:

○ رواية برقم ٣٠١٠٣ بسند عن محمد بن سليمان الديلمي عن الرضا «عليه السلام» أنه قال: (كان الخفاش امرأة سحرت ضُرة لها، فمسخها الله خفاشاً، وأن الفار كان سبطاً من اليهود غضب الله عليهم فمسخهم فاراً، وأن

البعوض كان رجلاً يستهزئ بالأنبياء ويشتمهم ويكلح في وجوههم ويصفّق بيديه، فمسخه الله «عز وجل» بعوضاً، وأن القملة هي من الجسد وأن نبياً كان يصلي فجاءه سفيه من سفهاء بني اسرائيل فجعل يهزأ به فما برح عن مكانه حتى مسخه الله قملة، وأما الوزغ فكان سبطاً من أسباط بني إسرائيل يسبّون أولاد الأنبياء ويبغضونهم، فمسخهم الله وزغاً، وأما العنقاء فمن غضب الله عليه مسخه وجعله مُثلة، فنعوذ بالله من غضب الله ونقمته).

وبغضّ النظر عن دراسة الأسانيد، فإنه لا يخفى أن آثار الوضع والمضمون الأسطوري في بعض هذه الروايات ظاهر جداً.

وفي حين أن ظاهر بعض هذه الروايات يدل على أن الموجود من الكائنات المذكورة محرَّم أكله لأن منها ما هو من نسلها، إلا أن روايات أخرى تؤكد أن التحريم للشبه، وأن المسوخ انقرضت.

○ ففي رواية برقم ٣٠٠٩٨ عن محمد بن علي قال: (روي أن المسوخ لم تبق أكثر من ثلاثة أيام، وأن هذه مَثَل لها، فنهى الله «عز وجل» عن أكلها).

كما أن في البين روايات أخرى تؤكد أن النهي عن تناول بعض هذه الحيوانات تنزيهي وليس تحريمياً، ومن بينها:

○ رواية برقم ٣٠١٠٩ بسند عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (كان رسول الله «صلى الله عليه وآله» عَزوف النفس، وكان يكره الشيء، ولا يحرمه، فأتي بالأرنب فكرهها، ولم يحرّمها).

○ وفي رواية برقم ٣٠١٠٨ بسند عن أبي بصير عن أبي عبد الله

«عليه السلام» قال: (كان يكره أن يؤكل من الدواب لحم الأرنب والضب والخيل والبغال، وليس بحرام كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير). أي ليس كتحريم العناوين المذكورة في القرآن الكريم في قوله «تعالى»: ﴿**إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1]، وفي قوله: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[2].

○ ويؤكد هذا المضمون ما في الرواية برقم ٣٠١٢٠ التي رواها الكليني بسند عن محمد بن مسلم وزرارة عن أبي جعفر «عليه السلام»: (أنهما سألاه عن أكل لحوم الحمر الأهلية؟ فقال: نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» عن أكلها يوم خيبر، وإنما نهى عن أكلها في ذلك الوقت، لأنها كانت حمولة الناس، وإنما الحرام ما حرم الله في القرآن).

○ وفي الرواية برقم ٣٠١٣٦ بسند عن محمد بن مسلم أيضاً عن أبي جعفر أي الإمام الباقر «عليه السلام» أنه سئل عن سباع الطير والوحش، حتى ذكر له القنافذ والوطواط والحمير والبغال والخيل، فقال: (ليس الحرام إلا ما حرّم الله في كتابه، وقد نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» يوم خيبر عنها، وإنما نهاهم من أجل ظهورهم أن يفنوه، وليس الحمر بحرام، ثم قال: اقرأ

---

١. سورة البقرة:١٧٣.

٢. سورة الأنعام:١٤٥.

هذه الآية: ﴿**قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّهِ بِهِ**﴾[1].

وهناك توجيهات لبعض الفقهاء في رفع التعارض وتفسير الآيات والأحاديث وقد ذكرت بعض ما يخص ذلك في بحث «الطعام الكوشر» من هذا الكتاب، وذلك تحت عنوان: «المسلمون وتحريم الطعام».

١. سورة الأنعام:١٤٥.

١٠

الإسراء والمعراج

١٠

الإسراء والمعراج

السيرة النبوية الشريفة - شأنها شأن الأحاديث في المجالات العقدية والتفسيرية والتشريعية والأخلاقية وغيرها - تعرّضت للوضع والتزييف والتحريف والإضافة والتبديل... والمرجعية المعرفية للقرآن الكريم واحدة من وسائل التحقيق في هذا المجال.

وقد بلغت الجرأة ببعض الرواة والقصّاصين أن ادّعوا تفاصيل وأحداثاً تتعارض بكل صراحة ووضوح مع ما جاء في القرآن الكريم حول ذات القضية. ومن أمثلة ذلك ما جاء في كتب التفسير والسيرة حول أحداث غزوة بدر الكبرى وادّعاء مشاركة الملائكة في القتال يوم بدر:

○ عن هشام بن عروة، عن عروة عن عبد الله بن الزبير: (أن الزبير كانت عليه ملاءة صفراء يوم بدر، فاعتمّ بها، فنزلت الملائكة يوم بدر على نبي الله «صلى الله عليه وسلم» معمَّمين بعمائم صفر)[١].

○ عن مجاهد، أنه كان يقول: (﴿مُسَوِّمِينَ﴾، قال: كانت خيولهم مجزوزة الأعراف، معلَّمة نواصيها وأذنابها بالصوف والعِهن)[٢].

١. الطبري: جامع البيان، ج ٤، ص١١١.

٢. الطبري: جامع البيان، ج ٤، ص١١٠.

○ عن أبي واقد الليثي[١] قال: (إني لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أن غيري قد قتله)[٢] يقصد الملائكة.

○ عن الربيع بن أنس قال: (كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار، وقد أحرق به)[٣].

○ عن مولى لسهيل بن عمرو: (سمعت سهيل بن عمرو يقول: لقد رأيت يوم بدر رجالاً بيضاً على خيل بُلق) جمع أبلق، وهو ما كان في لونه سواد وبياض (بين السماء والأرض معلَّمين يقتلون ويأسرون)[٤].

○ وكان أبو أسيد يُحدِّث بعد أن ذهب بصره، قال: (لو كنتُ معكم الآن ببدر ومعي بصري، لأريتكم الشِّعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أمتري)[٥].

○ عن رجل من بني غفار، قال: (أقبلتُ وابن عم لي يوم بدر حتى صعدنا على جبل، ونحن مُشرِكان، ونحن على إحدى عجمتي بدر، العجمة الشامية، العجمة من رمل) عُجَمةُ الرملِ: كَثرته (ننتظر الوقعة على من تكون الدائرة فننتهب مع من ينتهب، إذ رأيت سحابة دنت منا، فسمعت فيها حمحمة الخيل وقعقعة اللجم والحديد، وسمعت قائلا يقول: أقدِم حيزوم! فأما ابن عمي

١. هكذا في الأصل والبيهقي عن ابن إسحاق، وفي السيرة لابن هشام: أبي داود المازني، قال السهيلي: اسم أبي داود هذا: عمرو، وقيل: عمير بن عامر.
٢. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤٣.
٣. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤٣.
٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤٣.
٥. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٣٤٣.

فانكشف قناع قلبه فمات، وأما أنا فكدت أهلك، فتماسكت وأتبعت البصر حيث تذهب السحابة، فجاءت إلى النبي «صلى الله عليه وسلم» وأصحابه، ثم رجعت وليس فيها شيء مما كنت أسمع)[١].

○ ثم يُكملون القصة بقولهم: (سأل رسول الله «صلى الله عليه وسلم» جبريل: من القائل يوم بدر من الملائكة أقدِم حيزوم؟ فقال جبريل: يا محمد، ما كل أهل السماء أعرف)[٢].

○ وروي عن أبي بردة بن نيار قال: (جئت يوم بدر بثلاثة رؤوس، فوضعتها بين يدي رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فقلت: يا رسول الله، أما اثنان فقتلتهما، وأما الثالث فإني رأيت رجلاً طويلاً أبيض ضربه فتدهده) تدهده: تدحرج (أمامه، فأخذتُ رأسَه. فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: ذاك فلان من الملائكة)[٣].

○ ونُسب إلى بعضهم المشاركة في أسْر المشركين يوم بدر، قيل: (كان السائب بن أبي حبيش الأسدي يحدث في زمن عمر بن الخطاب، فيقول: والله ما أسَرني يوم بدر أحد من الناس، فيقال: فمن؟ فيقول: لما انهزمت قريش انهزمت معها فيدركني رجل أبيض طويل، على فرس أبلق بين السماء والأرض، فأوثقني رباطاً، وجاء عبد الرحمن بن عوف فوجدني مربوطاً، وكان عبد الرحمن ينادى في العسكر: مَن أسَر هذا؟ فليس أحد يزعم أنه أسرني،

---

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٨.

٢. الواقدي: المغازي، ج١، ص٢٨.

٣. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ١٦١.

حتى انتهى بي إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فقال لي رسول الله: يا ابن أبي حبيش، من أسرك؟ قلت: لا أعرفه، وكرهت أن أخبره بالذي رأيت، فقال رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: أسَره مَلَك من الملائكة كريم. اذهب يا ابن عوف بأسيرك. فذهب بي عبد الرحمن. قال السائب: وما زالت تلك الكلمة أحفظها)[١].

وكلها مجرد قصص من خيال الرواة، ليس لها من الواقع نصيب، والله «سبحانه وتعالى» يقول: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ، إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ**﴾[٢].

وأوضح ن ذلك قوله في أجواء غزوة أُحُد مذكِّراً المسلمين بما جرى لهم في بدر الكبرى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ، إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ، بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ**

١. ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة، ج١٤، ص ١٦٢.

٢. سورة الأنفال:٩-١٢.

وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١].

فلم يكن نزولهم للقتال كما صوّرته تلك المرويات، بل استجابة إلهية لدعاء المؤمنين واستغاثتهم - كما جاء في الآية الشريفة - ليكون هذا المدد ولتكون هذه الاستجابة مصدر قوّة روحية كبيرة، في ما أثارته في نفوسهم حركة الملائكة في المعركة، بما كانوا يحملونه في أفكارهم عن القوّة الغيبيّة الّتي يتمتع بها هؤلاء.

فالملائكة الّذين أنزلهم الله إلى ساحة المعركة، لم تكن مهمتهم قتاليّة، لأن اللّه لم يرد للمسلمين أن يستسلموا للاسترخاء، على أساس الاعتقاد بأن الملائكة جاءت لتقاتل بالنيابة عنهم. و لو أن الأمر كذلك، لما كانت هناك حاجة ملحّة لأيّة معركة وأيّ قتال، لأن القوة الغيبيّة كفيلة بتصفية جميع الأعداء، بل كانت مهمتهم تطمينية نفسية، وهذا ما عبّرت عنه الآية ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ**﴾ ليزيل من نفوسهم كل شعور بالقلق والخوف والاهتزاز، ليندفعوا إلي المعركة بقوّة و ثبات، ليعطوا كل طاقاتهم للقتال في إحساس عميق بأنهم لا يصنعون النصر عندما يصنعونه بقوتهم الذاتية، كما لا يصنعه الملائكة - لو صنعوه - بل هو من عند اللّه، من خلال ما تتحرك به ألطافه و تفيض به رحمته من أسباب النصر، لأن الأمور كلها بيده، في آفاق الغيب، وفي آفاق الواقع[٢].

ولو كان الأمر كما تخيّله أولئك الرواة، فلِمَ الحاجة إلى كل هذا العدد

---

١. سورة آل عمران: ١٢٣-١٢٦.

٢. فضل الله: من وحي القرآن، تفسير الآيات ٩-١٤ من سورة الأنفال.

من الملائكة في قبال ألف من المشركين؟ وهل الملائكة بهذا المستوى من الضعف في القوة بحيث أن عدد قتلى المشركين في المعركة لم يتجاوز السبعين، بل إن أسماء مَن قتلهم من المسلمين معروفة مذكورة، وفارق القوة -بحسب المفترض- يصبُّ في صالح الملائكة دون أدنى شك.

كان هذا نموذج من تزييف السيرة النبوية على الرغم من وضوح القرآن في تصويره لنفس المشهد. ومثال آخر على ذلك ما رواه بعض المؤرخين حول غزوة الأحزاب «الخندق» حيث قيل: (وعبأ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» أصحابه وحضهم على القتال ووعدهم النصر إن صبروا، والمشركون قد جعلوا المسلمين في مثل الحصن من كتائبهم فأخذوا بكل وجه من الخندق.فحدثني الضحاك بن عثمان، عن عبيد الله بن مقسم، عن جابر بن عبد الله قال: قاتلونا يومهم، وفرّقوا كتائبهم، ونَحّوا إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كتيبةً غليظة فيها خالد بن الوليد، فقاتلهم يومه ذلك إلى هويٍّ مِن الليل، ما يقدر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» ولا أحد مِن المسلمين أن يزولوا من مواضعهم، وما يقدر رسول الله «صلى الله عليه وسلم» على صلاة الظهر، ولا العصر ولا المغرب ولا العشاء، فجعل أصحابه يقولون: يا رسول الله، ما صلينا، فيقول: ولا أنا - والله - ما صليت! حتى كشفهم الله «تعالى» فرجعوا متفرقين. فرجعت قريش إلى منزلها، ورجعت غطفان إلى منزلها، وانصرف المسلمون إلى قبة رسول الله «صلى الله عليه وسلم»)[1].

في حين أن الله «سبحانه وتعالى» يقول: ﴿**وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ**

١. الواقدي: المغازي، ج١، ص ٤٦٩.

﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾[١]. أي لم يقع بين الطرفين قتال، ومع هذا أصرّ بعض الرواة أن يقدّم هذه الصورة للقتال الشديد الذي منع النبي والمسلمين من أداء الصلاة طوال النهار والليل!

• نبذة عن سورة الإسراء:

- سورة مكية، وقيل أن الآيات ٣٢، ٣٣، ٥٧، ومن الآية ٧٣ –٨٠ مدنية.
- ترتيبها في المصحف ١٧.
- ترتيبها التقريبي في النزول ٥٠ من ٨٢ سورة مكية.
- تاريخ النزول المحتمل: في أو بعد شهر رمضان من السنة ١٠ من البعثة.

• حادثة الإسراء في الوصف القرآني:

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٢].

- تحدثت هذه الآية عن الإسراء.
- حددت الآية البُعد المكاني للإسراء وأنه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.
- حددت الآية البُعد الزمني للإسراء بشكل موجز ﴿أَسْرَى.... لَيْلاً﴾.
- مقتضى ظاهر الآية أن الإسراء تم بالجسد.
- مقتضى ظاهر الآية أن الإسراء تم في عالم الواقع لا في عالم الرؤيا.

١. سورة الأحزاب: ٢٥.
٢. سورة الإسراء: ١.

• هل للمعراج ذِكر في القرآن؟

اقتصرت الآية الأولى من السورة على الحديث عن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وكل ذلك ضمن حدود الكرة الأرضية، ولم تتحدَّث الآية عن معراجٍ إلى السماوات. وهكذا لا نجد في السورة ككل حديثاً عن معراجٍ إلى السماوات، بل نجد في نفس السورة ما قد يدل على عدم وقوع معراجٍ إلى السماء فضلاً عن السماوات، قال «سبحانه وتعالى»:

﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾[1].

فلو تحقّق له الرُّقي في السماء - كما طلبوا - لأخبرهم بذلك، ولبيّن لهم ما عاين بنفسه من عالم الملائكة والأموات والجنة والنار والنعيم والعذاب، وحواراته مع الأنبياء وغير ذلك مما زخرت به بعض الروايات المبثوثة في كتب المسلمين، ولم يؤمَر بأن يقول: **﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾** بل لقال لهم - على سبيل المثال - : «قل ارتقيت في السماوات، ورأيت كذا وكذا، وتحدّثت مع فلان وفلان، وأمرني ربي بكذا وكذا... ».

كل ما سبق يجعلنا نشك أو نتوقف - على الأقل - في القول بوقوع المعراج، والاكتفاء بوقوع الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

١. سورة الإسراء: ٩٠-٩٣.

قد يُقال: إنْ كانت سورة الإسراء لم تتحدّث عن المعراج، فإنّ سورة النجم تحدثت عنه... ولكن هذا الإشكال غير دقيق، وذلك بلحاظ ما يلي:

١. ترتيب سورة النجم بحسب النزول ٢٣، بينما سورة الإسراء ٥٠، وبينهما ٢٧ سورة، ومن المفترض - بحسب الروايات - أن الإسراء والمعراج وقعا في حادثة واحدة.

٢. لغة سورة النجم وتقسيم آياتها مختلف تماماً عن لغة وأسلوب البيان في سورة الإسراء وتقسيم آياتها.

٣. مَن يدرس تبدّل لغة السور القرآنية يُدرك أنّ لغة وأسلوب البيان في سورة النجم ترجّح أنها من السور الأوائل، على خلاف سورة الإسراء.

٤. عند التدقيق في آيات سورة النجم سنكتشف أنها تتحدث وتصف ما جرى عند البعثة النبوية الشريفة، وعن المرّتين اللتين شاهد فيهما النبي «صلى الله عليه وآله» جبريل «عليه السلام» على هيئته الحقيقية، وذلك في معرض الرد على تشكيكات المشركين بأن النبي وقع ضحية الوهم أو «الاضطراب النفسي أو العقلي» أو السحر أو الخلط بين اليقظة والمنام، لاسيما وأنهم لم يعهدوا منه إلا الصدق.

- ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾ حين قال بأنه نبي مبعوث من قِبل الله، وأن الوحي قد نزل عليه.
- ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى**﴾ والرغبات الشخصية لتحقيق المُلك أو المال أو غير ذلك حين قال لكم أنه نبي مبعوث من عند الله وأن ما يتلوه عليكم هو

كلام الله الذي أوحي إليه بواسطة جبريل.

- ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي الكلام الذي يتلوه عليكم محمد.
- ﴿إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ إليه من قبل الله.
- ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ هذا الكلام «الموحى إليه» تعلّمه النبي على يد جبريل الشديد القوي.
- ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ وجبريل يتصف بإحكام العمل أو الحصافة في العقل أو القدرة الكبيرة على أداء المهمة الموكلة إليه.

ثم تبدأ الآيات بعد ذلك في وصف ما جرى عند البعثة النبوية الشريفة والحديث عن نزول جبريل من السماء وبلوغه الأرض:

- ﴿فَاسْتَوَى، وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى﴾ أي استقرّ جبريل في الأفق مع ارتفاع عن الأرض.
- ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريلُ من الأرض أكثر.
- ﴿فَتَدَلَّى﴾ بحيث يشاهده النبي أمامه.
- ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ من أن يقف على الأرض، فكان بهذا القرب منها، ممّا مكّن النبي من رؤيته بوضوح.
- ﴿فَأَوْحَى﴾ اللهُ عن طريق جبريل.
- ﴿إِلَى عَبْدِهِ﴾ محمد.
- ﴿مَا أَوْحَى﴾ من كلامه «سبحانه وتعالى».

○ ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾ بعينه، أي لم تكن رؤية النبي لجبريل وهماً أو خداعاً بصرياً، بل متطابقة مع الواقع، وصدّقها عقلُه.

○ ﴿**أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى**﴾ وتجادلونه في تلك الحادثة الحقيقية تشكيكاً وتكذيباً ؟

ثم تضيف الآيات: بل نقول لكم بشكل قاطع وأكيد أن هذه الحادثة عند بداية البعثة لم تكن المرة الوحيدة التي رأى فيها النبيُّ جبريلَ على هيئته وتلقّى من خلالها كلام الله وحياً:

○ ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ رأى النبيُّ جبريلَ على حقيقته وهيئته الملائكية عندما نزل جبريل مرة أخرى. ولو كانت هذه الآية وما بعدها تتحدث عن «المعراج» أي عروج النبي إلى السماوات - أو السماء - لما استعملت الآية تعبير ﴿**نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ لأن المعراج والعروج صعود وليس بنزول.

○ ﴿**عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى**﴾[1] يحتمل في تأويل هاتين الآيتين عدة احتمالات، من بينها:

أ) وقعت هذه الحادثة عندما كان النبي عند شجرة نبق - سدرة - نابتة في منتهى وقمة جبل النور عند «غار حراء» الذي أُطلق عليه عنوان ﴿**جَنَّةُ الْمَأْوَى**﴾ فقد كان يأوي النبي «صلى الله عليه وآله» إلى هذا الغار للتعبّد فيه من حين إلى آخر، فكان الغار بالنسبة إليه بمثابة «جنةٍ معنويةٍ».

ب) أو بلحاظ أن هذا الموقع الذي تم فيه هذا اللقاء - سواء أكان غار حراء

١. سورة النجم: ١-١٦.

أو غيره – روضة من رياض الجنة، تماماً كما جاء بشأن الموقع المحدود ما بين قبر النبي ومنبره، ويُعرف باسم «الروضة النبوية الشريفة».

ج) قيل: ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى﴾ أي أن هذه الرؤية الصادقة من قبل النبي لجبريل وقعت عند حدّ نهاية البصر الذي لا يكاد يُبصر بعده شيئاً. جاء في معاجم اللغة العربية في معنى «سدر»: (بلَغ سدرة المنتهى: بلغ أقصى غاية. وسَدِرَ بصرُه سَدَراً، فهو سَدِرٌ: لم يَكد يُبصر)[١]. ولكن الملاحظ على هذا التأويل الثالث أنه لم يبيّن معنى ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ بما يتوافق مع هذا الرأي.

○ ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ في مشهد مشابه لمشهد النار التي شاهدها النبي موسى «عليه السلام» في الشجرة عند بعثته، دون أن تحرق تلك الشجرة، لأنها كانت «ناراً» غيبيةً أوجده الله في الشجرة، وكلّمه من خلالها: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٢]، ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ﴾ جبريل ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من الملائكة النازلين لرعاية هذا الحدث العظيم ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣] نزّهوا الله عن التجسيم والحركة والاحتواء بالمكان وأمثال ذلك.

١. ابن منظور : لسان العرب ،ج ٤ ، ص ٣٥٥.

٢. سورة القصص: ٢٩-٣٠.

٣. سورة النمل:٨.

- ﴿**مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ فقد كانت معاينة حقيقية وصادقة أيضاً في هذه المرة.
- ﴿**لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾ برؤيته لجبريل وما غشى السدرة وانكشاف جانب من عالم الغيب لرسول الله.

هذه الآيات في مجملها مشابهة للآيات الواردة في سورة التكوير «١٧-٢٤» والتي تؤكد مسألة البعثة وأن القرآن من عند الله، وأن النبي يوحى إليه:

- ﴿**وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ، وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ، إِنَّهُ**﴾ هذا القرآن والوحي.
- ﴿**لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ**﴾ وهو جبريل.
- ﴿**ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ**﴾ وهو الله.
- ﴿**مَكِينٍ**﴾ ذو مقام ومكانة عالية عند الله، أو صاحب سلطة وقول مسموع كما جاء في وصف النبي يوسف بعد استلامه المهام الموكلة إليه من قبل الملك: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[1].
- ﴿**مُطَاعٍ**﴾ وهو ما يقوّي المعنى الثاني لـ «مكين».
- ﴿**ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ فهو يؤدّي الوحي تاماً كما هو، لا يخون ولا يغيّر ولا يُنقِص ولا يضيف من عنده شيئاً على الرسالة الإلهية.
- ﴿**وَمَا صَاحِبُكُم**﴾ النبي محمد.
- ﴿**بِمَجْنُونٍ**﴾ حين قال لكم أنه شاهد جبريل وكلمه.

١. سورة يوسف:٥٦.

- ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ حيث دنا جبريل من الأرض حتى كان قاب قوسين أو أدنى، مما أمكن النبي من رؤيته بكل وضوح.
- ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي النبي.
- ﴿عَلَى الْغَيْبِ﴾ الذي أوحي إليه.
- ﴿بِضَنِينٍ﴾ بخيل ولا كتوم ولا مغيِّر ولا مبدِّل لبعضه أو كله، بل يُعلّم الناس كما علّمه الله ويبلّغهم ما أُمِر بتبليغه.

٥. لو كان الحديث في سورة النجم عن المعراج لكان الجواب في سورة الإسراء - التي نزلت لاحقاً - حين طلبوا منه الرُّقي في السماء أن يقول لهم: «أنسيتم سورة النجم وما جاء فيها من حديث عن المعراج؟».

والخلاصة أنه ليس في القرآن الكريم ذِكر للمعراج، بل للإسراء فقط، وإذا أراد أحد أن يُثبت وقوع المعراج فعلاً، فلابد من أن يعتمد على الروايات فقط، وهذا سيصطدم مع قوله «تعالى»: ﴿**وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاء وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً**﴾[1].

• المعراج في الروايات:

نعم، لو اكتفينا بالقول بأن لا دلالة في القرآن الكريم على وقوع المعراج،

١. سورة الإسراء: ٩٠-٩٣.

بل الإسراء فقط، فإنّ هذا لا يكفي لنفي وقوع الأمر كما لا يخفى، لا سيّما مع تسالم المسلمين على وقوعه على مرّ القرون المتمادية، ومع وجود عدد كبير من الروايات في هذا الباب، مما دفع ببعض علماء الفريقين إلى القول بتواتر هذا الحديث، ولو في المعنى لا باللفظ.

وحول تواتر خبر المعراج قال الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن»: (فقد تواترت الأحاديث الصحيحة عنه أنه أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وأنه عرج به من المسجد الأقصى حتى جاوز السماوات السبع)[١].

وقال المحدِّث أبو الخطاب عمر بن حسن بن دحية الكلبي:(وقد تواترت الرواياتُ في حديث الإسراء عن عمر بن الخطاب وعلي وابن مسعود وأبي ذر ومالك بن صعصعة وأبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس،وشداد بن أوس وأُبي بن كعب وعبد الرحمن بن قرط وأبي حبة وأبي ليلى الأنصاريين وعبد الله بن عمرو وجابر وحذيفة وبريدة، وأبي أيوب وأبي أمامة وسمرة بن جندب وأبي الحمراء، وصهيب الرومي وأم هانىء، وعائشة وأسماء ابنتي أبي بكر الصديق «رضي الله عنهم أجمعين». منهم من ساقه بطوله، ومنهم من اختصره على ما وقع في المسانيد، وإن لم تكن روايةُ بعضهم على شرط الصحة، فحديثُ الإسراء أجمع عليه المسلمون)[٢].

وقال العلاّمة المجلسي في «بحار الأنوار»: (اعلم أنَّ عروجه «صلى الله عليه

١. الشنقيطي: أضواء البيان، ج٣، ص٢٨٠.

٢. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٣٦.

وآله» إلى بيت المقدس ثمّ إلى السماء في ليلة واحدة بجسده الشريف، ممّا دَلَّت عليه الآيات والأخبار المتواترة من طرق الخاصّة والعامّة)[١].

وقال الشيخ ناصر مكارم الشيرازي في تفسيره «الأمثل»: (في الكتب الإسلامية المعروفة هُناك عدد كبير جدّاً من الأحاديث والرّوايات التي جاءت حول قضية المعراج، حتى أنَّ الكثير من علماء الإسلام يذهب إلى تواتر حديث المعراج أو اشتهاره)[٢].

وقد ذكرتُ في بداية الكتاب تحت عنوان «مسائل مهمة» أن التواتر لا يتحقق ولا تكون له قيمة علمية إلا وفق شروط معينة، وأن الشهيد الثاني حذّر من الوقوع في فخ الأحاديث الموضوعة التي تتحوّل بكثرة تناقلها إلى أحاديث متواترة عند البعض، وهي ليست كذلك، وأن أكثر ما ادُّعي تواتره من هذا القبيل، ينظر مدعي التواتر إلى تحققه في زمانه، أو هو وما قبله من غير استقصاء جميع الأزمنة، ولو أنصف لوجد الأغلب خلوّاً أوّل الأمر منه، بل ربما صار الحديث الموضوع ابتداءً، متواتراً بعد ذلك، لكن شرط التواتر مفقود من جهة الابتداء[٣].

ومما يقلّل من قيمة هذه المرويات أن مضمون غالبيتها متضارب بشكل كبير كما سيظهر معنا بشكل تدريجي خلال عرض التفاصيل حول مجريات المعراج، وهذا التضارب والتعارض يُضعف من قيمتها العلمية، فالمسألة ليست

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص٢٨٩.
٢. شيرازي: الأمثل، ج ٨، ص٣٨٨.
٣. العاملي: الدراية، ص ١٥.

من باب الاختلاف في اللفظ، أو زيادة ونقصان المعلومات فيما بينها، بل تعارضُ بيّن في التفاصيل، ولذا يصعب قبول ادّعاء التواتر، وإذا قبلنا بذلك فإنه لا يوصلنا إلى درجة العلم ولا الاطمئنان، مما يُفقده الحجية في نهاية المطاف.

وإذا أردنا أن نعتمد في تصحيح الروايات على مبنى صحة الأسانيد واعتبارها، فإن في بحار الأنوار - بحسب المبنى الذي اعتمده الشيخ آصف محسني في مشرعته - تسع روايات معتبرة[1]، بعضها يختصّ بالإسراء، وبعضها بالإسراء والمعراج معاً، ومن أراد أن يتجاوز ما ذكرناه ضمن البحث القرآني من أن الآيات لا تساعد على القول بوقوع المعراج على وجه التحديد، بل يمكن أن نفهم منها عدم وقوع الرقي - العروج - إلى السماء كما في الآية ٩٣ من سورة الإسراء، فإنه يستطيع أن يُقدّم هذه الروايات كدليل على وقوع ذلك فعلاً، وقد أورد العلامة المجلسي في بحاره أكثر من ١٢٠ رواية في خصوص الإسراء والمعراج جمعها من مصادر متعددة.

ولكن الذي يجب أن نلاحظ هنا عدة أمور:

١. صحة السند لوحدها غير كافية للقول بصحة متن الرواية، فكم من رواية صحيحة السند تتعارض بشكل واضح مع آيات من القرآن الكريم، وقد عمل البعض على وضع الأسانيد واختلاقها لتصحيح بعض الروايات، وهذه المسألة بحثها عدد من المختصين في مجال الحديث وعلومه، وأقرّوا بحقيقتها، وجاءوا بشواهد متعددة عليها، ومرّ بنا في أوّل الكتاب في بحث

١. انظر المعتبر من بحار الأنوار ج١ ص٢٩٠-٢٩٨.

تواتر الحديث وتحت عنوان «مسائل مهمة» أن تعدد الأسانيد قد لا يدل على تراكم عددي يساعد على تكوّن التواتر، لأن وضع الحديث واختلاقه من قبل الكذابين لا يقتصر على المتن، بل قد يشمل السند أيضاً، وهذا أمر وقع وتحقق في التاريخ الإسلامي، فقد يقوم الواضع بالعثور على حديث آحادي موجود، وله سند أو لا سند له، فيقوم - لأجل تقوية هذا الحديث الذي يجد في متنه ما يناسب مصالحه - باختراع سند له، إما رجاله معروفون أو غير معروفين، أو لا وجود لهم، كلاً أو بعضاً. هذه الظاهرة بالغة الخطورة، لأن هذا معناه أنه من الممكن أن يقوم الوضّاعون - لأجل تقوية حديث ضعيف - بتركيب أسانيد له، من شخصيات معروفة أو شبه معروفة، فهم قد سمعوا سابقاً بالحديث، لكنهم يريدون تقويته، ولم يقوموا باختراعه أو اقتباسه من مكان ما، وهذا يعني أن كثرة الأسانيد التي فيها أشخاص ضعاف أو محتملي الضعف جداً، يصعب تحصيل الوثوق منها فضلاً عن التواتر، لاحتمال أنهم جميعاً اخترعوا الأسانيد لمتن كان موجوداً بسند ضعيف، فلا ينبغي الاغترار بكثرة الطرق قبل نقد هذا الجانب[١].

كما قام البعض بدس الروايات الموضوعة في كتب أصحاب الأئمة «عليهم السلام»، كما فعل المغيرة بن سعيد وأبو الخطاب الأسدي مثلاً.

فقد سئل يونس بن عبدالرحمن وهو من أصحاب الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام»: (يا أبا محمد، ما أشدَّك في الحديث وأكثرَ إنكارِك لما يرويه أصحابُنا، فما الذي يحمِلُك على ردّ الأحاديث؟ فقال: حدَّثني هشام

١. حب الله: حجية الحديث، ص٦٩.

بن الحكم أنه سمع أبا عبدالله «عليه السلام» يقول: لا تَقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآنَ والسنّة) أي المؤكدة (أو تجدون معه شاهداً مِن أحاديثنا المتقدمة، فإن المغيرة بن سعيد «لعنه الله» دسّ في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدِّث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبَلوا علينا ما خالَف قولَ ربِّنا «تعالى» وسنّةَ نبيِّنا محمد «صلى الله عليه وآله»، فإنّا إذا حدّثْنا قلنا: قال الله «عز وجل»، وقال رسول الله «صلى الله عليه وآله». قال يونس: وافيتُ العراق فوجدتُ بها قِطعةً مِن أصحابِ أبي جعفر «عليه السلام»، ووجدتُ أصحابَ أبي عبدالله «عليه السلام» متوافرين، فسمِعتُ منهم وأخذتُ كتبَهم فعرضتُها مِن بعدُ على أبي الحسن الرضا «عليه السلام»، فأنكَر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبدالله «عليه السلام»، وقال لي: إنّ أبا الخطاب كذَب على أبي عبدالله «عليه السلام». لعن الله أبا الخطاب. وكذلك أصحابُ أبي الخطاب يدسُّون هذه الأحاديث إلى يومِنا هذا في كُتبِ أصحابِ أبي عبدالله «عليه السلام»، فلا تقبلوا علينا خلافَ القرآن، فإنّا إنْ تحدَّثْنا حدَّثْنا بموافقة القرآنِ وموافَقةِ السنّة)[1].

٢. وقد أشار الشيخ آصف محسني إلى إشكالية أخرى وهي أن المتأمل في كلام العلامة المجلسي في الفصل الأول والثاني من مقدمة بحاره يدرك بسهولة أن نُسخ مصادر كتابه لم تصل إليه من مؤلفيها بأسانيد متصلة معتبرة، وإنْ شئت فقُل أن المجلسي لم ينقل عنها بالمناولة، بل ينقل بالوجادة، أي أنه وقف على المؤلفات في الأسواق وعند الأشخاص كما يظهر من كلامه، ولعله لم يصل

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٠.

إليه نسخة كتاب واحد من مؤلفه بالمناولة المعتبرة بتوسّط الثقات والصادقين.

وعليه فلا مجال للحكم بصحة الكتب بمجرد حَدس بعض العلماء وبقطع النظر عن إقامة دليل وشواهد على صحة النسخة الواصلة إلى المجلسي. وعليه فإذا لم يثبت وصول نسخة كتاب إلى المجلسي فلا يُعتبر ما فيه من الروايات والأخبار وإن صحّت أسنادها من قبل المؤلف إلى الإمام «عليه السلام»، إذ لابد من إحراز نسخة الكتاب إلى مؤلفه الثقة أيضاً.

ثم ختم كلامه بقوله: (وهذا الأمر فليكن ببال القراء المحققين إذ يترتب عليه ضعف روايات كثيرة تُعد عند المشهور من المعتبرات)[١].

٣. منهج النبي والأئمة في الأخذ بالروايات يَعتمد في المقام الأول على العرض على القرآن، وهذا ما دل عليه قول النبي «صلى الله عليه وآله» وقول الأئمة «عليهم السلام» في أكثر من مورد، من قبيل ما رواه الصادق عن النبي أنه قال: (إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً) أي أن ما يدلّك على الحق والصواب موجود، فاسع إليه، وما هو إلا القرآن: (فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه)[٢].

وعنه «عليه السلام» أنه قال: (خطب النبي «صلى الله عليه وآله» بمنى فقال: أيها الناس ما جاءكم عني يوافقُ كتابَ الله فأنا قلتُه، وما جاءكم يخالف كتابَ الله فلم أقلْه)[٣].

---

١. محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج١، ص٢٣-٢٤.

٢. الكليني: الكافي ، ج ١، ص ٦٩.

٣. الكليني: الكافي ، ج ١، ص ٦٩.

ومع هذا فقد ظهر قديماً اتّجاه يدعو - ولو بصورة غير مباشرة - إلى تقديم الحديث على القرآن، وقد روى الأوزاعي عن مكحول بن عبدالله الشامي الهُذلي - وهو محدِّث فقيه حافظ، عالم أهل الشام، من كبار أعلام التابعين، وأشهر فقهائهم في بلاد الشام. عُدّ في أوساط التابعين من أقران الزُّهري. روى أحاديث مرسلة عن جماعة من الصحابة والتابعين. قيل أنه كان فارسياً من سبي كابل وقيل بل من النوبة - قوله: (القرآن أحوج إلى السنَّة مِن السنّة إلى القرآن!).

وبلغ بيحيى بن أبي كثير الطائي «ت ١٢٩هـ» - وهو فقيه تابعي ومُحدِّث من صغار التابعين، قال عنه ابن حجر العسقلاني: «ثقة ثبت لكنه يدلس ويرسِل. وقد احتمل الأئمة تدليسه لإمامته! وقال مُرّة: أحد الأئمة الأثبات الثقات المكثرين كثير الإرسال والتدليس والتحديث من الصحف، لم يَسمع مِن أحد من الصحابة، ورأى أنساً ولم يسمع منه واحتجّ به الأئمة[1]» - أن يقول: (السنّة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب بقاضٍ على السنة!). وقد دفعت هذه المقولة إمامَ الحنابلة أن يعلّق عليها قائلاً: (ما أجسرُ على هذا أن أقوله، ولكني أقول: إن السنّة تفسّر الكتاب وتبيّنه)[2].

وقال الفقيه المالكي ابن عبدالبَر الأندلسي معترضاً على صحة روايات عرض الحديث على القرآن: (أمَر الله «عزَّ وجل» بطاعة رسوله واتّباعه أمراً مُطلقاً مجملاً لم يُقيَّدْ بشيء، ولم يقل: ما وافق كتابَ الله؛ كما قال بعضُ أهل

1. hadithportal.com/show.php?show=show_tragem&id=8208#home

٢. القرطبي: جامع أحكام القرآن، ج١، ص٣٩.

الزيغ، قال عبدالرحمن بن مهدي: الزنادقة والخوارج وضَعوا ذلك الحديث، وهذه الألفاظ لا تصحُّ عنه «صلى الله عليه وسلم» عند أهل العِلم بصحيح النَّقل مِن سقيمه، وقد عارَض هذا الحديثَ قومٌ من أهل العلم فقالوا: نحن نعرض هذا الحديث على كتاب الله قَبل كلِّ شيء، ونعتمد على ذلك، قالوا: فلمَّا عرضناه على كتاب الله «عزَّ وجل»، وجدناه مخالفًا لكتاب الله؛ لأنَّا لم نجد في كتاب الله ألَّا نقبل مِن حديث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلَّا ما وافق كتابَ الله، بل وَجَدنا كتابَ الله يُطلق التأسِّي به والأمر بطاعته، ويحذِّر المخالفةَ عن أمره جملةً على كل حال)[١].

وقال الشوكاني: (حديث: «إذا رُوي عنِّي حديث، فاعرِضوه على كتاب الله، فإذا وافَقه فاقبلوه، وإن خالَفه فردُّوه»، قال الخطابي: وضعَتْه الزَّنادقةُ، ويدفعه حديث: «أُوتيتُ الكتابَ ومثله معه»؛ كذا قال الصغاني، قلت: وقد سبقهما إلى نِسبة وضعه إلى الزنادقة: يحيى بن مَعين؛ كما حكاه عنه الذَّهبي، على أنَّ في هذا الحديث الموضوع نفسِه ما يدلُّ على رده؛ لأنَّا إذا عرضناه على كتاب الله «عزَّ وجل» خالفه؛ ففي كتاب الله «عزَّ وجل»: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٢]، ونحو هذا من الآيات)[٣].

وتحت عنوان «حديث: اعرضوا السنّة على القرآن وضعته الزنادقة لهدم الإسلام»، قال الشيخ محمد بن علي بن جميل المطري: (القول بعرض السنّة على القرآن فإن وافقها قُبِلت، وإن خالفها رُدت، قولٌ لا يصدر إلا من جاهل

١. ابن عبدالبر: جامع بيان العلم وفضله، ج٢، ص١١٩٠.

٢. سورة الحشر:٧.

٣. الشوكاني: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، ص ٢٩١.

بمنزلة سنة النبي «صلى الله عليه وسلم» الذي أمرنا الله في القرآن بطاعته واتباعه، وحذرنا من مخالفة أمره، وقائل هذا القول - إن كان عارفاً معنى كلامه وملتزماً به - لم يُعظِّم النبي «صلى الله عليه وسلم» حقّ تعظيمه، حيث سوّى قوله بقول غيره، ولم يفرّق بين قول الرسول وقول غيره).

ثم أطلق تحدّياً غريباً بالإتيان بحديث صحيح واحد يعارض القرآن، قال: (ثم إنه لا يوجد أصلاً حديث صحيح يعارض القرآن، ونتحدّى من يأتي بحديث صحيح يعارض آية في كتاب الله، وإذا وُجِد حديث صحيح ظاهره يخالف القرآن فقد وجَّهه العلماء، وبيّنوا معناه، كما وجهوا بعض الآيات التي يخالف ظاهرها آيات أخرى في كتاب الله)[1].

ولا يخفى ما في الكلام السابق من خطأ فاحش -إن أحسنّا الظن بقائله- وذلك عندما تم الخلط بين السنة النبوية وبين الحديث، فليس كل حديث بسنّة، لأنّ من المحتمل أن يكون الحديث المروي موضوعاً أو منقولاً بصورة خاطئة أو ناقصة أو مشوّهة أو محرّفة، وهو ما لا يحتاج إلى استدلال ونقاش، وقد قال بذلك علماء المسلمين من كافة الفرق دون استثناء، بل وليس لكتب عُنونَت بأنها كتاب «صحيح.....» إلا لوجود غير الصحيح كما لا يخفى.

ويضاف إلى هذا أنّ كُتب الصحاح أيضاً تمثّل جهوداً بشرية مشكورة ولكنها ليست معصومة عن الخطأ والسهو، وهناك عوامل عديدة لها مدخلية في وقوع الخطأ من قبل الحفّاظ والرواة والمحدِّثين وفي معاييرهم في تقييم الأحاديث والرواة والكتب المنقول عنها. وعليه نستطيع القول أن الذي لا يعارض القرآن

1. www.alukah.net/sharia/0/114958/#ixzz65WYwnl9d

الكريم هو ما كان صادراً على وجه اليقين عن رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وأما الأحاديث المظنون صدورها فليست بالضرورة كذلك.

والمعيار الآخر الذي نعرض عليه الحديث هو العقل، فعن النبي «صلى الله عليه وآله»: (إذا أتاكم عني حديث فأعرضوه على كتاب الله وحجة عقولكم فإن وافقهما فأقبلوه وإلا فاضربوا به عرض الجدار)[١].

كما أن الحقائق العلمية الثابتة والأكيدة يمكنها أن تكون وسيلة لقبول الرواية أو رفضها أو تأويلها إن أمكن.

وفيما يلي بعض الأمثلة لروايات معتبرة سنداً بحسب المعايير العلمية المعتمدة، ولكن لا يمكن قبول مضمونها لسبب أو لآخر:

أ. في الكافي عن أبان بن تغلب، قال: (سألت أبا عبدالله «عليه السلام» عن الأرض على أي شئ هي؟ قال: على الحوت) أي سمكة (قلت: فالحوت على أي شئ هو؟ قال: على الماء. قلت: الماء على أي شئ هو؟ قال: على الصخرة، قلت: فالصخرة على أي شئ هي؟ قال: على قرن ثور أملس. قلت: فعلى أي شئ الثور؟ قال: على الثرى) التراب (قلت: فعلى أي شئ الثرى؟ فقال: هيهات! عند ذلك ضلّ عِلم العلماء)[٢].

هذا المضمون ورد في عدة من كتب السنة والشيعة من قبيل كتاب العلل لأحمد بن حنبل، والمستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، وعلل الشرائع للشيخ الصدوق. وقد انبرى بعض علمائنا - كالسيد المرتضى والشيخ

١. الرازي: التفسير الكبير، ج ٣، ص ٣٩٢.

٢. الكليني: الكافي، ج ٨، ص ٩١.

المفيد – منذ قرابة الألف سنة، وقبل الاكتشافات العلمية الحديثة لِرَفض مثل هذا الحديث وإن صح سنده. والطريف أن الباحث عندما يحاول أن يعرف مصدر هذا التصور الطفولي للأرض، يجد أن كل شعب يعكس بيئته في ذلك، فالهنود كانوا يتصورون أن الأرض على صفيحة فضية، محمولة على ظهور مجموعة من الفيلة.. بينما في اليابان تصوروا الأرض على ظهر سمكة كبيرة.. وفي بعض المجتمعات الشرقية على قرن ثور، وأن الزلازل تحدث نتيجة حركة هذه الحيوانات أو انتقال الأرض من قرن إلى آخر! ومَن وَضَع الحديث السابق على لسان الإمام الصادق «عليه السلام» جمَع أكثر من ثقافة وأراح نفسه.

بالطبع البعض يحاول تصحيح المضمون تمسّكاً برمزيته، ولكننا عندما نعود إلى القرآن سنجده يقدم مثل هذه الصورة العلمية الرائعة: ﴿**وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾[1]، وهو يستعمل كلمة الأرض في ٤٤٤ مورداً، خلت من التصاوير الساذجة الواردة في مثل ذلك الحديث. والمفارقة أن بعض أهل السنة لمز الشيعة لأنهم رووا هذا الحديث، وبعض الشيعة لمزوا أهل السنة لأن هذا الحديث مدوّن في بعض صحاحهم، وقد ورد الخبر ١٣ مرة في مصادر الشيعة و ٩ مرات في مصادر السنة.

ب. في الكافي بسنده عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله «عليه السلام»: (في النطفتين اللتين للآدمي والشيطان إذا اشتركا، فقال أبو عبد الله «عليه السلام»: ربما خلق من أحدهما وربما خلق منهما جميعاً)[2].

---

١. سورة النحل: ١٥.

٢. الكليني: الكافي، ج ٥، ص ٥٠٢.

ولكي نفهم معنى الخبر نرجع إلى الرواية التي سبقتها مباشرة ورواها الكليني عن أبي بصير قال: (قال لي أبو عبد الله «عليه السلام»: يا أبا محمد إذا أتيت أهلك فأي شئ تقول؟ قال: قلت: جعلت فداك وأطيق أن أقول شيئا؟ قال: بلى قل: اللهم بكلماتك استحللت فرجها و بأمانتك أخذتها فإن قضيت في رحمها شيئا فاجعله تقيا زكيا ولا تجعل للشيطان فيه شركاً. قال: قلت: جعلت فداك ويكون فيه شرك للشيطان؟ قال: نعم أما تسمع قول الله «عز وجل» في كتابه: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾[1]؟ إن الشيطان يجيئ فيقعد كما يقعد الرجل وينزل كما ينزل الرجل، قال: قلت: بأي شئ يعرف ذلك؟ قال: بحبنا وبغضنا)[2].

وهكذا نجد ما يشبه هذا المضمون عند أهل السنة في تفسير القرطبي عن مجاهد قال: (إذا جامع الرجل ولم يسمِّ انطوى الجان على إحليله فجامع معه)[3]. وعن أم المؤمنين عائشة قالت: (قال لي رسول الله «صلى الله عليه وسلم»: هل رئي فيكم المغرِّبون؟ قلت: وما المغرِّبون ؟ قال: الذين يشترك فيهم الجن). قال الملا علي القاري في شرح العبارة السابقة: (أي في نطفهم أو في أولادهم لتركهم ذكر الله عند الوقاع، فيلوي الشيطان إحليلَه على إحليله فيجامع معه. قال «تعالى»: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ فيجب على الإنسان كما في الحديث : «إذا خالط امرأته أن يقول : بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا»، فإذا ترك هذا الدعاء أو التسمية شاركه

١. سورة الإسراء:٦٤.

٢. الكليني: الكافي ، ج ٥، ص ٥٠٣.

٣. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٠، ص٢٨٩.

الشيطان في الوقاع، ويسمى هذا الولد مغرباً، لأنه دخل فيه عرق غريب، أو جاء من نسب بعيد)[١].

ج. عن عبدالله بن سنان قال: (سألت أباعبدالله «عليه السلام» عن أولاد المشركين يموتون قبل أن يبلغوا الحنث. قال: كفار، والله أعلم بما كانوا عاملين، يدخلون مداخل آبائهم. وقال «عليه السلام»: يؤجج لهم ناراً فيقال لهم: ادخلوها، فإن دخلوها كانت عليهم برداً وسلاماً، وإن أبوا قال لهم الله «عز وجل»: هوذا أنا قد أمرتكم فعصيتموني، فيأمر الله «عز وجل» بهم إلى النار)[٢].

فهل يتناسب هذا والعدالة الإلهية؟ وهل الآخرة دار اختبار؟ ولماذا لا يأمر الله أطفال المسلمين بذلك ليختبرهم؟ أم أن أبناء المسلمين لا يرتدّون ولا ينحرفون؟ أم لهم امتياز عمّن سواهم ومن دون اختيار منهم، لأن لا أحد يختار أبويه، والزمن الذي يولد فيه، والصفات الجينية التي يرثها، وغير ذلك من الأمور التي يكون فيها الإنسان غير مخيَّر.. فعلى أي أساس يُعطى هذا الامتياز للبعض ويُحرَم منه آخرون؟ من الواضح أن العدالة الإلهية لا تلتقي مع مثل هذا القول، بل إن بعض الروايات الأخرى تتعارض بشكل واضح مع هذه المقولة، وتعتبر أن لا محاسبة للأطفال في الآخرة، وأن لهم وضعاً خاصاً.

د. في علل الشرائع عن البزنطي عن الرضا «عليه السلام» قال: (قلت: كيف كان أوّل الطِّيب؟ فقال لي: ما يقول مَن قبلكم فيه؟ قلت: يقولون: إنّ

١. القاري: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج٧، ص ٢٨٨٦.

٢. المجلسي : بحار الأنوار ، ج ٥، ص٢٩٥.

آدم لما هبط بأرض الهند فبكى على الجنة سالت دموعه فصارت عروقاً في الأرض فصارت طيباً، فقال «عليه السلام» ليس كما يقولون، ولكن حواء كانت تغلف قرونها) ظفائر شعرها (من أطراف شجرة الجنة، فلما هبطت إلى الأرض وبليت بالمعصية رأت الحيض فأُمرت بالغُسل، فنقضت قرونها، فبعث الله «عز وجل» ريحاً طارت به وخفضته فذرت حيث شاء الله «عز وجل»، فمِن ذلك الطيب)[١].

هـ. وفيه أيضاً عن محمد الحلبي، عن أبي عبد الله «عليه السلام» قال: (إن القبضة التي قبضها الله «عز وجل» من الطين الذي خلق منه آدم «عليه السلام» أرسل إليها جبرئيل «عليه السلام» أن يقبضها، فقالت الأرض: أعوذ بالله أن تأخذ مني شيئاً! فرجع إلى ربه فقال: يا رب تعوذت بك مني، فأرسل إليها إسرافيل فقالت مثل ذلك، فأرسل إليها ميكائيل فقالت مثل ذلك، فأرسل إليها ملك الموت فتعوذت بالله أن يأخذ منها شيئاً! فقال ملك الموت: وأنا أعوذ بالله أن أرجع إليه حتى أقبض منك، قال، وإنما سمي آدم آدم لأنه خلق من أديم الأرض)[٢].

و. عن أبي سلام قال: (قال حذيفة بن اليمان قلت: يا رسول الله إنا كنا بِشرّ، فجاء الله بخير، فنحن فيه، فهل من وراء هذا الخير شر؟ قال: نعم، قلت: هل وراء ذلك الشرّ خير؟ قال: نعم، قلت: فهل وراء ذلك الخير شر؟ قال: نعم، قلت: كيف؟ قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون

١. الصدوق: علل الشرائع، ص ١٦٧ - ١٦٨.

٢. الصدوق: علل الشرائع، ص ١٩٣.

بسنتي وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلت: كيف أصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟ قال: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع)[١].

ز. وقد رواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي والألباني. وللحديث رواية أخرى رواها الحاكم بسنده عن سبيع بن خالد قال: (خرجت إلى الكوفة زمن فتحت تُستر لأجلب منها بغالاً فدخلت المسجد فإذا صدع من الرجال تعرف إذا رأيتهم أنهم من رجال الحجاز، قال: قلت: من هذا، قال: فحدقني القوم بأبصارهم وقالوا: ما تعرف هذا هذا حذيفة صاحب سر رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، قال: فقال: حذيفة «رضي الله عنه» إن الناس كانوا يسألون رسول الله «صلى الله عليه وسلم» عن الخير وكنت أسأله عن الشر، قال: قلت: يا رسول الله أرأيت هذا الخير الذي أعطانا الله يكون بعده شر كما كان قبله، قال: نعم، قلت: يا رسول الله فما العصمة من ذلك، قال: السيف، قلت: وهل للسيف من بقية، قال: نعم، قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم هدنة على دخن، قال جماعة على فرقة فإن كان لله «عز وجل» يومئذ خليفة ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع واطع وإلا فمت عاضاً بجذل شجرة، قال: قلت: ثم ماذا؟ قال: يخرج الدجال ومعه نهر ونار فمن وقع في ناره أجره وحط وزره ومن وقع في نهره وجب وزره وحط أجره، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم إنما هي قيام الساعة)[٢]. قال الحاكم: هذا حديث صحيح، ووافقه الذهبي في التلخيص.

١. مسلم: المسند الصحيح المختصر أو صحيح مسلم، ج٢، ص١٦٠، ح٥٢.

٢. الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين، ج٤، ص ٤٧٩، ح٨٣٣٢.

ولكن في مقابل هذين الحديثين الأخيرين نجد الحديث التالي الذي يتعارض معهما، ولكنه يتناغم مع القرآن الكريم ويتماثل مع منطق رسول الله «صلى الله عليه وآله». فعن معاذ بن جبل أنه قال: (سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول: خذوا العطاء ما دام العطاء لله، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه ولستم بتاركيه، يمنعكم الفقر والحاجة، ألا إن رحى الإسلام دائرة فدوروا مع الكتاب حيث دار، ألا إن الكتاب والسلطان سيفترقان فلا تفارقوا الكتاب، ألا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم مالا يقضون لكم، فإذا عصيتموهم قتلوكم، وإن أطعتموهم أضلوكم، قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى ابن مريم، نُشروا بالمناشير، وحُملوا على الخشب، موتٌ في طاعة الله خير من حياة في معصية الله)[1].

وخلاصة الكلام أن مجرّد التمسك باعتبار السند غير كاف للتأكّد من صدور المتن عن النبي أو الإمام، وهكذا فإنّ التواتر إنْ لم يَقُم على أُسس سليمة، ولم يصل بنا إلى حدّ العلم بالصدور عن النبي أو الإمام، فلن يكون بالنسبة إلينا حجّة مُلزِمة.

• تكرار الإسراء والمعراج:

بينما تحدّث القرآن الكريم عن إسراء واحد، دون حديثٍ عن وقوع المعراج إلى السماء، نجد البعض يقول بتكرّر الإسراء، بل وتكرر المعراج حتى وصل الرقم في بعض الأقوال إلى ١٢٠ مرة! ومصدرُهم في ذلك روايات ضعيفة.

وفيما يلي نموذج لهذه المقولة: (المشهور أن الإسراء والمعراج بالنّبي «صلى

١. الطبراني: الجامع الصغير، ج٢، ص٤٢.

الله عليه وآله» كان مرة واحدة، ولكن من مجموع الروايات الشريفة نفهم أنه كان متعدّداً، وقيل إن الإسراء) يخلط الكاتب هنا بين الإسراء والمعراج وسيكرر هذا الخلط عدة مرات (كان مرتين مرة بروحه مناماً، ومرة بروحه وبدنه يقظة. ومنهم من يدعي تعدّد الإسراء في اليقظة أيضاً، حتى قال بعضهم: إنها أربع إسراءات. وزعم بعضهم أن بعضها كان بالمدينة. ووفَّق الشيخ شهاب الدين أبو شامة في روايات حديث الإسراء بالجمع المتعدد، فجعل ثلاث إسراءات: مرة من مكة إلى بيت المقدس فقط على البراق، ومرة من مكة إلى السماء على البراق أيضاً، ومرة من مكة إلى بيت المقدس ثم إلى السماوات. ورجّح بعض علمائنا أنه كان مرتين. وروت مصادرنا عن ابن عباس أن المعراج كان مرتين، مرة من المسجد الحرام، ومرة من بيت أم هاني، ليلة الإثنين في شهر ربيع الأول بعد النبوّة بسنتين. فالأوّل معراج العجائب، والثاني معراج الكرامة. وعن علي بن أبي حمزة) وهو البطائني الملعون على لسان الإمام الرضا «عليه السلام» (قال: «سأل أبو بصير أبا عبد الله «عليه السلام» وأنا حاضر فقال: جُعلت فداك كم عُرج برسول الله «صلى الله عليه وآله»؟ فقال: مرتين.....». وروته مصادرنا بسندٍ قوي) والحقيقة أن السند ضعيف فقد روى الخبر الشيخ الصدوق[1] عن محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد «رضي الله عنه» قال: حدثنا الحسن بن متيل الدقاق قال: حدثنا سلمة بن الخطاب، عن منيع بن الحجاج، عن يونس، عن صباح المزني، وقد قال النجاشي عن سلمة بن الخطاب: «أبو الفضل البراوستاني الأزدورقاني - قرية من سواد الري - كان ضعيفاً في

١. الصدوق : الخصال، ص٦٠٠-٦٠١.

حديثه». وقال الشيخ المفيد: «منيع بن الحجاج: مجهول» فالرواية من ناحية السند ضعيفة ولم ترد بسند قوي كما قال الكاتب (عن الإمام الصادق «عليه السلام» قال: «عُرج بالنبي «صلى الله عليه وآله» إلى السماء مئةً وعشرين مرةً....». ويُؤيّد ذلك أن أحاديث المعراج لا يمكن تفسيرها إلا بتعدّده)[1].

• هل تم الإسراء بالجسد؟

أثار العلماء تساؤلاً حول طبيعة الإسراء والمعراج، هل تمّت بالجسد أم اقتصرت على الروح، وهل كانت في عالم اليقظة أم المنام.. وانقسمت آراؤهم إلى ما يلي:

١. الرحلتان بجسد النبي «صلى الله عليه وآله» وروحه.

٢. الرحلتان بروحه فقط وحال يقظته.

٣. الرحلتان في المنام.

٤. الرحلتان بروحه المتلبسة بجسم لطيف.

٥. الإسراء بالجسد والروح، ثم صار المعراج بالروح فقط.

وما دفع البعض إلى القول بروحانية المعراج - على وجه التحديد دون الإسراء - هو صعوبة تصوّر رحلة الإنسان بجسده إلى السماوات وفي زمن قصير جداً، مع ما تضمنتها رحلة المعراج - بحسب الفرض - من تفاصيل كثيرة تتضمن حوارات ومشاهدات وغير ذلك.

وفي استعراضه لبعض النقاط التحليلية حول المسألة، اعتبر الشيخ آصف

1. www.altabliq.com/arabic/book/109/1463.

مُحسني أنّ ذهاب إنسان بجسمه وروحه ثم رجوعه في ليلة واحدة من الكرة الأرضية إلى السماوات مع الصلوات في أماكن من الأرض والكرات السامية، والتكلم مع الله والمؤمنين ودخول الجنان ومشاهدة تمثّلات برزخية كما في الروايات الكثيرة بعيدة جداً، بل مجرد طيّ مسافة سنوات نورية أو ملايين السنوات النورية بعد فرض خروج جنة المأوى عن مجرتنا، بل عن السماوات، وفرْض كون النجوم والكواكب المحسوسة من الدنيا: ﴿**إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ**﴾[١] في ليلة واحدة، بعيدة.

وأضاف المحسني أنه لا يعتبر ذلك مستحيلاً عقلاً حتى وإن صحّت نظرية أنشتاين في تحديد سرعة النور وعدم تحقق سرعة حركة الأجسام أزيد منه، فإنّ الله قادر على إسراء أحدٍ بجِسمه وروحه بألف وسيلة ووسيلة، ولكنه يعتبره أمراً مستبعداً.

ومن الاحتمالات التي ذكرها لحل هذه المعضلة الأخذ بمقولة أن للروح في كل نشأة بدناً خاصاً، وخصائص هذه الأبدان مختلفة، وعليه فيمكن القول أن الله «عز وجل» عرج بروح نبيه وببدن خاص لطيف يناسب هذا السفر المعراجي، وأن هذا الاحتمال هو الأنسب بلحاظ أنّ النبي تكلم مع الأنبياء والملائكة في السماوات في حين أنهم أجسام لطيفة[٢].

وتعليقي على ما سبق، أننا إذا اقتصرنا على الإسراء فقط دون المعراج، فلن نكون بحاجة إلى كل هذه التأويلات، فتصوُّر السفر من مكة إلى القدس

١. سورة الصافات:٦.

٢. محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج١، ص٣٤٤-٣٤٥.

ثم العودة مجدداً في ليلة واحدة أمر متصوَّر، وليس كتصوّر المعراج. وقد مرّ بنا في قصة النبي سليمان الإتيان بعرش ملكة سبأ في أقل من طرفة عين، كما أنّ السفر بوسائل النقل الحديثة كالطائرات جعل من قطع المسافة ما بين مكة المكرمة وبيت المقدس متصوّرة.

• هل تُعدّ حادثة الإسراء معجزة؟

لابد من التنبيه - أوّلاً - إلى أن القرآن الكريم لم يستعمل مصطلح «معجزة» للدلالة على ما أيّد به بعض الأنبياء، بل استعمل مصطلح «آية»، والآية هي العلامة والإمارة الظاهرة التي تدل على شيء ما وتستدعي النظر والتثبّت والتوقف عندها. وهي مشتقة من «التأيّي»، الذي هو التثبّت. قال ابن منظور: (يقال: قد تأيَّيْتُ، أي: تلبَّثْتُ وتحَسَّبَتُ)[1].

ومن هنا أطلق الله «عز وجل» على محتويات السور القرآنية عنوان «آيات»، لأنها علامات وإمارات ودلائل ظاهرة تدل على سماويتها وصحة نبوة محمد «صلى الله عليه وآله» وما فيها من مضامين إيمانية وتشريعية وأخلاقية وحِكَمية، وهي تستدعي النظر والتثبّت والتوقف عندها والاستفادة منها. واستعمال كلمة «آية» بشأن ما نُطلِق عليه عنوان «المعجزة» أوفق بالغاية منها. فالغاية الرئيسة والأهم عند الله هي هداية الناس وإرشادهم وإخراجهم من غفلتهم وفتح أعينهم على الحقائق، لا التعجيز والتغلب والقهر والدخول في حالة تحدٍّ مع عباده وهو القوي العزيز، وإن كان هذا حاصلاً في بعض الأحيان بسبب العناد والطغيان والجحود.

---

١. ابن منظور: لسان العرب، ج ١٤، ص ٦٣.

ولعل استبدال مصطلح «آية» القرآني بمصطلح «معجزة» جاء بتأثير مسيحي من خلال البيئات المسيحية التي دخلها الإسلام في العراق والشام ومصر وغيرها، حيث أنه المصطلح المستعمل فيها للدلالة على «آيات» الله.

ولهجران المصطلحات القرآنية واستبدالها بمصطلحات أخرى آثار سلبية متعددة، من بينها:

١. ضياع المعايير القرآنية في الحكم على الأشياء، وذلك من قبيل استبدال مصطلح «الإيمان» بمصطلح «العقيدة»، فحدود الإيمان واضحة في القرآن الكريم، ويمكن التعرّف عليها بتتبّع الموارد التي تحدّثت عن صفات المؤمنين، وما هي العناوين التي يجب أن يؤمن بها الإنسان كي يكون مؤمناً وفق المصطلح القرآني، ومثال ذلك ما جاء في الآيات الأولى من سورة البقرة حيث يقول «تعالى»: ﴿**الم، ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[١].

أما مصطلح العقيدة فلم يَرد له ذِكر لا في القرآن ولا في الأحاديث وهو مصطلح اخترعه بعض علماء المسلمين، ولعل ذلك كان في النصف الثاني من القرن الهجري الثاني، وصار بذلك عنواناً مطّاطاً يسمح للبعض بإدخال أو إخراج ما يشاءون من عناوين وشروط وتفاصيل تُمثّل بالنسبة إليهم ضوابط لإدخال الناس في دائرة الإيمان والمؤمنين أو إخراجهم منها.

١. سورة البقرة:١-٥.

٢. خفاء أو ضياع بعض المفاهيم المهمة المرتبطة بالمصطلح، وذلك من قبيل استبدال «آية» بمصطلح «المعجزة»، مما يؤدّي أيضاً لخلل عند التطبيق بإدخال أو إخراج بعض الأحداث على اعتبار أنها من المعاجز أم ليست منها.

ثم إن من مميزات الآيات «= المعاجز» الإلهية بحسب القرآن الكريم أنها:

أ) تفوق قدرات البشر: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[١].

ب) واضحة لا لَبس فيها: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا**﴾[٢].

﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاء نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ**﴾[٣].

ج) إثبات مصداقية النبي: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ، حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ، وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاء لِلنَّاظِرِينَ**﴾[٤].

---

١. سورة الإسراء: ٨٨.

٢. سورة الإسراء: ١٠١.

٣. سورة يونس: ١٥.

٤. سورة الأعراف: ١٠٤-١٠٨.

د) إنقاذ لصاحبها: ﴿**قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ، قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ**﴾[١].

﴿**فَلَمَّا تَرَاءى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ، قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ، فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ، وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ، وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ، ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ**﴾[٢].

هـ) تحدّي بغرض الهداية: ﴿**فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ، قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ، أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ، أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لّا يُؤْمِنُونَ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ**﴾[٣].

و) تخويف وصدمة بغرض الهداية: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾[٤].

وقد أكّدت سورة الإسراء على أن الله «سبحانه» لم يُنزل على رسوله محمد «صلى الله عليه وآله» الآيات المادية «= المعاجز»، لا لأنه ليس رسولاً من عنده، بل لأنهم - من جهة - لن يؤمنوا بها، وحينها سينالهم عذاب

١. سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠.

٢. سورة الشعراء: ٦١-٦٧.

٣. سورة الطور: ٢٩-٣٤.

٤. سورة الإسراء: ٥٩.

الاستئصال نتيجة ذلك، وهذا ما لا يريده الله بحقهم، ومن جهة أخرى سيكون أمراً عبثياً: ﴿**وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا**﴾.

فالتجارب السابقة تبيّن أن لا طائلة من مثل هذه الآيات المادية، وحيث أن إنزال الآيات تستهدف التخويف، فإنّ هذا متحقق عن طريق ما جاء في القرآن من إنذار ووعيد وتهديد وإخبارات عن الماضي والمستقبل الدنيوي والأخروي: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا**﴾[1].

وقد أكّد القرآن في أكثر من مورد على أن الله لم يُنزل آيات «= معاجز» مادية على نبيه الكريم «صلى الله عليه وآله»، واكتفى بالقرآن الكريم للدلالة على صحة نبوته، ومن بين تلك الموارد:

- ﴿**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ، إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ، وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾[2].
- ﴿**وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾[3].

١. سورة الإسراء: ٦٠.
٢. سورة الأنعام: ٣٥- ٣٧.
٣. سورة الرعد:٧.

○ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَاب﴾[١].

○ ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّن السَّمَاء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ، وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاء مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون، أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٢].

○ ﴿وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣].

الآيات القرآنية السابقة وغيرها تدل على أن الله «سبحانه» لم ينزل الآيات المُبصَرة على رسوله محمد «صلى الله عليه وآله»، وهذا على خلاف ما تحقق لأنبياء سابقين.. بل يوجّه المشركين إلى التدبّر في «آيات» القرآن وفي الآفاق وفي أنفسهم كوسيلة من وسائل الهداية للتوحيد والنبوة والآخرة.

قد يقال: إن عدم إنزال آيات «= معاجز» مُبصَرة ومادّية على النبي «صلى الله عليه وآله» يجعله أقل مرتبة وشأناً من سائر الأنبياء... والجواب:

أ. لا دليل على أن التفاضل بين الأنبياء يكون بإنزال الآيات المادّية أو بعددها

١. سورة الرعد:٢٧.

٢. سورة الشعراء: ٣-٨.

٣. سورة العنكبوت:٥٠-٥١.

أو بنوعيتها، لأن الغرض منها - بحسب القرآن - هو التخويف والإنذار وإثبات النبوة وغير ذلك مما ذكرناه مسبقاً، لا التفاضل بين الأنبياء.

ب. آيات القرآن الخالدة وعظمة تأثيرها تفوق شأناً الآيات المادية محدودة الزمن والتأثير.

بعد هذا العرض لتصحيح مفهوم الآيات «= المعاجز» نعود إلى السؤال المطروح حول كون الإسراء آية «=معجزة».. فبحسب مَن قال بأن الإسراء كان بالروح أو في المنام، فلن يكون بذلك آية، أما مَن قال أنه كان بالجسد والروح في عالم الواقع - كما هو ظاهر الآية القرآنية - فإن الحدث أيضاً لا يمكن أن يمثّل آيةً لأنه لم يقع على مشهد من المشركين، بينما الغاية من الآيات التخويف والإنذار وإثبات النبوة والإنقاذ، ومجرّد ذكر حدوث ذلك من خلال القرآن الكريم أو بشهادة بعض رجال القافلة - كما في رواية - لا يكفي لجعلها آية. والذي يمكن أن يقال هنا أن الإسراء كان شيئاً خاصاً بالنبي «صلى الله عليه وآله» إكراماً له وتثبيتاً، وهذا ما تلخصه عبارة: ﴿**لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾.

• شقّ الصدر وغَسل الأحشاء:

أسهب الرواة في وضع التفاصيل لحادثة الإسراء - والمعراج - من وحي خيالاتهم، ولا سيما التفاصيل الخاصة بالمعراج والبراق وسدرة المنتهى ولقاء الأنبياء ومشاهدة الجنة والنار والنعيم والعذاب والمماكسة في تشريع الصلاة، وفصّلوا حديثَهم حول الرحلة سماءً فسماء، إلى أن وصل إلى العرش، وتخيّلوا أحداثاً وحوارات عديدة ادّعوا أنها جرت بين الله «عز وجل» وبين نبيه «صلى الله عليه وآله»، وبينه وبين جبريل «عليه السلام»، وغير ذلك. كل ذلك دون

وجود إشارة إلى شيء منها في القرآن الكريم.

ومن بين هذه التفاصيل قولهم بأن جبريل ومن معه من الملائكة قاموا -قبل الإسراء والمعراج- بشقّ صدر النبي وغَسل أحشائه، وهي القصة المتخيّلة التي ادّعي وقوعها أيضاً في بدايات حياته حين كان في حضانة حليمة السعدية.

○ عن مالك بن صعصعة قال: (قال نبيّ الله «صلى الله عليه وسلم»: بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ أقبل أحد الثلاثة بين الرجلين) في رواية مشابهة «أحد الثلاثة بين رجلين» وهما حمزة بن عبدالمطلب وجعفربن أبي طالب (فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا. قال قتادة: قلت: ما يعني به؟ قال: إلى أسفل بطنه. قال: فاستخرج قلبي فغُسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيماناً وحكمة....)[١].

أما الرواية التالية فتدّعي أن شق الصدر والإسراء ثم المعراج وقع كله قبيل بدء الوحي والبعثة !

○ عن شريك بن أبي نمر، قال: (سمعت أنساً يحدّثنا عن ليلة المسرى برسول الله «صلى الله عليه وسلم» من مسجد الكعبة أنه جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه، وهو نائم في المسجد الحرام، فقال أوّلهم: أيهم هو؟ قال أوسطهم، هو خيرهم. فقال أحدهم: خذوا خيرَهم. فكانت تلك. فلم يرهم حتى جاءوا ليلة أخرى فيما يَرى ثلاثة، والنبيّ «صلى الله عليه وسلم» تنام عيناه، ولا ينام قلبه. وكذلك الأنبياء تنام أعينهم، ولا تنام قلوبهم، فلم يكلموه حتى احتملوه فوضعوه عند بئر زمزم، فتولاه منهم جبرئيل «عليه السلام»،

١. الطبري: جامع البيان، ج ١٥، ص ٥.

فشقّ ما بين نحره إلى لبَّته، حتى فرغ من صدره وجوفه، فغسله من ماء زمزم حتى أنقى جوفه، ثم أُتي بطست من ذهب فيه تَوْرٌ) إناء يُشربُ فيه (محشوّ إيماناً وحكمة، فحشا به جوفه وصدره ولغاديده، ثم أطبقه...)[١].

واعتبر أهل الحديث - كابن حجر العسقلاني - أن جميع ما ورد من شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يُدهش سامعه، فضلاً عمن شاهده - بلحاظ أن من شُقّ بطنُه وأُخرج قلبُه يموت لا محالة، ومع ذلك فلم يؤثّر فيه ذلك ضرراً ولا وجعاً، فضلاً عن غير ذلك - كل ذلك مما يجب التسليم له دون تأويل ولا تعرّض لصَرْفه عن حقيقته، لأن الأمر ممكن في ذاته، والله على كل شيء قدير، فلا يستحيل شيء من ذلك[٢].

وبحسب ادّعائهم، فإن الحكمة في شقّ قلب النبي مع القدرة على أن يمتليء قلبه إيماناً وحكمة بغير شق، إنما يرجع إلى الزيادة في قوة اليقين لدى النبي، لأنه أُعطي برؤية شق بطنه وعدم تأثّره بذلك ما أمِن معه من جميع المخاوف العادية، فلذلك كان أشجع الناس وأعلاهم حالاً ومقالاً. وقد نظم شهاب الدين أحمد بن محمد الحسيني الحموي «ت ١٠٩٨هـ» في هذه الحوادث قصيدة، معتبراً صحة تكرارها أربع مرات، قال فيها:

أيا طالباً نظم الفرائد في عقد
مواطن فيها شق صدر لذي رشد
لقد شق صدر للنبي محمد
مراراً لتشريف، وذا غاية المجد

١. الطبري: جامع البيان، ج ١٥، ص ٦.
٢. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص٢٠٤-٢٠٥.

فأولى له التشريف فيها مؤثل
لتطهيره من مضغة في بني سعد
وثانية كانت له وهو يافع
وثالثة للمبعث الطيب الند
ورابعة عند العروج لربه
وذا باتفاق فاستمع يا أخا الرشد
وخامسة فيها خلاف تركتها
لفقدان تصحيح لها عند ذي النقد

وحاول ابن حجر الرد على استنكار بعض العلماء خصوص وقوع شق الصدر ليلة الإسراء، لأن ذلك كان في زمن طفولة النبي في ديار بني سعد، معتبراً أن توارد الروايات به يكفي لإثباته، بل ولإثبات أن شق الصدر وقع أيضاً عند البعثة، ليكون المجموع بذلك ثلاث مرات، لا مرّة ولا مرّتين!

واعتبر أيضاً أن لكلٍّ مِن حوادث شق الصدر وغسل الأحشاء حكمة خاصة، فالأول - بالإضافة إلى الغسل - وقع فيه إخراج قطعة دم من قلبه حيث قال جبريل: «هذا حظ الشيطان منك». وكان هذا في زمن الطفولة، فنشأ النبي على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان.

ثم وقعت حادثة شق الصدر عند البعثة زيادةً في إكرامه، ليتلقى ما يوحَى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير.

ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء ليتأهب للمناجاة، وأن

من المحتمل أن تكون الحكمة في هذا الغسل لتقع المبالغة في الإسباغ والغسل والتطهير والتنظيف بتكررها ثلاث مرات.

وأشار ابن حجر إلى اختلاف العلماء في كون شق الصدر وغسله مختصّاً بالنبي محمد «صلى الله عليه وآله» أو أنه وقع لغيره من الأنبياء أيضاً، واستند إلى رواية الطبراني في قصة تابوت بني إسرائيل والتي تتضمّن ادّعاء أنّه – أي التابوت – كان فيه الطست التي «يُغسل فيها قلوب الأنبياء»! معتبراً أن هذا مُشعر بأن الأمر غير مختص بالنبي محمد. وعرّج بعد ذلك في حديثه على خصائص الطست والذهب بما جعلهما دون غيرهما من الأدوات والمعادن وسيلة غسل أشحاء النبي، أما خصوصية الطست فتكمن في كونه أشهر آلات الغسل عرفاً، وأما عن الذهب فلأنه:

١. أعلى أنواع الأواني الحسية وأصفاها.

٢. فيه خواص ليست لغيره، فهو:

أ) من أواني الجنة.

ب) لا تأكله النار ولا التراب.

ج) لا يلحقه الصدأ.

د) أثقل الجواهر.. وهذا يناسب ثِقل الوحي!

ونقل ابن حجر عن السهيلي[1] نقاشاً فقهياً حول جواز استعمال طست الذهب مِن قِبل الملائكة لغسل جوف النبي، محتملاً أن يكون ذلك قبل أن

١. الحافظ أبو القاسم السهيلي هو عبد الرحمن بن عبد الله بن الخطيب بن أصبغ، والسهيلي نسبة إلى قرية من القرب من مالقة في الأندلس اسمها سهيل (ت٥٨١هـ).

يَحرُم استعمال الذهب الشريعة الإسلامية، أو أن الملائكة غير مكلّفين بذلك، أو أنّ تحريم استعماله مخصوص بأحوال الدنيا، أما ما وقع في ليلة الإسراء فكان الغالب أنه من أحوال الغيب، فيلحق بأحكام الآخرة التي يجوز فيها استعمال أواني الذهب [١] !

وفي المقابل، فقد استبعد بعض العلماء قديماً وحديثاً صحة هذه القصة، ومرّ بنا في كلام ابن حجر إشارة إلى الرأي الذي يُنكر القصة ككل، ومن المعاصرين رفض العلامة الشيخ محمد الغزالي السقّا «ت ١٤١٦هـ» القول بصحة قصة شق الصدر لاستخراج علقة من قلب النبي، معتبراً أن الشرّ لو كان إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها؛ أو لو كان الخير مادة يزوّد بها القلب كما تزوّد الطائرة بالوقود، فتستطيع السموّ والتحليق، لقلنا: إنّ ظواهر الآثار مقصودة.. ولكن أمر الخير والشر أبعد من ذلك؛ بل من البديهي أنّه بالناحية الروحية في الإنسان ألصق[٢].

كما اعتبر «محمد حسين هيكل» في كتابه حياة محمد أن الاعتماد على ظاهر الآيات: ﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ**﴾[٣] غير سليم، لأن ما يشير القرآن إليه إنما هو عمل روحيّ بحت، والغاية منه تطهير هذا القلب وتنظيفه ليتلقى الرسالة القدسية خالصاً، ويؤدّيها مخلصاً تمام الإخلاص، محتملاً عبء الرسالة المضني[٤].

---

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص ٢٠٥-٢٠٦.

٢. الغزالي السقا: فقه السيرة، ص٥٩.

٣. سورة الشرح:١-٣.

٤. محمد حسين هيكل: حياة محمد، ص٨١.

ولربما يكون أصل هذه الرواية مأخوذاً عن أسطورة من العهد الجاهلي، فقد جاء في «الأغاني» أن أمية بن أبي الصلت[١] دخل على أخته، فنام على سرير في ناحية البيت، فانشقّ جانب من السقف في البيت، وإذا بطائرين قد وقع أحدهما على صدره، ووقف الآخر مكانه، فشق الواقع على صدره، فأخرج قلبه، فقال الطائر الواقف للطائر الذي على صدره: أ وَعَى؟ قال: وَعَى. قال: أ قَبِل؟ قال: أبى. قال: فرُدّ قلبه في موضعه... [٢]. ثم تذكر القصة تكرّر الشق أربع مرات.

وقد ركّز البعض على التناقضات الواردة في روايات شق الصدر في الحادثة الواحدة للتأكيد على بطلانها، كما فعل الشيخ محمد صادق النجمي في كتابه «أضواء على الصحيحين»[٣] توقّف آخرون عن نفيها مستندين في ذلك إلى أن الأمر في حد ذاته ممكن، ولعدم ورود روايات من أهل البيت تنفي وقوع الحادثة، وإن لم ترِد عنهم روايات مُثبتة أيضاً.

قال العلامة المجلسي: (اعلم أن شق بطنه «صلى الله عليه وآله» في صغره ورد في روايات كثيرة مستفيضة عند العامة - كما عرفت - وأما رواياتنا وإن لم يرد فيها بأسانيد معتبرة، لم يرد نفيه أيضاً، ولا يأباه العقل أيضاً، فنحن في نفيه وإثباته من المتوقفين، كما أعرض عنه أكثر علمائنا المتقدمين. وإن كان يغلب على الظن وقوعه)[٤].

---

١. ذكرت بعض أحواله في فصل بلعام بن بعور، فراجع.

٢. الأصفهاني: الأغاني، ج٢، ص ١٣٤-١٣٦.

٣. النجمي: أضواء على الصحيحين، ص ٢٤١.

٤. المجلسي: بحار الأنوار، ج ١٦، ص ١٤٠.

• سدرة المنتهى:

وانفتحت قريحة الرواة والقصاصين في وصف شجرة المنتهى، على الرغم من الاحتمالات المختلفة حول المراد منها كما بيّنت خلال حديثي عن المعراج في سورة النجم.

ولعل أوّل من فتح باب الوضع في وصف هذه الشجرة هو كعب أحبار اليهود، ثم صار كلّ راوي يضيف على رواية كعب ما شاء أن يضيف.

○ عن هلال بن يساف قال: (سأل ابن عباس كعباً عن سدرة المنتهى وأنا حاضر. فقال كعب: إنها سدرة على رؤوس حملة العرش، وإليها ينتهي علم الخلائق، ثم ليس لأحد وراءها علم، ولذلك سميت سدرة المنتهى، لانتهاء العلم إليها)[١].

○ عن أنس: (أن النبي «صلى الله عليه وسلم» قال: لما رُفعت إلى سدرة المنتهى في السماء السابعة نبقها مثل قِلال) جمع قُلة وهي جرة كبيرة (هَجَر، وورقها مثل آذان الفيلة، يخرج من ساقها نهران ظاهران ونهران باطنان. قلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات)[٢].

○ عن أسماء بنت أبي بكر قالت: (سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول - وقد ذُكر له سدرة المنتهى - قال: يسير الراكب في ظل الغصن منها

---

١. الطبري: جامع البيان، ج ٢٢، ص ٥١٠.

٢. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١٣، ص١٠٤.

مائة سنة، أو يستظل بظلها مائة راكب - شكّ يحيى - فيها فراش الذهب، كأن ثمرها القِلال)[١].

○ عن أبي هريرة: (لما أسري برسول الله «صلى الله عليه وسلم» انتهي به إلى سدرة المنتهى .... فإذا هي شجرة يخرج من أصلها أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإذا هي شجرة يسير الراكب المسرع في ظلها مائة عام لا يقطعها، والورقة منها تغطي الأمة كلها).

○ عن عيسى بن داود النجار، عن أبي الحسن موسى بن جعفر، عن أبيه، عن جده «عليهم السلام»: (..... فإن النبي «صلى الله عليه وآله» لما أسري به إلى ربه «عز وجل» قال: وقف بي جبرئيل «عليه السلام» عند شجرة عظيمة لم أر مثلها، على كل غصن منها وعلى كل ورقة منها ملَك، وعلى كل ثمرة منها ملك، وقد كللها نور من نور الله «عز وجل»، فقال جبرئيل: هذه سدرة المنتهى، كان ينتهي الأنبياء من قبلك إليها، ثم لا يجاوزونها) وكأنها أخذت اسمها بهذا اللحاظ (وأنت تجوزها إن شاء الله ليريك من آياته الكبرى، فاطمئن أيّدك الله بالثبات، حتى تستكمل كرامات الله، وتصيرإلى جواره، ثم صعد بي حتى صرت تحت العرش فدلّي لي رفرف أخضر ما أُحسن أصِفُه، فرفعني الرفرف بإذن الله إلى ربي فصرت عنده، وانقطع عني أصوات الملائكة ودويهم، وذهبت عني المخاوف والروعات، وهدأت نفسي واستبشرت، وظننت أن جميع الخلائق قد ماتوا أجمعين، ولم أرعندي أحداً مِن خلقه، فتركني ما

١. القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج ٩، ص ٦٣.

شاء الله، ثم ردّ عليّ روحي فأفقت، فكان توفيقا من ربي «عز وجل» أن غمضت عيني، وكل بصري وغشي عني النظر، فجعلت أبصر بقلبي كما أبصر بعيني، بل أبعد وأبلغ...)[١].

وتجاوز بعض الرواة حدّ وصف سدرة المنتهى ليتحدّثوا عن دورها في إطعام البنات اليتامى من ذرية المؤمنين وكسوتهن! ولا أدري كيف يكون هذا الإطعام وهذه الكسوة السماوية لمن يعيش على الأرض!

○ عن أحمد بن الحسن الحسيني عن الحسن بن علي عن أبيه، عن جده الرضا، عن أبيه موسى «عليهما السلام» قال: سأل الصادق جعفر بن محمد «عليه السلام» عن بعض أهل مجلسه، فقيل: عليل، فقصده عائداً وجلس عند رأسه فوجده دنفاً) قد لزمه المرض (فقال له: أحسِن ظنك بالله، قال: أما ظني بالله فحسن، ولكن غمّي لِبَناتي، ما أمرضني غير غمّي بهن، فقال الصادق «عليه السلام»: الذي ترجوه لتضعيف حسناتك ومحو سيئاتك فارجه لإصلاح حال بناتك، أما علمت أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: لما جاوزت سدرة المنتهى وبلغت أغصانها وقضبانها رأيت بعض ثمار قضبانها أثداء معلقة يقطر من بعضها اللبن، ومن بعضها العسل ومن بعضها الدهن، ويخرج عن بعضها شبه دقيق السميذ، وعن بعضها الثياب، وعن بعضها كالنبق، فيهوي ذلك كله نحو الأرض، فقلت في نفسي: أين مقر هذه الخارجات عن هذه الثداء، وذلك أنه لم يكن معي جبرئيل، لأني كنت جاوزت مرتبته، واختزل دوني، فناداني ربي «عز وجل» في سرّي: يا محمد، هذه أُنبتها من هذا

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣٩٥.

المكان الأرفع لأغذو منها بنات المؤمنين من أمّتك وبنيهم، فقل لآباء البنات: لا تضيقن صدوركم على فاقتهن، فإنّي كما خلقتهن أرزقهن)[١].

والرواية التالية تتّجه في نفس الاتجاه السابق حول مهمة من مهام شجرة المنتهى بحسب زعم الراوي، ولكن بتفاصيل مختلفة مع توظيفٍ لها في اتجاه مذهبي خاص، حيث تنافست المذاهب في توظيف خبر المعراج، كلّ مذهب لصالحه، وهو ما سنعرضه لاحقاً بصورة مقارنة، والرواية كالتالي:

○ عن يزيد بن عبدالملك، عن أبي جعفر الباقر «عليه السلام» قال: (لما صعد رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى السماء صعد على سرير من ياقوته حمراء مكللة من زبرجدة خضراء، تحمله الملائكة.....) وبعد الدخول في تفاصيل عديدة قال: (ثم قال محمد «صلى الله عليه وآله»: فأين أبي إبراهيم؟ فقالوا له، هو مع أطفال شيعة علي، فدخل الجنة فإذا هو تحت الشجرة، لها ضروع كضروع البقر، فإذا انفلت الضرع من فم الصبي قام إبراهيم فردّ عليه) يا سبحان الله.. أهكذا يكون حال خليل الرحمن، حاضناً للأطفال؟ أية استهانة هذه بهذا النبي العظيم ! ثم هل هؤلاء الأطفال على قيد الحياة في الدنيا أم أموات في قبورهم؟ وإذا كانوا أحياء فكيف يكونون في السماء؟ وإذا كانوا أمواتاً فهل أرواحهم بحاجة إلى إرضاع؟ أم يريد مخترع الرواية أن يقول أن هؤلاء الرضّع حالهم حال المقتولين في سبيل الله عند الله يُرزَقون؟ (قال: فسلّم عليه وسأله عن علي، فقال: خلفته في أمتي، قال: نعم الخليفة خلفت، أما إن الله فرض على الملائكة طاعته، وهؤلاء أطفال شيعته سألت الله «عز

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣٥٢-٣٥٣.

وجل» أن يجعلني القائم عليهم ففعل، وإن الصبي ليجرع الجرعة فيجد طعم ثمار الجنة وأنهارها في تلك الجرعة)[١].

وفي الرواية التالية تحريف للآيات الشريفة ولتاريخ الحدث، كل ذلك لتوظيف النص المحرّف في اتجاه معيّن أراده الراوي:

○ عن حبيب السجستاني قال: سألت أبا جعفر «عليه السلام» عن قوله «عز وجل»: ﴿**ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى، فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى، فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾ فقال لي: يا حبيت لا تقرأ هكذا اقرأ: «ثم دنا فتدانى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى - الله - إلى عبده - يعني رسول الله «صلى الله عليه وآله» - ما أوحى». ياحبيب، إن رسول الله «صلى الله عليه وآله» لما فتح مكة، أتعب نفسه في عبادة الله «عز وجل» والشكر لنعمه في الطواف بالبيت، وكان علي «عليه السلام» معه، فلما غشيهم الليل انطلقا إلى الصفا والمروة يريدان السعي، قال: فلما هبطا من الصفا إلى المروة وصارا في الوادي دون العلم الذي رأيت غشيهما من السماء نور، فأضاءت لهما جبال مكة، وخشعت أبصارهما، قال: ففزعا لذلك فزعاً شديداً، قال: فمضى رسول الله «صلى الله عليه وآله» حتى ارتفع عن الوادي ، و تبعه علي «عليه السلام». فرفع رسول الله «صلى الله عليه وآله» رأسه إلى السماء فإذا هو برمّانتين على رأسه، قال: فتناولهما رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأوحى الله «عز وجل» إلى محمد: يا محمد، إنها من قطف الجنة فلا يأكل منها إلا أنت ووصيك علي بن أبي طالب، قال: فأكل رسول الله إحداهما، وأكل علي الأخرى، ثم أوحى

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣٠٣-٣٠٤.

الله «عز وجل» إلى محمد «صلى الله عليه وآله» ما أوحى. قال أبوجعفر «عليه السلام»: يا حبيب، ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى**﴾ يعني عندها وافى به جبرئيل حين صعد إلى السماء، قال: فلما انتهى إلى محل السدرة وقف جبرئيل دونها، وقال: يا محمد إن هذا موقفي الذي وضعني الله «عز وجل» فيه، ولن أقدر على أن أتقدمه، ولكن امض أنت أمامك إلى السدرة، فوقف عندها، قال: فتقدم رسول الله «صلى الله عليه وآله» إلى السدرة، وتخلّف جبرئيل «عليه السلام». قال أبوجعفر «عليه السلام»: إنما سميت سدرة المنتهى لأن أعمال أهل الأرض تصعد بها الملائكة الحفظة إلى محل السدرة والحفظة الكرام البررة دون السدرة يكتبون ما ترفع إليهم الملائكة من أعمال العباد في الارض، قال : فينتهون بها إلى محل السدرة) وهذا تفسير آخر لمعنى المنتهى يختلف عما جاء في الرواية السابقة (قال: فنظر رسول الله فرأى أغصانها تحت العرش وحوله ، قال : فتجلى لمحمد نور الجبار عزوجل ، فلما غشي محمدا «صلى الله عليه وآله» النور شخص ببصره وارتعدت فرائصه، قال: فشد الله «عز وجل» لمحمد قلبه، وقوى له بصره، حتى رأى من آيات ربه ما رأى، وذلك قول الله «عز وجل»: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى، عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى، عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى**﴾ قال: يعني الموافاة، قال: فرأى محمد «صلى الله عليه وآله» ما رأى ببصره من آيات ربه الكبرى، يعني أكبر الآيات، قال أبوجعفر «عليه السلام»: وإن غلظ السدرة بمسيرة مائة عام من أيام الدنيا، وإن الورقة منها تغطي أهل الدنيا، وإن لله «عز وجل» ملائكة وكَّلَهم بنبات الأرض من الشجر والنخل، فليس من شجرة ولا نخلة إلا ومعها

من الله «عز وجل» ملَك يحفظها وما كان فيها، ولولا أن معها من يمنعها لأكلها السباع وهوام الأرض إذا كان فيها ثمرها، قال وإنما نهى رسول الله «صلى الله عليه وآله» أن يضرب أحد من المسلمين خلاه) أي يقضي حاجته (تحت شجرة أو نخلة قد أثمرت، لمكان الملائكة الموكَّلين بها، قال: ولذلك يكون للشجر والنخل أنساً إذا كان فيه حمله، لأن الملائكة تحضره)[١].

• البُراق:

وفي الوقت الذي لم تذكر آية الإسراء، ولا سورة النجم - بحسب ادّعاء أنها تتحدث عن المعراج - عن وجود أية وسيلة نقلت النبي «صلى الله عليه وآله» خلال الإسراء «والمعراج»، ومع هذا نجد أن مخيّلة الرواة انطلقت للحديث عن كائن أطلق عليه اسم «البراق»، وجعلوا له أوصافاً محددة، ثم تطوّرت الأوصاف مع «تطوّر» الروايات حول المعراج. وقالوا أنه إنما سمي بذلك اشتقاقاً من البرق لسرعته، أو لشدة صفائه وتلألئه وبريقه، أو لكونه أبيض اللون كالبرق.

بل قال العلامة الشيخ آصف محسني معلّقاً على روايات البراق المجموعة في موسوعة «بحار الأنوار» أنه إذا جمع جميع ما ورد في البراق، ربما يستفاد منه أن البراق ليس بحيوان، بل هو ماكنة ومركبة فضائية معقّدة... ويمكن أن يكون البراق جسماً لطيفً، بل هو المتعين إذا قلنا بأنه «صلى الله عليه وآله» صعد بجسمه اللطيف أيضاً [٢].

---

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣٦٤-٣٦٦.
٢. محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج١، ص٣٤٦.

وأضاف أن المستفاد من بعض الروايات غير المعتبرة أن له مراكب في هذا العروج، وهي البراق والبرقة والرفرف، وفي بعض المراحل ذهب أو صعد بدَفْع النور (ثم زخّني في النور زخّاً) [١].

وفيما يلي عدد من الروايات التي تحدثت عن البراق في وصفه وأحواله:

○ في رواية الطبري عن صعصعة والتي تحدث فيها عن شق صدر النبي وغسله: (ثم أتيت بدابة أبيض) وفي رواية أخرى: بدابة بيضاء (يقال له البراق، فوق الحمار) أكبر منه حجماً وارتفاعاً (ودون البغل) أقل منه حجماً وارتفاعاً (يقع خَطْوُه مُنْتَهى طَرْفِه)[٢] أي يضع رِجله عند منتهى ما يرى بصره، والمقصود أنه سريع بعيد الخطوة.

○ وفي رواية سابقة عن الحسن بن أبي الحسن عن النبي: (..... فإذا دابة بيضاء بين الحمار والبغل، له في فخذيه جناحان يحفِزُ بهما رِجلَيه) يطعنهما بالجناحين تحفيزاً على الحركة (يضع يدَه في منتهَى طرْفه، فحملني عليه ثم خرج معي، لا يَفُوتُني) جبريل (ولا أفُوتُه)[٣].

○ قال الصالحي الشامي: (وقال صاحب الاحتفال: إنه دون البغل وفوق الحمار، وجهه كوجه الإنسان، وجسده كجسد الفرس وقوائمه كقوائم الثور وذنبه كذنب الغزال. وقال غيره: جسده كجسد الإنسان، وذنبه كذنب البعير، وعرفه كعرف الفرس، وقوائمه كقوائم الإبل، وأظلافه كأظلاف البقر، وصدره

١. محسني: مشرعة بحار الأنوار، ج١، ص٣٤٦.
٢. الطبري : جامع البيان، ج ١٧ ، ص٣٤٧.
٣. الطبري : جامع البيان، ج ١٧ ، ص ٣٢٨.

كأنه ياقوتة حمراء، وظهره كأنه درة بيضاء، له جناحان في فخذيه لثقل مؤخر الدابة... وفي بعض الآثار أنه ليس بذكر ولا أنثى)[١].

○ عن عكرمة، عن ابن عباس قال: (قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: ما في القيامة راكب غيرنا، ونحن أربعة، فقام إليه العباس بن عبدالمطلب فقال: من هم يا رسول الله؟ فقال: أما أنا فعلى البراق، ووجهها كوجه الانسان وخدها كخد الفرس، وعرفها من لؤلؤ مسموط، وأذناها زبرجدتان خضراوان، وعيناها مثل كوكب الزهرة، تتوقدان مثل النجمين المضيئين، لها شعاع مثل شعاع الشمس، ينحدر من نحرها الجمان، مطوية الخلق، طويلة اليدين والرجلين، لها كنفس الآدميين، تسمع الكلام وتفهمه، وهي فوق الحمار ودون البغل)[٢].

○ عن ابن عباس قال: (قال النبي «صلى الله عليه وآله» في جواب نفر من اليهود: سخّر الله لي البراق، وهو خير من الدنيا بحذافيرها، وهي دابة من دواب الجنة، وجهها مثل وجه آدمي، وحوافرها مثل حوافر الخيل، وذنبها مثل ذنب البقر، فوق الحمار، ودون البغل، سرجه من ياقوته حمراء وركابه من درة بيضاء، مزمومة بسبعين ألف زمام من ذهب، عليه جناحان مكللان بالدر والجوهر والياقوت والزبرجد، مكتوب بين عينيه: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، محمد رسول الله)[٣].

---

١. الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج٣، ص ١٠٢.
٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣١٩.
٣. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣١٦.

ولم يكتفِ الرواة بذلك، بل زادوا من عندهم أن هذا البراق كان وسيلة نقل الأنبياء «عليهم السلام» قبل النبي محمد «صلى الله عليه وآله»، وأنه كانت له تجارب معهم، وأن تجربته السلبية مع النبي في باديء الأمر - كما سيأتي - كانت انعكاساً للبُعد الزمني لتلك التجارب السابقة. ومن بين تلك المرويات:

○ عن أبي جهم: (كان إبراهيم يزور هاجر كل شهر على البراق، يغدو غدوة) يخرج صباحاً (فيأتي مكة ثم يرجع فيقيّل) يكون منتصف النهار (في منزله بالشام)[١].

○ عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً عن النبي «صلى الله عليه وآله»: (وكانت الأنبياء تركبها قبلي)[٢].

○ ونقل الصالحي الشامي عن كتاب «المبتدأ» لابن إسحاق رواية وثيمة بن موسى في ذكر الإسراء: (فاستصعب البراق) كان صعباً جَموحاً (وكانت الأنبياء تركبها قبلي، وكانت بعيدة العهد بركوبهم فلم تكن رُكبت في الفترة)[٣] ثم تحدث المؤلف عن التفسيرات المختلفة لسبب الاستصعاب.

وفي المصادر الإمامية رواية تحدّثت عن جموح البراق، وكيف تعامل معها جبريل، مع تفاصيل أخرى جديدة، ومن بينها نفي ركوب أي نبي على ظهرها. فقد جاء في تفسير القمي:

○ عن هشام بن سالم، عن أبي عبدالله «عليه السلام» قال: (جاء

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص ٣٣٠.

٢. الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج٣، ص ١٠٢.

٣. الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد، ج٣، ص ١٠٢.

جبرئيل وميكائيل وإسرافيل بالبراق إلى رسول الله «صلى الله عليه وآله»، فأخذ واحد باللجام، وواحد بالركاب، وسوى الآخر عليه ثيابه، فتضعضعت البراق فلطمها جبرئيل، ثم قال لها: اسكني يا براق، فما ركبك نبي قبله، ولا يركبك بعده مثله. قال: فَرَقَت به «صلى الله عليه وآله» ورفعته ارتفاعاً ليس بالكثير، ومعه جبرئيل يريه الآيات من السماء والأرض. قال: فبينا أنا في مسيري إذ نادى منادٍ عن يميني : يا محمد، فلم أجبه ولم ألتفت إليه، ثم نادى مناد عن يساري: يا محمد ، فلم أجبه ولم ألتفت إليه، ثم استقبلتني امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كل زينة الدنيا فقالت: يا محمد، انظرني) أي انتظرني (حتى أكلمك، فلم ألتفت إليها، ثم سرت فسمعت صوتاً أفزعني فجاوزت)[١].

• أنهار متصلة من السماء إلى الأرض:

ومن ضمن روايات المعراج تلك التي تتحدث عن اتصال نهرين أو أربعة أنهار من الجنة أو من سدرة المنتهى أو من مكان ما في السماء بالأنهار الجارية على الأرض، ومن بينها النيل والفرات.

وحاول بعض المعاصرين توجيه ذلك بصورة غير مقبولة نهائياً، بادّعاء أننا لا نعرف من الغيب إلا القليل، وهي محاولة لا تغني ولا تُسمن من جوع.

○ عن شريك بن أبي نمر – في رواية مرّت بنا سابقاً – عن أنس بن مالك قال: (.... ثم ركب البراق، فسار حتى أتى به إلى بيت المقدس فصلى فيه بالنبيين والمرسلين إماماً، ثم عرج به إلى السماء الدنيا، فضرب باباً من

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣١٦.

أبوابها، فناداه أهل السماء: مَن هذا؟ قال: هذا جبرائيل، قيل: من معك؟ قال: محمد، قيل: أوَ قد بُعث إليه؟ قال: نعم، قالوا: فمرحباً به وأهلاً، فيستبشر به أهل السماء، لا يعلم أهل السماء بما يريد الله بأهل الأرض حتى يعلمهم، فوجد في السماء الدنيا آدم، فقال له جبرائيل: هذا أبوك، فسلّم عليه، فرد عليه، فقال: مرحباً بك وأهلاً يا بني، فنعم الابن أنت، ثم مضى به إلى السماء الثانية، فاستفتح جبرائيل باباً من أبوابها، فقيل: مَن هذا؟ فقال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَ قد أرسل إليه؟ قال: نعم قد أرسل إليه، فقيل: مرحباً به وأهلاً، ففتح لهما، فلما صعد فيها فإذا هو بنهرين يجريان، فقال: ما هذان النهران يا جبرائيل؟ قال: هذا النيل والفرات عنصرهما....) أي أصلهما.

وفي رواية أخرى ما لفظه بعد الحديث عن سدرة المنتهى: (وإذا أربعة أنهار في بدء الخلق فإذا في أصلها). قال ابن حجر معلّقاً: (أي في أصل سدرة المنتهى أربعة أنهار، ولِمسلم: «يخرج من أصلها». ووقع في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة :«أربعة أنهار من الجنة: النيل والفرات وسيحان وجيحان»، فيحتمل أن تكون سدرة المنتهى مغروسة في الجنة، والأنهار تخرج من تحتها، فيصح أنها من الجنة).

ثم قال: (وقع في رواية شريك.....) وهي الرواية التي نستعرضها (أنه رأى في السماء الدنيا نهرين يطردان، فقال له جبريل: «هما النيل والفرات عنصرهما». والجمع بينهما أنه رأى هذين النهرين عند سدرة المنتهى مع نهري الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نهري الجنة).

ثم نقل ابن حجر كلاماً للنووي شارح صحيح مسلم، قال: (قال النووي: في هذا الحديث أن أصل النيل والفرات من الجنة وأنهما يخرجان من أصل سدرة المنتهى ثم يسيران حيث شاء الله ثم ينزلان إلى الأرض ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها، وهذا لا يمنعه العقل، وقد شهد به ظاهر الخبر، فليُعتمد)[١].

وإذا أخذ العلماء في الماضي بظاهر المعنى، ولم يَروا في ذلك بأساً نتيجة عدم امتلاكهم لصورة جغرافية وكونية واضحة كما هو الحال اليوم، إلا أنه لا يمكن لمن يملك أدنى معرفة بالكرة الأرضية وجغرافيتها وعلاقتها بالأجرام السماوية أن يوافق على هذا التصوّر المقدَّم في الرواية.

وقد حاول بعض المعاصرين توجيه ذلك بطريقة غريبة، وما ذاك إلا بسبب شدة التمسّك بالروايات وتصحيحها بأي ثمن، وإن كانت على خلاف المنطق والمعطيات العلمية الأكيدة.

قال أ.د. راغب السرجاني: (يمكن أن نطَّلِع على تصوُّر كامل لنهري النيل والفرات بناءً على ما رأيناه في رحلة المعراج. يتفجَّر النهران من الجنَّة، وهذا يكون تحديداً من الفردوس؛ لقوله «صلى الله عليه وسلم»: «فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ، وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ». وللنهرين في الجنَّة مسار معروف، ثم يخرجان منها إلى السماء السابعة، فيجريان فيها كذلك، ثم يخترقان السموات كلها بصورة لا يعلمها إلا الله «تعالى» فيصلان إلى السماء الدنيا، فيجريان فيها كما جريا في

١. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص ٢١٣-٢١٤.

السماء السابعة، ويُؤَكِّد على وجودهما بشكل حقيقي في السماء الدنيا ما قاله رسول الله «صلى الله عليه وسلم» حين ذكر قول جبريل «عليه السلام» وهو يصف النهرين؛ حيث قال: «هَذَا النِّيلُ وَالْفُرَاتُ عُنْصُرُهُمَا». فالنهران ليسا صورة تخيلية إنما حقيقة واقعية أصلية، ثم بعد ذلك يُرسل الله «عز وجل» ماءهما إلى جبال أثيوبيا ووسط إفريقيا «في حالة النيل»، وإلى جبال تركيا «في حالة الفرات»، فتنزل مطرًا هناك؛ فيتكون النهران، ويأخذان مسارهما المعروف في الأرض).

ثم بيّن رفضه لتأويل ما سبق وإن كنا نرى بأعيننا ما يخالف ذلك، قال: (وما قلناه هنا مدعوم بالأحاديث التي ذكرناها، وليس هناك حاجة للتأويل بحجة أننا لا نرى ذلك؛ فالواقع أننا لا نرى شيئًا يُذْكَر من إدارة الكون، فلا نحن نرى ملائكة الرياح أو الجبال أو الأرحام أو الحفظة أو غير ذلك، مع يقيننا أنها تنزل إلى الدنيا بأمر الله، ولها أعمال محسوسة ملموسة واقعية، ونحن لا نعرف السُّحب التي تأتي تحديداً إلى هضبة كذا أو كذا، إنما يستوي عندنا السحاب النازل على مكان ما مع غيره، ونحن لا نرى الأعمدة التي تُمسك السموات؛ وقد قال الله: ﴿**اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾ «الرعد: ٢»، ولا يُستبعَد أن يُنْزِل الله ماءً مُعَيَّنًا من السماء؛ وقد قال الله «تعالى»: ﴿**فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ**﴾ «القمر: ١١»، ولا أحب تأويل السماء هنا بالسحاب؛ لأنه قال: أبواب السماء. ولم يقل: السماء، فَدَلَّ ذلك على نزول هذا الماء تحديداً من أبواب السماء. وعلى التأويلات السابقة فإني أرى أن أحد أهداف رحلة الإسراء والمعراج هو كشف بعض أسرار الكون

-بشقيه المنظور والغيبي- للمؤمنين، وهذا من شأنه أن يفتح مجالات كبيرة وكثيرة للدراسة والتدبُّر)[١].

ولا أعتقد أن الكلام السابق بحاجة إلى ردّ علمي بقدر حاجته إلى ردٍّ حول منهج التعامل مع النصوص، وهو ما أشرنا إليه عدة مرات وفي أكثر من كتاب صدر سابقاً حول مرجعية القرآن من جهة، وأنه المصدر الوحيد الذي يمكن الوثوق به، وأنّ سائر النصوص الدينية تحتاج إلى تدقيق وعرض على القرآن والعقل والعلم، مع تقديم المعطى العلمي الأكيد على الرواية الظنية.

ولا أستبعد أن يكون مصدر هذا التصوير لشجرة المنتهى والأنهار الأربعة هو ما جاء في التوراة حيث يقول النص حول خلق العالم: (وَأَنْبَتَ الرَّبُّ الإِلهُ مِنَ الأَرْضِ كُلَّ شَجَرَةٍ شَهِيَّةٍ لِلنَّظَرِ وَجَيِّدَةٍ لِلأَكْلِ، وَشَجَرَةَ الْحَيَاةِ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ، وَشَجَرَةَ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ) ولعلها تقابل شجرة المنتهى في روايات المعراج (وَكَانَ نَهْرٌ يَخْرُجُ مِنْ عَدْنٍ لِيَسْقِيَ الْجَنَّةَ، وَمِنْ هُنَاكَ يَنْقَسِمُ فَيَصِيرُ أَرْبَعَةَ رُؤُوسٍ: اسْمُ الْوَاحِدِ فِيشُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ الْحَوِيلَةِ حَيْثُ الذَّهَبُ. وَذَهَبُ تِلْكَ الأَرْضِ جَيِّدٌ. هُنَاكَ الْمُقْلُ وَحَجَرُ الْجَزْعِ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّانِي جِيحُونُ، وَهُوَ الْمُحِيطُ بِجَمِيعِ أَرْضِ كُوشٍ. وَاسْمُ النَّهْرِ الثَّالِثِ حِدَّاقِلُ، وَهُوَ الْجَارِي شَرْقِيَّ أَشُّورَ. وَالنَّهْرُ الرَّابِعُ الْفُرَاتُ)[٢] وكما عهدنا مسلمة اليهود، فإنهم لا يهدأ لهم بال حين يُلقون ببعض ما في كتبهم إلى المسلمين أن يتلاعبوا بالنصوص ويغيّروا فيها.

---

1. sound.islamstory.com/ar/artical/3406663/انهار الجنة

٢. الكتاب المقدس: سفر التكوين، الأصحاح ٢، ٩-١٤.

نعود الآن من جديد إلى رواية شريك عن أنس حيث قال: (ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبرائيل باباً من أبوابها، فقيل: من هذا؟ قال: جبرائيل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أوَ قد بعث إليه؟ قال: نعم، قد بعث إليه، قيل: مرحباً به وأهلاً، ففتح له فإذا هو بنهر عليه قباب وقصور من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، وغير ذلك ما لا يعلمه إلا الله، فذهب يشمّ ترابه، فإذا هو مسك أذفر، فقال: يا جبرائيل، ما هذا النهر؟ قال: هذا الكوثر الذي خبأ لك ربك في الآخرة. ثم عرج به إلى الرابعة، فقالوا به مثل ذلك، ثم عرج به إلى الخامسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السادسة، فقالوا له مثل ذلك، ثم عرج به إلى السابعة، فقالوا له مثل ذلك، وكل سماء فيها أنبياء قد سمّاهم أنس، فوعيت منهم إدريس في الثانية، وهارون في الرابعة، وآخر في الخامسة لم أحفظ اسمه، وإبراهيم في السادسة، وموسى في السابعة بتفضيل كلامه الله، فقال موسى: رب لم أظن أن يرفع عليّ أحد! ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا باب الجبار رب العزة، فتدلى فكان قاب قوسين أو دنى ، فأوحى إلى عبده ما شاء)[1].

• تشريع الصلاة اليومية:

بعد المقطع السابق من الرواية، يتناول الراوي قصة تشريع الصلاة، ودخول النبي موسى «عليه السلام» على الخط في محاولة منه للمماكسة في مقدار الصلوات المفروضة على أمة الإسلام، وهو ما قد يكون مؤشّراً آخر

١. الطبري: جامع البيان، ج٨، ص ٥-٦.

على إسرائيلية الرواية.. علماً بأنّ روايات تشريع عدد الصوات اليومية متعددة، وهي تدور حول ذات الصورة المعروضة هنا:

قال: (وأوحى الله فيما أوحى خمسين صلاة على أمته كل يوم وليلة، ثم هبط حتى بلغ موسى فاحتبسه، فقال: يا محمد ماذا عهد إليك ربك؟ قال: عهد إلي خمسين صلاة على أمتي كل يوم وليلة. قال: إن أمتك لا تستطيع ذلك، فارجع فليخفف عنك وعنهم، فالتفت إلى جبرائيل كأنه يستشيره في ذلك، فأشار إليه أن نعم، فعاد به جبرائيل حتى أتى الجبار «عز وجل» وهو مكانه، فقال: ربِّ خفف عنا، فإن أمتي لا تستطيع هذا، فوضع عنه عشر صلوات، ثم رجع إلى موسى «عليه السلام» فاحتبسه، فلم يزل يردده موسى إلى ربه حتى صارت إلى خمس صلوات، ثم احتبسه عند الخمس، فقال: يا محمد، قد والله راودت بني إسرائيل على أدنى من هذه الخمس، فضعفوا وتركوه، فأمّتك أضعف أجساداً وقلوباً وأبصاراً وأسماعاً، فارجع فليخفف عنك ربك، كل ذلك يلتفت إلى جبرائيل ليشير عليه، ولا يكره ذلك جبرائيل، فرفعه عند الخمس، فقال: يا رب، إن أمتي ضعاف أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم، فخفف عنا، قال الجبار «جل جلاله»: يا محمد، قال: لبيك وسعديك، فقال: إني لا يبدل القول لدي كما كتبت عليك في أم الكتاب، ولك بكل حسنة عشر أمثالها، وهي خمسون في أم الكتاب، وهي خمس عليك. فرجع إلى موسى، فقال: كيف فعلت ؟ فقال: خفَّف عني، أعطانا بكل حسنة عشر أمثالها، قال: قد والله راودني بني إسرائيل على أدنى من هذا فتركوه فارجع فليخفف عنك أيضاً، قال: يا موسى، قد والله

استحييت من ربي مما أختلف إليه، قال: فاهبط باسم الله، فاستيقظ وهو في المسجد الحرام)[١].

• تقرير مصير الأمة:

والرواية التالية - المروية من قبل السنة والشيعة -حول المعراج تتحدّث عن تقرير مصير أمة الإسلام من خلال تصرّف واحد للنبي، ومن حيث لا يدري، وكأن مقادير الله تسير بهذه الطريقة التي لا تخلو من تسفيه للعقول.

○ عن أنس بن مالك قال: (لما جاء جبرائيل «عليه السلام» بالبراق إلى رسول الله «صلى الله عليه وسلم» فكأنها ضربت بذنبها، فقال لها جبرائيل: مه يا براق، فوالله إن ركبك مثله) أي ما ركبك مثله من قبل (فسار رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فإذا هو بعجوز ناء عن الطريق: أي على جنب الطريق. قال أو جعفر: ينبغي أن يقال: نائية، ولكن أسقط منها التأنيث. فقال: ما هذه يا جبرائيل؟ قال: سِر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، فإذا شيء يدعوه متنحياً عن الطريق يقول: هلمّ يا محمد، قال جبرائيل: سِر يا محمد، فسار ما شاء الله أن يسير، قال: ثم لقيه خلق من الخلائق فقال أحدهم: السلام عليك يا أول، والسلام عليك يا آخر، والسلام عليك يا حاشر، فقال له جبرائيل: اردد السلام يا محمد، قال: فرد السلام. ثم لقيه الثاني، فقال له مثل مقالة الأولين حتى انتهى إلى بيت المقدس، فعرض عليه الماء واللبن والخمر، فتناول رسول الله «صلى الله عليه وسلم» اللبن، فقال له جبرائيل: أصبت يا محمد الفطرة، ولو شربت الماء لغرقت وغرقت أمتك،

١. الطبري: جامع البيان، ج٨، ص ٥-٦.

ولو شربت الخمر لغويت وغوت أمتك! ثم بعث له آدم فمَن دونه من الأنبياء، فأَمَّهم رسول الله «صلى الله عليه وسلم» تلك الليلة، ثم قال له جبرائيل: أما العجوز التي رأيت على جانب الطريق، فلم يبق من الدنيا إلا بقدر ما بقي من عمر تلك العجوز، وأما الذي أراد أن تميل إليه، فذاك عدو الله إبليس أراد أن تميل إليه، وأما الذين سلّموا عليك، فذاك إبراهيم وموسى وعيسى)[١].

○ عن عبدالرحمان بن غنم قال: (..... فجاء رسول الله «صلى الله عليه وآله» فدخل بيت المقدس فجاء جبرئيل «عليه السلام» إلى الصخرة فرفعها فأخرج من تحتها ثلاثة أقداح: قدحاً من لبن، وقدحاً من عسل، وقدحاً من خمر، فناوله قدح اللبن فشرب، ثم ناوله قدح العسل فشرب، ثم ناوله قدح الخمر فقال: قد رويت ياجبرئيل، قال: أما إنك لو شربته ضلّت أمّتك وتفرّقت عنك)[٢].

فهل يمكن قبول هذا المضمون بحيث لا يتعارض مع صفات الله من الحكمة والعدل والعلم وغير ذلك؟ وهل يقرّر الله مصير الأمم بهذه الطريقة الغريبة؟ ومن خلال تصرّف واحد؟

نعم، في منطق واضعي هذه الروايات الأمر مقبول، وهي ليست ببعيدة -للمطّلع على عقائد الملل القديمة وأساطيرها- عن معتقدات أديان وضعية أو محرَّفة دانت بها بعض الشعوب التي دخلت في الإسلام، فنقلتها عن عمد أو جهل في ضمن التراث الحديثي الإسلامي، عند السنة والشيعة، لتتحوّل بعد

١. الطبري: جامع البيان، ج٨، ص ٧.

٢. الصدوق: الأمالي، ص٢٦٩.

ذلك إلى رقم إضافي إلى كَمِّ الروايات حول المعراج، ليستنتج من خلال ذلك البعض أنها تبلغ حدّ التواتر، ويعلم الإنسان من خلالها وقوع المعراج فعلاً.. فهل يمكن لمثل هذه الرواية وسابقاتها مما استعرضناها ضمن هذا البحث أن تكون إضافة حقيقية يتحقق من خلالها التواتر المدَّعى، ولو بالمعنى؟

لا أقول أنّ وجود مثل هذه الإضافات والروايات الموضوعة دليل على أسطورية الحدث نفسه، أي المعراج، بلحاظ أن مثل هذا جرى لأحداث أكيدة، من قبيل التفاصيل المكذوبة الدخيلة على أحداث غزوات النبي، ومع هذا لا ننفي وقوع الغزوة نفسها.. ولكن أقول أن خصوص التواتر لا يتحقّق بمثل هذه الروايات، وهي ليست قليلة أبداً.

• التوظيف المذهبي:

استغلّ بعض الرواة قضية المعراج لتوظيفها مذهبياً، وذلك في أجواء النزاع حول مسألة الإمامة والخلافة، ففي حين نجد مِن الرواة مَن يؤكّد على مقام أبي بكر من خلال رحلة المعراج كوسيلة لإثبات أفضليته للخلافة، وبطريقة فيها ما فيها من مغالاة غير خافية، فإنّ البعض الآخر منهم قام بتجيير القصة لإثبات إمامة علي، وذلك -أحياناً- ضمن تفاصيل لا يمكن قبولها بأي حال، وبنفس الطريقة من المغالاة في أبي بكر. ومن نماذج هذه المرويات:

○ قال القسطلاني: (وذكر أبو الحسن بن غالب، فيما تكلّم فيه على أحاديث الحُجب السبعين والسبعمائة والسبعين ألف حجاب، وعزاها لأبي الربيع بن سبع في شفاء الصدور من حديث ابن عبّاس: أنّ رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال بعد أن ذكر مبدأ حديث الإسراء، كما ورد في الأُمّهات:

أتاني جبريل وكان السفير بي إلى ربّي، إلى أن انتهى إلى مقام ثمّ وقف عند ذلك، فقلت: يا جبريل، في مثل هذا المقام يترك الخليل خليله؟ فقال: إن تجاوزته احترقت بالنور، فقال النبيّ «صلى الله عليه وسلم»: يا جبريل، هل لك من حاجة؟ قال: يا محمّد، سل الله أن أبسط جناحي على الصراط لأُمّتك حتّى يجوزوا عليه، قال النبيّ «صلى الله عليه وسلم» : ثمّ زجّ بي في النور زجّاً، فخرق بي إلى السبعين ألف حجاب، ليس فيها حجاب يشبه حجاباً، وانقطع عنّي حسّ كلّ إنسي وملك، فلحقني عند ذلك استيحاش، فعند ذلك ناداني مناد بلغة أبي بكر:) أي بصوته وطريقة نطقه (قف إنّ ربّك يصلّي، فبينا أنا أتفكّر في ذلك فأقول: هل سبقني أبو بكر؟ فإذا النداء من العلي الأعلى) أي أن الصوت الصادر عن الله كان كصوت أبي بكر (ادنُ يا خير البرية، ادنُ يا محمّد، ادنُ يا محمّد، ليدن الحبيب، فأدناني ربّي حتّى كنت كما قال «تعالى»: ﴿**ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى، فَكانَ قابَ قَوسَينِ أَو أَدنى**﴾. قال: وسألني ربّي؟ فلم أستطع أن أجيبه، فوضع يده بين كتفي - بلا تكييف ولا تحديد - فوجدت بَرْدَها بين ثديي، فأورثني علم الأوّلين والآخرين، وعلّمني علوماً شتّى، فعلم أخذ عليَّ كتمانه إذ علم أنّه لا يقدر على حمله أحد غيري، وعلم خيّرني فيه، وعلّمني القرآن فكان جبريل «عليه السّلام» يذكّرني به، وعلم أمرني بتبليغه إلى العامّ والخاصّ من أُمّتي. ولقد عاجلت جبريل «عليه السّلام» في آية نزل بها عليَّ، فعاتبني ربّي، وأنزل عليَّ: ﴿**وَلا تَعجَل بِالقُرآنِ مِن قَبلِ أَن يُقضى إِلَيكَ وَحيُهُ وَقُل رَبِّ زِدنِي عِلماً**﴾[1]. ثمّ قلت: اللّهمّ، إنّه لمّا لحقني استيحاش قبل قدومي

١. سورة طه:١١٤.

عليك سمعت منادياً ينادي بلغة تشبه لغة أبي بكر، فقال لي: قف إنّ ربّك يصلّي، فعجبت من هاتين، هل سبقني أبو بكر إلى المقام؟ وإنّ ربّي لغنيّ عن أن يصلّي، فقال «تعالى»: أنا الغنيّ عن أن أصلّي لأحد، وإنّما أقول: سبحاني سبحاني، سبقت رحمتي غضبي، اقرأ يا محمّد: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيكُم وَمَلائِكَتُهُ لِيُخرِجَكُم مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالمُؤمِنِينَ رَحِيماً**﴾[١]، فصلاتي رحمة لك ولأُمّتك، وأمّا أمر صاحبك يا محمّد، فإنّ أخاك موسى كان أُنسه بالعصا، فلمّا أردنا كلامه قلنا: ﴿**وَمَا تِلكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى، قَالَ هِيَ عَصَايَ**﴾[٢]، وشغل بذكر العصا عن عظيم الهيبة. وكذلك أنت يا محمّد، لمّا كان أنسك بصاحبك أبي بكر، وأنّك خلقت أنت وهو من طينة واحدة، وهو أنيسك في الدنيا والآخرة، خلقنا ملكاً على صورته، يناديك بلغته ليزول عنك الاستيحاش، فلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك...)[٣].

وفي المقابل هناك العديد من الروايات الموضوعة التي حاول أصحابها توظيفها في الاتجاه الآخر الموالي لمدرسة أهل البيت «عليهم السلام»، ومن نماذج ذلك:

○ قال المجلسي: (ووجدت في كتاب كنز الفوائد تأليف الشيخ الجليل أبي الفتح الكراجكي رحمه الله عند ذِكر المعمِّرين: أخبرنا القاضي أبوالحسن علي بن محمد البغدادي.... عن تميم بن وهلة المري، قال: حدثني الجارود

١. سورة الأحزاب:٤٣.

٢. سورة طه:١٧-١٨.

٣. القسطلاني: المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، ج٢، ص٣٨١-٣٨٢.

بن المنذر العبدي، وكان نصرانياً فأسلم عام الحديبية وحسن إسلامه، وكان قارئاً للكتب، عالماً بتأويلها على وجه الدهر وسالف العصر، بصيراً بالفلسفة والطب، ذا رأي أصيل، ووجه جميل، أنشأ يحدّثنا في أيام إمارة عمر بن الخطاب قال: وفدتُ على رسول الله «صلى الله عليه وآله» في رجال من عبدالقيس) من القبائل العربية التي كانت تستوطن جنوب العراق وبعضاً من الساحل الغربي للخليج العربي، بما في ذلك البحرين في حدودها القديمة التي تصل إلى الإحساء. ثم تستعرض الرواية تفاصيل كثيرة لا تمتُّ إلى بحثنا بصلة إلى أن قال: (..... فقال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: يا جارود، ليلة أسري بي إلى السماء، أوحى الله «عز وجل» إليّ أن سل مَن أرسلنا مِن قبلِك مِن رسلنا على ما بعثوا؟ فقلت: على ما بُعثتم؟ فقالوا: على نبوتك، وولاية علي بن أبي طالب، والائمة منكما، ثم أوحى إلي أن التفت عن يمين العرش، فالتفت فإذا علي، والحسن والحسين، وعلي بن الحسين، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، وموسى بن جعفر، وعلي بن موسى، ومحمد بن علي، وعلي بن محمد، والحسن بن علي، والمهدي في ضحضاح من نور يصلون، فقال لي الرب «تعالى»: هؤلاء الحجج أوليائي، وهذا المنتقم من أعدائي. قال الجارود: فقال لي سلمان: يا جارود، هؤلاء المذكورون في التوراة والانجيل والزبور كذاك)[1].

ثم نقل المجلسي إشكالاً افترضه الكراجكي، والردّ الذي جاء به على هذا الإشكال، ومفاده: كيف يصح أن يكون الأئمة الإثنا عشر «عليهم السلام» في

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٢٩٣-٢٩٩.

تلك الحال في السماء ونحن نعلم ضرورة خلاف هذا؟ لأن أمير المؤمنين «عليه السلام» كان في ذلك الوقت بمكة في الأرض، ولم يدّعِ قط ولا ادَّعى له أحد أنه صعد إلى السماء، فأما الأئمة من ولده، فلم يكن وُجِد أحد منهم بعد ولا وُلد، فما معنى ذلك إن كان الخبر حقاً؟

وأجاب قائلاً: يجوز أن يكون الله «تعالى» أحدث لرسوله «صلى الله عليه وآله» في الحال صوراً كصور الأئمة «عليهم السلام» ليراهم أجمعين على كمالهم، كمن شاهد أشخاصهم برؤيته مثالهم، ويشكر الله «تعالى» على مامنحه من تفضيلهم وإجلالهم، وهذا في العقول من الممكن المقدور، ويجوز أيضاً أن يكون الله «تعالى» خلق على صورهم ملائكة في سمائه يسبّحونه ويقدسونه لتراهم ملائكته الذين قد أعلمهم بأنهم سيكونون في أرضه حججاً له على خلقه، فيتأكد عندهم منازلهم، وتكون رؤيتهم تذكاراً لهم بهم، وبما سيكون من أمرهم، وقد جاء في الحديث أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» رأى في السماء لما عُرج به ملكاً على صورة أمير المؤمنين، وهذا حديث قد اتفق أصحاب الحديث على نقله، حدّثني به من طريق العامة الشيخ محمد بن أحمد بن شاذان القمي، ونقلته من كتابه المعروف بـ «إيضاح دقائق النواصب» وقرأته عليه بمكة في المسجد الحرام سنة اثنتي عشرة وأربعمائة عن جعفر بن محمد بن مسرور، عن الحسين بن محمد، عن أحمد بن علويه المعروف بابن الأسود الأصبهاني عن إبراهيم بن محمد، عن عبدالله بن صالح، عن جدير بن عبدالحميد، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: (سمعت رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: لما أسري بي إلى السماء، ما مررت بملأ من الملائكة إلا

سألوني عن علي بن أبي طالب، حتى ظننت أن اسم علي في السماء أشهر من اسمي! فلما بلغت السماء الرابعة نظرت إلى ملك الموت فقال لي: يا محمد، ما خلق الله خلقاً إلا أقبض روحه بيدي، ما خلا أنت وعلي، فإن الله «جل جلاله» يقبض أرواحكما بقدرته، فلما صرت تحت العرش نظرت فإذا أنا بعلي بن أبي طالب واقفاً تحت عرش ربي فقلت: يا علي سبقتني؟ فقال لي جبرئيل «عليه السلام»: يا محمد، مَن هذا الذي يكلمك؟) ولعل الصحيح: مَن هذا الذي تكلمه؟ (قلت: هذا أخي علي بن أبي طالب، قال لي: يا محمد، ليس هذا علياً، ولكنه ملك من ملائكة الرحمان، خلقه الله على صورة علي بن أبي طالب «عليه السلام» فنحن الملائكة المقربون كلما اشتقنا إلى وجه علي بن أبي طالب زرنا هذا الملك لكرامة علي بن أبي طالب على الله «سبحانه»). ثم أضاف الكراجكي: فيصح على هذا الوجه أن يكون الذين رآهم رسول الله ملائكة على صورة الائمة «عليهم السلام»، وجميع ذلك داخل في باب التجويز والإمكان والحمد لله[1].

والكراجكي يحاول من جهة أن الرواية عامية أن يُثبت صحتها، والحال أن الإمام علي بن موسى الرضا «عليه السلام» حذّر من بعض المرويات الغريبة التي جاءت من هذا القبيل، فعن إبراهيم بن أبي محمود: (قلت للرضا «عليه السلام»: يا بن رسول الله، إن عندنا أخباراً في فضائل أمير المؤمنين «عليه السلام» وفضلكم أهل البيت، وهي من رواية مخالفيكم، ولا نعرف مثلها عندكم، أفنُدين بها؟ فقال: يا بن أبي محمود، لقد أخبرني أبي عن أبيه عن

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٢٩٩-٣٠٠.

جده «عليهم السلام» أن رسول الله «صلى الله عليه وآله» قال: مَن أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق عن الله «عز وجل» فقد عبد الله، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس. ثم قال الرضا «عليه السلام»: يا بن أبي محمود، إن مخالفينا وضعوا أخباراً في فضائلنا وجعلوها على ثلاثة أقسام: أحدها الغلو، وثانيها التقصير في أمرنا، وثالثها التصريح بمثالب أعدائنا، فإذا سمع الناس الغلو فينا كفّروا شيعتنا ونسبوهم إلى القول بربوبيتنا، وإذا سمعوا التقصير اعتقدوه فينا، وإذا سمعوا مثالب أعدائنا بأسمائهم ثلبونا بأسمائنا، وقد قال الله «عز وجل»: ﴿**وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾[1].

ثم لو كانت أسماء الأئمة معروفة ومتداولة بهذه الصورة لما انقسم الشيعة مختلفين في مَن هو الإمام بعد وفاة الإمام الذي سبقه، ولما صار الناس في فتنة من حين إلى آخر، كما جرى بعد استشهاد الإمام الصادق «عليه السلام»، حيث اعتقد الناس بإمامة ابنه عبدالله الأفطح، فظهرت الفطحية، ومَن قال البعض بإمامة إسماعيل ابن الصادق وظهرت الإسماعيلية، ثم الذين وقفوا على الإمام الكاظم «عليه السلام»، فظهرت الواقفة، وهكذا غيرهم كثير، إلى استشهاد الإمام الحسن العسكري «عليه السلام». والرواية التالية جاءت في نفس هذا الإطار، وفيها إضافة على تصوير الملك على هيئة أمير المؤمنين:

○ عن الإمام الحسين «عليه السلام» أنه قال: (سمعت جدي رسول الله «صلى الله عليه وآله» يقول: ليلة أسرى بي ربي «عز وجل» رأيت في بطنان

١. سورة الأنعام: ١٠٨. والرواية وردت في عيون أخبار الرضا للصدوق، ج١، ص٣٠٤.

العرش) أي وسطه (ملَكاً بيده سيف من نور يلعب به كما يلعب علي بن أبي طالب «عليه السلام» بذي الفقار، وإن الملائكة إذا اشتاقوا إلى علي بن أبي طالب نظروا إلى وجه ذلك الملك. فقلت: يا رب، هذا أخي علي بن أبي طالب وابن عمي؟ فقال: يا محمد، هذا ملك خلقته على صورة علي، يعبدني في بطنان عرشي، تُكتب حسناته وتسبيحه وتقديسه لعلي بن أبي طالب إلى يوم القيامة)[١].

وجاء راوٍ آخر وأضاف عنصراً آخر في الرواية:

○ عن الأعمش عن جعفر بن محمد، عن أبيه «عليهما السلام»، قال: (فلما ضربه اللعين ابن ملجم على رأسه، صارت تلك الضربة في صورته التي في السماء، فالملائكة ينظرون إليه غدوة وعشية، ويلعنون قاتله ابن ملجم، فلما قُتل الحسين بن علي «عليه السلام» هبطت الملائكة وحملته حتى أوقفته مع صورة علي في السماء الخامسة، فكلما هبطت الملائكة من السماوات مِن عُلا، وصعدت ملائكة السماء الدنيا فمن فوقها إلى السماء الخامسة لزيارة صورة علي والنظر إليه وإلى الحسين بن علي مشحطاً بدمه، لعنوا يزيد وابن زياد ومن قاتلوا الحسين بن علي «عليه السلام» إلى يوم القيامة. قال الأعمش: قال لي جعفر بن محمد الصادق «عليه السلام»: هذا من مكنون العلم ومخزونه لا تُخرجه إلا إلى أهله)[٢].

ويتجاوز الراوي في الخبر التالي كل ما سبق ليقدّم معلومات جديدة

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣٥٣-٣٥٤.
٢. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣١٦.

تتحدث عما يشبه المركبة الفضائية بدلاً عن البراق، وعن حضور الإمام علي في المسجد الأقصى في الإسراء لا المعراج، وعن خروج الأنبياء من قبورهم في بيت المقدس، وهم بالآلاف، وصلاتهم خلف النبي، وهو ما أثار تساؤلات وشكوك عند السيد ابن طاوس، دفعته إلى احتمال كون هذا الإسراء مختلفاً عن الإسراء الذي تحدّث عنه القرآن الكريم ! وسنذكر تعليق ابن طاوس بعد الانتهاء من عرض الخبر.

○ قال السيد ابن طاووس في كتابه «سعد السعود»: (رأيت في تفسير ما نزل من القرآن في النبي وأهل بيته «صلوات الله عليهم» تأليف محمد بن العباس بن علي بن مروان: حدثنا الحسين بن محمد بن سعيد، عن محمد بن البيض بن الفياض، عن إبراهيم بن عبدالله بن همام، عن عبدالرزاق، عن معمر، عن ابن حماد، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله «صلى الله عليه وآله»: بينما أنا في الحجر إذ أتاني جبرئيل فهمزني برجلي فاستيقظت، فلم أر شيئاً، ثم أتاني الثانية فهمزني برجلي فاستيقظت، فأخذ بضبعي فوضعني في شيء كوكَرِ الطير) وهنا تختلف هذه الرواية مع كل الروايات السابقة التي تتحدث عن البراق كوسيلة للنقل، فهذه الرواية تتحدث عن شئ شبيه بالمركبة الدائرية المفرّغة (فلما طرقت ببصري طرفة، فرجعت إليّ وأنا في مكان ! فقال: أتدري أين أنت؟ فقلت: لا يا جبرئيل، فقال: هذا بيت المقدس، بيت الله الأقصى، فيه المحشر والمنشر) قد يقال أن لهذا التبجيل ببيت المقدس دلالة على إسرائيلية الرواية (ثم قام جبرئيل فوضع سبابته اليمنى في أذنه اليمنى فأذّن مثنى مثنى يقول في آخرها: حي على خير العمل مثنى مثنى، حتى إذا

قضى أذانه أقام الصلاة مثنى مثنى، وقال في آخرها: قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة فبرق نور من السماء ففتحت به قبور الأنبياء، فأقبلوا من كل أوْب) جهة وناحية (يلبّون دعوة جبرئيل، فوافى أربعة آلاف وأربعمائة نبي، وأربعة عشر نبياً، فأخذوا مصافهم ولا أشك أن جبرئيل سيتقدمنا، فلما استووا على مصافهم أخذ جبرئيل بضبعي، ثم قال لي: يا محمد، تقدّم فصلِّ بإخوانك، فالخاتم أولى من المختوم ، فالتفت عن يميني وإذا أنا بأبي إبراهيم «عليه السلام» عليه حلّتان خضراوان، وعن يمينه ملَكان، وعن يساره ملَكان ، ثم التفت عن يساري وإذا أنا بأخي ووصيي علي بن أبي طالب، عليه حلّتان بيضاوان، عن يمينه ملكان، وعن يساره ملكان، فاهتززت سروراً، فغمزني جبرئيل «عليه السلام» بيده، فلما انقضت الصلاة قمت إلى إبراهيم «عليه السلام» فقام إليّ فصافحني، وأخذ بيميني بكلتا يديه، وقال: مرحباً بالنبي الصالح، والابن الصالح، والمبعوث الصالح في الزمان الصالح، وقام إلى علي بن أبي طالب فصافحه وأخذ بيمينه بكلتا يديه، وقال: مرحباً بالابن الصالح، ووصي النبي الصالح يا أبا الحسن، فقلت له: يا أبت، كنَّيته بأبي الحسن ولا ولد له؟ فقال: كذلك وجدته في صحفي، وعلم غيب ربي باسمه علي، وكنيته بأبي الحسن والحسين، ووصي خاتم أنبياء ربي. ثم قال في بعض تمام الحديث ما هذا لفظه: ثم أصبحنا بالأبطح نشطين، لم يباشرنا عناء وإني محدثكم بهذا الحديث ، وسيكذب قوم ، وهو الحق فلا تمترون)[1].

وقد احتمل السيد ابن طاووس - في تعليق له بعد إيراد الخبر - أن هذا

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣١٧-٣١٨.

الإسراء كان دفعة أخرى غير ما هو مشهور، فإن الأخبار وردت مختلفة في صفات الإسراء، ولعل الحاضرين من الأنبياء كانوا في هذه الحال دون الأنبياء الذين حضروا في الإسراء الآخر، لأن عدد الأنبياء الأخيار مائة ألف نبي وأربعة وعشرون نبياً، ولعل الحاضرين من الأنبياء كانوا في هذه هم المرسلون، أو من له خاصية وسرٌّ مصون).

ثم دفع السيد ابن طاوس استبعاد الخبر لغرابته وتفرّده بقوله: (وليس كل ما جرى من خصائص النبي وعلي «صلوات الله عليهما» عرفناه. وكلما يحتمله العقل وذكره الله «جل جلاله» لا يجوز التكذيب في معناه، وقد ذكرتُ في عدة مجلدات ومصنفات أنه حيث ارتضى الله «جل جلاله» عبده لمعرفته وشرفه لخدمته، فكلما يكون بعد ذلك من الإنعام والإكرام فهو دون هذا المقام، ولا سيما أنه برواية الرجال الذين لا يُتّهمون في نقل فضل مولانا علي بن أبي طالب «عليه أفضل الصلاة والسلام»)[1].

والرواية ليست تامة السند كما يُفهَم من كلام السيد ابن طاوس كي يقول: (ولا سيما أنه برواية الرجال الذين لا يُتّهمون في نقل فضل مولانا علي بن أبي طالب)، ولم يوضّح كيف وصل الإمام علي «عليه السلام» إلى بيت المقدس، ومن أين جاء بالحلّتين البيضاوين، ولماذا لا نجد ذكراً للإسراء بعلي إلى المسجد الأقصى، ولماذا لم يتحدّث هو - ولو بعد وفاة النبي - عن هذه الحادثة، في الوقت الذي نجده يتحدث عن وجوده بجانب النبي حين نزل عليه الوحي كما جاء في الخطبة القاصعة المروية في نهج البلاغة.

---

١. المجلسي: بحار الأنوار، ج١٨، ص ٣١٨.

وإذا كانت الروايات التي سبقتها قد اعتبرت أن الله مثّل ملاكاً أو جعل صورة تشبه علياً، فإن هذا الاحتمال منتفٍ في هذه الرواية بلحاظ الحوار الذي دار بينه وبين رسول الله «صلى الله عليه وآله»، ومع النبي إبراهيم «عليه السلام»، بما يدلّ على أن علياً بنفسه كان حاضراً بتلك الصورة.

• هل المراد من المسجد الأقصى مسجد بيت المقدس؟

قال البعض بأن «المسجد الأقصى» الذي أسري إليه النبي «صلى الله عليه وآله» لا يقع في القدس، بل في الجزيرة العربية على حدود الحرم المكي. قالوا: إن المسجد الأقصى موجود في أرض الحجاز في المملكة العربية السعودية وفي منطقة تسمى «الجِعِرَّانة» وهي تقع شمال مدينة مكة بـ٢٩ كيلومتراً، وفي وادي العدوة القصوى التي ما زال اسمها يستعمل حتى اليوم. واستشهد الكاتب بعدة روايات من بينها:

في كتاب «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار» للأزرقي: (قال محمد بن طارق: اتفقت أنا ومجاهد بالجعرانة فأخبرني أن المسجد الأقصى الذي من وراء الوادي بالعدوة القصوى مصلى النبي كان بالجعرانة، أما هذا المسجد الأدنى فإنما بناه رجل من قريش)[١].

وفي مسند أبي يعلى عن أم سلمة: (أنها سمعت رسول الله يقول: من أهلَّ بحجة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أو وجبت له الجنة)[٢].

١. الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج ٢، ص ٢٠٧.

٢. أبو يعلى: المسند، ج١٢، ص٣٥٩.

وأضيف بأن المسجد الأقصى الواقع حالياً في القدس لم يُعرَف بهذا الاسم على عهد النبي «صلى الله عليه وآله»، خاصة وأن استعمال مصطلح «مسجد» للدلالة على مكان العبادة تم في العهد الإسلامي، بينما المفترض أن الموجود في القدس سابق عهداً على ذلك.

ويمكن الرد على ما سبق ببيان أن القرآن استعمل مصطلح «مسجد» على المكان المخصص للعبادة قبل الإسلام. قال «تعالى»: ﴿**وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىأَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً**﴾[1]. ﴿**يَا بَنِي آدَمَ ..... يَا بَنِي آدَمَ ..... قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ..... يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾[2].

ثم لم يُعهَد أن أسّس النبي في العهد المكي مسجداً وكان مصلاه في الجعرانة ليُعرف باسم «المسجد الأقصى». وأوّل مسجد أسَّسه النبي كان في «قباء» عند الهجرة إلى المدينة.

وتسمية مسجد الجعرانة بأنه المسجد الأقصى لا يعني أنه المقصود في الآية، لأنه مجرد وصف يدل على البعد المكاني، ويمكن أن ينطبق على أكثر من مسجد. ثم ما أهمية المسير إلى مسجد يقع على بعد ٢٩ كم من مكة، ليُعبَّر

١. سورة الكهف: ٢١.

٢. سورة الأعراف: ٢٦-٣١.

عنه بهذه الفخامة: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى﴾؟ وما خصوصيته ليقال أنه ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾؟

• المسجد الحرام أم بيت أم هانئ ؟

كما شهدنا محاولة معاصرة للعبث في المراد من المسجد الأقصى، سبقت ذلك بزمن طويل محاولة للعبث في مبدأ ومنطلق الإسراء، أي المسجد الحرام. ففي الوقت الذي يصرّح فيه القرآن بأن الإسراء تمّ من خصوص المسجد الحرام تأتي بعض الروايات لتخالف ذلك، معتبرةً أن الإسراء تم من بيت أم هانئ بنت أبي طالب.

ولو كانت الآية قد ذكرت مكة بدلاً عن المسجد الحرام لكان ذلك مقبولاً، ولكن مع التصريح بالمسجد الحرام هل يبقى مجال لقبول الرواية التالية ؟

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة، قال: ثنا محمد بن إسحاق، قال: ثني محمد بن السائب، عن أبي صالح بن باذام عن أمّ هانىء بنت أبي طالب، في مسرى النبيّ «صلى الله عليه وسلم»، أنها كانت تقول: (ما أُسري برسول الله «صلى الله عليه وسلم» إلاَّ وهو في بيتي نائم عندي تلك الليلة، فصلى العشاء الآخرة، ثم نام ونمنا، فلما كان قُبَيل الفجر، أهبَّنا رسول الله «صلى الله عليه وسلم»، فلما صلى الصبح وصلينا معه قال: يا أُمَّ هانىءٍ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَكُمُ العِشاءَ الآخِرَةِ كمَا رأيْت بهَذَا الوَادِي، ثُمَّ جِئْتُ بَيْتَ المَقْدِسِ فَصَلَّيْتُ فِيهِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاةَ الغَدَاةِ مَعَكُمُ الآنَ كمَا تَرَيْنَ)[1].

راوي الرواية: أبو صالح باذام أو باذان، وكان مولى لأم هانئ، من الفرس

١. ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٣، ص٢٢.

الذين عاشوا في اليمن، وصار في مُلك أم هانئ بعد أن كان مُلكاً لابنها جعدة، فأعتقته. كَتب بعد ذلك تفسيراً للقرآن ونسبه إلى ابن عباس ! وقيل أنه لم يسمع منه رواية ! وعن حبيب بن أبي ثابت: (كنا نسمي أبا صالح مولى أم هانىء الدروغزن). وفي الفاصل للرامهرمزي: (الدروغزن بلغة فارس: الكذاب). وروي عنه أنه قال في مرضه: (كل شيء حدثتكم به فهو كذب)[١]!

• خاتمة:

في ختام هذا البحث لابدّ من التنويه إلى أنّ اختلاف وجهات النظر أمر طبيعي، ولابد من فتح المجال للتفكير والنقاش والبحث في الإطار العلمي، وإذا كان الناس قد اعتادوا على سماع وجهة نظر واحدة متّفق عليها لمدّة طويلة من الزمن، أو كان الأمر مشهوراً بينهم، فإنّ هذا لا يعني بالضرورة صحة ذلك، فقد يستمر الخطأ لقرون مديدة تتداوله الأجيال على أنه حقيقة لا لَبس فيها، ولربما يضعون لها عنواناً دينياً مقدّساً، ثم يتفاجأ جيل من هذه الأجيال بأنّ تصوراتهم السابقة كانت خاطئة تماماً، وأن الحقيقة في اتجاه مغاير تماماً.

وهناك أمثلة كثيرة، أبسطها اعتقاد الناس أن الأرض هي مركز الكون والوجود، وأن الشمس والنجوم والكواكب إنما تدور حول هذا المركز، وقد أعطى المسيحيون لهذه الفكرة -على مدى قرون ممتدة- قدسية منطلقة من أن تواجد المسيح على الأرض لبرهة من الزمن ثم عودته إليها عند قيامته لاحقاً لا يدع مجالاً لافتراض أن الأرض ليست مركزاً للكون... ثم تبيّن خطأ هذا كله ! فلنكن أتباع الدليل فحسب، لأن الظن لا يغني من الحق شيئاً.

---

١. البيهقي: السنن الكبرى، ج٤، هامش ص٤٦١.

ملحق

مصادر الكتاب
وإصدارات المؤلف

مصادر الكتاب

المصادر العربية

١. القرآن الكريم
٢. الكتاب المقدس
٣. أبو الأنبياء: محمود عباس العقاد
٤. إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: محمد بن محمد الحسيني الزبيدي
٥. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي
٦. آدم والتاريخ: علي المخلبي
٧. أصول الحديث: عبدالهادي الفضلي
٨. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: محمد الأمين الشنقيطي
٩. أضواء على الصحيحين: محمد صادق النجمي
١٠. الأعلام: خير الدين الزركلي
١١. الأغاني: علي بن الحسين بن محمد الأصفهاني
١٢. إكمال الدين: محمد بن علي الصدوق
١٣. الأمالي: محمد بن علي الصدوق
١٤. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ناصر مكارم شيرازي
١٥. بحار الأنوار: محمد باقر المجلسي
١٦. البدء والتاريخ: محمد بن عبدالله المقدسي
١٧. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي
١٨. البداية والنهاية: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي
١٩. بهجة النفوس والأسرار في تاريخ دار هجرة النبي المختار: عبدالله المرجاني
٢٠. تاريخ الإسلام: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي
٢١.

٢٢. تاريخ الأمم والملوك: محمد بن جرير الطبري
٢٣. تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس: حسين بن محمد الدِّيار بَكري
٢٤. تاريخ دمشق: علي بن الحسن المعروف بابن عساكر
٢٥. التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور
٢٦. الترغيب والترهيب: عبد العظيم بن عبد القوي المنذري
٢٧. تسنيم في تفسير القرآن: عبدالله جوادي آملي
٢٨. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس: مجموعة محررين
٢٩. تفسير القرآن العظيم: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي
٣٠. تفسير القرآن: الإمام الحسن العسكري
٣١. تفسير القرآن: علي بن إبراهيم القمي
٣٢. تفسير القرآن: محمد بن مسعود العياشي
٣٣. التفسير الكبير: الفخر الرازي
٣٤. تفسير المنار: محمد رشيد رضا
٣٥. التلمود البابلي
٣٦. التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: يوسف بن عبد البرّ النمري
٣٧. تهذيب الأصول: روح الله الموسوي الخميني
٣٨. التيجان في ملوك حمير: وهب بن منبه
٣٩. جامع البيان في تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري
٤٠. الجامع الصغير: سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني
٤١. الجامع المسند الصحيح: محمد بن إسماعيل البخاري
٤٢. جامع بيان العلم وفضله: يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر
٤٣. الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي
٤٤. حجية الحديث: حيدر حب الله
٤٥. الحضارات السامية المبكرة: خزعل الماجدي
٤٦. حياة محمد: محمد حسين هيكل
٤٧. الخصال: محمد بن علي الصدوق
٤٨. الدر المنثور: جلال الدين السيوطي
٤٩. دقائق الأخبار في ذكر الجنة والنار: عبد الرحيم بن أحمد القاضي

٥٠. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: محمود بن عبد الله
٥١. الحسيني الألوسي
٥٢. روضة المتقين في مصنوعات رب العالمين: محمد عبد اللطيف بن فرشته بن
٥٣. ملك الكرماني
٥٤. سبل الهدى والرشاد: محمد بن يوسف الصالحي الشامي
٥٥. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: عبدالملك العاصمي
٥٦. السنن: أبوالحسن علي الدارقطني
٥٧. السيرة النبوية: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري
٥٨. شبهة الغلو عند الشيعة: عبدالرسول الغفار
٥٩. شرح أصول الكافي: محمد صالح المازندراني
٦٠. شرح نهج البلاغة: عبد الحميد بن هبة الله بن محمد المعروف بابن أبي
٦١. الحديد المعتزلي
٦٢. عرائس المجالس: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي
٦٣. عقائد الإسلام من القرآن الكريم: مرتضى العسكري
٦٤. العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت: جعفرالسبحاني
٦٥. علل الشرائع: محمد بن علي الصدوق
٦٦. علل الشرائع: محمد بن علي الصدوق
٦٧. عيون أخبار الرضا: محمد بن علي الصدوق
٦٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
٦٩. فقه السيرة: محمد الغزالي السقا
٧٠. الفهرست: محمد بن الحسن الطوسي
٧١. الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة: محمد بن علي الشوكاني
٧٢. في علم مصطلح الحديث: زين الدين العاملي
٧٣. قاموس الكتاب المقدس: مجمع الكنائس الشرقية
٧٤. الكافي : محمد بن يعقوب الكليني
٧٥. كتاب الاجتهاد والتقليد من التنقيح في شرح العروة الوثقى: أبو القاسم الخوئي
٧٦. الكشاف: جار الله الزمخشري
٧٧. لسان العرب: ابن منظور الأفريقي

٧٨. لغة القرآن، مسائلها وقضاياها: مجموعة مؤلفين
٧٩. مجلة تراثنا: مؤسسة آل البيت
٨٠. مجمع البيان في تفسير القرآن: الفضل بن الحسن الطبرسي
٨١. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: علي بن محمد الهروي القاري
٨٢. المستدرك على الصحيحين: محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري
٨٣. المسند الصحيح المختصر أو صحيح مسلم: مسلم بن الحجاج القشيري
٨٤. المسند: أبو بكر البزار
٨٥. المسند: أبو يعلى الموصلي
٨٦. المسند: أحمد بن حنبل
٨٧. مشرعة بحار الأنوار: آصف محسني
٨٨. معالم التنزيل: الحسين بن مسعود البغوي
٨٩. المعتبر من بحار الأنوار: آصف محسني
٩٠. المعجم الكبير: سليمان بن أحمد الطبراني
٩١. المغازي: محمد بن عمر الواقدي
٩٢. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة.. حضارة وادي النيل: طه باقر
٩٣. مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة: طه باقر
٩٤. من وحي القرآن: محمد حسين فضل الله
٩٥. المواهب اللدنية بالمنح المحمدية: أحمد بن محمد القسطلاني
٩٦. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة: يوسف الحاج أحمد
٩٧. موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: مركز تفسير للدراسات القرآنية
٩٨. الميزان في تفسير القرآن: محمد حسين الطباطبائي
٩٩. نهاية الأرب في فنون الأدب: شهاب الدين النويري
١٠٠. وسائل الشيعة: محمد بن الحسن الحر العاملي

المصادر الأجنبية

1. Biographical Texts From Ramessid Egypt: E. Frood
2. Egyptian Magic: C. Jacq
3. Encyclopaedia Of Islām: A Dictionary Of The Geography, Ethnography And Biography Of The Muhammadan Peoples
4. Encyclopaedia Of The Qur'an: A. H. Jone
5. Haman's Transition from The Jahiliyya to Islam: Adam Silverstein
6. Middle Egyptian: An Introduction To The Language And Culture Of Hiero glyphs: J. P. Allen
7. Pharaoh Triumphant: The Life And Times Of Ramesses II, King Of Egypt: K. A. Kitchen
8. Religious Lie In Ancient Egypt: Sir. F. Petrie
9. Urkunden der 18. Dynastie: Historisch-biographische Urkunden

مواقع الإنترنت

1. arabicholybible.files.wordpress.com
2. biblehub.com
3. call-of-hope.com
4. dtorah.com
5. hadithportal.com
6. injeel.com
7. ipfs.io
8. mfa.gov.il
9. nutritionride.com
10. sound.islamstory.com
11. st-takla.org
12. unbound.biola.edu

13. vegan.yoo7.com
14. www.academia.edu
15. www.adab.com
16. www.addustour.com/www.myjewishlearning.com
17. www.altabliq.com
18. www.alukah.net
19. www.askmoses.com
20. www.babynamespedia.com
21. www.bible-studys.org
22. www.biblestudytools.com
23. www.chabad.org/parshah
24. www.deltaoceanographics.com
25. www.eupedia.com
26. www.gerasanews.com
27. www.gty.org
28. www.gty.org/library
29. www.islamic-awareness.org
30. www.jewishencyclopedia.com
31. www.jewishencyclopedia.com
32. www.jewishvirtuallibrary.org
33. www.maaber.org
34. www.masress.com
35. www.minhajsalafi.com
36. www.quora.com
37. www.sacred-texts.com
38. www.sciencealert.com
39. www.sciencenews.orgwww.thetorah.com
40. www.sudaress.com
41. www.worldacademy.org
42. www.yeshiva.co

ملحق

إصدارات المؤلف

١. آفاق الجمعة: روح وفكر
٢. أحبك يا ربي: كتيب للأذكار مخصص للأطفال
٣. أحكام الحدث الأكبر
٤. أحكام الدماء الثلاثة
٥. أحكام المريض والمصاب
٦. أخلاقيات الطب وآدابه
٧. أخلاقيات المهن الحقوقية وآدابها
٨. إضاءات على فكر الفقيه المجدد السيد فضل الله
٩. أطلس واقعة الطف
١٠. إليكِ يا ابنتي
١١. إليك يا ولدي
١٢. بساتين الإيمان: ٤ كتب دراسية في التربية الإسلامية للمرحلة المتوسطة
١٣. حروب الردة: الحقيقة والأساطير
١٤. الدرة الثمينة في أعمال مكة والمدينة
١٥. الدليل: مرشد الزائرين للعتبات المقدسة في إيران
١٦. رسالة المسجد
١٧. زوجتي العزيزة
١٨. زوجي العزيز
١٩. زينة الحياة
٢٠. حدائق الإيمان: ٥ كتب دراسية في التربية الإسلامية للمرحلة الابتدائية

٢١. السيرة العسكرية لأمير المؤمنين علي
٢٢. السيرة العسكرية لسيد المرسلين محمد
٢٣. الشعائر الحسينية
٢٤. شهداء على أرض فخ
٢٥. صلاة الجمعة
٢٦. طريق سعادتي، صدر بثلاث لغات (العربية - الإنجليزية - الهندية)
٢٧. الغناء في ميزان الشرع
٢٧. فراس: قصة للأطفال
٢٨. فك لغز الأسباط... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٢٩. لا فتى إلا علي
٣٠. للشباب فقط
٣١. ليالي عاشوراء (٩ أجزاء)
٣٢. المآتم الحسينية... أهداف وتطلعات
٣٣. محطات في الفكر والسياسة والأدب
٣٤. المرأة والستر الشرعي
٣٥. مفاهيم حركية من وحي القرآن (في مجلدين)
٣٦. من هدي الإمام المجتبى... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٣٧. من هدي أمير المؤمنين... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٣٨. من هدي الزهراء... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٣٩. من هدي سيد الشهداء... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٤٠. من هدي النبي الأكرم... صدر باللغتين، العربية والفارسية
٤١. المنبر الحسيني: أفكار ورؤى الفقيه المجدد السيد فضل الله
٤٢. منتقى الجمان من مفاتيح الجنان
٤٣. منتقيات (١٠ أجزاء)
٤٤. المنهج الرسالي في التفسير القرآني عند السيد محمد حسين فضل الله
٤٥. ميثولوجيا الخضر
٤٦. وداع الأحبة

إصدارات أخرى متنوعة

١. ١٤ برنامج حاسب آلي في موضوعات مختلفة.
٢. إصدار أسبوعي لصفحة دينية متخصصة بعنوان منتقى الجمان صدرت في
٣. الكويت في جريدة الوطن لمدة ٩ سنوات متتالية.
٤. ١٦ حلقة رسوم متحركة تربوية للأطفال بعنوان مغامرات عجيب.
٥. عدة تمثيليات وبرامج إذاعية.
٦. أفلام توضيحية لتحديد بدايات الأشهر وفق فتاوى المراجع
٧. قصص وعِبر: أفلام كرتونية من سيرة أهل البيت.
٨. واقعة كربلاء: فيلم كرتوني صدربثلاث لغات (العربية - الإنجليزية - الفرنسية)
٩. سلسلة فن الحياة: مفاهيم ونصوص من حِكم أمير المؤمنين علي
١٠ مقاطع فيديو بعنوان: سلسلة آداب المساجد
١١. مقاطع فيديو بعنوان: سلسلة ما جعل عليكم في الدين من حرج
١٢. مقاطع فيديو حول: أحكام الحج والعمرة
١٣. مقاطع فيديو حول مسائل فقهية متنوعة
١٤. تطبيق الولاء
١٥. تطبيق مؤلفاتي
١٦. تطبيق المرشد لأحكام الحج
١٧. تطبيق وهم الإلحاد
١٨. تطبيق وصية